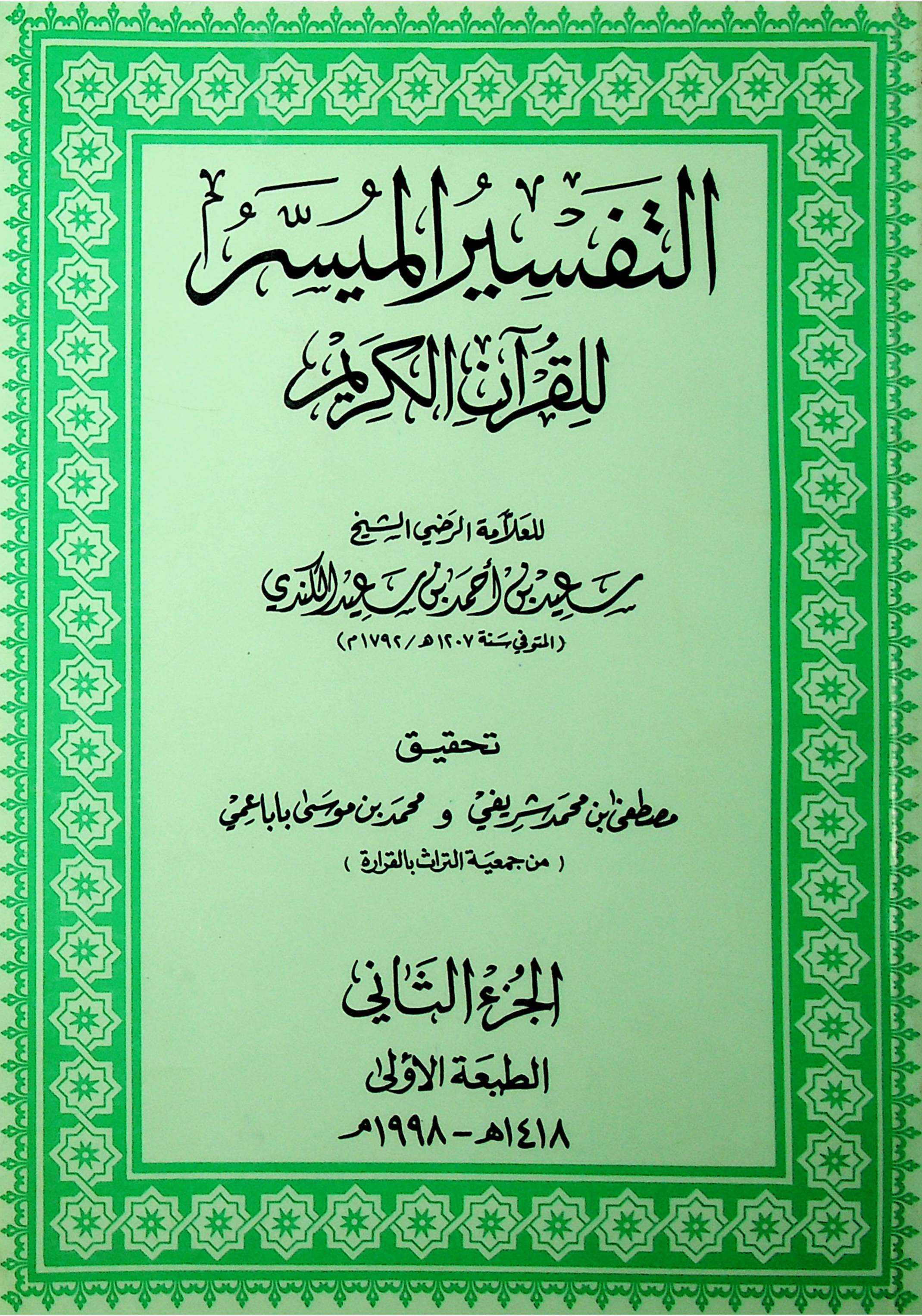
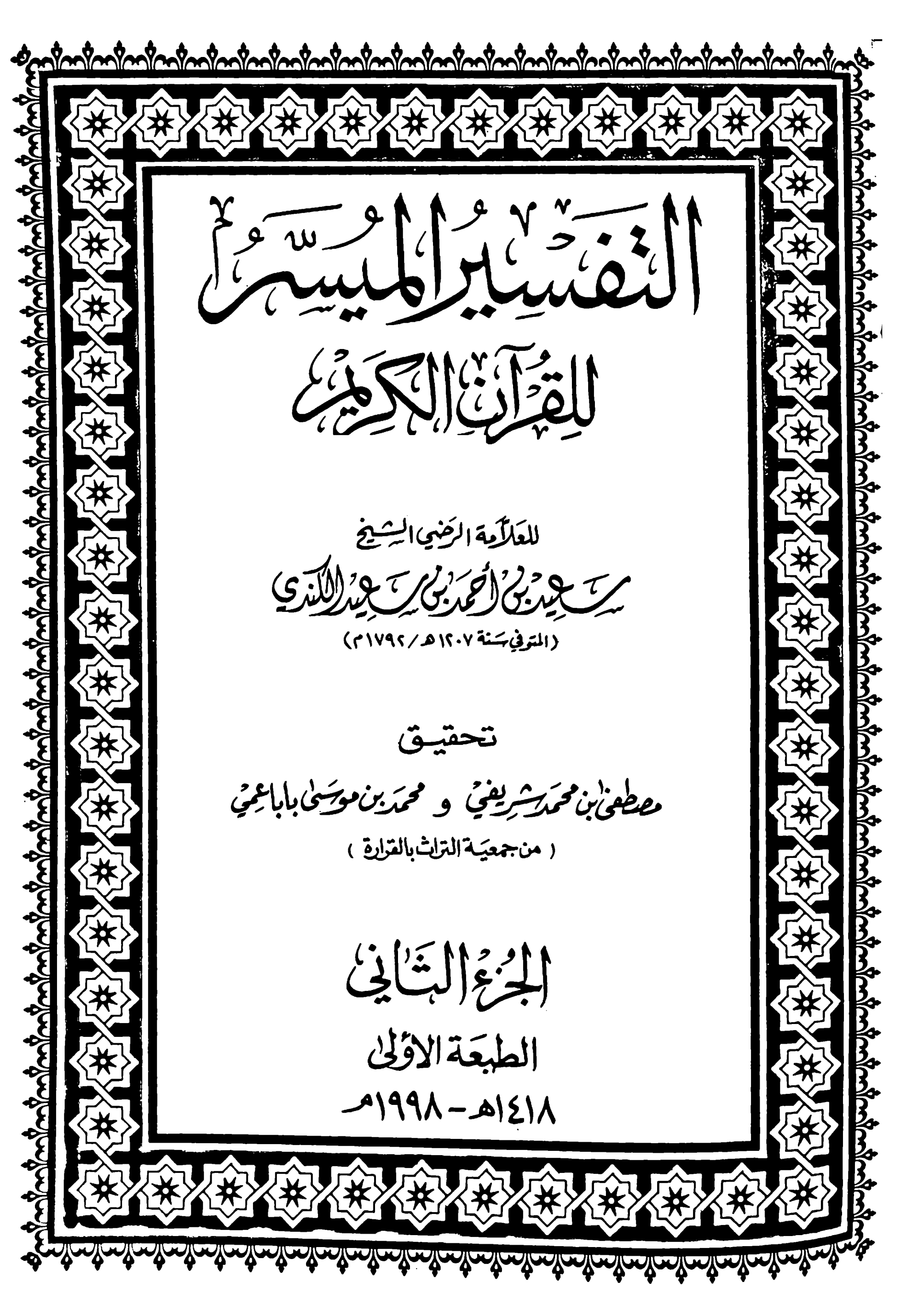

التفسير الميسر
للقرآن الكريم
للعلامة الرضي الشيخ
سعيد بن أحمد بن سعيد الكندي
(المتوفى سنة ١٢٠٧هـ / ١٧٩٢م)
تحقيق
مصطفى بن محمد شريفي و محمد بن موسى باباعمي
( من جمعية التراث بالقرارة )
الجزء الثاني
الطبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٨م



# التفسير الميسر للقرآن الكريم


للعلامة الرضي الشيخ

**سعيد بن أحمد بن سعيد الكندي**

(المتوفى سنة ١٢٠٧هـ / ١٧٩٢م)

تحقيق

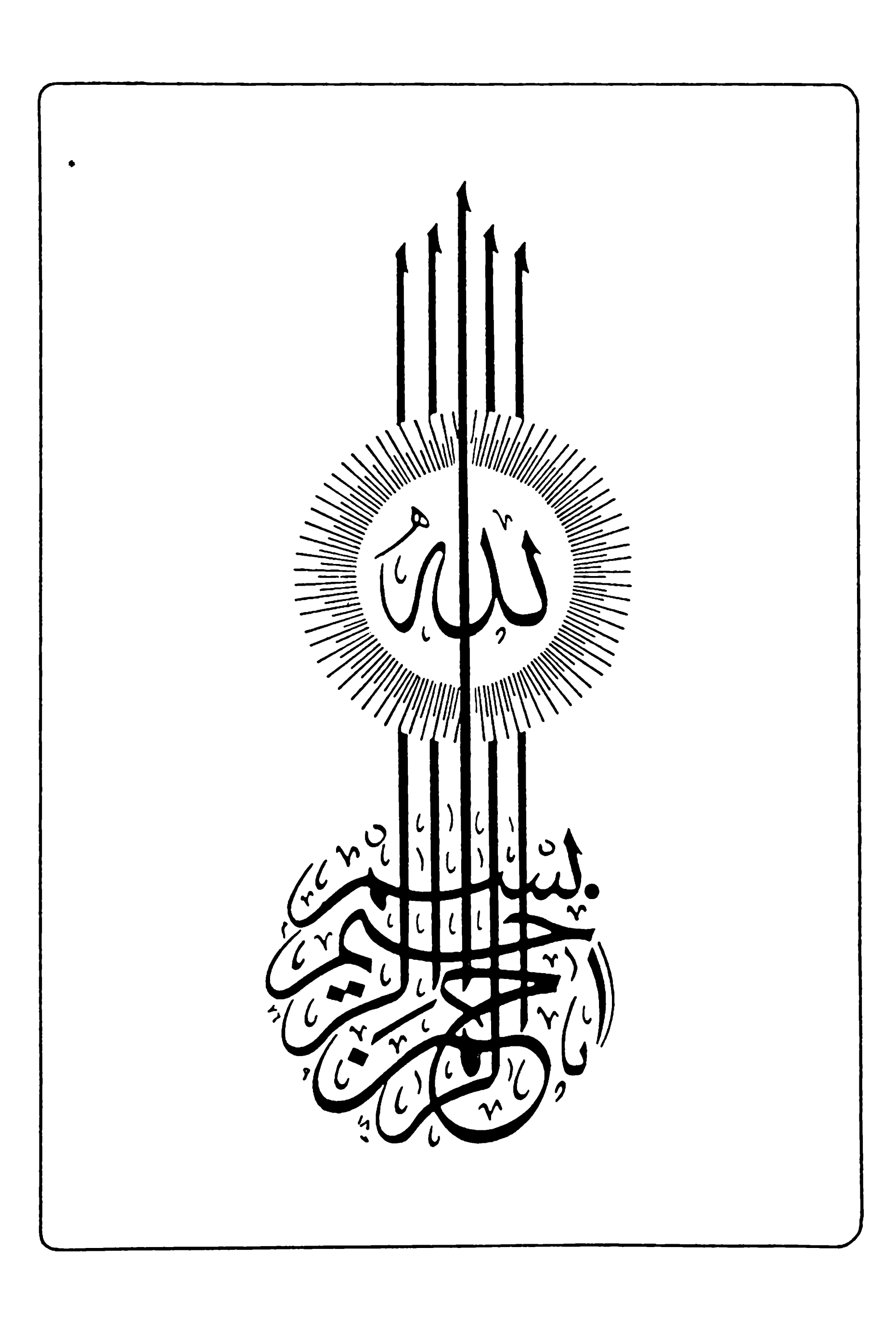
**مصطفى بن محمد شريفي و محمد بن موسى باباعمي**

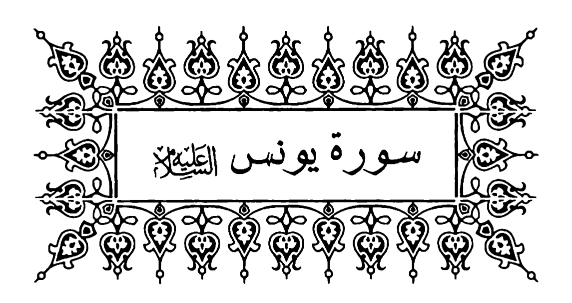
( من جمعية التراث بالقرارة )


## الجزء الثاني


الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م


الله
بسم الله الرحمن الرحيم




بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر تلك آياتُ الكتابِ الحكيم(١)﴾ الكتاب: إشارة إلىَ مَا تَضمـَّنته السورة مِنَ الآيات، ﴿أكَانَ للناس عَجَبا﴾؟ لإنكار التعجُّب، ﴿أن أوحينا إلىَ رجل مِنْهُم أنْ أَنذِر الناسَ وبشِّر الذِينَ آمنوا﴾ من أفناءِ[1] رجالهم دون عظيم من عظمائهم[2]، قيل: كَانُوا يقولون: العجبُ أنَّ الله لم يجد رسولا يرسله إلىَ الناس إلاَّ يتيمَ أبي طالب؛ لقوله: ﴿لولا نُزلَ[3] هَذَا القرآن عَلَى رجلٍ مِنَ القريتين عظيم﴾[4] وذلك من فرط حماقتهم، وقصور نظرهم عَلَى الأمور العاجلة، ﴿أنَّ لَهُم﴾ بِأنَّ لَهُم. ومعنى: فِي «للناس» [كَذَا] أنـَّهم جعلوا لَهُم أُعجوبة يتعجَّبون مِنْهُ؛ والذي تعجَّبوا مِنْهُ أن يوحى إلىَ بشر، وأن يكون رجلاً من سائرهم يرسله إلىَ الناس، وأن يذكِّرهم بالبعث وينذِر بالنيران، ويبشرَ بالجنان؛ وكلُّ وَاحِد من هَذِهِ الأمور ليس بعجب، لأنَّ الرسل المبعوثين إلىَ الأمم، لم يكونوا إلاَّ بَشَرا

---

١ - «رجل من أفناء الناس: أي لا يُدرى من أي قبيلة هو، وَقِيلَ: إنـَّمَا يقال: قوم من أفناء القبائل ولا يقال رجل». ابن منظور: لسان العرب، ١١٣٩/٤.

٢ - في الأصل: «عظائمهم»، وهو خطأ.

٣ - في الأصل: «يزال»، وهو خطأ من الناسخ.

٤ - سورة الزخرف: ٣١.

مثلهم؛ وإرسال اليتيم أو الفقير ليس بعجب أَيْضًا، لأَنَّ الله تعالى إِنَّمَا يختار للنبوَّة من جميع[1] أسبابها، والغِنَى والتقدُّم فِي الدُّنْيَا ليس من أسبابها، والبعث للجزاء عَلَى الخير والشر هُوَ الحكمة العظمى، فكيف يكون عجبًا، إِنَّمَا العجب والمنكَر فِي العقول تعطيل ذَلِكَ. ﴿قَدَمَ صِدقٍ عند رَبِّهم﴾ أي: سابقةً وفضلاً ومنزلةً رفيعةً، ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ: إِنَّ هَـٰذَا﴾ يعنون مُحَمَّدا ﷺ ﴿لساحر مُبِين(٢)﴾ أي: كَذِبٌ بَيِنٌ.

﴿إِنَّ رَبَّكُم الله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَات والأَرْض﴾ التِي [هي] أصول الممكنات ﴿فِي سِتَّة أَيَّام؛ ثُمَّ استوى عَلَى العرش﴾ أي: استولى فقد تقدَّس الديَّان عَن المكَانَ، والمعبود[2] عَن الحدود؛ ﴿يدبِّر﴾ يقضِي ويقدر عَلَى مقضي[3] الحكمة أمر الكائنات، ﴿الأمرَ﴾ أمر الخلق كلّه، وأمر ملكوت السَّمَاوَات والأَرْض والعرش، ولَمَّا ذَكر عَلَى مَا يدلُّ عَلَى عظمة شأنه وملكه، مِن خلق السَّمَاوَات والأَرْض، والاستواء عَلَى العرش، أَتْبَعَهَا هَـٰذِهِ الجملة، لزيادة الدلالة عَلَى العظمة؛ وأنَّه لاَ يخرج مِنَ الأمور[4] من قضائه وتقديره، وكذلك قوله: ﴿مَا من شفيع إِلاَّ مِن بَعدِ إذنه﴾ دليل عَلَى عزه وكبريائه، وقيل: ردٌّ لقولهم: الأصنام شفعاؤنا؛ ﴿ذلكم﴾ العظيم الموصوف

---

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «مَن جمَع أسبابَها».

٢ - فِي الأصل: «المبعود»، وَهُوَ خطأ.

٣ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «مقتضَى».

٤ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «لا تخرج الأمور من قضائه».

بِمَا وُصِف بِهِ. ﴿ا لله ربُّكم﴾ وَهُوَ الذِي يستحقُّ العبادة، ﴿فاعبدوه﴾ ووحدوه وَلاَ تشركوا بِهِ بعضَ خلقه مِنَ إنسان أو مَلَك أو جنٍّ أو إنسٍ أو هواء[1] أو غير ذَلِكَ مِنَ المخلوقات؛ ﴿أفلا تذَّكرُونَ(٣)﴾ أفلا تدَّبـَّرون فتستدلُّون بوجود المصالح والمنافع عَلَى وجود المصلح النافع.

﴿إِلَيْهِ مَرجعُكم جميعا﴾ الحقُّ هُوَ المرجع إِلىَ ا لله؛ فاستعدُّوا للقائه، واحذروا عَن أن [٦٢٧] تُلاقوه مشركين بِهِ شَيْـئًا من مخلوقاته؛ ﴿وعدَ ا لله حقًّا إِنَّهُ يبدأ الخلق ثُمَّ يعيده﴾ للجزاء، لقوله: ﴿ليجزي الذِينَ آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: الحكمةُ بابتداء الحق[2] وإعادته هُوَ جزاء المكلَّفين عَلَى أعمالهم، وغير المكلَّفين خَلَقَه نفعا للمكلَّفين. ﴿بالقسط﴾ بالعدل لاَ بظلم مِنْهُ، كُلٌّ مِنْهُم عَلَى قدر عمله لقوله: ﴿فمن يعمل مثقال ذرَّة خيرًا يره﴾[3]. ﴿وَالذِينَ كَفَرُوا لَهُم شرابٌ من حميم﴾ حارٌّ، ﴿وعذابٍ أليم، بِمَا كَانُوا يكفرُونَ(٤)﴾.

﴿هُوَ الذِي جعل الشمس ضياءً والقمرَ نورا وقدَّره منازلَ﴾ والحكمةُ: ﴿لتعلموا عددَ السنين والحسابِ﴾ حساب الآجال والمواقيت المقدَّرة بالسنين والشهور؛ ﴿مَا خلق ا لله ذَلِكَ﴾ المذكور، ﴿إلاَّ بِالْحَقِّ﴾ الذِي هُوَ الحكمةُ البالغةُ، و لم يخلقه عبثًا؛ ﴿يفصِّل﴾ أي: يُبَيـِنُ ﴿الآيات لقوم يَعْلَمُونَ(٥)﴾ فينتفعون بالتأمُّل فِيهَا.

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «هوًى».

٢ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «الخلق».

٣ - سورة الزلزلة: ٧.

﴿إِنَّ فِي اختلاف الليل والنهار﴾ فِي مجيء كُل وَاحِد منهما خلف الآخر، ﴿وَمَا خَلَقَ ا لله فِي السَّمَاوَات والأَرْض﴾ من شيء، ﴿لآيات لقوم يتّقونَ(٦)﴾ خصَّهم بالذكر، لأنَّهُم يحذرون العاقبة، فيدعُوهُمُ الحذر إِلَى النظر.

﴿إنَّ الذِينَ لاَ يرجون لقاءنا﴾ لاَ يتوقَّعون بِهِ أصلاً، لغفلتهم عَن التفطُّن بالحقائق، وَلاَ يأملون حسن لقائنا، كما يأملُه السعداء؛ أو لاَ يخافون سوء لقائنا الذِي يجب أن يُخاف، ﴿ورضوا بالحياة الدُّنْيَا﴾ بَدَلا مِنَ الآخِرَة؛ وآثروا القليل الفاني، عَلَى الكبير الباقي، ﴿واطمأنوا بها﴾ وسكنوا فِيهَا سكون من لاَ يُزعج عنها؛ فبنوا شديدًا، وجمعوا كثيرًا، وأملوا بعيدًا. ﴿وَالذِينَ هم عَن آياتنا﴾ عَن أدلَّتنا ﴿غافلُونَ(٧)﴾ لاَ يتفكَّرون فِيهَا. ﴿أُولَئِكَ مأواهم النار بِمَا كَانُوا يكسبُونَ(٨)﴾.

﴿إنَّ الذِينَ آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم رَبُّهُم بإيمانهم﴾ يُسددُهم بسبب إيمانهم للاستقامة عَلَى سلوكِ التسديد المؤدي إِلَى الثواب؛ وفيه إضمار، أي: يُرشدهم رَبُّهم إِلَى جنَّته، ﴿تجري من تحتهم الأنهار فِي جَنَّاتِ النعيم(٩)﴾.

﴿دَعوَاهم فِيهَا سُبحانك اللَّهُمَّ﴾ أي: دعاؤهم، لأَنَّ اللهمَّ نداء لله، ومعناه: اللهمَّ إنَّا نُسبحك، أي: يدعون ا لله بقولهم: «سبحانك اللهمَّ» تلذُّذًا بذكره لاَ عبادة، لأنَّ العبادة قد انحطَّت عَنْهُم، وبقوا متنعمين بثوابها أبد الآباد؛ فيَا لهَا من سعادة مَا أدوَمَهَا؛ ﴿وتحيَّتهم فِيهَا سلام﴾ أي: يُحيي بعضهم بعضا بالسلام؛ أو هُوَ تحيَّة المَلاَئِكَة إيَّاهم؛ أو تحيَّةُ ا لله لَهُم ببشارةٍ لِما دُعوا أو إجابةً لِمَا سُئلوا؛ ﴿وآخر دَعواهم﴾ وخاتمة دُعائهم الذِي هُوَ

التسبيح، ﴿**أنِ الحمدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٠)**﴾ أي يقولون: الحمد لله رَب الْعَالَمِينَ؛ قيل: أوَّل كلامهم التسبيح، وآخره التحميد؛ فيبدؤون بتعظيم الله وتنزيهه، ويختمون بشكره والثناء عليه، ويتكلَّمون بينهما بِمَا أرادوا، تنبُّها[1] لفضل التسبيح والتحميد.

﴿**ولو يعجِّل الله للناس الشرَّ استعجالهم بالخير**﴾ أصله ولو يعجل الله الشرَّ تعجيلُه لَهُمُ الخيرَ؛ فوضع استعجالهم[2] بالخير موضع تعجيله لَهُمُ الخير؛ إشعارًا بسرعةِ إجابته لَهُم، والمراد: أهل مكّة أو غيرهم، كقولهم: ﴿**فأَمطِرْ علينا حجارةً مِنَ السَّمَاءِ**﴾[3]، أي: ولو عجَّلنا لهم الشرَّ الذِي دعوا بِهِ كما نعجلُ لَهُمُ الخير، ونجيبهم إِلَيْهِ، ﴿**لَقُضِيَ إِلَيْهِم أجلُهم**﴾ لأُميتوا وأهلكوا؛ ولكن ﴿**فنذرُ الذِينَ لاَ يَرجون لقاءنا فِي طغيانهم**﴾ شِركِهم وضلالتهم إلى مضي آجالهم، وذلك هُوَ الخذلان بعينه؛ كأنَّه قيل: [٢٢٨] وَلاَ يُعجل لَهُمُ الشرَّ، وَلاَ يقضى إِلَيْهِم أجلهم؛ فنذرهم أي: نمهلهم فِي طغيانهم، ونفيض عَلَيْهِمُ النعمة مَعَ طغيانهم، إلزاما للحجَّة عليهم. ﴿**وإذا مسَّ الإنسان**﴾ أصابه ﴿**الضرُّ، دعانا**﴾ لإزالته، ﴿**لِجَنبِه أو قاعدا أو قائما**﴾ وفائدة ذكر هَذِهِ الأحوال، أنَّ المضرور لاَ يزال داعيا لاَ يَفتر عَن الدعاء، حتَّى يزول عَنْهُ الضرُّ؛ فهو يدعو الله فِي حالاته كلِّها بلسان مقاله أو لسان حاله. ﴿**فَلَمَّا**

---

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «تنبيها».

٢ - فِي الأصل: «استعاجلهم»، وهو خطأ.

٣ - سورة الأنفال: ٣٢.

**كشفنا﴾** فرَّجنا **﴿عَنْـهُ ضره، مَرَّ كأن لم يدعنا إلى ضرٍّ مسَّـه﴾** أي: استمرَّ عَلَى طريقته الأولى قبلَ مس الضر، ونسيَ حال الجهد، كأن لم يكن مِنْـهُ، وفيه ذَلِكَ. **﴿كذلك﴾** مثل ذَلِكَ التزيين، **﴿زُيِّن للمسرفين﴾** للمجاوزين الحدَّ عَلَى الكفر **﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٢)﴾** مِنَ الانهماك فِي الشهوات، والإعراض عَن العبادات، وترك التدبُّر للآيات.

**﴿وَلَقَد أهلكنا القرون من قبلكم[1] لَمَّا ظلموا﴾** أشركوا، **﴿وجاءتهم رُسلهم بِالبَيِّنَاتِ، وَمَا كَانُوا ليؤمنوا﴾** أي: مَا استقام [لهم] أن يؤمنوا[2] لفساد استعدادهم، وخذلان الله لَهُم، وعلمه بأنَّهم يموتون عَلَى كفرهم. **﴿كذلك﴾** مِثلُ ذَلِكَ الجزاء، يعني: الإهلاك، **﴿نجزي القوم المجرمِينَ(١٣)﴾** وَهُوَ وعيد لمن نزل بتلك المنزلة.

**﴿ثُمَّ جعلناكم خلائفَ فِي الأَرض من بعدهم﴾**، الخطاب للذين بُعِثَ إِلَيْهِم مُحَمَّد ﷺ، أي: استخلفناكم فِي الأَرْض بعد القرون المهلكة؛ **﴿لننظر كيف تَعْمَلُونَ(١٤)﴾** أي: لننظر أتعملون خيرا أو شرًّا، فنعاملكم عَلَى حسب عملكم.

**﴿وإذا تُتلى عَلَيْهِم آياتنا بَيِّنَاتٍ﴾** للراسخين فِي العلم، أو لمن عداهم؛ **﴿قَالَ الذِينَ لاَ يرجون لقاءنا﴾** لـمَّا غاظهم[3] مَا فِي القرآن من ذم

---

١ - فِي الأصل: - «وَلَقَد أهلكنا القرون من قبلكم»، وهو سهو.

٢ - فِي الأصل: «ما ستقام أن يؤموا»، وفيه خطآن.

٣ - فِي الأصل: «غاضهم»، وهو خطأ.

عبادة الأوثان، والوعيد لأهل الطغيان: ﴿إِئْتِ بقرآنٍ غيرِ هَـذَا﴾ يوافق غرضنا، ﴿أو بدِّلْه﴾؛ كلٌّ من لاَ يرجو لقاء الله إِذَا قامت عليه الحجـَّة سعى[كذا] مِنَ الذِينَ لَوَى عُنُقه، إلاَّ مَا وافق هواه. ﴿قل: مَا يكونُ لِـي﴾ مَا يستقيم لي ﴿أن أبدِّله من تِلقاءِ نفسي﴾ من قبلِ نفسي، فأكون عبدا لها لاَ لله تعالى. ﴿إِن اتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِليَّ﴾ أي: لاَ أتَّبع إِلاَّ وحي الله، من غير زيادة وَلاَ نقصان وَلاَ تبديل، خالفَ هوى النفس أو وافقها، لأَنَّ الذِي أتيت بِهِ من عند الله لاَ من عندي، ﴿إِنِّي أخاف إن عصيتُ ربـِّي﴾ إن اختلقت شَيْـئًا من عند نفسي بما تهواه، ﴿عذاب يومٍ عظيمٍ(١٥)﴾ حينمَا نلقى فِيهِ الموت، أو يوم القيامة.

﴿قل: لو شاء الله مَا تَلَوتُه عليكم﴾ يعني: أنَّ تلاوته ليست إِلاَّ بمشيئة الله، وإظهاره أمرا عجيبا خارجا عَن العادات، وَهُوَ أن يخرج رجل أُمـيٌّ لم يتعلَّم، و لم يشاهد العلماءَ، فيقرأ[1] عَلَيْكم كِتَابًا فصيحا يغلب كلَّ كلامٍ فصيحٍ، ويعلو عَلَى كُل منثور ومنظوم، ومشحونا بعلوم الأصول والفروع، والإخبار عَن الغيوب التِي لاَ يعلمها إِلاَّ الله، ﴿وَلاَ أدراكم بِهِ﴾ وَلاَ أعلَمَكم الله بالقرآن عَلَى لساني؛ ﴿فقد لبثت فيكم عُمُرا مِن قبله﴾ من قبل نزول القرآن، أي: فقد أقمت فيما بينكم مدَّة، و لم تعرفوني متعاطيا شَيْـئًا من نحوه، وَلاَ قدت[2] عليه، ولاَ كنت متواصفا بعلم وبيان، فتتَّهموني باختراعه، ﴿أفلا تعقلُونَ(١٦)﴾! فتعلمون أنَّه ليس إِلاَّ من عند الله.

---

١ - في الأصل: «فيقرءوا»، وهو خطأ.

٢ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «قدرتُ».

﴿فمن أظلمُ مِمَّن افترَى عَلَى ا لله كذبا، أو كذّب بِآيَـاتِه﴾ فزعـم أنَّ لله شريكا، إن[1] خالف فيما تعبَّده به؛ أو كذّب بآياته بالقرآن، أو شَيْء من تأويلـه، وفيه بيان أنَّ الكاذب عَلَى ا لله والمكذِّبَ بِآيَاتِه فِي الكفر سـواء. ﴿إنـَّهُ لاَ يُفلـح المجرمُونَ(١٧)﴾ من دون ا لله، لأنـَّهُم لم يسلكوا طريق الفلاح.

﴿ويعبدون مـن دون ا لله[2] مَا لاَ يَضرُّهـم﴾ إن تركـوا عبادتهـا، ﴿وَلاَ ينفعهم﴾ [٥٢٩] إن عَبَدُوها. ﴿ويقولون: هـؤلاء شـفعاؤُنا عنـد ا لله﴾ أي: فِي أمر الدُّنْـيَا والآخِرَة. ﴿قـل﴾: يـا محمَّـد، ﴿أتنبـِّئُون ا لله﴾ أتخـبرون ا لله، ﴿بِمَا لاَ يعلم فِي السَّمَاوَات وَلاَ فِي الأَرْض﴾؛ ثُمَّ نزَّه نفسه فقال: ﴿سـبحانه وتعالى عَمَّا يشركُونَ(١٨)﴾ نزَّه ذاته عَن أن يكون لَهُ شريك.

﴿وَمَا كَانَ الناسُ إلاَّ أمَّةً وَاحِدَة﴾ متَّفقين عَلَى ملَّةٍ وَاحِـدَة مـن غـير أن يختلفوا بَيْنَـهُم، ﴿فـاختلفوا﴾ فصـاروا مِلَـلا. ﴿ولـولا كلمـة سـبقت مـن ربِّك﴾ وَهُوَ تأخير الحكم بَيْنَهُمْ إِلَى يوم القيامة؛ ﴿لَقُضِيَ بَيْنَـهُم﴾ حين اختلافهم ﴿فيما﴾ هم ﴿فِيهِ يختلفُونَ(١٩)﴾ فيما اختلفوا فِيهِ، وتبرَّأَ المحقُّ مِنَ المبطل مشاهدة وعيانا؛ ولكن سبَّق كلمتـه لحكمـة، وَهُـوَ: أنَّ هَـذِهِ الـدار دار تكليف، وتلك دارُ ثواب وعقاب.

﴿ويقولون: لولا أُنزل عليه آية من رَبِّه﴾[3] مِنَ الآيات التِي اقترحوها؛ ﴿فقل: إِنـَّمَا الغيبُ لله﴾ أي: هُوَ المختصُّ بعلم الغيب؛ فهو العالم بالصـارف

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «أو خالف».

٢ - فِي الأصل: - «من دون ا لله».

٣ - فِي الأصل: «من ربـه آية» وهو خطأ، وقع فيه تقديم وتأخير.

عَن إنزال الآيات المقترحة لاَ غير. ﴿فـانتظِروا﴾ نـزول مَـا اقـترحتموه، ﴿إنّـي معكم مِنَ المنتظرِينَ(٢٠)﴾ بِمَا يفعل ا لله بكم لعنادكم وجحودكم الآيات.

﴿وإذا أَذَقْنَا الناس﴾ وَهُوَ[1] أنتم، عامٌّ لجنس الناس، ﴿رحمة﴾ رحمةً وخِصبا ونحوهما، ﴿من بعد ضرَّاء مسَّتهم؛ إِذَا لَهُم مكر فِي آياتنـا﴾ بدفعهـا وإنكارهـا، والمكر: إخفاء الكيد. ﴿قل: ا لله أسرع مكـرا﴾ و لم يصفهـم بسـرعة المكـر، لأَنَّ كلمة المفاجآت[2] دلَّـت عَلَى ذَلِكَ، كأنـَّه قَـالَ: وإذا رحمنـاهم مـن بعـد ضـرَّاء فاجؤوا وقوع المكر منهم، وسَارَعوا إليه قبل أن يغسلوا [كَذَا] رؤوسهم مـن مـس الضرَّاء. ﴿إنَّ رُسلنا﴾ يعني: الحفظة ﴿يكتبون مَا تمكرُونَ(٢١)﴾ إعـلام بِـأَنَّ مَـا تظنُّونه خافيا لاَ يخفى عَلَى ا لله، وَهُوَ منتقم منكم.

﴿هُوَ الذِي يسيِّركم فِي البرِّ والبحر﴾ يجعلكم قادرين عَلَى قطعـ[ـهما] بالأرجل والدواب، والفلك الجارية. ويخلق فيكم [الأمور] الداعيـة إِلَى السـير. ﴿حتَّى إِذَا كُنتُـم فِي الفلك، وجرين بهم بريح طيِّبة، وفرحـوا بهـا﴾ لِلَينهـا واستقامتها، ﴿جاءتها ريحٌ عاصف﴾ شديدةُ الهبوب، ﴿وجـاءَهم المـوجُ مـن كُلِّ مكان﴾ مِنَ البحر، ﴿وظـنُّوا أنـَّهم أُحيطَ بهم﴾ أهلكـوا، جعـل إحاطـة العدو مَثَلا فِي الهلاك. ﴿دَعَوا ا لله مخلصـين لَـهُ الديـن﴾ مـن غـير إشـراك بـهِ، لأَنـَّهُم لاَ يدعون حينئذ معه غيره؛ يقولون: ﴿لئن أنجيتنا من هَـذِهِ﴾ الأهـوال، ﴿لنكوننَّ مِنَ الشاكرِينَ(٢٢)﴾ لنعمتك، مؤمنين بك.

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «وهم».

٢ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «المفاجأة».

﴿فَلَمَّا أنجاهم إِذَا هم يَبغُون فِي الأَرْض﴾ يُفسدون فِيهَا ﴿بغير الحقِّ﴾ أي: بالباطل. ﴿يَا أَيُّهَا الناس إِنَّمَا بغيكم عَلَى أنفسكم﴾ أي: ظلمكم يرجع عليكم. ﴿متاعُ الحياة الدُّنْيَا﴾ أي: بغيكم كمتاع الحياة الدُّنْيَا، ويضمحلُّ ويبقى وبالُه عليكم؛ ﴿ثمَّ إلينا مرجعكم فننبِّئكم بِمَا كُنتُم تَعْمَلُونَ(٢٣)﴾ فنجزيكم بِهِ، ونجازيكُم عليه؛ وقد ضرب ا لله تعالى للدنيا مثلا، لأنَّ الأشياء يظهرُ سرُّها وحقيقتها بالمثل؛ فقال:

﴿إنَّما مَثَلُ الحياة الدُّنْيَا﴾ حالها العجيبة فِي سرعة نُقصِها، وذهاب نعمتها بعد إقبالها، واعتزاز البأس بها؛ وذلك مَثلٌ لجميع مَا خول العبد مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ سريع الذهاب، لأَنَّهُ إن بقيَ لك لم يبق لَهُ، ﴿كماءٍ أنزلناه مِنَ السَّمَاء، فاختلط بِهِ نبات الأَرْض﴾ أي: فاشتبك بسببه حتَّى خالط بعضه بعضا، ﴿مِمَّا يأكل الناسُ﴾ مِنَ الحبوب والثمار والبقول؛ ﴿والأنعامُ﴾ يعني: الحشيش. ﴿حتَّى إِذَا أخذت الأَرْض زُخرفها﴾ أظهرت زينتها بالنبات، واختلاف ألوانه، ﴿ وازَّينت﴾ وتزيَّنت بِهِ وأظهرت حسنها عند إقبالها، وأخفت عواقبها عَن أبنائها؛ ﴿وظنَّ أهلها﴾ [٢٣٠] الطامحون إِلَيْهَا ﴿أنَّهم قادرون عليها﴾ كأنَّهم ظافرون بها؛ ﴿أتاها أمرُنا﴾ عذابنا، وَهُوَ ضرب زرعها ببعض العاهات، بعد أمنهم واستيقانهم أنَّه قد سَلِمَ، وأنَّه واصل إِلَيْهِم ومنتَفَعٌ بِهِ ﴿ليلا أو[1] نهارا فجعلناها﴾ فجعلنا زرعها ﴿حصيدا﴾

---

١ - في الأصل: «و» وهو خطأ.

شبيها بِمَا يُجَذُّ مِنَ الـزرع، وقطعه[1] واستئصاله؛ ﴿كأن لم تَغنَ بالأمس﴾ يعني: صارت كأن لم تكن، وَمَا حصلوا منها إلاّ الجزاء. ﴿كذلك نفصّل الآيات لقوم يتفكّرُونَ(٢٤)﴾ فينتفعون بضرب الأمثال، وَهَذَا مِنَ التسلية؛ شبّه حال الدُّنْيَا فِي سرعةِ نقصها، وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأَرْض فِي جفافه وذهابه حطاما، بعدما الْتَفَّ وتكاثف وزيَّن الأَرْض بخُضرته؛ وَلَمَّا وصف الدُّنْيَا، وقلّة انتفاعها، وسرعة ذهابها، وكثرة آفاتها؛ رغّب فِي عمل الآخِرَة فقال:

﴿والله يدعو إِلَى دار السلام﴾ عَن الفناء والذهاب، يعني: الجنّة؛ وَقِيلَ: السلام هُوَ الله تعالى، وداره: الجنّة؛ يدعو عباده إِلَى جنّته ببعث الرسل، ونصبِ الأدلّة؛ وقيل: سُميَت الجنّة دار السلام، لأنَّ من دخلها سَلِمَ مِنَ الآفات، ﴿ويهدي[2] من يَشَاء إِلَى صِرَاط مُسْتَقِيم(٢٥)﴾.

﴿للذين أحسنوا الحسنى﴾ المثوبة الحسنى وهي الجنّة، ﴿وزيادة﴾ قيل: الرضوان. ﴿وَلاَ يرهق وجوههم﴾ وَلاَ يغشاها ﴿قتر﴾ غَبَرَة، ﴿وَلاَ ذلّة﴾ وَلاَ أثر هوان، والمعنى: وَلاَ تُرهقهم مَا يرهق أهل النار. من آثار أصحابنا: «وعن قول الله: ﴿وَلاَ يَرهَقُ وُجُوهَهَم قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ﴾ فقد قيل: لاَ يرهقهم لاَ يغشاهم، والقتر: الكسوف، والذلّة: الكآبة». ﴿أُولَئِكَ أصحاب الجنّة هم فِيهَا خالدُونَ(٢٦)﴾.

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «من قطعه»، أو «بقطعه». ليستقيم التركيب.

٢ - في الأصل: «والله يهدي»، وهو خطأ.

﴿وَالذِينَ كَسَبوا السَّيِّئَاتِ﴾ فنون[كَذَا] الشرك أو النفاق، ﴿جزاء سيِّئة بمثلها، وترهقهم ذلَّة﴾ ذلَّة وهوان، ﴿مَا لَهُم مِنَ ا للهِ﴾ من عقابه ﴿من عاصم﴾ أي: لاَ يعصمهم أحد من سخطه وعقابه، ﴿كأنَّما أُغشِيت وجوههم قطعا مِنَ الليل مظلما﴾ أي: جُعل عليها غطاءٌ من سواد الليل، لفرط سوادها وظلمتها، ﴿أولَئِكَ أصحاب النار هم فِيهَا خالدُونَ(٢٧)﴾.

﴿ويوم نحشرهم جميعا﴾ الكفّار وآلهتهم؛ ﴿ثمَّ نقول للذين أشركوا﴾ أيَّ شرك كَانَ، ﴿مكَانكَم﴾ أي: اِلزموا مكانكم لاَ تبرحوا، ﴿أَنتُم وشركاؤُكُم، فَزَيَّلنا﴾ ففرّقنا ﴿بَيْنَهُم﴾ وقطعنا قرناءهم، والوصل التِي كَانَت بَيْنَهُم فِي الدُّنْيَا يُواصلون بها أُلفَتَهُم. ﴿وقال شركاؤهم﴾ من عبدوه من دون ا للهِ: ﴿مَا كُنتُم إِيَّانا تعبدُونَ(٢٨)﴾ إِنَّمَا كُنتُم تعبدون الشياطين فِي الحقيقة، من حيث أمروكم أن تتَّخذوا لله أندادا فأطعتموهم؛ فيقولون: بلى كُنَّا نعبدكم؛ فتقول الأصنام: إِنَّمَا كُنتُم تعبدون أهويتكم؛ لقوله: ﴿أرأيت من اتَّخَذَ إِلَهه هَوَاهُ﴾[1]. ﴿فكفى با لله شهيدا بيننا وبينكم إن كُنَّا عَن عبادَتِكم لغافلِينَ(٢٩)﴾ مَا كُنَّا عَن عبادتكم إِلاَّ غافلين.

﴿هنالك تَبلُوا كُلُّ نفس﴾ تُختَبَر وتَذُوق ﴿مَا أسلفت﴾ مِنَ العمل، فتعرف كيف هُوَ، أقبيح أم حسن. ﴿ورُدُّوا إِلَى ا للهِ مولاهم الحَقِّ﴾ ربهم الصادق [فِي] ربوبيَّته، لأَنَّهُم كَانُوا يَتوَلَّون مَا ليس لربوبيَّته حقيقة، ﴿وضلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يفترُونَ(٣٠)﴾ وضاع عَنْهُم مَا كَانُوا يَدَّعُون أنَّهم شركاء لله.

---

١ - سورة الفرقان: ٤٣. كتبها الناسخ فِي الأصل: ﴿أفمن اتَّخَذَ...﴾، وهو خطأ. وفي سورة الجاثية: ٢٣: ﴿أفرأيت...﴾.

﴿قل: مَن يَرزُقكم مِنَ السَّمَاء [٢٣١] والأَرْض أَمَّن يملك السمعَ والأبصار﴾ من يستطيع خلقهما وتسويتهما عَلَى الحد الذِي سُويَا عليه مِنَ الفطرة العجيبة، أو من يحميهما مِنَ الآفات مَعَ كثرتهما فِي المدد الطوال، وهما لطيفان يُؤذِيهما أدنى شيء. ﴿ومن يُخرج الحيَّ مِنَ المَيِّت، ويخرج المَيِّت مِنَ الحيِّ﴾ أي: الحيوان والفرخ والزرع والمؤمن والعالم مِنَ النطفة والبيضة والحب، والكافر والجاهل وعكسها، ﴿ومن يدبِّر الأمر﴾ ومن يلي تدبير أمر العالم. ﴿فسيقولون: الله﴾ فسيجيبونك عند سؤالك أنَّ القادر عَلَى هَذِهِ هُوَ الله، ﴿فقل﴾ لَهم: ﴿أفلا تتَّقُونَ(٣١)﴾ الشركَ فِي العبوديَّةِ، إِذَا اعترفتم لَهُ بالربوبيَّة.

﴿فذلكم الله﴾ أي: مَن هَذِهِ قُدرته: الله ﴿رَبُّكُم الحَقُّ﴾ الثابت ربوبيَّته ثباتا لاَ ريب فِيهِ، لمن حقَّق النظر. ﴿فماذا بعد الحَقِّ إلاَّ الضلال﴾ أي: لاَ واسطة بين الحق والضلال؛ فمن يخطئ الحقَّ وقع فِي الضلال، ومن سلم مِنَ الضلال كَانَ عَلَى الحق. ﴿فأنى تصرفُونَ(٣٢)﴾ عَن الحق إِلَى الضلال، وعن التوحيد إِلَى الشرك.

﴿كذلك﴾ مِثل ذَلِكَ الحق، ﴿حقَّت كلمة رَبِّكَ﴾ كما حقَّت الربوبيَّة لله حقَّت كلمة رَبكَ ﴿عَلَى الذِينَ فسقوا﴾ تَمرَّدوا فِي كفرهم، ﴿أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(٣٣)﴾ أي: حقَّ عَلَيْهِم كلمة الله أنَّ إيمانهم غير كائن.

﴿قل: هل مِن شُرَكَائكم من يبدأ الخلقَ﴾ من نطفة، ﴿ثُمَّ يعيده﴾، فإن أجابوك، وَإِلاَّ ﴿قل: الله يبدأ الخلق، ثُمَّ يُعيده فَأَنَّى تُؤفَكُونَ(٣٤)﴾ فكيف تُصرَفُونَ عَن قصدِ السبيلِ.

**﴿قُل: هل مِن شركائكم﴾** يعني: الأوثان، **﴿مَن يهدي إِلَى الحَقِّ﴾** يرشد إِلَيْهِ، **﴿قل: ا لله يهدي لِلْحَقِّ أفمن يَهدِي إِلَى الحقِّ أَحَقُّ أن يُتَّبَع أمَّن لاَ يَهِدِّي إِلاَّ أن يُهدَى﴾** والمعنى: أنَّ ا لله وحده هُوَ الذِي يهدي للحق، بِمَا رَكَّب فِي المكلَّفين مِنَ العقول، وأعطاهم مِنَ التمكين للنظر فِي الدلالة[1] التِي نصبها لَهُم، وبما وفَّقهم وألهمهم، وَوَقفهم عَلَى الشرائع بإرسال الرسل؛ فهل من شركائكم التِي[2] جعلتم أندادا لله أحدٌ يهدي إِلَى الحق؟ ثُمَّ مَثَّلَ هدايةَ ا لله ثُمَّ قَالَ: **﴿أفمن يهدي إِلَى الحق أحقُّ﴾** بالاِتبَاع ، أم الذِي لاَ يَهدي؛ أي: لاَ يهتدي بنفسه، أو لاَ يهدي غيرَه إِلاَّ أن يَهدِيه ا لله؛ **﴿فما لكم كيف تحكمُونَ(٣٥)﴾** تقضون لأنفسكم بالباطل، حيث تزعمون أنَّهم أنداد لله.

**﴿وَمَا يَتَّبِعُ أكثرهم إِلاَّ ظَنًّا﴾** بغير دليل فِي عامَّة أمورهم الدُّنْيَاويَّة والأخرويَّة، لأَنَّهُم لاَ يتَّبعون إِلاَّ الوهميَّات مِنَ الأمور دون الحقائق. **﴿إِنَّ الظنَّ لاَ يُغنِي مِنَ الحَقِّ﴾** أي: لاَ يقوم مقام العلم (لعلَّه) الثابتِ الذِي لاَ يزول **﴿شَيْئًا، إِنَّ ا لله عليم بِمَا يفعلُونَ(٣٦)﴾** من اتباعِ الظن، وترك الحق.

**﴿وَمَا كَانَ هَذَا القرآنُ أن يُفترَى من دون ا لله﴾** مَا صحَّ وَمَا استقام أن يكون مثله فِي عُلو أمرِه وإعجازِه مُفترى، **﴿ولَكِنْ تصديقَ الذِي بين يديه﴾** وَهُوَ مَا تقدَّمه مِنَ الكتب المنزَّلة، **﴿وتفصيلَ الكتاب﴾** وتبيين مَا كُتِب وفُرض مِنَ الأحكام والشرائع، **﴿لاَ ريب فِيهِ﴾** عند أهل الحق، **﴿من رَبِّ العَالَمِينَ(٣٧)﴾**.

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الأصوب: «الدلائل»، أو «الأدلَّة».

٢ - كذا في الأصل، ولعلَّ الأصوب: «الذين».

﴿أم يقولون: افتراه، قل﴾ إن كَانَ الأمر كما تزعمون: ﴿فأتوا﴾ [٢٣٢] أنتُم ﴿بسورةٍ مثلِه﴾ أي: شبيهة بِهِ فِي البلاغة وحُسن النظم، فأنتم مثلي فِي العزيمة. ﴿وادعوا من استطعتم﴾ من شُركَائِكم ﴿من دون الله﴾ (لعلّه) ومع ذَلِكَ فاستعينوا بمن أضلّكم[1] ﴿إن كُنتُم صادقِينَ(٣٨)﴾ أنّه افتراه.

﴿بَل كذّبوا بِمَا لم يحيطوا بعلمه، ولَمَّا يأتهم تأويلُه﴾ بَل سارَعوا إِلَى التكذيب بالقرآن فِي بَدِيهَة السماع، قبل أن يَفقَهُوه ويعلموا كُنه أمره، وقبل أن يتدبّروه ويَقِفُوا عَلَى تأويله ومعانيه؛ وذلك لفرط نفورهم عمّا يُخالف دينهم، وشِرَادِهِم[2] عَن مُفارقة دين آبائهم. ﴿كذلك﴾ مثل ذَلِكَ التكذيب، ﴿كذّبَ الذِينَ من قبلهم﴾، ويجوز أن يكون ﴿ولَمَّا يأتيهم تأويلُه﴾ و لم يأتهم بعدُ، تأويل مَا فِيهِ مِنَ الإخبار بالغيوب؛ ﴿فانظر كيف كَانَ عاقبةُ الظالِمِينَ(٣٩)﴾[3] مآلُ أمرهم.

﴿ومنهم من يُؤْمِنُ بِهِ﴾ (لعلّه) أي: سيؤمن بِهِ، ﴿ومنهم من لاَ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ لفرط غباوته، وقلّة تدبُّره. ﴿وربُّكَ أعلم بالمفسدِينَ(٤٠)﴾.

﴿وإن كذّبوك﴾ وإن تمُّوا عَلَى تكذيبك، وأيست مِنْهُم بعد أن قامت عَلَيْهِمُ الحجّة؛ ﴿فقل: لي عملي، ولكم عَمَلُكم﴾ لاَ تؤاخَذون بعملي وَلاَ

---

١ - فِي الأصل: «أظكنكم»، ولا معنى له.

٢ - مصدر "شَرَدَ"، قال ابن منظور: «شَرَدَ البعيرُ والدابّة، يشرُد شَرْدًا وشِرادًا وشُرودا: نفر، فهو شاردٌ». ابن منظور: لسان العرب، ٢٩٣/٣.

٣ - فِي الأصل: «المجرمين» وهو خطأ.

أَوَاخَذ بِعملكم، ﴿أَنتُم بريئون مِمَّا أعملُ وأنا بريءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ(٤١)﴾ فكلٌّ مؤاخذ بعمله.

﴿ومنهم من يستمعون إليك﴾ ولكنّهم لاَ يَعْمَلُونَ وَلاَ يعقلون. ﴿أفأنت تُسمع الصمَّ ولو كَانُوا لاَ يعقلُونَ(٤٢)﴾ أتطمعُ أنَّك تَقدِرُ عَلَى إسماع الصوتِ الصمَّ؛ فإذا اجتمع سَلْبُ العقلِ والسمعِ فقد (لعلّه) فَسدَ الأمرُ.

﴿ومنهم من يَنظرُ إليك﴾ ومنهم ناس ينظرون إليك ويُعاينون أدلّة الصدق، وأعلام النبوّة، ولكنّهم لاَ يصدقون. ﴿أفأنت تَهدِي العميَ ولو كَانُوا لاَ يُبصرُونَ(٤٣)﴾ أتحسب أنَّك تَقدِرُ عَلَى هداية العُمي ولو انضمّ[1] إلَى فَقْدِ البصرِ فَقدُ البصيرة، لأنَّ الأعمى الذِي فِي قلبه بصيرةٌ قد يفهم، وَأَمَّا العَمَى مَعَ الحمق فجهد البَلاَء؛ يعنِي: أنَّ فِي الناس من أن لاَ يقبلوا [كَذَا] وَلاَ يُصدقوا كالصم والعُمي الذِينَ لاَ عُقول لَهُم وَلاَ بصائر، وقد أعمى الله قلوبهم فلا يبصرون شَيْئًا مِن (لعلّه) الهدى.

﴿إنَّ الله لاَ يظلمُ الناس شَيْئًا﴾، لأنَّهُ فِي جميع أفعاله متفضل وعادل، لاَ ينصر عاصيا، وَلاَ يَخذل مُطيعا، ﴿ولكنَّ الناسَ أنفسَهم يظلمُونَ(٤٤)﴾ أي: لم يظلمهم بسَلْبِ آلةِ الاستدلال، ولكنّهم ظلموا أنفسَهم بترك الاستدلال، كما قَالَ: ﴿وَلَقَد يسَّرنا القرآنَ للذِّكْرِ فهل مِن مدَّكِرٍ﴾[2].

١ - فِي الأصل: «انظم»، وهو خطأ.

٢ - سورة القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠.

﴿ويومَ يَحشُرُهم كَأَنْ لم يَلبَثُوا﴾ فِي قبورهم؛ وقيل: فِي الدُّنـيَا ﴿إلاَّ ساعةً مِنَ النهار﴾، لأَنَّ الماضي فِي حقِّهم كَأَنْ لم يَكُن؛ استقصروا (لعلَّه) المدَّة لهول مَا[...][1]، وإنَّما هم كأنَّهم أبناء ساعتهم؛ وكذلك تَعَاقُب أحوالهم فِي الدُّنـيَا بالخير والشر، كأنَّ الماضي بهم لم يكن. ﴿يتعارفون بَيْنَهُم﴾ يَعرِف بعضهم بعضا. ﴿قد خسر الذِينَ كذَّبوا بلقاء الله﴾ قد اشتروا التجارة البائرة، فخسروا؛ وتعاموا عَن التجارة التِي لن تبور. والمُرَاد بالخسران خُسرانُ النفس، وَلاَ شيء أعظم مِنهُ. ﴿وَمَا كَانُوا مُهتدِينَ(٤٥)﴾ للتجارة التِي لن تبور.

﴿وإمَّا نُرينَّك بَعْضَ الذِي نَعِدُهُم﴾ مِنَ العذاب، ﴿أو نتوفَّينَّك﴾ قبل عذابهم، ﴿فإلينا مَرجعهم؛ ثُمَّ الله شهيدٌ [٢٣٣] عَلَى مَا يفعلُونَ(٤٦)﴾ مُطَّلِع عَلَيْهِم ومجازيهم.

﴿ولكلِّ أمَّة رسولٌ﴾ يُبعث إِلَيْهِم لينبههم عَلَى التوحيد، ويدعوهم إِلَى دين الحق. ﴿فإذا جاء رسولُهم﴾ بالبَينَاتِ، فكذَّبوه[2] و لم يَتَّبعُوه، ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم﴾ بين النبي ومكذِّبيه ﴿بالقسط﴾، فَأُنجِيَ الرسلُ، وعُذِّب المكذِّبون؛ أو ولِكُل أمَّةٍ مِنَ الأممِ يومَ القيامة رسولٌ تُنسب إِلَيْهِ وتُدعى بِهِ؛ فإذا جاء رسولُهم الموقفَ ليشهدَ عَلَيْهِم بالكفر والإيمان قُضيَ بَيْنَهُم. ﴿وَهُم لاَ يُظلمُونَ(٤٧)﴾ لاَ يُعذِّب أحدا بغير ذنبه؛ وإنَّما قَالَ: ﴿وَإمَّا نُرينَّك بعض الذِي نعدهم﴾ أي: مِنَ العذابِ؛ [فإذا] استعجلوا بِمَا وُعِدوا بِهِ مِنَ العذاب نَزَل.

---

١ - وضع الناسخ إحالة إِلَى الحاشية، و لم يكتب شيئا؛ وفي العبارة نقص واضح.

٢ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: حذف الفاء.

﴿ويقولون: متى هَـذَا الوعـدُ﴾ استبعادا لَـهُ واستهزاء بـهِ، ﴿إن كُنتـُم صادقِينَ(٤٨)﴾ أنَّ العذاب نازل، وَهُوَ خطاب مِنـْهُم للنبي والمؤمنين.

﴿قل: لاَ أملكُ لنفسي ضرًّا وَلاَ نفعا﴾ فكيف أملك لكـم فأستعجل فِي جلبِ العذابِ إليكم، ﴿إلاَّ مَا شاء الله﴾ أي: ولَكِـن مَـا شـاء الله مـن ذَلِكَ كائنٌ؛ فكيف أملك لكم الضررَ، وجلبَ العذابِ. ﴿لِكُلِّ أمـَّةٍ أجـلٌ إِذَا جاء أجلهم، فلا يستأخرون ساعةً وَلاَ يستقدمُونَ(٤٩)﴾ لِكُـل أمـَّةٍ وقـتٌ معلـومٌ للعـذاب، مكتـوب فِي اللـوح، فـإذا جـاء وقـت عذابهـم، لاَ يتقدَّمون ساعة وَلاَ يتأخَّرون.

﴿قل أرأيتم إن أَتَاكم عذابُه﴾ الذِي تستعجلونه ﴿بياتا﴾ وقت بياتٍ، وَهُـوَ الليـل، وأنتـم ساهون نـائمون لاَ تشـعرون، ﴿أو نهـارا﴾ وأنتـم مشتغلون، مسـتعجلون بطلـب المعاشِ والكسـبِ. ﴿مـاذا يَستعجلُ مِنـْهُ المجرمُونَ(٥٠)﴾ أي: مِنَ العذاب، والمعنى: أنَّ العذاب كلّه مكروه، وليس شيء مِنـْهُ يوجب الاستعجال.

﴿أثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ العذابُ بالموتِ، ﴿آمنتم بهِ﴾، لأَنَّ كـلَّ نفس تؤمـن بِمَا كفرت فِي ذَلِكَ الحين، ولكن لاَ ينفعها الإيمانُ حين ذَلِـكَ ﴿آلآن﴾ آمنتـم بهِ ﴿وقد كُنتـُم بهِ تستعجلُونَ(٥١)﴾ أي: بالعذاب تكذيبا واستهزاء.

﴿ثمَّ قيل للذين ظلموا: ذوقوا عذابَ الخلدِ﴾ أي: يـومَ القيامـةِ، أو لأَنَّ ذَلِكَ مقدمة، وأَيـَّام التعبُّد قد انقضت، والتوبة قد أُغلِقت؛ ﴿هل تُجـزَوْن إلاَّ بِمَا كُنتـُم تكسبُونَ(٥٢)﴾؟!

﴿ويستنبئونَك﴾ ويستخبروك، فيقولون: ﴿أحقٌّ هُوَ﴾ هُوَ استفهامٌ عَلَى وجهِ الإنكار والاستهزاء. ﴿قل: إي وربِّي﴾ نَعَم وَا للهِ ﴿إنَّهُ لَحَقٌّ، وَمَا أنتم بمعجزِينَ(٥٣)﴾ بفائتين العذاب، وَهُوَ لاحقٌ بكم لاَ محالة إن خالفتموه.

﴿ولو أنَّ لِكُلِّ نفسٍ ظَلَمَت مَا فِي الأَرْضِ﴾ مَا فِي الدُّنْيَا اليوم من خزائنها وأموالها؛ ﴿لافتدَت بِهِ﴾ لجعلته فديةً لها، ﴿وأسرُّوا الندامةَ لَمَّا رَأَوا العذابَ﴾، لأنَّهُم بُهتوا لـمَّا عاينوا مِمَّا لم يحتسبوه من فظاعة الأمر وهوله. ﴿وقُضيَ بَيْنَهُم بالقسط﴾ بين الظالمين والمظلومين، ﴿وَهُم لاَ يُظلمُونَ(٥٤)﴾ من جزاء أعمالهم شيْئًا.

﴿أَلاَ إنَّ للهِ مَا فِي السَّمَاوَات والأَرْض﴾ فكيف يَقبل الفداء، وَمَا فيهما مُلكُه. ﴿أَلاَ إنَّ وعدَ ا للهِ حقٌّ﴾ كائن، ﴿ولكنَّ أكثرهم لاَ يَعْلَمُونَ(٥٥)﴾ لقصور عقلهم، إلاَّ ظاهرا مِنَ الحياة الدُّنْيَا، وفي الحقيقة لاَ يَعْلَمُونَ شيْئًا لظاهر الآيَة: ﴿هُوَ يُحيي [٢٣٤] ويُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرجعُونَ(٥٦)﴾ وَإِلَى حسابه وجزائه فِي المرجعِ، فَيُخاف ويُرجى.

﴿يَا أَيُّهَا الناس قَد جاءتكم موعظةٌ من رَبِّكم﴾ أي: قد جاءكم كِتَاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبيه عَلَى التوحيد، والموعظةِ التِي تدعو إِلَى كُل مرغوب، وتزجر عَن كُل مرهوب؛ كما فِي القرآن مِنَ الأوامر والنواهي داعٍ إِلَى كُل مرغوب، وزاجر عَن كُل مرهوب؛ إذ الأمر يقتضي حسن المأمور، فيكون مرغوبا؛ وَهُوَ يقتضي النهيَ عَن ضده وَهُوَ القبيح، وعلى هَذَا فِي النهي. ﴿وشفاءٌ لِمَا فِي الصدور﴾ مِنَ العقائد الفاسدة، والصدر

موضع القلب ﴿**وهدًى**﴾ مِنَ الضلالة، ﴿**ورحمةٌ**﴾ مِنَ العذاب ﴿**للمؤمنِينَ(٥٧)**﴾ لمن آمن بِهِ منكم.

﴿**قل: بفضل ا لله وبرحمته**﴾ وَهُوَ مَا عَلِمُوه وعملوا بِهِ. ﴿**فبذلك فليفرحوا**﴾. فِي الحديث: «*من هداه ا لله للإسلام، وعلّمه القرآن، ثُمَّ شكا الفاقة، كَتَبَ ا لله الفقر بين عينيه إِلَى يوم يلقاه*»[1]. ﴿**هُوَ**﴾ أي: مَا آتاهم ا لله مِنَ العلم والعمل بِمَا فِيهِ ﴿**خيرٌ مِمَّا يجمعُونَ(٥٨)**﴾ للدنيا، لأَنَّهُ حطام زائل ضارٌّ ليس بنافعٍ؛ وذلك يتناول كلَّ ما جُمع لغير ا لله، وعلى غير المأمور بِهِ.

﴿**قل: أرَأَيتم**﴾ فأخبروني ﴿**مَا أنزل ا لله لكم مِن رزقٍ فجعلتم مِنْهُ حراما وحلالا**﴾ فَبَعَّضتُموه، وقلتم: هَذَا حلال وَهَذَا حرام، بلا حجَّة. ﴿**قل آ لله أَذِنَ لكم**﴾ فِي التحريم، ﴿**أم عَلَى ا لله تفترُونَ(٥٩)**﴾، الآيَة زاجرة عَن التجوُّز فيما يُسأل مِنَ الأحكام، وباعثة عَلَى وجود[2] الاحتياط فِيهِ، وأن لاَ يقول أحد فِي شيء: جائز أو غير جائزٍ عَلَى سبيل القطع بدين؛ إِلاَّ بعد الإيقان، وَإِلاَّ[3] فَهُم مفترٍ عَلَى الديَّان.

﴿**وَمَا ظنُّ الذِينَ يفترون عَلَى ا لله الكذبَ**﴾ أيُّ شيءٍ ظنُّهم ﴿**يوم القيامة**﴾ أي: أيُّ شيء ظنُّ المفترون فِي ذَلِكَ اليوم مَا يُصنع بهم فِيهِ، وَهُوَ يوم الجزاء بالإحسان والإساءة، وَهُوَ وعيد عظيم حيث أبهم أمره. ﴿**إنَّ ا لله لذو**

---

١ - لم نعثر عَلَيه فِي الربيع ولا فِي الكتب التسعة ولا فِي الجامع الصغير وزياداته.

٢ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «وجوب».

٣ - فِي الأصل: «ولا»، وهو خطأ.

**فضل عَلَى الناس﴾** حيث أنعم عَلَيْهِم بالعقل، ورحمهم بالوحي وتعليم الحلال والحرام، وَهَذَا يتناول كلَّ من يروم التعبُّد مِنَ الخليقة، وليس مضنونا بِهِ عن أحد إلاَّ مَن يأباه، **﴿ولكنَّ أكثرهم لاَ يشكرُونَ(٦٠)﴾** هَذِهِ النعمة وَلاَ يَتَّبِعُون مَا هُدُوا إِلَيْهِ.

**﴿وَمَا تكون فِي شأن﴾** أي: مَا تكون فِي أمر. والخطاب ظاهره للنبي الطَّيْلا، وَهُوَ عامٌّ لجميع المؤمنين، لقوله: **﴿وَمَا تَتلُو مِنْهُ من قرآن﴾**، لأَنَّ تلاوة القرآنِ مُعظم شأنِ الرسولِ ﷺ، لأَنَّ كلَّ جزءٍ مِنْهُ قرآنٌ. **﴿وَلاَ تَعْمَلُونَ﴾** أَنتُم جميعا **﴿مِن عمل﴾** تعميمٌ للخطابِ بعد تخصيصه، **﴿إلاَّ كُنَّا عَلَيْكُم شهودا﴾** شاهدين رُقباء نُحصي عَلَيْكُم ولَكُم. خوَّفَهُم بِمَا عرَّفَهُم من اطِّلاعه عَلَيْهِم فِي جميع أحوالهم. **﴿إذ تُفِيضُون فِيهِ﴾** تخوضون فِيهِ؛ مِن أفاض فِي الأمر، إِذَا اندفع فِيهِ، **﴿وَمَا يَعزُبُ عَن ربِّك﴾** وَمَا يبعد، وَمَا يغيب **﴿من مِثقال ذَرَّة﴾** وزن نَملة، أو هباء **﴿فِي الأَرْض وَلاَ فِي السَّمَاء﴾** أي: فِي الوجود والإمكان، **﴿وَلاَ أصغر من ذَلِكَ وَلاَ أكبر إلاَّ فِي كِتَاب مُبين(٦١)﴾** يعني: اللوح المحفوظ، أو فِي علمه تبارك وتعالى.

**﴿أَلاَ إنَّ أولياءَ [٢٣٥] الله﴾** هُمُ الذِينَ يَتولَّونه بالطاعة، ويتولاَّهم بالكرامة؛ أو هُمُ الذِينَ تَوَلَّى هُدَاهُم بالبرهان الذِي أتاهم؛ فتولَّوا القيام بحقِّه، والرحمة لخلقه؛ أو هُمُ المتحابُّون فِي الله عَلَى غير أرحام بَيْنَهُم، وَلاَ أموال يتعاطَونَها، أو هُمُ المُؤْمِنُونَ المتَّقون **﴿لاَ خوفٌ عَلَيْهِم﴾** إِذَا خافَ العُصاة، **﴿وَلاَ هم يحزنُونَ(٦٢)﴾** إِذَا حَزِنَ العصاة.

ثُمَّ وصفهم فقال: ﴿**الذِينَ آمنوا وكَانُوا يَتَّقُونَ(٦٣)**﴾ الشركَ والنفاقَ جليّهما وخَفيّهما. ﴿**لَهُم البشرى فِي الحياة الدُّنْيَا**﴾ مَا بشَّر الله بِهِ الْمُؤْمِنِينَ المتَّقين فِي غير موضع من كتابه، وهي نِعمتهم المعجَّلة فِي الحياة الدُّنْيَا، وَهُم يتسلَّون بالعاقبة الباقية، كما يتسلَّى أهل الدُّنْيَا بالعاجلة الفانية؛ وشتَّان مَا بينهما. ﴿**وفِي الآخِرَة**﴾ هِيَ الجنَّة. ﴿**لاَ تبديل لكلماتِ الله**﴾ لاَ تَغيير لأقواله، وَلاَ اختلافَ لمواعيده. ﴿**ذَلِكَ**﴾ إشارة إِلَى كونهم مبشَّرين فِي الدارين ﴿**هُوَ الفوز العظيم(٦٤)**﴾ ينالون الفوزَ العظيمَ فِي الدُّنْيَا قبلَ الآخِرَة بدليل هَذِهِ الآيَة، وَهُوَ نعيم معجَّلٌ للأنفس الروحانية، كما لضدهم عذاب أليم معجَّل فِي الدُّنْيَا. فهؤلاء خُلقوا للعذاب فَهُم فِي العذاب دائمون فِي الدُّنْيَا والآخِرَة، وهؤلاء خُلِقوا للنعيم فَهُم فِي النعيم دائمون فِي الدُّنْيَا والآخِرَة؛ وكلُّ ذَلِكَ عدل مِنَ الله تعالى لهؤلاء، وفضل مِنْهُ لهؤلاء. ﴿لاَ يُسأل عمَّا يَفعل وَهُم يُسألون﴾[1].

﴿**وَلاَ يُحزنك قولهم**﴾ تكذيبهم وتهديدهم وتشاورهم فِي تدبير هلاكك وإبطال أمرك. ﴿**إِنَّ العِزَّة لله**﴾ إنَّ الغلبة والقهر فِي ملكة الله، لاَ يملك أحدٌ شَيْئًا منها، لاَ هُم وَلاَ غيرهم؛ فهو يَغلِبُهم وينصرُك عليهم. ﴿كَتَبَ الله لأغلبنَّ أنا ورُسلِيَ﴾[2] ﴿**جميعا، هُوَ السميع**﴾ لِمَا يقولون، ﴿**العليم(٦٥)**﴾ بِمَا يُدبرون ويعزمون عليه، وَهُوَ مكافيهم بذلك.

---

١ - سورة الأنبياء: ٢٣.

٢ - سورة المجادلة: ٢١.

﴿**ألاَ إنَّ لله من فِي السَّمَاوَات ومن فِي الأَرْض**﴾ يعنِي: العقلاء، وَهُم المَلاَئِكَة والثقلاَن؛ وخصَّهم لِيؤذن أنَّ هؤلاء إِذَا كَانُوا لَهُ، وفِي ملكته، وَلاَ يصلح أحد مِنْهُم للرُّبوبية، وَلاَ أن يكون لَهُ شريكا فِيهَا فما وراءهم مِمَّن لاَ يعقل أحقُّ أن لاَ يكون لَهُ نِدًّا وشريكا. ﴿**وَمَا يَتَّبِعُ الذِينَ يدعون من دون ا لله شُركاء**﴾ «مَا» نافية، أي: وَمَا يَتَّبِعُون حقيقةَ الشركاءَ، وإن كَانُوا يُسمُّونها شُركاء، لأَنَّ شَرِكَة ا لله فِي الربوبيَّة محالٌ، ﴿**إن يتَّبعون إلاَّ الظنَّ**﴾ إلاَّ ظنَّهم الفاسد أنَّهم شركاء. ﴿**وإن هُم**﴾ مَا هم ﴿**إلاَّ يخرصُونَ(٦٦)**﴾ يقدرُونَ (لعلَّه) فِي أنفسهم أن يكون [ للهِ] شركاء تقديرا باطلا.

﴿**هُوَ الذِي جعل لكم الليل لتسكنوا فِيهِ**﴾ تنبيه عَلَى كمال قدرته، وعِظَمِ نِعمَته المتوحد بها هُوَ، ليدلَّهم بها عَلَى تفرُّده باستحقاق العبادة. ﴿**والنهارَ مُبصرا**﴾ لتبصروا فِيهِ مطالبَ أرزاقكم الدينيَّة والدُّنْيَاويَّة. ﴿**إنَّ فِي ذَلِكَ لآيات لقوم يسمعُونَ(٦٧)**﴾ سماعَ مدَّكِر مُعتَبِر.

﴿**قَالُوا اتَّخذَ ا لله ولدا سُبْحَانَهُ**﴾ تنزيه لَهُ عَن اتخَاذ الولد، وتعجُّب بهم من كلمتهم الحمقاء. ﴿**هُوَ الغنيُّ**﴾ علَّةٌ لنفي الولد، لأَنَّهُ إنَّمَا يطلب الولدَ ضعيفٌ ليتقوَّى بِهِ، أو فقير ليستعين بِهِ، أو ذليل ليتشرَّف بِهِ، والكلُّ أمارة الحاجة؛ فمن كَانَ غنيًّا غير مُحتاج كَانَ الولد عَنْهُ منفيا. ﴿**لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْض**﴾ مُلْكًا، وَلاَ تجتمع النبوَّة[1] معه. ﴿**إنْ عندكم**

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «الأبوَّة».

**مِن سلطان بهذا﴾** مَا عندكم من حجَّة بهذا القول؛ **﴿أتقولون [٢٣٦] عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٦٨)﴾** وعيد لمن قَالَ بِمَا لاَ يعلم، (لعلّه) وفي الآيَة دليلٌ عَلَى أنَّ كلَّ قولٍ لا دليل لَهُ، (لعلّه) فهو جهالة.

**﴿قل إنَّ الذِينَ يفترون عَلَى الله الكذب﴾** قولا أو فعلا أو اعتقادا **﴿لاَ يُفلحُونَ(٦٩)﴾** أي: لاَ يَنجون مِنَ النار، وَلاَ يَفوزون بالجنّة؛ ولكن **﴿متاع فِي الدُّنْيَا﴾** أي: افتراؤهم هَذَا منفعة قليلة فِي الدُّنْيَا، حيث يُقيمون بِهِ رئاستهم فِي الكفر، ومُناصَبَةَ النَّبي ﷺ بالتظاهر عليه؛ **﴿ثُمَّ إلينا مرجعهم، ثُمَّ نذيقهم العذابَ الشديد بِمَا كَانُوا يكفرُونَ(٧٠)﴾**.

**﴿واتل عَلَيْهِم نبأ نوح﴾** خَبَره مَعَ قومه، **﴿إذ قَالَ لقومه، يا قومِ إن كَانَ كَبُر عليكم﴾** عظُم وثقل؛ كقوله: **﴿وإنَّها لكبيرة إلاَّ عَلَى الخاشعين﴾**[1]. **﴿مَقَامِي﴾** مكاني، يعني: نفسه، أو قيامي ومَكثي بين أظهركم، **﴿وتذكيري بِآيَاتِ الله﴾** بقيام حججه؛ **﴿فعلى الله تَوَكَّلت﴾** أي: فوَّضت أمري إِلَيْهِ. **﴿فأجمِعوا أمرَكم﴾** مِن أجمعَ الأمر، إِذَا نواه وعزم عليه. **﴿وشُركاءَكم﴾** أي: مَعَ شركائكم؛ **﴿ثُمَّ لاَ يكن أمركم عَلَيْكُم غُمَّة﴾** مستورا، واجعلوه ظاهرا مكشوفا، **﴿ثمَّ اقضوا إليَّ﴾** ذَلِكَ الأمر الذِي تريدون بي؛ أي: أدُّوا إليَّ مَا هُوَ حقٌّ عندكم من هلاكي، كما يقضي الرجل غَرِيمه، واصنعوا مَا أمكنكم، **﴿وَلاَ تُنظِرونِ(٧١)﴾** وَلاَ تُهملوني.

---

١ - سورة البقرة: ٤٥.

﴿فإن تولّيتم﴾ فإن أعرضتم عَن تذكيري ونصيحتِي، ﴿فما سألتكم من أجر﴾ يوجبُ التولي، أو فما سألتكم من أجر ففاتني ذَلِكَ بتولِيَتِكُم؛ ﴿إن أجريَ إلاَّ عَلَى ا لله﴾ وَهُوَ الثواب الذِي يُثِيبُنِي بِهِ فِي الآخِرَة؛ أي: مَا نصحتكم إلاَّ لله لاَ لغرض من أغراض الدُّنْيَا، وفيه دلالة منع أَخذ الأجر عَلَى تعليم العلم اللاَّزم، لأَنَّ تبليغ الأنبياء لازم عَلَيْهِمُ إِلَىَ أممهم؛ ﴿وأُمرت أن أكون مِنَ المُسْلِمِينَ(٧٢)﴾ مِنَ المستسلمين لأوامره ونواهيه.

﴿فكذّبوه﴾ فداموا عَلَى تكذيبه، ﴿فنجَّيناه ومن معه فِي الفلك وجعلناهم خلائف﴾ يَخلُفُون المغرَقين. ﴿وأغرقنا الذِينَ كذَّبوا بآيَاتِنا، فانظر كيف كَانَ عاقبة المنذَرِينَ(٧٣)﴾ هُوَ تعظيم لِمَا جرَى عليهم، وتحذير لِمَن أُنذِر عَن مثله، وتسليةٌ لَهُ [ﷺ]. ﴿ثمَّ بعثنا مِن بَعدِه رُسلا إِلَىَ قومهم، فجاءوهم بالبَيِّنَاتِ فما كَانُوا ليؤمنوا﴾ فما استقام لَهُم أن يؤمنوا ﴿بمَا كذَّبوا بِهِ من قبل﴾ بسبب تعوُّدهم تكذيب الحق. ﴿كذلك نطبع﴾ مثلَ ذَلِكَ الطبع ﴿عَلَى قلوب المعتدِينَ(٧٤)﴾ بخذلانهم، لانهماكهم فِي الضلال واتباع المألوف، وفِي أمثال ذَلِكَ دليل عَلَى أنَّ الأفعال واقعةٌ بقدرة ا لله، وكسب العبد.

﴿ثمَّ بعثنا من بعدهم موسى وهارون إِلَىَ فرعون ومَلَئِه بآيَاتِنا فاستكبروا﴾ عَن قبولها، وأعظمُ الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبيُّنها، ويتعظَّموا عَن قبولها؛ ﴿وكَانُوا قوما مجرمِينَ(٧٥)﴾ يتعاطَون الجرائم مِنَ الآثام.

﴿فَلَمَّا جاءهم الحَقُّ من عندنا﴾ فَلَمَّا عرفوا أنَّه هُوَ الحقُّ، وأنَّه من عند ا لله؛ ﴿قَالُوا﴾ لحبهم الشهوات: ﴿إنَّ هَذَا لسحر مُبِين(٧٦)﴾ لَكَذبٌ بين، وَهُم يَعْلَمُونَ أنَّ الحقَّ أبعدُ شيء مِنَ السحر.

﴿قَالَ موسى: أتقولون للحقِّ لَمَّا جاءكم أسحرٌ هَذَا وَلاَ يفلحُ الساحرُونَ(٧٧) قَالُوا أجئتنا لِتَلفِتَنَا﴾ لتصرفنا، واللفت والفلت أخوان. ﴿عمَّا وَجَدنا عليه آباءنا﴾ من عبادةِ الأصنام [٢٣٧] أو هُوَ (لعلّه) عبادةُ أهويتنا، لقوله: ﴿أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه﴾[1]. ﴿وتكونَ لكما الكبرياءُ﴾ أي: الملك، لأنّ الملوكَ موصوفون بالتكبُّر عَلَى الناس باستِتبَاعهم، ﴿فِي الأَرْضِ﴾ بالتصرُّف فِيهَا، وفِي أهلها؛ ﴿وَمَا نَحْنُ لكما بمؤمِنِينَ(٧٨)﴾ بمصدقين فيما جئتما به؛ فلم يتبعوا رئَاستَهم، (لعلّه) ورفض هواهم بملازمة الحق[2].

﴿وقال فرعون: ائتوني بِكُلِّ ساحر عليم(٧٩)﴾ ليقوي بهم رِئَاسَته. ﴿فَلَمَّا جاء السحرةُ، قَالَ لَهُم موسى: ألقوا مَا أَنتُم ملقُونَ(٨٠) فَلَمَّا ألقوا قَالَ موسى: مَا جئتم بِهِ السحرُ﴾ أي: الذِي جئتم بِهِ هُوَ السحر، لاَ الذِي سمَّاه فرعون وقومه سحرا مِنَ الآيات. ﴿إنَّ ا لله سيُبطله﴾ يظهر بطلانه. ﴿إنَّ ا لله لاَ يُصلح عملَ المفسدِينَ(٨١)﴾ لاَ يثبته بَل يدمره. ﴿ويُحقُّ ا لله الحقَّ﴾ ويثبته ﴿بكلماته﴾ بِآيَاتِه، ﴿ولو كره المجرمُونَ(٨٢)﴾.

﴿فما آمن لموسى إلاَّ ذُرِّيَّة من قومه﴾ من شيعته، ﴿عَلَى خوفٍ مِن فرعونَ وملئهم﴾ يرجع [الضمير][3] إِلَى فرعون، بمعنى: آل فرعون، ﴿أن يفتنهم﴾ يريد أن يُعذِّبهم فرعون. ﴿وإنَّ فرعون لعالٍ فِي الأَرْضِ﴾ لغالب

١ - سورة الجاثية: ٢٣.

٢ - كذا فِي الأصل، والعبارة غامضة من قوله: «فلم يتبعوا رئاستهم»، إِلَى نهاية الفقرة.

٣ - فِي الأصل: «يرجمر جع إِلَى فرعون».

فِيهَا قاهر، ﴿وَإِنَّهُ لَمِن المسرفِينَ(٨٣)﴾ فِي الظلم والفساد، وفي الكبر، وفي العتوِّ فِي ادعائه الربوبيَّة. ﴿وقال موسى: يا قوم﴾ لـمَّا رأى تخوُّف الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، ﴿إن كُنتُم آمنتم با لله﴾ صدَّقتم بِهِ وبآيَاتِه؛ ﴿فعليه تَوَكَّلوا﴾ فإِلَيْهِ أسندوا أمركم فِي العصمة من فرعون، لأَنَّ من شرط الإيمان با لله التَّوَكُّل عليه، ﴿إن كُنتُم مُسْلِمِينَ(٨٤)﴾ شرط فِي التوكُّلِ الإسلام، وَهُوَ أن يُسْلِموا نفوسهم لله، أن يجعلوها لَهُ سالمة خالصةً، لاَ حظَّ للشيطان فِيهَا، لأَنَّ التوكُّل لاَ يكون مَعَ التخليط.

﴿فَقَالُوا: عَلَى ا لله توكلنا﴾ إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ، لأَنَّ القوم كَانُوا مخلصين، لاَ جرم أنَّ ا لله قَبِل توكُّلهم وأجاب دعاءهم ونجَّاهم، وأهلك من كَانُوا يخافونه، وجعلهم خلفاء فِي أرضه؛ فمن أَرَادَ أن يصلح للتوكُّل عَلَى ربِّه فعليه برفض التخليط للاخلاص[كَذَا]. ﴿رَبَّنَا لاَ تجعلنا فتنة للقوم الظالِمِينَ(٨٥)﴾ موضعَ فتنةٍ لَهُم، أي: عذابٍ يعذِّبوننا، أو يفتنوننا عَن ديننا؛ أي: يضلُّوننا، والفاتن: المضلُّ عَن الحقِّ. ﴿ونجنا برحمتك مِنَ القوم الْكَافِرِينَ(٨٦)﴾ من كَيدهم، ومن شؤم عداوتهم.

﴿وأوحينا إِلَى موسى وأخيه أن تبوَّءا لقومِكما بمصر بيوتا﴾ تبوَّأ المكَانَ: اتَّخذه مباءة؛ كقولك: توطَّنه، إِذَا اتَّخَذَه وطنا؛ والمعنى: اجعلا بمصر بيوتا من بيوته مَبَاءَة لقومكما، ومرجعا يرجعون إِلَيْهِ للعبادة والصلاة فِيهِ، ﴿واجعلوا بيوتكم قبلةً﴾ أي: مصلًّى؛ ولعلَّهم كَانُوا فِي أوَّل الأمر مأمورين بأن يُصلُّوا فِي بيوتهم فِي خفية مِنَ الكفرة، لئلاَّ يظهروا عَلَيْهِم، فيؤذوهم

ويفتنوهم عَن دينهم؛ كما كَانَ المـُسْلِمُونَ عَلَى ذَلِكَ فِي أوَّل الإسـلام بمكّـة؛ ويحتمل أمرُه لهما أن يتبوَّءا بمصر بيوتا أي: يجعلا بها مساجد؛ والمساجد: هِـيَ بيوتٌ، كما قَالَ: ﴿فِي بيوتٍ أَذِنَ الله...﴾ الآيَـة[1]. ﴿وأقيموا الصـلاة﴾ فِي بيوتكم إشارة إِلَى «تبوَّءَا» [٢٣٨] ﴿وبشر المؤمنِينَ(٨٧)﴾.

﴿وقال موسى: رَبَّنَا إنَّك آتيت فرعون وملأه زينةً﴾ هِيَ مَا يُتزيَّن بِـهِ من لباس وحليٍّ وفرش وأثاث، وغـير ذَلِـكَ، ﴿وأموالاً﴾ بقـرا ونعمـا، وضيعـة ﴿فِي الحياة الدُّنْـيَا؛ رَبَّنَا ليضلُّوا﴾ أي: يستعينوا بذلك عَلَى الضلالة ﴿عَن سبيلك﴾ أي: طاعتك. ﴿رَبَّنَا اطمس عَلَى أموالهم﴾ أي: اهلكها، وأذهِب آثارها، لأَنَّـهُم يستعينون بنعمتك عَلَى معصيتك. والطمس: المَحقُ والإهلاك، وكـلُّ من كَـانَت معه أمـوالٌ مكنـوزة مستغن عنهـا، ليس لَـهُ فِي ادِّخارهـا نيـةٌ إلاّ التكـاثر، فهـي كالمطموس عليها، بَل هِيَ أضرُّ عليه، لأنَّهُ يعاني جمعها وحفظهـا، لا يـزال مُعَذَّبـا بها، ﴿واشدُدْ عَلَى قلوبهم﴾ اطبع عَلَى قلوبهم، واجعلهـا قاسيةً، ﴿فـلا يؤمنـوا حتَّى يروا العذاب الأليم(٨٨)﴾ عذاب الموت، وإنَّما دعا لَهُم بهذا لَمَّا أَيسَ من إيمانهم، أو علم بالوحي أنَّهم لاَ يُؤمنون؛ فأمَّا قبل أن يعلم بأنَّـهم لاَ يؤمنون، فلا يسع لَهُ أن يدعو بهذا الدعاء، لأنَّهُ أُرسل إِلَيْهِم ليدعوهم إِلَى الإيمان، وَهُوَ كقـول نوحٍ: ﴿وَلاَ يلدوا إلاَّ فاجرا كفَّارا﴾[2].

١ - سورة النور: ٣٦؛ وتمامها: ﴿فِي بيوتٍ أَذِنَ الله أن تُرفع ويُذكَر فيها اسْمُـه، يُسبح لـه فيهـا بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيـع عـن ذكـر الله وإقام الصلاة وإيتـاء الزكـاة يخافون يوما تتقلَّب فيه القلوب والأبصار﴾.

٢ - سورة نوح: ٢٧.

﴿قَالَ قد أجيبت دعوتكما﴾ والمعنى: أَنَّ دُعاءكما مستجاب، وَمَا طلبتما كائن فِي وقته؛ ﴿فاستقيما﴾ أي: عَلَى الحقِّ، وَلاَ يميل بكم الشيطان عَن الحقِّ إِلىَ الهوى. ﴿وَلاَ تَتَّبِعان سبيل الذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ(٨٩)﴾ ولاَ تَتَّبِعانِّ طريق الجهلة [الذين] لا يعلمون إلاَّ ظاهرا من الحياة الدنيا. والاستقامةُ مع اتِّبَاع سبيلِ الذِين لا يعلمون لا تستقيم أبدا.

﴿وجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ البحرَ﴾ أي: جاوزناهم فِي البحرِ، حتَّى بلغوا البَرَّ حافظين لَهُم؛ ﴿فأَتْبَعَهم فرعونُ وجنودُه بغيا وعَدوًا﴾ ليهلكهم، ﴿حتَّى إِذَا أدركه الغرق، قَالَ: آمنت أَنَّهُ لاَ إله إلاَّ الذِي آمنت بِهِ بنو إسرائيل، وأنا مِنَ الـمُسْلِمِينَ(٩٠)﴾، لأَنَّ كلَّ مخالف فِي شيء من دين الله، فحين يُدركه الموت يتوب مِمَّا خالف فِيهِ الحقَّ فِي ذَلِكَ الحين، وَلاَ تنفع التوبة حين ذَلِكَ، لأَنَّ التعبُّد قد انقطع وأقبل الجزاء.

﴿آلآن﴾ أي: تؤمن الساعةَ، فِي وقت الاضطرار، وتركتَ وقتَ الاختيار؛ وَمَا كَانَ يُدعى إلاَّ إِلىَ ذَلِكَ؛ ولو علم الله فِيهِ خيرا، ومنه خيرا لقالها قبل ذَلِكَ. ﴿وقد عَصَيتَ قبلُ﴾ (لعلّه) الماضي من عُمِرك الذِي عُمِّرته، ﴿وكنت مِنَ المفسدِينَ(٩١)﴾ مِنَ الضالِّين المضلِّين.

﴿فاليومَ نُنجيكَ بِبَدَنِك لتكونَ لِمَن خَلْفَك آيةً﴾ لمن وراءه مِنَ الناس، أن تَظهرَ عبوديَّته، وأَنَّ مَا كَانَ يدَّعي مِنَ الربوبيَّة فهو محال؛ وأنَّه مَعَ مَا كَانَ فِيهِ من عِظم الملك، آل أمرُه إِلىَ مَا ترون لعصيانه ربَّه. ﴿وإِنَّ كثيرا مِنَ الناس عَن آياتنا لغافِلُونَ(٩٢)﴾ لاَ يتفكَّرون فِيهَا، وَلاَ يعتبرون.

﴿وَلَقد بَوَّأنَا﴾ أي: أنزلنا ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأ صدق﴾ وَهُوَ كقوله: ﴿أدخِلْنِي مُدخل صِدقٍ وأخرِجْني مخرجَ صِدقٍ﴾[1]. ﴿ورزقناهم مِنَ الطَّيبَات﴾ مِنَ الأعمال الصالحة والأرزاق الواسعة، لـمَّا أطاعوا واستقاموا. ﴿فما اختلفوا﴾ فِي دينهم ﴿حَتَّى جاءهم العلم﴾ فكَانَ الاختلاف بَيْنَهُم بعد قيام الحجَّة. ﴿إنَّ ربَّكَ يقضي بَيْنَهُم يومَ القيامة فيما كَانُوا فِيهِ يختلفونَ(٩٣)﴾ فَيُجازي كلاًّ عَلَى قدرِ عمله، ويميِّز المحقَّ مِنَ المبطل بالإنجاء والإهلاك.

﴿فإن كنتَ فِي شكٍّ [٢٣٩] مِمَّا أنزلنا إليك فاسأل الذِينَ يقرءُون الكتابَ مِن قَبلك﴾ لـمَّا قدَّم بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُم قُرَّاءُ الكتاب، وصفهم بِأَنَّ العلم قد جاءهم، لأنَّ أمر رسول الله ﷺ مكتوب فِي التَّوْرَاة والإِنجِيل، وَهُم أبناؤهم؛ أَرَادَ أن يحقِّق علمهم بصِحَّة القرآن وصِحَّة نبوَّة محمَّد ﷺ، ويبالغ فِي ذَلِكَ، فقال: فإن وقع لك شكٌّ، فرضا وتقديرا، وسبيل من خالَجَته شبهةٌ أن يسارع إِلَى حَلِّها بالرجوع إِلَى قوانين الدين وأدلَّته، أو بمباحثة العلماء؛ كأنَّه قَالَ لَهُ: فاسأل أهل الكتاب، فإنَّهم مِنَ الإحاطة بصِحَّة مَا أُنزل إليك بحيث يَصلحون لمراجعة مثلك فضلا عَن غَيرك؛ والمراد: وصفُ الأخبار بالرسوخ فِي العلم بصِحَّة مَا أُنزل إِلَى رسول الله، لاَ وصف رسولِ الله بالشكِّ فِيهِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿لَقَد جاءك الحقُّ من رَبك﴾ أي: ثبت عندك بالآيات الواضحة، والبراهين اللائحة أنَّ ما أتاك هُوَ الحقُّ الذِي لاَ مجال فِيهِ للشَّكِّ، ﴿فلا تكونَنَّ مِنَ الممترِينَ(٩٤)﴾ الشاكِّين.

---

١ - سورة الإسراء: ٨٠.

﴿وَلاَ تكونَنَّ مِنَ الذِينَ كذَّبوا بآيَاتِ ا للهِ﴾ بشيء من حُجَجِه؛ ﴿فتكونَ مِنَ الخاسرينَ(٩٥)﴾ أي: فاثبتْ ودُمْ عَلَى مَا أنت عليه من انتفاء المِريَة عنك، والتكذيب بآيَاتِ ا للهِ؛ أو هُوَ عَلَى طريقة التهييج، كقوله: ﴿فلا تكونَنَّ ظهيرا للكَافِرِينَ﴾[1]؛ أو معناه: لاَ نأمرك بالسؤال لأنَّك شاكٌّ، ولكن لتزداد يقينا كما ازداد إبراهيم يقينا بمعاينة إحياء الموتى.

﴿إنَّ الذِينَ حقَّت عَلَيْهِم كلمة رَبِّك﴾ لعنته إيَّاهم؛ إذ ثبت عَلَيْهِم قول ا للهِ الذِي كتبه فِي اللوح؛ وقيل: كلمة رَبِّكَ قوله: «*هؤلاء فِي النار، وَلا*[2] *أبالي*»[3]. ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ(٩٦) ولو جاءتهم كُلُّ آية﴾ أي: كلُّ آية من آيات ا للهِ، لأنَّ الآيَة التِي أتتهم مثل الآيات التِي لم تأتهم، لأَنَّهُ قيل: «من لم ينفعه قليل الحكمة، ضرُّه كثيرها، وزاده عَشوَة وصمما وبكما»، ﴿حتَّى يروا العذاب الأليم(٩٧)﴾ أي: عند الموت، فيؤمنون ولكن لا ينفعهم، لأنَّ التعبُّد قد ارتفع.

---

١ - سورة القصص: ٨٦.

٢ - فِي الأصل: «والا»، وهو خطأ.

٣ - حديث قدسيٌّ رواه احمد فِي مسنده عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ قَتَادَةَ السُّلَمِي أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ ا للهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ ا للهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ أَخَذَ الْخَلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ، وَقَالَ: هَؤُلاَءِ فِي الْجَنَّةِ وَلاَ أُبَالِي، وَهَؤُلاَءِ فِي النَّارِ وَلاَ أُبَالِي»، قَالَ: فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ ا للهِ، فَعَلَى مَاذَا نَعْمَلُ؟ قَالَ عَلَى مَوَاقِعِ الْقَدَرِ». مسند الشاميين، رقم ١٧٠٠٠، وَفِي لفظ آخر: عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ رَسُولَ ا للهِ ﷺ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ ﴿وَأَصْحَابُ الشمَالِ﴾ فَقَبَضَ بِيَدَيْهِ قَبْضَتَيْنِ فَقَالَ: هَذِهِ فِي الْجَنَّةِ وَلاَ أُبَالِي وَهَذِهِ فِي النَّارِ وَلاَ أُبَالِي»، مسند الأنصار: ٢١٠٦٢؛ ونحوه فِي مسند القبائل، برقم: ٢٦٢١٦. العالمية: موسوعة الحديث، مادة البحث: «لا أبالي».

﴿فلولا كَانَت قريةٌ آمنت﴾ فهلاَّ كَانَت قريةٌ وَاحِدَة مِنَ القرى أهلكناها، تابت عَن الكفر، وحصَّلت الإيمان قبل المعاينة و لم تُوخِّره، كما أخَّرَ فرعون وأمثاله إِلَى أن أُخذوا بمخنَقِهم. ﴿فنفعها إيمانُها﴾ بأن يَقبل ا لله منها لوقوعه فِي وقتِ الاختيار، ﴿إلاَّ قومَ يُونس﴾ كأنَّه قَالَ: مَا آمن أهل قريةٍ مِنَ أهل القرى العاصية، فنفعهم إيمانهم إلاَّ قوم يونس، ﴿لَمَّا آمنوا كشفنا عَنْهُم عذاب الخزي فِي الحياة الدُّنْيَا﴾ وَهُوَ مكشوف عَن كلِّ مُؤْمِن، وحالٌّ بِكُلِّ كافر، بدليل هَذِهِ الآيَة. ﴿ومتَّعناهم إِلَى حِينَ(٩٨)﴾ إِلَى آجالهم، وكلُّ من آمن إيمانا حقيقيًّا قبل التغرغر يُكشف عَنْهُ العذاب فِي الحياة الدُّنْيَا، ومُتِّع(1) متاعا طيِّبا إِلَى الموت، لأَنَّ العذاب مِنَ ا لله فِي الدُّنْيَا والآخِرَة لاَ يستحقُّه إلاَّ من سبق مِنْهُ ذنبٌ، عقوبةً لَهُ مِنَ ا لله؛ ومن سبق مِنْهُ الإحسان لاَ يكون جزاؤه إلاَّ الإحسان مِنَ ا لله لَهُ فِي الدُّنْيَا والآخِرَة.

﴿ولو شاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي [٢٤٠] الأَرْض كلُّهم﴾ بحيث لاَ يشذُّ مِنْهُم أحدٌ؛ ﴿جميعا﴾ مجتمعين عَلَى الإيمان مُطبِقين عليه لاَ يختلفون فِيهِ. أخبر عَن كمال قُدرته ونفوذ مشيئته، أنَّه لو يَشَاء لآمن من فِي الأَرْض كلُّهم، ولكنَّه شاء أن يُؤْمِنُ بِهِ من عَلِم مِنْهُ اختيار الإيمان بِهِ، وشاء الكفر مِمَّن علم أنَّه يختار الكفر وَلاَ يُؤْمِنُ بِهِ؛ وَهُوَ مشيئة علم وقضاء وقدر، لاَ مشيئة أمر وجَبْرٍ جلَّ ا لله عَن ذَلِكَ. ﴿أفأنت تُكرِهُ الناس﴾ بمَا لم يَشَأ ا لله؛ والدليل عَلَى أَنَّ خلاف المشيئة مستحيل، لاَ يمكن تحصيله بالإكراه عليه، فضلا عَن

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الأصوب: «ويمتَّع».

الحثّ والتحريض عليه [قولـه]: ﴿حتّى يكونوا مؤمنِينَ(٩٩)﴾ أي: ليس مشيئة الإكراه والجبر فِي الإيمان، إنَّمَا ذَلِكَ إِلَىَ ا لله تعالى فاسد، لأنَّ الإيمان فِعلُ العبد، وفعله مَا يحصل بقدرته، وَلاَ يتحقّق ذَلِكَ بدون الاختيار. وتأويله عندنا: أنَّ ا لله لو أعطاهم لآمنوا كلُّهم عَن الاختيار، ولكن عَلِم مِنْهُم أنـّهم لاَ يُؤْمِنُونَ، فلم يُعطهم ذَلِكَ، وَهُوَ التوفيق. عَن ابن عبَّاس: «كَانَ رسول ا للهﷺ حريصا عَلَى أن يُؤْمِنُ جميع الناس، (لعلّه) ويبايعوه عَلَى الهدى؛ فأخبر ا لله تعالى أنـّه لاَ يُؤْمِنُ إلاّ من (لعلّه) سبق لَهُ مِنَ ا لله السعادةَ فِي الأزل وَهُوَ[...][1]».

﴿وَمَا كَانَ لنفس أن تؤمن إلاّ بإذن ا لله﴾ بمشيئته، أو بقضائه، أو بتوفيقه وتيسيره؛ ﴿ويجعل الرجسَ﴾ الكفرَ، لأنـّهُ يرجسهم، ﴿عَلَى الذِينَ لاَ يعقلُونَ(١٠٠)﴾ لاَ ينتفعون بعقولهم.

﴿قل: انظروا﴾ نَظَرَ استدلالٍ واعتبار ﴿ماذا فِي السَّمَاوَات والأرْض﴾ مِنَ الآيات والعبر، استدلالا لكمال قدرته، وذلك [بـ]ـتقصِّي جميع الكائنات، لأَنـَّهَا دالّة عَلَى وحدانية ا لله تبارك وتعالى، وشاهدة لَهُ بالألوهية، وشاهدة عَلَى نفسها بالعجز والفناء؛ وكلُّها حججٌ، إلزاما للقبول أو للترك، وأنموذجا للسعادة والشقاء، وإنـّها جنّةٌ معجَّلةٌ لأهل الجنّة، ونار معجّلة لأهل النار؛ ﴿ونادى﴾ بلسان الحال، ﴿أصحابُ الجنّةِ أصحابَ النار أن قد وجدنا مَا

---

١ - وضع الناسخ إحالة إِلَىَ الحاشية، ولم يكتب شيئا؛ وفي العبارة سقط واضح، تقديره: «قوله تعالى...».

وعدنا رَبُّنَا حقًّا؛ فهل وجدتّم ما وعد رَبُّكُم حقًّا؟ قَالُوا:﴾ بلسان حالهم، ﴿نعم. فأذّن مُؤذّن بَيْنَهُم أن لعنةُ الله عَلَى الظالمين، الذِينَ يصدُّون عَن سبيل الله، ويبغونها عِوجا، وَهُم بالآخِرَة كَافِرُونَ﴾[1]. ﴿وَمَا تُغنِي الآياتُ والنذُر عَن قوم لاَ يُؤْمِنُونَ(١٠١)﴾ فِي علمه وحكمه.

﴿فهل ينتظرون إلاّ مثل أيَّامِ الذِينَ خلَوا من قبلهم﴾ (لعلّه) من مكذّبي الأمم، مثل وقائعهم، ونزول بأس الله بهم، إذ لاَ يستحقّون فِي الحقائق غيره. ﴿قل: فانتظروا إِنـي معكم مِنَ المنتظِرِينَ(١٠٢)﴾ ذَلِكَ؛ أو فانتطروا إهلاكي إِنّي معكم مِنَ المنتظرين إهلاككم.

﴿ثمَّ نُنَجي رسلَنا﴾ كأنّه قيل: نُهلك الأمم، ثُمَّ نُنَجِّي رسلَنا عَلَى حكاية الأحوال الماضية. ﴿وَالذِينَ آمنوا﴾ وَمَن آمن معه، ﴿كذلك حقًّا علينا﴾ فِي الحقيقة لا يمكن ولا يتأتّى خلافه، لأنّهُ ينافي الحكمة الإلهية. ﴿نُنجِ المؤمنِينَ(١٠٣)﴾ أي: مثل ذَلِكَ الإنجاء ننجِي المؤمنين منكم، [٢٤١] ونُهلك الْكَافِرِينَ.

﴿قل: يَا أَيُّهَا الناس﴾ الخطاب لجميع من أُرسل إِلَيْهِم النَّبيُّ مُحَمَّدﷺ ﴿إن كُنتُم فِي شكّ من ديني﴾ وصحّته وصفته وتأصيله؛ فهذا دينِي فاسمعوا وصفه؛ ثُمَّ وصف دينه فقال: ﴿فلا أعبُد الذِينَ تعبدون من دون الله﴾ أي: الأصنام، أو الشيطان، أو الأهوِيَة. وفِي الحقيقة إنّهم يعبدون أهويتهم؛

---

١ - سورة الأعراف: ٤٤-٤٥.

﴿**ولكن أعبُدُ الله الذِي يَتوفَّاكم**﴾ فهذا خاصَّةُ ديني اعتقادا وعملا، (لعلّه) وتَركًا؛ فاعرضوها عَلَى العقلِ الصرفِ، وانظروا فِيهِ بعين الإنصاف لتعلموا صحَّته؛ وَهُوَ أنِّي لاَ أعبد مَا تخلقونه وتعبدونه؛ ولكن أعبد خالقَكم الذِي هُوَ يُوجدُكم ويتوفَّاكم؛ وإنَّما خَصَّ التوفِّيَ بالذكر للتهديد. ﴿**وأُمرت أن أكون مِنَ المؤمِنِينَ(١٠٤)**﴾ يعني: أنَّ الله أمرني بذلك، بِمَا رَكَّبَ فِيَّ مِنَ العقل، وبما أوحى إليَّ فِي كتابه.

﴿**وأن أقِم وجهَكَ للدين**﴾ أي: استقم مُقبلا بوجهك؛ أي: بقلبك وجوارحك عَلَى مَا أمرك الله بِهِ، ولا تلتفت عَنْهُ يمينا وَلاَ شمالا، فإنَّه الصِّرَاط المُسْتَقِيم، وَمَا سواه ففيه المهاوي والمغاوي. ﴿**حنيفا**﴾ مائلاً عَن كُلِّ دين. ﴿**وَلاَ تكوننَّ مِنَ المشركِينَ(١٠٥)**﴾ نهيٌ لَهُ عَن جليِّ الشرك وخفيِّه؛ وذلك يقتضي جميع المعاصي.

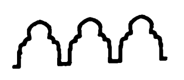
﴿**وَلاَ تَدْعُ**﴾ أي: وَلاَ تعبد، لأنَّ الدعاء ها هنا العبادة، ﴿**من دون الله مَا لاَ ينفعك**﴾ إن دعوته، ﴿**وَلاَ يضرُّك**﴾ إن أهملته، ﴿**فإن فعلت**﴾، فإن دعوت شَيْئًا من دون الله، أي: عبدت غير الله، ﴿**فإنَّك إذًا مِنَ الظالِمِينَ(١٠٦)**﴾، لأَنَّهُ لاَ ظُلم أعظم مِنَ الشرك، وَهُوَ يقتضي جميع معاصي الله.

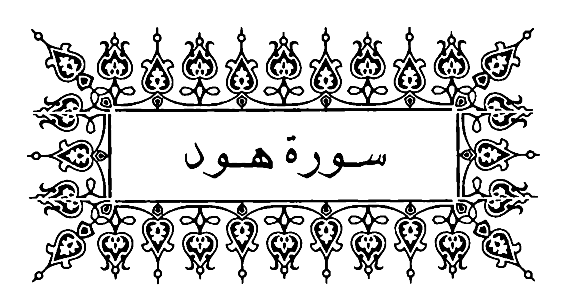
﴿**وإن يَمسسك الله بِضُرٍّ فلا كاشفَ لَهُ إلاَّ هُوَ**﴾ وَلاَ شَيْء أضرُّ مِنَ المعصية، ﴿**وإن يُردكَ بخير**﴾ وهي طاعة الله، لأَنَّهُ ليس بعدها خير، ﴿**فلا رآدَّ لفضله**﴾ فلا رادَّ لمرادِه؛ وَهُوَ صفةُ المستحقِّ للعبادة، ﴿**يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِن عباده**﴾ قطع بهذه الآيَة عَلَى عباده طريقَ الرغبة والرهبة إلاَّ إلَيْهِ،

والتوكُّل إلاَّ عليه؛ ﴿وَهُوَ الغَفُور﴾ المكفِّر بالبلاء، ﴿الرحيم(١٠٧)﴾ المعافي بالعطاء؛ أتبع النهي عَن عبادة الأوثـان، ووصفهـا، لأنــَّهَا لاَ تضـرُّ وَلاَ تنفـع؛ وَا للهُ عزَّ وجلَّ المستحقُّ للعبادة، إنْ أصابك بضرٍّ، لم يقدر عَلَى كشفه إلاَّ هُـوَ وحده؛ وإن أرادك بخير لم يُرِد أحدٌ غير مَا يريده بك مِـنَ الفضـل والإحسـان؛ وَهُوَ الحقيقُ إذا بان توجه إليه العبادة (لعلَّه) ورفض دونها[كَذَا].

﴿قل: يَـا أَيُّـهَا النـاس﴾ والجنُّ داخلون فِي هَـذَا الخطـاب، ﴿قـد جـاءكم الحَقُّ﴾ فِي هَذِهِ السورة، أو فِي جميع القـرآن، ﴿مِـن رَبـكُم؛ فمـن اهتـدى﴾ اختار الهدى واتَّبع الحقَّ، ﴿فإنـَّما يهتدي لنفسه﴾ فما نفع باختياره إلاَّ نفسَه، ﴿ومن ضَلَّ فإنـَّما يَضِلُّ عليها﴾ ومن آثر الضلال، فما ضرَّ إلاَّ نفسه؛ ﴿وَمَـا أنا عَلَيْكُم بوكيل(١٠٨)﴾ بحفيظ، موكول إِلىَ أمركم.

﴿واتَّبِع مَا يُوحَى إليك﴾ من وحـيٍ رسولٍ أو إلهـام، ﴿واصبر﴾ أمَـرَه بالصبر عَلَى اتـِّبَاع مَا يُوحى إِلَيْـهِ، لأنـَّهُ لاَ يُبلِّغ إلاَّ بـه، ﴿حتَّـى يحكـمَ ا للهُ﴾ بوصول أجلِك، أو بينك وبين من خالفك، ﴿وَهُوَ خـير الحـاكمِينَ(١٠٩)﴾ إذ لاَ يُمكن الخطأ فِي حكمه، لاطِّلاعه عَلَى السرائر، اطِّلاعَه عَلَى الظواهر.





# سورة هود

مائة واثنتان أو ثلاث وعشرون آية[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر كِتَابٌ﴾ أي: هَذَا كِتَاب؛ كأنـه يصف مَا فِي هَذِهِ السورة. ﴿أحكمت آياته﴾ صفة لَـهُ، أي: نُظمت نظما قويًّا مُحكما، لاَ يقع فِيهِ [٢٤٢] نُقص وَلاَ خلل كالبناء المحكم؛ ﴿ثُمَّ فُصِّلَت﴾ كما تُفصَّل القلائد بالفرائد، من دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص؛ أو جُعِلَت فصولا معنى معنى مَا يحتاج إِلَيْهِا العباد[2]؛ أي: بُيِّن ولُخِّص ﴿من لدن حكيم خبير(١)﴾ أي: من عنده إحكامُها وتفصيلُها.

﴿أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ ا لله﴾ أي: لئلاَّ تعبدوا إِلاَّ ا لله، وفائدة إحكامها وتفصيلها، قوله: ﴿إِنَّني لكم مِّنْهُ نذيرٌ وبشير(٢)﴾ أي: آمرُكم بالاستغفار عَن الشرك، وأَحثُّكم عَلَى التوحيد.

---

١ - فِي الأصل: «الآية»، وهو خطأ.

٢ - كذا فِي الأصل، وَفِي تفسير أبي السعود: «أو فصِّل فيها مهمَّات العباد». أبو السعود: تفسير أبي السعود، مج٢/ ج٢/ ص١٨٢.

﴿وأن استغفروا رَبَّكُم ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ﴾ أي: ارجعوا إِلَى ا لله من هوى[1] أنفسكم بالطاعة والعبادة؛ ﴿يُمتّعكم متاعا حسنا﴾ يَمنحكم مَا يكفيكم، ويَمنعكم مَا يُطغِيكم، أو يمتعكم بالعقول السليمة مِنَ الهوى؛ ﴿إِلَى أجل مسمىً﴾ إِلَى أن يتوفّاكم، ﴿ويُؤتِ كُلَّ ذي فضل فضله﴾ ويُعطي فِي الآخِرَة كُلَّ مَن كَانَ لَهُ فضل فِي العمل. ﴿وإن تولّوا﴾ أي: وإن تتولّوا عَن الإيمان؛ ﴿فإنّي أخاف عَلَيْكُم عذابَ يوم كبير(٣)﴾ هُوَ يوم القيامة، لأَنَّهُ أكبر من كُل عذاب فِي الدُّنْيَا. ﴿إِلَى ا لله مرجِعُكم﴾ إِلَى الجزاء، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شيء قدير(٤)﴾.

﴿ألاَ إِنَّهم يثنون صدورَهم﴾ يَزْوَرُّون عَن الحق، ويَحرفون عَن الحق، لأَنَّ من أقبل عَلَى شيء، استقبله بصدره؛ ومن ازورَّ عَنْهُ وانحرف ثنى عَنْهُ صدرَه وطوى عَنْهُ كَشحَه[2]. ﴿ليستخفوا مِنْهُ﴾ ليطلبوا الخفاء مِنَ ا لله، فلا يطّلع رسولُه والمؤمنون عَلَى ازورارهم. ﴿ألاَ حين يَستغشَون ثيابهم﴾ ألاَ حين يأوون إِلَى فراشهم يتغطّون بها، أي: يريدون الاستخفاء حين يستغشون ثيابهم، كراهةً لاستماع كلام ا لله، كقول نوح: ﴿جَعَلُوا أصابعَهم فِي آذانهم، واستغشَوا ثيابهم﴾[3]. وكلُّ هَذَا استعارة بمعنى الإعراض عَن قبول الحق،

---

١ - فِي الأصل: «+ هواء».

٢ - الكشْحُ: ما بين الخاصرة إِلَى الضلع الخَلف، وَهُوَ من لدن السرّة إِلَى المتن... ويقال: طوى كشحه عنه إذا أعرض عنه». ابن منظور: لسان العرب، ٥/٢٦١.

٣ - سورة نوح: ٧.

(لَعَلَّهُ) لأَنَّهُ كالساتر نفسه عَن أن يَرَى الحقّ أو يراه. ﴿**يعلم مَا يُسرُّون وَمَا يُعلنون**﴾ أي: لاَ تفاوت فِي علمه بين ذَلِكَ؛ فلا وجه لتوصُّلهم إِلَى مَا يريدون مِنَ الاستخفاء، وَا للهُ مطّلع عَلَى ثَنيهم صدورهم، واستغشاءِ ثيابهم ونفاقِهم، فغير[1] نافع لَهُم؛ ﴿**إِنَّهُ عليم بذات الصدور(٥)**﴾ بِمَا فِيهَا.

﴿**وَمَا من دَابَّة فِي الأَرْض إِلاَّ عَلَى ا لله رزقها**﴾ غذائها، وَمَا لاَ تقوم إِلاَّ بِهِ من جلب مَا ينفعها، ودفع مَا يهلكها فِي الدارين، لتكفُّله إيَّاهَا، ﴿**ويعلم مستقرَّها**﴾ مكانها مِنَ الأَرْض، ﴿**ومستودَعَها**﴾ حيث كَانَ مستودعها قبل الاستقرار، من صلب أو رحم أو بيضة فيما قيل، ﴿**كلٌّ فِي كِتَاب مُبِين(٦)**﴾ كُلُّ وَاحِد مِنَ الدواب ورزقها ومستقرُّها ومستودعها فِي اللوح، يعني: ذِكْرُها مكتوب فِيهِ مبيَّن.

﴿**وَهُوَ الذِي خلق السَّمَاوَات والأَرْض**﴾ أي: وما بينهما ﴿**فِي ستَّة أيَّام**﴾ قيل: تعليما للتأني، لأَنَّ ا لله قادر أن يخلق جميع المخلوقات وأضعافهم مضاعفات معًا، كلمح البصر أو أقرب. ﴿**وكَانَ عرشه عَلَى الماء**﴾ أي: فوقه؛ وفي وقوف العرش عَلَى الماء لعِظَمِه أعظمُ الاعتبارِ لأهل الأفكار. ﴿**ليَبلوَكم**﴾ أي: خلق السموات والأَرْض وَمَا بينهما للممتحَن فيهما؛ و لم يخلق هَذِهِ الأشياء لأنفسها؛ وجميع مَا خلق ا لله من شيء من غير المتعبدين للمتعبدين، لاَ لأنفسها، وَلاَ عبثا وَلاَ لهوا وَلاَ لعبا، جلَّ ا لله عَن ذَلِكَ. ﴿**أيُّكم أحسن عملا**﴾ أكثر شكرا، [٢٤٣] وعنه ﷺ: «*أحسن عقلا،*

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الأصوب: «فهو غير نافع».

*وأورع عَن محارم الله، وأسرع فِي طاعة الله»*[1]؛ فمن شكر وأطاع أثابه، ومن كفر وعصى عاقبه، ولَـمَّا شبه ذَلِكَ اختبارَ المختبر قَالَ: ﴿ليبلوكم﴾ أي: ليفعل بكم المبتَلِي لأحوالكم [لينظر] كيف تَعْلَمُونَ. **﴿ولئن قلتَ: إنَّكم مبعوثون من بعدِ الموتِ، ليقولنَّ الذِينَ كَفَرُوا: إن هَذَا إلاَّ سحر مُبِين(٧)﴾** (لَعَلَّهُ) أشاروا بهذا إِلَى القرآن، [و]هُوَ الناطق بالبعث، فإذا جعلوه سحرا فقد اندرج تحته إنكار مَا فِيهِ مِنَ البعث وغيره.

**﴿ولئن أخّرنا عَنْهُم العذابَ﴾** عذاب مَا وُعِدوا بِهِ، **﴿إِلَى أمَّة معدودة﴾** إِلَى جماعة مِنَ الأوقات معلومة أو قلائل، والمَعنَى: إِلَى حينٍ معلومٍ، **﴿ليقُولُنَّ مَا يَحبسُه﴾** مَا يمنعه مِنَ النزول، استعجالا له عَلَى وجه التكذيب والاستهزاء، **﴿ألاَ يومَ يأتيهم﴾** العذابُ **﴿ليس مصروفاً عَنْهُم، وحاق بهم﴾** وأحاط بهم **﴿مَا كَانُوا بِهِ يستهزءُونَ(٨)﴾** (لَعَلَّهُ) بالعذاب الذِي كَانُوا يستعجلون؛ وإنَّما وضع: «يستهزءون» موضع «يستعجلون» لأنَّ استعجالهم كَانَ عَلَى وجه الاستهزاء.

**﴿ولئن أذقنا الإنسان﴾** هُوَ للجنس، **﴿مِنَّا رحمة﴾** نعمة، **﴿ثُمَّ نزعناها مِنْهُ إِنَّهُ ليئوس﴾** شديد اليأس من أن تعود إِلَيْهِ مثل تلك النعمة المسلوبة، قاطع رجاءه من سعة فضل الله من غير صبر وَلاَ تسليم لقضائه، **﴿كفور(٩)﴾** عظيم الكفران لِمَا سلف لَهُ مِنَ التقلُّب فِي نعمة الله، نسَّاء لَهُ.

---

١ - لم نعثر عَلَيه في الربيع ولا في الكتب التسعة ولا في الجامع الصغير وزياداته. ونفس الرواية أوردها أبو السعود في تفسيره، مج٢/ ج٢/ ص١٨٧-١٨٨.

﴿ولئن أذقناه نعماءَ بعد ضرَّاءَ مسَّته﴾ كصِحَّة بعد سقم، وغنًى بعد عدم؛ وفي اختلاف الفعلين نكتة لاَ تخفى بالنعم إلاَّ معترِبها[كَذَا]. ﴿ليقُولَنَّ ذهب السَّيِّئَاتُ عنِّي﴾ أي: المصائب التِي ساءتني، ﴿إِنَّهُ لفَرِحٌ﴾ أشِرٌ بَطِرٌ، ﴿فخورٌ(١٠)﴾ على الناس بِمَا أذاقه ا لله من نعمائه، وقد شغله الفرح والفخر عَن الشكر؛ والفرح: لذَّة فِي القلب، (لَعَلَّهُ) يبتلي بها المشتهي. والفخر هُوَ: التطاول عَلَى الناس، بتعديل المناقب، وذلك منهيٌّ عَنْهُ.

﴿إلاَّ الذِينَ صبروا﴾ فِي المحنة والبلاء، ﴿وعَمِلوا الصالحات﴾، وشكروا فِي النعمة والرخاء، وطبعوا أنفسهم للطاعة عَن طبعها الأصلي، ﴿أُولَئِكَ لَهُم مغفرةٌ﴾ لصغائر ذنوبهم، ﴿وأجرٌ كبيرٌ(١١)﴾ عَلَى صبرهم، أكبرمن كل أجر فِي الدُّنْيَا، ولو أُعطِيَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا أجراً، فأجره فِي الآخِرَة أكبر عَلَى مقابلة العذاب الكبير.

وكَانُوا يقترحون عليه آيات تعنُّتاً لاَ استرشادا، لأَنَّهُم لو كَانُوا مسترشدين، لكانت آية وَاحِدَة مِمَّا جاء بِهِ كافية فِي إرشادهم، ومِن اقتراحاتهم: ﴿لولا أنزل عليه كنزٌ أو جاء معه ملكٌ﴾؛ وكَانُوا لاَ يقتدون بالقرآن، ويتهاونون بِهِ، فكَانَ يضيق صدره أن يُلقِي إِلَيْهِم مَا لاَ يقبلونه، ويضحكون مِنْهُ فَيُهيجُه لأداء الرسالة، وطرح مبالاة بردهم [كَذَا] لاستهزائهم واقتراحهم بقوله: ﴿فلعلَّك تاركٌ بعض مَا يوحَى إليك﴾ تترك تبليغ بعض مَا يُوحى إليك، وَهُوَ مَا يخالف هوى المشركين، مخافة ردهم واستهزائهم بِهِ، ﴿وضائِقٌ بِهِ صدرُكَ﴾ بأن تتلوهُ عليهم؛ ولم يقل: «ضيقَ»، ليدلَّ عَلَى أنَّه ضَيقٌ عارض غير ثابت، لأَنَّهُ [٢٤٤] عَلَيْهِ السَّلام

كَانَ أفسحُ الناس صدراً، ﴿أن يقولوا﴾ مخافة أن يقولوا: ﴿لولا أُنزِل عليه كنز﴾ ينفقه فِي الاستباع، كما تُنفِق الملوك من خزائنها، ﴿أو جاء معه ملك﴾ يصدقه ويشهد لَهُ بالرسالة؛ ﴿إنـَّما أنت نذير﴾ أي: ليس لك إلاّ أن تُنذِرهم بِمَا أُوحِيَ إليك، وتُبلّغهم مَا أُمِرت بتبليغه؛ وَلاَ عليك إن رَدُّوا أو تهاونوا، ﴿وا لله عَلَى كُلِّ شيء وكيل(١٢)﴾ يحفظك مِنْهُم، ويحفظ مَا يقولون، وَهُوَ فاعل بهم مَا يجب أن يفعل؛ فتوكَّل عليه، وَكِلْ أمركَ إِلَيْهِ، وعليك بتبليغ الوحي بقلب فسيح وصدر منشرح، غير مُلتفِت إِلَى استكبارهم، وَلاَ مبال بسَفههم واستهزائهم.

﴿أم يقولون افتراه، قل: فأتوا بعَشْرِ سُوَرٍ مِثلِهِ﴾ فِي الحسن والجزالة، ﴿مُفتَرَيَاتٍ﴾ لـمَّا قَالُوا لَهُ: افتريت القرآن واختلقته من عند نفسك، وليس هُوَ من عند ا لله، أرخى معهم العِنان، وقال: هَبُوا أني اختلقته من عند نفسي، فأتوا أَنتُم أَيْضًا بكلام مثله مُختَلقٍ من عند أنفسكم، فَإِنـَّكُم عرب فصحاء مثلي، تقدرون على مَا أقدر عليه، ﴿وادعوا من استطعتم مِن دونِ ا لله﴾، (لَعَلَّهُ) من جنٍّ وإنسٍ إِلَى المعاونة عَلَى نَظمِها، ﴿إن كُنتم صادقِينَ(١٣)﴾ أنـَّه مفترًى.

﴿فإن لم يستجيبوا لكم، فاعلموا أنـَّما أُنزِل بعِلمِ ا لله﴾ (لَعَلَّهُ) وأن لاَ مخلوق يقدر ذَلِكَ، وأُنزِل بعلم ا لله[1]، ﴿وأن لاَ إله إلاَّ هُوَ﴾ أي: أُنزِلَ مُلتَبسًا بِمَا لاَ يعلمه إلاَّ ا لله، من نَظْمٍ مُعجزٍ للخلق، وإخبارٍ بغيوب لاَ سبيل لَهُم إِلَيْهِ؛ واعلموا عند ذَلِكَ: أن لاَ إله إلاَّ ا لله وحده، ﴿فهل أنتم

١ - هنا وضع الناسخ إحالة إِلَى الحاشية ولم يكتب بها شيئًا، ويبدو أنَّ فِي العبارة خللا.

**مُسْلِمُونَ(١٤)﴾** متابعون الإسلام بعد هَذِهِ الحجة القاطعة؟، ومن جَعَلَ الخطاب للمسلمين، فمعناه: فاثبتوا عَلَى العلم الذِي أَنتُم عليه، وازدادوا يقينا عَلَى أنَّه مُنزلٌ من عند الله وعلى التوحيد، فهل أَنتُم مُسْلِمُونَ مخلصون؟.

**﴿من كَانَ يريد الحياة الدُّنْيَا وزينتَها﴾** هُوَ مَا حرَّمه الله وحَجَره، **﴿نوفٌ إِلَيْهِم أعمالهم فِيهَا﴾** نولِّهم مَا تولّوا، ونُخلِّهم وَمَا يهوونه، **﴿وَهُم فِيهَا لاَ يُبخَسُونَ(١٥)﴾** نُوصِل إِلَيْهِم مَا قدَّرناه لَهُم من غير نقصان وَلاَ بخس، وَهُوَ مَا يُرزقون فِيهَا مِنَ الصِحَّة والرزق عَلَى وجه الاستدراج والإملاء.

**﴿أُولَئِكَ الذِينَ ليس لَهُم فِي الآخِرَة إِلاَّ النارُ﴾**، لأَنَّهُم لم يسلكوا غير طريقها، **﴿وحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾** وحبط فِي الآخِرَة مَا صنعوه فِي الدُّنْيَا؛ ولم يكن لَهُم ثوابٌ، لأَنَّهُم لم يريدوا بِهِ الآخِرَة لـمَّا أرادوا بِهِ الدُّنْيَا، وقد وفَّى إِلَيْهِم مُحَمَّد مَا أرادوا، **﴿وباطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٦)﴾** أي: كَانَ عملهم فِي نفسه باطلا، لأَنَّهُ لم يعمل لغرض صحيح؛ والعمل الباطل لاَ ثواب لَهُ، ذاهب أصله وفرعه.

**﴿أفمن كَانَ عَلَى بيِّنة من رَبِّه﴾** أفمن كَانَ عَلَى بَينَة لاَ يَعقُبونَهم وَلاَ يُقَارِبونَهم؛ يعني: أنَّ مَا بين الفريقين تبايناً بينًا، والبينة: البرهان مِنَ الله، وبيان أنَّ دين الإسلام حقٌّ، (لَعَلَّهُ) وَهُوَ دليل العقل، **﴿ويتلوه شاهد﴾** العالم المحقُّ، **﴿مِنْهُ﴾** مِنَ القرآن؛ وقيل: البينة: هُوَ العالم المـُحِقُّ، والشاهد مِنْهُ: لسانُه. **﴿ومِن قَبْلِه﴾** ومن قَبلِ [٢٤٥] القرآنِ، **﴿كِتَابُ موسى﴾** وَهُوَ التَّوْرَاة؛ أي: ويتلو ذَلِكَ البرهان أَيْضًا من قبل القرآن كِتَابُ موسى،

﴿إماماً﴾ كِتَابًا مُؤتَمًّا بِهِ فِي الدين قدوة فِيهِ، ﴿ورحمة﴾ ونعمة عظيمة عَلَى متّبعيه؛ ﴿أولَئِكَ﴾ من كَانَ عَلَى بينة، ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالقرآن؛ ﴿ومن يكفر بِهِ مِنَ الأحزاب﴾ المتحزبينَ عَلَى أهل الإسلام؛ ﴿فالنار موعدُه﴾ مصيره وموردهُ؛ ﴿فلا تَكُ فِي مِريَةٍ﴾ شكٍّ ﴿مِنهُ﴾ مِنَ القرآن؛ ﴿إنّهُ الحقُّ من رَبّكَ ولكنَّ أكثر الناس لاَ يُؤْمِنُونَ(١٧)﴾ لقلّة نظرهم، واختلال فكرهم.

﴿ومَن أظلمُ مِمَّن افترى عَلَى ا لله كذبا﴾ أي: ليس أحد أظلم مِنهُ، وَهُوَ يعمُّ جميع العصاة؛ ﴿أولَئِكَ يُعرَضون عَلَى رَبِّهم﴾ (لَعَلَّهُ) قسرًا فيسألهم عَن أعمالهم؛ ﴿ويقول الأشهاد﴾ قيل: إنَّهم المَلاَئِكَة، أو الأنبياء والعلماء: ﴿هؤلاء الذِينَ كذَبوا عَلَى رَبِّهم ألاَ لعنةُ ا لله عَلَى الظالِمِينَ(١٨)﴾ لأنفسهم، الكاذبين عَلَى رَبهم.

﴿الذِينَ يصدُّون عَن سبيل ا لله﴾ يصرفون الناس عَن دينهم، ﴿ويبغونها عوجا﴾ يصفونها بالاعوجاج وهي مستقيمةٌ، أو يبغون أهلها أن يعوجُّوا بالارتداد، كقوله: ﴿أفمن يمشي مكبًّا عَلَى وجهه...﴾ الآية[١]، ﴿وَهُم بالآخِرَة[٢] هم كَافِرُونَ(١٩)﴾.

﴿أولَئِكَ لم يكونوا معجزين فِي الأَرْض﴾ أي: مَا كَانُوا يعجزون ا لله فِي الدُّنيَا أن يعاقبَهم لو أَرَادَ عقابَهم، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم من دون ا لله من أولياء﴾

---

١ - سورة الملك: ٢٢؛ وتمامها: ﴿أفمن يمشي مكبًّا على وجهه أهدى أمَّن يمشي سويًّا على صراط مستقيم﴾.

٢ - في الأصل: «في الآخرة»، وهو خطأ.

من يتولّهم[1] فينصرهم مِنْهُ، ويمنعهم من عقابـه. **﴿يُضـاعف لَهُـمُ العـذاب﴾** بضلالهم وإضلالهم؛ أو كما قَالَ: ﴿زدناهم عذابًا فوق العذاب﴾[2] ليعمَّ كـلَّ عاص، وكقوله: ﴿لكلٍّ ضِعفٌ ولكن لاَ تَعْلَمُونَ﴾[3]؛ **﴿مَا كَانُوا يسـتطيعون السمع﴾** لتصامُمِهم عَن الحَق، **﴿وَمَا كَانُوا يُبصـرُونَ(٢٠)﴾** لتعاميهم عَـن آيات الله، وإنَّ مَا لاَ يَسمَع وَلاَ يُبصر لاَ يصلحُ للولايةِ.

**﴿أُولَـئِكَ الذِينَ خَسروا أنفسَهم﴾** حيـث اشـتروا عبـادة الآلهـة بعبـادة الله، وحيث حَرَمُوا أنفسهم الجنّة، واستحقوا العذاب بذلك، **﴿وضلَّ عَـنْـهُم﴾** غـاب عَـنْـهُم وضاع مَا اشتروه، وَهُوَ **﴿مَا كَانُوا يفترُونَ(٢١)﴾** بعبادة غير الله.

**﴿لاَ جرم أَنَّـهُمْ فِي الآخِرَة هُمُ الأخسـرُونَ(٢٢)﴾** لا جـرم: أي حـقًّا؛ وقيل: بَلَى؛ وقيل: لاَ محالة، وَهُم أخسر من غيرهم بالإضلال.

**﴿إنَّ[4] الذِينَ آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتـوا إِلَى رَبـِّهم﴾** الإخبـات قيل: الخوف أو الإنابة، أو الخشوع، أو الاطمئنانية مِـنَ الخبـت، وهـي الأَرْض المطمئنـّة؛ **﴿أُولَـئِكَ أصحاب الجَـنَّة هم فِيهَا خالدُونَ(٢٣)﴾**.

**﴿مَثَـلُ الفريقـين كـالأعمى والأصـمِّ والبصـير والسـميع﴾** شبـّه فريـقَ الْكَافِرِينَ: بالأعمى والأصم، (لَعَلَّـهُ) لأنـَّهُم لاَ يُبصـرون الحـقَّ وَلاَ يسـمعونه،

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «يتولاّهم».

٢ - سورة النحل: ٨٨.

٣ - سورة الأعراف: ٣٨.

٤ - في الأصل: - «إنَّ»، وهو سهو.

لتعاميهم وتصاممهم بالأهوية، كما قَالَ عليه السلام: (لَعَلَّهُ) «حبُّك للشيء يُعمِي ويصمّ»[1]؛ وفريقَ المؤمنين: بالبصير والسميع، بترك متابعتهم للهوى، ﴿هل يستويان مثلا﴾؟ أي: فِي المثل لاَ يستويان، ﴿أفلا تذَكَّرُونَ(٢٤)﴾؟! فتنتفعون بضرب المثل.

﴿وَلَقَد أرسلنا نوحا إِلَى قومه: إِنِّي لكم نذير مُبِين(٢٥)﴾ أبينُ موجبات العذاب، ووجه الخلاص، ﴿أن لاَ تعبدوا إِلاَّ الله، إِنِّي أخاف عَلَيْكُم عذاب يوم أليم(٢٦)﴾.

﴿فقال الملأ الذِينَ كَفَرُوا من قومه﴾: يريد الأشراف، لأَنَّهُم يملؤون القلوب هيبةً، والمجالس أبَّهةً؛ أو لأَنَّهُم ملأٌ بأحلام[2] والآراء الصائبة لظاهر الحياة الدُّنْيَا، ﴿مَا نراك إِلاَّ بشرا مثلنا﴾ لا مزيَّة لك علينا تخصُّك بالنبوَّة، ووجوب [٢٤٦] الطاعة، لأَنَّهُم نظروا إِلَى البشريَّة الظاهرة، ولم ينظروا إِلَى سره الخفي الذِي خصَّه الله بِهِ دونهم؛ ﴿وَمَا نراك اتَّبَعَك إِلاَّ الذِينَ هُم أراذِلنا﴾ أضعفنا فِي الرأي؛ أو الجسم أو المال أو الرئاسة، لأَنَّ نظرهم كَانَ مقصورا عَلَى ظواهر الأمور دون حقائقها. ﴿بَادِيَ الرأي﴾ أي: اتَّبعوا ظاهر الرأي؛ من غير رؤية ونظر؛ ولو

---

١ - رواه أبو داود في كتاب الأدب، رقم ٤٤٦٥ عن أبي الدرداء، ورواه أحمد في مسند الأنصار، رقم ٢٠٧٠٥؛ وَفِي مسند القبائل، رقم ٢٦٢٦٨. وكلُّهم بلفظ: «حبُّكَ الشيءَ». بلا لام الجرِّ. انظر: العالمية: موسوعة الحديث، مادَّة البحث: «حبُّك».

٢ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب كما في تفسير أبي السعود: «مُلِئوا بالأحلام والآراء الصائبة». أبو السعود: تفسير أبي السعود، مج٢/ج٢/ص٢٠٠.

تـفكَّروا مَـا اتـَّبعوك، واسـترذالهم لَهُـم لِمَـا ذكرنـا، ولتأخـُّـرِهم عَـن الأسـباب الدنيويـَّة، لأَنـَّهُم كَانُوا جُهـَّالاً، مَا كَـانُوا يَعْلَمُـونَ إلاَّ ظـاهرا مـن الحيـاة الدُّنْـيَا؛ فكَانَ الأشرف عندهم من لَهُ جاه ومال، كما نرى الـمتَسَمِّينَ بالإسلام يعتقـدون ذَلِكَ، ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم. وَلَقَـد زال عَنْـهُم أنَّ التقـدُّم فِي الدُّنْـيَا لاَ يُقرِّب أحدا مِنَ ا لله، وإنـَّما يُبعده؛ وَلاَ يرفعه بَل يضعه. ﴿وَمَا نَرى لكم علينا من فضـل﴾ فِي مـال وَلاَ رأي، وَلاَ قـوَّة وَلاَ جـاه وَلاَ علـم؛ ﴿بَـل نَظُنـُّكُم كاذبِينَ(٢٧)﴾ أي: نوحـًا؛ نوحـًا فِي الدعوة وأنتم فِي الإجابة؛ يعني: تواطأتم عَلَى الدعوة والإجابة، تسبيبًا للرئاسة.

﴿قَالَ يا قوم أرأيتم﴾ أخبروني ﴿إن كنـتُ عَلَى بَيـِّنَة﴾ برهـان ﴿من ربـي﴾ وشاهدٍ مِنْهُ لصِحَّة دعواي، ﴿وآتـاني رحمة مـن عنـده﴾ أي: هـدًى ورحمة؛ ﴿فعُمـيَت عليكم﴾ خفيت والتَبَسَت عَلَيْكُم البيـِّنة فلم تهدكم؛ كما لو عُمِّيَ عَلَى القوم دليلُهـم فِي المفـازة بغير هـادٍ، وحقيقتـه أنَّ الحجـَّةَ كمـا جُعِلَت بصيرةً وتبصرةً، وجُعلت[1] (لَعَلـَّهُ) البصـيرة عَلَى الأعمـى عَمَيـًا، لأَنَّ الأعمى لاَ يهتدي وَلاَ يهدي غيره؛ ﴿أنُلزِمُكموها﴾ أنـلزمكم عَلَى الاهتـداء بها (لَعَلَّهُ) إلزامًا وجبرًا، ﴿وأنتم لها كارهُونَ(٢٨)﴾ لاَ تريدونها.

﴿ويا قوم لاَ أسألكم عليه مـالا﴾ عَلَى تبليـغ الرسـالة، ﴿إن أَجـرِيَ إلاَّ عَلَى ا لله﴾ وذلك من دلالةِ النبوَّة، والترك للدنيـا، والإقبـال عَلَى الآخِـرَة، إن تـفكَّروا فِي حَسَنِ السيرة وخسيسها؛ وكذلك قوله: ﴿وَمَـا أنـا بطـاردِ الذِيـنَ

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب حذف واو العطف ليستقيم التركيب.

آمنوا﴾ كأنَّه جوابٌ لَهُم حين سألوا طَرِدَهُـم ليؤمنوا بـهِ، أنفـةً مِـنَ المجالسـة معهم، ﴿إِنَّهُمْ مُلاقوا رَبِّهم﴾ فيشكونني إِلَيْـهِ إن طردتُّـهم؛ ﴿ولكنّي أراكم قوما تجهلُونَ(٢٩)﴾ تتسافهون عَلَى المؤمنين، وتَدعُونَهـم أرذال؛ أو تجهلـون لقاء ربِّكم، أو أنَّـهم خير منكم.

﴿ويا قوم من ينصرني مِنَ ا للهِ﴾ من يمنعني من انتقامه، ﴿إن طردتُّـهم أفلا تذَّكرُونَ(٣٠)﴾ لتعرفوا أنَّ التماس طردهم وتوقيفَ الإيمان ليس بصواب.

﴿وَلاَ أقول لكم: عندي خزائن ا للهِ﴾ فأدَّعي عَلَيْكُم فضلاً بالغنى، حتّـى تجحدوا فضلي بقولكـم: ﴿وَمَـا نـرى لكـم علينـا مـن فضـل﴾؛ ﴿وَلاَ أعلـم الغيب﴾ حتّى أطّلع عَلَى مَا فِي نفوس أتباعي، وضمائرِ قلوبهم. ﴿وَلاَ أقـول: إنـي ملك﴾ حتّى يقولوا لي: ﴿مَا أنت إلاَّ بشـر مثلنـا﴾، ﴿وَلاَ أقـول للذيـن تزدري أعيُنُكم﴾ وَلاَ أحكم عَلَى مـن استرذلتم مِنَ المؤمنيـن لفقرهـم: ﴿لـن يؤتيهم ا لله خيرا﴾ فِي الدُّنْـيَا والآخِرَة، لهوانهم عليه، مسـاعدة لكـم، ونـزولا عَلَى هواكم. ﴿ا لله أعلم بِمَا فِي أنفسهم﴾ مِن صدقِ الاعتقـادِ، وإنَّـما عَلَـيَّ قبـول ظـاهر إِقْرَارهـم، إذ لاَ أطّـلع عَلَى خفـيِّ أسـرارهم، ﴿إنـي إِذًا لَمِـن الظالِمِينَ(٣١)﴾ إن قلت شَيْـئًا من ذَلِكَ؛ (لَعَلَّهُ) فَلَـمَّا علت حُجَّتُـه عَـلَـيْـهِـم بالبرهان النيِّر، ودَحَضَت حُجَّتَهم العمياء، صمَّمُوا عَلَى المكابرة بقولهم:

﴿قَالُوا: يا نوح، قد جادلتنـا﴾ [٢٤٧] خاصمتنـا، ﴿فـأكثرت جدالنـا، فأتنا بِمَا تَعِدُنا﴾ مِنَ العذاب ﴿إن كنت مِنَ الصادقِينَ(٣٢)﴾ فِي وعيدك.

﴿قَالَ إنـَّمَا يأتيكم بهِ ا لله إن شاء﴾ أي: ليس الإتيـان بـالعذاب إليَّ؛ وإنـَّما هُوَ إلِىَ من كفرتم بهِ؛ ﴿وَمَا أَنـتُم بمعجزِينَ(٣٣)﴾ أي: لم تقـدروا عَلَى الهرب مِنْهُ، ﴿وَلاَ ينفعكم نُصحي﴾ هُوَ إعلام الغـيِّ ليُتَّـقَـى، والرشـدَ ليُقتَـفَـى، ﴿إن أردتُ أن أنصَحَ لكم إن كَانَ ا لله يريد أن يُغويكم﴾ أي: مقدَّر عَلَيْكُـم الإغـواء بضلالكـم عَن طريـق الحقِّ، ﴿هُـوَ رَبـّكُم﴾ فيقـدِّر فيكـم عَلَى قَضِيـَّة إرادتـه، ﴿وَإلَـيْهِ تُرجعُونَ(٣٤)﴾ فيُجازيكم عَلَى حسب أعمالكم.

﴿أم يقولـون: افـتراه﴾ بـل أيقولـون افـتراه؟ ﴿قـل: إن افتريتـه فعلـيَّ إجرامي﴾ إن صحَّ أَنـِّي افتريتـه، فعليَّ عقوبـة إجرامـي، أي: افـترائي؛ يقـال: أجرَمَ الرجلُ: إذَا أذنب. ﴿وأنا بـريء﴾ أي: وإن لم يثبـت ذَلِـكَ وأنـا بـريءٌ مِنْهُ؛ ومعنى ﴿مِمَّا تُجرمُـونَ(٣٥)﴾: مـن إجرامكـم فِي إسـناد الافـتراء، فـلا وجه لإعراضكم ومعاداتكم.

﴿وأُوحيَ إلِىَ نوح أَنـَّهُ لن يُؤْمِنُ من قومك إلاَّ من قد آمن﴾ فمن ذَلِـكَ قَـالَ: ﴿وَلاَ يلـدوا إلاَّ فـاجرا كَفـَّـارًا﴾[1]؛ ﴿فـلا تَبتَئِـس بِمَـا كَـانُوا يفعلُونَ(٣٦)﴾ فلا تحـزن حُـزنَ بـائس مسـتكين، وَالابتـئاس: "افتعـال" مِـنَ البؤس، وَهُوَ الحزن والفقر؛ والمعنى: فلا تحزن بِمَا فعلوه من تكذيبك وإيذائك، فقد حان وقت الانتقام [مِن] أعدائك.

﴿واصنعِ الفلكَ بأعيننا﴾ أي: محفوظا، وحقيقته ملتبسا بأعيننا، أي: بحفظنـا وعلمنا عَن أن تزيـغ فِي صنعتـه عَـن الصـواب، ﴿ووحينـا﴾ وَإنـَّا نـُوحي إليـك،

---

١ - سورة نوح: ٢٧.

ونُلهمك كيف تصنع. ﴿وَلاَ تخاطبني فِي الذِينَ ظلموا﴾ وَلاَ تَدْعُنِي فِي شأن قومك، واستدفاع العذاب عَنْهُم بشفاعتك، ﴿إِنَّهُمْ مغرقُونَ(٣٧)﴾ محكومٌ عَلَيْهِم بالإغراق، حين قُضي بِهِ وجَفَّ القلم، فلا سبيل إِلَى استدفاعه.

﴿ويصنَعُ الفلكَ﴾ حكايةَ حالٍ ماضية، ﴿وكلَّما مَرَّ عليه ملأٌ من قومه سَخِرُوا مِنْهُ﴾ ومن عملِه السفينة، وكَانَ يعملها فِي البرِّيَّة، وكَانُوا يتضاحكون ويقولون لَهُ: يا نوح، صرت نَجَّارا بعدما كنت نبيًّا؛ (لَعَلَّهُ) ورُوِيَ أَنَّهم يقولون: يانوح ماذا تصنع؟ فيقول: أصنع بيتًا يمشي عَلَى الماء؛ فيضحكون مِنْهُ. ﴿قَالَ: إن تسخروا مِنَّا فَإِنَّا نسخرُ منكم﴾ عند رؤية الهلاك ﴿كما تسخرُونَ(٣٨)﴾ مِنَّا عند رؤية الفلك؛ وقيل المراد بالسخرية: الاستجهال.

﴿فسوف تَعْلَمُونَ من يأتيه عذابٌ يخزيه﴾ يذلُّه، يعني بِهِ إيَّاهم، وَهُوَ الغرق، ﴿ويحلُّ عليه عذاب مقيم(٣٩)﴾ فِي جهنَّم.

﴿حَتَّى إِذَا جاء أمرنا﴾ وهو بلوغ الكتاب أجله، ﴿وفارَ التنُّور﴾ نَبَعَ الماء فِيهِ، وارتفع كالقِدرِ يفُور؛ ﴿قلنا: احمل فِيهَا من كُلٍ﴾ نوع ﴿زوجين اثنين﴾ فِي القصَّة أَنَّهُ قَالَ نوح: يا ربِّ كيف أحمل من كُلٍّ زوجين اثنين؟ فَحَشَرَ إِلَيْهِ الحشرات؛ فجعل يضرب بيديه فِي كُلِّ جنس، فيقع الذكر فِي يده[1] اليمنى، والأنثى فِي اليسرى فيحملهما. ﴿وأهلك إلاَّ من سبق عليه القولُ ومن آمن، وَمَا آمن معه إلاَّ قليل(٤٠)﴾.

---

١ - في الأصل: «يديه»، وهو خطأ.

﴿وقال: اركبوا فِيهَا بسم ا لله مُجرَاها ومرساها﴾ أي: اركبوا فِيهَا قائلين: ﴿بِسْمِ ا للهِ﴾ وقت إجرائها، ووقت إرسائها، (لَعَلَّهُ) وَهُوَ عَلَى معنى التَّوَكُّل عليه فِي حال ركوبهم وقتَ إجرائها وإرسائها، ﴿إِنَّ رَبي لغفور رحيم(٤١)﴾ لمن تَوَكَّل عليه فِي جميع أحواله.

﴿وهي تجري بهم فِي موج كالجبال﴾ يريد: موجَ الطوفان، وَهُوَ مَا ارتفع [٢٤٨] مِنَ الماء عند اضطرابه بدخول الرياح الشديدة فِي خلاله، شبَّه كلَّ موجة مِنْهُ بالجبل فِي تراكمها وارتفاعها؛ وذلك (لَعَلَّهُ) ابتلاء وامتحان لإيمان الراكبين معه فِيهَا؛ وخاصَّة إِذَا لم تَجْرِ عادةٌ سابقة بهم، وَلاَ بغيرهم. ﴿ونادى نوح ابنه، وكَانَ فِي معزلٍ﴾ عَن أبيه، وعن السفينة؛ أو عَن دين أبيه، ﴿يا بُنَيَّ اركب معنا﴾ فِي السفينة، أو أَسْلِمْ، ﴿وَلاَ تكن مَعَ الْكَافِرِينَ(٤٢)﴾ فِي الدين والانعزال.

﴿قَالَ: سآوي﴾ سألجأ ﴿إِلَى جبل يعصمني مِنَ الماء﴾ يمنعني مِنَ الغرق، كأنَّه اعتصم بمخلوق مثله، فلم يعصمه؛ ﴿قَالَ: لاَ عاصم اليوم من أمر ا لله إِلاَّ مَن رَحِمَ﴾ إِلاَّ الراحمُ لمن لاذ بِهِ، وَهُوَ ا لله تعالى؛ أي: لاَ عاصم اليوم إِلاَّ من اعتصم با لله. ﴿وحال بينهما الموجُ، فكَانَ مِنَ المغرَقِينَ(٤٣)﴾ فكَانَ فِي علم ا لله كذلك.

﴿وقيل: يا أرض ابلَعِي ماءك، ويا سماءُ أَقلِعي﴾ أمسكي، ﴿وغيض الماء﴾ نقص، ﴿وقضيَ الأمر﴾ وأنجز مَا وعد ا لله نوحا من إهلاك قومه؛ ﴿واستوت﴾ واستقرَّت ﴿عَلَى الجودي﴾ قيل: جبل بالموصل؛ ﴿وقيل: بُعدا

**للقوم الظالِمِينَ(٤٤)﴾** أي: سُحقا لقوم نـوح. أجمع أهل الفصاحة أنَّ طاقة البشر قاصرة عَن الإتيان بمثل هَذِهِ الآية، بعد أن فتَّشوا عامـَّة كلام العرب والعجم، فلم يجدوا مثلها فِي فخامةِ ألفاظها، وحُسنِ نظمها، وتصوير الحال، مَعَ الإيجاز من غير إخلال.

**﴿ونادى نوحٌ ربـَّه، فقال:** [1] **رَب إنَّ ابني من أهلي، وإنَّ وَعدَكَ الحَقُّ﴾** وإنَّ كلَّ وعد تَعِدُه فهو الحَقُّ الثابت الذِي لاَ شكَّ فِي إنجازه والوفاءِ بِهِ؛ **﴿وأنت أحكمُ الحاكمِينَ(٤٥)﴾** أي: أعلم الحكَّام وأعدلهم؛ إذ لاَ فضل لحاكم عَلَى غيره، إلاَّ بالعلم والعدل. ورُبَّ غريق فِي الجهل والجور من متقلِّدي الحكومة فِي زمانك قد لُقـِّب أقضى القضاة، ومعناه: أحكم الحاكمين؛ فاعتبر واستعبر.

**﴿قَالَ: يا نوح، إِنـَّهُ ليس من أهلك إِنـَّهُ عملٌ غيرُ صالِحٍ﴾** وفيه إيذان، لأنَّ قرابة الدين غامرة لقرابة النسب؛ وأنَّ نسيبك فِي دينك، وإن كَانَ حبشيـًّا، وكنت قرشيـًّا؛ [وأنَّ] لصيقك ومن لم يكن عَلَى دينك، وإن كَانَ أمسَّ أقاربكَ رحمـًا، فهو يعدُّ بعيدا[2] منك. قَالَ أبو منصور: «كَأنَّ عند نوح عليه السلام أنَّ ابنه كَانَ عَلَى دينه، لأنـَّهُ كَانَ يُنافق؛ وَإِلاَّ لاَ يُحتمل أن يقول: إنَّ ابني من أهلي ويسأله نجاته، وقد سبق مِنـْهُ النهي عَن سؤال مثله، بقوله: ﴿وَلاَ تخُاطبني فِي الذِينَ ظلموا إنـَّهم مغرقون﴾، فكَانَ يسأل عَن الظاهر الذِي عنده؛

١ - في الأصل: «قال»، وهو خطأ.

٢ - في الأصل: «بعيد»، وهو خطأ.

كما كَانَ أهل النفاق يُظهرون الموافقة لرسولنا، ويُضمرون الخلاف لَهُ، و لم يعلم بذلك حتّى أطلعه الله عليه، وقوله: ﴿ليس من أهلك﴾ أي: مِنَ الذِينَ وعدتُ النجاة لَهُم، وَهُم المؤمنون حقيقة فِي السرِّ والظاهر». ﴿فلا تسألنّي مَا ليس لك بِهِ علم، إِنـي أعظُك أن تكون مِنَ الجاهلِينَ(٤٦)﴾.

﴿قَالَ: رَب إِنـي أعوذ بك أن أسألك مَا ليس لي بِهِ علـم﴾ أي: مِن أن أطلب منك فِي المستقبل مَا لاَ علم لي بصحّته تأدُّبا بك واتّعاظا بموعظتك، ﴿وَإِلاَّ تغفر لي﴾ مَا فرط منّي، ﴿وترحمني﴾ بالعصمة عَن العَوْدِ إِلىَ مثله ﴿أكن مِنَ الخاسرِينَ(٤٧)﴾.

﴿قيل: يا نوح اهبط بسلام مِنَّا﴾ [٢٤٩] بتحيّة مِنَّا، أو سلامة مِنَ الغرق، ﴿وبركات عليك﴾، هِيَ الخيرات النامية، وهي فِي حقّه العلم والعمل بمقتضى الحكمة، ﴿وعلى أمم مِمَّن معك﴾ أي: عَلَى أمم ناشئة مِمَّن معك، وهي الأمم إِلىَ آخر الدهر، ﴿وأممٌ﴾ أُخرَى ضالّة، ﴿سنمتعهم﴾ فِي الدُّنْيَا بالسعة فِي الرزق، والخفض فِي العيش، كما قدَّرنا لهم بلا زيادة وَلاَ نقصان، ﴿ثُمَّ يمسُّهم مِنَّا عذاب أليم(٤٨)﴾ فِي الآخِرَة، أو فِي الدُّنْيَا والآخِرَة؛ والمعنى: أنَّ السلام مِنَّا، والبركاتِ عليك، وعلى أمم المؤمنين ينشأون مِمَّن معك؛ وَمِمَّن معك أمم ممتّعون بالدُّنْيَا، منقلبون إِلىَ النار، والخلق بعد الطوفان مِنْهُ وممَّن كَانَ معه فِي السفينة. وعن محمَّد بن كعب: «دخل فِي ذَلِكَ السلام كلُّ مُؤْمِن ومؤمنة إِلىَ يوم القيامة؛ وفيما بعده مِنَ المتاع والعذاب كلُّ كافر».

﴿تلك من أنباء الغيب نُوحيها إليك﴾ يا محمَّد ﴿مَا كنتَ تعلمهـا أنـت وَلاَ قومُك﴾ أي: تلك القصَّة بعضُ أنباء الغيب، مُوحَاة إليك، مجهولة عنـدك، وعند قومك، ﴿من قبل هَذَا﴾ الإيحاء إليك؛ ﴿فاصبر﴾ كمـا صبر نـوح مَـعَ طول لَـبْثِة فِيهِم، وتوقَّع فِي العاقبة لك ولمن كذَّبك نحوَ مَا كَانَ لنوح وقومـه، ﴿إنَّ العاقبة﴾ فِي الفوز والنصر والتوفيق والغلبـة والنعمـة ﴿للمتـَّقين(٤٩)﴾ عَن المعاصي وَهُوَ حقيقة التوحيد.

﴿وإلى عاد أخاهم﴾ واحدًا[١] مِنـْهُم ﴿هودا، قَالَ: يا قوم اعبـدوا ا لله﴾ وحده، غير مشركين بِهِ غيرَه، ﴿مَا لكم من إله غيره﴾ ينفعكم وَلاَ يضركـم، فِي الحقيقة ﴿إن أنتُم إلاَّ مفترُونَ(٥٠)﴾ تفترون عَلَى ا لله الكذب، باتـِّخَاذِكم له الأوثان لَهُ[٢] شركاء.

﴿يا قوم لاَ أسألكم عليه أجرا، إن أجريَ إلاَّ عَلَـى الـذِي فطرنـي﴾ مَـا من رسول إلاَّ واجهَ قومه بهذا القول، لأنَّ شـأنهم النصيحـة؛ وَلاَ يمحضهـا إلاَّ حسـم المطـامع؛ وَمَـا دام يتوهَّـم شـيء منهـا، لم تنجـع و لم تنفـع، ﴿أفـلا تعقلُونَ(٥١)﴾ إذ تردُّون نصيحة من لاَ يطلب عليها أجراً إلاَّ مِـنَ ا لله، وَهُـوَ ثواب الآخِرَة؛ وَلاَ شيء أنفى للتـُّهمة من ذَلِكَ، لأَنـَّهُ لم يسأل من أُرسل إِلَيْـهِ أجرا، و لم يدفع عَـن نفسه مغرمـا، و لم يطلـب بذلـك وَلاَ لغيره أمـرا دنيويـًّا

---

١ - فِي الأصل: «واحد»، وهو خطأ، فهو منصوب عَلَـى أنـَّهُ معطوف عَلَى مـا قبله، فِي قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحا إِلَىَ قومه﴾، أي تقديره: «وأرسلنا إِلَىَ عاد أخاهم هودا».

٢ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: - «له»، أي: «باتـِّخاذكم الأوثانَ له شركاءَ».

بلسان مقاله، أو لسان حاله، كَانَ ذَلِكَ من سمات الإيمان والأمانة، مَعَ الذِينَ يعقلون العلم فِي الناس.

﴿ويا قوم استغفروا رَبّكُم﴾ أي: آمنوا بِهِ، ﴿ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ﴾ من عبادة غيره، ﴿يُرسل السَّمَاء عليكم﴾ الأرزاق السماويَّة من دين ودنيا، ﴿مدرارا﴾ كثير الدرُور، ﴿ويزدكم قوَّةً﴾ [فِي] القلوب، يقدرون بها عَلَى المخرج من مضائق الأمور، وَلاَ يكون هَذَا الوعد فِي الحقيقة إلاَّ لِمتَّبعي الرسل، لأَنَّ ذَلِكَ يعود وبالاً عَلَى المكذِّبين، ﴿إِلَى قوَّتكم﴾ كما قَالَ: ﴿وَالذِينَ اهتدوا زادهم هدًى﴾[1]، ﴿وَلاَ تَتَوَلَّوْا﴾ وَلاَ تُعرضوا عَمَّا أدعوكم إِلَيْهِ. ﴿مجرمِينَ(٥٢)﴾ مُصرِّين عَلَى إجرامكم وآثامكم.

﴿قَالُوا: يا هود مَا جئتَنا بِبَينَةٍ﴾ تكذيبٌ مِنْهُم وجحود للبَيِّنَة الغرَّاء، ولكن لِتَعَامِيهم عنها لم يُبصروها، إذ حُجبهم عَن رؤيتها حبُّ الهوى. ﴿وَمَا نَحْنُ بتاركي آلهتِنا﴾ مَا تهواه أنفسنا ﴿عَن قولك﴾ استجهالا مِنْهُم لَهُ، ﴿وَمَا نَحْنُ لك بمؤمنِينَ(٥٣)﴾ وَمَا يصحُّ من أمثالنا أن يصدِّقوا مثلك فيما تدعوهم إِلَيْهِ.

﴿إِن نقول: إلاَّ اعتراك بعضُ آلهتِنا بسوء﴾ أي: ليس لَنَا [٢٥٠] قولٌ إلاَّ هَذِهِ المقالة، أي: إلاَّ قولنا: «اعتراك بعض آلهتنا بسوء، بجنون وخَبَلٍ»؛ فَلَمَّا انقطعت حجَّتهم، وبان اغترارهم، وظهرت رئاستهم، وصحَّ إصرارهم؛

١ - سورة محمَّد: ١٧.

**﴿قَالَ: إِنـي أُشهد ا لله، واشهدوا أَنـي بـريء مِمَّا تشركُونَ(٥٤) مـن دونه﴾** أي: من إشراككم آلهة من دون ا لله؛ **﴿فكيدوني جميعا﴾** مـن غـير أن يَتخلَّفُ منكم أحد، **﴿ثمَّ لاَ تُنظرونِ(٥٥)﴾** لاَ تُمهلوني.

**﴿إني تـوَكَّلت عَلَى ا لله رَبـي وربـكُم، مَا من دَابـَّة إلاَّ هُوَ آخذٌ بناصيتها﴾** أي: مالكها ومُدَبِّرها؛ وَلَـمَّا ذكـر تـوَكُّله عَلَى ا لله وثقته بحفظه وكلاَءَته من كيدهم؛ وصفه بِمَا يوجب التَّوَكُّل عليه، من اشتمال ربوبيَّته عليه وعليهم، ومـن كون كُلِّ دَابَّة فِي قبضته وملكه، وتحت قهره وسـلطانه؛ والأخـذُ بالناصية تمثيل لِمَا يقدِّره ا لله للخلق وعليهـم، **﴿إِنَّ رَبـي عَلَى صِرَاط مُسْتَقِـيم(٥٦)﴾** إِنَّ رَبِّي عَلَى الحَقِّ، وَلاَ يخيب من رجاه، وَلاَ يَفُوته من عاداه.

**﴿فإن تَوَلَّوا﴾** تَتَوَلَّوا، **﴿فقد أبلغتُكم مَا أُرسِلت بِهِ إليكم﴾** فقـد أَدَّيت مَا عَلَيَّ مِنَ الإبلاغ وإلزام الحجَّة؛ فـلا تقصير منـِّي وَلاَ عُـذر لكـم؛ **﴿ويستخلفُ رَبـي قوما غيرَكم﴾** (لَعَلَّهُ) أي: يُهلكُكُم ا لله ويجـيء بقـوم آخرين يخلفونكم فِي دياركم وأموالكم، **﴿وَلاَ تضرُّونه شَيْـئًا﴾** بتولِّيكم، إذ لاَ يجوز فِي حكمته ذَلِكَ؛ **﴿إِنَّ رَبـي عَلَى كُل شيء حفيظ(٥٧)﴾** رقيـب عليه مهيمـن؛ فمـا تخفـى عليه أعمالكم وتكذيبكم؛ أو من كَانَ رقيبًا عَلَى الأشياء كُـلِّها حافظًـا لهـا؛ وكـانت الأشياء مفتقرة إِلَى حفظه مِنَ المضارِّ، لم يضرَّ مثله مثلكم.

**﴿وَلَـمَّا جاء أمرنـا نَجَّينا هـودا وَالذِينَ آمنوا معه برحمة مِنـَّا﴾** أي: بفضل مِنـَّا لاَ بعملهم؛ أو بالإيمان الذِي أنعمنا عليهم؛ **﴿ونَجَّيناهم من عذاب غليظ(٥٨)﴾** كثيف.

﴿وتلك عادٌ﴾ إشارة إِلَى قبورهم وآبارهم؛ كأنَّه قَالَ: فسيحوا فِي الأَرْض، فانظروا إِلَيْهِا واعتبروا؛ ثُمَّ استأنف وَصْفَ أحوالهم، فقال، ﴿جحدوا بآيَاتِ رَبِّهم وعصوا رسلَه﴾، لأَنَّهُم إِذَا عصوا رسولهم، فقد عصوا جميع رسله من المَلاَئِكَة والنَّبِيِّين والعلماء والمؤمنين؛ ورسولُ الرسولِ رسولٌ فِي هَذَا المعنى، ﴿لاَ نفرِّق بين أحد من رسله﴾[1] وَلاَ فِي حجَّة من حججه، وجب علينا اتِّبَاعُها والإيمان بها، والتصديق بها؛ فالمكذِّب لحجَّة عقليَّة قامت عليه من عقله، كالمكذِّب لأفضل رسول من رسل ا لله أقام عليه الحجَّة بحضرته، من مقال لسانه بشيء من كِتَاب ا لله أو أشدُّ؛ ﴿واتَّبَعوا أمرَ كُل جبَّار عنيد(٥٩)﴾ يريد رؤساءهم، ودعاتهم إِلَى تكذيب الرسل، لأَنَّهُم الذِينَ يجبرون الناس عَلَى مخالفة الرسل، ويعاندون رَبَّهم. ومعنى اتِّبَاع أمرهم طاعتهم.

﴿وأُتبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لعنةً، ويوم القيامة﴾ لَمَّا كَانُوا تابعين لَهُم دون الرُّسلِ جُعِلت اللعنة تابعة لَهُم فِي الدَّارين؛ واللعنة: الإبعاد من رحمة ا لله ونعمته، فَهُم فِي غضب ا لله ونقمته وعذابه فِي الدُّنْيَا والآخِرَة، ليس لَهُم غاية، إِلاَّ إِذَا رجعوا إِلَيْهِ تائبين. ﴿أَلاَ إِنَّ عادا كَفَرُوا رَبَّهم، أَلاَ بُعدا لعادٍ﴾ تكرير «أَلاَ» مَعَ النداء عَلَى كفرهم، والدعاء عَلَيْهِم، تهويلٌ لأمرهم، وبعث عَلَى الاعتبار[٢٥١] بهم، والحذر من مثل حالهم. والدعاءُ بـ«بُعدا» فورَ هلاكهم ـ وَهُوَ دعاء بالهلاك ـ للدَّلالة عَلَى أنَّهم كَانُوا مستأهِلين لَهُ. ﴿قومِ هود(٦٠)﴾ عَطف بيان لِعادٍ، وفيه فائدة، لأَنَّ عادًا عادان، الأولى: القديمة التِي هِيَ قوم هود، والقصة فِيهِم؛ والأخرى: إرَمٌ فيما قيل.

---

١ - سورة البقرة: ٢٨٥.

﴿وإلى ثمودَ أخاهم صالحا، قَالَ: يا قومِ اعبدوا الله مَا لكم من إله غيره، هُوَ أنشأكم مِنَ الأرْض واستعمركم فِيهَا﴾ وجعلكم عُمَّارها بالإصلاح والطاعة؛ ﴿فاستغفروه﴾ فاسألوا (لَعَلَّهُ) مغفرتَه بالإيمان، ﴿ثمَّ توبوا إِلَيْهِ﴾ مِمَّا أفسدتم وعصيتم؛ ﴿إِنَّ رَبي قريب﴾ داني الرحمة لمن تقرَّب إِلَيْهِ بالطاعة؛ ﴿مجيبٌ(٦١)﴾ لمن دعاه مِنَ الصالحين.

﴿قَالُوا: يا صالح، قد كنت فينا﴾ فيما بيننا ﴿مَرجوًّا قبل هَذَا﴾ للسيادةِ والمشاورةِ فِي الأمور، وَكُنَّا نرجوا أن تدخل فِي ديننا، وتوافقنا وتساعدنا عَلَى مَا نَحْنُ عليه، ﴿أتنهانا أن نعبد مَا يعبدُ آباؤنا﴾ بضدِّ مَا نرجوه منك؟ ﴿وَإِنَّنَا لفي شكٍّ مِمَّا تدعونا إِلَيْهِ﴾ مِنَ التوحيد، ﴿مريب(٦٢)﴾ مُوقعٍ فِي الريبة؛ مِن أَرَابَهُ: إِذَا أوقعه فِي الريبة، وهي قلقُ النفس، وانتفاء الاطمئنانيَّة.

﴿قَالَ: يا قوم أرأيتم إن كنتُ عَلَى بَينَة من رَبي وآتاني مِنْهُ رحمة﴾ نبوَّةً. أتى بحرفِ الشكِّ مَعَ أنَّه عَلَى يقين أنَّه عَلَى بَيِّنَة، لأَنَّ خطابه للجاحدين؛ فكأنَّه قَالَ: قدِّروا أنِّي عَلَى بيِّنة من رَبِّي، وَإِنَّنِي نبيٌّ عَلَى الحقيقة، وانظروا إن تابعتكم وعصيت رَبِّي فِي أوامره، ﴿فمن ينصرني مِنَ الله﴾ من عذابه وخذلانه وإبعاده ﴿إن عَصَيْتُه﴾ فِي تبليغ رسالته، ومنعكم عَن عبادةِ غيره؛ ﴿فما تزيدونني﴾ بقولكم: ﴿أتنهانا أن نعبد مَا يعبد آباؤنا﴾ ﴿غير تخسير(٦٣)﴾ نسبتكم إيَّاي إِلَى الخسار؛ أو نسبتِي إيَّاكم إِلَى الخسران.

﴿ويا قوم هَذِهِ ناقة الله لكم آية، فذروها تأكل فِي أرض الله﴾ أي: ليس عَلَيْكُم رزقها مَعَ أنَّ لكم نفعها، ﴿وَلاَ تمسُّوها بسوء﴾ بعقْرٍ أو نحر،

﴿فيأخذكم عذاب قريب(٦٤)﴾ عاجل، إمَّا ظاهرٌ: فاستئصالكم بالهلاك؛ وَإمَّا باطنٌ: فالإبعادُ والاستدراج، لأَنَّ كُلَّ من عصى الله سبحانه، فلا بدَّ من أَخذ العذابين فِي الدُّنْيَا (لَعَلَّهُ) قبل الآخِرَة.

﴿فعقروها؛ فقال: تَمتَّعوا فِي داركم ثلاثة أيَّام، ذَلِكَ وعد غير مكذوب(٦٥)؛ فَلَمَّا جاء أمرنا نَجَّينا صالحا وَالذِينَ آمنوا معه برحمة مِنَّا، ومن خزي يومئذ﴾ من ذلِّه وفضيحته، ولا خزيَ أعظم مِن خِزي مَن كَانَ هلاكه بغضب الله وانتقامه؛ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ القويُّ﴾ القادر عَلَى تنجية أوليائه ﴿العزيز(٦٦)﴾ الغالب عَلَى إهلاك أعدائه.

﴿وأَخَذَ الذِينَ ظلموا الصيحةُ﴾ صيحة جبريل فيما قيل؛ ﴿فأصبحوا فِي ديارهم جاثِمِينَ(٦٧)﴾ مَيِّتين ﴿كأن لم يَغنوا فِيهَا﴾ كأن لم يقيموا فِيهَا. ﴿أَلاَ إِنَّ ثمود كَفَرُوا رَبَّهم أَلاَ بُعدا لثمود(٦٨)﴾.

﴿وَلَقَد جاءت رسلُنا إبراهيم بالبشرى﴾ البشارة بالولد أو غيره؛ ﴿قَالُوا: سلاما﴾ سلَّموا عليه سلاما، ﴿قَالَ: سلام﴾ أمركم سلام؛ ﴿فما لَبِث أن جاء بعجلٍ حنيذٍ(٦٩)﴾ قيل: مشويٌّ بالحجارة المحماة؛ والحنيذ: قيل الذِي يقطر وَدَكُه، من حَنَذْتُ الفرسَ، إِذَا عَرَّقْتُه بالجلال[1]، كقوله: ﴿بعجلٍ[٢٥٢] سمين﴾[2].

---

١ - انظر: ابن منظور: لسان العرب، ١/٧٣٥-٧٣٦. مادَّة «حنذ». أبو السعود: تفسير، مج٢/ج٢/ص٢٢٤.

٢ - سورة الذاريات: ٢٦.

﴿فَلَمَّا رأى أيديَهم لاَ تصلُ إِلَيْهِ نكِرهم﴾ نَكِرَ وأنكَرَ بمعنىً. وكانت عادتهم أنَّه إِذَا مسَّ مَن يطرقُهُم طعامَهم أمِنوا، وَإِلاَّ خافوه؛ والظاهر أنَّه أحسَّ بأنَّهم مَلاَئِكَةٌ ونكرهم، لأَنَّهُ تخوَّف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله عليه، أو لتعذيب قومه، دليله قوله: ﴿وأوجس مِنْهُم خِيفة﴾ أضمر مِنْهُم خيفة؛ ﴿قَالُوا: لاَ تخف﴾ لمَّا عاينوا مِنْهُ أمارات الخوف ﴿إنَّا أُرسلنا إِلَى قوم لوط(٧٠)﴾ بالهلاك.

﴿وامرأتُه قائمةٌ﴾ قيل: وراء الستر تسمع تحاورهم، أو عَلَى رؤوسهم، ﴿فَضَحكت﴾ سُرورا بزوال الخيفة؛ أو بهلاك أهل الخبائث؛ أو من غفلة قوم لوط مَعَ قرب العذاب؛ أو فحاضت[1]؛ ﴿فبشَّرناها بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب(٧١)﴾ (لَعَلَّهُ) أي: من ذُرِّيته، وَهُوَ ولد ولدها؛ فسمَّاه الله بشارة لها، لأَنَّهَا هِيَ سبب إيجادهم.

﴿قالت: يا ويلتى! أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا﴾؟ سمِّي الزوج بعلا، لأَنَّهُ قيِّم أجرها[2]، ﴿إِنَّ هَذَا لشيء عجيب(٧٢)﴾ أن يُولَد ولدٌ من هَرِمَين، وَهُوَ استبعاد من حيث العادة.

﴿قَالُوا: أتعجبين من أمرِ الله﴾ قُدرَته وحِكمَتِه، (لَعَلَّهُ) معناه لاَ تعجبي؛ وَإِنَّمَا أنكرت المَلاَئِكَة تعجُّبَها، لأَنَّهَا كَانَت فِي بيت الآيات، ومهبط

---

١ - قال أبو السعود: «وقيل: ضحكت: حاضت، من ضحكت الشجر إذا سال صمغها، وَهُوَ بعيد، وقرئ بفتح الحاء». أبو السعود: تفسير، مج٢/ج٢/ص٢٢٥.

٢ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «أمرها».

المعجزات، والأمور الخارقة للعادات؛ فكَانَ عليها أن تتوقّر وَلاَ يَزدَهِيها مَا يزدهي سائر النساء الناشئات فِي بيت غير النبوّة؛ وأن تُسبّح ا لله وتمجِّدَه مكَانَ التعجُّب؛ ولكنَّ أكثر الناس فِي بَلادَة مِنَ الأمور الإلهيَّة الخارقة للعادات، ﴿رحمةُ ا لله وبركاته عَلَيْكُم أهلَ البيتِ﴾ أرادوا أنَّ هَذِهِ وأمثالها مِمَّا يُكرِمُكم بِهِ ربُّ العِزّة، ويَخصُّكم بالإنعام بِهِ يا أهل بيت النبوّة، فلستِ بمكَان عجب، وَهُوَ كلام مستأنف عُلِّل بِهِ إنكار التعجُّب، كأنَّه قيلَ: إيَّاك والتعجُّب، فإن أمثال هَذِهِ الرحمة والبركة، متكاثرة مِنَ ا لله عَلَيْكُم، وكيف لاَ تكون رحمته وبركاته عَلَيْكُم مُتكاثرة، وكَانُوا سببا لإيجاد إسحاق ويعقوب ويوسف وإخوته. ﴿إنَّهُ حميد﴾ محمود بتعجيل النعم، ﴿مجيد(٧٣)﴾ ظاهر الكرم بتأجيل النقم، وأصل المجد الرفعة.

﴿فلَمَّا ذهب عَن إبراهيمَ الروعُ﴾ الفزع، وَهُوَ مَا أوجس مِنَ الخيفة حين أنكر أضيافه، ﴿وجاءته البشرى﴾ بالولد. سُمِّيَ بشارة لَهُ، لأَنَّهُ يرتفع بِهِ علوّ درجات، ﴿يُجادلنا فِي قوم لوط(٧٤)﴾ فِي معناهم، أي: لـمَّا اطمأنَّ قلبه بعد الخوفِ، ومُلِئَ سرورا بسبب البشرى فرغ للمجادلة، والمعنى: يجادل رسلنا، ومجادلته إيَّاهم أنَّهم قَالُوا: ﴿إنَّا مُهلِكُوا أهلِ هَذِهِ القريةِ، إنَّ أهلها كانوا ظالمين؛ قَالَ: إنَّ فِيهَا لوطًا؛ قَالُوا: نَحْنُ أعلم بمن فِيهَا لَنُنَجِّينَّه وأهلَه﴾[1]. وغير ذَلِكَ مِمَّا يخصُّ قوم لوط، لأَنَّهُ قَالَ: ﴿يجادلنا فِي قوم لوط﴾ (ولعلّه) بتأخير العذاب

---

١ - سورة العنكبوت: ٣١-٣٢. وردت في الأصل هكذا: «إنَّا مُهلِكُوا أهل هَذِهِ القريةِ، قَالَ: إنَّ فِيهَا لوطًا؛ قَالُوا: نَحْنُ أعلم بمن فِيهَا لَنُنَجِّينَّه وأهلَه»، والصحيح ما أثبتنا في المتن.

عَنْهُم، رجاء إسلامهم. ﴿إنَّ إبراهيم لحليم﴾ غير عجول عَلَى كُلِّ من أساء إِلَيْهِ؛ أو كثير الاحتمال عمَّن آذاه، ﴿أوَّاه﴾ كثير التأوُّه من خوف ا لله، ﴿منيب(٧٥)﴾ تائب رَجَّاع إِلَىَ ا لله، وهذه الصفات دالَّة عَلَى رقَّة القلب والرأفة، والرحمة تُبَيِّنُ [٢٥٣] أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا حَمَله عَلَى المجادلة فِيهِم، رجاء أن يُرفع عَنْهُم العذاب، ويُمهَلُوا لَعَلَّهُم يُحدثون توبة.

﴿يا إبراهيم، أعرِضْ عَن هَذَا﴾ الجدال، وإن كَانَت الرحمة دَيدَنُكَ؛ فَتَرْكُ المجادلة أفضل مِن قبل ﴿إنَّهُ قد جاء أمرُ رَبِّك﴾ أي: قضاؤه وحكمه (لَعَلَّهُ) وانقضاء الأجل، لأَنَّ لِكُلِّ أجل كِتَاب؛ ﴿وإنَّهُم آتيهم عذاب غير مردود(٧٦)﴾ فلا يُردُّ بجدال.

﴿وَلَمَّا جاءت رسلُنا لوطا﴾ لـمَّا أَتوه ورأى هيأتَهم وجَمالهم، ﴿سِيءَ بِهِم﴾ أُحزن، لأَنَّهُ حسب أنَّهم إنسٌ، فخاف عَلَيْهِم خُبثَ قومه، وأن يعجز عَن مقاومتهم ومدافعتهم، ﴿وضاق بهم ذرعا﴾ تمييز، أي: وضاق بمكانهم صدرُه، وَهُوَ كناية عَن شدَّة نفتاالاض[1] للعجز عَن مدافعة المكروه، والاحتيال فِيهِ؛ (لَعَلَّهُ) كأنَّ يده صارت قصيرة، ﴿وقال: هَذَا يوم عصيب(٧٧)﴾ شديد.

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «الانقباض»، انظر: أبو السعود: تفسير، مج٢/ج٢/٢٢٨. وَهَذَا من أعجب الأخطاء التي وقع فيها الناسخ، وَهُوَ التقديم والتأخير في وسط الكلمة الواحدة!، مع التصحيف في تنقيط الحروف.

﴿**وجاءه قومُه يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ**﴾ يُسرِعون، كأنَّما يُدفعون دفعًا لطلب الفاحشة من أضيافه، ﴿**ومن قبلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ**﴾ ومن قبل ذَلِكَ (لَعَلَّهُ) الوقت، كَانُوا يَعْمَلُونَ الفواحش، حَتَّى مَرِنوا عليها، وقلَّ عندهم استقباحها، فلذلك جاءوا يُهرعون مجاهرين لاَ يكفُّهم حياء[1] (لَعَلَّهُ) فَلَمَّا عَلِم مرادهم فِيهِم، ﴿**قَالَ: يا قوم هؤلاء بناتي**﴾ فتزوَّجوهنَّ، أَرَادَ أَنَّ يَقِيَ أضيافه ببناته، وذلك غاية الكرم، ﴿**هنَّ أطهر لكم**﴾ أحلُّ وأزكى لنفوسكم، لِغلمَة الشهوات، (لَعَلَّهُ) ليدفعهم بمثل ماهم فاعلوه، ﴿**فاتَّقُوا الله**﴾ بإيثار مَا أحلَّه عَلَى مَا حَرَّمَه، ﴿**وَلاَ تُخزونِ**﴾ ولا تُهينوني، وَلاَ تَفضحونِ، ﴿**فِي ضيفي، أليس منكم رجلٌ رشيد(٧٨)**﴾؟ أي: رجل وَاحِد يهتدي إِلىَ سبيل الحَقِّ وفعل الجميل، والكف عَن السيِّء.

﴿**قَالُوا: لَقَد علمت مَا لَنَا فِي بناتك من حقٍّ**﴾ حاجة، ﴿**وإنَّك لَتعلَمُ مَا نريد(٧٩)**﴾.

﴿**قَالَ: لو أنَّ لِي بكم قوَّة، أو آوي إِلىَ رُكنٍ شديد(٨٠)**﴾ المعنى: لو قَوِيت عَلَيْكُم بنفسي، أو آويت إِلىَ قَويٍّ أستند إِلَيْهِ وأمتنع بِهِ، فيحميني منكم؛ فشبَّه القويَّ العزيز بالركن مِنَ الجبل فِي شدَّته ومنعته؛ فَلَمَّا رأت المَلاَئِكَة كَثُرَت[2] المجادلة بينه وبينهم فِيهِم، ﴿**قَالُوا: يا لوط**﴾ إنَّا ركنك الشديد، ﴿**إنَّا رُسُل رَبِّكَ، لن يصلوا إليك، فأسر بأهلك بقطع مِنَ الليل**﴾

١ - فِي الأصل: + «حياء»، وهو تكرار.

٢ - كذا فِي الأصل، مع الشكل، ولعلَّ الأصوب: «كَثْرَةَ».

طائفة مِنْهُ، ﴿وَلاَ يلتفتْ منكم أحد﴾ بقلبه إِلَى مَـا خلّـف، وَلاَ ينظـر إِلَى مَـا وراءه؛ أو لاَ يلتفت[1] منكم أحد، ﴿إلاَّ امرأتَك، إِنَّهُ مُصِيبُها مَا أصـابهم إِنَّ موعدَهم الصبحُ، أليس الصبح بقريب(٨١)﴾؟!.

﴿فَلَـمَّا جاء أمرنا، جعلنا عالِيَها سافلَها﴾ أي: جعلنا الغالب مغلوبًا، ﴿وأمطرنـا عليها حجارة من سِجيل منضود(٨٢)﴾ متتابع؛ أو مجموع مُعَدٌّ للعذاب.

﴿مُسوَّمة﴾ أي: معلّمة للعذاب؛ قيل: مكتوب عَلَى كُلِّ وَاحِـد اسـم مـن يُرمي بـهِ، ﴿عنـد رَبـك﴾ فِي خزائنـه أو حكمـه، ﴿ وَمَـا هِـيَ مِـنَ الظـالمين ببعيد(٨٣)﴾ لاَ تفوتهم.

﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا﴾ هُوَ اسم مدينتهم، أو اسم جدِّهم. ﴿قَالَ: يا قوم اعبدوا ا لله مَا لكم من إلـه غَـيرُه، وَلاَ تنقصـوا المكيـال والميزان، إِنـي أراكم بخير﴾ بثروة وسَعَة تغنيكم عَن التطفيف؛ أو أراكم بنعمة مِنَ ا لله حقُّها أن تُقابل بغير مَا تفعلون. ﴿وإنـي أخاف عَلَيْكُـم عـذاب يـوم محيـط(٨٤)﴾ مهلك مـن قولـه: ﴿وأُحيـط بثمـره﴾[2]، وأصلـه مـن إحاطـة العـدوِّ، [٢٥٤] والمراد: عذاب الاستئصال فِي الدُّنْـيَا؛ أو عذاب الآخِرَة.

﴿ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾ بالعدل، نُهـوا أَوَّلاً عَـن عـين القبيح الذِي كَانُوا عليه من نُقصِ المكيال والميزان؛ ثُمَّ ورد الأمر بالإيفاء الـذِي

---

١ - كذا في الأصل، وَهُوَ تكرار، ولعلَّ الصواب: «ولا يتخلّف منكم أحد».

٢ - سورة الكهف: ٤٢.

هُوَ حسن فِي العقول، لزيادة الترغيب فِيهِ؛ وجيء بِهِ مقتدا بالقسط الذِي ليكن الإيفاء عَلَى وجه العدل والسويَّة[1]، من غير زيادة وَلاَ نقصان. ﴿**وَلاَ تبخسوا الناس أشياءَهم**﴾ البخس: النقص؛ قيل: كَانُوا يُنقصون من أثمان مَا يشترون، وينضمُّ إِلَيْهِ بخس جميع الأشياء، حتَّى عدم الإِقْرَار بالإنصاف عند المحاجَّة. ﴿**وَلاَ تَعثوا فِي الأَرْض مفسدِينَ(٨٥)**﴾ العثيُ والعيث: أشدُّ الفساد، نحو السرقة والغارة، وقطع السبيل.

﴿**بقيَّة ا للهِ**﴾[2] مَا يبقي لكم مِنَ الحلال بعد التنزُّه عمَّا هُوَ حرام عليكم، ﴿**خير لكم إن كُنتُم مُؤْمِنِينَ**﴾ بشرط أن تؤمنوا؛ نعم، بقيَّة ا للهِ خير للكفرة أيْضًا، لأَنـَّهُم يَسلَمُون معها من تَبعَة البخس والتطفيف، إلاَّ أنَّ فائدتها تظهر مَعَ الإيمان بحصول الثواب، مَعَ النجاة مِنَ العقاب، وَلاَ يظهر مَعَ عدمِه، لانغماسِ صاحبها فِي غمرات الكفر، وفِي ذَلِكَ تعظيم للإيمان، وتنبيه عَلَى جلالة شأنه؛ أو المراد إن كُنتُم مصدِّقين لي فيما أقول لكم، وأنصح بِهِ إيـَّاكم، ﴿**وَمَا أنا عَلَيْكُم بحفيظ(٨٦)**﴾ بوكيل لنعمه عَلَيْكُم؛ فاحفظوها وراعوها حقَّ رعايتها.

﴿**قَالُوا: يا شعيبُ أصلاتُك تأمرك أن نترك مَا يعبد آباؤنا، أو أن نفعل فِي أموالنا مَا نَشَاء**﴾ كَانَ شعيب كثير الصلوات، وكَانَ قومه يقولون لَهُ: مَا

---

١ - كذا في الأصل، ويبدو أنَّ في العبارة سقطا، أو زيادة في غير موضعها، وَلَعَلَّ الصواب: «وجيء به مقيَّدا بالقسط ليكون الإيفاء عَلَى وجه العدل والسويَّة».

٢ - هنا وضع الناسخ إحالة إِلَى الحاشية كتب فيها: «تَفكَّر فَإِنَّ فيه فوائد جليلة». وليست للمؤلِّف كما هو واضح، إذ المعنى كامل بدونها، وَإِنـَّمَا هي من إضافة الناسخ تعليقا عَلَى ما يراه مهمًّا في المتن.

تستفيد بهَذَا، فكَانَ يقول: «إنـّها تأمر بالمحاسن، وتنهى عَـن القبـائح»؛ فَقَـالُوا لَهُ عَلَى وجه الاستهزاء: صلواتك تأمرك بترك عبادة مَا كَانَ يعبـدُ آباؤنـا، وأن نترك التبسُّط فِي أموالنا بِمَا نشاء مـن إيفـاء ونقـص؛ وجـاز أن تكـون الصـلاة آمرةً مجازا، كما سمـَّاها الله ناهيةً مجازا. ﴿إنَّك لأنت الحليم الرشيد(٨٧)﴾ السفيه الضـالُّ؛ والعرب تصف الشيء بضدِّه؛ وقيـل: قـالوه عَلَـى وجـه الاستهزاء، وقيل: معناه الحليم الرشيد بزعمك؛ وقيل: هُوَ عَلَـى الصِحَّـة، عَلَـى سبيل الإِقْرَار؛ أي: أنـَّك فينا حليم رشيد، ولكن لاَ تقدر علىما نقدر عليه.

﴿قَالَ: يا قوم أرأيتم إن كنـت عَلَى بيـنة مـن رَبـي، ورزَقـني مِنـْهُ رِزقـا حسنا﴾ يعني: النبوَّة والرسالة، تقديره: «فهل يسع لي مَعَ هَـذِهِ الأنعـام[1] الجامعـة للسعادات الروحانيَّة والجسـمانيَّة، أن أخـونَ فِي وحيـه فأخالفـه فِي أمـره ونهيـه»، وَهُـوَ اعتـذار مِنـْهُ[2] (لَعَلَّـهُ) المـألوف، والنهـي عَـن ديـن الآبـاء. ﴿وَمَـا أريـدَ أن أخالفكم إِلَى مَا أنهاكم عَـنْهُ﴾ يعني: أسبقكم إِلَى شهواتكم التِـي نهيتكـم عنهـا، لأستبدَّ بها. ﴿إن أريد إلاَّ الإصلاحَ مَا استطعت﴾ مَا أريد إِلاَّ إصلاح أحوالكـم فِي الدُّنـْيَا والآخِرَة، بموعظتي ونصيحتي وأمري ونهيي طول اسـتطاعتِي، مَـا دمـت [٢٥٥] متمكّنا لا آلو فيه جُهدي. والتنبيه عَلَى أنَّ العاقل يجب أن يُراعـيَ فِي كـلِّ مَا يأتيه ويذره أحد حقوق ثلاثة: أهمها وأعلاها: حـقُّ الله تعـالى، وثانيهـا: حـقُّ النفس، وثالثها: حقُّ الناس؛ قَالَ غيره: والمراعاة لأداء حقوقِ الناس، إِنـَّمَا ذَلِكَ من

١ - لم أجد هَذَا الجمع للنعمة، وَإِنـَّمَا «جمعُ النعمة: نِعَمٌ،وأنعُمٌ، كشدَّة وأَشُـدٌّ؛ حكـاه سيبويه». ابن منظور: لسان العرب، ٦/٦٧٤. مادَّة «نعم».

٢ - هنا وضع الناسخ إحالة إِلَى الحاشية، و لم يكتب فيها شيئًا، وَفِي العبارة سقط واضح.

شروط مُراعاة حقوق النفس، إِذَا كَانَت مِنَ الفرائض اللاَّزمة لَهُ عَلَيْهِم. **﴿وَمَا تَوفيقي إلاَّ با لله﴾** وَمَا كَوني موفَّقا لإصابة الحق فيما أعمل، إلاَّ بمعونته وتأييده، (لَعَلَّهُ) والتوفيق: تسهيل سبيل الخير. **﴿عليه تَوَكَّلت﴾** اعتمدت، **﴿وإِلَيْهِ أنيب(٨٨)﴾** أرجِع فِي السرَّاء والضرَّاء.

**﴿ويا قوم لاَ يجرمنَّكم﴾** لاَ يحملنَّكم **﴿شقاقي﴾** خلافي إصابة العذاب، **﴿أن يصيبكم مثل مَا أصابَ قومَ نوحٍ أو قومَ هودٍ أو قومَ صالحٍ﴾** كأنَّه لم يتحقَّق هلاك قومه مِنَ ا لله بعدُ، بَل مُتَحِقِّق أنَّهم يُعذَّبون إن لم يؤمنوا. **﴿وَمَا قومُ لوط منكم ببعيد(٨٩)﴾** فَهُم أقرب الهالكين منكم، أو فِي المكَانَ، فمنازلهم قريبة منكم؛ أو فيما يُستحقُّ بِهِ الهلاك.

**﴿واستغفروا رَبَّكُم ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ إنَّ رَبِّي رحيم ودود(٩٠)﴾** يحِبُّ المؤمنين، ويفعل بهم مِنَ اللطف والكرامة مَا يفعل البليغ المودَّة لمن يَوَدُّه.

**﴿قَالُوا: يا شعيب مَا نفقهُ كثيرا مِمَّا تقول﴾** أي: لاَ نفهم صِحَّة مَا تقول (لَعَلَّهُ) كوجوب التوحيد، ونفي التنديد[1]، وَإلاَّ كيف لاَ يُفهم كلامُه وَهُوَ خطيب الأنبياء صلوات ا لله وسلامه عليه. **﴿وَإنَّا لنراك فينا ضعيفا﴾** لاَ قوَّةَ لك وَلاَ عزَّ فيما بيننا، فلا تقدر عَلَى الامتناع مِنَّا إن أردنا منك مكروها،

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «النديد»، و«نَدَّدتُ بالرجل تنديدا، وسَمَّعتُ به تسميعا، إذا أسمعته القبيح، وشتمته، وشهَرته وسَمَّعت به، والتنديد: رفع الصوت». ولا شكَّ أنَّ المصنف لم يقصد إِلَى هَذَا المعنى، وَإِنَّمَا قصد «النديد»: بمعنى «الند بالكسر: المثل والنظير، والجمع أنداد، وَهُوَ النديد والنديدة». ابن منظور: لسان العرب، ٦/٦٠٧. مادَّة: «ندد».

وقيل: كَانَ ضريرَ البصر. ﴿ولولا رهطُك لرجمناك﴾ ولولا عشيرتُك لقتلناك بالرجم، وَهُوَ شرٌّ قَتْلَة؛ وكَانَ فِي منعة من قومه، وكَانَ رهطه من أهل ملّتهم، فلذلك أظهر الميل إِلَيْهِم والإكرام لَهُم. ﴿وَمَا أنت علينا بعزيز(٩١)﴾ أي: لاَ تَعِزُّ علينا، وإنّما يَعِزُّ علينا رهطك.

ولذلك ﴿قَالَ﴾ فِي جوابهم: ﴿يا قوم أَرَهطِي أعزُّ عَلَيْكُم مِنَ ا لله﴾ أَمَكَان رهطي أَهْيَب عندكم مِنَ ا لله، فأولى بكم أن تَتَحَاموا عَن قتلي من سطوة ا لله وغضبه، ﴿واتَّخذتموه وراءكم ظِهرِيًّا﴾ أي: نبذتم أمر ا لله وراء ظهوركم، ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ محيط(٩٢)﴾ قد أحاط بأعمالكم علما.

﴿ويا قوم اعملوا عَلَى مكانتكم﴾ أي: قارين عَلَى جهتكم وطريقتكم التِي أنتم عاكفون عليها، مِنَ الشرك والنفاق والشنآن لي، ﴿إنِّي عامل﴾ بمكاني[1] ﴿فسوف تَعْلَمُونَ من يأتيه عذابٌ يُخزيه ومن هُوَ كاذب﴾ فسوف تَعْلَمُونَ أيُّنا يأتيه العذاب ويخزيه، أي: يفضحه، وأيُّنا هُوَ كاذب، ﴿وارتقبوا﴾ العاقبة، ﴿إنِّي معكم رقيب(٩٣)﴾ منتظرٌ لها.

﴿وَلَمَّا جاء أمرنا نَجَّيْنَا شعيبا وَالذِينَ آمنوا معه برحمة مِنَّا، وأخذت الذِينَ ظلموا الصيحة﴾ قيل: صاح بهم جبريل فخرجت أرواحهم، أو أتتهم صيحة مِنَ السَّمَاء فأهلكتهم، ﴿فأصبحوا فِي ديارهم جاثِمِينَ(٩٤)﴾ ميتين بصيحة وَاحِدَة.

---

١ - في الأصل: «بمكني»، وهو خطأ.

﴿كأن لم يَغنَوا فِيهَا﴾ كأن لم يكونوا فِي ديارهم أحياء متصَرفين مترددين، ﴿ألاَ بُعدًا﴾ هلاكا ﴿لِمَديَنَ كما بَعِدَت﴾ هلكت ﴿ثمود(٩٥)﴾.

﴿وَلَقَد أرسلنا موسى بِآيَاتِنا وسلطانٍ مُبِين(٩٦)﴾ حجَّة بينة ﴿إِلَى فرعون ومَلَئه فاتَّبَعوا﴾ أي: الملأ ﴿أمر فرعون، وَمَا أمرُ فرعون برشيد(٩٧)﴾ هُوَ تجهيل لِمُتَّبعيه حيث شايعوه عَلَى أمره وَهُوَ ضلال مبين، وذلك أنَّه ادَّعى الإلهيَّة وَهُوَ بشر مثلهم، وجاهر بالظلم والشر الذِي لاَ يصدر إِلاَّ من سلطان ظلوم، وذلك بمعزل عَن الإلهيَّة، ومن ذَلِكَ أنَّهم [٢٥٦] عاينوا الآيات والسلطان المبين، وعَلِموا أنَّ مَعَ موسى الرشدَ والحقَّ، ثُمَّ عدلوا عَن اتباعه إِلَى اتباع من ليس فِي أمره رُشد، أو المراد: وَمَا أَمرُه بصالح حميد (لَعَلَّهُ) حميدُ العاقبة.

قوله: ﴿يَقْدُمُ قومَه يوم القيامة﴾ أي: يتقدَّمهم وَهُم[1] يتبعونه كما كَانَ فِي الدُّنْيَا ﴿فأوردهم النار﴾ أدخلهم فِيهَا، لأَنَّ كلَّ إمام يَأتَمُّ بِهِ مأمومه فِي الدينا والآخِرَة، كَانَ إمام هدى أو ضلال. ﴿وبِئْسَ الورِدُ﴾ المورد ﴿المَورود(٩٨)﴾ الذِي ورده.

﴿وأُتبِعُوا فِي هَذِهِ لعنة﴾ أي: أُبعدوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِنَ التوفيق والرحمة، ﴿ويوم القيامة﴾ يُلعَنون أَيْضًا، ﴿بِئْسَ الرِّفدُ المرفود(٩٩)﴾ بِئْسَ العطاء المعطىَ، وذلك أنَّه ترادفت عَلَيْهِم لعنتان.

---

١ - فِي الأصل: «وهو»، وهو خطأ.

﴿ذَلِكَ من أنباءِ القرى نقصُّه عليك، منها قائم﴾ باقٍ عَلَى ساقه، ﴿وحصيد(١٠٠)﴾ عافي الأثر، كالزرع الذِي ذَرَتْه الرياح.

﴿وَمَا ظلمناهم﴾ بمعاملتنا إيَّاهم، أو بإهلاكنا إيَّاهم، ﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾ بارتكاب مَا بهِ أُهلكوا؛ ﴿فما أغنت عَنْهُم آلهتهم التِي يدعون﴾ يَعبدون ﴿من دون الله من شيء﴾، لأَنَّهُم ليسوا مِنَ الله فِي شيء لمَّا عبدوا غيره، و لم تغن عَنْهُم آلهتهم التِي عكفوا عَلَى عبادتها من دون الله، لَمَا استحقُّوا العذاب مِنْهُ. ﴿لَمَّا جاء أمر ربِّك﴾ عذابُه (لَعَلَّهُ) لمَّا تحقَّق الحَقُّ زَهَقَ الباطل، ﴿وَمَا زادوهم غير تتبيب(١٠١)﴾ تخسير، بمعنى النزول فِي الهلاك، يعني: وَمَا أفادتهم عبادة غير الله شَيْئًا، بَل أهلكتهم.

﴿وكذلك﴾ ومِثلُ ذَلِكَ الأخذِ ﴿أَخذُ ربِّكَ إِذَا أَخَذ القرى﴾ أي: أهلها، وماذا عَلَى القرى[كَذَا]، ﴿وهي ظالمة﴾ لجميع من ظَلَمَ نفسه، كما قَالَ: ﴿ولو ترى إذ يتوفَّى الذِينَ كَفَرُوا المَلاَئِكَة يضربون وجوهَهم...﴾[1] الآيَة. ﴿إِنَّ أخذه أليم﴾ مُؤلم ﴿شديد(١٠٢)﴾ صعب عَلَى المأخوذ، وَهَذَا تحذير لِكُل نفس ظالمة؛ فعلى كُل ظالم أن يُبادر [إلى] التوبة، وَلاَ يَغتَرَّ بالإمهال.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما قصَّ، ﴿لآيَةً﴾ لعبرةً ﴿لمن خافَ عذابَ الآخِرَةِ﴾ أي: اعتقد صحَّته ووجوده ووصوله. ﴿ذَلِكَ يومٌ مجموعٌ لَهُ الناس﴾ وأنَّهم لاَ ينفكُّون مِنْهُ، يُجمَعون للحساب والجزاء، ﴿وذلك يومٌ مشهود(١٠٣)﴾ أي: يشهد فِيهِ الخلائق الموقفَ لاَ يغيب عَنْهُ أحد.

---

١ - سورة الأنفال: ٥٠؛ وتمامها: ﴿ولو ترى إذ يتوفَّى الذِينَ كَفَرُوا المَلاَئِكَةُ يضربون وجوهَهم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق﴾.

﴿وَمَا نؤخّره إلاَّ لأجل[1] معدود(١٠٤)﴾ إلاَّ لانتهاء مدَّةٍ معدودة، التِي صيَّرناها[2] لبقاء الدُّنْيَا.

﴿يوم يأتِ لاَ تَكَلَّم نفسٌ إلاَّ بإذنه﴾ أي: لاَ يشفع أحد إلاَّ بإذنه، ﴿فمنهم شقيٌّ وسعيدٌ(١٠٥)؛ فأمَّا الذِينَ شَقُوا ففي النار لَهُم فِيهَا زفير﴾ هُوَ أوَّل نهيق الحمار، ﴿وشهيق(١٠٦)﴾ هُوَ آخره إِذَا ردَّده فِي جوفه، وقيل: الزفير: الصوت الشديد؛ والشهيق: الصوت الضعيف؛ وقيل: الزفير فِي الحلق، والشهيق فِي الصدر.

﴿خالدين فِيهَا مَا دامتِ السَّمَاوَات والأَرْض﴾ أي: مدَّة دوام[3] السَّمَاوَات والأَرْض؛ والمراد: سماوات الآخِرَة وأرضها، وهي دائمة مخلوقة للأبد؛ والدليل عَلَى أنَّ لها سماوات وأرضا، قوله: ﴿يوم تُبدَّل الأَرْضُ غَير الأَرْض والسماوات﴾[4]، وقيل: مَا دام فوقٌ وتحتٌ، ولأنَّه لاَ بُدَّ لأهل الآخِرَة مِمَّا يُقِلُّهم ويُظلُّهم، إمَّا سماء أو عرش، كلُّ مَا أظلَّك فهو سماء، أو هُوَ عبارة عن التأبيد، ونفي [٢٥٧] الانقطاع، كقول العرب: «مَا لاَحَ كوكبٌ». ﴿إلاَّ مَا شاء ربُّك﴾ مِنَ الفريقين، من تعميرهم فِي الدُّنْيَا، واحتباسهم فِي البرزخ مَا بَين الموت والبعث، قبل مصيرهم إِلَى النار، يعني: هم خالدون فيهما إلاَّ هَذَا المقدار؛ ﴿إنَّ رَبَّكَ فعَّال لِمَا يريد(١٠٧)﴾.

---

١ - فِي الأصل: «وما ناخره لاجل» وَهُوَ خطأ.

٢ - يمكن أن نقرأ: «ضربناها».

٣ - فِي الأصل: «داوم»، وهو خطأ.

٤ - سورة إبراهيم: ٤٨.

﴿وَأَمَّا الذِينَ سعدوا ففي الجَـنَّة خـالدين فِيهَـا مَـا دامـت السَّمَاوَات والأَرْض إِلاَّ مَا شاءَ رَبُّكَ عطاءً غير مجذوذ(١٠٨)﴾ غير مقطـوع، ولكـنَّه مُمتدٌّ إِلَىَ غير نهاية.

﴿فلا تَكُ فِي مِريَـة مِمَّا يعبدُ هَؤُلاَءِ﴾ أي: فـلا تَشُـكَّ بعدمـا أُنـزل مـن هَذِهِ القصص فِي سوء عاقبة عبادتهم، لما أصاب أمثالهم قبلهـم، تسـلية لرسـول الله، وَعَدَهُ[1] بالانتقام مِنْهُم، ووعيد لَهُـم؛ ثُـمَّ قَـالَ: ﴿مَـا يعبـدون إِلاَّ كمـا يَعبدُ آباؤهم من قبل﴾ يريد أنَّ حالهم فِي العبادة مثل حال آبائهم، وقد بَلَغَـكَ مَا نزل بآبائهم، وسينزل بهم مثله؛ وإعلام أنَّـهم مقلِّدون وأنَّ أكثر الخلق عَلَى غير عبادة الله. ﴿وَإِنَّا لموفُّوهم نصيبهم﴾ حظَّهم مِنَ العذاب، أو مِنَ الرزق؛ فيكون تأخُّر العذاب عَنْهُم مَعَ قيام مَـا يُوجبـه مـن أعمـالهم، عَلَـى مقتضـى الحكمـة. ﴿غير منقـوص(١٠٩)﴾ (لَعَلَّـهُ) عَلَـى مُقتضـى عملهـم، أو أراد أرزاقهم التِي قُدرَت لَهُم.

﴿وَلَقَد آتينا موسـى الكتـاب فـاختُلِف فِيـهِ﴾ آمـن بـهِ قـوم، وكفـر بـهِ آخرون، كما اختُلف فِي القرآن، وَهُوَ تسلية لرسول الله ﷺ. ﴿ولولا كلمـة سبقت من رَبِّك﴾ بعـد آجـالهم؛ ﴿لَقُضِـيَ بَيْنَـهُم﴾ بـإهلاك مـن كـذَّب، وسـلامةِ مـن أسـلم، ﴿وَإِنَّـهُم لفـي شـكٍّ مِنْـهُ﴾ مِـنَ القـرآن والعـذاب ﴿مريب(١١٠)﴾ من أَرَابَ الرجل: إِذَا كَانَ ذا ريبةٍ.

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «وَوَعْدٌ له».

﴿وإن كُلاًّ﴾ أي: جميع المختلفين، ﴿لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهم رَبُّكَ أعمالهم﴾ أي: جزاء أعمالهم، ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خبير(١١١)﴾.

﴿فاستقم كما أُمِرتَ﴾ فاستقم استقامة، مثل الاستقامة التِي أُمرت بها، غير عادل عنها، ﴿ومن تاب معك، وَلاَ تَطْغَوا﴾ وَلاَ تَخرجوا عَن حدود ا لله، ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بصير(١١٢)﴾ فهو مجازيكم، فاتَّقُوه؛ قيل: مَا نزلت عَلَى رسول ا لله ﷺ آية كَانـ[ـت] أشقّ عليه من هَذِهِ الآيَة، ولهذا قَالَ: «شيَّبتني هود»[1].

---

١ - قال الهيثمي: «وعن عقبة بن عامر، أنَّ رجلا قال: يا رسول ا لله قد شبت! قال: شيَّبتني هود وأخواتها» رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح». وقال العراقي: رواه «الحاكم وصحَّحه من حديث ابن عبَّاس، وهو في الشمائل من حديث أبي جحيفة». «وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري». ورواه أبو نعيم في الحلية، والترمذي: سنن، كتاب التفسير، سورة الواقعة، ٦، من حديث ابن عبَّاس، رقم ٣٢١٩، بلفظ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: يَا رَسُولَ ا للهِ، قَدْ شِبْتَ، قَالَ: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَالْوَاقِعَةُ وَالْمُرْسَلاَتُ وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ». قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لاَ نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ إِلاَّ مِنْ هَـذَا الْوَجْهِ. وروى عليٌّ بن صالح هذا الحديث عن أبي إسحاق عن عن أبي جحيفة نحو هذا، وقد روي عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة شيء من هذا مرسلاً. وأخرجه ابن مردويه عن أبي بكر، وسعيد بن منصور في سننه عن أنس، وابن مردويه عن عمران». صحَّحه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٧٢٠ و٣٧٢١ و٣٧٢٢. الهيثمي: مجمع الزوائد، مج٤/ج٧/٢٧. الغزالي: إحياء علوم الدين، تخريج العراقي، ٢/٤٠٩؛ ٥/٢١. المناوي: فيض القدير، حديث ٤٩١١ إلى ٤٩١٨؛ ٤/١٦٨-١٦٩. ابن الأثير: جامع الأصول، ٢/٢٦٨. الشيباني: تمييز الطيب، حديث ٧٦٣، ص١٠٨. المعجم المفهرس، ٣/٢٢٤. برنامج سلسلة كنوز السنَّة. العالمية: موسوعة الحديث، مادَّة البحث: «شيبتني».

وأورده القطب اطفيَّش في جامع الشمل، وقال محقِّقه: «انظر الحديث في: (المقاصد =

﴿وَلاَ تَركَنوا إِلَى الذِينَ ظلمـوا﴾ أي: لاَ تركنـوا إِلَى القـادة والكـبراء فِي ظلمهم، وفيمَا يدعونكم إِلَـيْـهِ؛ وإذا كَانَ الركون إِلَى من وُجد مِنْـهُ مَا يُسـمَّى ظلما كذلك فما ظنُّك بالظلم نفسِـه والانهمـاك فِيـهِ، ولعلَّ الآيـَة أبلـغ مَـا يُتصوَّر فِي النهي عَن الظلم والتهديد عليه؛ ﴿فَتَمَسَّكم النار﴾ وقيل: الركـون إِلَـيْهِم الرضىَ بكفرهم. عَن الحسن: «جَعَلَ ا لله الدين بين لاَءَ يـْنِ: وَلاَ تطغـوا وَلاَ تركنوا. ويُروى عَن رسول ا لله ﷺ: *«من دعا لظالم بالبقـاء، فقـد أحـبَّ أن يُعصـى ا لله فِي أرضـه»*[1]. ﴿وَمَـا لكـم مـن دون ا لله مـن أولِيَـاء﴾ أي: فتمسَّكم النار وأنتم عَلَى هَذِهِ الحالة، ومعناه: وَمَا لكم من دون ا لله من أوليـاء يقدرون عَلَى منعكم من عذابه، ﴿ثمَّ لاَ تُنصرُونَ(١١٣)﴾ لا ينصركـم هُـوَ، لأَنـَّهُ حكم بتعذيبكم، وَلاَ تنصركم آلهتكم من عذابه.

﴿وأقـم الصـلاة طرفي النهـار﴾ غُـدوة وعشيَّة، ﴿وزُلَفـا مِـنَ الليـل﴾ وساعات مِنَ الليل، جمع زُلْفَـة: وهـي ساعاته القريبـة مـن آخـر النهـار، مِـن أَزْلَفَه: إِذَا قرَّبه. ﴿إنَّ الحسناتِ يذهبن السَّيِّئـات﴾ أي: الصلوات يذهبنَّ بالصغائر، لِمَا بينهنَّ، مَا اجتنب العبد الكبائر؛ ﴿ذَلِكَ ذِكرَى﴾ أي: الصلوات ذكرى ﴿للذاكرِينَ(١١٤)﴾ لاَ لغيرهم.

﴿واصـبر﴾ عَلَـى عبـادة ا لله، ﴿فـإنَّ ا لله لاَ [٢٥٨] يُضيـعُ أجـرَ المحسنِينَ(١١٥)﴾ المُوَحدين ا لله.

---

الحسنة، ٦٠٦. وتاريخ بغداد، ٤٥/٣. وحلية الأولياء، ٣٥٠/٤. وسنن الترمذي، ١٦٢/٢. وأسنى المطالب، ٧٩٧. والجامع الأزهر، ٢٥٤/١م. والدرر المنتثرة، ٢٦٥).

١ - لم نعثر عَلَيه فِي الربيع ولا فِي الكتب التسعة ولا فِي الجامع الصغير وزياداته.

﴿فلولا كَانَ مِنَ القرون مِن قبلكم﴾ أي: فهلاً كَانَ مِنَ القرون التِي أهلكناها ﴿أُولو بَقيَّة﴾ أولو فضل وخير، وسمّى الفضل والجودة بقيَّة، لأَنَّ الرجل يَستَبقي مِمَّا يَنفعه أجوده وأفضله؛ فصار مثلا فِي الجودة والفضل؛ ويقال: فلان من بقيَّة القوم، أي: من خيارهم. ومنه قولهم: «فِي الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا». ﴿ينهون عَن الفساد فِي الأَرْض﴾ عَجَب مُحَمَّد عليه السلام وأمَّته أنَّه لم يكن فِي الأمم التِي ذكر الله إهلاكهم فِي هَذِهِ السورة جماعةٌ من أولي العقل والدين ينهون غيرهم عَن الكفر والمعاصي، من غير الرسل وتابعيهم، كما قَالَ: «من المستثنين»؛ ﴿إلاَّ قليلا مِمَّن أنجينا مِنْهُم﴾ استثناء منقطع، أي: ولكن قليلا مِمَّن أنجينا مِنَ القرون، نُهوا عَن الفساد وسائرهم تاركون للنهي. ﴿واتَّبعَ الذِينَ ظَلَموا﴾ أي: التاركون للنهي عَن المنكر، ﴿مَا أُترِفُوا فِيهِ﴾ أي: اتَّبعوا مَا عُرفوا فِيهِ مِنَ التنعُّم والترَّف من حُب الرئاسة والثروة، وطلب أسباب المعيشة والمال والجاه، ورفضوا الأمر بالمعروف والنهي عَن المنكر وراء ظهورهم، ﴿وكَانُوا مجرمِينَ(١١٦)﴾ اعتراض وحكم عَلَيْهِم بأنَّهم قوم مجرمون.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ ليهلكَ القرى بظلمٍ﴾ أي: لاَ يصحُّ فِي الحكمة أن يُهلِك الله القرى التِي ذكرها، وقصَّها فِي هَذِهِ السورة وغيرها ظالما لها، ﴿وأهلها مصلحُونَ(١١٧)﴾ تنزيها لذاته عَن الظلم.

﴿ولو شاء رَبُّكَ لجعلَ الناس أُمَّةً وَاحِدَة﴾ يَأتمُّون بإمام واحد، ﴿وَلاَ يزالون مختلفِينَ(١١٨)﴾ بعضهم عَلَى الحق، وبعضهم عَلَى الباطل.

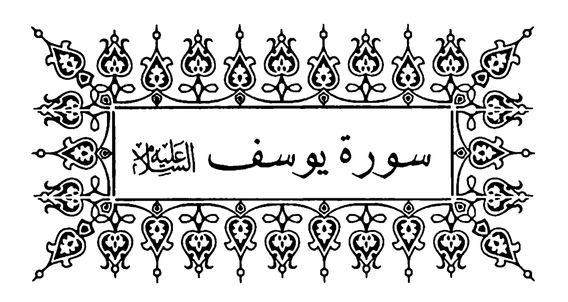
﴿إلاَّ من رحمَ ربُّك﴾ إلاَّ ناسا عصمهم الله عَن الاختلاف فِي الدين، فاتَّفقوا عَلَى دين الحق و لم يختلفوا فِيهِ، ﴿ولذلك خلقهم﴾ أي: ولِمَا هم عليه مِنَ الاختلاف؛ وقيل: للدين خلقهم؛ وقيل: محصول الآيَة: أهل الباطل مختلفون، وأهل الحق متَّفقون؛ فخلق أهل الحَق للاتفَاق، وأهل الباطل للاختلاف. ﴿وتمَّت كلمةُ رَبِّك﴾ وهي قوله للمَلاَئِكَة: ﴿لأملأنَّ جهنَّم مِنَ الجِنَّة والناس أجمعِينَ(١١٩)﴾ لعلمه بكثرة من يختار الباطل (لَعَلَّهُ) منهما.

﴿وكلاًّ نقصُّ عليك من أنباء الرسل مَا نُثبِّت بهِ فؤادك﴾ أي: مَا نَقُصُّ الذِي قصصناه عليك، إلاَّ لتثبيت فؤادك (لَعَلَّهُ) عَلَى الإيمان، لاَ لعبا وَلاَ لهوا وَلاَ عبثا، ﴿وجاءك فِي هَذِهِ الحقُّ﴾ أي: فِي هَذِهِ السورة، أو فِي هَذِهِ الأنباء المقتصَّة، مَا هُوَ حقٌّ، ﴿وموعظة﴾ تَزجُر عَن المخالفة، ﴿وذكرى للمؤمنِينَ(١٢٠)﴾ ومعنى تثبيت فؤاده: زيادةُ يقينه، لأَنَّ تكاثر الأدلَّة، أثبت للقلب.

﴿وقل للذين لاَ يُؤْمِنُونَ اعملوا عَلَى مكانتكم﴾ عَلَى حالكم وجِهَتِكم التِي أَنتُم عليها ﴿إنَّا عاملُونَ(١٢١)﴾ عَلَى مكانتنا.

﴿وانتظروا﴾ بنا الدوائر، ﴿إنَّا منتظرُونَ(١٢٢)﴾ أن يَنزِل بكم نحو مَا اقتصَّ الله تعالى مِنَ النقم النازلة بأمثاكم.

﴿ولله غيبُ السَّمَاوَات والأَرْض﴾ لاَ يخفى عليه مَا يَجري فِيهَا، فلا تَخفى عليه أعمالكم. ﴿وَإِلَيْهِ يُرجع الأمر كلُّه﴾ فلا بدَّ أن يُرجع إِلَيْهِ أمرهم وأمرك، فيهلكهم ويُنجيك، ﴿فاعبده وتوكَّل عليه﴾ فإنَّه كافيك وكافلك، ﴿وَمَا رَبُّكَ بغافل عمَّا تَعْمَلُونَ(١٢٣)﴾ أي: أنت وَهُم عَلَى تغليب المخاطب، قيل: خاتمة التَّوْرَاة هَذِهِ الآيَة.



## سورة يوسف عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر تلك آيات الكتاب الْمُبِين(١)﴾، «تلك»: إشارة إِلَى آيات السورة؛ و«الكتابُ المبين» السورة؛ أي: تلك الآيات التِي أُنزلت إليك فِي هَذِهِ السورة، آيات السورة الظاهرِ أثرها فِي إعجاز العرب؛ أو التِي تُبين لمن يُدبرها أنّهَا من عند الله لاَ من عند البشر؛ أو الواضحة التِي لاَ تشتبه عَلَى العرب معانيها.

﴿إنَّا أنزلناه قرآنا عربيًّا﴾ (لعلّه) مفهومًا ومحفوظًا لمن تدبّره وكرّره، ﴿لَعَلَّكُم تعقلُونَ(٢)﴾ لكي تفهموا معانيه[1]؛ ﴿ولو جعلناه قُرآناً أعجميًّا لقالوا: لولا فُصلت آياته﴾[2].

﴿نَحْنُ نَقصُّ عليك أحسنَ القصصِ﴾ نُبَيِّنُ لك أحسن البيان؛ والقاصُّ الذِي يأتي بالقصَّة عَلَى حقيقتها، والقصص فِي كلام العرب: هُوَ اتباع الأثر، قَالَ عزَّ وجلَّ: ﴿وقالت لأخته: قُصيه﴾[3] أي: اتَّبعي أثره، وَالله أعلم. ﴿بِمَا أوحينا

١ - وضع الناسخ هنا إحالة إِلَى الحاشية و لم يكتب بها شيئًا، ويبدو أنَّ فِي العبارة سقطا.

٢ - سورة فصلت: ٤٤.

٣ - سورة القصص: ١١.

**إليك هَذَا القـرآن﴾** أي: بإيحائنا إليك هَـذِهِ السورة؛ وإنـّما كَـانَ أحسنه لِمَـا يتضمَّن مِنَ العبرِ والحِكم، والعجائب التِي ليست فِي غيرها، **﴿وإن كنتَ مِن قبلِه لَمِنَ الغافلِينَ(٣)﴾** عَن هَذِهِ القصَّة، لم تخطر ببالك و لم تقرع سمعك.

**﴿إذ قَـالَ يوسـف لأبيـه: يـا أَبـت إِنـي رأيـتُ أحـدَ عشـر كوكَبًـا، والشـمسَ والقمـرَ﴾** قيـل: همـا أبـواه، والكواكـب: إخوتـه **﴿رأيتُـهم لي ساجدِينَ(٤)﴾** أي: متواضعـين؛ **﴿قَـالَ: يـا بُنـيَّ، لاَ تَقصُـص رُؤيـاك عَلَـى إخوتِك، فيكيدوا لك كيـدا﴾** عَـرَفَ يعقـوب أنَّ الله يصطفيـه للنبـوَّة ويُنعـم عليه بشَرف الدارين، فخاف عليه حسد إخوةٍ[1] بتفطُّنه فِي عواقب الأمور؛ أو بِوحي مِنَ الله؛ **﴿إنَّ الشيطان للإنسـان عـدوٌّ مُبِـينٌ(٥)﴾** ظـاهرُ العـداوة؛ فَيَحمِلُهم عَلَى الحسد والكيـد لاَ محالـة، مَتَى وجـد سـبيلا وسـببا، وَهَـذَا مـن أسبابه.

**﴿وكذلك﴾** ومثل ذَلِكَ الاجتباء الـذِي دَلَّ عليـك[2] رؤيـاك. **﴿يجتبيـك ربُّك﴾** يَصطَفِيـك؛ والاجتبـاء: الاصطفـاء، افتعـال مـن اجتَبَيـتَ الشـيء: إِذَا حصَّلته لنفسك، وجَبَـيت المـاء: فِي الحـوض إِذَا جمعتـه فِيـهِ؛ **﴿ويُعلِّمُـكَ مـن تأويلِ الأحاديث﴾** قيل: تأويل الرؤيا، وتأويلها: عبارتها وتفسيرها؛ أو تـأويل أحاديث الأنبياء وكتب الله؛ **﴿ويُتِمُّ نعمتَه عليك﴾** بإتقان الحكمة، **﴿وعلـى آل يعقوب﴾** بِأن وصَل لَهُم نعمةَ الدُّنـيَا بنعمة الآخِرَة؛ أي: جعلهم أنبيـاء فِي

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «إخوته».

٢ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «دلَّت عليه».

الدُّنْـيَا وملوكًا، ونقلهم عنهـا إِلىَ الدرجـات العلى فِي الجـنَّة؛ وآل يعقـوب: أهله، وَهُم نسله وغيرهم؛ وإنَّما عَلِمَ يعقوب أنَّ يوسف يكون نبيـًّا، وإخوتـه أنبياء، استدلالا بضوء الكواكب، أو بوحيٍ مِنَ الله تعالى، فلذا قَالَ: ﴿وعلـى آل يعقوب﴾، وبيانُ تفضيل يوسف عَلَى إخوته بسـجود النجـوم لَـهُ. ﴿**كمـا أتمَّها عَلَى أبويك من قبلُ، إبراهيـم وإسـحاق، إنَّ رَبـَّكَ عليـم**﴾ يعلـم مـن يَحِقُّ لَهُ الاجتباء، ﴿**حكيم(٦)**﴾ يضع الأشياء مواضعها.

﴿**لَقَد كَانَ فِي يوسف وإخوته**﴾ أي: فِي قصَّتهم وحديثهم، ﴿**آيـات**﴾[1] علامات، ودلالات عَلَى قدرة الله وحكمتـه فِي كـلِّ شـيءٍ آيـة مكـي [كَـذَا] ﴿**للسائلِينَ(٧)**﴾ لمن سأل عَن قصَّتهم.

﴿**إذ قَالُوا: لَيُوسُفُ وأخوهُ أحبُّ إِلىَ أبينا مِنَّا ونحن عُصْبَة**﴾ أي: إنـَّهُ يُفضِّلُهما فِي المحبـَّة علينا، وهما صغيران لاَ كَفَاءة فيهمـا، ونحـن عشـرة رجـالٍ كُفَاة نقوم بمرافقه، فنحن أحقُّ بزيـادة المحبـَّة منهمـا، لفضلنـا بـالكثرة [٢٦٠] والعُصْبَة عليهما؛ وكأنَّ نظرهم اقتصر عَلَى الظاهر والمنفعة الدُّنْـيَاوِيَّة، فلذلـك (لعلَّه) قَالُوا: ﴿**إنَّ أبانا لفي ضلالٍ مُبِينٍ(٨)**﴾[2] وكأنَّ نظرَ أبيهـم فِي البـاطن الحقيقيِّ الدينيِّ ـ لِمَا يرى فِيهِ مِنَ المخايل، وبخاصةٍ لـمَّا أعلَمَه برؤياه ـ تَفَطَّـنَ فِي تدبير أمر الدُّنْـيَا والدين، ولو وصفوه بالضلالة فِي الدين لكفروا؛ والعُصْبَة: العشرة فصاعداً.

---

١ - فِي الأصل: «يآت»، وهو سهو.

٢ - لم يذكر الناسخ هَذَا المقطع من الآيـة، وأضفناها في موضعها حسب احتهادنا.

﴿اقتلوا يوسفَ أو اطرحوه أرضًا﴾ منكورةً مجهولةً بعيدةً عَن العمران، ﴿يَخْلُ لكم وجهُ أبيكم﴾ يُقبِل عَلَيْكُم إقبالة وَاحِدَة، لاَ يلتفت عنكم إِلَى غيركم؛ والمُرَاد: سلامة محبَّته لَهُم مِمَّن يشاركهم، فكَانَ ذِكْرُ الوجه لتصوير معنى إقباله عَلَيْهِم، لأَنَّ الرجل إِذَا أقبل عَلَى الشيء أقبل بوجهه؛ وجاز أن يُرَاد بالوجه الذات، كما قَالَ: ﴿ويبقى وجهُ ربِّك﴾[1]، ﴿وتكونوا مِن بعدِه قوماً صالحِينَ(٩)﴾.

﴿قَالَ قائل مِنهُم: لاَ تقتلوا يوسفَ وألقوه فِي غيابات الجُب﴾ فِي قعر البئر، وَمَا غاب عَنهُ من عين الناظر، ﴿يَلتَقِطْه بعض السَّيَّارة﴾ بعض السائرين فِي الأَرْض، ﴿إِن كُنتُم فاعلِينَ(١٠)﴾ إن كَانَ لاَ بُدَّ لكم مِنَ الفعل بِهِ.

﴿قَالُوا: يا أبانا مَا لك لاَ تأمنَّا عَلَى يوسف وَإِنَّا لَهُ لناصحُونَ(١١)﴾ أي: لما[2] تخافنا عليه، ونحن نريد لَهُ الخير ونشفق عليه؛ وأرادوا بقولهم ذَلِكَ ـ لمَّا عزموا عَلَى كيد يوسف ـ استنزاله عَن رأيه وعادته فِي حفظه مِنهُم، وفيه دليل عَلَى أنَّه أحسَّ مِنهُم بِمَا يُوجِب الحذر مِنهُم عليه، ولكن لا يغني الحذر عمَّا قدَّره الله (لعلّه) وعلِمهُ فِي خلقه.

﴿أرسله معنا غداً يَرْتَعِ﴾ يتَّسع فِي أكل الفواكه وغيرها؛ والرتْعَة: السَّعة، ﴿ويلعبْ﴾ يرتاض لما يُباح، ﴿وَإِنَّا لَهُ لحافظُونَ(١٢)﴾ من أن يناله مكروه.

---

١ - سورة الرحمن: ٢٧.

٢ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «لِمَ».

﴿قَالَ: إِنـي لَيَحْزُنُنِي أن تذهبـوا بِـهِ، وأخـاف أن يأكلـه الذئـب وأنتـم عَـنْـهُ غافلُونَ(١٣)﴾ أَنظُرُ فِي مَا قضاه الله وقدَّره لاَ بُدَّ من وقوعه وإمضائـه، وكأنـَّهم صاروا مَعَ أبيهم نازلين بمنزلة التهمة معه بالخيانة فِي حفظ أخيهم؛ أو لَمَّا أمره بكتمان رؤياه عَـنْـهُم أَمِنَ عليه مِنْهُم.

﴿قَالُوا: لئن أكله الذئب ونحن عُصبَةٌ إِنَّا إِذًا لخاسرُونَ(١٤)﴾ فعلنا بِـهِ فعل المخسرين لأنفسهم.

﴿فَلَـمَّا ذهبوا بِـهِ وأجمعوا﴾ اجتمـع رأيهـم جميعـا عَلَى ﴿أن يجعلـوه فِي غيابَة الـجُب، وأوحينا إِلَـيْـهِ﴾ قيل: أُوحِيَ إِلَـيْـهِ فِي الصغـر، كمـا أوحـي إِلَىَ عيسى ويحيى، ﴿لتُنبـئـنـَّهم بـأمرهم هَـذَا﴾ بِمَـا فعلوا بـك، ﴿وَهُـم لاَ يشعرُونَ(١٥)﴾ أنـَّك يوسف.

﴿وجـاءوا أبــاهم عِشَــاءً﴾ للاستــتار، والتحسُّـر علـى[1] للاعتــذار، ﴿يبكُونَ(١٦)﴾ عن الأعمش[2]: «لاَ تـُصدِّق باكية بعد إخوة يوسف».

﴿قَـالُوا: يـا أبانـا إِنـَّا ذهبنـا نستبق﴾ نتسـابق فِي العـدْوِ أو فِي الرمــي، ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب؛ وَمَا أنـت بمؤمـن لَنـَا﴾ بمصـدِّق لَنـَا، ﴿ولو كُنـَّا صادقِينَ(١٧)﴾.

---

١ - «على» إضافة من الناسخ في الهامش، والمعنى كامل بحذفها.

٢ - في الأصل: «الاعشمـ غمش»، وهو خطأ.

﴿وجاءوا عَلَى قميصه بدمٍ كَذِبٍ﴾ ذي كذبٍ، ﴿قَالَ: بَل سوَّلت لكمْ أنفُسُكمْ أمراً﴾ عظيما ارتكبتموه، ﴿فصبرٌ جميلٌ﴾ أي: فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أمثلُ، وَهُوَ مَا لاَ شكوى فِيهِ، وفيه الرضا بالقضاء، ﴿وا لله المستعان﴾ أي: لاَ يُستَعان بغيره فِي مهامِّ الأمور، ﴿عَلَى﴾ احتمال ﴿مَا تصفُونَ(١٨)﴾.

﴿وجاءت سيَّارة﴾ رفقة تسير، (لعلّه) وَهُم: القوم المسافرون، سُمُّوا سيَّارة لأنَّهم يسيرون فِي الأَرْض [٢٦١]، ﴿فأرسلوا واردَهم﴾ هُوَ الذِي يَرِدُ الماء ليستقي للقوم، ﴿فأدلى دلوَه﴾ أرسل دلوه ليملأها، ﴿قَالَ يابُشرَى﴾[1] نادى البشرى، كأنَّه يقول: تعالَيْ؛ أو هُوَ اسم غلامه، فناداه مضافا إِلَى نفسه، ﴿هَذَا غلام، وأسرُّوه﴾ الضمير للوارد وأصحابه، أخفوه مِنَ الرفقة، أو غيرهم، ﴿بضاعة﴾ أي: جعلوه متاعاً للتجارة؛ والبضاعةُ: مَا بُضِعَ مِنَ المال للتجارة أي: قُطِعَ، ﴿وا لله عليمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ(١٩)﴾[2].

﴿وشروه﴾ باعوه ﴿بثمن بَخْسٍ﴾؛ قيل: حرامٍ، سُمِّي بخسا، لأَنَّهُ مبخوس البركة؛ وقيل: من زيف[3]؛ وقيل: قليل، ﴿دراهم معدودة﴾ قليلة تعدُّ عداً وَلاَ توزن، ﴿وكَانُوا فِيهِ﴾ أي: البائعون لَهُ، ﴿من الزاهدِينَ(٢٠)﴾ مِمَّن يرغب عمَّا فِي يده فيبيعه بالثمن الناقص، لعلّه لأنَّهم [لم] يعلموا منزلته عند ا لله.

---

١ - فِي الأصل: «يابشراي».

٢ - فِي الأصل: «يفعلون» وَهُوَ خطأ.

٣ - فِي الأصل: «ريف»، وهو خطأ. انظر: أبو السعود: تفسير، مج٢/ج٢/ص٢٦١.

**﴿وقال الذِي اشتراه من مصرَ لأمرأته: أكرمي مثواه﴾** اِجعلي منزله ومقامه عندنا كريما، أي: حسنا مرضيًّا بدليل قوله: **﴿إنـهُ[1] رَبِّي أحسن مثوايَ﴾**. وعن الضحَّاك: «بطيب معاشه، ولين رياشه[2]، ووطيء فراشه»؛ وفيه دليل عَلَى أنَّ تصرُّف مَا فِي البيت بيدها دونه، **﴿عسى أن ينفعنا﴾** إذَا تدرَّب وراض الأمور، وفهم مجاريها، نستظهر به عَلَى بعض مَا نَحْنُ بسبيله، **﴿أو نتَّخذه ولدا﴾** أو نتبنَّاه ونقيمه مقام الولد. وقيل: كَانَ العزيز عقيما، وقد تفرَّس فِيهِ الرشد، **﴿وكذلك مَكَنَّا لِيُوسُفَ﴾** أي: كما أنجيناه عطَّفنا عليه قلب العزيز، **﴿فِي الأَرْضِ ولنعلِّمه من تأويل الأحاديث﴾** أي: كَانَ القدَر مِنَّا، والقضاء السَّابق فِي إنجائه وتمكينه، إلىَ أن يُقيم العدل ويدير أمور الناس، ويعلم معانيَ كُتب الله وأحكامه، فيُنفِّذها، وليعلم من تأويل الأحاديث المُبهمة المُنبِّهة عَلَى الحوادث الكائنة، ليستعدَّ لها، ويشتغل بتدبيرها قبل أن تقع، كما أخبر الله عَنْهُ، **﴿والله غالبٌ عَلَى أمره﴾** لاَ يُمنع عمَّا يَشَاء لخلقه وبخلقه وفي خلقه، **﴿ولكنَّ أكثر الناس لاَ يَعْلَمُونَ(٢١)﴾** أنَّهُ مَا قدَّره الله لا محالة وقوعه.

**﴿وَلَمَّا بلغ أشُدَّه﴾** منتهى إشداد[3] قوَّته، يصلح مَا[4] يصلح لَهُ الرجال الصالحون، **﴿آتيناه حكما وعلما﴾** حكمةً، وَهُوَ العلم مَعَ العمل، واجتناب

---

١ - فِي الأصل: «إنَّ»، وَهُوَ خطأ.

٢ - راش، ريشا: جمع المال والأثاث. رجل راش : ذو مال. الريش: الأثاث. الرِّيش: الخصب. الريَّاش: ما كان فاخرا من الأثاث، المال الخصب. رجل أريش: ذو مال وكسوة.

٣ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «اشتداد».

٤ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «لما».

مَا يجهل فِيهِ، أو حُكمًا بين الناس وَفقهًا، ﴿وكذلك نجزي المحسنِينَ(٢٢)﴾ أي: من طُلاَّب العلم للعمل، تنبيه عَلَى أنـَّه كَانَ مُحسناً فِي عمله، متَّقياً فِي عنفوان أمره.

﴿وراودته التِي هُوَ فِي بيتها عَن نفسه﴾ أي: طلبته لنفسها، ﴿وغلَّقت الأبواب﴾ للخلوة بِهِ، ﴿وقالت هيتَ لك﴾ هُوَ اسم لـ«تعال» و«أقبلْ»، ﴿قَالَ معاذَ ا لله﴾ أعوذ با لله معاذاً أي: ألوذ بِهِ ملاذاً،﴿إنـَّهُ ربي﴾ سندي ومالكي، وقيل: الضمير لله، ﴿أحسنَ مثوايَ﴾ حين قَالَ لكِ: «أكرمي مثواه»؛ فما حقُّه أن أخونه فِي أهله، ﴿إنَّهُ لاَ يُفلح الظالِمُونَ(٢٣)﴾ الخائنون.

﴿وَلَقَد هَمَّت بِهِ﴾ همٌّ: عزم وفعل، ﴿وَهَمَّ بها﴾ همٌّ: طبع مَعَ الامتناع، ولا صنع للعبد فِي مَا يخطر بالقلب، ولامؤاخذة عليه، ولو كَانَ كهمِّها لَمَا مدحه ا لله تعالى أَنَّهُ من عباده المخلصين، ﴿لولا أن رأى بُرهان ربه﴾ لكَانَ مَا كَانَ، ﴿كذلك لنَصرِفَ عَنْهُ السوءَ والفحشاءَ﴾ ليتَّضح خلاصه وإخلاصه، وَأَنَّهُ قد ثبت قدَمُه فِي المَقَام الأعلى، لمجاهدة نفسه مجاهدة أُولي العزم، (لعلَّه) ناظرا فِي دلائل التوحيد [٢٦٢] حتَّى استحق مِنَ ا لله الثناء، ﴿إنـَّهُ من عبادنا المخلصِينَ(٢٤)﴾ بفتح اللاَّم حيث كَانَ، أي: الذِينَ أخلصهم ا لله لطاعته؛ وقيل: بكسرها، أي: الذِينَ أخلصوا دينهم لله.

﴿واستَبَقَا البابَ﴾ تسابقا إِلَيْهِ، هِيَ للطلب، وَهُوَ للهرب، ﴿وقدَّت قميصَه مِن دُبُر﴾ مِن خلفِه، فانقدَّ، أي: انشقَّ حِينَ هرب منها إلىَ الباب، وتبعته لتمنعه؛ ﴿وألفيا سيدها لَدَى الباب﴾ صادَفاه مُقبِلاً، فَلَمَّا رَأَته

احتالت لِتبرِئَة ساحتها عند خُروجها[1] مِنَ الريبة ولتخويف[2] يوسف طمعا فِي أن يُواطِئها خِفيَةً مِنها ومن مَكرِها، حيث ﴿**قالت: مَا جزاءُ مَن أَرَادَ بأهلِك سُوءا، إلاَّ أن يُسجَن أو عذاب أليم(٢٥)**﴾، أي: ليس جزاءَه إلاّ السجنُ أو عذابٌ أليمٌ: وَهُوَ الضرب بالسياط؛ و لم تُصرِّح بذكر يوسف، وأنَّهُ أَرَادَ بها سوءًا، لأنـَّها قصدت العموم، أي: كلٌّ من أَرَادَ بأهلك سوءًا لحقه كذلك، لأنَّ ذَلِكَ أبلغ فيما قصدت من تخويف يوسف، وَلَمَّا عَرَّضَت للسجن والعذاب دفع عَن نفسه.

﴿**قَالَ: هِيَ راودَتنِي عَن نفسي؛ وشَهِدَ شاهد مِن أهلِها**﴾، إنـَّمَا ألقى الله الشهادة عَلَى لسان مِن أهلها، لِتَكون أوجَبَ للحجَّة، وأوثق لِبراءَة يُوسف؛ قيل: كَانَ صبيًّا فِي المهد؛ وسمَّى قوله شهادة، لأنـَّهُ أدَّى مُؤدَّى الشهادة في أن ثبت بِهِ قولَ يُوسفَ، وبطل قولها، ﴿**إن كَانَ قميصُه قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَت وَهُوَ مِنَ الكاذِبِينَ(٢٦)؛ وإن كَانَ قميصه قُدَّ مِن دُبُرٍ فكَذَبت وَهُوَ مِنَ الصادِقِينَ(٢٧)**﴾ كأنَّ الشهادة قِيَاس نظريٌّ.

﴿**فَلَمَّا رأى**﴾ سيِّدُها ﴿**قميصَه قُدَّ من دُبُرٍ**﴾، وعَلِم بَراءة يوسف بِإلهام عَقليٍّ، أو بحجَّة الشهادة، ﴿**قَالَ: إنَّهُ من كَيدِكُنَّ، إنَّ كَيدَكُنَّ عظيمٌ(٢٨)**﴾ لأنـَّهنَّ ألطفُ[3] كيدًا وأعظمُ حِيلةً.

---

١ - كذا في الأصل، والصواب: «عند زوجها من الريبة». انظر: الزمخشري جار الله محمود ابن عمر: الكشَّاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، وتـَّبه وضبطه وصحَّحه: مصطفى حسين أحمد، الطبعة الثانية، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م، ٢/٣٥٧.

٢ - في الأصل: «والتخويف»، وهو خطأ.

٣ - يعني ألصق وأقرب.

﴿يُوسفُ﴾ حذف مِنهُ حرف النداء، [وهو] مُنادَى قريب مفاطن للحديث؛ وفيه تَقريب لَهُ وتلطيف لِمحلِّه، ﴿أعرِضْ عَن هَذَا﴾ الأمـر واكتمه وَلاَ تُحدِّث بِهِ، ثُمَّ أقبل لامرأته فقال: ﴿واستغفري لِذنبك إنَّك كُنتِ مِنَ الخاطئِينَ(٢٩)﴾.

﴿وقال نِسوَة فِي المدينة: امرأةُ العزيز تُراوِد فَتاها عَن نفسه قد شَغَفها حُبًّا﴾ أي: خَرق حُبُّه شِغَاف قَلبها، حتَّى وصل إِلىَ الفؤاد، والشِّغاف: حِجَاب القلب، أو جِلدَة رَقِيقة يُقالُ لها: لِسَان القلب، وقيل: قلبها حبّه[1] حتَّى لاَ تعقل سواه؛ ﴿إنَّا لَنراها فِي ضلالٍ مُبِين(٣٠)﴾ فِي خطإ، وبُعدٍ بَيِّنٍ عَن طريق المحجَّة.

﴿فلَمَّا سمعت بِمكرهنَّ﴾ باغتِيابهنَّ، وقَولهنَّ: «امرأة العزيز عَشقَت عَبدَها الكنعانيَّ». ويسمَّى الاغتياب: مكراً لا[2] فِي خفية وحال غيبة، كما يُخفي الماكر مَكره، ﴿أرسَلَت إِلَيْهِنَّ﴾ دعَتهنَّ، ﴿وأعتدَت﴾ هيَّأت ﴿لَهُنَّ مُتَّكأً﴾ مَا يَتَّكِئن عليه من نَمارِق، ﴿وآتت كلَّ وَاحِدَة مِنهُنَّ سِكِّيناً﴾؛ قيل: كَانُوا لاَ يأكلون فِي ذَلِكَ الزمان إلاَّ بالسكاكين؛ ﴿وقالت: اخرُج علَيهِنَّ، فَلَمَّا رأينه أكبرنه﴾ عظَّمنه ﴿وقطَّعن أيدِيَهنَّ﴾ جَرحنَها ﴿وقُلنَ: حاشَ للهِ مَا هَذَا بشرًا إن هَذَا إلاَّ مَلكٌ كَرِيم(٣١)﴾ نَفَين عَنهُ البشَرِيَّة، لِغرابَة جَمالِه، وأثبَتنَ لَهُ المَلَكِيَة، وثبَّتن بها الحكم، لِمَا رَكَزَ فِي الطباع أنْ لاَ أحسنَ مِنَ المَلَكِ، كما رَكَزَ فِيهَا أنْ لاَ أقبح مِنَ الشيطان.

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «وقيل: شغف قلبَها حبُّه حتَّى...».

٢ - كذا في الأصل، والصواب: «لأنَّه». انظر: الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٣٦١.

[٢٦٣] ﴿**قالت: فذلكُنَّ الذي لُمتُنَّني فِيهِ**﴾ (لعلّه) بالافتِتَان بهِ قبل أن تَنظُرن إلى صورَته، ﴿**ولَقَد راودتُه عَن نَفسِه**﴾ (لعلّه) إقْرَارا بما فعلَت، ﴿**فاستَعصَم**﴾ بالعُروَة الوُثقَى عَن النزول فِي المهاوي؛ ﴿**ولئن لم يفعل مَا آمُرُه لَيُسجَنَنَّ، ولَيَكونًا مِنَ الصاغرِينَ(٣٢)**﴾.

﴿**قَالَ: رَبِّ السجنُ أحَبُّ إليَّ مِمَّا يَدعونَني إلَيْهِ**﴾، قيل: افتُتِنَت كلُّ واحدةٍ بِهِ، فدعته إلىَ نَفسِها سِرًّا، فالتجأَ إلىَ ربه، وقال: «رَب نُزولُ السجنِ والضيقِ أحبُّ إليَّ مِنَ السعَةِ ورُكوبِ المعصِيَة»، ﴿**وَإلاَّ تَصرِفْ عَنِّي كَيدَهُنَّ**﴾ فزعٌ منه إلى الله في طلب العصمة، ﴿**أَصبُ إلَيْهِن**﴾ أمِل إلَيْهِنَّ، والصبوَةُ: الميلُ إلىَ الهوى؛ ﴿**وأكُن مِنَ الجاهلِينَ(٣٣)**﴾ مِنَ الذِينَ لاَ يَعمَلُونَ بِمَا يَعلَمُونَ، لأنَّ مَن لاَ جَدوَى لِعِلمِه، فهو ومن لاَ يعلم سواء، وَهُوَ مِنَ السفَهاء.

﴿**فاستَجاب لَهُ رَبُّه، فصرف عَنْهُ كيدَهنَّ**﴾ مَا دعونه إلَيْهِ؛ ﴿**إنَّهُ هُوَ السميع العليم(٣٤)**﴾ بدعوات الملجين[1] إلَيْهِ.

﴿**ثُمَّ بَدا لَهُم**﴾ أي: ظهر لَهُم رأيٌ شيطانيٌّ، ﴿**من بعد مَا رأوا الآيات**﴾ وَهِي (لعلّه) الشواهد[2] عَلَى براءته، ﴿**لَيَسجُنُنَّه**﴾ لإبلاء عُذرِ الحال[كذا]، وإرخَاءِ الستر عَلَى القِيل والقَال، ﴿**حتَّى حِينَ(٣٥)**﴾.

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «الملتجئين». ولعلّه من «لجَّ» أي: ألحَّ في الطلب.

٢ - في الأصل: «الشهواهد لَعَلَّهُ الشوا» كتبت هكذا فوق كلمة «الشهواهد».

**﴿ودخل معه السجنَ فتيانِ قَالَ أحدُهما: إِنِّي أرانِي﴾** أي: فِي المنام **﴿أعصر خمرًا﴾** عنبًا. **﴿وقال الآخر: إِنِّي أرانِي أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير مِنْهُ؛ نبِّئنا بتأويله إِنَّا نراك مِنَ المحسنِينَ(٣٦)﴾**.

**﴿قَالَ لاَ يأتيكما طعام تُرزَقَانِه إِلاَّ نبَّأتكما بتأويله﴾** ماهيته وكيفيته، **﴿قبل أن يأتيَكما﴾** لمَّا استعبراه ووصَفاه بالإحسان، افترضَ ذَلِكَ، فوصل بِهِ وصفَ نفسِه بِمَا هُوَ فوق علم العلماء، وَهُوَ الإخبار بالغيب، وأنَّهما يُنبئهما بِمَا يُحمَل إِلَيْهِما مِنَ الطعام فِي السجن قبل أن يأتيهما، ويصفه لهما ويقول: «اليوم يأتيكما طعام من صفته كذا وكذا، فيكون كذلك». وجعل ذَلِكَ تخلُّصًا أن يذكر لهما التوحيد، ويعرض عليهما الإيمان، ويُزينه لهما، ويقَبح إِلَيْهِما الشرك، (لعلَّه) ويكون ذَلِكَ أدعى مِمَّا سألاه، لأنَّ ذَلِكَ أمر دنياويٌّ، وأمر التوحيد يُصلِح أمر الدارين؛ وفيه: أنَّ العالم إِذَا جُهلَت منزلته فِي العلم، فوصف نفسه بِمَا هُوَ بصددِه، وغرضُه أن يُقتبس مِنْهُ، لم يكن من باب التزكية، **﴿ذلكما﴾** إشارة لهما إِلَى التأويل، **﴿مِمَّا علَّمني ربِّي﴾** ولم أقله عَن تكهُّن وتنجُّم؛ **﴿إِنِّي تركت ملَّةَ قوم لاَ يُؤْمِنُونَ با لله وَهُم بالآخِرَة هم كَافِرُونَ(٣٧)﴾** أي: علَّمني ذَلِكَ، لأني رفضت ملَّة أُولَئِكَ.

**﴿واتَّبعتُ ملَّة آبائي إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ﴾** وَهِي الملَّة الحنيفيَّة؛ يذكر الآباء ليريهما أنَّه من بيت النبوَّة، وليُقوي رغبتهما فِي اتباع قوله، **﴿مَا كَانَ لَنَا﴾** مَا صحَّ لَنَا معشر الأنبياء **﴿أن نشرك با لله من شيء﴾** من صنم أو شيطان أو نفس أو هوًى؛ **﴿ذَلِكَ﴾** التوحيد **﴿من فضل ا لله علينا وعلى**

**الناس﴾** (لعلّه)، أي: ليس ممنوعا[1] أحدٌ مِنَ الناس فضلُه، **﴿ولكنَّ أكثر الناس لاَ يشكرُونَ(٣٨)﴾** نعمته وفضله، فينتفعوا بهما، كما ينتفع بذلك من شكر؛ وإعلامٌ أن ليس لأحد فضل عَلَى غيره، إلاّ بسبب علمه كما قَالَ: ﴿إنَّ أكرمَكم عند ا لله أتقاكم﴾[2] وَلاَ ينتبهون أنـّهم مشركون [٢٦٤] هالكون.

**﴿يا صاحبَيِ السجنِ﴾** يا ساكنَيِ السجن؛ كقوله: ﴿أصحاب النار﴾، **﴿أأرباب متفرِّقون﴾** (لعلّه) وَهِي الأهوية المتجاذبة لصاحبها، **﴿خيرٌ أمِ ا لله الوَاحِد القهّار(٣٩)﴾** يريد التفرُّق فِي العدد والتكاثر، أي: أن تكون أرباب شتّى، يستعبدُكُما هَذَا، ويستعبدُكُما هَذَا، خير لكما أم يكون لكما ربٌّ وَاحِد قهّار، لاَ يُغلب وَلاَ يُشارك فِي الربوبيّة؛ وهذا مثلٌ ضربه لعبادة ا لله وحده، ولعبادة الأصنام المتفرقين عَلَى قدر الأهوية؛ ولا بدَّ للعبد أنَّ يَعبُد إمّا رباً واحدا يؤول نفع عبادته إلَيْهِ، وَإمّا أن يَعبُد أربابا متفرقين، أي: يتّبع هوى نفسه بغير حقٍّ، ثُمَّ يرجع وبالُ عبادته عَلَيه، كما قَالَ: ﴿وَلَقَد خلقنا الإنسان فِي كبدٍ﴾[3].

**﴿مَا تعبدون﴾** خطابٌ لهما، ولمن كَانَ عَلَى دينهما، **﴿من دونه إلاّ أسماءً سمَّيتموها أنتُم وآباؤُكم﴾** أي: سمَّيتم ما لاَ يستحقُّ الإلهيَّة آلهة، باسم أو معنًى أو شبه، ثُمَّ عكفْتم عَلَى عبادتها، فكأنـّكم لاَ تعبدون إلاّ أسماء لاَ

---

١ - فِي الأصل: «ممنوع»، وَهُوَ خطأ لأنـّه خبر ليس.

٢ - سورة الحجرات: ١٣.

٣ - سورة البلد: ٤.

مُسمَّيات تحتها؛ ومعنى ﴿سمَّيتموها﴾: سمَّيتم بها آلهة معبودة مُستحقَّة للعبادة من دون الله بزعمكم، (لعلّه) وهي أمثال تمثّلوها في قلوبهم صوراً ليست بشيء، ولكنَّها كالخيال لاَ يثمر نفعا بَل عذابا[1]، ﴿مَا أنزل الله بها﴾ بتسميتها ﴿من سلطان﴾ حجَّة، ﴿إن الحُكْمُ﴾ فِي أمر العبادة والدين، ﴿إلاَّ لله﴾؛ ثُمَّ بيَّن مَا حكم بِهِ فقال: ﴿أمر ألاَّ تعبدوا إلاَّ إيَّاه﴾ وتخلعوا مَا سواه، ﴿ذَلِكَ الدين القيِّم﴾ الثابت المُسْتَقِيم، الذِي دلَّت عليه البراهين، ﴿ولكنَّ أكثر الناس لاَ يَعْلَمُونَ(٤٠)﴾ وهذا يدلُّ عَلَى أنَّ العقوبة تلزم العبد وإن جهل، إِذَا أمكن لَهُ العلم بطريقه.

﴿يا صاحبَي السجنِ أمَّا أحدُكما فيَسقِي رَبَّه خمرًا﴾ أي: يعود إِلَى عمله، ﴿وأمَّا الآخر فيُصلَب فتأكلُ الطيرُ من رأسه﴾؛ وَلَمَّا سمع الخبَّاز صَلبه قَالَ: مارأيت شَيْئًا[2]، فقال يوسف: ﴿قُضِيَ الأمر الذِي فِيهِ تستفتيان(٤١)﴾ أي: قُطِع وتمَّ مَا تستفتيان فِيهِ من أمركُمَا إِلَى مَا يجرُّ إليه مِنَ التأويل، وهي[3] هلاك أحدهما ونجاة الآخر.

---

١ - فِي الأصل: «عذاب»، وَهُوَ خطأ.

٢ - العبارة غير واضحة، ويوضحها ما أخرجه «جماعةٌ منهم الحاكم وصحَّحه عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: ما رأى صاحبا يوسف شيئًا، إنَّما تحالما، ليجربا علمه، فلمَّا أوَّل رؤياهما، قالا: إنَّمَا كنَّا نلعب ولم نر شيئًا، فقال عليه السلام: قُضي الأمر...». انظر: أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، نشر وتصحيح وتعليق إدارة الطباعة المنيريَّة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت، ١٢/٢٤٦.

٣ - كذا في الأصل، والصواب: «وهو».

**﴿وقال: للذي ظنَّ أنَّهُ ناج منهما﴾** الظَّانُّ: هُوَ يوسف عليه السلام، إن كَانَ تأويله بطريق الاجتهاد، وإن كَانَ[1] بطريق الوحي فالظَّان هُوَ الشرابيُّ، أو يكون الظنُّ بمعنى اليقين، **﴿اذكرني عند رَبِّك﴾** صِفْنِي عند المَلِك بصفتي، وقُصَّ عليه قِصَّتي لعلّه يُخلِّصني من هذا الحال، **﴿فأنساه الشيطان﴾** فأنسى الشرابيَّ **﴿ذِكْرَ رَبِّه﴾** أن يذكره لربه، أو فأنسى يوسفَ ذكر الله حين وَكَّلَ أمرَه إلىَ غيره. وفي الحديث: «*رحم الله أخي يوسف لو لم يقل: اذكرني عند رَبِّكَ لما لبث في السِّجن بضع سنين*»[2]، **﴿فَلَبِثَ فِي السجن بضعَ سِنِينَ(٤٢)﴾**، أي: سبعاً عند الجمهور، وَهُوَ مَا بين الثلاث إلىَ التِّسع.

**﴿وقال الملك: إنـِّي أرى سَبعَ بقراتٍ سِمَان يأكلهنَّ سبعٌ عجافٌ، وسَبعَ سنبلاتٍ خُضْرٍ وأُخرَ يابساتٍ﴾** لـمَّا دنى فَرَجُ يوسف، رأى الملِك رؤيا عجيبة هالته، فاستفتى فِي تعبيرها، فقال: **﴿يَا أَيُّهَا الملأ أفتوني فِي رؤيايَ إن كُنتُم للرؤيا تعبرُونَ(٤٣)﴾** حقيقة تعبير الرؤيا: ذِكرُ عاقبتِها، وآخِرِ أمرها، كما تقول عبرتُ [٢٦٥] النهر إذا قطعته حتَّى تبلغ آخر (لَعَلَّهُ) عرضه، وَهُوَ عُبْرُه[3]، ونَحوُهُ أوَّلتُ الرؤيا، إذَا ذكرتُ مآل عاقبتها.

---

١ - في الأصل: «كا»، وهو سهو.

٢ - روى الطبرانيُّ وابن مردويه عن ابن عبَّاس: «عجبتُ لصبر أخي يوسف وكرمه، والله يغفر له، حيث أرسل ليُستفتى في الرؤيا، ولو كنتُ أنا لم أفعل حَتَّى أخرج، وعجبتُ لصبره وكرمه، والله يغفر له، أُتي ليخرج فلم يخرج حَتَّى أخبرهم بعذره، ولو كنتُ أنا لبادرتُ الباب، ولولا الكلمة لَمَا لبث في السجن حيث يبتغي الفرج من عند غير الله». صحَّحه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٩٨٤. برنامج سلسلة كنوز السنَّة.

٣ - كذا في الأصل مع الشكل، وأوردها صاحب اللسان بكسر العين وفتحها لا بالضم،

﴿قَالُوا: أضغاثُ أحلامٍ﴾ أي هي: أضغاث أحلام أي: تخاليطها وأباطيلها، وَمَا يكون منها حديث نفس، أو وسوسة شيطان؛ وأصل الأضغاث: مَا جُمِعَ من أخلاط النبات، ﴿وَمَا نَحْنُ بتأويل الأحلام بِعَالِمِينَ(٤٤)﴾ أرادوا بالأحلام: المنامات الباطلة، إنَّمَا التأويل للمنامات الصحيحة، أو اعترفوا بقصور عِلمِهِم، وأنَّهُم ليسوا بتأويل الأحلام بنحارير.

﴿وقال الذِي نجا﴾ مِنَ القتل ﴿منهما﴾ مِن صاحبَي السجن، ﴿وادَّكر﴾ (بالدَّال)، هُوَ الفصح[1]، وأصله: اذتكر؛ وقيل: وادَّكر معناه: تذكَّر يوسفَ، وَمَا شاهد مِنْهُ، ﴿بعد أُمَّة﴾ بعد مدَّة طويلة: ﴿أنا أنبِّئكم بتأويله، فأرسلونِ(٤٥)﴾ فابعثوني إليه لأسأله.

﴿يُوسُفُ، أيُّهَا الصدِّيق﴾ البليغ فِي الصدق، ﴿أفتنا فِي سَبعِ بقرات سِمَانٍ يأكُلهنَّ سَبعٌ عجافٌ وَسَبعِ سنبلاتٍ خُضرٍ وأُخَرَ يابساتٍ لَعلِّي أرجع إِلَى الناس لَعَلَّهُم يَعْلَمُونَ(٤٦)﴾.

---

حيث قال: «عَبَر الرؤيا يعبُرها عَبرًا وعِبارة وعبَّرها: فسَّرها، وأخبر بما يؤول إِلَيهِ أمرها، وَفِي التنزيل العزيز: ﴿إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾ أي إن كنتم تعبرون الرؤيا، فعدَّاها باللام... قال الزجَّاج: هَذِهِ اللام أدخلت عَلَى المفعول للتبيين... وَقِيلَ: أُخِذ هَذَا كلُّه من العِبر، وَهُوَ جانب النهر، وعِبر الوادي وعَبره ـ الأخيرة عن كراع ـ: شاطئه وناحيته». ابن منظور: لسان العرب، ٤/٦٦٧. مادَّة «عبر».

١ - كذا فِي الأصل، والصواب: «وهو الفصيح».

**﴿قَالَ: تزرعون**[1] **سبعَ سنين دأبـًا﴾** عَلَى عـادتكم المستمرَّة، **﴿فمـا حصـدتم فـذَرُوه فِي سـنبلِه﴾** كَيْـلاَ يأكلـه السـوس، **﴿إِلاَّ قليـلا مِمَّـا تأكُلونَ(٤٧) ثُمَّ يأتي من بعد ذَلِـكَ سبعٌ شداد يـأكلنَ مَا قدَّمتم لهنَّ إلاَّ قليلا مِمَّا تُحصِنُونَ(٤٨)﴾** تُحرزُونَ وتُخَبئونَ لبذر الزراعة، (لعلّه) أي: يأكل أهلهنَّ مَا ادَّخرتم لأجلهنَّ.

**﴿ثمَّ يأتي من بعد ذَلِكَ عام فِيهِ**[2] **يُغَاثُ الناس، وفيه يَعصِـرُونَ(٤٩)﴾** العنب والزيتون والسمسم، فيتّخذون الأشربة والأدهان.

**﴿وقال الملك: ائتوني بِهِ؛ فَلَمَّا جاءه الرسول﴾** ليُخلِّصه مِنَ السجن، **﴿قَالَ: ارجع إِلَىٰ رَبِّـكَ﴾** الملك، **﴿فاسأله مَا بالُ النسوة اللاتي قطَّعن أيديهنَّ﴾**، إِنَّمَا تثبَّت وتأنَّى فِي إجابة الملك، وقدَّم سؤال النسوة، ليُظهِر براءة ساحته عمَّا قُرِف بِهِ وسُجِنَ فِيهِ، لئلاَّ يتسلَّق بِهِ الحاسدون إِلَىٰ تقبيح أمره عنده، ويجعلوه سلَّمًا إِلَىٰ حطِّ منزلته لديه، ولئلاَّ يقولوا: مـا خلَد فِي السجن بضع سنين إِلاَّ لأمر عظيم وجُرمٍ كبير؛ وفيه دليل عَلَى أنَّ الاجتهاد فِي نفي التُهَمِ واجب وجوب اتقاء الوقوف فِي مواقفها. وعنه عليه الصلاة والسلام: *«لَقَد عجبت من يوسف وكَرَمِه وصبره، وَاللهُ يَغْفِر لَهُ؛ سُئِلَ عَن البقرات، ولو كنتُ مكانه مَا أخبَرتُه، حتَّى أشترِطَ أَنْ يخبروني (لعلّه يخرجوني)؛ وَلَقَد عَجِبتُ مِنه حين أتاه الرسول، قَالَ: ارجع إِلَى ربِّكَ، ولو*

---

١ - فِي الأصل: «أتزرعون»، وهو خطأ.

٢ - فِي الأصل: «عافية»، وهو خطأ.

*كنتُ مكانه، ولبثتُ فِي السجن مَا لبثت*[1]*، لأسرعتُ الإجابةَ، وبادرتُهم الباب، وَلَمَا ابتغيتُ القدر؛ وإنّه كَانَ لحليما ذا أناة»*[2]. ومن كرمه وحسن أدبه أنّه لم يذكر سيِّدته مَعَ مَا صنعت بِهِ، وتسبَّبت فِيهِ مِنَ السجن والعذاب؛ واقتصر عَلَى ذكر المقطّعَاتِ أيدِيهِنَّ، ﴿**إِنَّ رَبِّي بكيدِهِنَّ عليم(٥٠)**﴾ أي: أنَّ كيدهنَّ عظيم.

﴿**قَالَ: مَا خطبُكُنَّ إذ راودتُنَّ يوسُفَ عن نفسهِ**﴾؟ هل وجدتنَّ مِنهُ ميلاً إليكنَّ؟ ﴿**قلن: حاش للهِ**﴾ تعجُّبًا من قدرته عَلَى خلق عفيف مثله، ﴿**مَا علمنا عليه من سوء. قالت امرأة العزيز: الآن حصحصَ الحَقُّ**﴾ ظهر واستقرَّ، ﴿**أنا راودتُهُ عَن نفسه وَإِنَّهُ لَمنَ الصادقِينَ(٥١)**﴾ فِي قوله: ﴿**هِيَ راودتني [٢٦٦] عَن نفسي**﴾، وَلاَ مزيد عَلَى شهادتهنَّ لَهُ بالبراءة والنزاهة، واعترافهنَّ عَلَى أنفسهنَّ، لأَنَّهُ لم يتعلّق بشيء مِمَّا قُرِف بِهِ.

ثُمَّ رجع الرسول إِلَى يوسف، وأخبره بكلام النسوة، وإِقْرَار امرأة العزيز وشهادتها عَلَى نفسها؛ فقال يوسف: ﴿**ذَلِكَ**﴾ أي امتناعي مِنَ الخروج،

---

١ - كذا فِي الأصل، والصواب: «لَبِثَ».

٢ - لم أعثر عَلَيه بهذا اللفظ، وَإِنَّمَا لفظ البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّك مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: ﴿رَب أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى، قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِن؟ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، وَيَرْحَمُ اللهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ. وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لأَجَبْتُ الدَّاعِيَ». كتاب أحاديث الأنبياء، ٣١٢١، ٣١٣٥؛ وَفِي كتاب تفسير القرآن، ١٣٢٦؛ كتاب التعبير، ٦٤٧٧. مسلم: كتاب الإيمان؛ كتاب الفضائل. الترمذي: كتاب تفسير القرآن. ابن ماجه: كتاب الفتن. أحمد: باقي مسند المكثرين.

والتثبُّت لظهور البراءة، ﴿ليعلم﴾ العزيز ﴿أَنّي لم أخنْهُ بالغيب﴾، أو ليعلم الملك أنـي لم أخن العزيز، ﴿وأنَّ ا لله﴾ وليعلم أنَّ ا لله ﴿لاَ يهدي كيد الخائنِينَ(٥٢)﴾ لاَ يُسددُه؛ وكأنَّه تعريض بامرأته فِي خيانتها، وأمانة زوجها؛ ثُمَّ أَرَادَ أنْ يتواضع لله، ويهضم نفسه لِئلاَّ [يكون] لها مزكِّيًا، وليُبَيِنَ أنَّ مَا فِيهِ مِنَ الأمانة بتوفيق ا لله.

﴿وَمَا أُبرِّئ نفسيَ﴾ من الزلل، إلاَّ أن يعصم ا لله، ﴿إنَّ النفسَ لأمَّارة بالسوء﴾ من حيث أَنَّهَا بالطبع مائلة إِلَى الشهوات، فتهمُّ بها، ويجب استعمال القوَى والجوارح فِي أمرها كلَّ الأوقات، ﴿إلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ يعني: أنَّ طبعها وديدنها الأمرُ بالسوء، وَلاَ تأمر بخير، ولكنَّ رحمة رَبي التِي تنبه عَلَى ذكر ا لله بمقاومة العقل لها، مَا دام غالبًا، ﴿إنَّ رَبِّي غَفُورٌ﴾ لمن كفَّ نفسه عَن المكروه، ﴿رحيمٌ(٥٣)﴾ لمن طهَّرها وزكَّاها، ولجمها عَن إرادتها.

﴿وقال الملك: ائتونِي بِهِ أستخلِصُه لنفسي﴾ أجعله خالصًا لنفسي. ﴿فَلَمَّا كلَّمه﴾ وشاهد مِنْهُ مَا لم يحتسب، ﴿قَالَ: إنَّكَ اليوم لدينا مكينٌ﴾ ذو مكانةٍ ومنزلةٍ، ﴿أمِينٌ(٥٤)﴾ عَلَى كل شيء.

﴿قَالَ: اجعلني عَلَى خزائن الأَرْض إنِّي حفيظٌ﴾ أمين، أُحفظ مَا تستحفِظنِيهِ، ﴿عليمٌ(٥٥)﴾ عالمٌ بوجوه التصرُّف. وصف نفسه بالأمانة والكفاية، وهما طلبة الملوك مِمَّن يُولُونه؛ وإنَّما قَالَ ذَلِكَ ليتوصَّل إِلَى إمضاء أحكام ا لله، وإقامة الحق وبسط العدل، والتمكُّن مِمَّا لأجله بُعِثَ الأنبياء إِلَى العباد؛ ولعلمه أنَّ أحدًا غيره لاَ يقوم مقامه فِي ذَلِكَ، فطلبُهُ ابتغاءَ وجه ا لله، لاَ

لحب الـمُلكِ والدُّنْـيَا؛ وفيه دليل عَلَى أنَّه يجوز أنْ يتولّى الإنســان عمـلاً مـن يد سلطانٍ جائرٍ، وقد كَانَ السلف يتولَّـون القضاء من جهة الظلمة، وإذا علـم النبيُّ أو العالم أنَّه لاَ سبيل إِلَى الـحُكمِ بـأمر الله، ودَفـعِ الظلـمِ إلاَّ بتمكُّـن[1] الملك الكافر أو الفاسق، فله أنْ يستظهر بِهِ. وقيل: كَانَ الملك يُصدِر عَن رأيـه وَلاَ يتعرَّض عليه فِي كل مَا رأى؛ فكَانَ فِي حُكمِ التابع لَهُ.

﴿**وكذلك**﴾ ومثل ذَلِكَ التمكين الظاهر ﴿**مكَّـنَّا ليوسـف فِي الأَرْضِ**﴾، التمكين: الاقتدار وإعطاء المكنة، ﴿**يتبـوَّأُ منها حيث يَشَـاء**﴾ أي: كلَّ مكَانٍ أَرَادَ أن يتَّخذه منزلاً، لم يُمنع مِنْـهُ لاستيلائه عليهـا، ﴿**نـُصِيبُ برحمتنـا**﴾ بعطائنا فِي الدُّنْـيَا، مِنَ الـمُلكِ والغنى وغيرهما، من الـنِّعَمِ ﴿**من نشاء**﴾، مـن اقتضت الحكمـة أن يُشَـاء لَـهُ ذَلِـكَ، ﴿**وَلاَ نُضيـع أجـر المحسنِينَ(٥٦)**﴾ فِي الدُّنْـيَا ﴿**ولأجـرُ الآخِـرَةِ خـيرٌ للذيـن آمنـوا وكَـانُوا يتـَّقُونَ(٥٧)**﴾ المكرهات[2]؛ قيل: إنَّ المؤمن يُثاب عَلَى حسناته فِي الدُّنْـيَا والآخِرَة، كمـا أنَّ الفاجر يُعذَّب بذنوبه فِي الدُّنْـيَا والآخِرَة، وإن نالته مسـرَّة ظاهرة فِي الدُّنْـيَا، فذلك غرور واستدراج.

﴿**وجـاء إخوة يوسـفَ، فدخلـوا عليـه فعرفهـم وَهُـم [٢٦٧] لَـهُ منكرُونَ(٥٨)**﴾ أي: عرفهم يوسف و لم يعرفوه.

---

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «بتمكين».

٢ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «المكروهات».

﴿وَلَـمَّا جهَّزهم بِجَهَازِهِم﴾ أعطى كلَّ وَاحِدٍ حِمـلَ بعير، ﴿قَـالَ: ائتـوني بأخٍ لكم من أبيكم، أَلاَ ترون أنـي أُوفِي الكيل وأنا خير المنزِلِينَ(٥٩)﴾ كَانَ قد أحسن إنزالهم وضيافتهم، [و]رغَّبهم بهذا الكلام على الرجوع إِلَيْـه.

﴿فإن لم تأتوني بِهِ فـلا كيـل لكـم عنـدي﴾ فـلا أبيعكـم طعامـًا، ﴿وَلاَ تقربونـي(٦٠)﴾ (لعلّـه) وَلاَ تغشـون داري. ﴿قَـالُوا: سنُرَاوِد عَـنْـهُ أبـاه﴾ سنخادعه عَـنْـهُ ونحتال، حتَّى ننتزعه من يده، ﴿وَإِنَّـا لفاعلُونَ(٦١)﴾.

﴿وقال لفتيانه﴾ أي: لغلمانه الكيَّـالين ﴿اجعلوا بضـاعتهم فِي رحـالهم﴾ أوعيتهـم، ﴿لَعَلَّهُـم يعرفونهـا﴾، يعرفـون حـقَّ ردِّهـا، وحـقَّ التكـرُّم بإعطـاء البدلين، ﴿إِذَا انقلبوا إِلَى أهلهم﴾، وفرغوا رحالهم، ﴿لَعَلَّهُم يرجعُونَ(٦٢)﴾ لعلَّ معرفتهم بذلك تدعوهم إِلَى الرجوع إلينا.

﴿فَلَـمَّا رجعوا إِلَى أبيهم﴾ بالطعام، وأخبروه بما فعـل، ﴿قَـالُوا: يـا أبانـا مُنِعَ مِنَّـا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتلْ﴾ نرفع المانع من الكيـل، ونكتـل مِـنَ الطعام مَا نحتاج إِلَيْـهِ، ﴿وَإِنَّـا لَهُ لحافظُونَ(٦٣)﴾ عَن المكروه.

﴿قَالَ: هل آمنكم عليه إِلاَّ كما أمِنـتُـكم عَلَى أخيـه مـن قبـلُ﴾؟ وقد قلتم فِي يوسف: «وَإِنَّـا لَهُ لحـافظون»؛ ﴿فـا لله خـير حافظـا وَهُـوَ أرحم الراحمِينَ(٦٤)﴾.

﴿ وَلَـمَّا فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم رُدَّت إِلَيْهِم قَالُوا: يا أبانا مَـا نبغي﴾ «مَا» للنفي، أي: مَا نبغي فِي القول، وَلاَ نتجاوز الحـقَّ وأمانتـه شَيْـئًا

وراء مَا فعل بنا مِنَ الإحسان، ﴿هَـٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّت إلينا، ونَمِير أهلَنا ونحفَظُ أخانا، ونزدادُ كيلَ بعيرٍ ذَلِكَ كيلٌ يسير(٦٥)﴾.

﴿قَالَ: لن أرسِلَه معكم حتَّى تؤتون مَوثِقًا مِنَ ا للهِ﴾، والمعنى: حتَّى تعطوني مَا أَتوثَّق بِهِ من عند ا للهِ؛ أَرَادَ أَنْ يحلفوا لَهُ با للهِ، وإنَّما جعل الحلف با للهِ موثقـًا مِنْهُ، لأنَّ الحلف بِهِ مِمَّا تؤكَّد بِهِ العهود، ﴿لتأتُنَّنِي بِهِ، إلاَّ أن يُحَاط بكم﴾ إلاَّ أَنْ تُغلبوا، فلم تطيقوا الإتيان بِهِ، ﴿فَلَمَّا آتوه مَوْثِقهم قَالَ: ا للهُ عَلَى مَا نقول﴾ من طلب المَوْثِقِ وإعطائه ﴿وكيلٌ(٦٦)﴾ رقيبٌ، مُطَّلع.

﴿وقال: يا بَنِيَّ لاَ تدخلوا من بابٍ وَاحِدٍ، وادخلوا من أبواب متفرقة﴾؛ قيل: خاف عَلَيْهِمُ العين لجلالة أمرهم؛ وقيل: أحبَّ أن لاَ يفطن بهم أعداؤهم، فلا يحتالون لإهلاكهم، ﴿وَمَا أُغنِي عنكم مِنَ ا للهِ من شيء﴾، أي: إن كَانَ أَرَادَ بكم سوءًا لم ينفعكم، و لم يدفع عنكم مَا أشرت بِهِ عَلَيْكُم، ﴿إنِ الحكم إلاَّ للهِ، عليه توكَّلت وعليه فليتوكَّل المتوكِّلونَ(٦٧)﴾ التَّوَكُّل تفويض الأمر إِلَيْهِ.

﴿وَلَمَّا دخلوا من حيث أمرهم أبوهم مَا كَانَ يُغنِي عَنْهُم مِنَ ا للهِ من شيء﴾ أي: شَيْئًا قطُّ حيث أصابهم مَا ساءهم مَعَ تفرُّقهم، من إضافة السرقة إِلَيْهِم وافتضاحهم بذلك، وأَخْذِ أخيهم بوجدان الصُّوَاع فِي رَحْلِهِ، وتضاعف المصيبة عَلَى أبيهم ﴿إلاَّ حاجة﴾ أي: ولكن حاجة، ﴿فِي نفس يعقوبَ قضاها﴾ وَهُوَ شفقته عَلَيْهِم، ﴿وَإِنَّهُ لذو عِلمٍ﴾ يعني قوله: «وَمَا أغنِي عنكم»، وعلمه بأنَّ: "القدر لاَ يُغني عَنْهُ الحذر" ﴿لِمَا علَّمناه﴾

لتعليمنا إيـَّاه، ﴿ولكنَّ أكثر الناس لاَ يَعْلَمُونَ(٦٨)﴾ لأنـَّهم لم يسلكوا طريق إصابة العلم؛ أي: لم يطلبوا العلم ليعلموا، و لذلك رُفِعوا بدرجات [٢٦٨] بطلبهم العلم عَلَى من لم يطلب.

﴿وَلَـمَّا دخلوا عَلَى يوسف آوى إِلَيْهِ أخاه﴾ ضمـَّه إِلَيْهِ، ﴿قَالَ: إني أنا أخوك فلا تبتئس﴾ فلا تحزن ﴿بمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٦٩)﴾[1] بنا، فَلَـمَّا مضى قَالَ: الله قد أحسن إلينا وجمعنا عَلَى خير.

﴿فَلَـمَّا جهَّزهم بجَهَازهم﴾ هيَّأ أسبابهم، وأوفى الكيل لَهُم ﴿جعل السقاية﴾ قيل: هِيَ مشربة يسقى بها، وهي: الصُّوَاعُ، ﴿فِي رَحْلِ أخيه، ثُمَّ أذَّن مؤذِّن﴾ ثُمَّ نادى مناد؛ آذنه: أي أعلمه، وأذَّن: أكثرَ الإعلامَ، ومنه المؤذِّن، لكثرة ذَلِكَ مِنْهُ. روي أنـَّهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتَّى انطلقوا، ثُمَّ أمر بهم فَأُدرِكُوا، ثُمَّ قيل: لَهُم ﴿أَيـَّتُهَا العير﴾ هي الإبل التي عليها الأحمال، لأَنـَّهَا تَعِيرُ، أي: تذهب وتجيء، والمراد: أصحاب العير، ﴿إنـَّكُم لسارقُونَ(٧٠)﴾ كناية عَن سرقتهم إيـَّاه من أبيه.

﴿قَالُوا وأقبلوا عَلَيْهِم: ماذا تفقدُونَ(٧١)؟ قَالُوا: نفقد صُوَاع المَلِك، ولِمن جاء بِهِ حِملُ بعير وأنا بِهِ زعيم(٧٢)﴾ يقول المؤذِّن: وأنا بِحِمْلِ البعير كفيل أُؤدِّيه إِلىَ من جاء بِهِ، وأراد: وسق بعير من طعام جُعلاً لمن حصله؛ وفيه دليل عَلَى جواز الجعالة وضمان الجعل.

---

١ - في الأصل: «يعلمون»، وهو سهو.

**﴿قَالُوا: تا الله لَقَد علمتم مَا جِئنَا لنُفسِدَ فِي الأَرْض﴾** استشهدوا بعلمهم لِمَا ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم؛ قيل: لأنَّهم دخلوا وأفواه رواحلهم مشدَّدة لئلاَّ تتناول زرعًا أو طعامًا لأحد من أهل السوق، أو أنَّهم ردُّوا بضاعتهم التِي وجدوها فِي رواحلهم، **﴿وَمَا كُنَّا سارِقِينَ(٧٣)﴾**.

**﴿قَالُوا: فما جزاؤه إن كُنتُم كاذِبِينَ(٧٤) قَالُوا: جزاؤه من وُجِدَ فِي رَحلِهِ﴾**، أي: جزاء سرقته أَخذُ من وُجِدَ فِي رحله؛ قيل: وكَانَ حكم السارق فِي آل يعقوب أن يُستَرَقَّ سنة، فلذلك استفتوا فِي جزائه. وقولهم **﴿فهو جزاؤه﴾** تقرير للحكم، أي: فإنَّ السارق نفسه هُوَ جزاؤه لاَ غير، **﴿كذلك نجزي الظالِمِينَ(٧٥)﴾** أي: السُرَّاق بالاسترقاق.

**﴿فبدأ بأوعيتهم قبل وِعاءِ أخيه﴾** نفيا للتهمة حتَّى بلغ وعاءه، **﴿ثُمَّ استخرجَها من وعاء أخيه؛ كذلك كِدْنَا ليوسفَ﴾** الكيد مِنَ الخلق: الحيلة، ومن الله: التدبير بِالْحَقِّ؛ وقيل: كدنا: أَلهمْنَا، **﴿مَا كَانَ ليأخذ أخاه فِي دِينِ الملك﴾** أي: فِي حكمه؛ تفسيرٌ للكيد وبيانٌ لَهُ، لأنَّ الحكم فِي دين الملك للسارق أن يُغرَم مِثلَيْ (لعلّه) مَا أخذ، لاَ أن يُستعبد، **﴿إلاَّ أن يَشَاء الله﴾** أي: مَا كَانَ يأخذه إلاَّ بمشيئة الله وإرادته فِيهِ، **﴿نرفعُ درجات من نشاء وفوق كُل ذي علم عليم(٧٦)﴾** أي: هُوَ الله عزَّ وجلَّ.

**﴿قَالُوا: إن يسرق فقد سرق أخٌ لَهُ من قبلُ﴾** أرادوا (لعلّه) يوسف، **﴿فأسرَّها يوسف فِي نفسه﴾** أي: مقالتهم: إنَّه سرق، كأنَّه لم يسمعها **﴿ولم يُبدِها لَهُم، قَالَ أَنتُم شرٌّ مكانًا وَالله أعلمُ بِمَا تصفُونَ(٧٧)﴾** تقولون.

﴿قَالُوا: يَا أَيُّهَا العزيز إنَّ لَهُ أَبًا شيخا كبيرا﴾ فِي السنِّ، أو فِي القدر ﴿فَخُذْ أحَدَنَا مكانه﴾ بدَلَه عَلَى وجه الاسترهان والاستعباد، ﴿إنَّا نراك مِنَ المحسنِينَ(٧٨)﴾ أي: من عادتك الإحسان فَاجْرِ عَلَى عادتك وَلاَ تغيِّرها.

﴿قَالَ: معاذَ ا لله [٢٦٩] أن نأخذَ، إلاَّ من وجدنا متاعَنا عنده﴾ و لم يقل: من سرق، تحرُّزا مِنَ الكذب، ﴿إنَّا إِذَا لَظالِمُونَ(٧٩)﴾ وذلك، لأَنـَّهُ وَجَب عَلَى قَضِيَّة فتواكم، أَخْذُ من وُجِد الصُّوَاعَ فِي رَحْلِهِ واستعباده، فلو أخذْنَا غيره كَانَ ظلما فِي مذهبكم، فَلِمَ تطلبون مَا عرفتم أنَّه ظلم؟.

﴿فَلَمَّا استيئسوا﴾ يئسوا، وزيادة السين والتاء للمبالغة، كما مرَّ فِي «استعصم»، ﴿مِنْهُ خَلَصُوا﴾ انفردوا عن الناس خالصين ﴿نَجيـًّا﴾ ذوي نجوى، ﴿قَالَ كبيرهم﴾ فِي السن أو العقل: ﴿ألم تعلموا أنَّ أباكم قد أَخَذ عَلَيْكُم مَوْثِقًا مِنَ ا لله، ومن قبلُ مَا فرَّطتم فِي يوسفَ﴾ أي: قصَّرتم فِي شأنه، ﴿فلن أبرحَ الأَرْض﴾ فلن أفارق أرض مصر، ﴿حَتَّى يأذن لِي أبِي﴾ فِي الانصراف، ﴿أو يحكمَ ا لله لِي﴾ بردِّ أخي إِلَيَّ أو بخروجي، أو بالموت، أو بقتالهم، ﴿وَهُوَ خير الحاكمِينَ(٨٠)﴾ لأَنـَّهُ لاَ يحكم إِلاَّ بالعدل.

﴿ارجعوا إِلَى أبيكم، فقولوا: يا أبانا إنَّ ابنك سَرَقَ﴾، وقُرِئ: سُرِّقَ[1]، أي: نُسِبَ إِلَى السرقة، ﴿وَمَا شَهِدْنَا﴾ عليه بالسرقة، ﴿إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا﴾ يعني: مَا قلنا هَذَا إِلاَّ بِمَا علمنا، أي: مَا كَانَت مِنـَّا شهادة بشيء قطعـًا، إِلاَّ بِمَا

١ - بتشديد الراء، مبنيًّا للمفعول، وهي قراءة ابن عبَّاس وابن رزين والكسائي. انظر: الألوسي: روح المعاني، ١٣/٣٧.

عَلمنا، وليست هَذِهِ شهادة مِنّـا، إِنّمَا هُوَ خبر عَن صنيعه بزعمهم، ﴿وَمَا كُنّا للغيب حافظِينَ(٨١)﴾ وَمَا علمنا، أي: قلنا: ونحفظ أخانا، وَمَا لَنـا إِلىَ حفظه مِنْهُ سبيل.

﴿واسأل القريةَ التِي كُنّـا فِيهَا﴾ أي: أَرسلْ إِلىَ أهلها فاسألهم عَن كُنْهِ القصّة، ﴿والعيرَ التِي أقبلنا فِيهَا﴾ وأصحاب العير، وهي القافلة، ﴿وَإِنّـا لصادقُونَ(٨٢)﴾ فِي قولنا، فرجعوا إِلىَ أبيهم، فَقَالُوا لَهُ مَا قَالَ لَهُم أخوهم. فإن قيل: كيف استجاز يوسف أنْ يعمل هَذَا بأبيه، وَلاَ يعمله بمكانه[1]، وحبسَ أخاه مَعَ علمه بشدَّة وُجدِهِ عليه؛ وفيه معنى العقوق، قيل: عمل ذَلِكَ بأمر ا لله ليزيد فِي بلاء يعقوب، فيضاعفَ لَهُ الأجر، ويُلحقَه فِي الدرجة بآبائه الماضين.

﴿قَالَ: بَل سوَّلت لكم أنفسكم﴾، زيَّنت ﴿أمرًا﴾ أي: حَمْلُ أخيكم إِلىَ مصر لطلب نفع عاجل؛ وقيل: فتواهم أنَّ السارق يُستَرَقُّ، ﴿فَصَبْرٌ جميلٌ، عسى ا لله أن يأتيني بهم جميعا﴾ بيوسف وأخيه وكبيرهم، ﴿إِنَّهُ هُوَ العليمُ﴾ بحالي فِي الحزن ﴿الحكيمُ(٨٣)﴾ الذِي لم يَبْتَلِ[2] عباده إِلاَّ لحكمة.

﴿وتولّى عَنْهُم﴾ وأعرض عَنْهُم كراهة لِمَا جاؤوا بِهِ، ﴿وقال: يا أَسَفَى﴾ يا حزنًا ﴿عَلَى يوسف﴾، والأسف: أشدُّ الحزن، ﴿وابيضّت عيناه﴾ إذ أكثر الاستعبار، محَقَت العبرة سوادَ العين، وقلبته إِلىَ بياض كدر؛ قيل: قد عميَ بصره، وقيل: كَانَ يدرك إدراكًا ضعيفًا، ﴿من الحزن﴾ أي: كَانَ الحزن سبب البكاء،

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «من كان بمكانه»، أي في قدره ومنزلته.

٢ - في الأصل: «يبتلي»، وهو خطأ.

ويجور للنبيِّ أن يبلغ بِهِ الجزع ذَلِـكَ المبلغ، لأنَّ الإنسـان مجبول عَلَـى أنْ لاَ يملـك نفسه عند الحزن، ﴿فهو[1] كظيم(٨٤)﴾ مملوء مِنَ الغيظ عَلَى أولاده، ولاَ يُظهر (لعلّه) مَا يسوءهم. مأخوذ مِن كَظَمَ السقاءَ[2] إِذَا شدَّه عَلَى مَا مِلِئِهِ؛ وقيل: يردِّد حزنه فِي جوفه، و لم يقل إِلاَّ خيرا.

﴿قَالُوا: تا الله تفتأ﴾ أي: لاَ تزال ﴿تذكر يوسف حَتَّى تكون حَرَضا﴾ قيـل: الحَـرِض: الذِي أذابه همٌّ أو مرض، ﴿أو تكونَ مِنَ الهالكِينَ(٨٥)﴾ المَـيِّتين.

﴿قَالَ: إِنَّـمَا أشكو بَثِّي وحُزنِي إِلَىَ ا لله﴾، البَثُّ: أصعب الأمر الـذِي لاَ يصبر عليه صاحبه، فيبثُّه عَلَى الناس أي: ينشره [٢٧٠]، أي: لاَ يشكو[3] إِلَىَ أحد منكم ومن غـيركم، وإنَّـما أشكو إِلَىَ رَبِّـي، داعيـا لـه وملتجئًا إِلَيْـهِ، ﴿وأَعْلَمُ مِنَ ا لله مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٨٦)﴾ وأَعْلَمُ من رحمته أنـّه يـأتيني بـالفرج من حيث لاَ أحتسب.

﴿يا بَنِيَّ، اذهبوا فتحسَّسوا من يوسفَ وأخيه﴾ فتعرَّفوا منهما، وتطلَّبـوا خبرهما، ﴿وَلاَ تيئسوا من رَّوْحِ ا لله﴾[4] وَلاَ تقنطوا مـن رحمـة ا لله وفرجـه؛ وقُرِئ «رُوحِ ا لله»، أي: من رحمته التِـي يُحْيِي بها العبـاد، ﴿إِنَّـهُ لاَ يَيْـأَسُ

١ - فِي الأصل: «وهو»، وهو خطأ.

٢ - فِي الأصل: «السقا». والصواب بـالهمزة كمـا أثبتنـاه؛ فَفِـي اللسـان: «والسـقاء: جلـد السخلة إذا أُجْذَعَ، ولا يكون إِلاَّ للماء». ابن منظور: لسان العرب، ١٦٧/٣.

٣ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «أشكو».

٤ - فِي الأصل: - لفظ الجلالة: «ا لله».

**من رَّوْحِ الله إِلاَّ القوم الْكَافِرُونَ(٨٧)﴾** لأنَّ من آمن يعلم أنَّه متقلِّب فِي رحمة الله ونعمته، وَأَمَّا الكافر فلا يعرف رحمته، وَلاَ (لعلَّه) نعمته، وَلاَ تقلُّبه فيهما، فييأس من رحمته ويطمع فيما سواه.

**﴿فَلَمَّا دخلوا عليه، قَالُوا: يَا أَيُّهَا العزيز مسَّنا وأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾** (لعلّه) الهزال مِنَ الشدَّة والجوع، **﴿وجِئنَا ببضاعة مُزجاةٍ﴾** أي: قليلة، رديئة كاسدة فِي ثمن الطعام، **﴿فأوفِ لَنَا الكيلَ﴾** الذي [هو] حقُّنا، **﴿وتصدَّقْ علينا﴾** وتفضَّل علينا بالمسامحة، أو زدنا عَلَى حقِّنا، أو هب لَنَا أخانا، **﴿إِنَّ الله يجزي المتصدِّقِينَ(٨٨)﴾**

**﴿قَالَ: هل علِمتم مَا فعلتم بيوسفَ وأخيه إذ أَنتُم جاهلُونَ(٨٩)﴾**؟! أَنتُم فِي حدِّ السفه.

**﴿قَالُوا أئنَّك لأنتَ يوسف؟ قَالَ: أنا يوسف، وهذا أخي قد مَنَّ الله علينا﴾** بالأُلفة بعد الفُرقَة. ذَكَرَ نعمة الله بالسلامة والكرامة، و لم يبدأ بالملامة، **﴿إِنَّهُ من يتَّق﴾** الفحشاء، **﴿ويصبر﴾** عَلَى الابتلاء، لأنَّ الصبر من غير تقوى مَغرَمٌ، **﴿فإِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أجر المحسِنِينَ(٩٠)﴾** قيل: من يَتَّق مولاه، ويصبر عَلَى بلواه، لاَ يَضيع أجرُه فِي دنياه وعقباه.

**﴿قَالُوا: تا الله لَقَد آثَرَكَ الله[1] علينا﴾** اختارك، وفضَّلك علينا، بالعمل والحِلْمِ والتَّقوى والصبر، **﴿وإن كُنَّا لخاطِئِينَ(٩١)﴾** اعترافا مِنْهُم لَهُ بالزلَّة.

---

١ - في الأصل: - لفظ الجلالة: «الله».

**﴿قَالَ: لاَ تثريب عَلَيْكُمُ اليومَ﴾** لا تعيير عليكم **﴿يَغْفِرُ ا لله لكم﴾**، لأنَّ التائب لاَ ذنب عليه، **﴿وَهُوَ أرحم الراحِمِينَ(٩٢)﴾** (لعلّه) فإنّه يَغْفِر الصغائر والكبائر ويتفضَّل عَلَى التائب.

**﴿اذهبوا بقميصي هَـذَا فـألقُوه عَلَى وجهِ أبي يأتِ بصيرا، وأتوني بأهلِكم أجمَعِينَ(٩٣)﴾** (لعلّه) أحسنَ إِلَيْهِم بعدما أساءوا إليه.

**﴿وَلَـمَّا فَصَلَت العيرُ﴾** من بيوت مصر **﴿قَالَ أبوهم: إِنـي لأجدُ ريحَ يوسفَ﴾** (لعلـّه) كأنـّه ألقـي إِلَيْـهِ مخـايل الرخـاء[1]، **﴿لـولا أن تفنـدونِ(٩٤)﴾** تُسَفِّهُونِي؛ لولا تفنيدكم، أي: لصدَّقتموني. والفند: الخطأ فِي القول والرأي.

**﴿قَالُوا: تا لله إِنَّكَ لفي ضلالك القديم(٩٥)﴾** لفي خطئك القديم من ذِكركَ يوسفَ، [و]لاَ تَنساه؛ والضلال: هُوَ الذهاب عَن طريق الصواب، فإنَّ عِندهم أنَّ يوسف قد مات، وبظنونية [كذا] قد تهيَّج بذكره.

**﴿فَلَمَّا أنْ[2] جاء البشير﴾** المُبَشِّر بيوسُف **﴿ألقاه عَلَى وجهه فارتدَّ بصيرًا، قَالَ: ألم أقلْ لكم﴾** يعني قوله: **﴿إِنِّي لأجدُ ريحَ يوسفَ﴾**، أو قوله: **﴿ولاتيأسوا مِن رَّوْحِ ا لله﴾**، **﴿إِني أعلم مِنَ ا لله مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٩٦)﴾** علّمه ا لله من حقائق الأمور مَا لاَ يَعْلَمُونَ؛ فكيف لاَ، وَهُم يقولون: **﴿تا لله إِنَّك**

---

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «الرجاء».

٢ - فِي الأصل: - «أن»،.

لَفي ضلالك القديم﴾، ﴿إنَّ أبانا لَفي ضلالٍ مُبين﴾، وقد لاح الدليل أنَّهم أخطؤوا مَا قالوه فِيهِ، وَوَسَمُوه بِهِ، وقد أضاء لَهُم عِرفَانُ الحقيقة وَمَا [٢٧١] تَوَسَّمه يعقوب عليه السلام، فقد انكشف قِناعُ مَا قد غمَّ عَلَيْهِم بتعاميهم عَنْهُ، (لعلّه) من حبِّه ليوسف، وذكرِه لَهُ، (لعلّه) وحقّت حقيقته، ﴿قَالُوا: يا أبانا، استغفر لَنَا ذنوبنا إنَّا كُنَّا خاطِئِينَ(٩٧)﴾ ومِن حقِّ المعترف بذنبه أن يُصفَح عَنْهُ، ويُسأل لَهُ المغفرة.

﴿قَالَ: سَوف أستغفِر لكم رَبي، إنَّهُ هُوَ الغَفُور الرحيم(٩٨) فَلَمَّا دخلوا عَلَى يوسف آوى إِلَيْهِ أبويه[1]﴾ معنى دخولهم عليه قبل دخولِهم مصر: أنَّه حين استقبلهم نزل بهم فِي مضرب أو قصر كَانَ لَهُ ثَمَّة، فدخلوا عليه وهم[2] إِلَيْهِ أبويه.

﴿وقال﴾ لَهُم بعد ذَلِكَ: ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمِنِينَ(٩٩) ورفع أبويه عَلَى العرش وخرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ تصديق لِرؤياه، حيثُ قَالَ: ﴿يا أبت، إِنِّي رأيتُ أحدَ عشرَ كوكبًا والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لي ساجدين﴾[3] (لعلّه)، وذلك قيل: لمَّا دخل مصر وجلس مجلسه، واجتمعوا إِلَيْهِ، أكرم أبويه، فرفعهما عَلَى السرير. ﴿وخَرُّوا لَهُ﴾ يعني الإخوةَ والأبوين؛ ﴿سُجَّدًا﴾: وكانت السجدة عندهم جارية مجرى التحيَّة والتكرمة، كالقيام والمصافحة

---

١ - في الأصل: «أبواه» وهو خطأ.

٢ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «وضَمَّ». انظر: الزمخشري: الكشَّاف، ٣٩٣/٢.

٣ - سورة يوسف: ٤.

وتقبيل اليد؛ وقيل: سُنَّة للتعظيم[1] فِي ذَلِكَ الوقت أن يُسجَد للمُعظَّم؛ وقيل: بمعنى الخضوع؛ ﴿**وقال: يا أبت، هَذَا تأويل رؤيَايَ من قبلُ قد جعلها رَبي حقًّا**﴾ أي: صادقة، ﴿**وقد أحسن بِي إذ أخرجني مِنَ السجن، وجاء بكم مِنَ البدو**﴾ من البادية، لأنَّهم كانوا أصحاب مواشي ينتقلون فِي المياه والمناجع، وما ضرَّ البدوَ من كَانَ مستقيما عَلَى طاعة الله، وربَّما فِيهِ السلامة والفراغ. ﴿**من بعد أن[2] نَزَغ الشيطانُ بيني وبين إخوتي**﴾ أي: أفسد بيننا وأغرى، ﴿**إنَّ رَبي لطيف لِمَا يَشَاء**﴾ أي: لطيف التدبير ﴿**إنَّهُ هُوَ العليم الحكيم(١٠٠)**﴾ الذِي يفعل كلَّ شيء فِي وقته عَلَى وجهٍ يقتضي الحكمة. روي أنَّ يعقوب عليه السلام قال ليوسف عليه السلام: «لِمَ[3] لم تكتب إليَّ، وأنا عَلَى سبع مراحل منك»؟ قَالَ: «أمرني جبريل بالتوقُّف»، فسأله، [فـ]ـقَالَ جبريلُ: «أمرني الله بذلك، لقولك: "وأخاف أن يأكله الذئب"» قَالَ: فهلاَّ خافني!، وَالله أعلم بالغيب.

﴿**رب قد آتيتني مِنَ الملك وعلَّمتني من تأويل الأحاديث فاطر السَّمَاوَات والأَرْض أنت وليي فِي الدُّنْيَا والآخِرَة**﴾ أنت الذِي تتولاَّني بالنعمة فِي الدارين وتوصل المُلكَ الفاني بالمُلكِ الباقي، ﴿**توفَّني مسلما**﴾ طلبٌ للوفاة عَلَى حال الإسلام، ﴿**وألحقني بالصالحِينَ(١٠١)**﴾.

---

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «التعظيمِ»، بالإضافة.

٢ - فِي الأصل: «من بعد ما...»، وهو خطأ.

٣ - فِي الأصل: «لَما»، وهو خطأ.

﴿ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى مَا سبق من نبإ يوسف؛ والخطاب لرسول ا لله(ص)، ﴿من أنباء الغيب نُوحيه إليك، وَمَا كنت لديهم﴾ لدَى[1] بني يعقوب، ﴿إذ أجمَعوا أمرَهم﴾ عزموا عَلَى مَا همُّوا بِهِ، من إلقاء يوسف فِي البئر، ﴿وَهُم يمكُرُونَ(١٠٢)﴾ بيوسف، يخفون لَهُ الغوائل[2].

﴿وَمَا﴾ كان ﴿أكثرُ الناسِ ولو حَرصتَ﴾ عَلَى إيمانهم وبالغت فِي إظهار الآيات عليهم، ﴿بمؤمنِينَ(١٠٣)﴾ لعنادهم وتصاممهم[3] عَلَى الكفر.

﴿وَمَا تسألهم عليه﴾ عَلَى التبليغ، أو عَلَى القرآن، ﴿من أجرٍ﴾ جُعْلٍ ﴿إن هُوَ إلاَّ ذكر للعالمِينَ(١٠٤)﴾.

﴿وكأين من آيةٍ﴾ من علامة ودلالة عَلَى صفات الخالق وتوحيده، ﴿فِي [٢٧٢] السَّمَاوَات والأَرْض يمرُّون عليها﴾ يشاهدونها بقيام الحجَّة عَلَيْهِم بها، ﴿وَهُم عنها معرضُونَ(١٠٥)﴾ لاستنكافهم عَن قبولها، لأنَّهم لاَ يعتبرون بها، وَلاَ يتفكَّرون، لأنَّ الهوى قد ملكهم وغلبهم.

---

١ - فِي الأصل: «الدى»، وهو خطأ.

٢ - «والغائلة: الحقد الباطن، اسم كالوابلة، وفلان قليل الغائلة والمغالة أي الشرِّ. الكسائيُّ: الغوائل: الدواهي. والغيلة بالكسر: الخديعة». ابن منظور: لسان العرب، ١٠٣٨/٤.

٣ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «وتصميمهم». «وتصامَّ عنه وتصامَّه: أراه أنَّهُ أصمُّ، وليس به، وتصامَّ عن الحديث، وتصامَّه: أرى صاحبه الصمم عنه». ولا شكَّ أنَّ المصنِّف لا يقصد إِلَى هَذَا، وَإِنَّمَا يقصد الإصرارَ عَلَى الكفر: «والتصميم: المضيُّ في الأمر. أبو بكر: صمَّم فلان عَلَى كذا: أي مضى عَلَى أمره بعد إرادته». ابن منظور: لسان العرب، ٤٧٦/٣، ٤٧٨.

**﴿وَمَا يُؤْمِنُ أكثرُهم با لله إِلاَّ وَهُم مشركُونَ(١٠٦)﴾** أيُّ شرك كَانَ، وَهُوَ ضدُّ الإيمان الخالص.

**﴿أفأمِنُوا أن تأتيهم غاشِيَةٌ﴾** عقوبة تغشاهم وتشملهم، **﴿من عذاب ا لله﴾** يحتمل: الموت، أو مَا يتألَّمون بِهِ فِي الدُّنْيَا، **﴿أو تأتيهم الساعة بغتةً وَهُم لاَ يشعرُونَ(١٠٧)﴾** بإتيانها.

**﴿قل: هَذِهِ سبيلي﴾** هَذِهِ السبيل التِي هِيَ الدعوة إِلَى الإيمان والتوحيد، **﴿أدعو إِلَى ا لله﴾** أي: دينه، **﴿عَلَى بصيرةٍ﴾** حجَّةٍ واضحة غيرِ عمياء، **﴿أنا ومن اتَّبعني﴾**، ويدعو إِلَيْهَا من اتَّبعنى، **﴿وسبحان ا لله﴾** وأنزِّهه مِنَ الشركاء الظاهرين والمستترين، **﴿وَمَا أنا مِنَ المشركِينَ(١٠٨)﴾** الشركَ الجليَّ والخفيَّ.

**﴿وَمَا أرسلنا من قبلِك إلاَّ رجالا﴾** لاَ مَلاَئِكَة، **﴿نوحي إِلَيْهِم من أهل القرى﴾** لأنَّهم أعلم وأحلم؛ وأهلُ البوادي فِيهِم الجهل والجفاء[1]، **﴿أفلم يسيروا فِي الأَرْض فيَنظُروا كيف كَانَ عاقبةُ الذِينَ مِن قبلِهم﴾**؟ مِنَ المكذِّبين الرسلَ عَلَيْهِمُ السلام، **﴿ولَدَارُ[2] الآخِرَةِ خير للذين اتَّقَوا﴾** الشرك جليَّه وخفيَّه، وآمنوا با لله حقًّا وصدقا، **﴿أفلا تعقلُونَ(١٠٩)﴾** أفلا تعتبرون فتعقلون ذَلِكَ.

١ - فِي الأصل: «والجفى».

٢ - فِي الأصل: «والدار»، وهو خطأ.

﴿حَتَّى إِذَا استيأس الرسلُ﴾ أَيسُوا من إيمان القوم، ﴿وظنُّوا أَنَّهُمْ قد كُذِّبوا﴾ وأيقن الرسل أنَّهم قد كذبوهم[1] قومهم، ﴿جاءهم نصرُنا﴾ للرسل ورسلِهم، فُجَاءَةً من غير احتساب، ﴿فَنُجِّيَ من نشاء﴾ أي: الرسلَ ورسلَهم ومن تبعهم، ﴿وَلاَ يُردُّ بأسُنا﴾ عقوبتنا؛ أو أخذناهم[2] بالهلاك، ﴿عَنِ القوم المجرِمِينَ(١١٠)﴾.

﴿لَقَد كَانَ فِي قَصَصِهِم﴾ فِي قَصَصِ الأنبياء وأُمَمِهِم، ﴿عبرةٌ﴾ (لعلّه) مُعتبَرٌ، ﴿لأولي[3] الألباب﴾ لاَ غيرهم؛ ﴿مَا كَانَ﴾ (لعلّه) القرآن، ﴿حديثا يُفترى، ولكن تصديقَ الذِي بين يديه﴾، ولكن كَانَ تصديقَ الكتب[4] التِي تقدّمته، ﴿وتفصيل كُل شيء[5] وهدًى﴾ مِنَ الضلالة، ﴿ورحمة﴾ مِنَ العذاب، ﴿لقوم يُؤْمِنُونَ(١١١)﴾ بالله وأنبيائه. قَالَ أبو منصور: «مِن[6] ذكر قصَّة يوسف وإخوته تصبير لِرَسُولِ اللهِ (ص) عَلَى أذى قريش، كأنَّه يقول: إنَّ إخوة يوسف مَعَ موافقتهم إيَّاه فِي الدين، والأخوَّة فِي النسب، عملوا بِهِ مَا عملوا من الكيد والمكر لمخالفتهم إيَّاه فِي بعض (لعلّه) الحقِّ، وصَبرَ عَلَى ذَلِكَ، فأنت مَعَ مخالفتهم إيَّاك فِي الدين أحرى أن تصبر عَلَى أذاهم».

١ - كذا في الأصل، والأصوب: «كذّبهم».

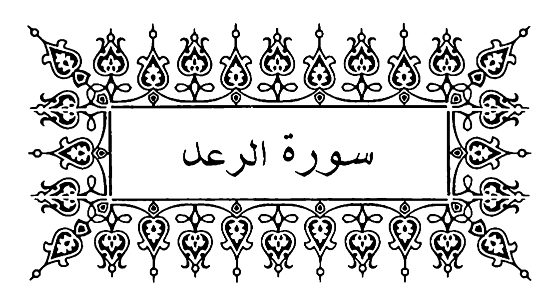
٢ - كذا في الأصل، ولعلّ الصواب: «أخذْنا إيَّاهم».

٣ - في الأصل: «الأولي»، وهو خطأ.

٤ - في الأصل: + «الكتب»، وَهُوَ تكرار.

٥ - في الأصل - ﴿وتفصيل كلّ شيء﴾ وَهُوَ سهو.

٦ - كذا في الأصل، ولعلّ الأصوب: «في».



# سورة الرعد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَمِر﴾ أي: أنا ا لله أعلـم وَأرى، ﴿تِلك﴾ إشارة إلى آيات السـورة، ﴿آيات الكتاب﴾ أُرِيدَ بـ«الكتاب»: السـورة، أي: تِلك الآيات، آيات السورة الكاملة العجيبة فِي بيانها، ﴿والذي أُنزِل إليك مِن رَبك﴾ القرآن كُلُّه ﴿الحَقُّ، ولكنَّ أكثر الناس لاَ يُؤْمِنُونَ(١)﴾ أنه الحقُّ، فيعملون بموجباته؛ ثُمَّ ذكر مَا يُوجِبُ الإيمان بِهِ من دلائل وحدانيـَّته، فقال: ﴿ا لله الذِي رَفَع السَّمَاوَات﴾، أي: خلقها مرفوعةً، لاَ أن تكون موضوعةً فَرفعَها، ﴿بغَير عَمَدٍ تَرَونَها﴾ [٢٧٣] بِلا عَمدٍ؛ وقيل: لِعمدٍ[1] لاَ تَرَونها، ﴿ثُمَّ اسْتوَى عَلَى العرش﴾ استولى بالاقتدار ونُفوذِ السلطان، ﴿وسخَّر الشمس والقمر﴾ (لعلَّه) أو انقضاء اليوم والشهر والسنَة في المنازل بلا تفاوُت، ﴿يُدبر الأمر﴾ (لعلـَّه) لمنافع عباده، ﴿كلٌّ يجري لأجل مُسمًّى﴾ وَهُوَ انقضاء الدُّنيَا، (لعلَّه) أو انقضاء اليوم والشهر والسنَة فِي المنازل بلا تفاوُت، ﴿يُدبِّر الأمر﴾ أمر مُلْكِهِ ومَلكُوتِهِ، ﴿يُفصل الآيات﴾ يُبَيـِّنُها فِي كُتُبِهِ، ﴿لَعَلَّكُم بلقاء رَبكُم تُوقِنُونَ(٢)﴾ لَعَلَّكُم توقنون بِأنَّ هَـذَا الـمُدبِّر والـمُفصِّل لاَ بدَّ لكم مِنَ الرجوع إِلَيْهِ؛ والإيقان بمعنى: اليقين.

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «بعمد».

﴿وَهُوَ الذِي مَدَّ الأَرْضَ﴾ بَسَطَهَا، ﴿وجعلَ فِيهَا رَواسيَ وأنهارًا، ومِن كُل الثمرات جعلَ فِيهَا زوجين اثنَين﴾ أي: الأسود والأبيض، والحُلوَ والحامض، والصغير والكبير، وَمَا أشبه ذَلِكَ، ﴿يُغْشِي اللّيل النهار﴾ يُلْبِسُهُ مَكانَهُ فيصير أسودَ مظلمًا بعد مَا كَانَ أبيضَ منيرًا، (لعلّه) عَلَى غير الاختيار مِنهُما؛ ﴿إنَّ فِي ذَلِكَ لآيات لقوم يتفكّرُونَ(٣)﴾ فيعلمون أنَّ لها صانعًا عليمًا حكيمًا قادرًا، وأنّه مَا خلقها إلاَّ لِحِكمةٍ.

﴿وفِي الأَرْض قِطَعٌ مُتجاورات﴾ بقاعٌ مُختلفة مَعَ كونها مُتجاورةً مُتلاصقة طيِّبة إِلَى سبخَةٍ، وكريمة إِلَى زهيدة، وصَلبة إِلَى رَخوة؛ وذلك دَليلٌ عَلَى قادرٍ مُريدٍ، مُوقِع لأفعاله عَلَى وجهٍ دون وجهٍ، ﴿وجنَّات من أعناب وزرعٍ ونخيلٍ، صنوانٍ وغير صنوانٍ﴾، الصنوان: جمع صِنوٍ، وَهُوَ: النخلة لها رأسان وأصلها وَاحِد، ﴿يُسقَى بماءٍ وَاحِدٍ، ونُفضل بعضها عَلَى بعض فِي الأُكُلِ، إنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لقوم يعقلُونَ(٤)﴾ يستعملون عقولهم بالتفكّر. عَن الحسن: «مَثّلَ اختلافَ القلوب فِي أثمارها وأنوارها وأسرارها باختلاف القطع فِي أنهارها وأزهارها».انتهى. وهي تُمَدُّ كلُّها من بحرٍ إلهيٍّ لاَ مقطوعة وَلاَ ممنوعة، ولكنَّ الطيِّبَ يخرجُ نباته بإذن ربِّه، والذي خبُثَ لاَ يخرج إلاَّ نكدًا[1].

﴿وإنْ تَعْجَب﴾ يا محمَّد من إنكارهم البعث، ﴿فَعَجبٌ قولهم:﴾، أي: فحقيق قولهم بِأن يُتعجَّب مِنْهُ، لأنَّ من قَدرَ عَلَى إنشاء مَا عُدِّد عليك، كَانَت

---

١ - إشارة إِلَى قوله تعالى: ﴿والبلدُ الطيِّبُ يخرجُ نباته بإذن ربِّه، والذي خبُثَ لاَ يخرج إلاَّ نكدًا﴾. سورة الأعراف: ٥٨.

الإعادة أهونَ شيء عليه، وإن كَانَ إنكارهم أعجوبة مِنَ الأعاجيب. **﴿أئذا كُنَّا ترابًا، أئنَّا لفي خَلْقٍ جديدٍ، أُولَئِكَ الذِينَ كَفَرُوا بربِّهم﴾** الكاملون فِي كفرهم، **﴿وأولئكَ الأغلالُ فِي أعناقهم﴾** مُغَلُّون فِي أعناقهم بالضلال لاَ يُرجَى خلاصهم مِنْهُ، [وهو] وصفٌ لَهُم بالإصرار، **﴿وأولئك أصحابُ النار هم فِيهَا خالدُونَ(٥)﴾**، ذكر: تكرار «أُولَئِكَ» على تعظيم الأمر عَلَيْهِم.

**﴿ويستعجلونك بالسيِّئة قَبلَ الحسنة﴾** بالنِّقمَة قَبلَ العافية، وذلك أنـَّهم سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيَهم بالعذاب استهزاء مِنْهُم بإنذاره؛ **﴿وقد خلَت من قبلهم المَثُلاتُ﴾** أي: عُقوبات أمثالِهم مِنَ المكذِّبين، فما لَهُم لم يعتبروا بها! فلا يستهزؤوا؛ والمُثْلَة: العقوبة، لِمَا بين العقاب والمُعاقَب عليه مِنَ المُماثلة، ﴿وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مِثلُها﴾[1]، **﴿وإنَّ[2] رَبَّكَ لَذُو مغفرةٍ للناس عَلَى ظُلمِهم﴾** لِمن تاب مِن ظُلمِه، أو لإمْهَالِه العقوبة عنْهُم لأجَلٍ مسمًّى [٢٧٤]، **﴿وإنَّ رَبَّكَ لشديدُ العقاب(٦)﴾** لِمَن أصرَّ عَلَى ظُلمِه.

**﴿ويقولُ الذِينَ كَفَرُوا: لولا أُنزل عليه آيةٌ مِن رَبـِّه﴾** لم يعتدُّوا بالآيات المنزَّلة عَلَى رسول الله ﷺ عِنادًا، (لعلـَّه) فاقترحُوا نَحوَ آيات موسى وعيسى، من انقلابِ العَصَا حيَّة، وإحياء الموتى؛ فَقِيل لِرسول الله: **﴿إنـَّما أَنت مُنذِرٌ﴾** مَأمُور، لَيسَ إتيان الآيات إليك وَلاَ مِنك، إنـَّمَا أنت مُنذرٌ بالقرآن، **﴿ولكلِّ قَومٍ هادٍ(٧)﴾** عالـِمٌ يُعلِّمُهم أمر دينهم، (لعلـَّه)

---

١ - سورة الشورى: ٤٠.

٢ - في الأصل: - «إنَّ» وهو خطأ.

ينزل في الحُكم في اللوازم منزلة الحُجَّة اللازمة للعباد منزلة النبي ﷺ، ويقوم مقامه في القيام في الحق[1].

﴿ا لله يعلم مَا تَحمِلُ كُلُّ أنثى وَمَا تغيضُ الأرحامُ﴾ وَمَا تنقصه، ﴿وَمَا تزدادُ، وكلُّ شيءٍ﴾ مِنَ الأشياء ﴿عنده بمقدارٍ(٨)﴾ بتقديرٍ وَاحِدٍ لاَ يجاوزه وَلاَ ينقصُ عَنْهُ، كقوله: ﴿إنَّا كلَّ شيءٍ خلقناه بِقَدَرٍ﴾[2]، لأنَّهُ لم يَخلُقْ شَيْئًا عبثًا وَلاَ لعبًا، ولكن بعلمٍ سابقٍ، كما قَالَ: ﴿عالِمُ الغيب﴾ مَا غابَ عَن الخلقِ عِلمُهُ، ﴿والشهادة﴾ مَا شاهدوه؛ ﴿الكبيرُ﴾ العظيم الشأن، الذِي كلُّ شيء دونه ﴿المُتعَالِ(٩)﴾ المُستعَلِي عَلَى كل شيء بقدرته، أو الذِي كَبُرَ عَن صفات المخلوقين وتعالى عنها.

﴿سواء منكم من أسَرَّ القولَ ومن جَهَرَ بِهِ﴾ أي: فِي علمه، ﴿ومن هُوَ مُستَخفٍ بالليل﴾ طالب للخفاء فِي مخبإٍ بالليل، ﴿وسَارِبٌ﴾ (لعلّه) بارز ﴿بالنهار (١٠)﴾ يراه الناظرون.

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ جماعات مِنَ المَلاَئِكَة تعتقب فِي حفظه تَعاقُبَ الليل والنهار، حكمة مِنَ ا لله لاَ يعلم كُنهَهَا إلاَّ هُوَ، ﴿من بين يديه ومن خلفه﴾ أي: قُدَّامه ووراءه، ﴿يحفظونه من أمر ا لله﴾، أي: إنَّ ا لله أمرهم بحفظه (لعلّه) والمعنى: يحفظونه بأمر ا لله، ﴿إنَّ ا لله لاَ يُغيِّر مَا بِقَومٍ﴾ مِنَ العافية والنعمة ﴿حَتَّى يُغيِّروا مَا بأنفسهم﴾ بارتكابهم للشهوات؛ ﴿وإذا أَرَادَ ا لله

١ - كذا في الأصل، والعبارة غير واضحة من قوله: «(لعلّه) ينزل...».

٢ - سورة القمر: ٤٩.

**بِقَومٍ سوءًا﴾** عذابا يسوؤهم، **﴿فلا مردَّ لَهُ﴾** فلا يدفعه شيء، **﴿وَمَا لَهُم من دونه من وَالٍ(١١)﴾** يَلِي أمرهم من دون ا لله ويدفع عَنْهُم.

**﴿هُوَ الذِي يُرِيكُمُ البرق خوفًا وطمعًا﴾** يُخَافُ من وقوع الصواعق عند لمع البرق، ويُطمَعُ فِي الغيث، **﴿ويُنشئ السحَابَ الثقَالَ(١٢)﴾** بالماء.

**﴿ويُسبحُ الرعدُ بحمده﴾** كما قَالَ: ﴿وإنْ مِّن شيءٍ إِلاَّ يُسبِّح بحمده﴾[1]، **﴿والمَلاَئِكَةُ من خيفته ويُرسِلُ الصواعقَ فيُصِيب بها من يَشَاء﴾** قيل: الصاعقة: نار تسقط مِنَ السَّمَاء، **﴿وَهُم يُجادلون فِي ا لله وَهُوَ شديدُ المِحالِ(١٣)﴾** المِحَال والمُمَاحَلَةُ: المُغَالبَة، وَهُوَ شدَّة المماكرة والمكايدة، ورَومُ الأمر بالحيلة، والمَعنَى: أنَّه شديد المكر والكيد لأعدائه، يأتيهم بالهلكة من حيث لاَ يشعرون.

**﴿لَهُ دعوة الحَق﴾** قيل «دعوة الحقِّ»: التوحيد، **﴿وَالذِينَ يَدعُون من دونه﴾** أي: يَعبدُون الأصنام من دون ا لله، **﴿لاَ يَستجيبُون لَهُم بشيء﴾** أي: لاَ يُجيبُونهم بشيء يريدونه من نفعٍ أو دفعٍ، **﴿إلاَّ كباسط كَفَّيهِ إِلَى الماء لِيَبلُغَ فَاهُ﴾**، أي: إلاَّ كباسط كَفَّيْهِ ليقبض عَلَى الماء، (لعلّه) لاَ يكون فِي يده شيء، وَلاَ يبلغ إلى فِيهِ مِنْهُ شيء، **﴿وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾**، وَمَا الماء ببالغٍ فَاهُ، **﴿وَمَا دعاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضلالٍ(١٤)﴾** فِي ضَياعٍ لاَ منفعة فِيهِ، لأنَّهم إن دَعوا ا لله لم يُجِبْهُم وإن دعوا الأصنام لم [٢٧٥] تستطع [إجابتهم][2].

---

١ - سورة الإسراء: ٤٤.

٢ - انظر: الزمخشري: الكشّاف، ٢/٤٠٦.

﴿و لله يَسجد من في السَّمَاوَات والأَرْض﴾ سجودَ تَعبُّدٍ وانقيادٍ، ﴿طوعًا﴾؛ قيل: يعني: المَلاَئِكَة والمؤمنين، ﴿وكرهًا﴾؛ قيل: المنافقين والكَافِرينَ فِي حال الشدَّة والضيق؛ ويَخرُجُ فِي المَعنَى: ﴿و لله يَسجدُ مَن فِي السَّمَاوَات والأَرْض طوعًا﴾ بمعنى: الانقياد والإِقْرَار لله بالوحدانيَّة، ﴿وكرهًا﴾ نَفسُ المؤمن الروحانيَّة، مِن حَيث يَأْمُرُها العقل والشرع، لِتَذِلَّ وتَنقادَ، وتتواضع لخالقها مَعَ المتواضعين، وهي تطلب بطبعها العلوَّ والاستبكار، مُخالِفَة لِبقيَّة المخلوقات؛ وبذلك تستحقُّ الثواب إن انقادت، وتَستوجِب العقاب إن استَكبَرت؛ ﴿وظِلاَلُهُم﴾ يعني: ظِلال[1] الساجدين تسجد لله طوعاً، ﴿بالغُدُو والآصال(١٥)﴾ وَهُوَ استيعاب الأوقات.

﴿قل: من رَبُّ السَّمَاوَات والأَرْض؟ قل: الله﴾ حكاية لاعترافهم، لأَنـَّهُمْ إذا قال لهم: من رَبُّ السموات والأرض؟ لم يكن لَهُم بُدٌّ من أن يقولوا: الله؛ ﴿قل: أفاتـَّخذتم من دُونِه أولياء؟﴾ أَبَعْدَ أن علمتموه ربَّ السَّمَاوَات والأَرْض اتـَّخذتم من دونه آلهة؟ ﴿لاَ يملكون لأنفسهم نفعًا وَلاَ ضرًّا﴾ لاَ يستطيعون لأنفسهم أن ينفعوها، أو يدفعوا عنها، فكيف يستطيعون لغيرهم، وقد آثرتمُوهم عَلَى الخالق الرازق، المُثِيبِ المُعاقِبِ، فما أَبْيَنَ ضلالتكم، ﴿قل: هل يَستوِي الأعمى والبصير؟﴾ أي: الكافر والمؤمن، أو من لاَ يُبصِرُ شَيْئًا، ومن لاَ يَخفَى عليه شيء، ﴿أم هل تَستوِي الظلماتُ والنور؟﴾ مِلَل الكفر والإيمان، ﴿أم جَعَلُوا لله شُركاءَ؟﴾ بَل أَجعَلُوا، ومعنى الهمزة: للإنكار، ﴿خَلَقُوا كَخَلقِهِ﴾

١ - في الأصل: «ضلال»، وهو خطأ.

خلقوا مثل خلقه، وَهُوَ: صفة لـ«شركاء»، أي: أنَّهم لم يتَّخذوا لله شركاءَ خَالِقِينَ قد خلقوا مثل خلقه، ﴿فَتَشَابَهَ الخَلقُ عليهم﴾ فَاشتَبَهَ عَلَيْهِم مخلوقُ الله بمخلوقِ الشركاءِ، حتَّى يقولوا: قَدرَ هؤلاء عَلَى أن يخلقوا كما قَدرَ الله عليه، فاستحقُّوا العبادة، فنتَّخذهم لله شركاء، فنعبُدَهم كما نَعبُدُ الله، ولكنَّهم اتَّخَذُوا لَهُ شركاء عاجزين، لاَ يقدرون عَلَى مَا يقدِر عليه الخالق، ﴿قل: الله خالقُ كُل شيءٍ﴾ أي: خالق الأجسام والأعراض، لاَ خلاَّق غيرُ الله، وَلاَ يستقيمُ أن يكون لَهُ شريكٌ فِي الخَلقِ، فلا يكون لَهُ شريك فِي العبادة. من قَالَ: إنَّ الله لم يخلق أفعال العباد، وَهُم خلقوها، فتشابه الخَلقُ معهم [كَذَا] عَلَى معنى قولهم. ﴿وَهُوَ الواحدُ﴾ المُتوحِّد بالربوبيَّة، ﴿القهَّارُ(١٦)﴾ لاَ يُغَالَبُ، ومَا عداه مربوب ومقهور.

﴿أنزَلَ مِنَ السَّمَاء ماءً﴾، أي: الوَاحِد القهَّار، ﴿فَسَالَت أودِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحتَمَلَ السيلُ زَبدًا﴾ هُوَ مَا عَلَى وجه الماء مِنَ الرغوة[1]، ﴿رَابِيًا﴾ منتفخا مرتفعا عَلَى وجه السيل، ﴿وممَّا يُوقِدُونَ عليه﴾، أي: ومنه ينشأ زبدٌ مثل زبد الماء، ﴿فِي النار ابتغاء حِليَةٍ﴾ مبتغين حِليَةً مُتَحلَّىً بها، ﴿أو متاعٍ﴾ مِنَ الحديد والنحاس والرصاص يُتَّخذ منها الأواني وَمَا يُتمتَّع بِهِ، ﴿زَبدٌ﴾ خَبَثٌ ﴿مثله؛ كذلك يضرب الله الحَقَّ والباطل﴾ أي: مثل الحقِّ والباطل، ﴿فَأَمَّا الزبد فيذهب جُفَاءً﴾، وَهُوَ مَا تقذفه القِدرُ عند الغليان، والبحر عند الطغيان؛ والجفو: الرَّميُ، ﴿وَأَمَّا مَا ينفع الناس﴾ مِنَ الماء والحُلَيِّ [٢٧٦] والأواني، ﴿فيمكُثُ فِي

١ - في الأصل: «الروغوة»، وهو خطأ.

**الأَرْض﴾** فيثبت الماء فِي ينابيع الأَرْض، وكذلك الجواهر تبقى فِي الأَرْض مدَّة طويلة؛ **﴿كذلك يضرب ا لله الأمثال(١٧)﴾** ليظهر الحقُّ مِنَ الباطل؛ قيل: هَذَا مثلٌ ضَرَبَهُ ا لله للحقِّ وأهله، والباطلِ وحزبه، فمثَّل الحقَّ وأهله بالماء الذِي ينزله مِنَ السَّمَاء فَتسيِلَ بِهِ أودية الناس فيحيَوْنَ بِهِ، وينفعهم أنواع[1] المنافع وبالفلز[2] الذِي ينتفعون بِهِ فِي صوغ الحُليِّ مِنهُ، واتِّخاذِ الأواني والآلات المختلفة، وأنَّ ذَلِكَ ماكث فِي الأَرْض، باق بقاء ظاهرًا يثبت الماء في منابعه، وكذا الجواهر تبقى أزمنة متطاولة. وشَبَّه الباطل فِي سرعة اضمحلاله، ووشك زواله، وعدم الانتفاع بِهِ بزبد السيل، الذِي يرمي بِهِ الفلز الذِي يطفوا فوقه إِذَا أُذِيبَ. وقال الجمهور: هَذَا مثلٌ ضَرَبَهُ ا لله تعالى للقرآن والقلوب والحقِّ والباطل، فالماء: القرآن نزل لحياة الجَنان، كالماء للأبدان؛ والأودية: القلوب. ومعنى «بقَدَرِها»: بقَدْرِ (لعلَّه) سَعَةِ القلب وضيقه. و«الزَّبَدُ»: الهواجس [و]الخواطر، هواجس النفس، ووساوس الشيطان. والماءُ الصافي المنتفَع بِهِ مثل الحقِّ، كما يذهب الزبد باطلا، ويبقى صَفوُ الماء؛ كذلك هواجس النفس ووساوس الشيطان، ويبقى الحقُّ كما هُوَ. وَأَمَّا حِلْيَةُ الذهب والفضَّة فمثلٌ للأحوال السَّنيَّة والأخلاق الزكيَّة. وَأَمَّا متاع الحديد والنحاس والرصاص فمثلٌ للأعمال الممتدَّة بالإخلاص، المُعدَّة للخَلاَص؛ فإنَّ

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «بأنواع».

٢ - «الفِلَزُّ، والفِلِزُّ، والفُلُزُّ: النحاس الأبيض، تجعل منه القدور العظام المفرغة والهاوُنات[كَذَا]، والفِلَزُّ والفِلِزُّ: الحجارة، وَقِيلَ: هو جميع جواهر الأَرْض من الذهب والفضَّة والنحاس وأشباهها، وما يرمى من خبثها». ابن منظور: لسان العرب، ٤/١١٢٧. مادَّة «فلز».

الأعمال جالبة للثواب، دافعة للعقاب، كما أنَّ تلك الجواهر بعضها أداة النفع فِي الكسب، وبعضها آلة الدفع فِي الحرب؛ وَأَمَّا الزبد فالرياء والخلل والملل والكسل.

واللام في: ﴿للذين استجابوا﴾ أي: أجابوا متعلّقة بـ«يضرب»، أي: «كذلك يضرب ا لله الأمثال للمؤمنين الذِينَ استجابوا»، ﴿لربهم الحُسنَى﴾ الباقية التِي لا تنفد، ﴿وَالذِينَ لم يستجيبوا لَهُ﴾ مثلاً للفريقين، ﴿لو أنَّ لَهُم مَا فِي الأَرْض جميعًا، ومِثْلَهُ معه لافتدوا بِهِ﴾ أي: لو ملكوا أموال الدُّنْيَا وملكوا معها مِثلَهَا، لبذلوه ليدفعوا عَن أنفسهم أدنى عذاب من عذاب ا لله، بَل ﴿أُولَئِكَ لَهُم سُوءُ الحساب﴾ المناقشة فِيهِ، بالتفتيش لجَلِيِّ الأعمال وخَفِيِّها، وقليلها وكثيرها، وصغيرها وكبيرها، والمُجازاة عليها، كما قَالَ: ﴿ومأواهم جَهَنَّم﴾ ومرجعهم بعد المحاسبة النار، ﴿وبِئْسَ المهادُ(١٨)﴾ المكَانُ الممهَّد.

﴿أفمن يعلم﴾ لإنكار أن تقع شبهة بعد مَا ضرب مِنَ المثل فِي أنَّ حَالَ من عَلِمَ ﴿أَنَّمَا أنزل إليك من رَبك الحقُّ﴾ فاستجاب بمعزل من حال الجاهل الذِي لم يستبصر فيستجيب، وَهُوَ المُرَاد بقوله: ﴿كمن هُوَ أعمى﴾ كبُعدِ مَا بين الزبد والماء، ﴿إِنَّمَا يتذكَّر أُولُو الألبابِ(١٩)﴾ الذِي عملوا عَلَى قضايا عقولهم، فنظروا واستبصروا؛ وتفسير التذكُّر إِنَّمَا هُوَ يسع حجاب القلب عَن الغفلة[كَذَا].

﴿الذِينَ يُوفُونَ بعهدِ ا لله﴾ عهد ا لله: مَا عقدوه عَلَى أنفسهم مِنَ الشهادة بربوبيتّه، ﴿وأَشهَدَهم عَلَى أنفسِهم أَلَسْتُ بربِّكُم؟ قَالُوا: بلى﴾[1]، [٢٧٧]

---

١ - سورة الأعراف: ١٧٢.

﴿وَلاَ يَنقضُونَ الميثاق(٢٠)﴾ وَمَا وثَّقوهُ عَلَى أنفسهم وقَبلوه، مِنَ الإيمان بـا لله وغيره مِنَ المواثيق، بَيْنَـهُم وبين ا لله، وبين العباد تعميم بعد تخصيص.

﴿وَالذِينَ يَصِلُونَ مَـا أمـر ا لله بِـهِ أن يُوصَـلَ﴾ قيـل: أَرَادَ بـهِ الإيمـان بجميع الكُتُـبِ والرُّسُـلِ لاَ نفرِّق بينهمـا؛ وقيـل: المـراد بـهِ: صِلَـةُ مـن أمـر ا لله بصِلَتِـهِ، ﴿ويخشَوْنَ رَبـَّهم﴾ أي: وعيـدَه كُلَّـه ﴿ويخـافونَ سـوءَ الحسـابِ(٢١)﴾ فيحاسبون أنفسهم قبل أن يُحَاسبُوا، فيحبسوها عَلَى قوانين الشرع بدليل قوله:

﴿وَالذِينَ صبروا﴾ مطلقٌ فيما يُصبَر عليه من مشـاقِّ التكـاليف، ﴿ابتغـاء وجهِ رَبـهم﴾، لاَ ليقال: مَا أصبره! وأحمله للنوازل! وأوقره عند الـزلازل! وَلاَ لئلاَّ يُعَابَ فِي الجزع، ﴿وأقاموا الصلاة﴾ بجميع مَا يجـب وينبغـي، ﴿وأنفقـوا مِمَّـا رزقنـاهم﴾ أي: مِـنَ الحـلال، ﴿سـرًّا وعلانيـةً﴾ كيفمـا اتـَّفق لَهُـم، ﴿ويَدرَءُونَ بالحسنَةِ السَّيـئَةَ﴾ ويدفعون بالحسن مِـنَ الأعمـال والأقـوال مَـا يَسوءُهم من قول الجهلة وفعلهم، ويخرج فِيـهِ دفـع الذنـب بالتوبـة، ﴿أُولَـئِكَ لَهُم عُقبَى الدار(٢٢)﴾ عاقبة الدُّنـيَا وهي الجنَّة، لأنـَّها أرادها ا لله أن تكون عاقبة الدُّنـيَا ومرجعَ أهلها.

﴿جَنَّاتُ عدن﴾ بدل من «عقبى الـدار»، ﴿يدخلونهـا ومـن صَلَـحَ﴾ أي: آمن ﴿من آبائهم وأزواجهم وذريَّاتهم، والْمَلاَئِـكَة يدخلون عَـلَـيْهِـم من كُـل بابٍ(٢٣)﴾ من أبواب المنازل، بالسلام وِالبِشَارَةِ بالرضى والهدايا.

﴿سلام عَلَيْكُم بِمَا صبرتم﴾ أي: هَذَا الثـواب بسبب صبركم عَـن الشـهوات، وَعَلَى أوامر ا لله؛ وكأنَّ الآية تدلُّ عل تفضيـل المؤمنين عَلَى الَملاَئِـكَة، لأنَّ دخولهم ثواب للمؤمنين، لأنـَّهم يبشرونهم بالسلامة، ﴿فَنِعمَ عُقبَى الدارِ(٢٤)﴾ الجنـَّاتُ.

﴿وَالذِينَ يَنقضُون عهدَ ا لله من بعدِ ميثاقِهِ﴾ مـن بعدمَـا أوثقـوه بِـهِ مِـنَ الاعـتراف والقبـول، ﴿ويقطعـون مَـا أمـر ا لله بـهِ أن يُوصَـلَ﴾ مـن حقوقـه وحقـوق خَلقِـهِ، ﴿ويُفسِـدونَ فِي الأَرْضِ﴾ بـالكفر والظلـم، ﴿أُولَـئِكَ لَهُـمُ اللعنةُ﴾ الإبعاد مِنَ الرحمة، ﴿ولهم سُـوءُ الـدارِ(٢٥)﴾ يحتمـل أن يُـرَادَ سُـوءُ عاقبة الدُّنْـيَا، لأَنَّـهُ فِي مقابلة عقبى الدار.

﴿ا لله يبسطُ الرزق لمن يَشَـاءُ ويَقـدِرُ﴾ (لَعَلَّـهُ) أي: يُوسِـعُ؛ ﴿وَفَرِحُـوا بالحياة الدُّنْـيَا﴾ بِمَا بَسَطَ لَهُم مِنَ الدُّنْـيَا فرحَ بَطَرٍ وأشَرٍ[1]، لاَ فـرح سـرورٍ بفضل ا لله وإنعامه عليهم، و لم يقابلوه بالشـكر حتّـى يُؤجـروا بنعيـم الآخِـرَة؛ والفرحُ: لذّةٌ فِي القلب بنَيلِ الـمُشتَهَى، وفيه دليل عَلَى أنَّ الفرح للدنيا حـرام، ﴿وَمَا الحياةُ الدُّنْـيَا فِي الآخِرَة إلاَّ متاع(٢٦)﴾ قليل ذاهب.

﴿ويقول الذِينَ كَفَرُوا: لولا﴾ هلاّ ﴿أُنزِلَ عليه آيةٌ من رَّبِـهِ﴾ (لعلـّه) آيـة مُقترَحَةٌ ﴿قُل: إنَّ ا للهَ يُضِلُّ من يَشَـاءُ﴾ باقتراح الآيـات بعـد ظهـور المعجـزات، ﴿ويهدي إِلَيْـهِ من أناب(٢٧)﴾، ويرشد إِلىَ دينه من رجع إِلَيْـهِ بقلبه.

﴿الذِينَ آمنوا وتَطمئِنُّ قُلُوبُهم﴾ تَسكُنُ ﴿بذكرِ ا لله﴾ بالقرآن، ﴿أَلاَ بذِكرِ ا لله تَطمئِنُّ القُلُوبُ(٢٨)﴾؟ بسبب ذكره تسكن قلوب المؤمـنين، ويستقرُّ فِيهَـا اليقين، فإن قيـل: أليس قَـالَ ا لله: ﴿ إِنـَّمَا المؤمنـون الذيـن إِذَا ذُكِـرَ ا لله وَجِلَـت قُلُوبُهم﴾؟[2] فكيف تكون [٢٧٨] الاطمئنانيـّـة والوجـل فِي حـال وَاحِـد؛ قيـل: الوجل عند ذكر الوعيد والعذاب. والاطمئنانيـّة عند ذكر الوعد والثواب.

---

١ - «الأَشَر: البطَر، وَقِيلَ: أشدُّ البطَر». ابن منظور: لسان العرب، ١/٦٥. مادَّة «أشر».

٢ - سورة الأنفال: ٢.

﴿الذِينَ آمنوا وعملوا الصالحات طُوبَى لَهُم﴾ هُوَ مصدرٌ، مِـن "طَـابَ" ﴿وحُسنُ مَآبٍ(٢٩)﴾ أي: مرجع.

﴿كذلك أرسلناك﴾ مثل ذَلِكَ الإرسالِ أرسلناك، يعني: أرسلناك إرسـالاً لَـهُ شأنٌ وفضلٌ عَلَى سائر الإرسالات؛ ثُمَّ فسَّر كيف أرسله، فقـال: ﴿في أُمـَّةٍ قـد خَلَت من قَبلِهَا أُمَـمٌ﴾ أي: أرسلناك فِي أمـَّةٍ قـد تقدَّمهـا أمـمٌ كـثيرةٌ، ﴿لِتـتـلُوَ عَلَيْهِمُ الذِي أوحينا إليـك﴾ لتقرأ عَلَيْهِمُ الكتـاب العظيـم الـذِي أوحينـا إليـك، وتُفسِّرَه[1] لَهُم مَا يـُحتَاج مِنـْهُ إلَى[2] تفسـير، ﴿وَهُـم يَكفُـرُونَ﴾ ودأب هـؤلاء أنـَّهم يَكفرُونَ ﴿بالرحمن﴾، البليغ الرحمة، الذي وسعت رحمته كلَّ شَيْءٍ، كقوله: ﴿وإذا قيل لهم: اسجدوا للرحمن قَالُوا: وَمَا الرحمن...﴾ الآية[3]، ﴿قل: هُوَ رَبـي لاَ إله إلاَّ هُوَ﴾ أي: هُوَ رَبِّي الوَاحِد المتعـالي عَـن الشـركاء، ﴿عليـه توكَّلـتُ﴾ اتـَّخَذتُه وكيلِي فِي جميع الأمور، ﴿وَإلَيْـهِ مَتابِ(٣٠)﴾ توبتِي [و]مَرجعِي.

﴿ولوْ أنَّ قُرآنا سُيرت بِهِ الجبالُ﴾ عَن مَقارِّهـا، ﴿أو قُطِّعـت بـهِ الأَرْضُ﴾ حتَّى تَتصدَّع وتَـتَزايَلُ قِطعًا ﴿أو كُلِّمَ بـهِ الموتـى﴾ فتسـمع وتُجيـب، لَكَـانَ هَـذَا القرآن، لِكونِه [غاية][4] فِي التذكير، ونهاية فِي الإنذار والتخويف، أو معنـاه: ولـو

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «تفسِّرَ».

٢ - في الأصل: + «إلى»، وهو تكرار.

٣ - سورة الفرقان: ٦٠؛ وتمامها: ﴿وإذا قيل لهم: اسجدوا للرحمن، قالوا: وما الرحمن؟ أنسـجد لما تأمرنا وزادهم نُفورًا﴾.

٤ - ينظر: الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٤١٢.

أنَّ قُرآنًا وقع بِهِ تسيرُ[1] الجبال، وتَقطيعُ الأَرْض، وتَكلِيمُ الموتى وتنبيههم[2] لَمَا آمنوا بِهِ ولَمَا تنبَّهوا عليه، كقوله: ﴿ولو أنَّنا نَزَّلنا إِلَيْهِم المَلاَئِكَةَ﴾...الآية[3]؛ ﴿بَل للهِ الأمر جميعا﴾ بَل لله القُدرة عَلَى كُلِّ شيء وَهُوَ قادرٌ عَلَى الآيات المقترحة؛ ﴿أفلَم يَيْئَسِ الذِينَ آمنوا﴾ أفَلَم يَعلَم، قِيل: إنَّمَا استعمل اليأس بمعنى العلم، لِتَضمُّنِه معناه، لأنَّ اليائِس عَنِ الشيءِ عالِمٌ بِأنَّه لاَ يكون، كما استعمل النسيان فِي معنى الترك لِتَضمُّنِ ذَلِكَ، ﴿أن لَوْ يَشَاء ا لله لهدى الناس جَمِيعا﴾ فإنَّ معناه: نفي هدى بعض الناس، لِعدَم تَعلُّق المشَيئة باهتدائهم؛ ﴿وَلاَ يزال الذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعوا﴾ مِن كُفرهم وسُوءِ أعمَالهم ﴿قارعةٌ﴾ داهِيَةٌ تَقرعُهم، بما يُحِلُّ ا لله بِهِم فِي كلِّ وقتٍ مِن صُنوفِ البلايا والمصائب، فِي أنفسهم وأولادهم وأموالهم، كما قَالَ: ﴿إنَّمَا يُرِيدُ ا لله أنْ يُعذِّبهم بها فِي الحياة الدُّنْيَا وتَزهَقَ أنفُسُهم وَهُم كَافِرُونَ﴾[4]، (لعلَّه) وكقوله: ﴿وَمَا أصابكُم مِن مُصيبَة فَبِمَا كَسبَت أيدِيكُم﴾[5]، ﴿أو تَحُلُّ قَرِيبًا مِن دارِهم﴾ أو تَحلُّ القارعةُ قريبًا مِنْهُم، ويَتطايَرُ إِلَيْهِم شرارها، وتتعدَّى إِلَيْهِم شُرورُها ﴿حتَّى يَأتِيَ وَعدُ ا للهِ﴾ أي: مَوتُهم؛ ﴿إنَّ ا لله لاَ يُخلِفُ المِيعاد(٣١)﴾.

---

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «تسيير».

٢ - فِي الأصل: «تنبيههم»، وهو خطأ.

٣ - سورة الأنعام، ١١١، وتمامها: ﴿ولو أنَّنا نَزَّلنَا إليهم الملائكة وكلَّمهم الموتى وحشرنا عليهم كلَّ شيء قُبُلا ما كانوا لِيُؤمنوا إلاَّ أنْ يشاء ا لله ولكنَّ أكثرَهم يَجهلونَ﴾.

٤ - سورة التوبة: ٥٥.

٥ - سورة الشورى: ٣٠.

﴿وَلَقَد استُهزِئَ بِرسُلٍ مِن قَبلِك﴾ كمَا استُهزِئَ بِكَ، ﴿فأملَيْت للَّذين كَفَرُوا﴾، الإملاَءُ: الإمهَالُ، وأن يترك ملاوة [1] مِنَ الزَّمان فِي حفظٍ وأمنٍ، ومِنهُ الملوان: الليل والنهار؛ ﴿ثُمَّ أَخذتُهم﴾ (لعلَّه) بالهلاك، ﴿فَكيفَ كَانَ عِقَابِ(٣٢)﴾ وهذا وعيدٌ لَهُم، وجوابٌ عَن اقتِراحِهم الآيات عَلَى رَسول الله استهزاءً بِهِ، وتَسلِيَةٌ لَهُ.

﴿أفَمَن هُوَ قَائِمٌ﴾ احتِجَاجٌ عَلَيْهِم فِي إشراكهم با لله، يَعنِي: فا لله الذِي هُوَ رقيبٌ ﴿عَلَى كُل نَفس﴾ صَالِحَةٍ [٢٧٩] أو طالحةٍ ﴿بِمَا كَسَبَت﴾ يَعلَم خَيرهَا وشرَّها، ويُعِدُّ لِكُلٍّ جَزاءَه، كمَنْ لَيسَ كذلك؛ ثُمَّ استَأنَفَ فَقال: ﴿وجَعلُوا لله شُركَاءَ﴾ أي: آلهةَ الألوهيَة وغيرَها ﴿قُلْ: سَمُّوهُم﴾ بَينُوا أسماءَهم لَهُ مَن هُم؛ ثُمَّ قَالَ: ﴿أَمْ تُنَبِئُونَه بِمَا لاَ يَعلَمُ فِي الأَرْض﴾ أي: بَل أَتُنَبِئُونَه بِشُرَكَاءَ لاَ يَعلَمُهم فِي الأَرْض، وَهُوَ العالِمُ بِمَا فِي السَّمَاوَات والأَرْض؛ فإذا لم يَعلَمْهُم عُلِمَ أَنَّهم لَيسُوا بِشَيءٍ، والمُرادُ نَفيُ أنْ يكونَ لَهُ شُركاءُ. ﴿أمْ بِظاهِرٍ مِنَ القَوْلِ﴾ بَلْ أتُسمُّونَهم بِشُركَاء بظاهِرٍ مِنَ القَوْلِ مِن غَير أنْ يَكونَ لِذلك حقيقةٌ، كَقَوْلِه: ﴿ذَلِكَ قَولُهم بِأفوَاهِهِم﴾[2]، ﴿مَا تَعبُدُون مِن دُونِه إلاَّ أسماءً سَمَّيتُموهَا﴾[3]؛ ﴿بَلْ زُيِّن لِلَّذين كَفرُوا مَكرُهُم﴾

١ - المِلاوة والمُلاوة والمَلاوة، والمَلا، والمَلِيُّ، كلُّه: مدَّة العيش، وقد تملَّى العيشَ، ومُلِّيَه، وأملاه الله إيَّاهُ وملاَّه، وأملى الله له: أمهله، وطوَّل له». ابن منظور: لسان العرب، ٥/٥٣٢. مادَّة «ملا».

٢ - سورة التوبة: ٣٠.

٣ - سورة يوسف: ٤٠.

كَيْدُهم للإسلام بشركِهم ﴿وَصَدُّوا﴾ وصَرفُوا ﴿عَنِ السَّبيلِ﴾ (لعلَّه) وَهُوَ الدينُ، ﴿ومَن يُضلِلِ ا لله فَمَا لَهُ مِن هَادٍ(٣٣)﴾ مِن أحدٍ يَقدِر عَلَى هِدَايَتِه.

﴿لَهُم عذابٌ فِي الحياة الدُّنْـيَا﴾ بِكُلِّ مَا يَسُوؤُهم ويَسُرُّهم فِي الحياة الدُّنْيَا، لأَنَّهُ يُؤدِّي بهم إِلَى العذاب الأكبَرِ، والمُؤمنون سَالِمون مِن عذاب ا لله فِي الدُّنْـيَا والآخرة، وإنْ سَاءَهم شيءٌ فِي الدُّنْـيَا فذلك ليس بعذابٍ (لعلّه) فِي الحقيقة، وَهُوَ[1] نعمةٌ، لأَنَّهُ يُؤدِّي بهم إِلَى النعمة الدائِمَة، ﴿ولَعذَابُ الآخِرَة أَشقُّ﴾ أشدُّ، لدوامه وتعاظمه وتضاعفه، ﴿وَمَا لَهُم مِنَ ا لله من واقٍ(٣٤)﴾ يقيهم العذابين.

﴿مثل الجَنَّة التِي وُعِدَ المتَّقون﴾ صفتها التِي هِيَ فِي غرابة المثَل، ﴿تجري من تحتها الأنهار أُكُلُهَا دائِمٌ﴾ ثمرها دائم الوجود لاَ ينقطع وَلاَ يمنع، ﴿وظلُّها﴾ دائم لاَ يُنسَخ كما يُنسَخ فِي الدُّنْيَا بالشمس، ﴿تلك عُقبَى الذِينَ اتَّقَوا﴾ أي: الجنّة الموصوفة عُقبَى تقواهم، يعني: منتهى أمرهم، ﴿وعُقبَى الْكَافِرِينَ النارُ(٣٥)﴾.

﴿ وَالذِينَ آتيناهم الكتاب﴾ يريد من أسلم مِنْهُم، ﴿يفرحون بِمَا أنزل إليك[2]؛ ومن الأحزاب﴾ أي: ومن أحزابهم، (لعلّه) وَهُم كفرتهم الذِينَ تحزَّبوا عَلَى رسول ا لله بالعداوة، ﴿من يُنكِر بعضه﴾ لأنَّهم كَانُوا لاَ ينكرون

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «وإنَّما هو».

٢ - في الأصل: - «﴿يفرحون بما أنزل إليك﴾» وَهُوَ سهو.

الأقاصيص وبعض الأحكام والمعاني، مِمَّا [هو] ثابت فِي كُتُبِهِم، وكَانُوا ينكرون نبوّة محمّد ﷺ، وغير ذلك مِمَّا حرَّفوه وبدَّلوه مِنَ الشرائع[1]، ﴿قل: إِنَّمَا أُمِرتُ أن أعبدَ الله وَلاَ أُشرِكَ بِهِ﴾ هُوَ جواب للمنكرين، أي: قل: إِنَّمَا أُمرتُ فيما أُنزِلَ إليَّ بأن أعبُدَ الله وَلاَ أُشرِكَ بِهِ، فإنكاركم [له إنكار][2] لعبادة الله وتوحيده، فانظروا ماذا تنكرون، مَعَ ادِّعائكم وُجوبَ عبادةِ الله، وأن لاَ يُشرَكَ بِهِ، ﴿إِلَيْهِ أدعو﴾ خصوصًا لاَ أدعو إِلىَ غيره، ﴿وَإِلَيْهِ مآب(٣٦)﴾ مَرجِعِي، وأنتم تقولون مثل ذَلِكَ فلا معنى لإنكاركم.

﴿وكذلك أنزلناه﴾ ومثلُ ذَلِكَ الإنزال أنزلناه، مأمورًا فِيهِ بعبادة الله وتوحيده، والدعوة إِلَيْهِ وَإِلىَ دينه، والإنذار بدار الجزاء، ﴿حُكمًا عربيًّا﴾ حِكمة عربيَّة مترجمة بلسان العرب، ﴿ولئن اتَّبعتَ أهواءهم﴾ وسبب اتِّباع أهوائهم اتِّباعُ هواه، ﴿بعدما جاءك مِنَ العلم﴾ أي: بعد ثبوت العلم بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة، ﴿مَا لك مِنَ الله من وليٍّ وَلاَ واقٍ(٣٧)﴾ أي: لاَ ينصرك ناصر ولا يقيك مِنْهُ واق، وهذا من باب التهييج والبعث للسامعين عَلَى الثبات فِي الدين، وأن لاَ يَزِلَّ زالٌّ عند الشبهة بعد استمساكه بالحجَّة، وَإِلاَّ فكان رسول [٢٨٠] الله من شدَّة الثبات بمكَان، وكَانُوا يعيبونه بالزواج والأولاد[3]، ويقترحون عليه الإناث، وينكرون النسخ، فنزل:

---

١ - في الأصل: «الشريع»، وهو خطأ.

٢ - إضافة من الزمخشري: الكشّاف، ٢/٤١٥.

٣ - في الأصل: «ولولاد»، وهو خطأ.

**﴿وَلَقَد أرسلنا رُسُلاً من قبلِك وجعلنا لَهُم أزواجًا وذُريـــَّة، وَمَـا كَـانَ لرسول أن يأتي بِـآيَـةٍ إِلاَّ بإذن ا للهِ﴾** أي: ليس فِي وُسعِهِم إتيان الآيات عَلَـى مَا يقترحه قومه، وإنَّما ذَلِكَ إِلىَ ا للهِ، **﴿لِكُل أَجَلٍ كِتَـابٌ(٣٨)﴾** لِكُلِّ وقت حُكمٌ عَلَى العباد، أي: يُفرَض عَـلَـيْـهِـم ولهم، عَلَى مَا تقتضيه حكمته.

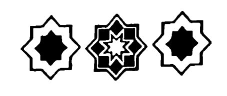
**﴿يمحو ا للهُ مَا يَشَـاء﴾** ينسخ ا لله مَا يَشَـاء نَسخَه **﴿ويُـثْـبِتُ﴾** بَدَلَـه مَـا يَشَـاء، أو يُنزِّله غير منسوخ، أو يمحق كفر التائبين، ويبطل ثواب مـن عصى، ويثبت ضـدَّه، **﴿وعنـده أمُّ الكتـاب(٣٩)﴾** أصلُ كُـلِّ كتـاب وَهُـوَ اللـوح المحفوظ، لأنَّ كلَّ كائنٍ مكتوب فِيهِ؛ أو علمُه الذِي استأثر بِهِ.

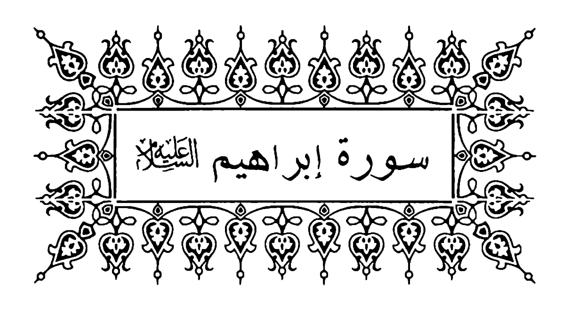
**﴿وإن مَّا نُرِيَنَّك بعضَ الذِي نَعدُهم أو نَتَوَفَّينَّـك فَإِنـَّمَا عليكَ البـلاغ﴾** فما يجب عليك إِلاَّ تبليغ الرسالة، **﴿وعلينا الحساب(٤٠)﴾** وعلينـا حسـابهم وجزاؤهم عَلَى أعمالهم، فلا يهمَّنَّـك إعراضهم وَلاَ تستعجل بعذابهم.

**﴿أولم يروا أنَّـا نأتي الأَرْض﴾** أرض الكفـر، **﴿نَنقُصُهـا مـن أطرافهـا﴾**؟ بِمَا نفتح عَلَى الـمُسْلِمِينَ من بلادهم، فـنُنقِصَ مـن دار الحـرب ونَزِيـدَ فِي دار الإسـلام؛ وقيـل: المـراد أرض الإسـلام، ونـنـقصها: بمـوت العلمـاء وذهـاب الفقهاء، **﴿وا للهُ يحكُمُ لاَ مُعقِّـبَ لِحُكمِـهِ﴾** لا رادَّ لِحُكمِـهِ؛ والـمُعقِّب الـذِي يستولي عَلَى الشيء فيبطله، وحقيقته الذِي يُـقـفِّيه بـالردِّ والإبطـال، والمعنـى: أنَّه حكم للإسلام بالغلبة والإقبال، وَعَلَى الكفر بالإدبار والانتكـاس، **﴿وَهُـوَ سريع الحساب(٤١)﴾** فعمَّا قليل يحاسبهم فِي الآخِرَة بعد عذاب الدُّنْـيَا.

﴿**وقد مَكَرَ الذِينَ من قبلهم**﴾ كفّار الأممِ الخالية بأنبيائهم، والمكر: إِرَادة المكروه فِي خِفيَةٍ، ثُمَّ جعل مكرهم ليس بشيء بالإضافة إِلىَ مكره، ﴿**فلله المَكرُ جميعًا**﴾ ثُمَّ فسَّر ذَلِكَ بقوله: ﴿**يعلمُ مَا تكسبُ كُلُّ نفسٍ، وسيعلم الكُفَّار لمن عُقبَى الدار(٤٢)**﴾ يعني العاقبة المحمودة، لأنَّ من عَلِمَ مَا تكسبُ كلُّ نفس وأعدَّ لها جزاءها فله المكرُ كُلُّه، لأَنَّهُ يأتيهم من حيث لاَ يَعْلَمُونَ وَهُم فِي غفلة مِمَّا يُرَادُ بهم.

﴿**ويقولُ الذِينَ كَفَرُوا: لستَ مُرسَلاً، قل: كفى با لله شهيدًا بيني وبينكم**﴾ لِمَا أظهَرَ مِنَ الأدلَّة عَلَى رسالتي، ﴿**ومن عنده علمُ الكتابِ(٤٣)**﴾ يريد مؤمني أهل الكتاب؛ وقيل: جبريل؛ وقيل: هُوَ ا لله، و«الكتاب»: اللوح المحفوظ؛ وقيل: القرآن، ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾: العلماء بدين ا لله.





# سورة إبراهيم عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر كِتَابٌ﴾ أي: هَذَا كتاب، يعني: السورة والجملة التِي هِيَ...[1] ﴿أنزَلنَاهُ إليكَ لتُخرِجَ الناس﴾ بدعائك إيَّاهم، ﴿من الظلمات إِلَى النور﴾ مِنَ الضلالة إِلَى الهدى ﴿بإذن رَبهم﴾ بتيسيره وتسهيله، مِنَ الإذن الذِي هُوَ تسهيل للحجاب، وذلك مَا يمنحهم مِنَ التوفيق، ﴿إِلَى صِرَاطِ﴾ بدلٌ مِنَ «النور» ﴿العزيز﴾ الغالب بالانتقام، ﴿الحميد(١)﴾ المحمود عَلَى الإنعام.

﴿ا لله الذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْض﴾ خلقًا ومُلكًا، ﴿وويلٌ﴾ وَهُوَ نقيض [٢٨١] النجاة ﴿للكَافِرِينَ من عذابٍ شديدٍ(٢)﴾ لعلّه فِي الدارين.

﴿الذِينَ يستحبُّون﴾ يختارون ويُؤثِرون ﴿الحياة الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَة ويصدُّون عَن سبيل ا لله﴾ طاعته، ﴿ويَبغُونَهَا﴾ أصله: ويبغون لها، ﴿عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضلالٍ بعيدٍ(٣)﴾ عَن الهدى، ولو استحبٌّ الحياة الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَة بحرف وَاحِد من دين ا لله، وَهُوَ أن يترك لَهُ أمرًا مِمَّا أمره بِهِ، أو يرتكب لَهُ نهيًا مِمَّا نهاه عَنْهُ، فقد آثر الحياة الدُّنْيَا (لعلّه) عَلَى موافقة حكم

---

١ - كذا فِي الأصل، ويبدو أنَّ فِي العبارة سقطا.

ا لله فِي ذَلِكَ الحرف، وصَدَّ نفسه عَن سلوك سبيل ا لله وعوَّج سبيلَ ا لله المستقيمة. (لعلَّه) ومن سلك باعوجاجه هُوَ عنها وزُيِّنت له سبيله العوجاء بِهَوَاهُ وعَمائِه، وظنَّ أنَّها مستقيمة، وَهُوَ يمشي إِلَيْها مُكِبًّا عَلَى وجهه، كما قَالَ: ﴿ومن يُشرِك با لله فكأنَّما خرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ منزلته التِي كَانَ عليها، ﴿فتخطَّفُه الطيرُ أوتهوي بِهِ الريح فِي مكَانٍ سحيق﴾[1].

﴿وَمَا أرسلنا من رَسُولٍ إلاَّ بلسانِ قَومِهِ﴾ إلاَّ متكلِّمًا بلُغتِهم ليفهموا عَنْهُ، ﴿لِيُبينَ لَهُم﴾ مَا هُوَ مبعوث بِهِ وَلَهُ، لئلاَّ يكون لَهُم حُجَّة عَلَى ا لله، وأن يقولوا: لم نفهم مَا خُوطِبنَا بِهِ، فإن قلت: إنَّ رسولنا عَلَيْهِ السَّلاَم بُعِثَ إِلَى الناس جميعًا بقوله: ﴿قل يَا أَيُّهَا الناس إنِّي رسول ا لله إليكم جميعا﴾[2] بَل إِلَى الثَّقلين، قلنا: نزوله بجميع الألسنة، أو بِوَاحِدٍ مِنها، فلا حاجَة إِلَى نُزولِه بِجميع الألسِنة، فإنَّ الترجمة تنوب عَن ذَلِكَ، وكَانَ لسان قومه أولى بالتعبير، لأنَّهم أقدر عَلَى التعبير؛ ﴿ فَيُضِلُّ ا لله من يَشَاءُ﴾ من آثَرَ (لعلَّه) أسباب الضلال، ﴿ويهدي من يَشَاءُ﴾ من آثر أسباب الاهتداء، ﴿وَهُوَ العزيزُ﴾ فلا يُغلَبُ عَلَى مشيئته ﴿الحكيمُ(٤)﴾ لاَ يَخذُلُ إلاَّ من خَذَلَ نفسه؛ وإذا لم تكن حُجَّة لجنِّيٍّ وَلاَ لعجميٍّ فِي مخالفة الحقِّ بالعرب الذِينَ أُنزِلَ الكتاب بِلُغَتِهِم، لأَنَّ إِنزَالَهُ عَلَى كَافَّة الثقلين ـ مِنَ الجنِّ والإنس، والعرب والعجم، والحضر والبدو، وَالذِينَ شاهدوا الرسول، وَالذِينَ غابوا عَن الرسول فِي حياته، أو

---

١ - سورة الحج: ٣١.

٢ - سورة الأعراف: ١٥٨.

حَدَثُوا بعد وفاته إِلَىٰ يوم القيامة ـ وَاحِدٌ، لأَنَّهُ مرسولٌ إِلَيْهِم كَافَّةً بقوله: ﴿قل يَا أَيُّهَا الناس إِنِّي رسول الله إليكم جميعا﴾[1] والجنُّ داخلون فِي جميع مَا خاطب الله بِهِ الناس.

**﴿وَلَقَد أرسلنا موسى بِآيَاتِنا، أن أَخرِجْ قومَكَ مِنَ الظلمات إِلَىٰ النور وذكِّرهم بأيَّام الله﴾** وأنذرهم بوقائعه التِي وقعت عَلَى الأمم قبلهم، أو بأيَّام الإنعام، أو بأيَّام الحساب والجزاء. **﴿إنَّ فِي ذَلِكَ لآيات لِكُل صبَّارٍ﴾** (لعلّه) عَلَى البلايا، **﴿شَكُورٍ(٥)﴾** عَلَى العطايا.

**﴿وإذ قَالَ موسى لقومه: اذكروا نعمة الله عليكم﴾** لتشكروها، **﴿إذ أنجاكم من آل فرعون يَسُومُونَكُم سُوءَ العذابِ ويُذَبِّحون أبناءكم ويَستحيُونَ نِسَاءَكُم﴾** يتركونهنَّ أحياء للخدمة، **﴿وفي ذلكم بلاءٌ من رَبِّكُم عظيمٌ(٦)﴾** الإشارة إِلَىٰ العذاب، والبلاء: المحنة؛ وإلى الإنجاء، والبلاء: النعمة، ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[2].

**﴿وإذ تأذَّن ربُّكُم﴾** أي: أذن رَبُّكُم إيذانا بليغا تنتفي عنده [٢٨٢] الشكوك والشبهات. **﴿لئن شَكَرتم لأزيدنَّكم﴾** نعمةً إِلَىٰ نعمةٍ؛ فالشكر: "قيد الموجود، وصيد المفقود"، وإذا سمعت النعمة نعمة الشكر تأهَّبت للمزيد[كَذَا]. وقال ابن عبَّاس: «لئن شَكرتمْ بالجدِّ فِي الطاعة ليزيدنَّكم بالجدِّ فِي المثوبة»، **﴿ولئن كَفرتُم إنَّ عذابي لشديدٌ(٧)﴾** لمن كفر نعمي، أمَّا فِي الدُّنْيَا فسَلْبُ النعم، وَأَمَّا فِي العقبى فَتوَالِي النقَمِ.

---

١ - سورة الأعراف: ١٥٨.

٢ - سورة الأنبياء: ٣٥.

﴿وقال موسى: إن تكفـرُوا أنتُـم ومـن فِي الأَرْض جميعًـا فـإنَّ ا الله لغـنيٌّ حميدٌ(٨)﴾ وإن لم يَحمَدهُ الحامدون.

﴿أَلم يأتكم نبأُ الذِينَ مـن قبلكـم قـومِ نـوحٍ وعـادٍ وثمـودَ، وَالذِيـنَ مـن بعدهم لاَ يعلمُهم إِلاَّ[1] ا الله﴾ والمعنى: أنـَّهم مِنَ الكـثرة لاَ يَعلَـم عددهـم إِلاَّ ا الله، ورُوِيَ أنـَّه الطَّيْلا قَـالَ عنـد نـزول هَـذِهِ الآيـة: «كـذب النسَّـابون»[2]. ﴿جاءتهم رسلهم بِالبَـينَـاتِ﴾ الواضحات، ﴿فردُّوا أيدِيَهم فِي أفواهِهِم﴾، أي: أخذوا أناملهم بأسنانهم، أو عضُّوا عليها تغيُّظا[3]، ﴿وَقَالُوا: إنـَّا كفرنـا بِمَا أُرسِلتُم بِهِ، وَإِنـَّا لَفِي شكٍّ مِمَّا تدعونَنَا إِلَيْـهِ﴾ مِنَ الإيمان با الله والتوحيد لَهُ، ﴿مُريبٍ(٩)﴾ مُوقِعٍ فِي الريبة.

﴿قالت رسلهم: أَفِي ا اللهِ شكٌّ فـاطرِ السَّـمَاوَات والأَرْض، يَدعُوكُـم لِيَغْفِرَ لكم من ذنوبكم ويؤخِّركم إِلىَ أجلٍ مسـمًّى؟ قَـالُوا إن أنتُـم إِلاَّ بشـرٌ مثلنا﴾ لاَ فضل لكم علينا، فلِمَ تُخَصُّونَ بالنبوَّة دوننا، ﴿تُريدُون أن تصدُّونـا عَمـَّا كَانَ يعبُدُ آباؤنَا﴾، أي: يتَّبعون أهواءهم بغير الحقِّ، وَلاَ يعتقدون فيمَـا بَيْنَـهُم دينـا وَلاَ إسلامًا، ﴿فأتونـا بسـلطانٍ مُبِـين(١٠)﴾ بحجَّـة بيِّنـة؛ وقـد جاءتهم رسلهم بالبيِّنات، وإنـَّما أرادوا بالسلطان المبين: آية قد اقترحوها تعنُّتا وتواريا عَن الحقِّ.

---

١ - في الأصل: - «إلاّ» وهو سهو.

٢ - لم نقف عَلَيه في الربيع ولا في الكتب التسعة.

٣ - في الأصل: «تغيضا»، وهو خطأ.

﴿قالت لَهُم رُسُلُهُم: إن نَّحْنُ إلاَّ بشرٌ مثلُكُم﴾ فِي الخلق تسليم لقولهـم: إنَّـهم بشرٌ مثلُهُم، ﴿ولكنَّ ا لله يَمُـنُّ عَلَى مـن يَّشَـاء مـن عبـاده﴾ بالإيمـان والنبوَّة والرسالة والعلم. ﴿وَمَا كَانَ لَنَـا أن نـأتيكم بسـلطان إلاَّ بـإذن ا لله﴾ جـواب لقولهـم: «فأتونـا بسـلطان مبـين»، والمعنـى: أنَّ الإتيـان بالآيـة التِـي اقترحتموها ليس إلينا، وَلاَ فِي استطاعتنا، وإنَّـما هُـوَ أمرٌ يتعلَّـق بمشيئة ا لله، ﴿وعلى ا لله فليتوكَّلِ المؤمنُونَ(١١)﴾ أمرٌ مِنْـهُم للمؤمنين كَافَّـة بـالتوكُّل، وقصدوا بِهِ أنفسهم قصدًا أوَّليًّـا، كأنَّـهم قَـالُوا: ومـن حقِّنـا أن نتوكَّـل عَلَـى ا لله فِي الصبر عَلَى معاندتكم ومعاداتكم وإيذائكم.

ألا ترى إلَى قوله: ﴿وَمَا لَنَـا ألاَّ نتوكَّل عَلَى ا لله﴾ أي: وأيُّ عذر لَنَـا فِي أن لاَ نتَّكِلَ عَلَى ا لله، ﴿وقد هَدَانَا سُبُلَنَا﴾، وقد فعل بنـا مَـا يُوجِـبُ توكُّلنـا عليه، وَهُوَ التوفيق لـهـداية كلٌّ منَّـا سبيله الذِي يجب عليـه سُلُوكُه فِي الديـن. قَالَ أبو تراب: «التوكُّل: طـرح البـدن فِي العبوديَّـة، وتعلُّـق القلـب بالربوبيَّـة، والشكر عند العطاء، والصبر عَلَى البلاء»؛ ﴿ولنصبرَنَّ عَلَـى مَـا آذيتمونـا﴾، أي: (لعلَّه) صمَّموا عَلَى الصبر عَلَى أذاهم، وأن لاَ يعرجوا عَن سلوك طريقتهم إلَى رضـى مولاهـم، ﴿وعلـى ا لله فليتوكَّـل المتوكِّلُونَ(١٢)﴾ أي: فليثبـت المتوكِّلون عَلَى توكُّلهم.

﴿وقال الذِينَ كَفَرُوا لرُسُلهم: لَنخرجنَّكـم مـن أرضنـا﴾ مـن ديـارنا، ﴿أو لتعُودُنَّ [٢٨٣] فِي مِلَّتِنَا﴾ أي: لَيكونَـنَّ أحـد الأمريـن: إخراجُكـم، أو عودُكم؛ وهكذا عادةُ الـمُختلفين فِي الدين. ﴿فأوحى إلَـيْهِم رَبُّـهم: لَنُهلكَـن

**الظالمِينَ(١٣) ولنُسكِنَنَّكُم الأَرْضَ مِن بَعدِهِم﴾** أي: أرضَ الظالمين وديارَهم. فِي الحديث: «*من آذى جارَه ورَّثه الله داره*»[1]؛ **﴿ذَلِكَ لِمَـن خـافَ مَقـامِي وخافَ وعِيدِ(١٤)﴾** بالجزاء.

**﴿واستفتَحُوا﴾** واستَنصَروا الله عَلَى أعدائهم بالدعاء والمجاهدَة، **﴿وخَابَ كُلُّ جَبَّار﴾** وخسِر كلُّ مُتكبِّرٍ بَطِرٍ **﴿عنيدٍ(١٥)﴾** مُجانِبٍ للحقِّ، معناه فنُصِروا وظَفَروا وخابَ كلُّ جبَّار عنيدٍ، وَهُم قومُهم.

**﴿مِن وَرائِه جهنَّمُ﴾** مِن بَين يدَيه وَهُوَ عَلَى شفيرها **﴿ويُسقَى﴾** تَقديـرُه: مِن ورائه جهنَّم يُلقى فِيهَا مَا يُلقـى ويُسقى **﴿مِن ماءٍ صَديدٍ(١٦)﴾** مَاء يَسيل مِن جُلود أهل النار.

**﴿يتجرَّعُه﴾** يشربه جُرعةً جُرعةً لِمَرارته وحَرارته **﴿ وَلاَ يكـادُ يُسيغُه﴾** ولا يُقارِب أن يُسيغَه، فكيف تَكون الإساغَةُ؟! كقولـه: **﴿لم يكـد يَراهَـا﴾**[2] أي: لم يقرُب مِن رُؤيَتِها، فكيف يَراهَا؟!؛ **﴿ويأتيـه الموتُ مِن كُـل مَكـانٍ﴾** أي: أسبابُ الموت من كلِّ جهة، أو من كُلِّ مكَانَ من جسـده، حتَّى أُصول شعره وإبهام رِجليه؛ وقيل: يأتيه الموت من قُدَّامه وورائه ويمينه وشماله؛ وهـذا تفظيع لِـمَا يُصيبُه مِنَ الآلام، أي: لو كَانَ ثَمَّة مَوتٌ لكَانَ منها مُهلكا؛ **﴿وَمَا هُوَ بمَيـت﴾** فيَستريح، لأَنـَّهُ لو كَانَ هُنـالك مَوْت لكَـانَ نعمـةً لأهـلِ النـار، لأَنـَّهُ أسـرعُ انقضـاءً مِنَ العـذاب الـمُؤبَّد، **﴿ومِن وَرائِـه﴾** ومِـن بَـين يَدَيـهِ

---

١ - لم نعثر عَلَيه فِي الربيع ولا فِي الكتب التسعة، ولا فِي الجامع الصغير وزياداته.

٢ - سورة النور: ٤٠.

﴿عذابٌ غليظٌ(١٧)﴾، أي: فِي كلِّ وقتٍ يستقبلُه يَتلقَّى عذابا أشدَّ مِمَّا قبلَه وأغلظَ؛ وقيل: هُوَ قطعُ الأنفاس وحبسُها فِي الأجساد؛ وقيل «العذاب الغليظ»: الخلود فِي النار.

﴿مَثَلُ الذِينَ كَفَرُوا بِرَبهم﴾ والمثَل مُستَعار للصِّفة التِي فِيهَا غَرابَة؛ ﴿أعمالُهم كَرمَادٍ اشتدَّت بِهِ الريح فِي يوم عاصِف﴾ أعمالُ الكفرة، المكارمُ التِي كَانَت لَهُم من صلة الأرحام، وعتقِ الرقاب، وفداءِ الأسارى، وعقرِ الإبل للأضياف، وأداءِ الفرائض، والتوسُّلِ بالوسَائِل وحُسنِ (لعلَّه) الأخلاق للناس، شبَّهها فِي حُبوطِها لِبنائِها عَلَى غير أساسٍ، وَهُوَ استكمال الطاعة بِرمادٍ طيَّرَته الريح العاصف؛ ﴿لاَ يَقدِرون﴾ يَوم القيامة ﴿مِمَّا كسبوا﴾ من أعمالهم ﴿عَلَى شَيء﴾ أي: لاَ يَرون لَهُ أثرًا[1] مِن ثَواب، كَمَا لاَ يُقدَرُ مِنَ الرماد المُطيَّر فِي الجوِّ بالرِّيح عَلَى شيءٍ؛ ﴿ذَلِكَ هُوَ الضلالُ البعِيدُ(١٨)﴾ إشارةٌ إِلَى بُعدِ ضلالهم عَن طَريق الثواب.

﴿ألم تَرَ﴾ ألم تَعلَم الخطاب لِكُلِّ أحدٍ، ﴿أنَّ ا لله خَلَقَ السَّمَاوَات والأَرْض بِالْحَق﴾ بالحكمةِ لأمرٍ عظيم لو علمتم، لاَ عبثا وَلاَ لعبا. ﴿إن يَّشأ يُذهِبكُم﴾ إن عصيتم، ﴿ويأتِ بِخلقٍ جَديد(١٩)﴾ أطوع، أي: هُوَ قادر عَلَى أن يُعدِمَ الناس ويخلق مكانهم خلقا آخر، اِعلَمْ بأنَّه قادرٌ عَلَى إعدام الموجود، وإيجاد المعدوم؛ ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى ا لله بِعزيز(٢٠)﴾.

---

١ - فِي الأصل: «أثر»، وَهُوَ خطأ.

﴿وبَرزُوا لله جميعا﴾ يَبرُزُون يَوم القيامَة مِن قُبورِهم، لأمر الله ومحاسبته؛ ومعنى بُروزهم لله ـ وَالله تعالى (لعلّه) لاَ يَتوارى عَنْهُ شيءٌ حتَّى يَبرُزَ لَهُ ـ ولكن[1] كَانُوا يَستَتِرون مِنَ العيون عند ارتكاب الفواحش[2] ويَظُنُّون أنَّ ذَلِكَ خافٍ عَلَى الله؛ [٢٨٤] فإذا كَانَ يومُ القيامة انكَشَفوا لله عند أنفسهم، وعلموا أنَّ الله لاَ تَخفى عليه خافية، وأُخرِجوا مِن قُبُورهم لِحساب الله وحُكمِه وجَزائِه.

﴿فقال الضُّعفاء﴾ فِي الرأي، وَهُم السفلة والأتباع ﴿للذين استكبَروا﴾ وَهُمُ السادة والرؤساء، الذِينَ استَغوَوْهُم، وصدُّوهم عَن الاستمَاع إلَى الأنبياء وأتباعهم، ﴿إنَّا كُنَّا لكم تَبَعًا﴾ تابعين، ﴿فَهَلْ أَنتم مُّغنونَ عَنَّا مِن عذاب الله مِن شيءٍ﴾؟ فَهَل تَقدِرون عَلَى دفع شيء مِمَّا نَحْنُ فِيهِ؟ كأنَّه قيل: فَهَل أنتم مُّغنون عنَّا بعض الشيء، الذِي هُوَ عذاب الله، ﴿قَالُوا﴾ لهم ﴿لَوْ هَدَانا الله﴾ إلَى الإيمان فِي الدُّنيَا، ﴿لَهَدَيناكم﴾ إلَيْهِ، ﴿سواءٌ علَينا أجَزِعنا أَمْ صَبَرنَا مَا لَنَا مِن مَّحيص(٢١)﴾ مَهرَب.

﴿وقَال الشيطان لَمَّا قُضِي الأمر﴾ حُكِمَ بالجنَّة والنار لأهلَيْهما، وكَانَ قوله عَلَى سياق قَولِ الذين...[3] الخطاب مِنَ الشيطان جوابٌ لأهلِ النار إذَا سألوه أنْ يُغنِيَ عَنْهُم من عذاب الله من شيءٍ، كما سأل الضعفاء الذِينَ

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «أنَّهم»، انظر: الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٤٢٧.

٢ - في الأصل: «الواحش»، وهو خطأ.

٣ - كذا في الأصل، ويبدو أنَّ في العبارة سقطا، تقديره: «استكبروا».

استكبروا؛ ﴿إِنَّ الله وعدكم وَعْدَ الحَقِّ﴾ وَهُوَ البعثُ والجزاءُ عَلَى الأعمال فَوفَّى بِمَا وعدَ؛ ﴿ووَعدتُكُم﴾ بِأَن لاَ بَعثَ وَلاَ حِساب، ﴿فأخلَفتُكم، وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلطَانٍ﴾ مِن تَسلُّطٍ واقتِدارٍ ﴿إلاَّ أنْ دَعَوتُكم﴾ لكنّي دعوتكم إلىَ الضلالة بِوَسوَسَتِي فِي تَزيِينِي، ﴿فاستجبتُم لِي﴾ فأسرعتُم إجابَتِي، ﴿فلا تَلُومُونِي﴾، لأنَّ مَن تَجرَّد للعداوة لاَ يُلامُ إِذَا دَعَا إلي أمرٍ قبيحٍ، مَعَ أَنَّ الله قَالَ لكم: ﴿لاَ يَفتِنَنَّكُم الشيطانُ كَمَا أخرَج أَبَوَيكُم مِنَ الجنَّة﴾[1]؛ ﴿وَلُومُوا أنفُسَكم﴾ حيث اتَّبعتموني بِلا حُجَّة وَلاَ بُرهَان، وَلاَ خَبرٍ وَلاَ سُلطان؛ ﴿مَا أنَا بِمُصرِخِكم﴾ بِمُغيثِكم، ﴿وَمَا أَنتُم بِمُصرِخِيَّ﴾ بِمُغِيثِي، أي: لاَ يُنجِي بَعضُنا بعضًا مِن عذاب الله وَلاَ يُغِيثُه؛ والإِصْرَاخ: الإغاثَةُ. ﴿إِنِّي كفَرتُ بِمَا أشرَكتُمُونِي مِن قَبْلُ﴾، أي: كَفَرت اليوم بإشراككم إيَّايَ مَعَ الله مِن قَبْلِ هَذَا اليومِ، أي: فِي الدُّنْيَا، لِقوله: ﴿ويَومَ القيامة يَكفُرُون بشِرككُم﴾[2]، ومعنى كُفره بإشراكهم إيَّاه: تَبرُّؤُه مِنْهُ، واستنكاره لَهُ، كقوله: ﴿إِنَّا بُرآءُ مِنكُم ومِمَّا تَعبُدون مِن دُونِ الله كَفَرنَا بِكُم﴾[3]، ومعنى إشراكهم الشيطانَ بالله: طاعتُهم لَهُ فيما كَانَ يُزَيِنُه لَهُم مِن عِبَادة غير الله، وهذا آخر قَولِ الشيطان، وقوله: ﴿إنَّ الظالمين لَهُم عذاب أليم(٢٢)﴾ قَوْلُ الله عزَّ وجلَّ، وقِيلَ: هُوَ مِن تَمَام قَول إبليسَ، وإنَّما حَكَى الله عزَّ وجلَّ مَا سَيَقُولُه فِي ذَلِكَ الوقت لِيَكون لُطفًا لِلسَّامِعِين.

١ - سورة الأعراف: ٢٧.

٢ - سورة فاطر: ١٤.

٣ - سورة الممتحنة: ٤.

﴿وأُدخِل الذِينَ آمنوا وعَمِلوا الصَّالحات جنَّاتٍ تَجرِي مِن تَحتِهـا الأنهـار خَالِدِين فِيهَا بِإذنِ رَبِّهِم تَحيَّـتُهم فِيهَا سَلامٌ(٢٣)﴾ مِن كُل نُقْصٍ وآفة.

﴿ألم تَرَ كيفَ ضَرَبَ الله مَثَـلاً﴾ أي: وصَفَـهُ وبيـَّنَه، ﴿كَلِمَـةً طيِّـبَة﴾ لِقائِلِها: هِيَ كلمةُ الحق وقول الصدق، ﴿كشجَرَة طَيِّـبَةٍ أصلُهَا ثَابتٌ﴾ أي: فِي الأَرْض، ضَـارِبٌ بِعُرُوقِـه فِيهَـا، ﴿وفُرعُهـا﴾ وأعلاهـا ورأسُـها ﴿فِي السَّمَـاء(٢٤)﴾. والكلمة الطيبة: كَلِمَة التوحِيد، أصلُهـا تَصديـقٌ بالجَـنَانِ، وفَرعُها إقْرَارٌ باللِّسانِ، وأُكلُها عَمَلُ الأَركَانِ، والشجرةُ: هِيَ النخلَة فِيمَا قِيلَ.

﴿تؤتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ تُعطِي ثَمَرها كلَّ وَقْتٍ لأنَّ [٢٨٥] الموحـد مُنعَمٌ عَلَى أي حالٍ كَـانَ، وفي أي حِينٍ كَـانَ، (لعلـَّه) لَـوْ اعتُبِرَت أحوَالُـه؛ ﴿بِإذْنِ رَبِّها، ويَضرِبُ الله الأمثالَ لِلنَّاس لَعَلَّهُـم يَتَذكَّرُونَ(٢٥)﴾ لأنَّ فِي ضربِ الأمثال زِيَادَةَ إفهَامٍ وتَذكُّرٍ وتصويرٍ للمعاني.

﴿ومَثَلُ كلِمَة خَبِيثَـةٍ﴾ لقائلها، هِيَ كلمة الكفـر، ﴿كَشَـجَرَةٍ خَبِيثَـةٍ﴾ قيـل: إنـَّها شـجرةُ الحَنـظَل، ﴿اجتُـثَّت مِـن فَـوقِ الأَرْض﴾ اسـتُؤصِلَت جُثَّتُها[1]، وحقيقة الاجتِثَاث: أخذُ الجُثَةِ كُلِّها، وَهُوَ فِي مقابلة: أصلُها، ﴿مَا هَا مِن قَرَارٍ(٢٦)﴾ استِقرَار، يُقالُ: قَرَّ الشيءُ قَرارًا، كقولك ثَبَتَ ثَبَاتًا، شُـبه بها القول (لعلَّه) الذِي لم يُعضَد بحُجَّة، فهو داحضٌ غَيرُ ثَابتٍ.

---

١ - في الأصل: «جثته»، وهو خطأ.

﴿**يُثَبِّتُ الله الذِينَ آمنوا**﴾ بالجزاء[كَذَا]، أي: يُديمُهم عليه، ﴿**بالقول الثابت**﴾، وَهُوَ قول الحق ﴿**فِي الحياة الدُّنْيَا**﴾ حتَّى إِذَا فُتِنُوا (لعلّه) عَلَى دينهم لم يَزِلُّوا، كما ثَبَّتَ الذين فتنهم أصحاب الأخدود، ﴿**وفِي الآخِرَة**﴾ عند البعث، ﴿**ويُضِلُّ الله الظالمين**﴾، فلا يثبتهم عَلَى القول الثابت فِي مواقف الفتن، وتَزِلُّ أقدامهم أوَّلَ شيء، وَهُم فِي الآخِرَة أضلُّ وأزلُّ، ﴿**ويفعلُ الله مَا يَشَاء(٢٧)**﴾، فلا اعتراض عليه فِي تثبيت المؤمنين وإضلال الظالمين.

﴿**ألم ترَ إِلَى الذِينَ بدَّلوا نعمةَ الله كفرًا**﴾ لأنَّهم وضعوا مكَانَ شُكرِها كفرًا، كأنَّهم غيَّروا الشكر (لعلّه) بالكفر، حتَّى استحالت النعمة نِقمةً فِي حقِّهم، وهذا عامٌّ لجميع الكَافِرِينَ، لأنَّ جميع الخلق إمَّا شاكر للنعمة، وَهُوَ الذِي يتوصَّل بها إِلَى النعمة الأبديَّة، وإمَّا[1] كافر لها، فهو فِي عذاب الله وغضبه فِي الدُّنْيَا والآخِرَة، ﴿**وأَحلُّوا قَومَهم**﴾ الذِينَ تابعوهم عَلَى الكفر ﴿**دارَ البوار(٢٨)**﴾ دار الهلاك. ﴿**جهنَّمَ يَصلونَهَا وبِئْسَ القرارُ(٢٩)**﴾ وبِئْسَ المقرُّ جهنَّمُ.

﴿**وجعلُوا لله أندادًا**﴾ أمثالا فِي العبادة أو فِي التسمية، ﴿**لِيُضِلُّوا عَن سبيله، قل: تمتَّعُوا**﴾ بعبادة آلهتكم متاعَ الحياة الدُّنْيَا. قَالَ ذو النون: «التمتُّع: أن يقضي[2] العبد مَا استطاع من شهوته». ﴿**فإنَّ مصيركم إِلَى النار(٣٠)**﴾ لأنَّ الكافر يتمتَّع بنعمة الله فِي الدُّنْيَا وتنقطع عَنْهُ فِي الآخِرَة،

---

١ - فِي الأصل: «وما»، وهو خطأ.

٢ - يمكن أن نقرأ: «يعصي»؛ وَهُوَ عكس المُرَاد.

فلا تُوصِلُه إِلَى النعيم الدائم، بَل تكونُ سبَبَ عذابِهِ فِي الآخِـرَة، فلذلـك يعذِّبـه الله بهـا فِي الحيـاة الدُّنْـيَا، كمـا قَـالَ: ﴿فـلا تُعجبـك أموالهـم وَلاَ أولادهم...﴾الآية[1].

﴿قل لِّعِبَادِيَ﴾ وقيل: بسـكون الياء، خصَّهـم بالإضافـة إِلَيْـهِ تشـريفا، ﴿الذِينَ آمنوا: يُقيمُوا الصلاة ويُنفِقوا مِمَّا رزقناهم سرًّا وعلانِيَةً، مـن قبـل أن يأتي يومٌ لاَ بيعٌ فِيهِ وَلاَ خلالٌ(٣١)﴾.

﴿الله الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْض، وأنزلَ مِنَ السَّمَـاء ماءً فـأخرج بِهِ مِنَ الثمرات رزقًا لكم﴾ إن شكرتموه، ﴿وسخَّر لكُـمُ الفلـك لتجـريَ فِي البحـرِ بِـأمرِهِ، وسـخَّر لكُـمُ الأنهـار(٣٢)، وسـخَّر لكـم الشـمسَ والقمـر دائِبين﴾ دائمَين أصلا، (لعلَّه) للأرض والنبات والأبدان، ﴿وسخَّر لكمُ الليـل والنهار(٣٣)﴾ يتعاقبان خِلفَةً، لمعاشكم وسُبَاتِكم ومعادكم.

﴿وآتاكم من كلِّ مَا سألتموه﴾ لعـلَّ سؤالهم لـه بلسـان الحـال، وذلـك أنـَّهم لا يَصلُحُونَ إِلاَّ بِهِ، لأَنـَّهُ هُوَ خالقهم وأعلم مِنـْهُم بأنفسـهم وإمدادهـم، وَمَا لاَ بدَّ لَهُم مِنـْهُ؛ ودليل ذَلِكَ قوله: ﴿وإن تَعُدُّوا نعمـةَ الله لاَ تُحصُوهَـا﴾، فكيف سألوه مَا لاَ يعلمونه؟ ولكنَّ الله [٢٨٦] خلقَ خلقَهُ، وخلق لهـم جميـع مَا لاَ بدَّ لَهُم مِنـْهُ فِي علمه تبارك وتعالى، علموه أو جهلوه، فكأنـَّهم سَأَلُوهُ مَا لاَ بدَّ لَهُم مِنـْهُ. ﴿وإن تَعُدُّوا نعمة الله لاَ تُحصُوهَا﴾ لا تُطِيقُوا عَدَّها وبلـوغ

---

١ - سورة التوبة: ٥٥؛ وتمامها: ﴿فلا تُعجبْك أموالهم ولا أولادهم، إنّما يُريد الله لِيُعذِّبَهم بها في الحياة الدنيا، وتَزهق أنفسُهم وهُم كافرون﴾.

آخرِهَا، إِذَا أرادوا أن يَعدُّوها عَلَى الإجمال، وَأَمَّا عَلَى التفصيل فـلا يعلمـه إلاَّ الله، ﴿إِنَّ الإنسان لظَلُومٌ﴾ يظلـم النعمـةَ بإغفـالِ شُـكرِهَا، لأنَّ جميـع طبـاع نفسه ظلم وكفـر، ﴿كَفَّارٌ(٣٤)﴾ لجميع نِعَـمِ الله التِـي ذكـرت، والـتي لم تذكر؛ لأنَّ جميع النعم خُلِقَت لأجله، وخُلِـقَ هُـوَ أن يُطِيـعَ الله بشـكرِهِ للنعـم كلِّها، فإذا أطاع الله وشكرها استغفَرَتْ لَهُ موافقةً لخالقها، وإذا كَفَرَهَا لعنَتْـهُ بأمرِ الله، لأنـَّها مطيعة غير عاصية.

﴿وإذ قَالَ إبراهيمُ: ربِّ اجعل هَذَا البلد آمنا، واجنبني﴾ وبعدني، أي: ثبتني وأَدِمنِي عَلَى اجتنابِ عِبادتها، ﴿وبَنِيَّ أن نعبدَ الأصنامَ(٣٥)﴾ وهـي: كلُّ مَا عُبِدَ من دون الله، من شيطان أو نفس أو هوى، أو صنـمِ حجـرٍ[1] أو خشبٍ أو غير ذَلِكَ، لكنَّه يَبعُد فِي القلوب عَن إبراهيم وبنيـه وأمثـالهم عَلَيْهِـمُ السلام أن يتَّخذوا أصنامًا آلهـة مـن خشـب أو حجـر أو جمـاد مـن دون الله، ولكنَّ الخوف من أهوية النفوس، لأنـَّها أضلَّـت كثيرًا مِنَ الناس، ولم يكـن ثَـمَّ ضلالة إلاَّ منها، كما قيل شعرًا:

لولا الهوى مَا هوى فِي النار إنسان

﴿ربِّ إنـَّهنَّ أضلَلْـنَ كثـيرًا مِـنَ النـاس﴾ جُعِلـنَ مُضِـلاَّت عَلَـى طريـق التسبُّب، لأنَّ الناس ضلُّوا بِسببهنَّ، وكأنـَّهنَّ أضللنـهُم؛ ﴿فمن تَبِعنِي﴾ عَلَـى ما أنا عَلَيه ﴿فإنـَّه منِّـي﴾ أي: هُوَ بَعضِي، لفرط اختصاصه، ﴿ومـن عصـاني فإنـَّك غَفُورٌ رحيمٌ(٣٦)﴾ لمن تابَ من معصيته.

---

١ - فِي الأصل: «حجرا أو»، وهو خطأ.

﴿رَبَّنا إنِّي أسكنتُ من ذُرِّيَّتِي﴾ بعض أولادي ﴿بوادٍ﴾ هُوَ وادي مكّة ﴿غيرِ ذي زرع﴾ لاَ يـُصلِح الزرعَ، ﴿عند بيتك المحرَّم، رَبـَّنَا لِيُقيمُوا الصلاة﴾، أي: مَا أسكنتُهُم بهذا الوادي البلقع إلاَّ لِيُقِيموا الصلاة عند بيتك المحرَّم، ويعمُرُوه بذكركَ وعبادتكَ، وكذلك قد أسكن ا الله خلقَه فِي أرضه لِيوحدوه ويَعبُدُوه، وَلاَ يُشرِكُوا بِهِ شَيْئًا، ﴿فاجعل أفئدةً مِنَ الناس تَهوِي إِلَيْهِم﴾ تُسرِعُ إِلَيْهِم، وتَطير نحوهم شوقًا، [وتكون] سببا لأرزاقهم؛ قيل: ولو قَالَ: «أفئدة الناس»، لزاحمتكم فارس والروم والتُّرك [و]الهند، ولكنّه قَالَ: ﴿أفئدةً مِنَ الناس﴾ وَهُم المُسْلِمُون، ﴿وارزُقهُم مِّنَ الثمرات﴾ مَعَ سكناهم وَاديًا مَا فِيهِ شيء منها، بِأن يُجلَب إِلَيْهِم مِنَ البلاد الشاسعة، ﴿لَعَلَّهُم يَشكرُونَ(٣٧)﴾ النعمة وَلاَ يكفرون.

﴿رَبَّنَا﴾ النداء المكرَّر دليله: التضرُّع والإلجاء[1] إِلَى ا الله، ﴿إنَّك تعلَمُ مَا نُخفِي وَمَا نُعلِنُ﴾، لأَنَّهُ العالم عِلمًا ذاتيًّا، تستوي نسبته إِلَى كل معلوم؛ ﴿وَمَا يَخفَى عَلَى ا الله من شيء فِي الأَرْض وَلاَ فِي السَّمَاء(٣٨)﴾، المعنى: أنَّك أعلمُ بأحوالنا ومصالحنا، وأرحم بنا مِنَّا بأنفسنا، فلا حاجة بنا إِلَى الطلب لكنَّا ندعوك إظهارًا لعبوديَّتِك، وافتقار إِلَى رحمتك.

﴿الحمد لله﴾ أي: المستحقُّ للحمد وإن لم يحمده حامد، ﴿الذِي وَهَبَ لِي عَلَى الكِبرِ إسماعيل [٢٨٧] وإسحاق، إن رَبِّي لسميع الدعاء(٣٩) ربِّ اجعلني مُقيمَ الصلاة ومن ذُرِّيَّتِي، رَبَّنَا وتقبَّل دعاء(٤٠)﴾ عبادتي. ﴿رَبـَّنَا اغفر لي ولوالدَيَّ وللمؤمنين يوم يقومُ الحساب(٤١)﴾ للجزاء.

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «الالتجاء».

﴿وَلاَ تحسبَّنَّ ا لله غافلاً عمَّا يَعملُ الظالمون﴾ تسلية للمظلوم، وتهديد للظالم، ﴿إنـَّمَا يُؤخِّرهم ليومٍ تَشخَصُ فِيهِ الأبصار(٤٢)﴾ أبصارهم لاَ تَقرُّ فِي أماكِنها من هَولِ مَا ترى.

﴿مُهطِعين﴾ مسرعين إِلىَ الداعي، ﴿مُقنِعي رُءوسِهِم﴾ رافعيها، ﴿لاَ يرتدُّ إِلَيْهِم طرفهم﴾، أي: لا ترجع إِلَيْهِم أبصارهم من شدَّة النظر، فهي شاخصة، قد شغلهم مَا بين أيديهم. ﴿وأفئدتُهم هواء(٤٣)﴾ صفر[1] مِنَ الخير، لاَ تَعِي شَيْئًا، مِنَ الخوف؛ وحقيقة المعنى: أنَّ العقول زائلة عَن أماكنها، والأبصار شاخصة من هول ذَلِكَ اليوم.

﴿وأنذرِ الناس[2] يوم يأتيهم العذاب﴾ عند قبض أرواحهم، أو يوم القيامة، ﴿فيقول الذِينَ ظلموا: رَبَّنَا أخِّرنا إِلىَ أجلٍ قريب نُجب دعوتَك ونتَّبعِ[3] الرسلَ﴾، أي: أَمهِلنَا إِلىَ حدٍّ قريب نتدارك مَا فرَّطنا فِيهِ، من إجابة دعوتك واتباع رسلك، فيُقال لَهُم: ﴿أولم تكونوا أقسمْتُم من قبلُ مَا لكم من زوال(٤٤)﴾ المعنى: أقسمتم أَنـَّكُم باقون فِي الدُّنْيَا لاَ تُزَالون بالموت؛ ولعلَّهم أقسموا بَطَرًا وغرورًا، إذ دَلَّ عليه حالهم حيث بنوا شديدا، وأملوا بعيدا، وقيل: أقسمتم أَنـَّكُم إِذَا متُّم لاَ تُبعَثون، كقوله: ﴿وأقسموا با لله جَهدَ أيمانهم لاَ يبعثُ ا لله من يموت﴾[4]، ويحتمل أنـَّهم أقسموا فِي الحياة الدُّنْيَا أنـَّهم مالهم من زوال عَن الطاعة ثُمَّ عصوا، وَا للهُ أعلم بتأويل كتابه.

---

١ - فِي الأصل: «صفرًا»، وهو خطأ.

٢ - فِي الأصل: «وأنذرهم» وهو خطأ.

٣ - فِي الأصل: «وانتبع»، وهو خطأ.

٤ - سورة النحل: ٣٨.

﴿وسَكَنتم فِي مساكن الذِينَ ظلموا أنفسَهم﴾ بالكفر أي: أقرُّوا فِيهَا واطمأنُّوا، طيبي النفوس، سائرين بسيرة مَن قبلهم مِنَ الظلم والفساد، لاَ يحدثونها بِمَا وقع عَلَى الأوَّلين؛ فكيف كَانَ عاقبة ظلمهم فيعتبروا ويرتدعوا، ﴿وتَبيَّنَ لكم﴾ بالأخبار والمشاهدة، ﴿كيف فعلنا بهم﴾، أي: أهلكناهم وانتقمنا مِنْهُم، ﴿وضرَبنَا لكُمُ الأمثال(٤٥)﴾، أي: صفات مَا فعلوا وَمَا فُعِلَ بهم، وهي فِي الغرابة كالأمثال[1] المضروبة لِكُل ظالم.

﴿وقد مكَرُوا مكرَهُم﴾ أي: مكرَهم العظيم الذِي استفرغوا فِيهِ جهدهم، وفنوا عليه أعمارهم، وأشغلوا بِهِ دهرهم، وَهُوَ مَا تهواه نفوسهم من تأييد الكفر وبطلان الإسلام، ﴿وعند الله مكرُهُم﴾، أي: جزاء مكرهم، أو وعند الله مكرُهُم الذِي يمكُرُهم بِهِ، وَهُوَ عذابهم الذِي يأتيهم من حيث لاَ يشعرون؛ ﴿وإن كَانَ مكرُهُم لِتزُول مِنْهُ الجبال(٤٦)﴾ وَهُوَ معنى قوله: ﴿وتخرُّ الجبال هَدًّا، أنْ دعوا للرحمنِ ولداً﴾[2] لِتُحطِّم الماكر أن لو يأذنُ الله لها؛ وقيل: إنَّ الجبال مثلٌ لآيات الله وشرائعه، لأنَّها بمنزلة الجبال الراسية ثباتا وتمكُّنا؛ وقيل: التقدير وإن وقع مكرهم لزوال أمر النبي ﷺ، فعبَّر (لعلّه) عَن أمر النبي ﷺ بالجبال لعِظَم شأنِه، ﴿فلا تحسبنَّ الله مُخلِف وَعدِهِ رُسُلَهُ﴾، معنى قوله: ﴿إنَّا لننصر رُسُلَنَا﴾[3]، ﴿إنَّ الله عزيزٌ﴾ غالبٌ لاَ يُمَاكَر، ﴿ذو انتقامٍ(٤٧)﴾ لأوليائه من أعدائه.

---

١ - في الأصل: «كأمثال»، وهو خطأ.

٢ - سورة مريم: ٩٠-٩١.

٣ - سورة غافر: ٥١.

﴿يوم تُبدَّل الأَرْض غيرَ الأَرْضِ والسماواتُ، وبرزوا لله [٢٨٨] الوَاحِدِ القهَّار(٤٨)، وترى المجرمين يومئذ مُقرَّنين﴾ قُرِنَ بعضهم مَعَ بعض، أو مَعَ الشياطين، أو قُرِنت أيديهم إِلىَ أرجلهم مُغلَّلِين ﴿فِي الأصفاد(٤٩)﴾، المعنى: مُقرَّنين مُصفَّدين، والأصفاد: القيود والأغلال.

﴿سرابيلُهم﴾ قُمُصُهم[١] ﴿من قطران﴾ هُوَ مَا يتحَلَّب من شجر يسمَّى: الأبهل، فيُطبَخ فتُهنأ به الإبل الجربى، فيحرق الجرب بحره وحِدَّته؛ ومن شأنه أن يسرع فِيهِ اشتعال النار، وَهُوَ أسود اللون مُنتِن الريحِ، فيُطلَى بِهِ جلود أهل النار، يعني يعود طلاؤه لَهُم كالسرابيل، فيجتمع عَلَيْهِم لذعُ[٢] القطران، وإسراعُ[٣] النار فِي جلودهم، واللون الوحش[٤] ونتن الريح، عَلَى أنَّ التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين؛ وكلُّ ما وعده الله أو أوعدَ بِهِ فِي الآخِرَة فبينه وبين مَا يشاهَد من جنسه مَا لاَ يُقَادَر قدرُه، وكأنَّه مَا عنده إلاَّ الأسامي [و]المسمَّيات ثمَّة[٥]؛ نعوذ بالله من سخطه وعذابه[٦]. وقيل: القطران نحاس

---

١ - فِي اللسان: «والجمع أقمصة، وقُمُص، وقُمصان». ابن منظور: لسان العرب، ١٦٢/٥.

٢ - «اللَّذع: حرقة كحرقة النار، وَقِيلَ: هو مسُّ النار وحدَّتها». ابن منظور: لسان العرب، ٣٦١/٥.

٣ - فِي الأصل: «سراع»، وهو خطأ. انظر: الزمخشري: الكشاف: ٤٤٢/٢.

٤ - هَذِهِ الكلمة أوردها صاحب الكشَّاف كذلك «الوحش»، (الزمخشري: الكشَّاف، ٤٤٢/٢)، ولم نعثر عَلَى معنى لها فِي اللسان يليق بالسياق، وَفِي تفسير أبي السعود: «الموحش»، ويبدو أَنَّهَا الصواب. أبو السعود: تفسير، ٦١/٥.

٥ - فِي الأصل: «إلاَّ الأسامي المسمَّيات وثمة»، وهو خطأ.

٦ - فِي الحاشية تعليق للناسخ غير واضح: «هذه زيادة فِي الدعاء وغيري دقرتها [كذا]».

مُذاب بلغ حرُّه أناه[1]؛ ﴿**وتغشى وجوههم النار(٥٠)**﴾ تعلوها باشتعالها، وخصَّ الوجه، لأَنَّهُ أعزُّ موضع فِي ظاهر البدن، كالقلب فِي باطنه، ولذا قَالَ: ﴿تطَّلع عَلَى الأفئدة﴾[2].

﴿**ليجزيَ الله كُلَّ نفس مَّا كسبت**﴾ من خير وشرٍّ، ﴿**إنَّ الله سريعُ الحساب(٥١)**﴾ يحاسب جميع العباد فِي أسرعَ من لمح البصر.

﴿**هَذَا**﴾ أي: هَذَا القرآن، مَا ذكره فِي هَذِهِ السورة، ﴿**بلاغٌ**﴾ أي: تبليغ وعِظَة لَهُم، ﴿**للناس**[3] **وليُنذَروا بِهِ وليَعلَمُوا أنَّما هُوَ إلهٌ واحدٌ**﴾ لأنَّهم إِذَا خافوا مَا أُنذِروا بِهِ دَعتهُم المخافة إِلَى النظر، حتَّى يتوصَّلوا إِلَى التوحيد، لأنَّ الحسنة أمُّ الخيرِ كلِّه، بَل أقول إِذَا (لعلَّه) وجدوا اخافوا. ﴿**وليَذَّكَّر أولو الألباب(٥٢)**﴾ ذوو[4] العقول لاَ غيرهم.

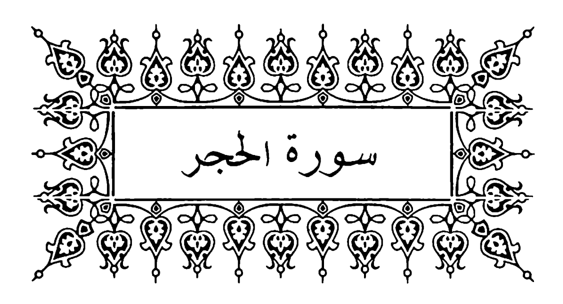
❀❀❀

١ - «الآني: المتناهي حرُّه». الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٤٤٢.

٢ - سورة الهمزة: ٧.

٣ - في الأصل: - «للناس»، وهو سهو.

٤ - في الأصل: «ذوا»، وهو خطأ.



# سورة الحجر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ألَرَ، تلك آيات الكتابِ وقرآنٍ مُبِينٍ(١)﴾ «تلك»: إشارة إِلَى مَا تضمَّنته السورة مِنَ الآيات، و«الكتاب»: القرآن؛ كأنَّه قيل: الكتاب الجامع للكمال والغرابة[1] فِي البيان.

﴿رُبما يَودُّ الذينَ كَفرُوا لو كَانُوا مُسْلِمِينَ(٢)﴾ عند النزع وَمَا بعده، ﴿ذَرهُم﴾ أمْرُ إهانةٍ، اِقطع طمعك من إرعوائهم، ودعهم عَن النهي عمَّا هم عليه، (لعلّه) بالتذكرة والنصيحة، وخلّهم ﴿يأكلوا ويتمتَّعوا﴾ بدنياهم، ﴿ويُلهِهِمُ الأمل﴾[2] مِنَ الإيمان وشروطه، ﴿فسوف يَعْلَمُونَ(٣)﴾ سوءَ صنيعهم؛ وفيه تنبيهٌ عَلَى أنَّ إيثار التلذُّذ والتنعُّم، وَمَا يؤدي إِلَيْهِ طول الأمل ليس من أخلاق المؤمنين.

﴿وَمَا أهلكنا من قرية إلاَّ ولها كِتَاب معلومٌ(٤)﴾ أي: أجلٌ مضروبٌ لاَ يتقدَّم وَلاَ يتأخَّر. ﴿مَا تسبقُ من أمَّة أَجَلَهَا وَمَا يستأخِرُونَ(٥)﴾.

---

١ - فِي الأصل: «ولغرابة»، وهو خطأ.

٢ - هنا وضع الناسخ إحالة إِلَى الحاشية و لم يكتب فيها شيئًا، ويبدو أنَّ فِي العبارة سقطا.

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الذِي نُزِّل عليه الذكرُ﴾ أي: القرآن، ﴿إنك لَمجنُونٌ(٦)﴾ يعنون: محمَّدا ﷺ؛ وكَانَ هَذَا النداء مِنهُم عَلَى وجه الاستهزاء والأذى[1]، كما قَالَ فرعون: ﴿إنَّ رسولَكم الذِي أُرسِلَ إليكم لَمَجنونٌ﴾[2]، وكيف يُقرُّون بنزول الذكر عليه وينسبونه إلَى الجنون، والتعكيسُ فِي كلامهم للاستهزاء والتهكُّم [٢٨٩] شائع، والمعنى: أنَّك تقول قول المجانين حيث تدَّعِي أن الله نزَّل عليك الذكر، ﴿لو مَا تأتينا بالمَلاَئِكَة إن كنت مِنَ الصادقِينَ(٧)﴾، المعنى: هلاَّ تأتينا بالمَلاَئِكَة يشهدون بصدقك، أو هلاَّ تأتينا بالمَلاَئِكَة للعقاب عَلَى تكذيبنا لك إن كنت صادقا.

﴿مَا نُنزِّل المَلاَئِكَةَ إلاَّ بالْحَقِّ﴾ لاَ لحكمة، ﴿وَمَا كَانُوا إِذًا مُنظَرِينَ(٨)﴾، معناه: ولو نزَّلنا المَلاَئِكَة مَا كَانُوا مُنظَرين، وَمَا أُخِّر عذابهم وكتابهم عَن أجله.

﴿إنَّا نَحْنُ نزَّلنا الذِّكْرَ﴾ القرآن، لأنَّهُ يَذكُرُ العاقبة، ﴿وَإنَّا لَهُ لَحافِظُونَ(٩)﴾ مِنَ الشياطين أن يزيدوا أو ينقصوا أو يبدلوا بغيره؛ قَالَ الله: ﴿لاَ يأتيه الباطل من بين يديه وَلاَ من خلفه﴾[3] والباطل هُوَ إبليس وجنودُه.

﴿وَلَقَد أرسلنا من قبلك فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ(١٠)﴾ أي: فِي أُمَمِ الأوَّلين، والشيعة: القوم المتَّفقة كلمتهم، ﴿وَمَا يأتيهم من رسول إلاَّ كَانُوا بِهِ يستهزِءُونَ(١١)﴾، كما فعلوا بك، تسليةً لَهُ عليه السلام.

---

١ - في الأصل: «الآذاء»، وهو خطأ، ولعلّه يقصد: «الإيذاء».

٢ - سورة الشعراء: ٢٧.

٣ - سورة فصلت: ٤٢.

﴿كذلك نَسلُكُه فِي قلوب المجرمِينَ(١٢)﴾، قيل: الضمير للاستهزاء؛ وفيه دليل عَلَى أنَّه تعالى يُوجِد الباطل فِي قلوبهم؛ وقيل: للذِّكر، فإنَّ الضمير الأَخِير فِي قوله: ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالذكر، أو با لله، ﴿وقد خَلَت سُنَّة الأوَّلِينَ(١٣)﴾ مَضَت طريقتُهم التِي سنَّها ا لله فِي إهلاكهم حين كذَّبوا رسله.

﴿ولو فَتَحنَا عَلَيْهِم بابًا مِنَ السَّمَاء﴾ ولو أظهرنا لَهُم أوضح آيَة يعنِي الذين يقولون: «لو مَا تأتينا بالمَلاَئِكَة». ﴿فظلُّوا[1] فِيهِ يَعرجُونَ(١٤)﴾ قيل: الضمير للمَلاَئِكَة، وقيل: لِلكُفَّارِ وَهُوَ الأظهر.

﴿لقالوا: إِنَّمَا سُكِّرت أبصارنا﴾ سُحِرَت، وقيل: حُبست[2]، المعنى أنَّهم بلغ من غُلوهم فِي العناد لو فُتح لَهُم باب من أبواب السَّمَاء، ويُسر لَهُم معراج يصعدون فِيهِ إِلَيْها، ورأوا مِنَ العيان مَا رأوا؛ لقالوا: شيء نتخايله لاَ حقيقة لَهُ، ولقالوا: ﴿بَل نَحْنُ قومٌ مسحورُونَ(١٥)﴾ قد سَحِرَنا محمَّد بذلك.

﴿وَلَقَد جعلنا فِي السَّمَاء بروجًا وزيَّنَّاها للناظرِين(١٦)، وحَفِظناها من كلِّ شيطانٍ رجيمٍ(١٧)، إلاَّ من استَرَقَ السمع﴾ لكن من استَرَقَ السمع؛ وكَانَ الشياطين لَهُم شهوة فِي استِرَاقِ السمع.

﴿فَأَتبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ(١٨)﴾ شُعلة مِنَ النار، ظاهِرٌ للمبصرين؛ قيل: كَانُوا لاَ يُحجبون عَن السماوات كلِّها، فَلَمَّا وُلِدَ عيسى مُنِعوا من ثلاث سماوات، فَلَمَّا وُلِد محمَّد مُنِعوا مِنَ السماوات كلِّها.

---

١ - فِي الأصل: «فضلوا» وهو خطأ.

٢ - فِي الأصل: «حسبت» وهو خطأ.

﴿والأَرْض مددناها وألقينا فِيهَا رواسيَ، وأنبتنا فِيهَا من كلِّ شيء موزُونٍ(١٩)﴾ وُزِنَ بميزان الحكمة، وقُدر بمقدار تقتضيه المصلحة، لاَ تصلح فِيهِ زيادة وَلاَ نقصان، إذ الحكيم لاَ يخلُق شَيْئًا لغير حكمة، أو لَهُ وزن وقدر فِي أبواب المنفعة والنعمة، أو مستحسن مناسب، من قولهم: «كلام موزون».

﴿وجعلنا لكم فِيهَا مَعَايِشَ﴾ مَا يُعَايشُ بِهِ؛ ﴿ومن لستم لَهُ برَازقِينَ(٢٠)﴾، كأنَّه قيل: وجعلنا لكم من لستم لَهُ برازقين، أو جعلنا لكم مَعايش ولِمن لستم لَهُ برازقين، وأراد بهم: العيال والخدم الذِينَ يظنُّون أنَّهم يَرزُقُونهم ويخطئون، فإنَّ الله هُوَ الرزَّاقَ، يرزقهم وإيَّاهم؛ ويدخل فِيهِ الأنعام والدوابُّ، ﴿وإن مِن شيءٍ إلاَّ عندنا خزائنه وَمَا نُنزِّلُه إلاَّ بِقَدَرٍ معلومٍ(٢١)﴾ [٢٩٠]، ذِكرُ الخزائن تمثيلٌ، والمعنى: وما من شيء يَنتفع به العباد إِلاَّ ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به، وما نعطيه إِلاَّ بمقدار معلوم؛ فضربَ "الخزائن" مثلا لاقتداره على كل مقدور.

﴿وأرسلنا الرياح لواقحَ﴾، أي: حوامل بالسحاب، لأنَّها تحمل السحاب فِي جوفها، كأنَّه لاقحة بها، مِن «لَقَحتِ الناقةُ»: إِذَا حملت. وضدُّها: الريح العقيم. ﴿فأنزلنا مِنَ السَّمَاء مَاءً فأسقَيْنَاكُمُوهُ﴾ فجعلنا[ه] لكم سقيا، ﴿وَمَا أَنتُم لَهُ بخازِنِينَ(٢٢)﴾، بَل سلكه هُوَ ينابيع فِي الأَرْض.

﴿وَإِنَّا لنحن نُحيِي ونميت ونحن الوارِثُونَ(٢٣)﴾ الباقون بعد هلاك الخَلقِ كلِّه؛ وقيل: للباقي وارثٌ استعارةً مِن وارثِ المَيت لا[1] يبقى بعد فنائه.

١ - كذا فِي الأصل والصواب: «لأنَّه يبقى بعد فنائه». انظر: الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٤٤٨.

**﴿وَلَقَد علمنا المستقدِمين منكم، وَلَقَـد علمنـا المسـتأخِرِينَ(٢٤)﴾** مـن تقدَّم ولادة ومؤنةً ومن تأخَّر، أو من خرج من أصلاب الرجال، ومن لم يخرج بعدُ؛ وقيـل: الأوَّلـين والآخريـن؛ وقيـل: «المسـتقدِمين»: مَـن خَلَقَـه ا لله، و«المستأخرين»: من لم يُخلَق بعدُ، أو من تقدَّم فِي الإسلام وفِي الطاعات.

**﴿وإنَّ رَبَّكَ هُوَ يحشرهم﴾** أي: هُوَ وحده يقدر عَلَـى حشـرهم، ويحيـط بحصرهم، **﴿إنَّهُ حكيمٌ عليمٌ(٢٥)﴾** باهرُ الحكمة واسع العلم.

**﴿وَلَقَد خلَقنَا الإنسانَ مِن صَلصَالٍ مِن حَـمَإٍ﴾**، (لعلَّه) طين يابس غـير مطبُوخٍ، الذِي إِذَا ضَربتَه سَمِعت لَهُ صَلصَلَة، **﴿مَسـنُونٍ(٢٦)﴾** مُصـوَّرٍ، وفِي الأوَّل كَانَ تُرابا يُعجَـن بالمـاء فصـار طينًـا، فَمَكَـث فَصـار حمـأً، **﴿والجـانَّ﴾** (لعلَّه) أبا الجنِّ، كآدم للإنسان، وَهُوَ إبليس؛ وقيل: الجانُّ أبُـو الجـنِّ، وإبليـس أبـُو الشـياطين[1]، وفِي الجـنِّ مُسْـلِمُونَ وكَـافِرُونَ، ويَحيَـون ويموتـون؛ أمـَّـا الشياطين فليس مِنْهُم مُسْلِمُونَ، **﴿خَلقنَاهُ من قبلُ﴾** مـن قبـلِ آدم **﴿مـن نـار السَّمُومِ(٢٧)﴾** من نار الحرِّ الشديد النافذ فِي المسامِّ.

**﴿وإذ قَالَ رَبُّكَ للمَلاَئِـكَة: إنـِّي خَـالقٌ بشـرًا مـن صلصـال مـن حمإٍ مسـنُونٍ(٢٨) فـإذا سـوَّيتُه﴾** أتممـتُ خِلقتـه وهيَّأتـُها لنفـخ الـروح فِيهـا. **﴿ونَفختُ فِيهِ من روحـي﴾** وجعلـت فِيـهِ الـروح وأحييتـه، وليـس ثمَّـة نفـخٌ وإنـَّما هُوَ تمثيل، **﴿فَقَعُوا لَهُ ساجدِينَ(٢٩)﴾** هُوَ أمـرٌ مِـن "وقـع يقـع"، أي: اخضعوا لَهُ وانقادوا؛ وفيه دليل عَلَى أنـَّه يجوز تقديم الأمر عَن وقت الفعل.

---

١ - فِي الأصل: «أب الجنِّ، وإبليس أب الشياطين».

**﴿فسجد المَلاَئِكَةُ كلُّهم أجمعُونَ(٣٠)﴾**، (لعلَّه) وكأنَّ فِي الآية دليلاً عَلَى تفضيل آدم عَلَى المَلاَئِكَة، **﴿إلاَّ إبليس﴾**، قَالَ فِي الكشَّاف: «كَانَ بَيْنَهُم مأمورًا معهم بالسجود. فغلب اسم المَلاَئِكَة ثُمَّ استُثنِيَ بعد التغليب»[1]، **﴿أبى أن يكون مَعَ الساجدِينَ(٣١)﴾** امتنع أن يكون معهم.

**﴿قَالَ: يا إبليس مَا لك ألاَّ تكونَ مَعَ الساجدِينَ(٣٢)؟ قَالَ: لم أكن لأسجدَ﴾** أي: لاَ يصحُّ منِّي أن أسجدَ. **﴿لِبَشرٍ خَلَقتَه من صلصال من حمإٍ مسنُونٍ(٣٣)﴾** (لعلَّه) لأنِّي أفضل مِنْهُ.

**﴿قَالَ: فاخرُج مِنهَا﴾**، قيل: مِنَ السَّمَاء، **﴿فإنَّك رجيمٌ(٣٤)﴾** مطرودٌ من رحمة الله؛ ومعناه: ملعون، لأنَّ اللعن هُوَ الطرد مِنَ الرحمة، والإبعاد منها. **﴿وإنَّ عليك اللعنةَ إِلَى يوم الدِينَ(٣٥)﴾** ضَرَبَ "يوم الدين" حدًّا للَّعنة، لأَنَّهُ أبعد غاية [٢٩١] فِي الدُّنْيَا، وكأنَّه عَلِمَ الله مِنْهُ الإياس، فلا يتوب إِلَى يوم الدين؛ وبعد يوم الدين فلا توبة، لأنَّ التعبُّد قد ارتفع وأقبل الجزاء.

**﴿قَالَ: رب فأنظِرْني﴾** فأخِّرني، **﴿إلَى يَومِ يُبعثُونَ(٣٦). قَالَ: فإنَّك مِنَ المُنظَرِينَ(٣٧) إِلَى يومِ الوقتِ المعلومِ(٣٨)﴾** قيل: إنَّمَا سأل الإنظار إِلَى اليوم الذِي فِيهِ يُبعَثون لئلاَّ يموت، لأَنَّهُ لاَ يموت فِي يوم البعث أحد؛ فلم يُجَب إِلَى ذَلِكَ، وأُنظِرَ إِلَى آخرِ أيَّامِ التكليف زيادةً فِي بلائه وشقائه، وامتحانا للثقلين، لاَ إكرامًا لَهُ.

---

١ - الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٤٤٩.

﴿قَالَ: رب بِمَا أغويتَنِـي﴾ أضللتَنِي وأبعدتَنِي من رحمتِك، ﴿لأُزَيِّنَنَّ لَهُم﴾ المعاصي ﴿فِي الأَرْض﴾، فِي الدُّنْـيَا التِـي هِيَ دار الغرور، ﴿ولأُغوِينَّهم أجمَعِينَ(٣٩)، إلاَّ عِبادَكَ مِنْهُم الـمُخلَصِينَ(٤٠)﴾، وَهُم الذِينَ أخلصوا لك الطاعة والتوحيد وفتح من فتح اللام[1]، أي: من أخلصتَهُ لتوحيدك، فاصطفيتَهُ وهَديتَهُ؛ استثناهم لأَنـَّهُ عَلِمَ أنَّ كيدَهُ لاَ يعمل فِيهِم وَلاَ يقبلون مِنْهُ.

﴿قَالَ: هَـذَا صِرَاط علَـيَّ مُسْتَقِـيم(٤١)﴾ قيل استقامته بالبيان، والتوفيق والهداية لمن سلكه.

﴿إنَّ عبادي ليس لك عَلَيْهِم سلطان﴾، معناه: عَلَى قلوبهم، ﴿إلاَّ من اتَّبعك مِنَ الغاوِينَ(٤٢)﴾ أي: هَذَا طريق حقٌّ عَلَيَّ أن أُرَاعِيه، وَهُوَ أن لاَ يكون لك سلطان عَلَى عبادي، إلاَّ من اختار اتِّباعك مِنْهُم لغوَايته؛ ﴿وإنَّ جهنَّم لَمَوعِدُهُم أجمَعِينَ(٤٣)، لها سبعةُ أبوابٍ لِكُل بابٍ مِنْهُم جزءٌ مقسومٌ(٤٤)﴾، نصيبٌ معلومٌ؛ قيل: أبوابُ النار أطباقها وأدراكها[2].

﴿إنَّ المتَّقين فِي جنَّات وعيُون(٤٥)﴾ المتَّقي عَلَى الإطلاق، من يتَّقِي مَا يجب اتِّقاؤه، ﴿ادخُلُوهَا بِسلاَم﴾ أي: سالمين، أو مُسلَّمًا عَلَيْكم،

---

١ - كذا في الأصل ولعلَّ الصواب: «ومنهم مَن فَتَحَ اللامَ». قال الألوسي: «...بفتح اللام، وَهُوَ قراءة الكوفيِّين ونافع والحسن والأعرج... وقرأ باقي السبعة والجمهور بكسر اللام، أي الذين أخلصوا العمل». الألوسي: روح المعاني، ١٤/٥٠.

٢ - في الأصل: «أدرالها»، وَهُوَ خطأ. في اللسان: «الدَّرْكُ، والدَّرَك: أقصى قعر الشيء... والجمع: أدراك، ودركات النار: منازل أهلها». ابن منظور: لسان العرب، ٩٧٢/٢. مادَّة: «درك».

﴿آمنِينَ(٤٦)﴾ المخوفات كلّها، لأنَّهم لم يكن عَلَيْهِم ذنبٌ فيستحقُّوا الخوف، والخوف عذابٌ وألَمٌ يتألم بِهِ القلب.

﴿ونَزعنَا مَا فِي صُدورِهم من غِلٍّ﴾ الغِلّ الفطريّ، لأَنَّهُ لاَ يموت أحد عَلَى الإيمان وفي قلبه غِلٌّ عَلَى أحد من أهل الإيمان يخرجه مِنَ الإيمان، ﴿إخوانًا عَلَى سُرُرٍ مُتقَابِلِينَ(٤٧)﴾؛ لذلك قيل: تدور بهم الأسرَّة حيثمَا داروا، (لعلّه) فيكونون فِي جميع أحوالهم مُتقابلين بعضهم بعضًا، ﴿لاَ يَمَسُّهم فِيهَا نَصبٌ، وَمَا هم منها بِمُخرَجِينَ(٤٨)﴾ لأنَّ تمامَ النعمة بالخلود.

﴿نبئ عِبادِي أَني أنا الغَفُورُ الرحِيمُ(٤٩)﴾ لمن تاب مِنْهُم، ﴿وأنَّ عذابِي هُوَ العذاب الأليمُ(٥٠)﴾ لمن أصرَّ؛ ﴿ونبئهم﴾ واخبر أُمَّتك ليحذروا، وَمَا أُحِلَّ مِنَ العذاب بِقومِ لوطٍ عبرةً تعتبرون بها سخط الله وانتقامه مِنَ المجرمين، وإكرامه لإبراهيم (لعلّه) ومن تبعه، من حيث استقامتهم عَلَى دعائم الدين، ﴿عَن ضيفِ إبراهيمَ(٥١)﴾ هُمُ المَلاَئِكَة الكرام.

﴿إذ دَخَلوا عليه فَقَالُوا: سلامًا﴾ أي: نُسلِّم عليك سلاما، أو سَلِمتَ سلامًا، ﴿قَالَ: إنَّا منكم وَجِلُونَ(٥٢)﴾ خائفون لامتناعهم عَن الأكل.

﴿قَالُوا لاَ تَوجَل﴾ لاَ تخف، ﴿إنَّا نُبَشرك﴾ أي: إنَّك مُبشَّرٌ آمن ﴿بغلام عليم(٥٣). قَالَ: أبشَّرتُمُونِي عَلَى أن مَسَّنِيَ الكِبَرُ فَبِمَ تبشرُونِ(٥٤) قَالُوا: بشَّرنَاكَ بِالْحَق﴾ باليقين الذِي لاَ لُبسَ فِيهِ، ﴿فلا تكن مِنَ القانطِينَ(٥٥)﴾ مِنَ الآيسين من ذَلِكَ.

**﴿قَالَ: ومَن يَقنُطُ من رحمة ربه إلاَّ الضالُونَ(٥٦)﴾**، (لعلّه) المُخطِئون طريق الصواب، أي: لم (لعلّه) يستنكر[1] ذَلِكَ قنوطًا من رحمته، [٢٩٢] ولكن استبعادا لَهُ في العادة التِي أجراها.

**﴿قَالَ: فما خَطبُكُم﴾** فما شأنكم **﴿أيُّها المُرسلُونَ(٥٧)، قَالُوا: إنَّا أُرسِلنَا إِلَىٰ قَومٍ مُّجرِمِينَ(٥٨) إلاَّ آل لوطٍ إنَّا لَمُنجُّوهُم أجمَعِينَ(٥٩) إلاَّ امرأَتَهُ قدَّرنا إنَّها لَمِنَ الغابرِينَ(٦٠)﴾** لمن الباقين فِي العذاب.

**﴿فلَمَّا جاء آلَ لوطٍ المرسَلُونَ(٦١)، قَالَ: إنَّكُم قومٌ مُّنكَرُونَ(٦٢)﴾** أي: لاَ أعرفكم؛ **﴿قَالُوا بَل جئناك بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمتَرُونَ(٦٣)﴾**، أي: مَا جئناك بِمَا تُنكِرُنا من أجله بَل جئناك بِمَا فِيهِ سُرورُكَ وتَشَفِّيكَ من عدوِّكَ، وَهُوَ العذاب الذِي كُنتَ تَتوعَّدُهُم بِنُزُوله فيمتَرُونَ فِيهِ، أي: يشكُّون ويكذِّبونك، **﴿وأتينَاكَ بِالْحَقِ﴾** باليقين من عذابهم، **﴿وَإنَّا لصادِقُونَ(٦٤)﴾** فِي الإخبار بنزولهم.

**﴿فأسرِ بِأهلك بِقِطعٍ مِنَ الليلِ واتَّبِع أدبارَهم﴾** وسِر خلفهم لتكون متطلِّعا عَلَيْهِم وَعَلَى أحوالهم، **﴿وَلاَ يَلتَفتْ منكم أحدٌ﴾** لئلاَّ يروا مَا يَنزل بِقومِهم مِنَ العذاب، أو جعلَ النهيَ عَنِ الالتفات كنايةً عَن مواصلة السير، وترك التواني والتوقُّف، لأَنَّهُ من يلتفت لاَ بدَّ لَهُ فِي ذَلِكَ من أدنى وقفة، **﴿وامضوا حيث تُؤمَرُونَ(٦٥)﴾** حيث أمركُم الله.

[1] - فِي الأصل: «لم (لعلّه) استكبر استنكر».

﴿وقَضينَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمرَ أنَّ دَابِرَ هؤلاء مقطوع[1]﴾ وفي إبهامه[2] وتفسيره تفخيم للأمر، ودابرهم: آخرهم، أي: يُستأصلون عَن آخرهم حتّى لاَ يبقى مِنْهُم أحد، ﴿مُصبِحِينَ(٦٦)﴾.

﴿وجاء أهلُ المدينة يَستبشِرُونَ(٦٧)﴾ بالمَلاَئِكَة طمعا مِنْهُم فِي ركوب الفاحشة، ﴿قَالَ: إنَّ هؤلاء ضيفي فلا تفضحون(٦٨)، واتَّقُوا[3] الله وَلاَ تُخزُونِ(٦٩)﴾ وَلاَ تُذِلُّوني، مِنَ الخزي: وَهُوَ الهوان.

﴿قَالُوا: أَوَلَم نَنهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ(٧٠)﴾ عَن أن تجير مِنْهُم أحدا وتدفع عَنْهُم، فإنَّهم كَانُوا يَتعرَّضون لِكُل أحدٍ؛ ﴿قَالَ هؤلاء بَنَاتي﴾ أُزوجُهنَّ إيَّاكم، ﴿إِن كُنتُم فاعلِينَ(٧١)﴾ إن كُنتُم تُريدون قضاءَ الشهوة فيما أحلَّ الله.

﴿لَعمرُكَ إنَّهم لَفِي سَكرَتِهم﴾، أي: فِي غِوَايَتهم التِي أَذهبَتْ عقولهم وتمييزَهم بين الخطإ الذِي هم عليه، وبين الصواب الذِي تشير بِهِ عليهم من ترك البنين إِلَى البنات، ﴿يَعمهُونَ(٧٢)﴾ يتحيَّرون، فكيف يَقبَلون قولك، ويُصغون إِلَى نصيحتك؛ والعمَهُ: التردُّد فِي الضلال.

﴿فأخذتهم الصيحة﴾ (لعلّه) قيل: صاح بهم جبريل صيحة، ﴿مشرقِينَ(٧٣)﴾ داخلين فِي الشروق، وَهُوَ بزوغ الشمس.

---

١ - في الأصل: «مطوع» وَهُوَ سهو.

٢ - «﴿حيث﴾ مبهمٌ في الأمكنة، وكذلك الضمير في ﴿تؤمرون﴾». الزمخشري: الكشّاف، ٢/٤٥٥.

٣ - في الأصل: «فاتّقوا»، وهو خطأ.

﴿فجعلنا عَالِيَهَا سَافِلَهَا، وأمطرْنَا عَلَيْهِم حجارةً من سجيلٍ(٧٤)؛ إنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ للمُتوَسِّمِينَ(٧٥)﴾ للمتفرسين المتأملين، كأنَّهم يَعرفون باطن الشيء، (لعلَّه) أي: ملكوته بِسِمةٍ ظاهرة، ﴿وإنَّها﴾ وإنَّ هَذِهِ القرى يعني آثارها ﴿لَبِسبيلٍ مُقيمٍ(٧٦)﴾، ثابت يسلكه الناس، لم يَندَرس بعدهم، يبصرون تلك الآثار، كقوله: ﴿وَإِنَّكُم لتَمُرُّون عَلَيْهِم مُصبحِين﴾[1]؛ ﴿إنَّ فِي ذَلِكَ لآيةً للمؤمنِينَ(٧٧)﴾ لأنَّهم المنتفعون بذلك.

﴿وإن[2] كَانَ أصحابُ الأيكةِ﴾؛ قيل: هم قوم شعيب، كَانُوا يسكنون الغيضة[3]، فبعثه الله إِلَيْهِم، فكذَّبوه فَأُهلكوا بالظُّلَّة. والأيكة: الشجرة المتكاثفة، ﴿لَظَالِمِينَ(٧٨)، فانتقمنا مِنْهُم﴾ فأهلكناهم لـمَّا كذَّبوا شعيبًا، ﴿وَإنَّهُما﴾ يعني مدينة قوم لوط وأصحاب الأيكة، ﴿لَبِإمامٍ مُبِينٍ(٧٩)﴾ طريق واضح، والإمام: اسم مَا يُؤْتَمُّ بِهِ.

﴿وَلَقَد كَذَّب أصحابُ الحِجرِ﴾ هم ثمود؛ والحِجرُ: واديهم. ﴿المرسَلِينَ(٨٠) [٢٩٣] وآتيناهم آياتنا﴾ بإقامة الحجج، ﴿فكَانُوا عنها مُعرضِينَ(٨١)﴾ (لعلَّه) بقلَّة التفاتهم إِلَيْها.

---

١ - سورة الصافات: ١٣٧.

٢ - في الأصل: - «كان»، وهو سهو.

٣ - في الأصل: «الغيظة»، وهو خطأ. والغيضة: البقعة الكثيفة الأشجار. انظر: الألوسي: روح المعاني، ١٤/٧٥؛ أحمد مصطفى المراغي: تفسير المراغي، الطبعة الثالثة، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، دار الفكر، بيروت، مج ٥/ ج١٤ / ص٣٠.

﴿وكَانُوا يَنحِتُونَ مِنَ الجبال بيوتًا﴾ أي: ينقبُون فِي الجبال، أو ينون بالحجارة، ﴿آمنِينَ(٨٢)﴾ لوثَاقَة البيوت واستحكامها من أن تنهدم، ومن نقب اللصوص والأعداء، ﴿فأخذتهم الصيحة مُصبحِينَ(٨٣)، فما أغنى عَنْهُم ما كَانُوا يكسبُونَ(٨٤)﴾ من بناء البيوت الوثيقة، واقتناء الأموال النفيسة.

﴿وَمَا خلقنا السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ وَمَا بينهما إلاَّ بالْحَقِّ﴾ إلاَّ خلقا مُلتبِسًا بالْحَق، لاَ باطلا وَلاَ عبثا، ﴿وإنَّ الساعةَ﴾ لتوقُّعِها كلَّ ساعة ﴿لآتية﴾، وإنَّ الله ينتقم لك فيها من (لَعَلَّهُ) أعدائك، ومُجازيك وإيَّاهم عَلَى حسناتك وسيئاتهم، فإنَّه مَا خَلَقَ السَّمَاوَات والأَرْض وَمَا بينهما إلاَّ لذلك، ﴿فاصفح الصفحَ الجميلَ(٨٥)﴾ فأعرض عَنْهُم إعراضًا جميلاً بحِلمٍ وإغضاء.

﴿إنَّ رَبَّكَ هُوَ الخلاَّق﴾ الذِي خلقك وخلقهم، ﴿العليمُ(٨٦)﴾ بحالك وحالهم فلا يخفى عليه مَا يجري بينكم، وَهُوَ يحكم بينكم.

﴿وَلَقَد آتيناك سَبعًا﴾ أي: سَبعَ آياتٍ، وهي: الفاتحة؛ أو سبع سور، وهي الطوال[1]، ﴿من المثاني﴾ هِيَ مِنَ التثنِيَةِ، وهي: التكرير، لأنَّ الفاتحة مِمَّا تُكرَّر فِي الصلاة؛ أو مِنَ الثناء لاشتمالها عَلَى مَا هُوَ ثناء عَلَى الله، وَأَمَّا السور والأسباع فما وقع فِيهَا من تكرير القصص والمواعظ، والوعد والوعيد، وَلِمَا فِيهَا مِنَ الثناء، كأنَّها تُثنِي عَلَى الله. ﴿والقرآنَ العظيمَ(٨٧)﴾ هَذَا ليس بعطف الشيء عَلَى نفسه، لأَنَّهُ إِذَا أُرِيدَ بالسبعِ الفاتحةَ أو الطوالَ[2]، فما وراءهنَّ ينطلق عليه اسم القرآن، لأَنَّهُ اسم يقع عَلَى البعض كما يقع عَلَى (لعلَّه) الكل؛ دليله: قوله: ﴿بمَا

١ - فِي الأصل: «الطول»، وَهُوَ خطأ. انظر الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٤٥٦.

٢ - فِي الأصل: «الطول»، وهو خطأ.

أوحينا إليك هَذَا القرآنَ﴾[1]. وإذا أُريد بِهِ الإتباع فالمعنى: وَلَقَد آتيناك مَا يقال لَـهُ السبع المثاني، والقرآنَ العظيمَ، أي: الجامع لهذين النعتين.

﴿لاَ تَمُدَّنَّ عَينيْكَ﴾، أي: لاَ تطمح بِبَصرِك طموح راغب فِيهِ، ﴿إِلَى مَا متّعنا بِهِ أزواجًا مِنـْهُم﴾ أصنافا مِنَ العُصاةِ؛ يعني: قد اوتيتَ النعمة العظمى التِي كلُّ نعمة ـ وإن عَظُمت ـ فهي إِلَيْها حقيرة، وهي: القرآن العظيم؛ فعليك أن تستغني بِهِ وَلاَ تَمُدَّ عَينَيك إِلَى متاع الدُّنْـيَا. ومنه الحديث: «*ليس مِنّا من لم يتغنَّ بالقرآن*»[2]، وحديث أبي بكر: «*من أُوتِيَ القرآن، فرأى أن أحدًا أُوتِيَ مِنَ الدُّنْـيَا أفضل مِمَّا أُوتِيَ فقد صغَّر عظيما وعظَّم صغيرا*»[3]؛ ﴿وَلاَ تحزن عليهم﴾، أي: لاَ تحزن عَلَى مَا فاتك من مشاركتهم فِي الدُّنْـيَا؛ أو لاَ تحزن عَلَيْهِم أنَّهم لم يؤمنوا فيَتقوَّى بمكانهم الإسلام والمسلمون. ﴿واخفض جناحك للمؤمنِينَ(٨٨)﴾، وتواضع لمن معك من المؤمنين، أي: لين جَنابَك، والجناحان من ابن آدم: جانباه.

﴿وقل: إِنِّي أنا النذير الْمُبِين(٨٩)﴾ أُنذِرُكم بِبيَان وبرهان أنَّ عذاب الله نازل بمن عصى؛ ﴿كما أنزلنا﴾ متعلّق بقوله: ﴿وَلَقَد آتيناك﴾ أي: أنزَلنا عليك مثل مَا أنزَلنا، ﴿عَلَى الْمُقتَسمِينَ(٩٠)﴾ وَهُم أهل الكتاب، ﴿الذِينَ جَعلُوا القرآنَ عِضِينَ(٩١)﴾ جزَّؤوه، جعلوه أعضاءً، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه.

---

١ - سورة يوسف: ٣.

٢ - رواه البخاريُّ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ، فِي كتاب التوحيد، رقم ٦٩٧٣. أبو داود: كتاب الصلاة، رقم ١٢٥٧، ١٢٥٨. ابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنّة فيها، رقم ١٣٢٧. أحمد: مسند العشرة المبشَّرين بالجنّة، رقم ١٣٩٦، ١٤٣٠، ١٤٦٧. الدارمي: كتاب الصلاة، رقم: ١٤٥٢، وكتاب فضائل القرآن، رقم ٣٣٥٢.

٣ - لم نعثر عَلَيه فِي الربيع ولا فِي الكتب التسعة.

﴿**فوربِّكَ لنسألنَّهم أجمعِينَ(٩٢) عمَّا كَانُوا [٢٩٤] يَعْمَلُونَ(٩٣)**﴾ أقسمَ بذاته وربوبيتِهِ ليَسأَلَنَّ يوم القيامة واحدا واحدا عَن عمله.

﴿**فاصدع بِمَا تُؤمَر**﴾ فاجهر بِهِ وأمضه؛ يقال: صَدَعَ بالحجَّة: إِذَا تكلَّم بها جهارًا، مِنَ الصديع، وَهُوَ: الفجر، أو فَاصدَع: فَافرُق بين الحق والباطل، مِنَ الصدع فِي الزجاجة، وَهُوَ: الإبانة بِمَا يؤمر بِهِ مِنَ الشرائع. ﴿**وأعرض عَن المشركِينَ(٩٤)**﴾ وعن أهوائهم وباطلهم أو عَن أذاهم.

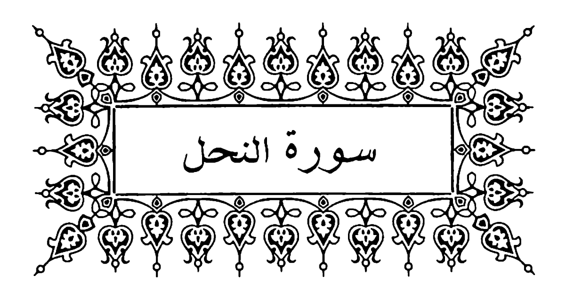
﴿**إِنَّا كَفَيْنَاكَ الـمُستهزئِينَ(٩٥)**﴾، أي: يقول لَهُ: فاصدع بأمر ا لله، وَلاَ تَخف أحدًا غيره، فإنَّه كَافِيكَ مَن عاداك بالاستهزاء، ﴿**الذِينَ يَجعلون مَعَ ا لله إلهًا آخر فسوف يَعْلَمُونَ(٩٦)**﴾ عاقبة أمرهم (لعلَّه)، مآل أمرهم فِي الدُّنْيَا والآخِرَة؛ ﴿**وَلَقَد نَعلَمُ أنـَّك يَضيقُ صدرُك بِمَا يقولُونَ(٩٧)**﴾ يخوضون فِي آياتنا بقولهم وفعلهم.

﴿**فسبِّح بحمد ربِّك**﴾ فافزع فيما نابك إِلَى ا لله، والفزع إِلَى ا لله هُوَ: الذكر الدائم، يَكفِيكَ ويكشفُ عنك الغمَّ، وقابل إشراكهم وخوضهم (لعلَّه) بالتوحيد والتسبيح، ويدلُّ عَلَى ذَلِكَ قوله: ﴿**وكُن مِنَ الساجِدِينَ(٩٨)؛ واعبد ربَّك**﴾ أي: دُمْ عَلَى عبادته وإن خَالفوك؛ ﴿**حتَّى يأتِيَك اليقِينُ(٩٩)**﴾، والمعنى: فاعبده مَا دُمتَ حيًّا لاَ تَخلُ عَن العبادة لحظة[1]؛ واليقين هُوَ [أن][2] يرى مَا وعده ا لله مِنَ الجزاء عيانًا.

۞۞۞

١ - فِي الأصل: «لحضة»، وهو خطأ.

٢ - فِي الأصل: «هو ـ يرى».



# سورة النحل

بسم الله الرحمن الرحيم

كَانُوا يستعجلون مَا وُعِدُوا مِن قيام الساعة، أو نزول العذاب بهم، استهزاءً وتكذيبًا بالوعد؛ فقيل لَهُم: ﴿أَتَى أمرُ الله﴾، هُوَ بمنزلة الآتي الواقع وإن كَانَ مُنتظَرًا، لقُربِ وُقُوعِهِ، ﴿فلا تستعجلوه﴾ فلا تستعجلوا وقوع أمر الله؛ والاستعجال: طلب الشيء قبل حِينِه. ﴿سُبحانه وتعالى عمَّا يُشرِكُونَ(١)﴾ تَعاظَمَ بالأوصاف الحميدة عَن أن يكون لَهُ شريكٌ، أو عَن إشراكهم؛ واتِّصال هَذَا باستعجالهم من حيث أنَّ استعجالهم استهزاء وتكذيب، وذلك مِنَ الشرك.

﴿يُنزلُ المَلاَئِكَةَ بالروحِ﴾ بالوحي؛ سَمَّاه روحا، لأَنَّهُ تحيَى بِهِ القلوب من موت الجهل، ﴿من أمرهِ عَلَى من يَشَاء من عِبادِهِ﴾ (لعلّه) من رسولٍ، أو رسولِ الرسولِ؛ ﴿أن أَنذِروا أنَّه لاَ إلهَ إلاَّ أنا فاتَّقُونِ(٢)﴾، المعنى: أعلِمُوا الناس قول: «لاَ إله إلاَّ أنا فاتَّقُون»، أي: إنَّهُ فِي الحقيقة لاَ شيطان وَلاَ نفس وَلاَ هوى وَلاَ دُنيا وَلاَ صنم، وَلاَ إله غيري؛ ﴿فاتَّقُون﴾: فخافوني واعبدوني، وَلاَ تُشركوا بي شَيْئًا من هؤلاء؛ ثُمَّ دَلَّ عَلَى وحدانيَّته، وأنَّه لاَ إله إلاَّ هُوَ بِمَا ذكر فيما لاَ يَقدِر عليه غيره، من خَلقِ السموات والأَرْض، وأنَّهما أصلُ نعمة أهل الدُّنْيَا.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَات والأَرْض بِالْحَقِّ تَعالى عمَّا يُشرِكُون(٣) خَلَقَ الإنسانَ مِن نُطفة فإذا هُوَ خصيمٌ مُبِين(٤)﴾ أي: فإذا هُوَ مِنطِيقٌ[1] مُجادل عَن نفسه، مُكافح لخصومه، مُبينٌ لحجَّته، بعد مَا كَانَ نطفة لاَ حِسٌّ بِهِ وَلاَ حركة؛ أو فإذا هُوَ خصيم لربه، مُنكِر عَلَى خالقه، قائل: ﴿مَن يُحيِ العظامَ وهي رميمٌ﴾[2]، وَهُوَ وصف للإنسان بالوقاحة والتمادي فِي كفران النعمة.

وخَلَقَ لَهُ مَا لاَ بُدَّ لَهُ بِهِ مِن خَلقِ البهائم لأكله ورُكوبه، وجر أثقاله، وسائر حاجاته؛ وَهُوَ قوله: ﴿والأنعامَ خَلقَهَا﴾ أي: خَلَقَ [٢٩٥] الإنسان والأنعام؛ ثُمَّ قَالَ: ﴿خَلَقَهَا لَكُم﴾ أي: مَا خلقها إلاَّ لكم؛ ثُمَّ بيَّن بعض منافعها بقوله: ﴿لكم فِيهَا دفءٌ﴾ عَن البرد، ﴿ومنافعٌ﴾، وهي نسلها ودَرُّها[3] وظهورها وغير ذَلِكَ، ﴿ومنها تأكلُونَ(٥)﴾ يعني: لحومها، ﴿ولكم فِيهَا جَمالٌ حين تُرِيحُونَ﴾ تردُّوها من مراعيها إِلَى مراحها بالعشي، ﴿وحين تَسرَحُون(٦)﴾ تُرسِلونها بالغداة إِلَى مسارحها.

مَنَّ الله تعالى بالتجمُّل بها، كما منَّ بالانتفاع بها، (لعلَّه) لأَنَّهُ من أغراض أصحاب المواشي، لأَنَّ الرعيانَ إِذَا روَّحوها بالعشي، وسَرَحُوها بالغداة، زيِّنت بإراحتها وتسريحها الأفنية، وفَرَّحت أربابها وكسَّبتهم الجاه

١ - «المنطيق: البليغ»، ابن منظور: لسان العرب، ٢٢٦/٦. مادَّة: «نطق».

٢ - سورة يس: ٧٨.

٣ - «والدَّرُّ: اللبن ما كان... وَفِي الحديث أَنَّهُ نهى عن ذبح ذوات الدَّرِّ، أي ذوات اللبن، ويجوز أن يكون مصدر "دَرَّ اللبن" إذا جرى». ابن منظور: لسان العرب، ٩٦٦/٢.

والـحُرمَة عند الناس؛ وإنّما قُدِّمت الإراحـة عَلَى التسريح، لأنَّ الـجَمَال فِي الإراحة أظهر إِذَا أقبلت مَلأَى البطون، حافلة الضروع.

**﴿وتحملُ أثقالكم إِلَى بلـد لم تكونـوا بَالِغِيـهِ إِلاَّ بِشِقِ الأنفسِ﴾** ويفتَحُ الشينَ أبو جعفر[1]، وهما لغتان فِي معنى المشقّة؛ وقيل: المفتـوح مصـدر: شـقَّ الأمر عليه شقًّا، وحقيقتـه راجعـة إِلَى الشّـقِّ الـذِي هُـوَ الصَّـدْعُ؛ وَأَمـَّا الشِّقُّ فالنصف، كأنَّه تذهـب نصـف قوَّتـه لِمَـا ينالـه مِنَ الجهـد. والمعنـى: وتحمـلُ أثقالكم إِلَى بلد لم تكونوا بَالِغِيهِ لو لم تُخلَق الإبل، إلاَّ بجهد ومشقَّـة، فضلا أن تحملوا عَلَى ظهوركم أثقالكم؛ أو معناه: لم تكونوا بالغيه إِلاَّ بشقِّ الأنفـس[2]؛ وقيل: أثقالكم: أبدانكم، ومنـه الثقَـلاَن للجـنِّ والإنـس، ﴿وأخرجـت الأَرْض أثقالها﴾[3]، أي: بني آدم، **﴿إِنَّ رَبـَّكُم لَـرءوفٌ رحيـمٌ(٧)﴾** حيـث رحمكـم بِخلقِ هَذِهِ الحوامل، وتيسير هَذِهِ المصالح.

**﴿والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها، وزِينةً﴾**، عطف عَلَى الأنعـام، أي: وخلقَ هـؤلاء لـلرُّكوب والزينـة؛ والآيـة سِيقت لبيـان النعمـة. وخلـق مَـا لاَ تَعْلَمُونَ من أصناف خلائقه، وَهُوَ قوله: **﴿وَيَخلقُ مَـا لاَ تَعْلَمُـونَ(٨)﴾** ومَـن هَذَا وصفُه يتعالى عَن أن يُشركَ بِهِ.

---

١ - وهي كذلك قـراءة مـجاهد والأعرج وعمـرو بن معين وابـن أرقـم. الألوسـي: روح المعاني، ١٠٠/١٤.

٢ - كـذا فِي الأصـل، وَهُـوَ تكـرار للآيـة لا معنـى لـه. وَفِي الكشَّـاف: «ويجوز أن يكـون المـَعنَى: لم تكونوا بالغيه بها إِلاَّ بشقِّ الأنفس». الزمخشري: الكشَّاف، ٤٦٣/٢.

٣ - سورة الزلزلة: ٢.

﴿وعلى الله قصدُ السبيل﴾ معناه: أنَّ هداية الطريق الموصل إِلىَ الحق عليه؛ ﴿ومنها جائر﴾ ومن السبيل مائل عَن الاستقامة، وهي البدع والضلالات، ﴿ولو شاء لهداكُمُ أجمعِينَ(٩)﴾ أَرَادَ هداية اللطف بالتوفيق والإنعام بعد الهدى العام.

﴿هُوَ الذِي أنزل مِنَ السَّمَاء ماءً لكم﴾، أي: منافعَ لكم، لتبلغوا بها رضاه، ﴿مِنْهُ شرابٌ ومنه شجرٌ﴾ يعني: الشجر، ﴿فِيهِ تسيمُون(١٠)﴾، من سامت الماشية: إِذَا رعت، فهي سائمة، وأَسامَهَا صاحبها، وَهُوَ مِنَ السَّوْمَة، وهي العلامة، لأَنـَّهَا تؤثر بالرعي علامات فِي الأَرْض.

﴿يُنبتُ لكم بِهِ الزرعَ والزيتونَ والنخيلَ والأعنابَ، ومِن كُلِّ الثمرات﴾ ولم يقل: «وكل الثمرات»، لأَنَّ كلَّها لاَ يكون إِلاَّ فِي الجنَّة، لأَنَّ النعمة لاَ تتمُّ إِلاَّ فِي الجنَّة، كما أَنَّ العذاب لاَ يجتمع عَلَى العصاة إِلاَّ فِي النار؛ وإنـَّما أُنزل فِي الأَرْض بعضٌ من هَذَا وهذا بشير ونذير[1] للعالمين. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيةً لقومٍ يتفكَّرُون(١١)﴾ فيستدلُّون بها عليه وَعَلَى قدرته، وَعَلَى فواكه الجنَّة؛ والآيةُ: الدالَّةُ الواضحة.

﴿وسخَّر لكم الليلَ [٢٩٦] والنهار، والشمسَ والقمرَ، والنجومُ مسخَّراتٌ بِأمره؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيات لقومٍ يعقلُونَ(١٢)﴾ جمعَ الآية وذَكَر العقل، لأَنَّ الآثار العلويـَّة أظهر دلالة عَلَى القدرة الباهرة، وأَبين شهادة للكبرياء والعظمة.

---

١ - في الأصل: «وهذا بشيرا ونذيرا»، وهو خطأ.

﴿وَمَا ذَرَأَ لكم فِي الأَرْضِ﴾ معطوف عَلَى الليل والنهار، أي: مَا خلق فِيهَا من حيوان وشجر وثمر وغير ذَلِكَ، ﴿مُختَلِفًا ألوانه، إنَّ فِي ذَلِكَ لآية لَقوم يذَّكَّرُونَ(١٣)﴾ يتّعظون.

﴿وَهُوَ الذِي سخَّر البحرَ لتأكلوا مِنْهُ لحمًا طريًّا﴾ لأَنَّهُ أرطب اللحوم، ولأنَّ الفساد يُسرِع إِلَيْهِ، فَيُؤكَل سريعا طريًا خيفةَ الفساد؛ ولإظهار قدرته فِي خلقه عذبا طريًّا فِي ماء زُعاق[1]؛ ﴿وتَستخرِجُوا مِنْهُ حِليَةً﴾ هِيَ اللؤلؤ والمرجان، وَهُوَ مِمَّا تتحلَّى بِهِ النساء، ﴿تلبسونها﴾ المراد بلبسهم: لبس نسائهم، ولكنهنَّ إنَّمَا يَتَزَيَّنَّ بها من أجلهم، فكأنَّها زينتهم ولباسهم، ﴿وترى الفلك مَوَاخِرِ﴾ قيل: المَخْرُ: شقُّ الماء ﴿فِيهِ﴾ فِي البحر؛ ﴿ولتبتغوا من فضله﴾، فضلُه يعمُّ إرادة الدارين[كَذَا]، ﴿ولعلَّكم تَشكُرُونَ(١٤)﴾ الله عَلَى مَا أنعم بِهِ عليكم.

﴿وألقىَ فِي الأَرْض رَواسيَ أن تَمِيدَ بكم، وأنهارًا وسُبُلاً﴾ طُرقًا، ﴿لَعَلَّكُم تهتدُونَ(١٥)﴾ إِلىَ مقاصدكم، أو إِلىَ توحيد ربِّكم؛ ﴿وعلامات﴾ هِيَ معالم طرق الدين والدُّنْيَا، ﴿وبالنجم هم يَهتدُونَ(١٦)﴾.

﴿أفمن يَخلُقُ﴾ أي: الله تعالى، ﴿كمن لاَ يَخلُقُ﴾؟ أي: مَا يعبدون من دون الله، وسَمَّوها آلهة تشبيها بالله، لأَنَّهُم جعلوا غير الله مثل الله فِي تسمِيتِه باسمه والعبادة لَهُ، فقد جعلوا الله (لعلَّه) من جنس المخلوقات،

١ - فِي المنجد: الماء الزُّعاق: هو الماء المرُّ لا يطاق شُربه؛ أو الماء المالح. مادَّة: «زعق».

وشبيها بها؛ فأنكر عَلَيْهِم ذَلِكَ بقوله: ﴿أفمن يخلق كمن لاَ يخلق﴾؟ ﴿أفلا تذَّكَّرُونَ(١٧)﴾؟ فتعرفوا فساد مَا أَنتُم عليه.

﴿وإن تعُدُّوا نعمة ا لله لاَ تُحصُوهَا﴾ لاَ تَضبطوا عددها وَلاَ تبلُغه طاقتكم، فضلاً أن تُطيقوا القيام بحقِّها من أداء الشكر، وإنَّما أتبَعَ ذَلِكَ مَا عدَّد من نعمه تنبيها عَلَى أنَّ وراءها مَا لاَ ينحصر وَلاَ ينعَدُّ، ﴿إنَّ ا لله لغفُور رحيمٌ(١٨)﴾ حيث رضيَ منكم بالإيمان بها جملة، (لعلَّه) وبالشكر فيما أحصيتم مِنَ النعمة، ﴿وا لله يعلم مَا تُسرُّون وَمَا تُعلِنُونَ(١٩)﴾ من أقوالكم وأفعالكم، وَهُوَ وعيد.

﴿وَالذِينَ يدعون﴾ والآلهة التِي يَعبدونها، ﴿من دون ا لله لاَ يَخلقون شَيْـئًا وَهُم يُخلَقُونَ(٢٠)﴾ أي: هم ﴿أمواتٌ غيرُ أحياء، وَمَا يشعرون أيَّان يُبعَثُونَ(٢١)﴾ نَفَى عَنْهُم خصائصَ الإلهيَّة بنفي كونهم خالقين، وأحياءَ لاَ يموتون، وعالمين بوقت البعث؛ وأثبت لَهُم صفات الخَلق، بأنَّهم مخلوقون أمواتٌ، جاهلون بالغيب. ومعنى «أموات غير أحياء»: أنَّهم لو كَانُوا آلهة عَلَى الحقيقة، لكَانُوا أحياء غير أموات، أي: غير جَارٍ عليها[1] الموت، وأمرهم بالعكس من ذَلِكَ؛ والضمير فِي «يُبعثون» للداعين، أي: لاَ يشعرون متى تُبعَث عَبَدَتُهم، وفيه تهكُّم للمشركين، وأنَّ آلهتهم لاَ يَعْلَمُونَ وقت بعثهم؛ فكيف يكون وقت جزائهم عَلَى عبادتهم؟، وفيه دلالة عَلَى أنَّه لاَ بُدَّ من البعث[2].

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «عليهم»، أو لَعَلَّ الضمير المؤنث يرجع إِلَى الآلهة.

٢ - فِي الحاشية عبارة: «لعلَّه جزاؤهم». ولم نجد لها مكانا فِي المتن.

﴿إلهكم إلهٌ واحدٌ﴾ أي: ثبت بِمَا مَرَّ أنَّ الإلَهِيَّة[1] لاَ تكون لغير الله، وأنَّ معبودكم وَاحِد.

[٢٩٧] ﴿فالذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ للوحدانيَّة، ﴿وَهُم مُستكبِرُونَ(٢٢)﴾ عنها وعن الإقْرَار بها، والعمل بـمُوجباتها، ﴿لاَ جَرَمَ﴾ حقًّا ﴿أنَّ الله يعلمُ مَا يُسرُّون وَمَا يُعلِنون﴾ فيُجَازيهم؛ وَهُوَ وعيدٌ، ﴿إنَّهُ لاَ يُحِبُّ الـمُستكبِرِينَ(٢٣)﴾ عَن عبادته وتوحيده. ﴿وإذا قيل لَهُم﴾ لمن استكبر عَن عبادته: ﴿ماذا أنزَلَ ربُّكم؟ قَالُوا: أساطيرُ الأوَّلِينَ(٢٤)﴾ بِلسان الحال أو لسان المقال، وماذا ينفع المقالُ مَعَ المخالفة بالأعمال، أي: ليس (لعلَّه) لذلك وَقعٌ فِي قلوبهم؛ وَهُوَ بمنزلة أباطيل الأوَّلين، كذبوا عَلَى الله، وسيحيق بهم كذبهم.

﴿لِيَحمِلُوا أوزارهم كاملةً يوم القيامة﴾ ذنوبهم وذنوبَ أنفسهم، وإنَّما ذكر الكمال، لأَنَّ البلايا التِي تَلحقهم فِي الدُّنْيَا، وَمَا فعلوا مِنَ الحسنات لاَ تُكفِّر عَنْهُم شَيْئًا من صغائرهم، وَلاَ من كبائرهم، ﴿ومِن أوزارِ الذِينَ يُضلُّونَهم﴾ أي: قَالُوا ذَلِكَ إضلالاً للناس، فحملوا أوزار ضلالهم كاملة، وبعض أوزار من ضلَّ بضلالهم، وَهُوَ وزرُ الإضلال، لأَنَّ الـمُضِلَّ والضالَّ شريكان. وإن دعا أحدًا إِلَى الضلالة و لم يستجب لَهُ، كَانَ الداعي ضالاًّ والـمُدْعَى من[2] تلك الدعوة سالما. وإن [كان] أَثَرُ ضلالته كتبا وقراطيس،

١ - فِي الأصل: «آلهة»، وهو خطأ. انظر الزمخشري: الكشَّاف، ٤٦٧/٢.

٢ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «إلى»، أو فِي العبارة تقديم وتأخير، وأصلها: «سالما من تلك الدعوة».

يدعو عامَّة الناس إليها، وأحبَّ أن يُستَجَاب لـه في ضلالتـه، كـان في المعنى كأنْ دعَا الناسَ جميعا إلى تلك الضلالة، قَبِلَ من قبل ضلالته وردَّها من ردَّها.

وانظر فِي إبليس اللعين من حيث إنَّه دعا جميع الثقلين أن يعبدوه ويشركوا با لله، فاستجاب لَهُ من استجاب مِنْهُم، وَهُم الذِين حقَّ عَلَيْهِمُ القول أن تُملأَ بهم جهنَّم، وَهُم الأكثر من خلق ا لله، إلاَّ من رحم؛ ومنهم من استجاب لَهُ وتاب، فسلم المستجيب التائب، وثبت عَلَى الداعي وزر دعوته إِلَىَ الضلالة؛ ومنهم من عصمه ا لله من إضلاله فِي أشياء، واستجاب لَهُ فِي أشياء، فانظر مَا يتعاظم عليه مِنَ الوزر والعذاب إِلَىَ يوم القيامة.

وانظر إِلَىَ أنبياء ا لله ورسله، والعلماء بدينه، والأئمَّة فِي الدين، والأئمة المنصوبين[1]، حيث دعوا الناس كافَّة أن يُوحدوا ا لله ويعبدوه وَلاَ يشركوا بِهِ شَيْئًا، وأن يكفروا بالشيطان؛ فكَانَ لَهُم أجرهم وأجر من استجاب لَهُم، وأجرهم بدعوة من لم يستجب لَهُم إِلَىَ يوم القيامة؛ فانظر مَا يتضاعف لَهُم مِنَ الأجر، وكذلك من أَثَرَ الحقَّ يدعوا الناس إِلَيْهِ، وقد قَالَ ا لله: ﴿ونكتبُ مَا قدَّموا وآثارهم﴾[2]؛ ﴿بغير علم﴾ أي: يُضلُّون من لاَ يعلم أنَّهم ضُلاَّل **﴿ألاَ ساء مَا يزرُونَ(٢٥)﴾**.

**﴿قد مَكَرَ الذِينَ مِن قبلهم، فأتى ا لله بُنيَانَهم مِنَ القواعد، فخرَّ عَلَيْهِمُ السقفُ مِن فوقهم﴾** فقمع رؤسهم تعذيبا لَهُم، **﴿وأتاهم العذاب من حيث**

---

١ - في الأصل: «المبصوبين»، وهو خطأ.

٢ - سورة يس: ١٢.

**لاَ يشعرُونَ(٢٦)﴾** (لعلّه) أنـّهم معذّبون، وذلك أنَّ الْكَافِرِينَ لاَ يحسُّون بعذابهم فِي الدُّنـْيَا، لأَنـَّهُم يعدُّون العذاب نعمةً، والنعمةَ عذابا، وَهذا مثل قوله: ﴿أم مَّن أَسَّسَ بنيانَه عَلَى شفا جرفٍ هارٍ فانهار بِهِ فِي نار جهنَّم﴾[1] وهذا لِكُلِّ من أسَّس بنيان دينه عَلَى [٢٩٨] شيء مِنَ الباطل.

**﴿ثُمَّ يوم القيامة يـُخزِيهم﴾** يُذلُّهم بعذاب الخزي، سوى مَا عُذِّبوا بِهِ فِي الدُّنـْيَا، **﴿ويقول: أين شركائي؟﴾** عَلَى الإضافة إِلىَ نفسه، حكاية لإضافتهم، ليـُوبِّخهم بها عَلَى طريق الاستهزاء، **﴿الذِينَ كُنتُم تُشاقُّون فِيهِم﴾** تعادون وتخاصمون المؤمنين فِي شأنهم، لأَنَّ مُشاقـَّة المؤمنين كأنـَّها مُشاقـَّة الله، **﴿قَالَ الذِينَ أوتوا العلم﴾** أي: الأنبياء والعلماء من أممهم، الذِينَ كَانُوا يدعونهم إلى الإيمان، ويعظونهم (لعلّه) فلا يلتفتون إِلـَيْهِم ويُشاقُّونهم، يقولون ذَلِكَ شماتة؛ أو هُمُ المَلاَئِكَة. **﴿إنَّ الخزي اليوم والسوء عَلَى الْكَافِرِينَ(٢٧)﴾**.

**﴿الذِينَ تتوفَّاهم المَلاَئِكَة ظالمي أنفسهم، فألقوا السَّلَمَ﴾** أي: الصلح والاستسلام، لأَنـَّهُم فِي حال الحرب لله ولرسوله ودين الـمُسْلِمِينَ، كَانُوا مخالفين دينه بحرف وَاحِد، وَقَالُوا: **﴿مَا كُنـَّا نعمل من سوء﴾**، وهذا كقوله: ﴿يوم يبعثُهم الله جميعا فيحلِفُون لَهُ كما يَحلِفون لكم، ويحسبون أنـَّهم عَلَى شيء ألاَ إنـَّهم هم الكاذبون﴾[2]، وهذا فِي المتديِّنين الذِينَ يحسبون أنـَّهم

---

١ - سورة التوبة: ١٠٩.

٢ - سورة المجادلة: ١٨.

يُحسِنون صنعا، وَأَمَّا المتهكون فهم الذين وصفهم ا لله حيث قال: ﴿حَتَّى إذا جاء أحدَهم الموتُ قل رَب أرجعونِ، لعلِّي أعمـلُ صالحـا في مـا تركـتُ﴾[1]؛ فردَّت عليهم الملائكة قالوا: ﴿بلى إِنَّ ا لله عليمٌ بِمَا كُنتُم تَعْمَلُونَ(٢٨)، فادخلوا أبوابَ جَهَنَّم خالدين فِيهَا فلبِئْسَ مثوى المتكبِّرِينَ(٢٩)﴾ عَن توحيد ا لله وعبادته.

﴿وقيل للذين اتَّقَوا﴾ الكفرَ: ﴿ماذا أنزل رَبُّكُم؟ قَالُوا: خيرًا، للذين أحسَنوا فِي هَذِهِ الدُّنـيَا﴾ أي: وحَّدوا ا لله وعبدوه و لم يشركوا به شيئًا، ﴿حسنةٌ﴾، لأنَّهُم يتوصَّلون بحسنة الدنيا [إلى] حسنة الآخرة، فلذلك سُميت حسنةً، (لعلَّه) وإن نالتهم منها مشقَّة، ﴿وَلَدَارُ[2] الآخِرَة خيرٌ﴾ أي: ولهم فِي الآخِرَة مَا هُوَ خير منها كقوله: ﴿فآتاهم ا لله ثواب الدُّنْيَا وحُسْنَ ثواب الآخِرَة﴾[3]، ﴿ولَنِعم دار المتقِينَ(٣٠)﴾ دارُ الآخِرَة لاَ الدُّنْيَا.

﴿جَنَّات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لَهُم فِيهَا مَا يَشَاءون﴾ من أنواع المشتهيات؛ ﴿كذلك يَجزِي ا لله المُتَّقِينَ(٣١)﴾ مثل هَذَا الجزاء.

﴿الذِينَ تَتوفَّاهم المَلاَئِكَة طيِّبين﴾ طاهرين من ظُلمِ أنفسهم بالكفر، زاكية أفعالهم وأقوالهم ونيَّاتهم، لأَنَّهُ فِي مقابلة «ظالمي أنفسهم»، ﴿يقولون: سلام عليكم﴾ قيل: إِذَا أشرف العبد المؤمن عَلَى الهلاك بالموت جاءه مَلَك

١ - سورة المؤمنون: ٩٩-١٠٠.

٢ - في الأصل: «والدار» وَهُوَ خطأ.

٣ - سورة آل عمران: ١٤٨.

فيقول: «السلام عليك يا وليَّ ا لله، ا لله يقرأ عليك السلام»، وبشَّره بالجنَّة؛ وبقوله: **﴿ادخلوا الجَنَّة بِمَا كُنتُم تعْمَلُونَ(٣٢)﴾** بعملكم.

**﴿هل ينظرون﴾** مَا ينتظرون[1] هؤلاء الكفَّار، **﴿إلاَّ أن تأتيهم المَلاَئِكَةُ؟﴾** لقبض أرواحهم، **﴿أو يأتي أمرُ ربِّك﴾** أي: العذاب المستأصِل؛ **﴿كذلك﴾** مثل ذَلِكَ الفعل مِنَ الشرك والتكذيب **﴿فَعَل الذِينَ من قبلهم، وَمَا ظلمهم ا لله﴾** بتدميرهم، **﴿ولكن كَانُوا أنفسهم يظلمُونَ(٣٣)﴾** حيث فعلوا مَا استحقُّوا بِهِ التدمير.

**﴿فأصابهم سَيِّئَات مَا عَمِلوا﴾** جزاء سيئات أعمالهم، **﴿وحاق بهم مَا كَانُوا بِهِ يستهزءُونَ(٣٤)﴾** وأحاط بهم جزاء استهزائهم، والحيق: لاَ يستعمل [٢٩٩] إلاَّ فِي الشر.

**﴿وقال الذِينَ أشركوا﴾** الشرك الخفيُّ والجليُّ: **﴿لو شاء ا لله مَا عبدنا من دونه من شيءٍ نَحْنُ وَلاَ آباؤنا، وَلاَ حرَّمنا من دونه من شيء﴾**، هَذِهِ (لعلَّه) الآية حجَّة عَلَى الجبرية، فإنَّ ا لله ذمَّ الكفَّار حيث لعلَّ... (فِي التفسير ذهاب من قبل ضياع القرطاسة)[2]؛ **﴿كذلك فَعَلَ الذِينَ من قبلهم﴾** أي: كذَّبوا الرسل وحرَّموا الحلال، **﴿فهل عَلَى الرسل إلاَّ البلاغ الْمُبِين(٣٥)﴾**؟ إلاَّ أن يبلغوا الحقَّ، ويُبطِلوا الشرك وقبائحه، ثُمَّ بيَّن أنَّ البعثة أمرٌ جرت بِهِ

---

١ - كذا فِي الأصل، والأصوب: «ما ينظر».

٢ - يبدو أنَّ ما بين قوسين إضافة من الناسخ في المتن، فهي عبارة مقحمة في النصِّ، أي أنَّ النسخة التي اعتمدها كانت مخرومة.

السنّة الإلَهيّة فِي الأمم كلّها سببا لهدى من أَرَادَ اهتداءَه، وزيادةً لضلال من أَرَادَ ضلاله؛ كالغذاء الصالح، فإنّه ينفع المزاج السويّ، ويقويه، ويضرُّ المنحرف ويُفنِيه.

﴿**وَلَقَد بعثنا فِي كُلّ أُمَّة رسولا: أن اعبدوا ا لله**﴾ بِأَنْ وحدُوه وَلاَ تشركوا بِهِ شَيْئًا، ﴿**واجتنبوا الطاغوت**﴾: الشيطان وطاعته، أي: كونوا من حزب ا لله، وَلاَ تكونوا من حزب الشيطان، ﴿**فمنهم من هَدَى ا للهُ**﴾ باختياره الهدَى، ﴿**ومنهم من حقّت عليه الضلالة**﴾ أي: لزمت لاختياره إيّاها، ﴿**فسيروا فِي الأَرْض فانظروا كيف كَانَ عاقبة المكذِّبِينَ(٣٦)**﴾ حيث أهلكهم ا لله وأخلى ديارهم.

وحَرَصَ رسول ا لله عَلَى إيمانهم، وأعلمه أنّه مِن قِسمِ مَن حقّت عليه الضلالة[كَذَا]؛ فقال: ﴿**إن تحرصْ عَلَى هُداهم فإنَّ ا لله لاَ يهدِي من يُضلُّ وَمَا لَهُم من ناصرِينَ(٣٧)**﴾ يمنعونهم من جريان حكم ا لله عَلَيْهِم، ويدفعون عنهم عذابه الذِي أعدّ لَهُم، (لعلّه) وَالآيَة كقوله: ﴿وَمَا أكثرُ الناس ولو حَرصتَ بمؤمنين﴾[1] ﴿**وأقسموا**[2] **با لله جَهدَ أَيْمانهم لاَ يبعث ا لله من يموت، بلى**﴾ هُوَ إثبات لِمَا بعد النفي، أي: بَل يبعثهم، ﴿**وعدًا عليه حقًّا ولكنّ أكثر الناس لاَ يَعْلَمُونَ(٣٨)**﴾ أنّ وعده حقٌّ، أو لأَنّهُم يُبعثون.

---

١ - سورة يوسف: ١٠٣.

٢ - فِي الأصل «وقسموا» وَهُوَ خطأ.

﴿ليبيِّن لَهُم﴾ متعلّق بِمَا دَلَّ عليه «بلى»، أن[1] يبعثهم ليبين لَهُم؛ والضمير لمن يموت، وَهُوَ يشتمل المؤمنين والكافرين، ﴿الذِي يختلفون فِيهِ﴾ هُوَ الحقُّ، ﴿وليعلم الذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كاذبِينَ(٣٩)﴾ فِي قولهم: «لاَ يبعث ا لله من يموت».

﴿إنَّمَا قولنا لشيء إِذَا أردناه أن نقول لَهُ: كن، فيكُونُ(٤٠)﴾، أي: فهو يكون، أي: إِذَا أردنا وجود شيء فليس إِلاَّ أن نقول لَهُ: احدُثْ، فهو يحدث بلا توقُّف، وهذه عبارة عَن سرعة الإيجاد، [أي:] أن ليس مرادا يمتنع عليه، وأنَّ وجوده عند إرادته غير متوقّف كوجود المأمور بِهِ عند أمر الآمر المطاع إذا ورد عَلَى المأمور المطيع الممتثل، ولا[2] قولَ ثمَّة. والمعنى: أنَّ إيجاد كُل مقدور عَلَى ا لله تعالى بهذه السهولة؛ فكيف يمتنع عليه البعث الذِي هُوَ من بعض المقدورات، وكذلك لاَ يمتنع عليه كفر المطيع، وَلاَ طاعة من كفر، وهذه تخوف المؤمنين من تقلُّب الأحوال بهم، كما قَالَ: ﴿وَمَا تدري نفس ماذا تكسب غدا ومَا تدري نفس بأي أرض تموت﴾[3].

﴿وَالذِينَ هاجروا فِي ا لله﴾ وفي حقّه ولوجهه، ﴿من بعدِ مَا ظُلموا﴾ أي: أطاعوا ا لله فيمن عصى فِيهِم [٣٠٠]، ﴿لنبوِّئنَّهم فِي الدُّنْيَا حسنةً﴾ بكمال عقولهم ووضع الأمور مواضعها، ﴿ولأجرُ الآخِرَة أكبرُ﴾ من حسنة الدُّنْيَا، ﴿لو

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «أي:». انظر الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٤٧٢.

٢ - في الأصل: «والا»، وهو خطأ.

٣ - سورة لقمان: ٣٤. في الأصل: «وَلا تدري نفس ماذا تكسب غدا ولا تدري...»، وهو خطأ.

**كَانُوا يَعْلَمُونَ(٤١)﴾** لازدادوا فِي اجتهادهم وصبرهم؛ وقيل: الضمير لِلكُفَّارِ، أي: لو علموا أنَّ الله يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين[1] لوافقوهم. و**﴿الذِينَ صبروا﴾** على مشاق التكليف، **﴿وعلى ربِّهم يتوكَّلُونَ(٤٢)﴾** أي: يفوضون الأمر إِلَى ربهم، ويرضون بِمَا أصابهم فِي دين الله.

وَلَمَّا قيل: الله أعظم (لعلّه) من أن يكون رسولُه بشرًا نَزَلَ: **﴿وَمَا أرسلنا مِن قبلِك إلاَّ رجالاً نوحي إِلَيْهِم، فاسألوا أهل الذكر﴾** أهل العلم، والعلم هُوَ الذكر، لأَنَّهُ موعظة وتنبيه وحياة للجاهلين، **﴿إِن كُنتُم لاَ تَعْلَمُونَ(٤٣)﴾** (لعلّه)، لأَنَّهُم مُتعبَّدون بالسؤال عمَّا يلزمهم من جميع مَا أوجب الله عَلَيْهِم إِذَا جهلوه.

**﴿بالبَيِّنَاتِ والزُّبُرِ﴾** أي: بالبينات والكتب، **﴿وأنزلنا إليك الذكر﴾** أي: القرآن، **﴿لتبيِّن للناس مَا نُزِّل إِلَيْهِم﴾** فِي الذكر، مِمَّا أُمروا بِهِ ونُهوا عَنْهُ، ووُعِدوا بِهِ، وأُوعِدوا؛ (لعلّه) وبيانُ الكتاب يُطلَب مِنَ السنّة، **﴿ولعلّهم يتفكَّرُونَ[2](٤٤)﴾** فِي تنبيهاته فينتبهوا.

**﴿أفأمن الذِينَ مكروا السَّيِّئَاتِ﴾** أي: أخفوا المعاصي؛ وكأنَّ الآية نزلت فِي المنافقين، (لعلّه) ومن أين لَهُمُ الأمان مِنَ الله وَهُم قد بارزوه بالمعاصي؟!. **﴿أن يخسف الله بهم الأَرْضَ﴾** كما فعل بمن تقدَّمهم، **﴿أو يأتيهم العذاب من حيث لاَ يشعرُونَ(٤٥)﴾**، أي: بغتة، **﴿أو يأخذهم**

١ - في الأصل: «الدرين»، وهو سهو.

٢ - في الأصل: «يتكفرون»، وهو سهو.

**فِي تقلُّبهم﴾** أو يهلكهم متقلِّبين فِي مسايرهم ومتاجرهم، **﴿فما هم بِمُعجزِينَ(٤٦)﴾** سابقين ا لله.

**﴿أو يأخذَهم عَلَى تخوُّف﴾** متخوفين قد ظهرت لَهُم علامات الأخذ، **﴿فإنَّ رَبَّكُم لرءوف**[1] **رحيم(٤٧)﴾** (لعلَّه) إذ لم يُعجل عَلَيْهِم بالعقوبة.

**﴿أولم يروا إِلَى مَا خلق ا لله من شيء﴾** من [...]ـم[2] قائم لَهُ ظل، **﴿يتفيَّؤُا ظِلاله﴾** أي: يرجع **﴿عَن﴾** موضع إِلَى موضع، **﴿اليمين﴾** أي: الأيمان، **﴿والشمائل﴾** جمع شمال، **﴿سُجَّدًا لله﴾**، والمراد: مِنَ السجود الاستسلام، سواء كَانَ بالطبع أو الاختيار، (لعلَّه) بِمَيَلانها، [و]دورانُها سجودها لله، ويقال للظل بالعشي: فَاءَ، أي: رجع مِنَ المغرب إِلَى المشرق؛ واليمين: أوَّل النهار، والشمال: آخر النهار، **﴿وَهُم داخِرُونَ(٤٨)﴾** صاغرون. والمعنى: أو لم يروا إِلَى مَا خَلَق ا لله مِنَ الأجرام التِي لها ظلال متفيئة عَن أيمانها وشمائلها، أي: ترجع الظلال من جانب إِلَى جانب، منقادة لله تعالى غير ممتنعة عليه فيما سخَّرها لَهُ مِنَ التفيُّئِ، والأجرام فِي أنفسها داخرة أَيْضًا، صاغرة منقادة لأفعال ا لله فِيهَا غير ممتنعة عليه.

**﴿و لله يسجد مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْض من دابَّة﴾** بيان لِمَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْض جميعًا، عَلَى أنَّ فِي السَّمَاوَات خلقًا يدبُّون فِيهَا كما تدبُّ الأناسي فِي الأَرْض، أو بيان لِمَا فِي الأَرْض وحده، والمراد بِمَا فِي

---

١ - فِي الأصل «لغفور» وَهُوَ خطأ.

٢ - طمس فِي الأصل قدر حرف.

السَّمَاوَات: ملائكتهنَّ؛ ويقال: السجود: الطاعة، والأشياء كلُّها مطيعة لله عزَّ وجلَّ، من حيوان وجماد، قَالَ الله: ﴿قالتا: أتينا طائعين﴾[1]؛ وقيل: سجود الأشياء: تذلُّلها وتسخيرها لِمَا أُريدت لَهُ؛ وقيل: [٣٠١] سجود الجمادات وَمَا لاَ عقل لَهُ: ظهور أثر الصنع فِيهِ عَلَى معنى أنَّه يدعو العاقلين إِلَى السجود لله عند التَّأمُّل والتدبُّر فِيهِ؛ قَالَ الله تعالى: ﴿سَنُرِيهم آياتنا فِي الآفاق وفي أنفسهم﴾[2].

﴿والمَلاَئِكَة﴾ خصَّ المَلاَئِكَة بالذكر ـ مَعَ كونهم من جملة مَا فِي السماوات والأَرْض ـ تشريفا لَهُم ورفعا لشأنهم؛ وقيل: لخروجهم مِنَ الموصوفين بالدبيب، إذ لَهُم أجنحة يطيرون بها؛ وقيل: المراد بسجود المكلَّفين: طاعتهم وعبادتهم، وبسجود غيرهم: انقياده لإرادة الله، ﴿وَهُم لاَ يستكبرُونَ(٤٩)﴾ (لعلّه) يعني المَلاَئِكَة، ﴿يخافون ربَّهم﴾ أي: لاَ يستكبرون، خائفين ﴿مِن فوقِهم﴾ إن علّقته بـ«يخافون» فمعناه: يخافونه أن يرسل عليهم عذابا من فوقهم، وإن علّقته بربهم حال منهم، فمعناه: يخافون ربَّهم عاليا لَهُم، قاهرا، كقوله: ﴿وَهُوَ القاهر فوق عباده﴾[3]، ﴿ويفعلون مَا يُؤمرُونَ(٥٠)﴾، وكأنَّ هَذَا دليل عَلَى أنَّ المَلاَئِكَة مكلّفون، مدارون عَلَى الأمر والنهي، وأنَّهُم بين الخوف والرجاء، (لعلّه) وإذا كَانَ المَلاَئِكَة بين الخوف والرجاء مَعَ أنَّهم لاَ يعصونه طرفة عين وَلاَ يسأمون. (لعلّه) صبائغ فِي القرطاسة عَن تمام الكلام والإنس [كَذَا]، ولكنَّ الخوف مِنْهُ عَلَى قدر المعرفة بِهِ تبارك وتعالى.

---

١ - سورة فصّلت: ١١.

٢ - سورة فصّلت: ٥٣.

٣ - سورة الأنعام: ١٨.

﴿وقال الله: لاَ تتَّخذوا إلهين اثنين﴾ أي: لاَ يتّفق أن يكون لكم أن تعبدوا الله والهوى في حال مِنَ الحال، ﴿إنَّمَا هُوَ إله واحد﴾ معبودٌ وَاحِد، وَلاَ يستقيم إِلاَّ لمخالفة الهوى كما قَالَ: ﴿ونهى النفس عَن الهوى﴾[1]، ﴿فإيَّايَ فارهبونِ(٥١)﴾ من أن تتّخذوا إلها غيري.

﴿وَلَهُ مَا[2] فِي السَّمَاوَات والأَرْض وَلَهُ الدين واصبًا﴾ واجبًا ثابتًا، لأَنَّ كُلَّ نعمة مِنْهُ، فالطاعة واجبة لَهُ عَلَى كلِّ مُنعَمٍ عليه، أو وله الجزاء دائما، يعني الثواب والعقاب؛ وقيل معناه: ليس من أحد يدان لَهُ ويطاع إِلاَّ انقطع ذَلِكَ عَنْهُ بزوال وهلاك غير الله عزَّ وجلَّ، وأنَّ الطاعة تدوم لَهُ وَلاَ تنقطع، ﴿أفغير الله تتقُونَ(٥٢)؟﴾ أي: تخافون؛ استفهام عَلَى معنى الإنكار.

﴿وَمَا بكم من نعمة﴾ وأيُّ: شيء اتّصل بكم من نعمة إيجاد وإمداد وعافية دينيَّة ودنياويَّة، ﴿فمن الله﴾، فلأيِّ شيء تعبدون غير الله، ﴿ثُمَّ إِذَا مسَّكم الضرُّ﴾ المرض والفقر وغيرهما، ﴿فإِلَيْهِ تُجأرُونَ(٥٣)﴾ تصيحون وتضجُّون بالدعاء، ﴿ثُمَّ إِذَا كشف الضرَّ عنكم إِذَا فريق منكم بِربهم يُشركُونَ(٥٤)﴾ يرجعون إِلَى طاعة إبليس، وينسون مَا مرَّ بهم.

﴿ليكفروا بِمَا آتيناهم﴾ من نعمة الكشف عَنْهُم، كأنَّهم جعلوا غرضهم فِي الشرك كفران النعمة، ثُمَّ أوعدهم فقال: ﴿فتمتَّعوا﴾ أي: عيشوا فِي اللذَّة، فِي المدَّة التِي صيَّرناها لكم، ﴿فسوف تَعْلَمُونَ(٥٥)﴾ عاقبة أمركم.

---

١ - سورة النازعات: ٤٠.

٢ - في الأصل: «وله من»، وهو خطأ.

﴿ويجعلون لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ﴾ لَهُ حقًّا، أي: الأصنام ﴿نصيبًا مِمَّا رزقناهم﴾ مِنَ الأموال، وَهُوَ مَا جعلوا للأوثان من حروثهم وأنعامهم، ﴿فَقَالُوا: هَذَا للهِ بزعمِهم وهذا لشُرَكائنا﴾[1]؛ أو «هَذَا» لِمَا ينفقونه، ﴿تا الله لتُسألنَّ﴾ وعيد، ﴿عَمَّا كُنتُم تفترُونَ(٥٦)﴾ أنَّها آلهة، وأنَّها أهل للبذل.

﴿ويجعلون للهِ البناتِ﴾، قيل: كَانَت خزاعة وكنانة تقول: «المَلاَئِكَة بنات الله»، ﴿سبحانه﴾ تنزيه لذاته، ﴿وهم مَا يشتهُونَ(٥٧)﴾ [٣٠٢] أي: جعلوا لأنفسهم مَا يشتهون مِنَ الذكور.

﴿وإذا بُشر أحدهم بالأنثى ظلَّ وجهه مسودًّا﴾ متغيِّرًا مِنَ الغمِّ والكراهيَّة، ﴿وَهُوَ كظيم(٥٨)﴾ ممتلئ غيظا وحزنا، فهو يكظمه، أي: يمسكه وَلاَ يُظهره، ﴿يتوارى﴾ يختفي ﴿من القوم من سوء مَا بُشر بِهِ﴾ من أجل سوء المبشَّر بِهِ، ومن أجل تعييرهم، ويُحدِّث نفسه وينظر ﴿أَيُمسِكه عَلَى هُونٍ﴾ أيمسك مَا يُبشَّر بِهِ عَلَى هوان وذلٍّ، ﴿أم يَدُسُّهُ فِي التراب﴾ أم يئده، ﴿ألاَ ساء مَا يحكمُونَ(٥٩)﴾ بِئْسَ ما يحكمون لله البنات، ولأنفسهم البنين؛ نظيره: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأنثى...﴾[2] الآيَة.

﴿للذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة مثلُ السَّوءِ﴾ جهنَّم، (لعلَّه) وَمَا جرَّ إليها، ﴿و لله المثلُ الأعلى﴾ وَهُوَ أنَّه لاَ إله إِلاَّ الله، ﴿وَهُوَ العزيزُ الحكيمُ(٦٠)﴾.

---

١ - سورة الأنعام: ١٣٦.

٢ - سورة النجم: ٢١؛ وتمام الآيَة: ﴿الكم الذكر وله الأنثى، تلك إذًا قسمةٌ ضيزَى﴾.

﴿ولو يُؤَاخِذُ ا لله الناسَ بظُلمِهم مَا تَرَكَ عليهـا﴾، عَلَى الدُّنـيَا، ﴿من دابَّة﴾ قطُّ، ولأهلَكَها، ولَقامت الساعةُ، ﴿ولكن يُؤخِّرهم إلَى أجل مسمًّى﴾ أي: أجل كُلِّ أحد؛ أو وقت[1] تقتضيه الحكمة؛ أو القيامة، ﴿فإذا جاء أجلهم لاَ يستأخرون ساعة وَلاَ يستقدمُونَ(٦١)﴾.

﴿ويجعلون لله مَا يكرهون﴾ مَا يكرهونه لأنفسهم، ﴿وتصِفُ ألسنتُهم الكذبَ﴾ مَعَ ذَلِكَ، أي: يقولون الكذب، ﴿أنَّ لَهُمُ الحسنى﴾ (لعلّه) فِي الدارين، إن كَانَ البعث حقًّا، ﴿لاَ جرم أنَّ لَهُمُ النارَ وَأنَّهُمْ مُّفرَطُونَ(٦٢)﴾ مِنَ الحسنى، مقدَّمون إلَى النار معجَّلون إلَيْها.

﴿تا لله[2] لَقَد أرسلنا إلَى أممٍ مِن قبلِك﴾ أي: أرسلنا رسلا إلَى من تقدَّمك مِنَ الأمم، ﴿فزيَّن لَهُمُ الشيطان أعمالهم فهو وليُّهم اليومَ﴾ ناصرُهم اليوم، وَهُوَ عَلَى التوبيخ، ﴿ولهم عذاب أليم(٦٣)﴾.

﴿وَمَا أنزلنا عليك الكتاب إلاَّ لتبين لَهُم[3]﴾ إلاَّ للتبيين، لا عبثا وَلاَ لعبا ﴿الذِي[4] اختلفوا فِيهِ﴾ مِنَ الدين والأحكام، ﴿وهدًى ورحمةً لقوم يُؤْمِنُونَ(٦٤)﴾.

---

١ - في الأصل: «أحدا وقت»، وهو خطأ.

٢ - فِي الأصل «تابى ا لله» وَهُوَ خطأ.

٣ - فِي الأصل: - «لهم»، وهو سهو.

٤ - في الأصل: «الذين»، وهو خطأ.

﴿وَا للهُ أنزل مِنَ السَّمَاء ماءً فأحيا بِهِ الأَرْض بعدَ موتها، إنَّ فِي ذَلِكَ لآيةً لقوم يَسمعُونَ(٦٥)﴾ سماعَ تدبُّر وتفهُّم، لأَنَّ من لم يسمع بقلبه، فكأنَّه لاَ يسمع، ﴿وإنَّ لكم فِي الأنعامِ لَعِبرةً نُسقيكم ممَّا فِي بطونه من بين فَرْثٍ ودَمٍ لَبنًا خالصا﴾ (لعلّه) شيئين مختلفين كل واحد[كَذَا]. سئل شقيق عَن الإخلاص فقال: «تمييز العمل مِنَ العيوب، كتمييز اللبن من بين الفرث والدم»[1]. ﴿سائغا للشاربِينَ(٦٦)﴾ سهل المرور فِي الحلق.

﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتَّخلون مِنْهُ سَكَرًا ورزقا حَسنًا﴾ هُوَ الخلُّ والرُّبُّ والتمر والزبيب، وغير ذَلِكَ، ﴿إنَّ فِي ذَلِكَ لآيةً لقوم يعقلُونَ(٦٧)﴾.

﴿وأوحَى ربُّك﴾ أَلْهَمَ، كما يُلهِم سائر الحيوان لمصالحها، ﴿إلَى النحل أنِ اتَّخِذِي مِنَ الجبالِ بيوتا ومن الشجر وممَّا يَعرِشُونَ(٦٨)﴾ يرفعون من سقوف البيت، أو بِمَا يبنون للنحل، ﴿ثُمَّ كُلِي من كُل الثمرات، فاسلكي سُبُلَ رَبكَ ذُلُلاً﴾، جمع ذَّلول، وهي حال مِنَ السبل، لأَنَّ ا لله ذلّلها وسهّلها؛ أو أنت ذُّللاً منقادة لِمَا أُمِرَت بِهِ غير ممتنعة، ﴿يخرج من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانُه﴾ مِنْهُ أبيضُ وأصفر وأحمر، من اختلاف قبائله أو أغذيته، ﴿فِيهِ شفاء للناس، إنَّ فِي ذَلِكَ لآية لقوم يتفكَّرُونَ(٦٩)﴾ [٣٠٣] فِي عجيب أمرها، فيعلمُ أنَّ ا لله أودعها عِلما بذلك وفَطنَها، كما أَوْلَى أُولِي العقول عُقولهم، وإنَّ مَن تَدَبَّر اختِصَاصَ النَّحلِ بِتِلك العلوم الدقيقة، والأفعال

١ - الزمخشري: الكشاف، ٤٧٩/٢.

العجيبة حقَّ التَّدبُّر عَلِمَ قَطعًا أنَّه لاَ بُدَّ لها مِن قَادِر حَكِيم يُلهِمُها ذَلِكَ، ويَحمِلُها عليه.

﴿وا للهُ خَلَقَكم ثُمَّ يَتوَفَّاكُم، ومِنْكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرذَلِ العُمُر﴾ إِلَى أَخَسِّه وأحقَرِه، وَهُوَ الهرم الذِي يُشَابِه الطفوليَّة فِي نُقصَان الجسم والقُوَّة والعقل، ﴿لِكَيْ لاَ يَعلَمَ بَعدَ عِلمٍ شَيْئا﴾ كيلا يعلم، زيادة علم عَلَى علمه؛ أو لكي لا يعلم شَيْئا بعد علم، أي: يَذهَب مَا عَلِمَ. ﴿إِنَّ ا للهَ عليم قدير(٧٠)﴾ عَلَى تَبدِيل مَا يَشَاء كَما يَشَاء.

﴿وا للهُ فَضَّل بَعضَكم عَلَى بعضٍ فِي الرزقِ﴾ أي: جَعَلكُم مُتفَاوِتِين فِي الرِّزق؛ فَرَزَقَكُم أفضَلَ مِمَّا رَزَقَ مَمَالِيككم وَهُم بَشَرٌ مِثلكُم؛ ﴿فَمَا الذِينَ فُضلُوا﴾ فِي الرِّزق يَعنِي المُلاَّكَ، ﴿بِرَادي﴾ بِمُعطِي ﴿رِزقِهِم عَلَى مَا مَلَكَت أَيْمَانُهم﴾ وكَانَ يَنْبَغِي أنْ تَرُدُّوا فَضلَ مَا رُزِقتُمُوه عَلَيْهِم حتَّى تَتَسَاوَوا فِي الملبس والمطعم، ﴿فَهُم فِيهِ سَوَاءٌ﴾ تَقدِيرُه: «فَمَا الذِينَ فُضِّلوا بِرَادِّي رِزقِهِم عَلَى مَا مَلَكت أيمانُهم فَيستَوُوا مَعَ عَبِيدِهم فِي الرِّزق»؛ وَهُوَ مَثَلٌ ضَرَبَه للذين جَعَلُوا لَهُ شُرَكاء؛ فَقَال لَهُم: أَنتُم لاَ تُسَوُّون بَيْنَكم وبَينَ عَبِيدكم فيما أنعمت بِهِ عَلَيْكُم، وَلاَ تجعلونهم فِيهِ شركاء، وَلاَ تَرضَونَ ذَلِكَ لأنفسِكم؛ فكيف رَضِيتُم أن تَجعَلُوا عَبِيدِي لِي شُركَائي. قَالَ قَتَادة: «هَذَا مَثَلٌ ضَرَبه ا للهُ عزَّ وجلَّ، فهل مِنكُم أحدٌ يُشرِكُه مَملُوكُه فِي زوجته وفِراشِه ومَالِه؟ أفَتَعدِلُون با للهِ خَلقَه وعِبَادَه؟! تعالى عَن ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا». ﴿أَفَبِنِعمَة ا للهِ يَجحَدُونَ(٧١)﴾ بالإشراك بِهِ.

﴿وا الله جَعَل لَكُم مِن أنفُسِكم أزوَاجًا﴾ مِن جنسِكُم، ﴿وجَعَل لَكُم من أَزوَاجِكم بَنِينَ وحَفَدَةً﴾ جَمْعُ: حافِد، وَهُوَ الذِي يَحفَدُ، أي: يُسرِعُ فِي الطاعَة والخِدمَة، واختُلِفَ فِيهِ، فَقِيلَ: هُمُ الأختان عَلَى البَنَات، وقيل: أولاد الأولادِ، وقيل: الخَدَمُ، وقيل: الأصهَارُ، وقيل: الأعوان، وقِيلَ: كِبارُ الأولاد المُعينِين عَلَى الأعمال، وقيل: الرَّبائِب. ﴿وَرَزَقَكم منَ الطيبَات﴾ أي: بَعضها، لأنَّ كُلّها فِي الجنّة، وطَيِّبات الدُّنيَا أنمُوذَجٌ؛ ﴿أفَبِالبَاطِل يُؤمِنُون﴾ هُوَ مَا يَعتَقِدون مِن (لَعَلَّهُ) مَنفَعَة الأصنام، أو مُتَابَعتهم للوساوِسِ[1] الشَّيطَانِيَّة، ﴿وبِنعمَةِ ا الله هُمْ يَكفرُونَ(٧٢)﴾ أو الباطل: الشيطان وَمَا يُزَيِّنُه، والنعمة: رحمةُ ا الله.

﴿ويَعبُدُون مِن دُونِ ا الله مَا لاَ يَملِكُ لَهُم رزقًا مِنَ السَّمَاوَات والأَرْضِ شَيئًا، وَلاَ يَستَطِيعُونَ(٧٣)﴾ المعنى: لاَ يَملِكُون شَيئًا مِنَ الرِّزق وَلاَ مِنَ النَّفع وَلاَ مِنَ الضُّرِّ، وَلاَ يَتَأَتَّى ذَلِكَ فِيهِم، (لَعَلَّهُ) ويَدخُل فِي ذَلِكَ المَال والأَهْلُ الشَّاغِلاَن عَن ذِكرِ ا الله.

﴿فَلاَ تَضرِبُوا للهِ الأمثَالَ﴾ فَلاَ تَجعَلُوا لله مثلاً، فإنّه لاَ مثلَ لَهُ، أي: فَلا تَجعَلوا لَهُ شُرَكَاء، ﴿إنَّ ا الله يَعلَم﴾ أنّه لاَ مِثلَ لَهُ مِنَ الخَلقِ، ﴿وأنتُم لاَ تَعْلَمُونَ(٧٤)﴾ خطَأَ مَا تَضرِبُون مِنَ الأمثَال.

﴿ضَرَبَ ا الله مَثَلاً عَبْدًا مَملُوكًا لاَ يَقدِرُ عَلَى شَيء، ومَن رَّزَقنَاه مِنَّا رِزقًا حَسَنا، فَهُو يُنفِقُ مِنهُ سِرًّا وجَهرًا﴾ أي: مَثَلُكُم فِي إشرَاككُم با الله

١ - في الأصل: «للوساس»، وهو خطأ.

الأوثانَ، [كـ]ـمَثَل مَن سَوَّى بَينَ عَبدٍ مَملُـوكٍ عَـاجزٍ عَـنِ التّصـرُّفِ، [٣٠٤] وبين حُرٍّ مَالكٍ قَد رَزَقَه ا للهُ مَالاً، فَهوَ يَتصرَّف فِيهِ ويُنفِقُ مِنْهُ كيـف يَشَـاءُ؛ وقُيِّد بالمملُوك لِيُمَيِّزَ مِنَ الـحُـرِّ، لأنَّ اسمَ العبدِ يَقَـعُ عليهمـا جميعـا، إذ هُمَـا مِن عِبَاد ا للهِ؛ وقيل: هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَـهُ ا للهُ لِلمُؤمِـن والكـافر، ﴿هـل يَسـتوُون؟ الحمدُ للهِ بَل أكثرُهم لاَ يَعْلَمُونَ(٧٥)﴾ إنَّ الحمدَ والعبادةَ للهِ.

ثُمَّ زاد فِي البيان فَقَال: ﴿وضَرَبَ ا للهُ مَثَلاً رَّجُلَين أحدُهما أبكَمُ لاَ يَقدِر عَلَى شَيءٍ﴾ الأبكَم: الذِي وُلِدَ أخرس، فَـلا يـَفهم وَلاَ يـُفهم، ﴿وَهُـوَ كَـلٌّ عَلَى مَولاَهُ﴾ أي: ثِقْلٌ وعِيَال عَلَى مَن يَلِـي أمـرَه ويَعُولُـه؛ ﴿أيْنَمَـا يُوَجهـهُ لاَ يَأتِ بِخَيْرٍ﴾ حيثُ مَا يُرسِلُه ويَصرِفُه فِي مَطلَبِ حَاجَـة، أو كِفَايـة فَهـمٍ[1]، لم يَنفَع و لم يَأتِ بنجح، وَهُوَ يُفسِدُ وَلاَ يُصلِح، ﴿هَل يَسـتَوِي هُـوَ ومَـن يَـأمُـرُ بالعدلِ﴾؟ أي: ومَن هُوَ سَلِيمُ الحواس نَـفّاع ذُو كـفَايات مَـعَ رُشـدٍ ودِيَانَـة؛ فَهُـو يَـأمُـرُ النـّـاس بـالعدل والخـير ﴿وَهُـوَ﴾ فِي نَفسِـه ﴿عَلَـى صِـرَاطٍ مُّسْتَـقِيم(٧٦)﴾ عَلَى سِيرَة صالحة ودين قـيِّم قويم؛ وهذا مَثَـلٌ ثَـانٍ ضَرَبَـه لِنَفسِه وَلِمَـا يفِيـضُ عَلَـى عبـاده مِـن آثـار رَحمَتِـه ونعمَـه، وغِنَـاه عَـن خَلقِـه، ولِلأصنَام التِـي هِيَ مَوَاتٌ لاَ تَضُـرُّ وَلاَ تَنفَـعُ؛ وقِيـل: لِلمُؤمِـنِ والكـافرِ، وهـو كقوله: ﴿أفَمَن يَّمشي مكبًّا عَلَى وجهِـهِ أهـدَى، أمـَّن يَّمشي سَوِيـًّا عَلَـى صِرَاطٍ مُّسْتَـقِيم﴾[2] ويَدخُل فِيهِ تَدبِـيرُ مَعَاشِـه، وإصـلاح مُعَامَلَتِـه لِخَالِقِـه،

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «مهمٍّ». انظر: الزمخشري: الكشّاف، ٤٨٥/٢.

٢ - سورة الملك: ٢٢.

وللخلق فيما بينه وبينهم، وإصلاح نفسه، ومَركَز جميع اصطلاحات سَلامة القلب مِنَ الأهْوِيَةِ والأمراض.

﴿و لله غَيبُ السَّمَاوَات والأرْض﴾ أي: يختصُّ بِهِ علم مَا غَابَ فيهما عَن العبادِ، وخَفِيَ عَلَيْهِم عِلمُه؛ أو أرَادَ بغَيبِ السَّمَاوَات والأرْض يَومَ القيامة، عَلَى أنَّ علمه غائب مِن أهلِ السَّمَاوَات والأرْض لم يَطَّلِع عَلَيه أحد مِنْهُم؛ ﴿وَمَا أمرُ السَّاعة﴾ فِي قُرب كونها، وسرعة قيامها، ﴿إلاَّ كلمح البصر﴾ كَرَجْع طرفٍ مِن أعلى الحدَقَة إلَى أسفلها؛ وإنَّما ضرب بِهِ المثل، لأنَّهُ لاَ يُعرف زمان أقلُّ مِنْهُ؛ ﴿أو هُوَ﴾ أي: الأمر ﴿أقرب﴾ وليس هَذَا للشَّك ولكنَّ المعنى كونوا في كونها عَلَى هَذَا الاعتبار، وقيل: بَل هُوَ أقرب، ويقتضي ذَلِكَ انقضاء أجل كلِّ نفس، لأنَّهَا إذَا انقضى أجلها كأنَّ قيامتها قد قامت، ﴿إنَّ ا لله عَلَى كُل شيء قدير(٧٧)﴾ فهو يَقدِر عَلَى أن يقيم الساعة، ويبعث الخلق، لأنَّهُ بعض المقدورات؛ ثُمَّ دلَّ عَلَى قدرته بِمَا بعد، فقال:

﴿وا لله أخرجَكم مِن بُطُون أمَّهاتكم لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ مُستَصحبين جهل الجماديَّة[كَذَا]، لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا من حقِّ المنعِم الذِي خلقكم فِي البطون، وَلاَ تَعْلَمُونَ قدرَ أنفسكم، ﴿وجعل لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ لَعَلَّكُم تشكرُونَ(٧٨)﴾ أي: وَمَا ركَّب فيكم هَذِهِ الأشياء والاالآت[1].

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ في العبارة خطأً ونقصًا تقديره: «وَمَا ركَّب فيكم هَذِهِ الأشياء والآلات إلاَّ لتشكروا». وَفِي تفسير الزمخشري: «معناه: وما ركَّب فيكم هَذِهِ إلاَّ آلات لإزالة الجهل الذي ولدتم عَلَيه، واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه...» إلخ. الزمخشري: الكشَّاف، ٤٨٦/٢.

﴿ألم يَرَوا إِلَى الطيرِ مسخَّرات﴾ مُذلـَّلات للطَّيـران بِمَا خلق لها مِنَ الأجنحة والأسباب المواتيـَّة لذلك، ﴿فِي جو السَّمَـاء مَا يُمسكهنَّ﴾ فِي قبضهنَّ وبسطهنَّ ووقوفهنَّ ﴿إِلاَّ ا لله﴾ بقدرته؛ وفيه نفي لِمَا يُصـوِّره الوهم من خاصيـَّة [٣٠٥] القوى الطبيعيـَّة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيات لقوم يُؤْمِنُونَ(٧٩)﴾ بأنَّ الخلقَ لاَ غِنى بِهِ عَن الخالق.

﴿وا لله جعلَ لكم من بيوتكم سَكَنا﴾ موضعا تسكنون فِيهِ وقت إقامتكم، كالبيوت المتَّخذة مِنَ الحجر والمدَر، ﴿وجعل لكم مِن جلود الأنعام بيوتا﴾ هِيَ قباب الأدم، ﴿تستخفُّونها﴾ لأنـَّهَا خفيفة المحمل فِي الضرب والنقض والنقل، ﴿يومَ ظَعَنِكم ويومَ إِقَامَتكم﴾ قراركم من[1] منازلكم؛ والمعنى أنـَّها خفيفة عَلَيكم فِي أوقات السفر والحضر؛ عَلَى أنَّ «اليوم» بمعنى الوقت. ﴿ومِن أصوافها﴾ أصواف الضأن، ﴿وأوبارها﴾ أوبار الإبل، ﴿وأشعارها﴾ أشعار المعز، ﴿أثاثا﴾ أثاث البيت، ﴿ومتاعا﴾ وشَيْئًا ينتفع بِهِ ﴿إِلَى حِينَ(٨٠)﴾ مُدَّة مِنَ الزمان.

﴿وا لله جعلَ لَكم مِمَّا خلقَ ظِلالا﴾ كالأشجار والسقوف، تستظلُّون (لعلَّه) تحتها، ﴿وجعلَ لَكم مِنَ الجبال أكنَانًا﴾ جمع كِنٌّ، وَهُوَ مَا سترك من كهف وغار، ﴿وجعل لكم سرابيلَ﴾ هِيَ القمصان والثياب، من الصوف والكتَّان والقطن ﴿تَقِيكُم الحَرَّ﴾ وهي تَقِي البرد أَيْضًا، إِلاَّ أنـَّه اكتفي

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «في».

بأحدِ الضدَّين، ﴿وسرابيل تَقِيكم بأسكم﴾ ودُرُوعا مِـنَ الحديـد تَـردُّ عنكـم سلاح عدوكم فِي قتالكم؛ والبأس: شدَّة الحر، والسـربال: عـامٌّ يقـع عَلَـى مَـا كَانَ مِن حديد أو غيره، ﴿كذلك يُتِمُّ نعمته عَلَيْكُم لَعَلَّكُم تُسـلمُونَ(٨١)﴾ أي: تنظرون فِي نعمته الفائضة، فتؤمنون بِهِ وتنقادون لَهُ؛ وانظر مَا عـدَّد هنـا، وهي قليلة حقيرة مِمَّا أفاض عَلَى خلقه من نعمـه الدينيـَّة الدنيويـَّة، وكلُّهـا تُسمَّى نعمة إِذَا أعانت وأوصلت إِلَى النعمة الأبديَّة.

﴿فـإن تولـَّوا﴾ أعرضـوا عَـن الإسـلام ﴿فَإِنـَّمَا عليـك البـلاغُ الْمُبِين(٨٢)﴾ أي: عليك تبليغ الحجَّة، وَلاَ عليك تَبِعَة إن تولـَّوا.

﴿يعرفون نعمةَ ا لله﴾ التِي عدَّدناها بأقوالهم، فإنـَّهم يقولـون: إنـَّها مِـنَ ا لله تعالى، ﴿ثمَّ يُنكِرونها﴾ بأفعالهم، حيث عبدوا غير المنعم؛ وإنكـارهم لهـا كُفرهـم بهـا، والاستهانة بهـا، والاستخفاف بثوابهـا، والاستنقاص (لعلـَّـه) بفاعلها، وَلاَ يجوز أن ينتفع بشيء يُنكره؛ فمن ذَلِكَ (لعلـَّه) استحالت النعمـة فِي حق[1]. ﴿وأكثرُهم الْكَافِرُونَ(٨٣)﴾ إمـَّا بالقول أو بالنيـَّة أو بـالفعل، أو بأحدها، وحقُّ مَن عَرَفَ النعمةَ أن يَعترِفَ وَلاَ يُنكر.

﴿ويوم نبعث مِن كُلِّ أُمـَّةٍ شهيدا﴾ مُحقـًّا من نبيٍّ أو الإمـام[2] أو عـالم يشهد للمحق بِالْحـَق، وَعَلَى المبطلِ بالباطل؛ ﴿ثمَّ لاَ يُؤذَنُ للذين كَفَرُوا﴾ فِي

---

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ فِي العبارة سقطا.

٢ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الأصوب: «إمامٍ»، بالتنكير.

الاعتذار، ﴿وَلاَ هم يُستَعْتَبُونَ(٨٤)﴾ يُسترضون، أن لا يُقال لَهُم: ارضوا بربّكُم، لأَنَّ الآخِرَة ليست بدار عمل.

﴿وإذا رأى الذِينَ ظَلَموا﴾ أنفسَهم بالكفرِ ﴿العذابَ، فلا يُخفَّف عَنْهُم وَلاَ هم يُنظَرُونَ(٨٥)﴾ وَلاَ هم يُمهلون.

﴿وإذا رأى الذِينَ أَشرَكوا شُركاءهم﴾ أوثانهم التِي عبدوها، وَمَا أَحصى عَلَيْهِم فِي الكتاب من أعمالهم القبيحة، لأَنَّهَا فِي الحقيقة أوثان وشركاء لله، ﴿قَالُوا: رَبَّنَا هَؤُلاَءِ شُرَكاؤُنا﴾ أي: آلهتنا التِي جعلناها شُرَكَاء؛ وفي المعنى أنـَّها تعمُّ جميع معاصي الله تعالى؛ ﴿الذِينَ كُنـَّا نَدعُو مِن دونك﴾ أي: نعبدها ونعملُها، ﴿فألقوا إِلَيْهِم القولَ إِنـَّكُم لكاذبُونَ(٨٦)﴾ أي: أجابوهم [٣٠٦] بالتكذيب فِي تَسميتّهم شركاء وآلهة، تنزيها لله مِنَ الشريك.

﴿وألقوا﴾ يعني: الذِينَ أشركوا ﴿إِلَى الله يومئذٍ السلَمَ﴾ إلقاء الاستسلام لأمر الله وحكمه بعد الإيباء والاستكبار فِي الدُّنـيَا، ﴿وضلَّ عَنْهُم﴾ وبَطلَ عَنْهُم ﴿مَا كَانُوا يفترُونَ(٨٧)﴾ من أنَّ لله شُركاء بقولهم وفعلهم.

﴿الذِينَ كَفَرُوا وصدُّوا عَن سبيل الله﴾ أي: حملوا غيرهم عَلَى الكفر ﴿زدناهم عذابا فوق العذابِ﴾ عذابا بالكفر، وعذابا بالصد ﴿بمَا كَانُوا يُفسدُونَ(٨٨)﴾ مَا أصلحه الله وأنبياؤه وأهل دينه.

﴿ويوم نَبعث فِي كُلِّ أُمَّة شهيدا عَلَيْهِم مِن أنفسهم﴾ هُوَ كلُّ إمام محقٍّ فِي أمَّة ﴿وجئنا بك شهيدا عَلَى هَؤُلاَءِ﴾ عَلَى أُمـَّتك ﴿ونزَّلنا[1] عليك الكتاب

١ - فِي الأصل «وأنزلنا» وَهُوَ خطأ.

**﴿تِبْيَانًا﴾** بيانا بليغا **﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾** من أمور الدين والدُّنْيَا **﴿وهدى ورحمة وبُشرى للمسلمِينَ(٨٩)﴾** ودلالةً إِلىَ الخلق، ورحمةً للمؤمنين، وبشارة بالجنّة لَهُم.

**﴿إِنَّ ا لله يَأْمُرُ بالعدل﴾** وَهُوَ أن تُسوُّوا فِي الحقوق فيما بينكم، وترك الظلم، وإيصال كل ذي حقٍّ إِلىَ حقه، **﴿والإحسان﴾** بِأن تُحسنوا إِلىَ أنفسكم بفعل الواجبات والمندوبات، (لعلّه) وترك جميع المحرّمات والمحجورات، واجتناب جميع السيئات، **﴿وإيتاء ذي القربى﴾** مَا يستحقُّ ويحسن، **﴿ويَنهى عَن الفحشاء﴾** عَن الذنوب المفرطة فِي القبح، **﴿والمنكر﴾** مَا تُنكره العقول، **﴿والبغي﴾** طلب التطاول بالظلم والكبر؛ **﴿يَعِظُكم لَعَلَّكُم تذكّرُونَ(٩٠)﴾** تتّعظون بمواعظ ا لله، وهذه عِظَة جامعة لِكُل مأمور ومنهيٍّ.

**﴿وأوفوا بعهد ا لله إِذَا عَاهدتُّم، وَلاَ تنقضوا الأيمان بعد تَوكِيدِها﴾** بعد توثيقها باسم ا لله، **﴿وقد جعلتم ا لله عَلَيْكُم كفيلا﴾** شاهدا ورقيبا، لأنَّ الكفيل مُراعٍ لحال المكفول بِهِ، مهيمن عليه، **﴿إِنَّ ا لله يعلم مَا تفعلُونَ(٩١)﴾**.

**﴿وَلاَ تكونوا﴾** فِي نقضِ الأيمان **﴿كالتي نَقَضَت غزلَها مِن بعدِ قوَّةٍ﴾** كالمرأة الغازلة [...][1] بعد أن أحكمته وأبرمته **﴿أنكاثا﴾** جمع نكث، وَهُوَ ما ينكث فتله. قيل: هِيَ امرأة كَانَت حمقاء خرقاء، تغزل هِيَ وجواريها مِنَ الغداة إِلىَ الظهيرة، ثُمَّ تأمرهنَّ فينقضن مَا غزلن؛ والمعنى: أنّها لم تكفَّ عَن الغزل، وَلاَ حين عَمِلَت كفَّت عَن النقض (لعلّه) فتستريح؛ وهي كحمار

١ - كذا في الأصل، ويبدو أنَّ في العبارة سقطا. وَفِي تفسير الزمخشري: «كالمرأة التي أنحت عَلَى غزلها بعد أن أحكمته وأبرمته فجعلته ﴿أنكاثا﴾». الزمخشري: الكشّاف، ٤٩٢/٢.

الطاحونة الذِي يسير مِنْهُ [و]يجيء إِلَيْهِ؛ وذلك كلُّ عمل يعمله الإنسان مِنَ الطاعات، ثُمَّ يعقبها بالمعاصي فتُحبط بها، ﴿تتَّخذون أيمانكم دَخَلا بينكم﴾ أي: دخلا وخيانة وخديعة، والدخل: مَا يُدخل فِي الشيء الفساد. وقيل: ﴿أن تكون أُمَّة هِيَ أربى﴾ أزْيَد عددا، أو أوفر مالاً ﴿من أُمَّة﴾ من جماعة المؤمنين؛ ﴿إِنَّمَا يبلوكم ا لله بِهِ﴾ أي: إِنَّمَا يختبركم بكونكم أربى، لينظر أتتمسَّكون بحبل الوفاء بعهد ا لله، وَمَا وكَّدتم مِنَ أيمان[1] البيعةِ لرسول ا لله والمؤمنين، أم تغترُّون بكثرة أهل الفسق وثروتهم، وقلَّة المؤمنين وفقرهم؛ ﴿وليبيِّنَنَّ لكم يوم القيامة مَا كُنتُم فِيهِ تختلفُونَ(٩٢)﴾ فِي الدُّنْيَا، وفيه تحذير عَن مخالفة ملَّة [٣٠٧] الإسلام.

﴿ولو شاءَ ا لله لجعلكم أُمَّة وَاحِدَة﴾ حنيفيَّة مسلمة، ﴿ولكن يُضِلُّ من يَشَاء﴾ مَن علِم مِنْهُ اختيار الضلال، ﴿ويهدي مَن يَشَاء﴾ مَن عَلِمَ مِنْهُ اختيار الهداية، ﴿ولَتُسألنَّ عَمَّا كُنتُم تَعْمَلُونَ(٩٣)﴾ فِي الدُّنْيَا، فتجازون عليه.

﴿وَلاَ تَتَّخِذُوا[2] أيمانكم دخلاً بينكم﴾ (لعلَّه) خديعة وفسادا، فتضرُّون بها الناس فيَشكُون، فسَيَكِنُّون[3] إِلَى أيمانكم ويأمنونها ثُمَّ تنقضونها، ﴿فتزِلَّ قَدَمٌ بعد ثُبُوتها﴾ فتزلّ أقدام عَن محجَّة الإسلام بعد ثُبوتها عليها، ﴿وتذوقوا السوءَ﴾ مَا يَسوؤكم فِي الدُّنْيَا و لم توتحروا[4] عَلَيه، فيكون وبالا

---

١ - فِي الأصل: «الأيمان»، بالتعريف، وهو خطأ.

٢ - فِي الأصل «تتخذون» وَهُوَ خطأ.

٣ - كذا فِي الأصل، وَلَعَلَّهُ يقصد: فسيلتجئون.

٤ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «تؤجروا».

ومغرمًا وخسرانا عَلَيْكُم، خِلاف المؤمنين، لأَنَّهُم وَإِن نـالَهُم مكـروه، فذلـك رفعٌ لدرجاتهم، فيصير نعمةً لَهُم خلاف الأَوَّلين. ﴿بمَا صَدَدتُّم﴾ بصدودكـم ﴿عَن سبيل ا لله﴾ وخروجكم عَن الدين، ﴿ولكم عذاب عظيم(٩٤)﴾ وَهُوَ العذاب الأكبر فِي الآخِرَة.

﴿وَلاَ تَشتَروا﴾ وَلاَ تستبدلوا ﴿بعهد ا لله﴾ بميثاقه ﴿ثمنـا قليـلا﴾ عَرَضـا مِنَ الدنيا يسيرا، ﴿إِنَّمَا عنـدَ ا لله﴾ مِن رِزقـه فِي الدُّنْـيَا، وثوابـه فِي العقبـى ﴿هُوَ خيرٌ لكم إن كُنتُم تَعْلَمُونَ(٩٥)﴾ أَنَّ وعدَ ا لله آتٍ.

﴿مَا عندكم﴾ من زُخرف الدُّنْـيَا ﴿يَنفدُ﴾ وَلاَ تؤجرون عليـه إن توجَّـه ذَلِكَ للمخالفين؛ وإن توجَّه للمؤمنـين نقـول: مَـا فِي أيديكـم يجـيء ويذهـب، ﴿وَمَـا عنـد ا لله﴾ مِـن خزائـن رحمتـه ﴿بـاق﴾ لاَ ينفـد، ﴿ولنجزِيـنَّ الذِيـنَ صبروا﴾ عَلَى مَا أوجبه ا لله عَـلَيْـهِـم مِن مشاق التكليف، ﴿أجرَهم بأحسـنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٩٦)﴾.

﴿مَن عَمِل صالحـا مِن ذَكَرٍ أو أنثى وَهُوَ مُؤْمِن﴾ شَـرَطَ الإيمـان لأَنَّ أعمالَ الفاسقين غير معتدٍّ بها، ﴿فَلَـنُحيِيَـنَّه حياةً طيِّبة﴾ بِمَده بعقلٍ متبـوع يميـز به بين الحسن والقبيح من أمر الدُّنْـيَا والآخِـرَة. ﴿ولنَـجزينـَّهم أجرهـم بأحسنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٩٧)﴾ وعده ا لله ثواب الدُّنْـيَا والآخِـرَة، كقولـه: ﴿فآتاهم ا لله ثوابَ الدُّنْـيَا وحسنَ ثـواب الآخِـرَة﴾[1] وذلـك أَنَّ المؤمـن مَـعَ العمل الصالح مُوسرا كَانَ أو مُعسرا يعيش عيشا طيبا، إن كَانَ موسرا فظاهر،

---

١ - سورة آل عمران: ١٤٨؛ في الأصل: ﴿فآتاهم ا لله ثوابَ الدُّنْـيَا والآخِرَة﴾، وهو خطأ.

وإن كَانَ مُعسرا فـيُيَـسّر لَهُ مَا يطيب عيشه، وَهُوَ القناعة والرضى بقسمة ا لله فِيهِ. ﴿ومَن أعرض عَن ذكري فـإنَّ لَـهُ معيشـة ضنكـا﴾[1] أي: ضيقـةً، كَـانَ موسرا أو معسرا؛ وقيل: الحياة الطيبة: القناعة وحلاوة الطاعة، أو المعرفة با لله وصدق المقام مَعَ ا لله، وصدق الوقوف عَلَى أمر ا لله، والإعراض عمـّا سـوى ا لله، وكلٌّ ذَلِكَ من نتائج القلوب السليمة، وجميع الشرور من نتـائج القلـوب المريضـة؛ فصحَّ مَعَ أهـل العقـول أنَّ خـير الدُّنْـيَا والآخِرَة: القلبُ السـليم لصاحبه، وشرُّ الدُّنْـيَا والآخِرَة: القلبُ المريض.

**﴿فإذا قرأتَ القرآنَ فاستعِذْ با لله مِنَ الشـيطانِ الرجيـم(٩٨)﴾** (لعلّـه) قيل: هَذَا فِي الصلاة، أي: إِذَا قرأت القرآن وأنت فِي الصلاة فـأنصِت واستعذ با لله مِنَ الشيطان ومن وساوسه، لأنـَّهُ موضع المناجـاة لله تعـالى. (لعلّـه) أمـر ا لله بالاستعاذة مِنـْهُ باللسـان، وصيانـة القلـب (لعلّـه) عَـن وساوسـه، (لعلّـه) وحفظ الجوارح عَن العيب، (لعلّـه) ويخـرج معنـى آخـر: أي أنـّك إِذَا قـرأت القرآن، المعنى: إِذَا عملت بمَا فِيهِ فاسـتعذ بـا لله، لأنـَّهُ فِي ذَلِكَ الحين تـنفع الاستعاذة مِنْهُ، [٣٠٨] لقوله تعالى: ﴿إنـَّهُ ليس لَهُ سلطان عَلَى الذِيـنَ آمنـوا وعلى ربـهم يَـتَوَكّلون، إنـَّمَا سـلطانه عَلَـى الذِيـنَ يَتوَلّونـه﴾ استعاذوا مِـنَ الشيطان بلسانهم أم لاَ، فإنَّ ذَلِكَ هذيان، ودعـاؤهم غير مستجاب، لقولـه: ﴿وَمَا دُعاء الْكَافِرِينَ إلاّ فِي ضلال﴾[2] والاستعاذة دعاء، وفي الحقيقة من قـرأه

---

١ - سورة طه: ١٢٤.

٢ - سورة الرعد: ١٤.

ولـم يعمل بِمَا فِيهِ فكأنـَّه لم يقرأه. ﴿**إِنَّهُ ليس لَهُ سلطان**﴾ تسلُّط وولاية ﴿**عَلَى الذِينَ ءامنوا**﴾ عَلَى المقبلين عَلَى صلاتهم، ﴿**وعلى ربهم يتوكّلونَ(٩٩)**﴾ فالمؤمن المتوكّل لاَ يقبل مِنْهُ وساوسَه بالمتابعة، وَأَمَّا زوالها من قلبه فلا يُقدَر عليه، وَلاَ تضرُّه، وتنفعه، إذ يصير مجاهدا بذلك.

﴿**إِنـَّمَا سلطانه عَلَى الذِينَ يتولَّونه**﴾ يتَّخذونه وليًّا، ويتَّبعون وساوسه، ﴿**وَالذِينَ هم بِهِ مشركُونَ**[1]**(١٠٠)**﴾ الضمير يعود إِلَى ربهم، وإلى الشيطان أي: بسببه، وَالذِينَ هم بأجله مشركون با لله.

﴿**وإذا بدَّلنا آية مكَانَ آية**﴾ تبديل الآيَة مكَانَ الآيَة هُوَ النسخ، وَا للهُ تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لحكمة (لعلّه) عَلِمَها، وَهُوَ معنى قوله: ﴿**وا لله أعلم بِمَا ينزِّل، قَالُوا: إِنـَّمَا أنت مُفتَر**﴾ فتختلق، وذلك أنَّ المشركين قَالُوا: إنَّ محمَّدا سحرنا بأصحابه[2]، يَأْمُرُهم بأمر، ثُمَّ ينهاهم عَنْهُ غدا، إن هُوَ إِلاَّ مُفترٍ مِن تلقاء نفسه. قَالَ ا لله: ﴿**بَل أكثرهم لاَ يَعْلَمُونَ(١٠١)**﴾.

﴿**قل: نزَّله روح القدس**﴾ أي: جبريل عليه السلام، أضيف إِلَى القدس وَهُوَ الطهر مِنَ المآثم، ﴿**مِن رَبـِّكَ بِالْحَقِّ**﴾ مُلتبسا بالحكمة، ﴿**ليثبِّت الذِينَ آمنوا**﴾ ليبلوهم بالنسخ، حتَّى إِذَا قَالُوا فِيهِ هُوَ الحقُّ مِن رَبنَا، حكم لَهُم بثبات القَدَم، وصِحَّة اليقين، واطمئنانيَّة القلوب؛ ﴿**وهدى وبشرى**﴾ تقديره

---

١ - في الأصل: «يشركون»، وهو خطأ.

٢ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «سخر بأصحابه».

تثبيتا لَهُم، وإرشادا وبشارة ﴿للمسلمِينَ(١٠٢)﴾ وفيه تعريض بحصول أضداد هَذِهِ الخصال لغيرهم.

﴿وَلَقَد نعلمُ أَنَّهُمْ يقولون: إِنَّمَا يعلِّمه بَشَرٌ﴾ قيل: أرداوا بِهِ غلاما كَانَ لِحُويطِب قد أسلم وحسن إسلامه اسمه "عائش"، وكَانَ صاحب كتب؛ أو هُوَ "جبر" غلامٌ روميٌّ؛ أو عبدان: جبر ويسار كانا يقرآن التَّوْرَاة والإنجيل، وكَانَ رسول الله يسمع مَا يقرآن، قَالَ الله تكذيبا لَهُم: ﴿لسان الذِي يُلحِدُون إِلَيْهِ﴾ (لعلَّه) بالدعوى، ﴿أعجميٌّ﴾: الذِي لاَ يفصح، وإن كَانَ ينزل البادية، والعجميُّ: منسوب إِلَى العجم وإن كَانَ فصيحا، والأعرابيُّ: البدويُّ، العربيُّ: منسوب إِلَى العرب وإن لم يكن فصيحا. ﴿وهذا لسان عربيٌّ مبين(١٠٣)﴾ أي: لسانُ الرجلِ الذِي يميلون قولهم عَلَى[1] الاستقامة إِلَيْهِ لسان (لعلَّه) عجميٌّ غير بَين، وهذا القرآن لسان عربيٌّ مبين، ذو فصاحة وبيان، (لعلَّه) معناه: يفهمونه وَلاَ يذهب عَنْهُم مِنْهُ شيء، ردًّا لقولهم، وإبطالا لطعنهم.

﴿إِنَّ الذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ الله لاَ يهديهم الله﴾ مَا داموا مختارين الكفر، ﴿ولهم عذاب أليم(١٠٤)﴾ فِي الدُّنْيَا والآخِرَة.

﴿إِنَّمَا يفتري الكذبَ الذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ الله﴾ أي: إِنَّمَا يليق افتراء الكذب لمن لاَ يُؤْمِنُ، لأَنَّهُ لاَ يترقَّب عقابا عليه، وَهُوَ ردٌّ لقولهم: ﴿إِنَّمَا أنت مفترٍ﴾[2]. ﴿وأولئك هُمُ الكاذبُونَ(١٠٥)﴾ عَلَى الحقيقة.

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «عن». انظر: الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٤٩٥.

٢ - سورة النحل: ١٠١.

﴿من كَفَرَ با لله مِن بعد إيمانه [٣٠٩] إلاَّ مَن أكره وقلبه مطمئنٌّ بالإيمان﴾ ساكن بِهِ؛ ﴿ولكن مَن شَرَحَ بالكفر صَدرًا﴾ أي: فتح صدره بالكفر، أي: بالقبول والاعتقاد واختاره، ﴿فعليهم غضب مِنَ ا لله، ولهم عذاب عظيم(١٠٦)﴾ فِي الدارين.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إِلَى الوعيد، وَهُو لحوق الغضب والعذاب العظيم. ﴿بأنَّهم استحبُّوا﴾ آثروا ﴿الحياةَ الدنيا عَلَى الآخِرَة﴾ أي: بسبب إيثارهم الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَة، ولو فِي حرف وَاحِد مِنَ الباطل. ﴿وأنَّ ا لله لاَ يهدي القومَ الْكَافِرِينَ(١٠٧)﴾ مَا داموا مختارين الكفر.

﴿أُولَئِكَ الذِينَ طَبَعَ ا لله عَلَى قلوبهم وسمعِهم وأبصارِهم﴾ فلا يتدبَّرون ويُصغون إِلَى المواعظ، وَلاَ يُبصرون طريق الرشاد. ﴿وأولئك هُمُ الغافلُونَ(١٠٨)﴾ الكاملون فِي الغفلة عَن تدبُّر العواقب، [و]هِيَ غاية الغفلة ومنتهيها[1].

﴿لاَ جرم أنَّهُمْ فِي الآخِرَة هُمُ الخاسرُونَ(١٠٩) ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ للذين هاجَروا مِن بعدِ مَا فُتِنُوا﴾ بالعذاب، ﴿ثمَّ جاهَدوا وصَبَروا، إنَّ رَبَّكَ من بعدِها لغَفُورٌ رحيم(١١٠)﴾.

﴿يوم تأتي كُلُّ نفسٍ تُجادِلُ عَن نفسِها﴾ وإنَّما أضيفت النفس إِلَى النفس، لأنَّهُ يقال لعين الشيء وذاته: نفسه، وفِي نقيضه: غيره، و«النفس» الجملة كما هِيَ؛ فالنفس الأولى: هِيَ الجملة[2]، والثانية: عينها وذاتها؛ فكأنَّه

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «منتهاها». انظر: الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٤٩٧.

٢ - كذا في الأصل، ونفس العبارة نجدها عند الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٤٩٧.

قيل: «يومَ يأتي كلٌّ إنسان يجادل عَن ذاته، لاَ يهمُّه شأن غيره، كلٌّ يقول: نفسي نفسي». ومعنى المجادلة عنها: الاعتذار عنها، كقوله: ﴿هؤلاء أضلُّونا﴾[1]، ﴿رَبَّنَا إنَّا أطعنا سادتَنَا وكُبراءنا﴾[2]، ﴿والله رَبنَا مَا كُنَّا مشركين﴾[3]، ﴿يوم يبعثهم الله جميعا فيَحلِفون لَهُ كما يحلفون لكم﴾[4] الآيات... ﴿وتوفَّى كُلُّ نفس مَا عملت﴾ يُعطى جزاء عملها وافيا، ﴿وَهُم لاَ يُظلمُونَ(١١١)﴾.

﴿وضرب الله مثلا قريةً﴾ أي: جعل الله القرية التِي هَذِهِ حالها مَثَلا لِكُل قوم أنعم الله عَلَيْهِم، فأبطرتهم النعمة، فكفروا وتولّوا، فأنزل الله بهم نقمته؛ فيجوز أن يراد قرية مقدَّرة عَلَى هَذِهِ الصفة، أو أن تكون في قرى الأوَّلين قريةٌ كَانَت هَذِهِ حالها، فضربها الله مثلا (لعلّه) لِكُل نفس عَلَى حدَة، إنذارًا لَهُ من مثل عاقبتها. ﴿كَانَت آمنة﴾ مِمَّا يُخاف مِنْهُ، ﴿مطمئنَّة﴾ لاَ يُزعجها خوف، لأَنَّ الاطمئنانيَّة مَعَ الأمن، والانزعاجَ والقلقَ مَعَ الخوف. ﴿يأتيها رزقُها رَغَدا﴾ واسعا ﴿من كُلِّ مكان﴾ من كل حال من أسباب الرزق. ﴿فكفَرَتْ﴾ أهلها ﴿بأنعم الله﴾ (لعلّه) فلم تستعمل بِمَا[5] أنعم الله عليها فِي الحق. ﴿فأذاقها الله لباسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُوا يصنعُونَ(١١٢)﴾ فأذاقهم مَا غشيهم مِنَ الجوع والخوف.

---

١ - سورة الأعراف: ٣٨.

٢ - سورة الأحزاب: ٦٧.

٣ - سورة الأنعام: ٢٣.

٤ - سورة المجادلة: ٣٨.

٥ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «ما».

**﴿وَلَقَد جاءهم رسول مِنهُم﴾** (لعلّه) **﴿فكذّبوه فأخذهم العذاب وَهُم ظالِمُونَ(١١٣)﴾** أي: فِي حال التباسِهِم بالظلم.

**﴿فكلوا مِمَّا رزَقَكم ا لله حلالا طيِّبا واشكروا نعمةَ ا لله إن كُنتُم إِيَّاهُ تعبدُونَ(١١٤)﴾** (لعلّه) تحذير عَن مَا أصاب أهل القرية.

**﴿إنَّمَا حرَّم عَلَيْكُم الميتَة والدمَ ولحمَ الخنزير وَمَا أُهِلَّ لغير ا لله بِهِ﴾** أي: وَمَا ذُكر بالمذبوح لغير ا لله؛ **﴿فمن اضطُرَّ غير باغ وَلاَ عاد فإنَّ ا لله غَفُور رحيم(١١٥)﴾**.

**﴿وَلاَ تقولوا لِمَا تصف ألسنتكم الكذبَ﴾** أي: وَلاَ تقولوا الكذب [٣١٠] لِمَا تصفه ألسنتكم مِنَ البهائم وغيرها بالحِل والحِرمة، **﴿هَذَا حلال وهذا حرام﴾** بغير حُجَّة، **﴿لتفتروا عَلَى ا لله الكذبَ، إنَّ الذِينَ يفترون عَلَى ا لله الكذب لاَ يفلحُونَ(١١٦) متاعٌ قليل ولهم عذاب أليمٌ(١١٧)﴾** أي: منفعتهم فيما هم عليه مِنَ الجاهليَّة منفعة قليلة لأَنَّهَا زائلة، وعذابها عظيم؛ أو متاع قليل ممزوج بعذاب أليم.

**﴿وعلى الذِينَ هادوا حرَّمنا مَا قصصنا عليك مِن قبلُ، وَمَا ظلمناهم ولكن كَانُوا أنفسهم يظلمُونَ(١١٨)، ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ للذين عملوا السوء بجهالة﴾** أي: عملوا السوء جاهلين غير متدَبرين للعاقبة لغلبة الشهوة عَلَيْهِم، ومرادهم لذّة الهوى؛ **﴿ثمَّ تابوا من بعدِ ذَلِكَ وأصلحوا﴾** مَا أفسدوه، **﴿إنَّ رَبَّكَ من بعدِها﴾** من بعد التوبة **﴿لغفُور رحيم(١١٩)﴾**.

﴿إنَّ إبراهيمَ كَانَ أُمـَّةً﴾ إنـَّهُ كَـانَ وحـده أمـَّة مِـنَ الأمـم، لكمالـه فِي صفات الخير، وليس مِنَ ا لله بمُستنكَر أن يجمع العالَمَ فِي واحد. وعن مجـاهد: «كَانَ مؤمنا وحده والناس كلُّهم كفّـار»، أو كَـانَ أمـَّة يعنـى: مـأموم، أي: يَؤمـُّه الناس ليأخذوا مِنْهُ الخير، وكَانَ إماما للنـَّاس كَافـَّة لمن ائتـمَّ بِهِ، ﴿قانتـا لله﴾ هُوَ القـائم بِمَـا أمـره ا لله، ﴿حنيفـا﴾ مَـائلا عـن الأديـان كلِّهـا إِلَى ملّـة الإسلام، ﴿ولم يَكُ مِنَ المشركِينَ(١٢٠)﴾ نـفَى عَنْـهُ جميع الشرك.

﴿شاكرا لأنعُمِه﴾ مطيعا بجميع مَا خُـول مِـنَ النعـم، ﴿اجتبـاه﴾ اختصَّـه واصطفاه للنبوَّة، ﴿وهداه إِلَى صِرَاط مُـسْتَـقِيم(١٢١)﴾ إِلَى ملَّة الإسلام.

﴿وآتيناه فِي الدُّنـْيَا حسنة﴾ توفيقا لصالح الأعمال. ﴿وَإِنـَّهُ فِي الآخِـرَة لَمِن الصالحِينَ(١٢٢)﴾ لَمِن أهل الجـنّة.

﴿ثُـمَّ أوحينـا إليــك أنِ اتــَّبِعْ مِلَّـةَ إبراهيــم حنيفــا وَمَــا كَــانَ مِــنَ المشـركِينَ(١٢٣)﴾. فِي «ثُـمَّ» تعظيـمُ منزلـةِ نبيـنا ، وإجـلالُ محلِّـه، والإيذانُ بِأَنَّ مَا أوتي خليلُ ا لله مِنَ الكرامةِ: اتبـاع رسولِنا ملَّتَه.

﴿إنـَّمَا جُعِلَ السبتُ عَلَـى الذِيـنَ اختلفـوا فِيـهِ﴾ أي: فُـرِض عَـلَيْـهِـم تعظيمه، وترك الاصطياد فِيهِ. ﴿وإنَّ رَبـَّكَ لَيحكم بَيْـنَـهُم يومَ القيامـة فيمـا كَانُوا فِيهِ يختلفُونَ(١٢٤)﴾.

﴿ادعُ إِلَى سـبيل رَبـِّكَ﴾ إِلَى الإسـلام ﴿بالحكمـة﴾ بالمقالـة الصحيحـة المحكمة، وهي الدليل الواضح للحق المزيل للشُّبهة. ﴿والموعظة الحسنة﴾ وهـي

التِي لاَ يخفى عَلَيْهِم أنَّك تناصحهم بها، وتقصدهم مَا ينفعهم بها، أو بالقرآن، أي: ادعهم بالكتاب الذِي هُوَ حكمة وموعظة حسنة، أو الحكمة: المعرفة بمراتب الأفعال، والموعظة الحسنة: أن يخلط الرغبة بالرهبة، والإنذار بالبشارة. ﴿وجادِلْهم بالتِي هِيَ أحسنُ﴾ بالطريقة التِي هِيَ أحسن طريقِ المجادلة، مِنَ الرفق واللين من غير فظاظة؛ أو بِمَا يوقظ القلوب، ويعظ النفوس، ويجلو القلوب. ﴿إنَّ رَبَّكَ هُوَ أعلمُ بمن ضلَّ عَن سبيله وَهُوَ أعلم بالمهتدِينَ(١٢٥)﴾ أي: هُوَ أعلم بهم، فمن كَانَ فِيهِ خير كفاه الوعظ القليل، ومن لاَ خير فيه عجزت عَنْهُ الحيل.

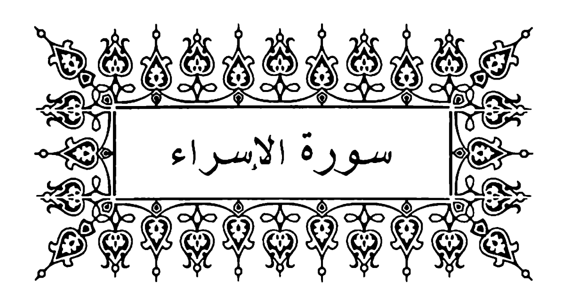
﴿وإن عاقبتم فعاقِبوا بمثلِ مَا عُوقبتم بِهِ﴾ سُمي الفعل الأوَّل عقوبة، والعقوبة هِيَ الثانيَّة لازدواج الكلام، كقوله: ﴿وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلُها﴾[1] وإن كَانَت الثانية ليست بسيئة، ﴿ولئن صبرتم لَهوَ خيرٌ للصابرِينَ(١٢٦)﴾ عَن المجازاة، فالصبر أفضل، والمجازاة بِالْحَق جائزة.

﴿واصبر وَمَا صبرُك إلاَّ بالله﴾ أي: بتوفيقه وتثبيته، ﴿وَلاَ تحزنْ عليهم﴾ إن لم يؤمنوا، ﴿وَلاَ تكُ فِي ضيقٍ مِمَّا يَمكُرُونَ(١٢٧)﴾ (لعلّه) فِي ضيق صدرك مِمَّا يعصون، ﴿إنَّ الله مَعَ الذِينَ اتَّقَوا﴾ المعاصي، ﴿وَالذِينَ هم محسنُونَ(١٢٨)﴾ للعمل.



---

١ - سورة الشورى: ٤٠.



# سورة الإسراء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سبحان﴾ تنزيه لله عَن العدول بِهِ إِلَى غيره، تقديره سبحوا الله، ﴿سبحان الذِي أسرى بعبده ليلا مِنَ المسجد الحرام﴾ قيل: أسرى بجسده، وقيل: بروحه، ﴿إِلَى المسجد الأقصى﴾ قيل: هُوَ بيت المقدس، وسُمي أقصى لأَنَّهُ أبعد المساجد التِي تُزار. ﴿الذِي باركْنا حولَه﴾ يريد بركات الدين والدُّنيا. ﴿لِنُرِيَه من آياتنا﴾ بعض آياتنا التِي بِهِ الدالّة[1] عَلَى وحدانية الله. ﴿إِنَّهُ هُوَ السميع البصير(١)﴾.

﴿وآتينا موسى الكتابَ وجعلناه هُدًى لبَنِي إِسْرَائِيلَ، ألاّ تتَّخذوا مِن دوني وكيلا(٢)﴾ ربًّا يَكِلون إِلَيْهِ أمورهم، وقيل: الكفيل، وقيل: الكافي.

﴿ذُرِّيَّةَ مَن حَمَلنا مَعَ نوح، إِنَّهُ كَانَ﴾ موسى ﴿عبدا شكورا(٣)﴾ فِي مَا يسرُّه ويضرُّه، (لَعَلَّهُ) كَانَ إِذَا أناله الله نعمة حَمِدَه، وإذا صرف عَنْهُ سوءًا حَمِده.

﴿وقضينا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكتاب﴾ (لَعَلَّهُ) قضاء قَدَر ومشيئة، لاَ قضاء (لَعَلَّهُ) أمر، يدلُّ عَلَى أنَّهم لم يهتدوا بالكتاب الذِي أوتي موسى.

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «بها الدلالة».

﴿لَتُفسِدُنَّ فِي الأَرْض مَـرَّتين ولَتعلُنَّ عُلوًّا كبيرا(٤)﴾ ولتستكبرنَّ عَن طاعة الله، من قوله: ﴿إنَّ فرعـونَ عـلا فِي الأَرْض﴾[1] والمـُرَاد بِـهِ: البغـي والظلـم، وغلبة المفسدين فِي الأَرْض.

﴿فـإذا جـاء وعـدُ أُولاَهـمـا﴾ (لَعَلَّـهُ) وعـد الأولى مِـنَ المرَّتـين، ﴿بعثنـا عليكم﴾ سلَّطنا عَلَيْكُم ﴿عبادا لَنَا أُولي بأس شديد﴾ قيل: بعث عليهم أهـل الشرك مِنَ الروم، فأحرقوا وقتَلوا، وأحرقوا التـَّوْرَاة، (لَعَلَّـهُ) عقوبـة لفسـادهم فيما قيل. ﴿فجاسوا﴾ (لَعَلَّهُ) أي دخلوا ﴿خـلال الديـار﴾ (لَعَلَّـهُ) فُروجهـا. ﴿وكَانَ وعدا مفعولا(٥)﴾ (لَعَلَّهُ) لأَنـَّهُ لاَ يجوز عليه الخلف.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكم الكرَّةَ﴾ أي الدولة والغلبة، (لَعَلَّهُ) كركـره: أعـاد مـرَّة بعـد أُخْرَى[2]، ﴿عليهـم﴾ (لَعَلَّـهُ) عَلَى الذيـن بعثهـم عليهـم، ﴿وأمددنـاكم بـأموالٍ وبنـينَ﴾ (لَعَلَّـهُ) أخلـف عَـلَـيْهِـم بعدمـا ذهـب عَلَى أيدي مَـن بعثهـم عليهـم. ﴿وجعلناكم أكثرَ نفيرا(٦)﴾ مِمَّا كُنتُم، وَهُوَ مَن ينفر مع الرجل مِن قومه.

﴿إن أحسنتم﴾ بعدما يسَّر لكم أسبابه ﴿أحسنتم لأنفسكم، وإن أسـأتم فلها﴾ يعني: أنَّ الإحسان أو الإساءة مختصٌّ بأنفسهم، لاَ يتعدَّى النفـع والضـرُّ إِلَى غـيركم؛ وقيـل عَـن عليٍّ: «مَـا أحسنتُ إِلَى أحـد، وَلاَ أسـأتُ إِلَيْـهِ» وتلاهـا[3]. ﴿فـإذا جـاء وعـدُ الآخِـرَةِ﴾ (لَعَلَّـهُ) مِـنَ المرَّتـين بعثنـاهم ثانيـة،

١ - سورة القصص: ٤.

٢ - فِي اللسان: «كركره: أعاده مرَّة بعد أُخْرَى». ابن منظور: لسان العرب، ٥/٠٤؛ مادَّة «كرر».

٣ - الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٥٠٧.

**﴿لِيَسُوئُوا﴾** أي: هؤلاء **﴿وجوهَكم﴾** بِمَا يُصيبهم، **﴿ولِيَدخلُوا المسجد كما دخلوه أَوَّل مرَّة، وليُتبِّروا مَا عَلَوا تتبيرا(٧)﴾** أي: يهلكوا كلَّ شيء غلبوه واستولوا عليه.

**﴿عسى رَبّكُم أن يَرحَمَكم﴾** بعد المرَّة الثانية إن تبتم توبة أُخْرَى، وانزجرتم عَن المعاصي، **﴿وإن عُدتم﴾** مرَّة ثالثة **﴿عُدنا﴾** إِلىَ عقوبتكم، (لَعَلَّهُ) وكذلك فِي الرابعة إِلىَ مَا بعدها. **﴿وجعلنا جَهَنَّم للكَافِرِينَ حصيرا(٨)﴾** محبسا ومأوى.

**﴿إنَّ هَذَا القرآن﴾** (لَعَلَّهُ) يعني: الـذِي أُنـزل فِي هَـذِهِ السورة أو جملته. **﴿يهدي للتي هِيَ أقومُ﴾** للحالة التِـي هِـيَ أقوم الحالات عَـن الاعوجاج، وأسدُّها وأسلمها للدين والدُّنْيَا، وهي توحيد الله، والعمل بمقتضاه [٣١٢] (لَعَلَّهُ) بعد تدبُّرهم للآيات، ويعملون بمقتضاها. **﴿ويبشِّر المؤمنين الذِينَ يَعْمَلُونَ الصالحات أنَّ لَهُم أجرا كبيرا(٩)﴾**.

**﴿وأنَّ الذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة﴾** (لَعَلَّهُ) ويحتمل: يريد بِهِ التذكُّر بِمَا وقع مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ وعليهم، **﴿أعتدنا لَهُم عذابا أليما(١٠)﴾** فِي الدارين.

**﴿ويَدْعُ الإنسانُ بالشرِّ دُعاءَه بالخير﴾** أي: ويدعو الله عند غضبه بالشر عَلَى نفسه وأهله وماله، كما يدعو لَهُم بالخير؛ أو يطلب النفع العاجل وإن قلَّ، بالضرر الآجل وإن جلَّ، **﴿وكَانَ الإنسان عجولا(١١)﴾** يتسع[1] إِلىَ

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب ما في تفسير الزمخشري: «يتسرَّع». الزمخشري: الكشَّاف، ٥٠٨/٢.

طلب كل مَا يقع فِي قلبه، وَلاَ يتأنـّى فِيهِ تأني المتبصر؛ أو أُريدَ بالإنسان: الكافر، وأنّه يدعوه بالعذاب استهزاء ويستعجل بِهِ، كما يدعو بالخير إِذَا مسّته الشدّة، ﴿وكَانَ الإنسان عَجولا﴾ يعني أنَّ العذاب آتيه لاَ محالة.

**﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين، فمحونا آيةَ الليل، وجعلنا آية النهار مُبصِرَة لتبتغوا فضلا من ربّكم﴾** لتتوصّلوا ببياض النهار إِلىَ التصرُّف فِي قضاء حوائجكم؛ **﴿ولتعلموا﴾** باختلاف الجديدين، **﴿عددَ السنين والحسابَ﴾** حساب الآجال، ومواسم الأعمال؛ ولو كَانَ مِثلَين لَمَا عُرف الليل مِنَ النهار. **﴿وكلَّ شيء﴾** مِمَّا تفتقرون إِلَيْهِ مِن دينكم ودنياكم **﴿فصَّلناه تفصيلا(١٢)﴾** بيَّنّاه بيانا غير ملتبس، فأزحنا عللكم.

**﴿وكلَّ إنسان ألزمناه طائره فِي عنقه﴾** قَالَ أهل المعاني: أرَادَ بالطائر الحظّ، وَمَا قضى عليه أنّه عامله، وَمَا هُوَ صائر إِلَيْهِ من سعادة أو شقاوة؛ وخصَّ العنق من سائر الأعضاء، لأَنَّهُ موضع القلائد والأطواق وغيرهما، مِمَّا يزينه ويشينه. **﴿ونُخرج لَهُ يوم القيامة كِتَابًا يَلقاه منشورا(١٣)﴾** غير مَطويٍّ، لتتأتّى لَهُ قراءته، ويقول لَهُ:

**﴿اقرأ كتابَك﴾** يعني: كِتَاب أعمالك؛ **﴿كفى بنفسك اليومَ عليك﴾** أي: كفى نفسُك **﴿حسيبا(١٤)﴾** مُحاسبا. قَالَ الحسن: «لَقَد عدل عليك مَن جعلك حسيب نفسك»[1]، ليكون شاهدا لها وعليها، لرؤية الخلائق للحقائق عين اليقين، وإِقْرَار المنكرين لِمَا أنكروه.

---

١ - «لَقَد أنصفك وا للهِ مَن جعلك حسيب نفسك» هكذا أوردها الزمخشري في الكشّاف، ٢/٥٠٩.

﴿مَن اهتدى فَإِنـَّمَا يهتدي لنفسه، ومن ضَلَّ فَإِنـَّمَا يَضِلُّ عليهـا﴾ أي: فلها ثواب الاهتداء، وعليهـا وَبـالُ الضـلال. ﴿وَلاَ تـزرُ وازِرة وِزرَ أُخْـرَى﴾ أي: كلُّ نفس حاملة وزرا، فإنـَّما تحمل وزرها لاَ وزر نفـس أُخْـرَى. ﴿وَمَـا كُنـَّا مُعذِّبين﴾ فِي الدُّنـْيَا أو الآخِرَة، ﴿حَتَّى نبعثَ رسـولا(١٥)﴾ وَمَـا صـحَّ مِنـَّا أن نُعذِّب قوما إلاَّ بعد قيام الحجَّة، (لَعَلَّهُ) وفيه دَلِيل عَلَـى [أَنَّ الـ]ـحُجَّة السمعيـَّة لاَ تجب إِلاَّ بالسمع.

﴿وإذا أردنا أن نُهلِك قريةً﴾ أي: أهلهـا، ﴿أَمـَرنا مُترفيهـا﴾ مُتنعميهـا وجبابرتها بالطاعة، ﴿ففَسَقوا فِيهَا﴾ أي: خرجوا عَـن الأمـر، ﴿فحـقَّ عليهـا القول فدمَّرناها[1] تدْمـيرا(١٦) وكـم أهلكنـا مِنَ القـرون من بعـدِ﴾ قـوم ﴿نوح وكفى بربِّـكَ بذنوب عباده خبيرا بصيرا(١٧)﴾.

﴿مَن كَانَ يُريد العاجلة عجَّلنا لَهُ فِيهَا مَا نشـاء﴾ لاَ مَـا شـاؤوه، ﴿لمـن نُريد﴾ (لَعَلَّهُ) لأَنـَّهُ لاَ تزيده إرداته هُوَ شَيـْئًا مِنَ الرزق، وَلاَ تدفع عَـنْـهُ شَيـْئًا مِنَ الضر، بَل تُورثـه خذلانـًا فِي الدُّنـْيَا وعـَذابـًا فِي الآخِرَة؛ وتـرى كثـيرًا مـن هـؤلاء يتَمَنـَّـون مَـا يَتـَمنـَّـون، وَلاَ يـُعطون إِلاَّ البعـض؛ فـاجتمع عَـلَـيْـهِـم [٣١٣] فقر الدُّنـْيَا والآخِرَة، والمؤمن بالعكس. ﴿ثمَّ جعلنا لَهُ جَهَنـَّم يصلاها مَـذْمُـومـا مَـدْحُـورا(١٨)﴾ مطرودًا مبعودًا من رحمة ا لله.

﴿ومن أَرَادَ الآخِرَة وسَعَى لهـا سعيها﴾ أي: مَـا تستحقُّ مِنَ السـعي، ويعمل لها لِمَا قُدر لَهُ منها، ﴿وَهُـوَ مُؤْمِـن﴾ مُصـدق لله فِي وعـدِه ووعيـدِه،

---

١ - في الأصل: «فدمَّرناهم» وهو خطأ.

﴿فأولئك كَانَ سعيهم مشكورًا(١٩)﴾ مقبولاً عند ا لله، مُثابـًا عليه. عَن بعض السلف: «من لم يكن معه ثلاث، لم ينفعه عمله: إيمان ثابت، ونيَّة صادِقَة، وعمَل مُوافق»، وتَلا الآيَة.

﴿كُلاًّ نُـمِدُّ هؤلاء وهؤلاء﴾ أي: من أَرَادَ العاجلة أو الآخِرَة، ﴿مِن عطاء ربِّك﴾ أي: مضَت سنتّه عَلَى أنَّ مَن أَرَادَ العاجلةَ يسَّر لَهُ أساها[1] ومَن أَرَادَ (لَعَلَّهُ) الآخِرَة[2]. ﴿وَمَا كَانَ عطاء رَبِّكَ محظورا(٢٠)﴾ (لَعَلَّهُ) أي: جعل أن يختاروا مَا يشاؤوا[3]، (لَعَلَّهُ) من الإرادتين، (لَعَلَّهُ) لقوله: ﴿لمن[4] شاء منكم أن يستقيم﴾[5]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا تشاؤون إِلاَّ أن يَشَاء ا لله ربُّ الْعَالَمِينَ﴾[6].

﴿انظر كيف فضَّلنا بعضَهم عَلَى بعضٍ﴾ (لَعَلَّهُ) أي: بين من يُسرت لَهُ أعمال الدُّنـْيَا وأسبابها، وبين من يُسرت لَهُ أعمال الآخِرَة وأسبابها، عدلا مِنْهُ لهؤلاء، وفضلا لهؤلاء، ﴿وللآخرة أكبرُ درجاتٍ وأكبرُ تفضيلا(٢١)﴾ من تفضيل الدُّنـْيَا. وتراهم فِي الدُّنـْيَا، فمنهم من يمشي عَلَى أم رأسه مُكبًّا عَلَى وجهه، ومنهم من يطير فِي ساعته[7] مُرتقيا إِلَى أعالي الدرجات مسيرة آلاف؛

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «أسبابها».

٢ - كذا في الأصل، ويبدو أنَّ في العبارة نقصا، تقديره: «يسَّر لَهُ أسبابها كذلك».

٣ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «يشاؤون»، والعبارة كلُّها غير مستقيمة التركيب.

٤ - في الأصل: «فمن»، وهو خطأ.

٥ - سورة التكوير: ٢٨.

٦ - سورة التكوير: ٢٩.

٧ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «سَعَتِه».

وكلٌّ ذَلِكَ تَفَضُّل مِنَ ا لله تعالى عَلَى بعض خلقه، وعدل مِنْهُ لبعض؛ وتفضيلهم فِي الآخِرَة أكبر من هَذَا كما قَالَ، لأَنَّ هَذَا تفضيل بالأعمال، وذاك بالجزاء، وقِس مَا بينهما إن [كان] لك قلب سليم.

ثُمَّ حضَّ نبيَّه ﷺ عَلَى طلب الآخرة بقوله: ﴿لاَ تجعل مَعَ ا لله إلها آخر﴾ وذلك مَعَ أهل المعاني: اكتساب السيئة بعدَ قيام الحجَّة عليه بها، ﴿فتقعد مذموما﴾ مستحقَّ الذم، غير محمود مَعَ ا لله ومع أهل دينه؛ والذمُّ: نقيض المدح، ﴿مخذولا(٢٢)﴾ لاَ ترتقي إِلَى الخير درجة، وَلاَ تتخطَّى نحو السلامة خُطوة، كبَّلتك خطيئتك.

﴿وقضى ربُّكَ﴾ وحَكَمَ حُكما مقطوعا بِهِ، ﴿ألاَّ تعبدوا إلاَّ إيَّاهُ﴾ أي: لاَ تعبدوا معه شيطانا وَلاَ نفسا وَلاَ هوى وَلاَ خلقا؛ ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ وأحسنوا بهما إحسانا، ﴿إمَّا يبلُغَنَّ عندك الكِبَرَ﴾ لأنَّهما فِي حال الكبر يتسارع إِلَيْهِما الضعف، و[هما] إلى الإحسان أحوج. ﴿أحدُهما أو كلاهما، فلا تقل لهما: أُفٍّ﴾ عند التضجُّر منهما، فما دونه مِنَ العقوق[1]، ﴿وَلاَ تنهرهما﴾ وَلاَ تزجرهما عَمَّا يتعاطيانه مِنَ المباح؛ والنهر والنهي أخوان، ﴿وقل لهما﴾ بَدَلَ التأفيف والنهر، ﴿قولاً كريما(٢٣)﴾ جميلا لينا كما يقتضيه حُسن الأدب؛ وفائدة المعنى: أَنـَّهُمَا إِذَا صارا كَلاًّ عَلَى ولدهما، وَلاَ كافل لهما غيره، فهما عنده فِي بيته وعياله، وذلك أشقُّ عليه، فهو مأمور

١ - كذا فِي الأصل، و يبدو أنَّ فِي العبارة سقطا، تقديره: «فما دونه مِنَ العقوق أولى».

بأن يستعمل معهما حُسن الخلق، حتّى لاَ يقول لهما إِذَا أضجره مَا يَستقذره منهما: أُفٌّ، فضلا عمّا يزيد عليه؛ وَلَقَد بالغ سبحانه فِي التوصِيَة بهما، حيث افتتحها بِأن شفع الإحسان إِلَيْهِما بتوحيده؛ ثُمَّ ضيَّق الأمر فِي مراعاتهما حتّى لاَ يُرخَّص فِي أدنى كلمة تنفلت مِنَ التضجُّر، ومع أحوال لاَ يكاد يصبر الإنسان معها.

﴿واخفض لهما جناحَ الذلِّ مِنَ الرحمة [٣١٤] وقل: ربِّ ارحمهما كما ربَّياني صغيرا(٢٤)﴾ وَلاَ تكتفِ برحمتك عليهما التِي لاَ بقاء لها، وادع الله بأن يرحمهما رحمته الباقية، واجعل ذَلِكَ جزاءً لرحمتهما عليك فِي صِغَرِك، وتربيتهما لك إن كانا صالحين.

﴿رَبُّكُم أعلم بِمَا فِي نفوسكم﴾ لِمَا فِي ضمائركم مِنَ التوحيد والإحسان بالوالدين، وبعكس ذَلِكَ، ﴿إن تكونوا صالحين﴾ غير مفسدين، (لَعَلَّهُ) مُعتقدين فِي أنفسكم أداء الواجبات، واجتناب المحرَّمات. ﴿فَإِنَّهُ كَانَ للأوَّابين غفُورا(٢٥)﴾ الأوَّاب: الذِي إِذَا أذنب بَادَر إِلىَ التوبة.

﴿وآتِ ذا القربَى حقَّه﴾ كما يجب بالشرع والعقل، وكلُّ وَاحِد مِنْهُم لَهُ حقٌّ غير حق الآخر، ﴿والمسكينَ وابنَ السبيل﴾ أي: وآت هؤلاء حقوقهم الواجبة عليك، ﴿وَلاَ تبذِّر تبذيرا(٢٦)﴾، التبذير: تفريط المال في غير الحل والمحل؛ وقد قيل: «كُلُّ نفقة في غير حق الله فهي تبذير». وإن قلت: وليجتهد المريد حتّى (لَعَلَّهُ) لا يميل إلى طرف التقتير والتبذير، ويعلم الله مِنْهُ سلامته منهما[1].

---

١ - كذا في الأصل، ويبدو أنَّ في العبارة نقصا، وَهُوَ جواب الشرط بعد قوله: «وإن قلتَ...».

**﴿إنَّ المبذِّرين كَانُوا إخوانَ الشياطين﴾** أمثالهم فِي الشرارة والتجاوز فِي الحدود، وَهُوَ غاية المذمّة، وأنّه لاَ أشرَّ مِنَ الشيطان؛ أو هم إخوانهم وأصدقاؤهم، لأنَّهُم يطيعونهم فِي مَا يَأْمُرُونهم بِهِ مِنَ التبذير والإسراف، **﴿وكَانَ الشيطان لربِّه كفورا(٢٧)﴾** فما ينبغي أن يُطاع، لأَنَّهُ لاَ يدعو إِلاَّ إِلَى مثل فعله.

**﴿وإمَّا تُعرِضَنَّ عَنْهُم﴾** وإن أعرضت عَن ذي القربى والمسكين وابن السبيل حياء مِنَ الرد إن سألوك رزقا وأنت مُعدَم، **﴿ابتغاءَ رحمةٍ مِن رَبِّكَ تَرجُوها﴾** انتظار رزق مِنَ الله ترجوه أن يأتيك، **﴿فقل لَهُم قولا ميسورا(٢٨)﴾** فقل لَهُم: رَزَقَنا الله وإيَّاكم من فضله.

**﴿وَلاَ تَجعل يَدَكَ مغلولةً إِلَى عُنقِك﴾** (لَعَلَّهُ) أي: لاَ تُمسك عَن النفقة فِي الحق كالمغلول يده، لاَ يَقدِر عَلَى مدها، **﴿وَلاَ تَبسطها كلَّ البسط﴾** هَذَا تمثيل لمنع الشحيح، وإعطاء المسرف؛ أو بالاقتصاد الذِي هُوَ بين الإسراف والتقتير، **﴿فَتَقعُدَ مَلُومًا﴾** فتصير ملوما عند الله، لأَنَّ المسرف غير مرضيٍّ عنده وعند نفسك إِذَا احتجت، فندمت عَلَى مَا فعلت، **﴿مَحسورًا(٢٩)﴾** أَسِفاً منقطعا بك لاَ شيء عندك، مِن حَسَرَه السفرُ: إِذَا أثَّر فِيهِ أثرا بليغا؛ أو عاريا، مِن حَسَرَ رأسه. وقال قتادة: «محسورا: نادما عَلَى مَا فرط منك». **﴿إنَّ رَبَّكَ يبسُطُ الرزقَ لمن يَشَاء ويَقدِرُ، إِنَّهُ كَانَ بعباده خبيرا بصيرا(٣٠)﴾** بمصالحهم.

**﴿وَلاَ تقتلوا أولادكم خَشيةَ﴾** قتلهم أولادهم، أودُهم [كَذَا] بناتهم، خشية **﴿إملاق﴾** خوف فقر، **﴿نَحنُ نرزقهم وَإِيَّاكُمْ، إنَّ قتلهم كَانَ خِطْأً كبيرا(٣١)﴾** إثما عظيما.

﴿وَلاَ تقربوا الزنا﴾ وَهُوَ نهي عَن الزنا ودواعيه، ﴿إِنَّهُ كَانَ فاحشة﴾ معصية بمجاوزة حدِّ الشرع والعقل، ﴿وساء سبيلا(٣٢)﴾ وبِئْسَ طريقا طريقه.

﴿وَلاَ تقتلوا النفسَ التِي حَرَّمَ ا لله إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ وَحَقُّهَا ألاَّ تُقتل إِلاَّ بكفر بعد إسلام، أو زنا بعد إحصان، أو قتل نفس بغير نفس، ﴿ومن قُتِل مظلوما فقد جعلنا لوليِّه سلطانا﴾ (لَعَلَّهُ) حُجَّة واضحة عَلَى قاتل وليه، فإن شاء قتل وإن شاء عَفَا، ﴿فلا يُسرف فِي القتل﴾ مَا حُدَّ لَهُ، ﴿إِنَّهُ كَانَ منصورا(٣٣)﴾.

[٣١٥] ﴿وَلاَ تَقربوا مالَ اليتيم إِلاَّ بالتِي هِيَ أحسن﴾ بالطريقة التِي هِيَ أحسن، وهي حفظه وتثميره، ﴿حتىَّ يبلغَ أَشُدَّه﴾ حتَّى يستوي رجلا حافظا لماله عَن التضييع؛ ﴿وأوفوا بالعهد﴾ بأوامر ا لله ونواهيه، ﴿إِنَّ العهد كَانَ مسئولا(٣٤)﴾ مَعَ ا لله.

﴿وأوفوا الكيل إِذَا كِلتُم وزِنوا بالقسطاس المُستَقِيم﴾ المعتدل، ﴿ذَلِكَ خيرٌ﴾ فِي الدُّنيَا، ﴿وأحسنُ تأويلا(٣٥)﴾ عاقبةً، وَهُوَ تفعيل مِن آل: إِذَا رجع، وَهُوَ مَا يؤول إِلَيْهِ.

﴿وَلاَ تَقفُ مَا ليس لك بِهِ عِلم﴾ وَلاَ تتبَّع مَا لاَ تعلم، أي: لاَ تقل: رأيتُ وَمَا رأيتَ. ﴿إِنَّ السمع والبصرَ والفؤادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مسئولا(٣٦)﴾ قيل: يُسأل المرء عَن سمعه وبصره وفؤاده، وإذا سئل عَن هَذِهِ سئل عَن غيرها؛ وقيل: يَسأل السمع والبصر والفؤاد عمَّا دخل المرء.

﴿وَلاَ تمشِ فِي الأَرْض مَرَحا﴾ أي: بطرا وكبرا وخيلاء، ﴿إِنَّكَ لن تَخرِقَ الأَرْضَ﴾ بمرحك، ﴿ولن تبلغَ الجبالَ طولا(٣٧)﴾ أي: لن تبلغها

بِكِبرك حتَّى تَبلغ آخرها، معناه: أنَّ الإنسان لاَ ينال بِكِبرِه وبَطَرِه شَيْئًا، كمن يريد خرق الأَرْض، ومطاولة الجبال، لاَ يحصل عَلَى شيء؛ وقيل: ذكر ذَلِكَ، لأَنَّ مَن مَشَى مُختالا يمشي مرَّة عَلَى عَقبِه ومرَّة عَلَى صدور قدميه؛ فقيل: إِنَّكَ لن تخرق الأَرْض بعقِبَيك، ولن تبلغَ الجبال إن مشيت عَلَى صدور قدميك. يروى عَن أبي هريرة أنـَّه قَالَ: «مَا رَأيتُ أحدا أسرعَ مشيا مِن رسول الله ﷺ، كأنـَّما تُطوَى لَهُ الأَرْض، وَإِنـَّا لَنُجهِدَ أنفسنا، وَإِنـَّهُ لَغير مُكترث»[1]، ﴿كلُّ ذَلِكَ كَانَ سيِّئُهُ عند رَبِّكَ مكروها(٣٨)﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إِلَى مَا تقدَّم من قوله: ﴿لاَ تجعل مَعَ الله إلها آخرَ﴾ إِلَى هَذِهِ الغاية، ﴿مِمَّا أَوحى إليك رَبُّكَ مِنَ الحكمةِ﴾ مِمَّا يحكم العقل بصحَّته، وتصلح النفس بعمله، (لَعَلَّهُ) لأَنَّ كلَّ مَا أمر الله بِهِ ونهى عَنْهُ فهو حكمة. ﴿وَلاَ تجعل مَعَ الله إلها آخر فَتُلْقَى فِي جَهَنَّم ملوما مدحورا(٣٩)﴾ مطرودا مِنَ الرحمة. عَن ابن عبَّاس: «هَذِهِ الثماني عشرة آية كَانَت فِي أَلواح موسى أوَّلُها: ﴿لاَ تجعل مَعَ الله إلها آخر﴾، وآخرها: ﴿مدحورا﴾». وَلَقَد جُعِلَت فاتحتها وخاتمتها: النهي عَن الشرك، لأَنَّ التوحيدَ رأسُ كل حكمة وملاكها، ومن عَدِمه لم تنفعه حِكَمُه، وإن بذَّ فيها الحكماء، وحكَّ بيافوخه السَّمَاء، وَمَا أغنت عَن الفلاسفة أسفار الحِكَم، وَهُم عَن دين الله أَضلُّ مِنَ الغنم.

---

١ - رواه الترمذيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَسْرَعَ فِي مِشْيَتِهِ...» الحديث، قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ. كتاب المناقب، رقم ٣٥٨١. ورواه أحمد في مسند باقي المكثرين، رقم ٨٢٤٩، ٨٥٨٦.

ثُمَّ خاطب الذِينَ قَالُوا: «المَلاَئِـكَة بنات ا الله» بقوله: ﴿أَفَأَصفَـاكُم رَبـُّكُم بالبنينَ﴾ الهمزة للإنكار، يعنى: أَفَخَصَّكم رَبـُّكُم عَلَى وجه الخلوص والصفـاء، بأفضل الأولاد وَهُم البنون، ﴿واتَّخَذَ مِنَ المَلاَئِكَة إناثا﴾ واتّخذ أدناهم منزلة، وَهُم الإناث؛ وهذا خلاف الحكمة، وَمَا عليه مقولكم؛ فالعبيد لاَ يؤثرون بـأجود الأشياء وأصفاها[1]، وتكون أردأها وأدونها للسادات. ﴿إنـَّكُم لَتَقُولـون قـولاً عظيمًـا(٤٠)﴾ حيث أضفتم عليه[2] الأولاد وهـي مـن خـواص الأجسـام، ثُـمَّ فضّلتم عليه أنفسكم حيث تجعلون لَهُ مَا تكرهون.

﴿وَلَقَد صَرَّفنا فِي هَذَا القرآن ليذَّكروا وَمَا يَزيدهم إلاَّ نُفورا(٤١)﴾ عَن الحق.

﴿قُـل: لـو كَـانَ معه آلهـة كمـا يقولـون، إذًا لابتغـوا إلَى ذي العـرش سبيلا(٤٢)﴾ لطلبوا إلَى من لَهُ الملك [٣١٦] والربوبيَّةُ سبيلا بالمغالبـة كمـا يفعل المكوك (لَعَلَّهُ الملوك) مَعَ بعضهم بعض. وكلٌّ من عصى ا الله بمثقـال ذرَّة، فقد بارزه بالمحاربة.

﴿سبحانه وتعالى عَمَّا يقولون عُلـوًّا﴾ أي: تعاليـا، والمـُرَاد: الـبراءة مـن ذَلِكَ والنزاهة، ﴿كبيرا(٤٣)﴾، وصف العلـوّ بـالكِبَرِ مبالغـة فِي معنـى الـبراءة والبعد مِمَّا وصفوه بِهِ.

﴿تُسَبِّح لَهُ السَّمَاوَات السبعُ والأَرْض ومـن فِيهِـنَّ، وإن مِـن شـيء إلاَّ يُسبِّح بحمده﴾ قيل: إن مِن شيء جمادٍ وحـيٍّ إلاَّ يُسـبح بحمـده، حتّـى صريـر

١ - في الأصل: «وأصفيها».

٢ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «إليه».

النبات ونفيض السعف. وقال مجاهد: «كلُّ الأشياء تسبح لله صبيا أو جمادا، وتسبيحها: "سبحان ا لله وبحمده"». وقال أهل المعاني: تسبيحُ السماواتِ والأرْض والجمادات، وسائر الحيوانات سِوى العقلاء: تَذلُّلها لخالقها؛ ﴿ولكن لاَ تَفقَهُون تَسبيحَهم﴾ (لَعَلَّهُ) لاختلاف اللغات، أو لتغيُّر الإدراك، ﴿إنَّهُ كَانَ حليما﴾ عَن جهل العباد. ﴿غَفُورا(٤٤)﴾ لمن تاب.

﴿وإذا قَرَأْتَ القرآنَ جعلنا بينك وبين الذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة حجابا مستورا(٤٥)﴾ حَجَب قلوبهم عَن فهمه والانتفاع بِهِ. قَالَ قَتَادَة: «هُوَ الأكنَّة». والمستور بمعنى: الساتر؛ وقيل: مستورا عَن أعين الناس فيما يرونه بالبصر الظاهر.

﴿وجعلنا عَلَى قلوبهم أَكِنَّة﴾ جمع كِنَان، وَهُوَ الذِي يستر الشيء، ﴿أن يفقهوه﴾ كراهة أن يفقهوه، ﴿وفي آذانهم وقرا﴾ ثِقلا يمنع عَن الاستماع؛ ﴿وإذا ذكرتَ رَبَّكَ فِي القرآن وحده﴾ أي: وحَّدته، ﴿ولَّوا عَلَى أدبارهم﴾ رجعوا عَلَى أعقابهم ﴿نفورًا(٤٦)﴾ أي: يحبُّون أن تذكر معهم آلهتهم، لأَنَّهُم يشركون بِهِ، فإذا سمعوا بالتوحيد نفروا؛ والمعنى فِي ذَلِكَ: إذَا أمرتهم باستقامة[1]، والإخلاص لله وحده، وأن لا يكون نصيبٌ لهوى أنفسِهم أبوا واستكبروا.

﴿نَحْنُ أعلم بِمَا يستمعون بِهِ﴾ أي: يستمعون هازئين لاعبين، لاَ متبينين للبيان، ﴿إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوَى، إذ يقول الظالمون: إن

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «بالاستقامة».

**تتّبعون إلاّ رجلا مسحورا(٤٧)﴾** مطلوبا [كـذا] مخدوعـا؛ وقيـل: مصروفـا عَن الحق، وقيل: رجل لَهُ سحر، والسحر: الزينة[1]، أي: أنـّه بشر مثلكم معلّل بالطعام والشراب؛ وقيل: سُحِر فجنّ.

**﴿انظر كيف ضَربوا لك الأمثالَ﴾** الأشباه، قَالُوا: ساحر وشاعر وكاهن ومجنون، **﴿فضلُّوا فـلا يستطيعون سبيلا(٤٨)﴾** وصولا إِلَىٰ طريق الجنّة، وهي طريق الحق، لأَنـّهُم ضلُّوا فِي جميع ذَلِكَ من يطلب فِي التيه يسلكه[2]، فلا يقدر عليه، فهو متحيرٌ فِي أمره لاَ يدري مَا يصنع.

**﴿وَقَالُوا: أئذا كُنَّا عظامـا ورفاتـا﴾** ترابا وحطاما، **﴿أئنـّا لمبعوثـون خلقـا جديدا(٤٩) قل: كونوا حجارة أو حديدا(٥٠)﴾** استَشعِروا فِي قلوبكم أنـّكُم حجارة أو حديد فِي الشدّة والقوّة؛ **﴿أو خَلْقا مِمَّا يكبـُر فِي صدوركم﴾** قيل: السماوات والأَرْض؛ وقيل: الموت، فإنـّه ليس فِي نفس ابن آدم شيء أكبر مِنَ الموت؛ **﴿فسيقولون: مَن يُعيدُنا؟ قل: الذِي فَطَركم أَوَّل مرّة﴾** والمعنى: أنـّكُم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم، **﴿فسينغِضون إليـك رءوسَهم﴾** فسيحركونها تعجُّبا واستهزاء، **﴿ويقولون: متى هُوَ؟﴾** أي: البعث، استبعادا لَهُ ونفيا، **﴿قل: عسى أن يكونَ قريبا(٥١)﴾** [٣١٧] أي: هُوَ قريب؛ و«عسى» للوجوب.

---

١ - كذا في الأصل، وَفِي الكشّاف: «وقيل: هو من السحر، وَهُوَ الرئة، أي هو بشر مثلكم». الزمخشري: الكشّاف، ٥٢٣/٢.

٢ - كذا في الأصل، وصواب العبارة نجده عند الزمخشري: «فِي جميع ذَلِكَ ضلال من يطلب فِي التيه طريقا يسلكه، فلا يقدر عليه». الزمخشري: الكشّاف، ٥٢٣/٢.

﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده﴾ قيل عَن ابن عبَّاس: «بأمره»؛ وقيل: مقرين بأنَّه خالقهم، (لَعَلَّهُ) من حيث لاَ ينفعهم. ﴿وتظنُّون إن لبثتم إلاَّ قليلا(٥٢)﴾ فِي الدُّنْيَا، أو فِي القبر.

﴿وقل لعبادي: يقولوا التِي هِيَ أحسنُ﴾ وَلاَ تخاشنوا فِي القول ﴿إنَّ﴾ فِي المخاشنة ﴿الشيطان ينزغُ بَيْنَهُم﴾ يلقي بينهم العدواة والبغضاء، ﴿إنَّ الشيطان كَانَ[1] للإنسان عدوًّا مبينًا(٥٣)﴾ أي: يضرُّ فِي الدُّنْيَا والآخِرَة.

﴿رَبُّكُم أعلمُ بكم إن يشَأْ يرحَمْكم﴾ بالهداية والتوفيق، ﴿أو إن[2] يشأ يُعذِّبكم﴾ بالخذلان، أي: يقولوا لَهُم هَذِهِ الكلمة ونحوها، وَلاَ يقولوا لَهُم: إنَّكُم من أهل النار، وَإنَّكُم معذَّبون، وَمَا أشبه ذَلِكَ مِمَّا يغيظهم ويهيجهم عَلَى الشر، ﴿وَمَا أرسلناك عَلَيْهِم وكيلا(٥٤)﴾ حافظا لأعمالهم، موكولا إليك أمرهم، وإنَّما أرسلناك بشيرا ونذيرا.

﴿وربُّكَ أعلم بمن فِي السَّمَاوَات والأَرْض﴾ وبأحوالهم، وبما يستأهل كلُّ وَاحِد مِنْهُم. ﴿وَلَقَد فضَّلنا بعضَ النبيِّين﴾ بالترقِّي إِلَى درجات القرب منَّا، ﴿عَلَى بعض، وآتينا داوودَ زَبورا(٥٥)﴾ دلالة عَلَى وجه تفضيله، وقد علم الله مِنْهُ أنَّه مستأهل إِلَى ذَلِكَ الحال.

﴿قل: ادعوا الذِينَ زعمتم﴾ أنَّهم آلهتكم ﴿من دونه﴾ من دون الله، وَهُوَ كلُّ مَا آثره العبد من شهوات نفسه المحجورة عليه عَلَى أمر الله[3] ونهيه،

---

١ - في الأصل: - «كان» وهو سهو.

٢ - في الأصل: «وإن»، وهو سهو.

٣ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «من أمر الله».

﴿فلا يملكون كشفَ الضرِّ عنكم وَلاَ تحويلاً(٥٦)﴾ أي: ادعوهم وَهُم لاَ يستطيعون أن يكشفوا عنكم الضرَّ، من مرض أو فقر أو عذاب، وَلاَ أن يحولوه من وَاحِد إِلىَ آخر.

﴿أولَـئِكَ الذِينَ يدعون﴾ أي: يدَّعونهم آلهة، يبتغون إِلىَ ربهمُ الوسيلة، يعني الذين يدعوهم المشركون آلهة. قَالَ ابن عبَّاس: «عيسى وأمَّه، وعزيرًا والمَلاَئِكَة». ﴿يبتغون﴾، أي: يطلبون ﴿إلى ربِّهم الوسيلة﴾ أي: القربة، ﴿أيُّهم أقرب﴾ قَالَ الزجاج: «أيُّهم أقرب يبتغي الوسيلة إِلىَ ا لله ويتقرَّب إِلَيْهِ بالعمل الصالح». ﴿ويرجون رحمتَه ويخافون عذابه﴾ كغيرهم من عباد ا لله؛ فكيف يزعمون أنَّهم عباد ا لله؟، ﴿إنَّ عذاب رَبِّكَ كَانَ محذورا(٥٧)﴾ حقيقا بِأن يحذره كلُّ وَاحِد، من مَلَك مقرَّب أو نبيٍّ مرسلٍ، فضلا عَن غيرهم.

﴿وإن من قرية إلاَّ نَحْنُ مهلكوها قبل يومِ القيامة، أو معذِّبوها عذابا شديدا﴾ بعذاب غير مستأصِل؛ ﴿كَانَ ذَلِكَ[1] فِي الكتاب مسطورًا(٥٨)﴾.

﴿وَمَا مَنَعَنا أن نُرسل بالآيات إلاَّ أن كذَّب بها الأوَّلون﴾ أُستعير المنع لترك إرسال الآيات، والمعنى: وَمَا منعنا إرسالَ الآيات إِلاَّ تكذيب الأوَّلين؛ والمُرَاد «بالآيات»: التِي اقترحتها قريش، من قلب الصفا ذهبا، ومن إحياء الموتى، وغير ذَلِكَ؛ وسنَّة ا لله فِي الأمم أنَّ من اقترح مِنْهُم آيَة فأجيب إِلَيْها،

١ - في الأصل: - «ذلك»، وهو سهو.

ثُمَّ لم يُؤْمِن، أن يعاجَل بعذاب الاستئصال؛ والمعنى: وَمَا منعنا أن[1] إرسال مَا يقترحونه مِنَ الآيات، إِلاَّ أَنَّ كذَّب بها الذين هم أمثالهم فِي[2] المطبوع عَلَى قلوبهم كعاد وثمود؛ وإنَّها لو أرسلت لكذَّبوا بها تكذيب أُولَـئِكَ، وعذِّبوا العذاب المستأصِل؛ وقد حكمنا أن نؤخِّر أمر من يُبعث إِلَيْهِم إِلىَ يوم القيامة. ثُمَّ ذكر من [٣١٨] تلك الآيات ـ التِي اقترحها الأوَّلون، ثُمَّ كذَّبوا بها لـمَّا أرسلت فأُهلكوا ـ وَاحِدَةً، وهي ناقة صالح، لأَنَّ آثار هلاكهم قريبة؛ وقال الله فِيهِم: ﴿بَلِ الساعةُ موعدُهم، والساعة أدهى وأَمَرُّ﴾[3]، لأَنَّ هَـذِهِ الأمـَّة هِيَ آخر الأمم، وليس أمـَّة بعد أن استـؤصِلوا[4]، وَا للهُ أعلم بتأويل كتابه. **﴿وآتينا ثمودَ الناقةَ﴾** (لَعَلَّهُ) باقتراحهم، **﴿مبصِرةً﴾** أنـه[5] بينة. **﴿فظلموا بها﴾** فكفروا بها؛ **﴿وَمَا نرسِلُ بالآيات﴾** أي: العبر والدلالات، **﴿إلاَّ تخويفا(٥٩)﴾** للعباد (لَعَلَّهُ) ليؤمنوا.

**﴿وإذ قلنا لك: إنَّ رَبَّكَ أحاط بالناس﴾** فليس لَهُم مفرٌّ عَن تقديره، **﴿وَمَا جعلنا الرؤيا التِي أريناك إِلاَّ فتنةً للناس﴾** بِمَا يَشَاء من آياته، أي: هم فِي قبضته لاَ يقدرون عَلَى الخروج من مشيئته، فهو حافظك، ومانعك مِنـْهُم، فلا تهمهم[كَذَا]، وامض فيما أمرتك بِهِ من تبليغ الرسالة. والرؤيا التِي أراه

١ - كذا فِي الأصل، والصواب: «عن». الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٥٢٦.

٢ - كذا فِي الأصل، والصواب: «من». الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٥٢٦.

٣ - سورة القمر: ٤٦.

٤ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ فِي العبارة سقطا.

٥ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «أنَّها».

ا لله إيَّاهَا: قيل مَا أراه فِي ليلة المعراج مِنَ العجائب والآيات؛ قيل: هِيَ رؤيا عين، وقيل: رآه بروحه دون بدنه. ﴿والشجرةَ الملعونةَ فِي القرآن﴾ أي: وَمَا جعلنا الشجرةَ الملعونة فِي القرآن إلاَّ فتنةً للناس، فإنَّهم حين سمعوا بقوله: ﴿إنَّ شجرة الزقُّوم طعام الأثيم﴾[1] جعلوها سخرية، وَقَالُوا: إنَّ محمَّدا يزعم أنَّ الجحيم تحرق الحجارة، ثُمَّ يقول ينبتُ فِيهَا الشجر، وَمَا قدروا ا لله حقَّ قدره إذ قَالُوا ذَلِكَ، فإنَّه لاَ يمتنع أن يجعل ا لله الشجرة من جنسٍ لاَ تأكله النار، كيف و[قد] خلق ا لله مِنَ الشجر نارا فلا تحرقها، وترى النعامة تبتلع الجمر فلا يضرُّها، فجاز أن يخلق ا لله فِي النار شجرة لاَ تحرقها. والمعنى: أنَّ الآيات إِنَّمَا ترسل تخويفا للعباد؛ ﴿ونخوِّفهم﴾ بمخاوف الدُّنْيَا والآخِرَة، ﴿فما يزيدهم﴾ التخويف ﴿إلاَّ طغيانا كبيرا(٦٠)﴾ فكيف يخاف قوم هَـذِهِ حالهم بإرسال مَا يقترحون مِنَ الآيات؟ فإن قلت: ليس فِي القرآن ذكر لعنِ شجرة الزقوم، قلت: معناه: الملعون آكلها، وَهُوَ من كفر با لله، لأَنَّهُ قَالَ: ﴿فإنَّهم لآكلون منها فمالئون منها البطون﴾[2]، فوُصِفت بلعن أهلها عَلَى المجاز؛ ولأنَّ اللعن هُوَ الإبعاد مِنَ الرحمة، وهي فِي أصل الجحيم فِي أبعد مكَان مِنَ الرحمة.

﴿وإذ قلنا للمَلاَئِكَة: اسجدوا لآدم، فسجدوا إلاَّ إبليس قَالَ: أأسجُدُ لمن خَلقتَ طينا(٦١)؟ قَالَ: أرأيتك هَذَا الـذِي كرَّمتَ عليَّ﴾ أي: فضَّلته وكرَّمته عليَّ، (لَعَلَّهُ) لـمَّا علم إبليس أنَّ الكرامة الحقيقيَّة هِيَ صِحَّة الاستقامة عَلَى التوحيد، توعَّد عَلَى ذريَّته أن يُنزِلهم عَن رتبة مَا كُرموا بِهِ عليه إِلىَ أسفل

١ - سورة الدخان: ٤٣-٤٤.

٢ - سورة الصافات: ٦٦.

سافلين، بقوله: ﴿لئن أخّرتني إِلَى يوم القيامة لأحتنكنّ ذرّيّته﴾ لأستأصلنّهم بإغوائهم، (لَعَلّهُ) ولأستولينّهم، بمعنى: أتولاّهم، ﴿إلاّ قليلا(٦٢)﴾ وَهُم المخلصون، وإنّما علم الملعون ذَلِكَ، لأَنَّهُ رآه أنّه خلقٌ شهوانيٌّ، فجميع أحواله الظاهرة والباطنة، وأفعاله وأقواله شهوانيّة.

﴿قَالَ: اذهب﴾ أي: امض لشأنك الذِي اخترته، خذلانا وتخلية، ﴿فمن تبعك مِنْهُم فإنّ جَهَنَّم جزاؤكم جزاءً موفورا(٦٣)، واستفزز﴾ استزلّ واستخفّ؛ استفزّه: أي استخفّه، [٣١٩] والفزُّ: الخفيف، ﴿من استطعت مِنْهُم بصوتك﴾ بالوسوسة والدعاء إِلَى معصية الله؛ ﴿وأجلِبْ عَلَيْهِم بخيلك وَرَجْلِك﴾ اجمع وضجّ بهم، مِنَ الجلبة والحشر، أي: احشر عليهم. قَالَ مقاتل: «استعن عَلَيْهِم بركبان خيلك ومُشاتهم»، والخيل لَهُ خيل [كَذَا]، ورَجْل مِنَ الجن والإنس، وذلك استعارة؛ أي: اقضي[1] مَا يُستطاع فِي طلب الأمور الخيلَ والرجلَ، وقيل: يجوز أن يكون لإبليس خيل ورجال، ﴿وشاركهم فِي الأموال والأولاد﴾ قَالَ الزجّاج: «كلُّ معصية فِي مال وولد فإبليس شريكهم». ﴿وعِدْهُم﴾ المواعيدَ الكاذبة، الدينيّة والدُّنْيَويَّة، ومن ذَلِكَ مَا يَعِدهم بالغفران مَعَ الإصرار، وبقبول الطاعة مَعَ المعاصي، ﴿وَمَا يَعِدُهم الشيطان إلاّ غرورا(٦٤)﴾ وَهُوَ تزيُّن[2] الخطإ بِمَا يوهم أنّه صواب.

﴿إنّ عبادي﴾ الصالحين ﴿ليس لك عَلَيْهِم سلطان﴾ لأَنَّهُ ليس سلطان إِلاَّ من يجعل لَهُ سبيلا[3] من ذات نفسه، وَهُوَ إعانة المخلوق نفسه إِلَى

---

١ - كذا فِي الأصل، ولعلّ الصواب: «اقضِ».

٢ - كذا فِي الأصل، ولعلّ الصواب: «تزيين».

٣ - كذا فِي الأصل، ولعلّ الصواب: «لأَنَّهُ ليس له سلطان إِلاَّ عَلَى من يجعل لَهُ سبيلا».

مَا يدعوه من شهواتـها، ﴿وكفى بربِّكَ وكيلا(٦٥)﴾ لَهُم، أي: حافظا لَهُم عنك.

﴿رَبُّكُم الذِي يُزْجِي﴾ يُجري ويُسير ﴿لكم الفُلكَ فِي البحر لتبتغوا من فضله إِنَّهُ كَانَ بكم رحيما(٦٦). وإذا مسَّكم الضرُّ فِي البحر﴾ أي: خوف الغرق، ﴿ضلَّ من تدعون إلاَّ إِيَّاهُ﴾ ذهب عَن أوهامكم كُلُّ من تدعونه فِي حوادثكم إِلاَّ إيَّاه وحده، فَإِنَّكُم لاَ تذكرون إِلاَّ سواه؛ أو ضلَّ من تدعون من آلهةٍ عَن إعانتكم، ولكنَّ الله وحده هُوَ الذِي ترجونه، ﴿فَلَمَّا نجَّاكم إِلَى البَرِّ أعرضتم﴾ عَن الإخلاص بعد الخلاص؛ ﴿وكَانَ الإنسان﴾ أي: جنس الإنسانيَّة ﴿كفورًا(٦٧)﴾ للنعم.

﴿أفأمنتم﴾ الهمزة للإنكار، تقديره: «أنجوتم فأمنتم»، (لَعَلَّهُ) فحملكم ذَلِكَ عَلَى الإعراض، ﴿أن يخسف بكم جانب البَرِّ﴾ والمعنى: أن يخسف جانب البَر، أي: يقلبه وأنتم عليه، والحاصل أن الجوانب كلَّها فِي قدرته سواء، وَلَهُ فِي كل جانب بَرًّا وبحرًا سبب من أسباب الهلاك ليس...[1]. فعلى العاقل أن يستوي خوفُه مِنَ الله فِي جميع الجوانب، والحالات كلِّها، ﴿أو يُرسلَ عَلَيْكُم حاصِبا﴾ هِيَ الريح التِي تحصب، أي: ترمي بالحصباء، يعنِي: أو إن لم يصبكم بالهلاك مِن تحتكم بالخسف أصابكم بِهِ مِن فوقكم بريح يرسلها عَلَيْكُم فِيهَا الحصباء، ﴿ثُمَّ لاَ تجدوا لكم وكيلاً(٦٨)﴾ مانعا يصرف عنكم ذَلِكَ.

١ - أحال الناسخ إِلى الحاشية و لم يذكر فيها شيئًا؛ وفيه نقص بيِّن، وتمام العبارة نجده عند الزمخشريِّ: «ليس جانب البحر وحده مختصًّا بذلك». الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٥٣٠.

﴿أم أمنتم أن يعيدكم فِيهِ تارة أُخْرَى، فيُرسلَ عليكم﴾ أي: أم أمنتم أن يقوي دواعيكم، ويوفّر حوائجكم، ويهيئ أسبابكم، إلى أن ترجعوا فتركبوا البحر الذِي نجّاكم مِنْهُ، فأعرضتم، فينتقم منكم بِأن يُرسل عليكم ﴿قاصفا مِنَ الريح﴾ وهي الريح التِي لها قصيف، وَهُوَ: الصوت الشديد، أو هُوَ الكاسر للفُلك، ﴿فيغرقَكم بِمَا كفرتم﴾ بكفرانكم النعمة، وَهُوَ إعراضكم حين نجّاكم، ﴿ثم لاَ تجدوا لكم علينا بِهِ تبيعا(٦٩)﴾ مطالبا، من قوله: ﴿فاتباع بالمعروف﴾[1] أي مطالبة.

﴿وَلَقَد كرّمنا بني آدم﴾ بالعقل، والنطق، والخطّ، والصورة الحسنة، والقامة المعتدلة، وتدبير أمر المعاش والمعاد، وتسخير المخلوقات. قَالَ الواسطيُّ: «معناه: بِأن سخّرنا لَهُمُ الكون وَمَا فِيهِ، لئلاّ يكونوا فِي تسخير شيء[2]، ويتفرّغوا إِلىَ عبادة ربهم». ﴿وحملناهم فِي البَرّ والبحر، ورزقناهم مِنَ الطّيّبَات﴾ باللذيذات، ﴿وفضّلناهم عَلَى كثير مِمّن[3] خلقنا تفضيلا(٧٠)﴾ [٣٢٠]، لأَنَّهُ خلق الكلّ لَهُم، وخلقهم لنفسه ولعبادته، وأن يوحدوه ويطيعوه، فيثيبهم الثواب الأبديّ.

﴿يوم ندعو كُلَّ أناس بإمامهم﴾ بمن ائتمُّوا بِهِ من نبيّ أو مقدّم فِي الدين، أو كِتَابٍ أو دين؛ وقيل: بأعمالهم؛ وقيل: بكتابهم الذِي فِيهِ أعمالهم بدليل

---

١ - سورة البقرة: ١٧٨.

٢ - كذا في الأصل، ويبدو أنّ في العبارة سقطا.

٣ - في الأصل: «مما» وهو خطأ.

سياق الآيَة؛ وقيل: بإمام زمانهم، (لَعَلَّهُ) الذِي دعاهم فِي الدُّنْيَا إِلىَ ضلالة أو هدى. ﴿فمن أوتي كتابه بيمينه، فأولئك يقرءون كتابهم وَلاَ يُظلمون فتيلاً(٧١)﴾ وَلاَ ينقَصُون من ثوابهم أدنى شيء، و لم يذكر الكفّار وإيتاء كتبهم بشمالهم اكتفاء بقوله:

﴿ومن كَانَ فِي هَذِهِ أعمى﴾ عمًّا يرى من قدرتي فِي مصنوعاتي؛ وَهُوَ يتناول عَمى البصيرة فِي الدُّنْيَا، ﴿فهو فِي الآخِرَة﴾ من عمى الآخِرَة وَهُوَ غيب عَنْهُ [كَذَا]، ﴿أعمى وأضلُّ سبيلاً(٧٢)﴾ مِنَ الأعمى، أي: أضلُّ طريقا؛ وقيل: الإشارة فِي هَذِهِ راجعة إِلىَ النعم التِي عدَّدها عزَّ وجلَّ فِي هَذِهِ الآيات من قوله: ﴿يزجي لكم الفلك...﴾ إِلىَ قوله: ﴿...تفضيلا﴾، يقول: من كَانَ فِي هَذِهِ النعم قد عاينها أعمى، فهو فِي الآخِرَة أعمى وأضلُّ سبيلا.

﴿وإن كادوا ليفتنونك﴾ المعنى: أنَّ الشان قاربوا أن يفتنوك، أي: يخدعوك فاتنين ﴿عَن الذِي أوحينا إليك لتفتريَ علينا غيره﴾ بالقول أو الفعل، ﴿وإذًا لاتَّخذوك خليلا(٧٣)﴾ أي: وإن اتَّبعت مرادهم لاتَّخذوك خليلا، ولكنت لَهُم وليًّا وخرجت من ولايتي.

﴿ولولا أن ثبَّتناك﴾ ولولا تثبيتنا لك وعصمتنا، ﴿لَقَد كدت تركن إِلَيْهِم﴾ لقاربت أن تميل إِلىَ مكرهم ﴿شَيْئًا قليلا(٧٤)﴾ والشيء القليل مِمَّا يخاف مِنْهُ، لأَنَّهُ من خفيَّات المعاصي ودقائقها، ولا يميزه إِلاَّ الراسخون في العلم.

﴿إذًا﴾ لو رَكنتَ إليهم في أَقَل شيء من خفيات الكبائر، لأَنَّ الصغائر مغفُورة للعبد إن كَانَ مجتنبا للكبائر، بقوله: ﴿إن تجتنبوا كبائر مَا تُنهَون عَنْهُ

نكفِّرْ عنكم سيئاتكم وندخلْكم مدخلا كريما﴾[1]. ﴿**لأذقنـاك ضِعف الحياة وضِعف الممات**﴾، أي: لو فعلت ذلك لأذقناك ضعف عذاب الحياة، وضعف عذاب الممات؛ أي: أضعفنا لك العذاب فِي الدُّنْيَا والآخِرَة؛ وقيل: الضعف مِنَ العذاب سمي ضعفا لتضاعف الإثم فِيهِ. ﴿**ثُمَّ لاَ تجد لك علينا نصيرا(٧٥)**﴾ مانعا لك يمنع من عذابنا عنك، وفي هَذِهِ الآيَة تحذير عظيم يحمل المؤمن عَلَى الرسوخ فِي العلم، والحذر مِنَ الشيطان الرجيم، ومن شباكه ومكايده الدقيقة الملتبسة بِالْحَق.

﴿**وإن كادوا لَيستفزُّونك**﴾ ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم، ﴿**من الأرْض ليُخرجوك منها، وإذًا لاَ يلبثون خِلافك**﴾[2] بعدك، ﴿**إلاَّ قليلا(٧٦). سنَّة من قد أرسلنا قبلَك من رسلنا، وَلاَ تجد لسنتنا تحويلا(٧٧)**﴾.

﴿**أقم الصلاة لدلوك الشمس**﴾ لزاولها؛ وأصل الدلوك: الميل. ﴿**إلَى غَسَق الليل، وقرآنَ الفجر**﴾ صلاة الفجر، سُميت قرآنا، وَهُوَ القراءة فِيهَا لكونها رُكنا، كما سَمِيت: ركوعا وسجودا، أو سميت قرآنا لطول قراءتها. والغسق: ظلمة أوَّل الليل. ﴿**إنَّ قرآن الفجر كَانَ مشهودا(٧٨)**﴾ قيل: تشهده مَلاَئِكَة الليل ومَلاَئِكَة النهار، ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء، وَهُوَ [٣٢١] فِي آخر ديوان الليل، وَأَوَّلِ ديوان النهار.

---

١ - سورة النساء: ٣١.

٢ - في الأصل: «خلفك»، عَلَى قراءة ورش.

**﴿ومن الليل فتهجَّد﴾** أي: قُم بعد نومك؛ والتهجُّد لاَ يكون إلاَّ بعد النوم. **﴿بهِ نافلةً لك﴾** عبادة زائدة لك عَلَى الصلوات، والتهجُّد والنافلة يجمعهما معنى واحد؛ والمعنى: أنَّ التهجُّد زِيدَ لك عَلَى الصلاة المفروضة غنيمة لك، **﴿عسى أن يبعثك رَبّكَ مقاما محمودا(٧٩)﴾**.

**﴿وقل: رَبِّ أدخلني مُدخل صدقٍ، وأخرجني مُخرج صدقٍ﴾** قيل: أدخلني فِي طاعتك (لَعَلَّهُ) صادقا، وأخرجني من معاصيك صادقا؛ ويحتمل فيه: أدخلني فِي الأمور صادقا، وأخرجني مِنْها صادقا؛ أي: بنيَّةٍ وإخلاصٍ لمرضاتك، وأخرجني مُخرج صدق، **﴿واجعل لي من لَدُنك سلطانا نصيرا(٨٠)﴾** حُجَّة تنصرني عَلَى من خالفني، وينصرني من اتَّبعني.

**﴿وقل: جاء الحَقُّ﴾** ظَهَرَ وثَبت، **﴿وزهَقَ﴾** ذهب وهلك **﴿الباطلُ﴾** الشرك؛ لأنَّ الشرك يَخنس عند ظهور الحق عليه، وهو التوحيد. **﴿إنَّ الباطل كَانَ زهوقا(٨١)﴾** مُضمحلاً عند مَجيء الحق؛ لأنَّهما ضدَّان لاَ يجتمعان فِي حال، مثل النور والظلمة.

**﴿ونُنَزِّل مِنَ القرآن مَا هُوَ شفاء﴾** لأمراض القلوب، وأهوية النفوس، لأنَّهما من دعوة إبليس، وَلاَ تأثير لها عند قبول الحق. **﴿ورحمةٌ﴾** وتفريجٌ للكروب، وتطهير للعيوب، وتكفير للذنوب، **﴿للمؤمنين﴾** لاَ لغيرهم. فِي الحديث: *«من لم يَستَشْفِ بالقرآن فلا شَفَاه ا للّه»*[1]. **﴿وَلاَ يزيدُ الظالمين إلاَّ**

---

١ - لم نعثر عَلَيه في مسند الربيع، ولا في الكتب التسعة.

**خسارا(٨٢)﴾** ضلالا لتكذيبهم بِهِ؛ قيل: زيادة الخسار للظالم مِن حيث أنَّ كلَّ آيَة تنزل، يقع مِنْهُ لها تكذيب، فيزداد عليه بذلك خسران.

**﴿وإذا أنعمنا عَلَى الإنسانِ﴾** بالصِحَّة والسَّعَة، **﴿أعرَضَ﴾** عَن ذِكرِ الله، أو أنعمنا عليه بالقرآن وتأويله؛ **﴿ونأى بجانبه﴾** تأكيد للإعراض، لأنَّ الإعراض عَن الشيء: أن يُوليه عرضَ وجهه، والنائي بالجانب أن يَلْوِيَ عَنْهُ عُنُقَه، ويُوليه ظهره، أو أَرَادَ الاستكبارَ، لأنَّ ذَلِكَ مِن عادةِ المستكبرين؛ وقيل: ناءَ[1] بجانبه، أي: تباعد عنَّا بنفسه؛ أي: ترك التقرُّب (لَعَلَّهُ) إِلىَ الله تعالى. **﴿وإذا مسَّه الشرُّ﴾** ضدُّ الخير والنعمة، **﴿كَانَ يئوسا(٨٣)﴾** شديدَ اليأس مِن روح الله.

**﴿قل: كُلٌّ يعمل عَلَى شاكلته﴾** عَلَى مَذهبه وطريقته التِي تُشاكل حاله فِي الهدى والضلالة؛ وقيل: عَلَى نيته؛ ومجاز الآيَة: كلٌّ يعمل عَلَى مَا يشتهيه، كما يقَالَ فِي المثل: «كلُّ امرئ يشبهه فعلُه»؛ **﴿فربُّكُم أعلم بمن هُوَ أهدى سبيلا(٨٤)﴾** أوضح طريقا.

**﴿ويسألونك عَن الروح، قل: الروح مِن أمر رَبِّي﴾** أي: من الأمر الذِي يَعلَمُه ربي. الجمهور: عَلَى أنَّه الروح الذِي فِي الحيوان، سألوه عَن حقيقته، فأخبر أنَّه من أمر الله، أي: مِمَّا استأثر بعلمه. وعن أبي يزيد: «لَقَد مضى النبيُّ وَمَا يُعلَم الروح، وقد عجزت الأقاويل عَن إدراك ذاتيَّته بعد إنفاق

---

١ - قد يستعمل ناء بمعنى نأى، قال فِي اللسان: «وقرأ ابن عامر: "ناءَ بجانبه"، عَلَى القلب». ابن منظور: لسان العرب، ٦/٥٦١. مادَّة نأي.

الأعمار الطويلة عَلَى الخوض فِيهِ». والحكمة فِي ذَلِكَ تعجيز العقل عَن إدراك معرفة مخلوق مجاور لَهُ، لِيدلَّ عَلَى أنَّه عَن إدراك خَالقِه أعجز؛ وقوله: **﴿مِن أمرِ ربي﴾** دَلِيل عَلَى خلق الروح، فكَانَ هَذَا جوابا. **﴿وَمَا أُوتِيتم مِنَ العلم إلاَّ قليلا(٨٥)﴾** قَالَ أبو سعيد العماني: «قد قيل: فيما يُروى أنَّه لـمَّا كَانَ مِن أمرِ مُوسى والخَضِر وإذا الافتراق، نَزَلَ عليهما طير مِن السَّمَاء إِلَى البحر، أو إِلَى الأَرْض فأخذ بمنقاره [٣٢٢] مِنَ البحر أو الأَرْض، فقال الخضر لموسى: أتعرف يا موسى مَا هَذَا الطير؟ أو مَا يُراد بِهِ؟ قَالَ: مُوسى لاَ أعرف ذَلِكَ، قَالَ: هَذَا أُرسِل إلينا ليعرفنا، أو يُعلِّمنا أنَّ جميع عِلم مَا خَلَقَ ا لله مِن أهل الأَرْض وغيرهم، مَعَ عِلْمِ ا لله مثل مَا احتمل بمنقاره من البحر، ولاَ نبلغ ذَلِكَ»؛ هكذا عندي عَلَى معنى الرواية، لاَ عَلَى اللفظ.

**﴿ولَئِن شِئنا لنذهبنَّ بالذي أَوحينا إليك﴾** المعنى: ولئن شئنا ذهبنا بالقرآن، ومَحَوْنَاه عَن الصدور والمصاحف، فلم نترك لَهُ أثرا. وقال بعض أهل المعاني: المعنى: أنَّه إِذَا خالف الذِي أوحي إِلَيْهِ بحرف وَاحِد مِنَ الدين، فقد أذهب عَنْهُ مَا أوحي إِلَيْهِ. ولو بَقِيَ فِي صَدرِه فلا ينفعه، إذ حقيقة العلم هُوَ العمل، وَمَا يدلُّ عَلَى هَذَا المعنى قوله: **﴿ثُمَّ لاَ تجد لك بِهِ علينا وكيلا(٨٦)﴾** يُعينك وينصرك مِنَّا. **﴿إلاَّ رحمةً من ربِّكَ﴾** قيل: هَذَا استثناء مُنقطعٌ، معناه: لكن لاَ يَشَاء ذَلِكَ، رحمةً من رَبكَ، **﴿إنَّ فضلَه كَانَ عليك كبيرا(٨٧)﴾** لأنَّ فضل القرآن كبير.

**﴿قل: لئن اجتمعت الإنس والجنُّ عَلَى أن يأتوا بمثل هَذَا القرآن لاَ يأتون بمثله ولو كَانَ بعضهم لبعض ظهيرا(٨٨)﴾** مُعينا، أي: لو تظاهروا

عَلَى أن يأتوا بمثل القرآن فِي بلاغته، وحُسنِ نظمه وتأليفه، لَعَجَزوا عَن الإتيان بمثله. ﴿**وَلَقَد صَرَّفنا**﴾ رَدَّدنا وكرَّرنا ﴿**للناس**[1] **فِي هَذَا القرآن مِن كُلِّ مَثَلٍ**﴾ مِن كل معنى، هُوَ كالْمَثَل فِي غرابته وحسنه، ﴿**فأبى أكثر الناس إِلاَّ كُفورا(٨٩)**﴾ جُحودا وتَوَاريا، كأنَّه قيل: فلم يرضوا إلاَّ كفورا.

وَلَمَّا تبيَّن إعجاز القرآن، وانضمَّت إِلَيْهِ المعجزات الأُخَر، ولزمتهم الحجَّة وغُلِبوا، اقترحوا الآيات، فِعْلَ المبهوت المحجوج المتحير، ﴿**وَقَالُوا: لن نؤمن لك**﴾ لن نصدقك ﴿**حتىَّ تُفجِّر لَنَا مِنَ الأَرْض يَنبُوعا(٩٠)**﴾ عَينا غزيرة، مِن شأنها أن تنبع بالماء لاَ تنقطع، نقول:[2] مِن نَبَعَ الماء. ﴿**أو تكون لك جنَّة من نخيل وعِنَب فتفجِّر الأنهار خلالها**﴾ وسطها ﴿**تفجيرا(٩١)، أو تُسقط السَّمَاء كما زعمت علينا كِسَفًا**﴾ أي: قِطَعا، ﴿**أو تأتيَ با لله والمَلاَئِكَة قبيلا(٩٢)**﴾ كفيلا؛ أي: يَكفُلُون بِمَا تقول؛ وقيل: ضامنا؛ وقيل: هُوَ جميع[3] القبيلة؛ أي: بأصناف المَلاَئِكَة قبيلة قبيلة؛ وقيل: عَيَانا، أي: نراهم مقابلة.

﴿**أو يَكون لكَ بيت مِن زُخرف**﴾ ذهب، وَهُوَ أصل الزينة وأغلاها، ﴿**أو ترقى فِي السَّمَاء**﴾ تَصعد إِلَيْها، ﴿**ولن نُؤمنَ لرُقِيِّك حَتَّى تُنزِّل علينا كِتَابًا**﴾ مِنَ السَّمَاء فِيهِ تصديقك ﴿**نقرؤه؛ قل: سبحان رَبِّي**﴾ تعجُّب من

---

١ - كذا في الأصل: - «للناس».

٢ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب ما ذكره الزمخشري: «يَفْعُول: مِن نَبَعَ الماء، كيعبوب، منن عب الماء». الزمخشري: الكشَّاف، ٥٤١/٢.

٣ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «جمع».

اقتراحاتهم عليه، ﴿هل كنتُ إلاَّ بشرا رسولا(٩٣)﴾ أي: أنا رسول كسائر الرسل، بشر مثلهم؛ وكَانَ الرسل لاَ يأتون قومهم إلاَّ بِمَا يُظهره ا لله عَلَيْهِم مِنَ الآيات، فليس أمر الآيات إليّ إنَّمَا هُوَ إِلىَ ا لله.

﴿وَمَا مَنَعَ الناسَ أن يُؤمِنُوا إذ جاءهم الهدى إلاَّ أن قَالُوا﴾ أي: وَمَا مَنَعَهم الإيمان بالقرآن ونُبوَّة محمَّد ﷺ إلاَّ قولهم: ﴿أَبَعَثَ ا لله بشرا رسولا(٩٤)﴾؟ أي: إلاَّ شبهة تَمَكَّنت فِي صدورهم، وهي إنكارهم أن يُرسل ا لله البشر؛ فاستوت حجابا عَلَى عين البصيرة، فلم تُبصر الحقَّ.

﴿قل: لو كَانَ فِي الأَرْض مَلاَئِكَةٌ يمشون﴾ عَلَى أقدامهم كما يمشي [٣٢٣] الإنس، وَلاَ يطيرون بأجنحتهم إِلىَ السَّمَاء، فيسمعوا من أهلها، ويعلم[1] مَا يجب عِلمُه، ﴿مطمئنِّين﴾ أي: ساكنين فِي الأَرْض قارين، ﴿لنزَّلنا عليهم﴾ من جنسهم، لأَنَّ القلب إِلىَ الجنس أَميَل مِنْهُ إِلىَ غير الجنس، ﴿مِن السَّمَاء مَلَكًا رسولا(٩٥)[2]﴾ يُعلِّمهم مِنَ ا لله الخير، ويهديهم المراشد؛ فأمَّا الإنس فإنَّما يُرسل المَلَكُ إِلىَ مُختار مِنْهُم للنبوَّة، فيقوم ذَلِكَ المختار بدعوتهم وإرشادهم.

﴿قل: كفى با لله شهيدا بيني وبينكم﴾ عَلَى أن بلَّغت مَا أُرسلت بِهِ إليكم، وَإِنَّكُم كذَّبتم وعاندتم، ﴿إِنَّهُ كَانَ بعباده﴾ المنذِرين والمنذَرين ﴿خبيرا بصيرا(٩٦)﴾.

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «ويعلموا». انظر الزمخشري: الكشَّاف، ٥٤٢/٢.

٢ - في الأصل: «ملكا رسولا من السماء»، وهو خطأ، وقع فيه تقديم وتأخير.

﴿ومَن يَهدِ ا لله فهو المهتدي﴾ أي: مَن وفـَّقه ا لله لقبـول مَـا كَـانَ مِـنَ الهدى، فهو المهتدي عند ا لله، ﴿ومن يُضلِلْ﴾ أي: ومن يَخذُلـه و لم يعصمـه، ﴿فلن تَجدَ لَهُم أَولِيَاء مِن دونه﴾ أي: أنصارا؛ ﴿ونحشرهم يوم القيامة عَلَى وُجوههم﴾ أي: يُسْحَبُون عليها ﴿عُميا وبُكما وصمًّا﴾ كَـانُوا فِي الدُّنْـيَا لا يَستبصرون وَلاَ ينطقون بالْحَقِّ، ويتصـامَمُون عَـن استماعه، فَهُـم فِي الآخِـرَة كذلك لاَ يُبصِرون مَا تَقـرُّ بـه أعينهـم، وَلاَ يسـمعون مَـا يَلـذُّ مسـامعهم، وَلاَ ينطقون مَا يُقبل مِنْـهُم؛ ﴿مأواهم جَهَنَّم كُلَّما خَبَت﴾ طفِئَ لَهَبها ﴿زدنـاهم سعيرا(٩٧)﴾ تَوَقُّدا.

﴿ذَلِكَ جزاؤهم بأنَّـهم كَفَرُوا بِـآيَـاتِنا﴾ بِحُجَجِنا ﴿وَقَـالُوا: أئـذا كُنـَّا عِظاما ورُفاتا، أئنـَّا لمبعوثون خلقا جديدا(٩٨)﴾؟ فأجابهم ا لله: ﴿أولم يـروا أنَّ ا لله الذِي خلق السَّمَاوَات والأَرْض قـادرٌ عَلَـى أن يَخلـقَ مثلهـم﴾ مِـنَ الإنس، ﴿وجعل لَهُم أجلاً لاَ رَيب فِيهِ، فأبى الظالمون إلاَّ كُفورا(٩٩)﴾.

﴿قل: لو أَنتُم تملكون خزائنَ رحمةِ رَبـي﴾ رحمةَ رِزْقِه، وسائر نِعَمِه عَلَـى خلقه، ﴿إذًا لأمسكتم خشيةَ الإنفاق﴾ أي: لَبَخِلتـم خشـية أن يُفنيـه (لَعَلَّـهُ) الإنفاق، ﴿وكَانَ الإنسان قَتورا(١٠٠)﴾ بخيلا.

﴿وَلَقَد آتينا موسى تِسعَ آياتٍ بَيـنَات، فاسـأل بَنِـي إِسْرَائِيلَ إذ جـاءهم، فقال لَهُ فرعون: إنـي لأظنُّك يا موسـى مسـحورا(١٠١)﴾ سُـحِرتَ فَخُولـط عَقلك؛ وقيل: مخدوعا؛ وقيل: مصروفا عَن الحقِّ؛ وقيـل: سـاحر، فَوُضِـع المفعـول موضعَ الفاعل؛ وقيل: معطِيَ السحر بهذه العجائب التِـي تَفعَلُها من سِحرِك.

﴿قَالَ: لَقَد علمتَ مَا أنزلَ هؤلاء﴾ الآيات، ﴿إلاَّ رَبُّ السَّمَاوَات والأَرْض بصائرَ﴾ أي: بَيِّنَات مكشوفات، ولكنَّك معاند؛ ونحوه: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسُهم ظُلما وعلوًّا﴾[1] ثُمَّ قارع ظنّه بظنّه، بقوله: ﴿وإني لأظنُّك يا فرعون مثبورا(١٠٢)﴾ كأنَّه قيل: إن ظننتني مسحورا، فأنا أظنُّك مثبورا، و ظَنِّي أصحُّ من ظنك، لأنَّ لَهُ أمارة ظاهرة، وهي إنكارك (لَعَلَّهُ) مَا عَرفتَ صحَّته، ومكابرتك لآيات الله بعد وضوحها؛ وَأَمَّا ظنُّك فَكَذِب (لَعَلَّهُ) ومكابرة. وقال الفرَّاء: «مثبورا: مصروفا عَن الخير، من قولهم: مَا ثَبَرَكَ عَن هَذَا، أي: مَا مَنَعَك وصرفَك». وقيل: ملعونا.

﴿فأراد أن يستفزَّهم﴾ يُخرجهم ﴿مِنَ الأَرْض﴾ أرضَ مِصرَ؛ أو ينفيهم عَن ظَهْر الأَرْض بالقتل، ﴿فأغرقناه ومَن معه جميعا(١٠٣)﴾ فحاق بهم مَكرهم. ﴿وقلنا من بعده لبَنِي إِسْرَائِيلَ: اسكنوا الأَرْض، فإذا جاء وعدُ الآخِرَة جئنا بكم لفيفا(١٠٤)﴾ جميعا مُختلطين إيَّاكم وإياهم، ثُمَّ يحكم بينكم، ويُميِّز بين سُعدائكم وأشقيائكم. واللفيف: الجماعات من قبائل شتَّى.

﴿وبالحق [٣٢٤] أنزلناه وبالحق نَزَل﴾ وما أنزلنا القرآن إلاَّ بالحكمة؛ ﴿وَمَا أرسلناك إلاَّ مُبَشرا ونذيرا(١٠٥) وقرآنا فَرَقْنَاه﴾ أي: فصَّلناه؛ أو فرَّقنا فِيهِ الحقَّ مِنَ الباطل؛ وقيل: نزَّلناه، نحو ما لم ينزل مرَّة وَاحِدَة[كَذَا]، بدليل قراءة ابن عبَّاس عَلَى مَا يوجد عَنْهُ: ﴿فرَّقناه﴾ بالتشديد. وقيل: بالتخفيف، أي: فصَّلناه.

---

١ - سورة النمل: ١٤.

﴿لِتَقرَأَه عَلَى الناسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ عَلَى تُؤدَة وتَثَبُّت، ليخلُص لَهُم سرُّه. ﴿ونزَّلناه تنزيلا(١٠٦)﴾ عَلَى حَسَبِ الحوادث.

﴿قل: آمنوا بِهِ أَو لاَ تُؤمنوا﴾ أي: اختاروا لأنفسكم النعيم المقيمَ، أو العذابَ الأليمَ، ثُمَّ علَّل بقوله: ﴿إِنَّ الذِينَ أُوتوا العلمَ مِن قبله﴾ أي: التَّوْرَاة مِن قَبْلِ القرآن، ﴿إِذَا يُتلَى عليهم﴾ القرآن، أو العلمُ الذِي أُوتوه ﴿يَخرُّون للأذقان سُجَّدا(١٠٧)﴾ أي: يَسقطون عَلَى الأذقان. قَالَ ابن عبَّاس: «أراد بها الآخِرَة»[كَذَا].

﴿ويقولون: سبحان رَبنَا إن كَانَ وعدُ رَبنَا لمفعولا(١٠٨)﴾ لقوله: ﴿آمنوا بِهِ أو لاَ تؤمنوا﴾ أي: أَعرض عَنهُم، فإنَّهم إن لَم يُؤمنوا و لم يُصدِّقوا فإنَّ [أُناسًا] خيرا مِنهُم، وَهُم العلماء الذِينَ قرؤوا الكتب، قد آمنوا بِهِ وصدَّقوا. ﴿ويخرُّون للأذقان يبكون﴾ ومعنى الخرور للذَّقن: السقوط عَلَى الوجه، وإنَّما خُصَّ الذقن، لأَنَّهُ أقرب الأشياء مِن وجهه إِلَى الأَرْض عند السجود، ﴿ويَزِيدُهم﴾ أي: القرآن ﴿خُشوعا(١٠٩)﴾ خُضوعا، ولين قلب، ورطوبة عين. ومعنى الخشوع: الانقياد لله (لَعَلَّهُ) عَن عادته التِي أَلِفَها طَبْعُه، كما يقال: خَشَعَ الغصنُ مِنَ الشجرة.

﴿قل: ادعوا الله أو ادعُوا الرحمن﴾ قيل: لَمَّا سَمِعه أبو جهل يقول: «يا لله يا رحمن»، قال: «إنَّهُ نهينَا[1] أن نَعبُدَ إلهين، وَهُوَ يدعو إلها آخر»، نزلت. وقيل: إنَّ أهل الكتاب قَالُوا: «إنَّك لَتُقِلُّ ذكر الرحمن، وقد أكثر الله فِي التَّوْرَاة هَذَا الاسم»، فَنَزَلت. والدعاء: بمعنى التسميَّة، لاَ بمعنى النداء.

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «نهانا»، أو «ينهانا».

«أو»: للتخيير، أي: سَمُّوا بهذا الاسم أو بهذا؛ أو اذكروا إمَّا هَذَا وَإمَّا هَذَا، ﴿أيًّا مَّا تدعوا﴾ أيَّ هذين الاسمين ذَكرتم وسَمَّيتم، ﴿فله الأسماء الحسنى﴾ الضمير فِي «فَلَه» يَرجع إِلَىٰ ذات الله تعالى. قوله[1]: ﴿فَلَهُ الأسماء الحسنى﴾، لأَنَّهُ إِذَا حَسُنَت أسماؤه كلُّها حَسُنَ هذان الاسمان لأنَّهما منهما؛ ومعنى كونها أحسن الأسماء، أنَّها مستقلَّة بمعاني التحميد والتقديس والتعظيم.

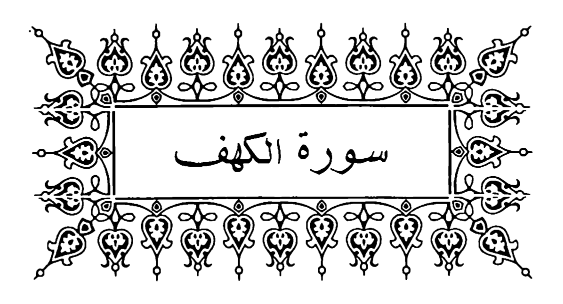
﴿وَلاَ تجهر بصلاتك﴾ كأنَّه يَخرج فِي المعنى لاَ تُراءِ بصلاتك الناسَ، ﴿وَلاَ تُخافت بها﴾ أي: لاَ تَتركها[2] حياء مِنَ الناس، وَالله أعلم بتأويل كِتَابه؛ وقيل: غير ذَلِكَ؛ ﴿وابتغ بين ذَلِكَ سبيلا(١١٠)﴾ اقصد بها وجه الله، واجعل الناس كالعَدَم حضورا (لَعَلَّهُ حَضَروا) أو غابوا؛ أو معناه: وَلاَ تجهر بصلاتك كلِّها، وَلاَ تُخافت بها كلِّها، وابتغ بين ذَلِكَ سبيلا، بِأن تَجهر بصلاة الليل، وتُخافت بصلاة النهار، قيل: لأَنَّهَا عَجمَى.

﴿وقل: الحمد لله الذِي لم يتَّخذ ولدا، ولم يكن لَهُ شريك فِي الملك﴾ كما زعم المشركون، ﴿ولم يكن لَهُ وليٌّ مِنَ الذل﴾ أي: لم يَذلَّ فيحتاج إِلَىٰ ناصر، ﴿وكبره تكبيرا(١١١)﴾ وعَظِّمه، وَصِفْه بأنَّه أكبر بِأن يكون لَهُ ولد أو شريك.

---

١ - يبدو أنَّ فِي العبارة سقطا، ونجد تمامها عند الزمخشري، قال: «والمعنى: أيًّا ما تدعو فهو حسن، فوضع موضعه قوله: ﴿فَلَهُ الأسماء الحسنى﴾...» إلخ. الزمخشري: الكشَّاف، ٥٤٦/٢.

٢ - هَذَا القول عدول عن المعنى الظاهر من غير موجب. وَهُوَ ـ كما ذكر الألوسي ـ مرويٌّ عن الحسن، وابن عبَّاس، وَلَكِنَّهُ قال: «والأكثرون عَلَى التفسير المروي عنه أوَّلاً»، وَهُوَ غير ما ذكره المصنف. للتفصيل انظر: الألوسي: روح المعاني، ١٩٤/١٥-١٩٥. الزمخشري: الكشَّاف، ٥٤٧/٢.



# سورة الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الحمد لله الذِي أنزل عَلَى عبدِه الكتابَ﴾ القرآنَ؛ أَلقَنَ ا لله عباده وَوَفَّقَهم كيف يثنون عليه، ويحمدونه عَلَى أجزل نَعمائِه عَلَيْهِم، وهي نعمة الإسلام؛ [٣٢٥] وَمَا أنزل عَلَى مُحَمَّد ﷺ مِنَ الكتاب الذِي هُوَ سبب نجاتهم فِي الآخِرَة، وغناهم فِي الدُّنْيَا، ﴿ولم يجعل لَهُ عِوَجًا(١)﴾ أي: سببا مِنَ العوج، والعوج فِي المعاني، كالعوج فِي الأعيان؛ يقال: فِي رأيه عِوَجٌ، وفي عصاه عِوَج؛ والمراد: نفي الاختلاف والتناقض فِي معانيه، وخروج شيء مِنْهُ مِنَ الحكمة.

﴿قَيِّمًا﴾ مستقيما، أي: جعله قَيِّما، لأَنَّهُ إِذَا نَفَى عَنْهُ العِوَجَ فقد أثبت لَهُ الاستقامة؛ وفائدة الجمع بين نفي العوج، وإثبات الاستقامة، وفِي أحدهما غِنًى عَن الآخرِ: التأكيدُ، لأَنَّهُ رُبَّ مُسْتَقِيمٍ مشهود لَهُ بالاستقامة لاَ يخلو[1] من أدنى عِوَج عند التصفُّح؛ أو قَيِّمًا عَلَى سائر الكتب مُصدِّقا لها، شاهدا بصحَّتها. ﴿لِيُنذِرَ بأسا﴾ عذابا ﴿شديدا مِن لَدُنهُ﴾ صَادرًا[2] مِن عِندِه

١ - فِي الأصل: «يخل»، وهو خطأ، لأَنَّ "لا" نافية، وليست ناهية. وانظر: الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٥٤٨.

٢ - فِي الأصل: «صادر»، وهو خطأ. وانظر: المصدر نفسه.

فِي الدارين، ﴿وَيُبَشِّر المؤمنين الذِينَ يَعْمَلُونَ الصالحات أنَّ لَهُم أجرًا حسنا(٢) مَاكِثِين فِيهِ أبدا(٣)﴾ لاَ ينتقلون عَنْهُ إلاَّ إِذَا انتقلوا بأنفسهم.

﴿ويُنذِرَ الذِينَ قَالُوا: اتَّخَذَ ا لله ولدا(٤)، مَا لَهُم بِهِ مِن عِلم وَلاَ لآبائهم، كَبُرَت كلمةً تَخرج من أفواههم﴾ صفةُ «كلمةً» تفيد استعظاما لاجترائهم عَلَى النطق [بها][1]، وإخراجها من أفواههم؛ فإنَّ كثيرًا مِمَّا يُوسوسُه الشيطان فِي قلوب الناس مِنَ المنكَرَات لاَ يتمالكون أن يتفوَّهوا بِهِ، بَل يَكظِمُون[2] عليه، فكيف بمثل هَذَا المنكر، ﴿إِن يقولون﴾ (لَعَلَّهُ) أي: مَا يقولون ﴿إلاَّ كَذِبا(٥)﴾.

﴿فلعلَّك باخعٌ﴾ قَاتِل ﴿نفسَك عَلَى آثارهم﴾ أي: آثار الكفَّار، شبَّهه وإيَّاهم ـ حين تولَّوا عَنْهُ، ولَم يُؤمنوا بِهِ، وَمَا بداخله مِنَ الأسف عَلَى توَلِّيهم ـ برجل فارقه أحبَّتُه، فهو يتساقط حَسَرات عَلَى آثارهم، ويَبخَعُ نفسه وجدا عَلَيْهِم، وتلهُّفا عَلَى فِرَاقِهم. وقال سهل بن عبد ا لله فِي هَذِهِ الآية ـ عَلَى مَا يوجد عَنْهُ ـ: «لعلَّك مُهلِكٌ نفسَك باتِّباع المراد فِي هدايتهم وإيمانهم، وقد سبق مِنَّا الحكم فِي إيمان المؤمنين، وكُفر الْكَافِرِينَ، فلا تَغيير وَلاَ تبديل». وقال سهل أَيْضًا: «لَعَلَّك شاغلٌ نفسك عنَّا باشتغال لهم[3] حرصا عَلَى إيمانهم، مَا عليك إلاَّ البلاغ؛ فلا يشغلك عنَّا (لَعَلَّهُ) غيرنا، (لَعَلَّهُ) وَهُوَ كقوله: ﴿وأَمَّا مَن جَاءك

١ - إضافة من الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٥٤٩.

٢ - في الأصل: «يكضمون»، وهو خطأ. وانظر: المصدر نفسه.

٣ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «بالاشتغال بهم».

يسعى وَهُوَ يخشى فأنت عَنْهُ تلهّى﴾[1]». فإذا كَانَ حِرْصُ رسول الله ﷺ عَلَى إيمان أمّته، لم يرض الله مِنْهُ ذلك الحرص، لأَنَّ فِيهِ ترك الرضا بالقضاء، وردَّ المقدور؛ فكيف يرضى مِن غيره الحرص عَلَى الدُّنْيَا الدَّنِيَّة، التِي هِيَ متاعُ الغرور، ومعدن الشرور!. ﴿إن لم يُؤمِنُوا بهذا الحديثِ أَسَفًا(٦)﴾ مفعول لَهُ؛ أي: لفَرطِ الحزن. والأسف: المبالغة فِي الحزن والغضب.

﴿إنَّا جعلنا مَا عَلَى الأَرْض﴾ أي: مَا عَلَى الدُّنْيَا ﴿زينةً لها﴾ أي: مَا يَصلُح أن يكون زينةً لها ولأهلها مِن زخارفِ الدُّنْيَا، وَمَا يُستحسن منها ﴿لنبلوَهُم﴾ لِنختبرهم ﴿أَيُّهُم أحسنُ عملا(٧)﴾ وحُسنُ العمل: الزهد فِيهَا، وترك الاغترارِ بها؛ ثُمَّ زَهَّدَ فِي الميلِ عنها، بقوله:

﴿وَإنَّا لجَاعلون مَا عليها﴾ مِنَ الزينةِ ﴿صعيدًا﴾ أرضا ملساء ﴿جُرُزا(٨)﴾ يابسا، لاَ نبات فِيهَا، بعد أن كَانَت خَضراء مُعشِبَة. والمعنى: نعيدها بعد عِمَارَتها خرابا، بإماتة الحيوان، وتجفيف النبات والأشجار وغير ذَلِكَ.

وَلَـمَّا ذَكَر مِنَ الآيات [٣٢٦] الكُلِّيَّة (لَعَلَّهُ) بتزيُّن الأَرْض بِمَا خلق فوقها مِنَ الأجناس التِي لاَ حَصرَ لها، وإزالة ذَلِكَ كُلِّه كَأن لم يكن، فقال: ﴿أم حَسِبتَ أنَّ أصحابَ الكهفِ والرقيم﴾ يعني: أنَّ ذَلِكَ أعظم مِن قصَّة أصحابِ الكهفِ، وبقاء حياتهم مدَّة طويلة. والكهف: الغار الواسعُ فِي الجبل. والرقيم: اسم كلبهم أو قريتهم؛ أو اسم كِتَابٍ كُتِب فِيهِ شأنهم؛ أو اسم الجبل الذِي فِيهِ الكهف؛ أو غير ذَلِكَ. ﴿كَانُوا مِن آياتنا عَجَبًا(٩)﴾ لأهل العقول، لأَنَّ غيرهم يَتَعجَّبون من غير عَجَب، ومِن العُجْبِ لاَ يتعجَّبون.

---

١ - سورة عبس: ٨-١٠.

**﴿إذ أَوَى الفتيةُ إِلَى الكهف، فَقَالُوا: رَبَّنَا آتنـا مِـن لَدُنـك رحمـةً﴾** أي: رحمةً مِن خزائن رحمتك، وهي المغفرة والرزق، والأمن مِنَ الأعـداء. والرحمـة: مَا يُتوصَّل بها[1] إِلَى الرحمة الأبديـَّة، **﴿وَهَيِّـئ لَنـَا مِـن أَمرنـا رَشَـدا(١٠)﴾** حتَّى نكونَ بسببه راشدين مهتدين. قَالَ ابن عبَّاس: «رشدا: أي مَخرجـا مِـنَ العذاب فِي سلامة، وَهُوَ ضدُّ من كَانَ أمره فُرُطا».

**﴿فضرَبْنَا عَلَى آذانهم فِي الكهف﴾** أي: ضرَبْـنَا عليهـا حِجَابـا مِـن أن تَسمَعَ، يعـني: أنَمنـاهم إنامـة ثقيلـة[2]، لاَ تُنبـِّههم فِيهَـا الأصـوات، **﴿سِـنِين عددا(١١)﴾**.

**﴿ثُمَّ بعثناهم﴾** أي: أيقظناهم مِن نَومهـم **﴿لِنعلـمَ أيُّ الحزبَـين﴾** (لَعَلَّـهُ) المختلِفَين فِي مُدَّة لَبثهم، لأَنـَّهُم لَمَّا انتبهوا اختلفوا فِي مُدَّة لَبثهم، وذلـك قوله **﴿قَالَ قائل مِنْـهُم: كم لبثتم؟ قَالُوا: لَبثنا يوما أو بعضَ يوم؛ قَالُوا: رَبُّكُم أعلم بِمَا لبثتم﴾**. وكأنَّ الذين قالوا: «رَبُّكُم أعلم بِمَا لبثتم» هُـمُ الذِيـنَ عَلمـوا أنَّ لبثهم قد تطـاول. أو أيُّ الحزبين المختلفين مـن غـيرهم **﴿أَحصَـى لِمَـا لَبِثـوا أمدا(١٢)﴾** والمعنى: أنـَّهم أضبط أمدًا لأوقـات لبثهـم بالأمـارات والدلائـل، وكأنـَّهم أخصُّ مَدحًا مِنَ الذين قَالُوا: «لبثنا يومًا أو بعضَ يـوم»، وإن كَـانُوا لم يكتسبوا بذلك مَعَ الله عيبا وَلاَ ذَمـًّا، لأَنـَّهُم كأنـَّهم قَالُوا ذَلِكَ عَلَى سبيل الاجتهاد والرأي، لاَ عَلَى القطعِ بالشهادة بالغيب.

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الأصوب: «به».

٢ - في الأصل: «تعليه»، ولا مَعنَى له. انظر: الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٥٥٠.

﴿نَحْنُ نَقصُّ عليك نَبأَهُم بِالْحقِّ﴾ بالصدق، ﴿إِنـَّهُمْ فتيةٌ﴾ جمع: فَتًى، والفتوَّة: بذل النـَّدَى[1]، وكفُّ الأذى، وتَرك الشكوى؛ أو اجتناب المحارم، واستعمال المكارم؛ وقيل الفتىَ: مَن لاَ يَدَّعي قبل الفعل، وَلاَ يُزكِّي نفسه بعده. وقيل: شبابا. ﴿آمنوا بربِّهم وزدناهم هُدًى(١٣)﴾ يقينا وعِلما، وكَانُوا مِن خواصِّ دقيانوس، قد قذفَ فِي قلوبهم الإيمان، وخافوا مِنْهُ ومِن قومه؛ وقالوا: لِنَخْلُ اثنان اثنان مِنـَّا، فَيُظهر كلٌّ منهما مَا يُضمر بِهِ لصاحبه، فَفَعلوا؛ فحصل اتـِّفَاقُهم عَلَى الإيمان.

﴿ورَبَطنا عَلَى قلوبهم﴾ وقوَّيناهم بالصبر عَلَى هَجْرِ الأوطان، والفرار بالدين إلىَ بعض الغِيرَان، وجسَّرناهم عَلَى القيام بكلمة الحقِّ، ﴿إذ قاموا فَقَالُوا﴾ بأمر الله، مِن قولهم قامَ بالأمر: إذَا أظهره وأعلنه: ﴿رَبـُّنَا رَبُّ السَّمَاوَات والأَرْض، لن نَدعو مِن دونه إلها﴾ ولئن سَمَّيناهم آلهة، ﴿لَقَد قُلنا إذًا شططا(١٤)﴾ قولاً ذاَ شططٍ، وَهُوَ الإفراد بالظلم[2]، والإبعاد فِيهِ.

﴿هؤلاء قومُنا اتـَّخَذُوا مِن دونه آلهة، لولا يأتون عليهم﴾ هلاَّ يأتون [٣٢٧] عَلَى عبادتهم ﴿بسلطان بَيِّن﴾ بحجَّة ظاهرة، ﴿فمن أظلم مِمَّن افترى عَلَى الله كَذِبا(١٥)﴾ بنسبة الشريك إِلَيْهِ، بالقول أو الفعل أو الاعتقاد!.

---

١ - في الأصل: «النداء»، وهو خطأ. قال في اللسان: «والندى عَلَى وجوه: ندى الماء، وندى الخير، وندى الشرِّ، وندى الصوت، وندى الحُضْر، وندى الدُّخْنة... وندى الخير: هو المعروف». والمقصود المعنى الأخير. ابن منظور: لسان العرب، ٦/٦١٠. مادَّة «ندي».

٢ - كذا في الأصل، والصواب: «الإفراط في الظلم». انظر: الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٥٥٢.

﴿وإذ اعتَزَلتُمُوهُم﴾ خطابٌ مِن بعضهم لبعض، حين صمَّمت عزيمتهم عَلَى الفرار بدينهم، ﴿وَمَا يعبدون إلاَّ ا لله﴾ أي: فارقوهم عَلَى عبادة غَيْرِ ا لله، (لَعَلَّهُ) ولأن يخطِّئوهم عَلَى ما فعلوا من الحقِّ [كَذَا]؛ وَفي ذلك (لَعَلَّهُ) دلالة عَلَى أَنَّهُ قد بقيت بقيَّة متمسِّكة بالْحَقِّ، وعبادةِ ا لله، لا[1] ﴿فأووا إِلَى الكهف يَنشر لكم رَبّكُم من رحمته﴾ عَلِموا أنَّه لاَ يضيع مَنِ التجأ إِلَيْهِ، ﴿ويُهَيِّئْ لكم مِن أمركم مرفقا(١٦)﴾ وَهُوَ مَا يُرتَفق بِهِ، أي: يُنتَفَع بِهِ، وإنَّما قَالُوا: ذلك ثقة بفضل ا لله، وقوَّة فِي رجائهم، لتوكُّلِهم عليه؛ وانظر كيف كان عاقبة مَن تَوَكَّل عليه، واصغ إِلَىَ قوله، وتفكَّر واعتبر، إذ قَالَ:

﴿وتَرَى الشمسَ إِذَا طَلَعَت تزَاوَرُ عَن كهفهم﴾ أي: تميل عنه، وَلاَ يقع شُعاعها عَلَيْهِم، لئلا تضرَّهم، ﴿ذات[2] اليمين﴾ جِهَة اليمين، ﴿وإذا غَرَبَت تَقرِضُهم﴾ تَقطعهم، أو تتركهم وتَعدِلُ عَنْهُم ﴿ذات الشمال، وَهُم فِي فجوةٍ مِنْهُ﴾ فِي مُتَّسع مِنَ الكهف؛ والمعنى: أنَّهم فِي ظلٍّ نهارهم كُلِّه لاَ تُصيبُهم الشمس، فِي طلوعها وَلاَ غُروبها، مَعَ أنَّهم فِي مكَان واسع مُنفتِح مُعرَّض لإصابة الشمس، لولا أنَّ ا لله يحجبها عَنْهُم بقوله[3]: ﴿ذَلِكَ مِن آيات ا لله﴾؛ وقيل: فِي مُنفَسح من غارِ[هِم]، ينالُهم فِيهِ روح الهواء، وبردُ النسيم، وَلاَ يحسُّون كرب الغار. ﴿ذَلِكَ من آيات ا لله﴾ أي: ما صنعه ا لله

---

١ - كتب الناسخ هنا إحالة إِلَىَ الحاشية، و لم يذكر أيَّ شَيْء فيها؛ وفيها نقص بيِّن.

٢ - فِي الأصل: «اذات»، وهو خطأ.

٣ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «لقوله».

من ازورار الشمس وقرضها، طالعة وغاربة، أَنَّهُ من آيات ا للهٰ؛ يعني: أنَّ ما كان فِي ذَلِكَ السمتِ تصيبه الشمس وَلاَ تُصيبهم اختصاصا بالكرامة؛ وقيل: باب الكهفِ شَماليٌّ مستقبل لبنات نَعِش؛ فَهُم فِي مقنأة[1] أبدا؛ ومعنى ﴿ذَلِكَ مِن آيات ا للهٰ﴾ أنَّ شَأنهم وحديثهم مِن آيات ا لله. ﴿**مَن يَهدِ ا لله فَهو المهتدي**﴾ هُوَ ثناء عَلَيْهِم، بأنَّهم جاهدوا فِي ا لله، وأسلموا لَهُ وجوههم، فأرشدهم إِلَى نيل تلك الكرامة السَّنِيَّة؛ ﴿**ومَن يُضلِل فلن تَجدَ لَهُ وليًّا مُرشدا(١٧)**﴾ أي: مَن أضلَّه فلا هاديَ لَهُ.

﴿**وتَحسبهم أيقاظا وَهُم رُقود، ونقلِّبُهم ذات اليمين وذات الشمال**﴾ عَن أن تَضرَّهم الأَرْض، ﴿**وكلبُهم باسطٌ ذِراعَيه بالوصيد**﴾ بالفِناء والعتبة (لَعَلَّهُ) يحفظهم عمَّن يُريد الضرَرَ بهم؛ ﴿**لو اطَّلعتَ عَلَيْهِم لولَّيت مِنْهُم فرارا ولَمُلِئت مِنْهُم رُعبا(١٨)**﴾.

﴿**وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بَيْنَهُم**﴾ لِيَسألوا بعضهم بعضا، ويتعرَّفوا حالهم[2]، وَمَا صنع ا لله بهم، فيعتبروا ويستدلُّوا عَلَى عِظَم قُدرة ا لله، ويزدادوا يقينا، ويشكُروا مَا أنعم بِهِ عَلَيْهِم؛ ﴿**قَالَ قائل مِنْهُم: كم لبثتم؟**

---

١ - «والمَقنأة والمَقنُوَة: الموضع الذي لا تصيبه الشمس، وَفِي حديث شريك: أَنَّهُ جلس فِي مقنؤة له، أي موضع لا تطلع عَلَيه الشمس، وهي المَقنَأة أَيْضًا، وَقِيلَ: هما غير مهموزين». ابن منظور: لسان العرب، ٥/١٦٧. مادَّة «قنأ».

٢ - كذا فِي الأصل، وصواب العبارة عند الزمخشري: «لِيَسألَ بعضهم بعضا، ويعرِفوا حالهم». الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٥٥٤.

**قَالُوا: لبثنا يوما أو بعض يوم؛ قَالُوا: رَبّكُم أعلم بِمَا لبثتم، فابعثوا أحدَكُم بوَرِقِكم﴾** وهي الفضَّة المضروبة، **﴿هَـٰذِهِ إِلَىٰ المدينة، فلينظر أَيُّهَا أزكى﴾** أحَلّ وأطيب **﴿طعاما، فليأتكم برزق مِنْهُ وليتلطَّف﴾** عند دخول المدينة وشراء الطعام، بكلام لَيِّن سليم عَن التقاطع والتطلُّع عَلَى مَا فِي الضمائر، **﴿وَلاَ يُشعِرَنَّ بكم أحدا(١٩)﴾** (لَعَلَّهُ) فانظر لَمَّا انتبهوا كَأن لم يكن لَهُم بُدٌّ مِنَ الطعام، لتعرف فائدة الإنامة.

**﴿إِنَّهُمْ إن يَظهَروا عليكم﴾** أي: تطلَّعوا عَلَى أحوالكم ودينكم **﴿يَرجُموكم﴾** يقتلوكم **﴿أو يُعِيدوكم فِي ملَّتهم﴾** [٣٢٨] (لَعَلَّهُ) يَرُدُّوكم إِلَىٰ دينهم، **﴿ولن تُفلِحوا إِذًا أبدا(٢٠)﴾** إذ الفلاح مُنافٍ[1] للرجوع فِي دينهم.

**﴿وكذلك أعثرنا عَلَيْهِم ليعلموا أنَّ وعدَ ا لله حقٌّ﴾** (لَعَلَّهُ) بإعادة[2] الخلق للجزاء؛ **﴿وأنَّ الساعةَ لاَ ريب فِيهَا، إذ يتنازعون بَيْنَهُم أمرهم﴾** (لَعَلَّهُ) فيما يجوز فِيهِ التنازع؛ **﴿فَقَالُوا: ابنوا عَلَيْهِم بُنيانا﴾** أي: عَلَى باب كهفهم، لئلاَّ يتطرَّق إِلَيْهِم الناس، **﴿رَبُّهم أعلم بهم﴾** رَدُّوا العلم إِلَىٰ ا لله عند اختلافهم؛ **﴿قَالَ الذِينَ غَلَبوا عَلَى أمرهم: لنتَّخذنَّ عَلَيْهِم مسجدا(٢١)﴾**.

**﴿سيقولون: ثلاثةٌ رابعهم كلبهم، ويقولون: خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب، ويقولون: سبعة وثامنهم كلبهم؛ قل: رَبِّي أعلم بعِدَّتهم مَا يعلمهم إِلاَّ قليل، فلا تُمارِ فِيهِم إِلاَّ مِرَاء ظاهرا﴾** (لَعَلَّهُ) لاَ عَلَى القطع

---

١ - فِي الأصل: «منافي»، وهو خطأ.

٢ - فِي الأصل: «فإعادة»، ولا مَعنَى له.

والتديُّن بِهِ، ﴿وَلاَ تَستَفتِ فِيهِم مِنْهُم أحدا(٢٢)﴾ لأنَّ[ـهُ] ليس مَعَ أحد مِنْهُم دلالة علم.

﴿وَلاَ تقولَنَّ لشيء: إنِّي فاعل ذَلِكَ غدا(٢٣) إلاَّ أن يَّشَاء ا لله، واذكر رَبّكَ إِذَا نسيتَ﴾ (لَعَلَّهُ) أي: إِذَا عصيته، ﴿وقل: عسى أن يَهديني رَبِّي لأقربَ[1] من هَذَا رشدا(٢٤) ولبثوا فِي كهفهم ثلاث مائةٍ سنينَ وازدادوا تسعا(٢٥)﴾ قَالَ قائل: «أمَّا الثلاثمائة فقد عرفناها، وَأَمَّا التسعُ فلا علم لَنَا بها».

﴿قل: ا للهُ أعلم بِمَا لَبثوا، لَهُ غيبُ السَّمَاوَات والأَرْض﴾ فالغيب مَا يغيب عَن إدراكك، وَا للهُ لاَ يغيب عَن إدراكه شَيْء. ﴿أبصرْ بِهِ وأسمع﴾ أي: وأسمِع بِهِ. والمعنى: مَا أبصره بِكُلِّ موجود، وَمَا أسمعه بِكُلِّ مسموع. ﴿مَا لَهُم﴾ لأهل السَّمَاوَات والأَرْض ﴿مِن دونه مِن وليٍّ﴾ من مُتَولٍّ لأمورهم، ﴿وَلاَ يُشركُ فِي حُكمه أحدا(٢٦)﴾ فِي قضائه.

﴿واتل مَا أُوحيَ إليك مِن كِتَاب رَبِّكَ لاَ مُبدِّل لكلماته﴾ أي: لاَ يقدر أحد عَلَى تبديلها وتغييرها، ﴿ولن تَجِدَ مِن دونه مُلتَحَدا(٢٧)﴾ مُلتجأً، (لَعَلَّهُ) إن لم يتَّبع القرآن.

وَلَـمَّا قَالَ قوم من رؤساء الكفرة لِرَسُولِ ا للهِ ﷺ: نَحِّ هؤلاء الفقراء، وَهُم صهيب وخبَّاب وسلمان، وغيرهم من فقراء الـمُسْلِمِينَ حتَّى نُجالسك،

١ - في الأصل: «لا أقرب»، وهو خطأ.

نزل: ﴿واصبر نَفسَك مَعَ الذِينَ يدعون ربَّهم﴾ أي: احبسها وثبّتها عَلَى سنَّتهم وطريقتهم، واهتَدِ بهداهم، كَانُوا فِي الوجود أو العدم، ﴿بالغداة والعشيِّ﴾، لأَنَّهُم عون عَلَى الدين، ورَفضٌ لزينة الحياة الدُّنْيَا؛ ﴿يريدون وَجهَه﴾ رضاه، ﴿وَلاَ تَعْدُ عيناك عَنْهُم﴾ وعن طريقتهم المثلى، ﴿تريد زينة الحياة الدُّنْيَا﴾ (لَعَلَّهُ) تريد اللهو مَعَ اللاَّهين، والخوض مَعَ الخائضين، واللعب مَعَ اللاعبين، ﴿وَلاَ تُطِع مَن أغفلنا قَلبَه عَن ذِكرِنا واتَّبَعَ هواه﴾ أنسيناه ذكرَنا من قلبه، باتِّباع هواه، لأَنَّ ذكر الله والهوى متنافيان، لاَ يجتمعان فِي شيء واحد، لأَنَّ الهوى من نتائج إبليس. ﴿وكَانَ أمره﴾ من أمر دينه ودنياه ﴿فُرُطا(٢٨)﴾ (لَعَلَّهُ) بمعزل عَن حصن التوحيد.

﴿وقل الحقُّ مِن رَبِّكُم، فمن شاء فَليؤمن، ومَن شاء فليكفر﴾ أي: جاء الحقُّ، وزاحتِ العِلَل، فلم يبق إِلاَّ اختياركم لأنفسكم مَا شئتم مِنَ الأخذ فِي طريق النجاة أو طريق الهلاك؛ وجيء بلفظ الأمر والتخيير لِمَا[1] مَكَّن من اختيار أيِّهما شاء، فكأنَّه مخيَّر مأمور بأن يختار مَا شاء مِنَ النجدين. ثُمَّ [بَيَّن] جزاء من اختار الكفر فقال: ﴿إنَّا أعتدنا﴾ هيَّأنا ﴿للظالمين نارا أحاطَ بهم سُرَادقها﴾ شبَّه مَا يحيط بهم مِنَ النار بالسُّرادق، وَهُوَ الحجرة [٣٢٩] التِي تكون حول الفسطاط، ﴿وإن يستغيثوا﴾ مِنَ العطش، ﴿يُغَاثوا بماء كالْمُهل﴾ قيل: هُوَ دُردِيُّ[2] الزيت، أو مَا أُذيب من جواهر الأَرْض،

---

١ - في الزمخشري: «لأنَّه لَمَّا مكَّن...». الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٥٦١.

٢ - دُردِيُّ الزيت وغيره: ما يبقى في أسفله؛ ودُريد: تصغير أدرد مرخَّما. الرازي: مختار =

﴿يَشوي الوجوه﴾ إِذَا قُدِّم ليُشرب شَوَى الوجه من حرارته، ﴿بئس الشراب وساءت مرتفقا(٢٩)﴾ (لَعَلَّهُ) حال[1] لأَنَّهُ ليس فيها شيء مِمَّا يُسِرُّ أهلها.

﴿إنَّ الذِينَ آمنوا وعملوا الصالحات إنَّا لاَ نُضِيع أجر مَن أحسن عملا(٣٠)﴾ (لَعَلَّهُ) ثُمَّ ذكر جزاءهم فقال: ﴿أُولَئِكَ لَهُم جنَّاتُ عدنٍ تجري من تحتهم[2] الأنهار، يُحلَّون﴾ (لَعَلَّهُ) يُزيَّنون، لتكون الزينة نعمة لَهُم ولأمثالهم، كما أنَّ منظر أهل النار عذابا لَهُم[3]. ﴿فِيهَا من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خُضرًا من سُندس﴾ (لَعَلَّهُ) قيل: هو مَا رَقَّ مِنَ الديباج، ﴿وإستبرقٍ﴾ (لَعَلَّهُ) قيل: مَا غلظ؛ ﴿متَّكئين فِيهَا عَلَى الأرائك نعم الثواب وحسُنت مرتَفَقا(٣١)﴾.

﴿واضرب لَهُم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنَّتين مِن أعناب، وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا(٣٢) كلتا الجنَّتين آتت أكلها ولم تظلم مِنْهُ شَيْئًا[4] وفجَّرنا خلالهما نهرا(٣٣) وكَانَ لَهُ ثمر﴾ أنواع مِنَ المالِ، مِن «ثَمَّرَ مالَه»: إِذَا كثَّره؛ أي: كَانَت لَهُ إِلَى الجنَّتين الموصوفتين

=

الصحاح، ص ١٣٦؛ مادَّة: درد.

١ - في الأصل: «حالا»، وَهُوَ خطأ.

٢ - في الأصل: «تحتها»، وهو خطأ.

٣ - كذا في الأصل، والصواب: «عذابٌ لهم»، وفيها إشارة إِلى الحاشية و لم يكتب فيها شيئًا.

٤ - هنا إحالة إِلى الحاشية و لم يكتب فيها شيئًا.

الأموالُ الكثيرة؛ ﴿**فقال لصاحبه وَهُوَ يحاوره**﴾ يُراجعه فِي الكلام، مِن حَارَ يَحُور: إِذَا راجع، ويريه مَا فيهما، ويُفاخره بِمَا مَلَكَ مِنَ المال دُونه، ﴿**أنا أكثر منك مالاً وأعزُّ نفرا(٣٤)**﴾ أنصارا وحشما، أو أولادا ذكورا؛ لأَنَّهُم يَنفرون معه دون الإناث.

﴿**ودخل جنَّته وَهُوَ ظالم لنفسه**﴾ ضارٌّ لها بكفره، ﴿**قَالَ: مَا أظنُّ أن تَبيد هَذِهِ أبدا(٣٥)**﴾ أي: أن تهلك هَذِهِ الجنَّة؛ شكَّ فِي بَيْدُودَة جنَّته لطول أمله، واستحسان رأيه، وتمادي غفلته، واغتراره بالمهلة، وكأنَّه اطمأنَّ إِلَى مَا فِي يده دون مَا عند الله، ولم يجعلها كأنَّها وديعة مُودَعَة فِي يده، مُستردَّة مِنْهُ عَن قريب، إمَّا بموته هُوَ، أو بذهابها من يده ببعض الأسباب؛ ونرى أكثر الأغنياء تنطق ألسنة أحوالهم بذلك، إلاَّ الذِينَ آمنوا، وقليل ماهم.

﴿**وَمَا أظنُّ الساعةَ قائمة**﴾ كائنة، ﴿**ولئن رُدِدت إِلَى رَبِّي لأجدنَّ خيرا منها**﴾ إن رُدَّ إِلَى ربِّه ـ كما يزعم صاحبه ـ ليجدنَّ فِي الآخِرَة خيرا من جنَّته فِي الدُّنْيَا، ادِّعاء لكرامته عليه ومكانه[1] عنده. وترى أكثر أهل الغرور قد غرَّتهم الحياة الدُّنْيَا، وغرَّهم با لله الغَرُورُ؛ فَهُم مُتَّصِفون بهذه الصفة، وإن لم تنطق بها ألسنتهم (لَعَلَّهُ) الصوريَّة؛ فقد انتطق[2] ألسنتهم الحالية، ﴿**مُنقَلَبا(٣٦)**﴾ مَرجِعا وعاقبة.

﴿**قَالَ لَهُ صاحبه وَهُوَ يُحاوره: أكفرت بالذي خلقك من تراب**﴾؟ أي: خلقَ أصلك من تُراب، ﴿**ثُمَّ مِن نطفة ثُمَّ سوَّاك رجلا(٣٧)**﴾ عدَّلك،

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الأصوب: «مكانته». انظر: الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٥٦٣.

٢ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «تنطق»، أو «أنطق ا لله».

وكمَّلك إنسانا ذكرا بالغا مَبلَغ الرجال؛ صار (لَعَلَّهُ صِرتَ) كافرا با لله، لشكِّه، لشكِّك[1] فِي الغيب؛ ﴿لكنَّا هُوَ ا لله رَبِّي﴾ أي: لكنِّي مؤمن به موحِّد له، مطيع لأمره، ﴿ولا أُشرك بربِّي أحدا(٣٨)﴾ أي: لاَ أعصيه فِي أمرٍ وَلاَ نهي.

﴿ولولا﴾ وهلاَّ ﴿إذ دخلت جنَّتك، قلت: مَا شاء ا لله﴾ المعنى: هلاَّ قلت عند دخولها، والنظر إِلَى مَا رزقك ا لله منها إِلاَّ: «مَا شاء ا لله» اعترافا بأنَّها وكُلَّ مَا فِيهَا، إِنَّمَا حصل بمشيئة ا لله، وأنَّ أمرها بيده، إن شاء تركها عامرة، وإن شاء خربها، وإن شاء نزعها من يدي، وملَّكها غيري بإحسار منِّي، أو اضطرار، وقلت: ﴿لاَ قوَّة إِلاَّ با لله﴾ [٣٣٠] إِقْرَارًا بِأَنَّ مَا قُوِّيتَ بِهِ عَلَى عِمارتها، وتدبير أمرها [إِنَّمَا][2] هُوَ بمعونته وتأييده. ﴿إن تَرَنِ[3] أنا أقلَّ منك مالا وولدا(٣٩) فعسى رَبِّي أن يُؤتيني خيرا مِن جنَّتك﴾ فِي الدارين، ﴿ويُرسِل عليها حُسبانا﴾ عذابا ﴿من السَّمَاء فَتُصبِحَ صعيدا زَلَقًا(٤٠)﴾ أرضا بيضاء يُنزَلَق عليها لِمَلاستها.

﴿أو يصبح ماؤها غورا﴾ غائرا، أي: ذاهبا فِي الأَرْض، وفي المعنى: كلُّ (لَعَلَّهُ) مَن كفر با لله فماله بهذه الصفة، لأَنَّهُ لاَ ينتفع بِهِ فِي دينه، بَل أشدُّ

---

١ - «لشكِّك» إضافة من الناسخ فيما يبدو. والعبارة عند الزمخشري: «جعله كافرا با لله، جاحدا لأنعمه لشكِّه فِي البعث». الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٥٦٤.

٢ - إضافة من الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٥٦٤.

٣ - فِي الأصل: «إن تراني». وَهُوَ خطأ.

خسرانا مِنْهُ، لأَنَّهُ مُتَعذِّب بِهِ فِي الدارين، وإن كَانَ موجودا فِي يده مُتصرِّفا فِيهِ، ﴿فلن تستطيع لَهُ طَلَبًا(٤١)﴾ فلا يتأتّى لك طلبه، فضلا عَن الوجود؛ والمعنى: إن تَرَنِي أفقر منك، فأنا أتوقّع من صُنع الله أن يقلب مَا بي وَمَا بك مِنَ الفقر والغنى، فيرزقني فِي الدُّنْيَا لإيماني جنّة أتقوّى بها عَلَى مرضاته، خيرا من جنّتك، لأَنَّهَا لك استدراج وغرور، ويسلُبك إيّاها لكفرك، فلا يبقى لك منها إلاَّ الخسران، وذلك تفرُّس مِنْهُ فِي عواقب الأمور، وقد كَانَ بهما مَا توقّع، فقال:

﴿وأُحِيطَ بثَمَرِه﴾ هُوَ عبارة عَن إهلاكه، وأصله: مِن «أحاط بِهِ العدوُّ»، لأَنَّهُ إِذَا أحاط بِهِ فقد ملكه واستولى عليه؛ ثُمَّ استُعمل فِي كلِّ إهلاك، ﴿فأصبح﴾ أي: الكافر ﴿يقلّب كفّيه﴾ يضرب أحدهما[1] عَلَى الأخرى ندما وتَحسُّرا؛ وإنّما صار تقليب الكفّين كناية عَن الندم والتحسُّر، لأَنَّ النادم يُقلِّب كفّيه ظهرا لبطن، كما كَنّى عَن ذَلِكَ بِعَضِّ الكفِّ[2]، والسقوط فِي اليد[3]، لأَنَّهُ فِي معنى الندم، كأنّه قيل: فَأَصبح يندم، وكذا أعمال الْكَافِرِينَ أجمع يكون عَلَيْهِم (لَعَلَّهُ) الخسران. ﴿عَلَى مَا أنفق فِيهَا﴾ أي: فِي تَأصيلها وعمارتها، ﴿وهي خاويةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ يعني: أَنَّ كُرُومها المعروشة سَقَطت عروشها عَلَى الأَرْض، وسقطت فوقها الكروم؛ ﴿ويقول: يا ليتني لم أُشرِكْ بربِّي أحدا(٤٢)﴾ تَذَكّر موعظةَ أخيهِ، فعلم أنّه أُوتي من جهة كفره وطغيانه.

---

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «إحداهما».

٢ - وذلك فِي قوله تعالى: ﴿وإذا خلوا عضُّوا عليكم الأنامل من الغيظِ﴾ سورة آل عمران: ١١٩.

٣ - وذلك فِي قوله تعالى: ﴿وَلَـمَّا سُقط فِي أيديهم ورأوا أَنَّهُمْ قد ضلُّوا قالوا لئن لم يرحمنا ربُّنا ويغفرْ لنا لنكونَنَّ من الخاسرين﴾ سورة الأعراف: ١٤٩.

﴿ولم تكن لَهُ فئةٌ يَنصرونه﴾ يقدرون عَلَى نُصرته ﴿مِن دون ا لله﴾ أي: هُوَ وحده القادر عَلَى نُصرته، لاَ يقدر أحد غيره أن ينصره، إلاَّ أنـَّه لم ينصره لحكمة، ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرا(٤٣)﴾ وَمَا كَانَ مُمتنعا بقوَّته عَن انتقام ا لله.

﴿هُنَالِك الوَلاَيةُ لله الحقِّ﴾ أي: النصرَةُ لله وحدَه لاَ يملكها غيره، وَلاَ يستطيعها أحد سواه. تقريرا لقوله: ﴿ولم تكن لَهُ فئةٌ ينصرونه مِن دون ا لله﴾؛ أو هنالك السلطان والملك لله لاَ يُغلَب؛ أو مثل تلك الحال الشديدة، يتولَّى ا للهَ ويُؤمنُ بِهِ كلُّ مضطرٌّ، يعني: أنَّ قوله: ﴿يا ليتني لَم أُشرك بربِّي أحدا﴾ كلمة أُلجئ إِلَيْها، فقالها جزَعا مِمَّا دهاه مِن شُؤمِ كُفره، ولولا ذَلِكَ لم يقلها؛ أو هنالك الولايةُ لله ينصر فِيهَا أَولِياءه المؤمنين عَلَى الكفرة، وينتقم لَهُم؛ يعني: أنـَّه نَصَرَ فيما فَعَلَ بالكافر أخاه المؤمنَ، وصدَّق قولَه: ﴿فعسى رَبِّي أن يُؤتِيَني خيرا من جنـَّتك ويرسل عليها حسبانا مِنَ السَّمَاء﴾، ويؤيـِّده قوله: ﴿هُوَ خيرٌ ثوابا وخيرٌ عُقُبا(٤٤)﴾ أي: لأوليائه. أو "هنالك" إشارة إِلَى الآخِرَة، أي: فِي تلك الدار الوَلاَيَة لله، كقوله: ﴿لمن الملك اليوم﴾؟[1].

﴿واضرب لَهُم مثَل الحياة الدُّنْيَا كماءٍ أنزلناه من [٣٣١] السَّمَاء﴾ أي: هُوَ كما أنزلناه، وَهَذَا مَثَلٌ لجميع مَا فِي الدُّنْيَا، ﴿فاختلط بِهِ نبات الأَرْض﴾ فالتَفَّ بسببه وتكاثَف، حتَّى خالط بعضه بعضا؛ أو أثَّر فِي النبات الماءُ فاختلط بِهِ حتَّى روى، ﴿فأصبح هشيما﴾ يابسًا مُتكسِّرًا ﴿تذروه الرياح﴾ تَنسِفُه وتُطيره، ﴿وكَانَ ا لله عَلَى كُلِّ شيء﴾ مِنَ الإنشاء والإفناء،

١ - سورة غافر: ١٦.

﴿**مقتدرا(٤٥)**﴾ قادرًا[1]. شبَّه حال الدنيا فِي نضرتها وبهجتها وعاقبتها مِنَ الهلاك والفناء بحال النبات: يكون أخضر، ثُمَّ يهيج، فتنسفه الرياح، كأنَّ لم يكن؛ فيبقى الجزاء.

﴿**المالُ والبنونَ زينةُ الحياة الدُّنْيَا**﴾ لاَ عُدَّةٌ للعقبى إلاَّ إِذَا أُرِيدَ بِهِ لها؛ ﴿**والباقياتُ الصالحات**﴾ أعمال الخير التِي تَبقَى ثمرتها للعامل ﴿**خير عند ربّكَ ثوابا**﴾ جزاء ﴿**وخير أمَلا(٤٦)**﴾ لأَنَّهُ وعدٌ صادق، وأكثر الآمال كاذبة؛ يعني: أنَّ صاحبها يأمل فِي الدُّنْيَا ثواب الله، ويصيبه فِي الآخِرَة.

﴿**ويوم نُسيِّر الجبال**﴾ نَجعلها هباء منثورا. ﴿**وترى الأَرْض بارزةً**﴾ ليس عليها مَا يَسترها مِمَّا كَانَ عليها مِنَ الجبال والأشجار. ﴿**وحشرناهم**﴾ أي: الموتى، ﴿**فلم نُغَادر مِنْهُم أحدا(٤٧)**﴾ أي: فلم نترك غادرةً، ومنه الغَدْرُ: ترك الوفاء؛ الغدير: مَا غَادَرَه السيل.

﴿**وعُرِضوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا**﴾ مُصطَفِّين ظاهرين يرى جماعَتَهم[2] كما يرى كلُّ واحد، لاَ يَحجب أحدٌ أحدًا. شُبِّهت حالهم بحال الجند المعرَضين عَلَى السلطان. ﴿**لَقَد جئتمونا كما خلقناكم أوَّل مرَّة**﴾ أي: لَقَد بعثناكم كما أنشأكم أوَّل مرَّة؛ أو جئتمونا عُراةً لاَ شيء معكم كما خلقناكم أوَّلاً؛ (لَعَلَّهُ) أو جئتمونا بلا عمل ينفع، هُوَ بيِّنٌ أبيَنُ مِمَّا تقدَّم، لقوله: ﴿**بَل زَعَمتُم**﴾ بلسان المقال، أو بلسان الحال ﴿**ألَّن نجعَلَ لكم موعِدا(٤٨)**﴾ وقتا لاَ يُجاوز مَا وُعدتم عَلَى أَلسِنة الأنبياء مِنَ البعث.

---

١ - فِي الأصل: «قادر»، وهو خطأ.

٢ - فِي الأصل: «جماعهم»، وهو خطأ. انظر الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٥٦٧.

﴿وَوُضِع الكتاب﴾ أي: صُحف الأعمال ﴿فترى المجرمين مُشفِقين﴾ خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ مِمَّا قدَّموه مِنَ الذنوب، خلاف المؤمنين، فإنَّهم يتهجون بِمَا فِيهِ، ويفرحون ويستبشرون، ﴿ويقولون: يا ويلتنا﴾ يا هَلاَكَنا؛ والويل والويلة: الهلكة؛ وكلُّ من وقع فِي هلكة دعا بالويل، ﴿مَا هَذا الكتاب لاَ يُغَادِر صغيرة وَلاَ كبيرة﴾، لأَنَّهُ مأخوذ بالصَّغائر والكبائر، ﴿إلاَّ أحصاها، ووَجَدوا مَا عملوا حاضرا﴾ جزاء مَا عَمِلوا مِنَ الصغيرة والكبيرة، ﴿وَلاَ يظلِم رَبُّكَ أحدا(٤٩)﴾ فيكتب عليه مَا لاَ يعمل؛ أو يزيد فِي عقابه المستحقِّ عقابه؛ أو يُعذِّبه بغير جُرم.

﴿وإذ قلنا للمَلاَئِكَة: اسجدوا لآدمَ﴾ سجودَ تحيَّة وإجلال وتعظيم؛ أو سجودَ انقيادٍ، ﴿فسجدوا، إلاَّ إبليس كَانَ مِنَ الجنِّ﴾ هُوَ مُستأنف، كَأَنَّ قائلا قَالَ: مَا لَهُ لم يسجد؟ فقيل: «كَانَ مِنَ الجنِّ». ﴿فَفَسَق عَن أمرِ ربِّه﴾ خرج عمَّا أمره بِهِ ربُّه مِنَ السجود؛ وَهُوَ دليل عَلَى أنَّه كَانَ مأمورًا بالسجود مَعَ المَلاَئِكَة. ﴿أفتتَّخذونه وذرِّيَّته﴾ «الهمزة»: للإنكار والتعجُّب، كأنَّه قيل: أَعُقَيْبَ مَا وُجد مِنْهُ الإيباء تتَّخذونه وذرِّيته ﴿أولياءَ مِن دوني﴾ وتستبدلونهم بي. وكَأَنَّ هَذِهِ الآية تدلُّ عَلَى أن ليس فِي ذرِّيَّته مطيع تجوز وَلايته، وكَأنَّ الجنَّ من غَيْرِه، لأَنَّ فِيهم المطيع والعاصي. ﴿وَهُم لكم عدوٌّ﴾ وفي الجنِّ أولياء وأعداء، بدليل قوله: ﴿وَإنَّا مِنَّا المُسْلِمُونَ ومِنَّا القاسطون﴾[1] ﴿بِئْسَ للظالمين بَدَلا(٥٠)﴾ بئس البدل [٣٣٢] مِنَ الله إبليسُ، لمن استذلَّه فأطاعه بَدَلَ طاعته، وعَبَدَه بَدَلَ عِبَادته.

---

١ - سورة الجن: ١٤.

﴿**مَا أشهدتُـهم**﴾ أي: إبليسَ وذرِّيته ﴿**خَلْقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْض**﴾ يعني: أنَّكُم اتَّخَذتموهم شركاء لي فِي العبادة، وإنَّما يكونون شُركاء فِيهَا لو كَانُوا شُركاء فِي الإلهيَّة، فَنَفَى مُشَاركتهم فِي الإلهيَّة بقوله: ﴿مَا أشهدتُّهم خَلقَ السموات والأَرْض﴾ لأعتضد بهم فِي خلقها، وأشاورهم فِيهِ؛ أي: تفرَّدتُ بخلق الأشياء، فأفرِدُوني فِي العبادة، ﴿**وَلاَ خَلْقَ أنفسِهم**﴾ أي: وَلاَ أشهدت بعضهم خلق بعضٍ. ﴿**وَمَا كنتُ متَّخذَ المُضِلِّين**﴾ أي: وَمَا كنتُ متَّخذَهم ﴿**عَضُدا(٥١)**﴾ أعوانا؛ فَوَضَع المُضلِّين مَوضِعَ الضمير ذمًّا لَهُم بالإضلال؛ فإذا لم يكونوا عَضُدًا لي فِي الحقِّ، فما لكم تتَّخذونهم شركاء لي فِي العبادة؟!.

﴿**ويوم يقول**﴾ الله لِلكُفَّارِ: ﴿**نادوا**﴾ ادعوا بصوتٍ عالٍ ﴿**شُركَائي الذِينَ زعمتم**﴾ أنَّهم شُرَكَاء لي لِيمنعُوكم من عذابي، وأراد الجنَّ؛ وأضاف الشركاء إِلَيْهِ - عَلَى زَعمِهم - توبيخا لَهُم. ﴿**فَدَعَوهم فلم يستجيبوا لَهُم، وجعلنا بَيْنَهُم مَّوبِقًا(٥٢)**﴾ مَهلِكا، من وَبَقَ يَبِقُ وُبُوقًا: إِذَا هلك؛ أو به[1] مصدر كالوعد؛ أي: وجعلنا بَيْنَهُم واديًا من أودية جهنَّم، هُوَ مكان الهلاك والعذاب الشديد، مُشتَرَكا يُهلَكُونَ فِيهِ جميعا.

﴿**ورأى المجرمون النارَ فظنُّوا**﴾ فأيقنوا ﴿**أنَّهم مُوَاقِعوها**﴾ بأعمالهم السيِّئة التِي عَمِلوها، وماتوا عليها مُصرِّين، ﴿**ولم يجدوا عنها مَصْرِفا(٥٣)**﴾ مَعْدِلا، انصرافا، أو مكانا يَهربون إِلَيْهِ.

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «أو هو مصدرٌ»، أو - «به».

﴿وَلَقَد صرَّفنا فِي هَذَا القرآن للنَّاس مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاجون إِلَيْهِ، ﴿وكَانَ الإنسان أكثرَ شيء جَدَلاً(٥٤)﴾ أي: أكثرَ الأشياءِ التِي يَتَأتَّى مِنْهُ[1] الجدل، إن فصَّلتها وَاحِدا بعد وَاحِد، خصومة ومماراة بالباطل؛ يعني: أنَّ جَدَلَ الإنسان أكثر مِن جَدَل كلِّ شيء، كقوله: ﴿فإذا هُوَ خصيم مبينٌ﴾[2]؛ وقيل المراد: الكفَّار، لقوله: ﴿ويُجادِل الذِينَ كَفَرُوا بالباطل﴾[3]، و(لَعَلَّهُ) قيل عَلَى العموم.

﴿وَمَا مَنَعَ الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدَى﴾ أيُّ هُدًى كَانَ، ﴿ويستغفروا ربَّهم، إلاَّ أن تأتيهم سُنَّة الأوَّلين أو يأتيهم العذاب﴾ تقديره: وَمَا مَنَعَ الناس الإيمانَ والاستغفارَ إلاَّ انتظارُ أن تأتيهم سُنَّة الأوَّلين، وهي الموت؛ أو الانتظار[4] أن يأتيهم العذاب، يعني: عذاب الآخِرَة ﴿قُبلاً(٥٥)﴾ جمع قبيل؛ وقيل: عَيَانا، بمعنى: المقابلة؛ وقيل: فجأة. وقرئ بضمٍّ (لَعَلَّهُ) القاف والباء[5]، أي: أصناف عذابٍ.

﴿وَمَا نُرسل المرسَلين إلاَّ مبشِّرين﴾ المؤمنين، ﴿ومُنذِرين﴾ الْكَافِرِينَ. ﴿ويُجَادِل الذِينَ كَفَرُوا بالباطل لِيُدحضوا بِهِ الحقَّ﴾ لِيُزيلوا، أو يُبطِلوا

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «منها».

٢ - سورة النحل: ٤؛ وسورة يس: ٧٧.

٣ - سورة الكهف: ٥٦. في الأصل: «(لَعَلَّهُ) بالباطل».

٤ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «انتظار».

٥ - وهي قراءة حفص التي اعتمدناها في ضبط الآيات، ونلاحظ خلط المصنِّف بين القراءتين في كامل التفسير، فأحيانا يكتب الآيات بهذه القراءة وأحيانا بتلك.

بالجدال الحقَّ، وأصل الدَّحْضِ: الزلق. ﴿واتَّخذوا آياتي﴾ أي: مَا كَانَ مِنَ الآيات التِي فَرَعَت أفهامهم، ﴿وَمَا أُنْذِروا هُزُوًا(٥٦)﴾ لأَنـَّهُم إِذَا لَم يقبلوها للمعل [كَذَا] فقد اتَّخذوها هُزُؤًا، لقوله: ﴿وإذا خَلَوا إِلىَ شياطينهم قَالُوا: إِنَّا معكم إِنـَّمَا نَحْنُ مستهزِئون﴾[1].

﴿وَمَن أظلمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآيَاتِ رَبِّه﴾ مِن كِتَاب أو سنَّة أو إجماع، أو حجَّةِ عقلٍ، وغير ذَلِكَ. ﴿فَأَعْرَضَ عنها﴾ تولَّى عنها وتَرَكَها و لم يُؤْمِن بها؛ و لم يتذكَّر حين ذُكِّرَ، و لم يتدبَّر ﴿وَنَسِيَ﴾ عاقبةَ ﴿مَا قدَّمَت يداه﴾ مِنَ الكفر والمعاصي؛ وَلاَ نظر فِي أنَّ المسيءَ والمحسنَ لاَبُدَّ لهما من جزاء، لقوله: ﴿ولْتَنظُر نفسٌ مَا قَدَّمت لِغَدٍ﴾[2]؛ ثُمَّ عَلَّل [٣٣٣] إعراضهم ونِسيَانَهم بأنَّهم مطبوعٌ عَلَى قلوبهم، بقوله: ﴿إنَّا جعلنا عَلَى قُلُوبهم أَكِنَّة﴾ أغطية؛ جمع كِنَان: وَهُوَ الغطاء؛ ﴿أن يَفقَهوه﴾ يريد: أن لاَ يفهموه، ﴿وفي آذانهم﴾ العقليَّة ﴿وقرا﴾ ثِقْلاً وصَمَمًا عَن استماع الحقِّ. ﴿وإن تدْعُهُم[3] إلىَ الهدى فلن يهتدوا إذًا أبدا(٥٧)﴾ مدَّةَ التكليف كلِّها؛ وَهَذَا فِي أقوام عِلمِ ا لله مِنْهُم أنَّهم (لَعَلَّهُ) لا يُؤْمِنونَ.

﴿وربُّكَ الغفُور﴾ البليغ المغفرة، ﴿ذو الرحمة﴾ الموصوف بالرحمة، ﴿لو يُؤَاخِذُهم بِمَا كَسَبوا لَعَجَّل لَهُمُ العذابَ﴾ أي: ومِن رحمته ترك مؤاخذته

---

١ - سورة البقرة: ١٤. في الأصل: - «إنَّا معكم».

٢ - سورة الحشر: ١٨.

٣ - في الأصل: «تدعوهم»، وهو خطأ.

لَهُم. ﴿بَل لَهُم مَوعِدٌ لَن يَجِدوا مِن دُونِه مَوْئِلا(٥٨)﴾ مَنْجًا ومَلجأً؛ يقـال: «وَأَلَ» إِذَا نجا، و«وَأَلَ إِلَيْـهِ» إِذَا لجأ[1].

﴿وتلك القُرَى أهلكناهم﴾ المراد: مَن تَقَدَّم مِن قومِ نوح وعاد وثمود وغيرهم، ﴿لـمَّا ظَلَموا، وجعلنا لِمَهلَكِهِم مَوعدا(٥٩)﴾ فضرَبْنَا لإهلاكهم وقتا مَعلُوما لاَ يَتَأَخَّرون عَنْـهُ، كما ضرَبْنَا لهؤلاء؛ والمَـهْلَكُ: الإهلاك.

﴿وإذ قَالَ موسى لفتـاه﴾ الـذِي يَخدمـه ويَتبـعُه: ﴿لاَ أَبـرَحُ﴾ لاَ أزول طلبا للعلم[2] ﴿حتَّى أبلغَ مَجْمَعَ البحرين﴾ وَهُوَ المكَانَ الذِي وُعِدَ فِيهِ موسى لقاء الخَضِر، ﴿أو أَمضِيَ حُقُبا(٦٠)﴾ أو أسير سنِينَ طوالا؛ قيل: قَالَ موسى [لِرَبِّـه]: «إن كَانَ فِي عِبَادك مَن هُوَ أعلم منِّي فادللنِي عليه؟، قَالَ: أعلم منـك الـخَضِر؛ قَالَ: أين أطلبه؟ قَالَ: عَلَى الساحل عند الصخرة؛ قَالَ: يا ربِّ كيف لِي بِهِ؟ قَالَ: تأخذ حوتا، فحيث فقدته فهـو هنـاك». ويحتمـل كَـانَ هَـذَا مِـن موسى قبل استنبائه؛ وبعد استنبائه (لَعَلَّهُ) تفسير لقولـه: ﴿فخذهـا بقـوَّة﴾[3] يعني: الألواح؛ فأعلمنا الله بحاله لنقتدي بِهِ؛ إن كَانَ قبل الاستـنباء أو بعـده، لقوله: ﴿فبهداهم اقتده﴾[4].

﴿فَلَـمَّا بَلَغَا مَجمعَ بيـنِهما نَسِيَا حُوتَهمـا فاتَّـخذَ سبيلَه فِي البحـر﴾ أي: اتَّـخَذَ طريقا لَهُ مِنَ البرِّ إِلَى البحر ﴿سَرَبًا(٦١)﴾ أي: سَرَبَ فِيهِ سَـرَبًا؛ يعنى: دَخَل فِيهِ واستتر بِهِ.

---

١ - في الأصل: «وءل إِذَا نجا، ووءل إِلَيْـهِ إِذَا لجئ».

٢ - انظر التحقيق في مَعنَى ﴿لا أبرح﴾ في الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٥٧٠.

٣ - سورة الأعراف: ١٤٥.

٤ - سورة الأنعام: ٩٠. وفي الأصل: «فاقتده»، وهو خطأ.

﴿فَلَـمَّا جاوزا﴾ مَجمَع البحرين، ثُمَّ نزلا وقد سارا ما يشاء ا لله ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لفتاه: آتنا غَدَآءَنا، لَقَد لَقِينا مـن سَفَرِنا هَـذَا نَصَبا(٦٢)﴾ تَعبا. ﴿قَالَ: أرأيت إذ أَوَيْنَا إِلَى الصخرة﴾ هـي موضع الموعد. ﴿فإنـِّي نَسِيتُ الحوتَ﴾، ثُمَّ اعتذر فقال: ﴿وَمَـا أنسانيه إِلاَّ الشيطانُ﴾ بإلقاء الخواطر فِي القلب ﴿أن أَذكُرَه﴾ أي: وَمَا أنساني ذِكره إِلاَّ الشيطان، ﴿واتـَّخذ سبيله فِي البحرِ﴾ اتـِّخاذا ﴿عَجَبا(٦٣)﴾ وَهُوَ أَنَّ أَثَرَه بقيَ إِلَىَ حيث سار.

﴿قَالَ: ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبغِ﴾ نطلب؛ لأَنَّ ذهاب الحوت كَانَ علما عَلَى لقاء الخضر. ﴿فارتدَّا عَلَى آثارهما﴾ فرجعا فِي الطريق الذِي جاءا فِيهِ، ﴿قَصَصًا(٦٤)﴾ يَقُصَّان قَصَصًا؛ أي: يَتبَعان آثارهما اتـِّبَاعا. قَالَ الزجَّاج: «القَصَصُ: اتـِّباعُ الأَثَر».

﴿فَوَجَدا عَبدا مِن عِبَادنا﴾ أي: الخضِر، أو غيره ﴿آتيناه رحمةً مِن عندِنا، وعلَّمناه مِن لَدُنَّا عِلْمًا(٦٥)﴾ قيل: العلم اللَّدُنـِّي: مَا حَصَلَ للعبد بطريق الإلهام؛ وقيل: عِلمُ الباطن.

﴿قَالَ لَـهُ موسى: هَـل أتـَّبعك عَلَى أن تُعلِّمني مِمَّا عُلِّمتَ رُشدًا(٦٦)﴾؟ أي: عِلما ذا رشدٍ، أَرشُدُ بِهِ فِي دينِي؛ وفيه دليل عَلَى أنـَّه لاَ ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم، وإن كَانَ قد بلغ مَا بلغ مِنـْهُ، وأن يتواضع لمن هُوَ أعلم مِنـْهُ. ﴿قَالَ إنـَّك لن تستطيعَ [٣٣٤] مَعي صبرا(٦٧)﴾ أي:

عَن الإنكار والسؤال؛ وإنـما قَالَ ذَلِكَ لأَنَّهُ عَلِمَ أنـه يرى (لَعَلَّهُ) منكـرة[1]، وَلاَ يجوز للأنبياء أن (لَعَلَّهُ) يصبروا[2] المنكرات؛ ثُمَّ بيَّن عُذرَه فِي ترك الصبر:

**﴿وكيف تصبر عَلَى مَا لم تُحِط بِهِ خُبرا(٦٨)﴾**؟! نفـيُ استطاعةِ الصـبر معه، عَلَى وجه التأكيد؛ وعلَّلَ ذَلِكَ بأنَّه يتولَّى أمورا هِيَ فِي ظاهرها مَنَـاكِر، والرجل الصالح لاَ يَتمَالك إِذَا رأى ذَلِكَ، فكيف إِذَا كَانَ نبيًّا.

**﴿قَالَ: ستجدني إن شاء ا للهُ صـابرا﴾** عَن الإنكـار والاعـتراض، **﴿وَلاَ أعصي لك أمرا(٦٩)﴾** لأَنَّهُ مَعَ عِصيانه لَهُ لاَ يجب عليه تعليمه، ومـع ذَلِـكَ تَـتَنَافَر القلوب بينهمـا، **﴿قَـالَ: فـإن اتـَّبعتني﴾** (لَعَلَّهُ) أي: ائـتممت [بـي] **﴿فلا تسألـنـِّي عَن شـيء حتَّى أُحدِث لـك مِنـْهُ ذِكـرا(٧٠)﴾** أي: فمـن شرط اتـِّبَـاعِك لي، أنـَّك إِذَا رأيت منِّي شَيْـئًا ـ وقد عَلِمت أنـه صحيح، إلاَّ أنـَّه خَفِيَ عليك وجـه صحَّتـه فـأنكرت فِي نفسـك ـ أن لاَ تُفَـاتِحني، وَلاَ تُرَاجعني فِيهِ، حتَّى أكون أنا الفاتح عليك، وَهَذَا لحكمةٍ عَلِمَها ا للهُ.

**﴿فانطلقـا﴾** مُصطحبين **﴿حتَّى إِذَا ركبـا فِي السـفينة، خرقهـا؛ قَـالَ: أخرقتها لِتُغرق أهلها؟ لَقَد جئت شَيْـئًا إِمرًا(٧١)﴾** أتيت شيئا عظيمـا، مِـن أمر الأمر، إِذَا عظم. **﴿قَالَ: ألم أقل إنـَّك لن تستطيعَ معي صـبرا(٧٢) قَـالَ: لاَ تؤاخذني بِمَا نَسِيتُ﴾** قَالَ ابن عـبَّاس: «إنـَّه لم ينس، ولكنـَّه مِن معاريض

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «ما ينكره».

٢ - هنا أحال الناسخ إلى الحاشية و لم يكتب فيها شيـئًا، وَفِي العبـارة نقـصٌ تقديـره: «عـن النهي عن المنكرات»، أو نحو ذلك.

الكلام». ﴿وَلاَ تُرهقني مِن أمري عُسرا(٧٣)﴾ أرهقه: إِذَا غشيه، وأرهقه إيَّاه: أي أغشاه، وَلاَ تُغشِنِي عُسرا: وَهُوَ اتِّبَاعه إيَّاه عَلَى متابعتك، ويسرها عَلَى الاعضاء[1]، وترك المناقشة.

﴿فانطلقا حتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاَما فقتله، قَالَ: أقتلت نفسا زكيَّة﴾ وهي الطاهرة مِنَ الذنوب؛ وقيل: كَانَ غلامًا (لَعَلَّهُ) لم يبلغ؛ وقيل: كان رجلاً بالغًا عاصيًا لله؛ فكَانَ فعله عقوبة لَهُ، ورحمة لأبويه. قَالَ ابن عبَّاس: «لم يكن نبيُّ ا لله يقول: ﴿أقتلت نفسا زكيَّة﴾ (لَعَلَّهُ) إلاَّ وَهُوَ صبيٌّ لم يبلغ»، ﴿بغير نفس؟ لَقَد جئتَ شَيْـئًا نُكْرًا(٧٤)﴾ ينكره الشرع.

﴿قَالَ: ألم أقل لك إنَّك لن تستطيع معي صبرا(٧٥)؛ قَالَ إن سألتك عَن شيءٍ بعدَها فلا تُصَاحِبْنِي، قد بلغتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا(٧٦)﴾ أعذَرت فيما بيني وبينك فِي الفراق.

﴿فانطلقا حتَّى إِذَا أَتَيَا أهلَ قريةٍ استطعما أهلها﴾ استضافا ﴿فأبَوْا أن يُضَيِّفوهما، فوجدا فِيهَا جدارا يريد أن ينقضَّ﴾ أي: يسقط؛ وَهَذَا مِن مجاز الكلام، ﴿فأقامه﴾ أي: سوَّاه، ﴿قَالَ: لو شئتَ لاتَّخذتَ عليه أجرا(٧٧)﴾ أي: لَطَلَبت عَلَى عملك جُعْلاً حتَّى تستدفع بِهِ الضرورة.

﴿قَالَ: هَذَا فراقُ بيني وبينك، سأنبِّئك بتأويل مَا لم تستطع عليه صبرا(٧٨) أمَّا السفينة: فكانت لمساكين يَعْمَلُونَ فِي البحر، فأردت أن

---

١ - كذا فِي الأصل، وَفِي العبارة خلط كبير، وصوابها نجده عند الزمخشريِّ: «وَلاَ تُغشِنِي ﴿عُسرا﴾ من أمري، وَهُوَ اتِّبَاعه إيَّاه، يعني: ولا تعسر عَلَيَّ متابعتك، ويسِّرها عَلَيَّ بالإغضاء، وترك المناقشة». الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٥٧٤.

**أَعِيبها، وكَانَ وراءهم مَلِكٌ يأخذ كلَّ سفينة غَصْبًا(٧٩)﴾** أي: يـأخذ كـلَّ سفينة صالحة لاَ عيب فِيهَا، وإن كَانَت[1] مَعيبة تَركَها.

**﴿وأمَّا الغلام: فكَانَ أبواه مؤمنين، فخشينا﴾** أي: فَعَلِمنا **﴿أن يُرهِقَهمـا﴾** أن يفتـنهما **﴿طغيانا وكفرا(٨٠)﴾** (لَعَلَّهُ) بميلهما وحُبِّهما عَلَى طغـواه وكفـره؛ **﴿فأردنا أن يُبدلَهما ربُّهما خيرا مِنْهُ زكاةً وأقربَ رُحـمًا(٨١)﴾**.

**﴿وأَمَّا الجدار: فكَانَ لغلامـين يتيمـين فِي المدينـة، وكَـانَ تحته كـنز لهمـا﴾** (لَعَلَّهُ) قيل: كَانَ مالا؛ وقيل: كَـانَ صُحفًـا فِيهَـا عِلْـمٌ؛ وقيـل: لَـوْحٌ مِـن ذَهَـب، مكتوب فِيه: «عَجَبا لمن أيقن بالموت كيف [٣٣٥] يفرح؛ عجبا لمن أيقن بـالقَدَرِ كيف يحزن؛ عجبا لمن أيقن بالرزق كيف يتعب؛ عجبا لمن أيقن بالحسـاب كيـف (لَعَلَّهُ) يغفل؛ عجبا لمن أيقن (لَعَلَّهُ) بزوال الدُّنـيَا...»[2]؛ **﴿وكَانَ أبوهما صالحا، فأراد ربُّكَ أن يبلغا أَشُدَّهما﴾** يُدرِكا شِدَّتهما، **﴿ويستخرجا كنزهما رحمةً مِن ربِّك﴾** (لَعَلَّهُ) وفيه دليل عَلَى أنَّ المالَ الصالحَ لـلرَّجل الصـالح؛ **﴿ومَـا فعلتُـه عَـن أمري﴾** أي: باختياري وأمري، وإنَّما فعلته بأمر الله، **﴿ذَلِكَ تأويل مَا لم تسـطِع عليه صبرا(٨٢)﴾** (لَعَلَّهُ) رُوي: «لـمَّا همَّ موسى بفراقه، قَالَ لَهُ: أوصـني، قَـالَ: لاَ تطلب العلم لتحدِّث بِهِ، واطلبه لتعمل بِهِ».

---

١ - في الأصل: «كان»، وهو خطأ.

٢ - هنا وضع الناسخ إحالة إلى الحاشية و لم يتمم فيها العبارة، وأوردهـا الزمخشريُّ، ولكـن بلفظ: «عجبت» بدل: «عجبا» في كُلِّ مرَّة. وتمام العبارة: «وعجبتُ لمن يعرف الدنيـا وتقلُّبها بأهلها كيف يطمئنُّ إِلَيْهَا». الزمخشري: الكشَّاف، ٥٧٩/٢.

﴿**ويسألونك عَن ذي القرنين**﴾ قيل: سُمِّيَ ذا القرنين، لأَنَّهُ انقرض فِي وقته قَرنَان مِنَ الناس؛ ﴿**قل: سأتلو عَلَيْكُم مِنْهُ ذكرا(٨٣)**﴾.

﴿**إنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْض**﴾ التمكين: تمهيد الأسباب، ﴿**وآتيناه مِن كلِّ شيء**﴾ أراده من أغراضه، ومقاصده فِي ملكه؛ أَرَادَ: مِن كلِّ مَا يستعين بِهِ الملوك عَلَى فَتحِ المدن، ومحاربة الأعداء، ﴿**سَبَبًا(٨٤)**﴾ طريقا موصلاً إِلَيْهِ. ﴿**فأتبع سَبَبًا(٨٥)**﴾ والسبب: مَا يُتوصَّل بِهِ إِلىَ المقصود، مِن عِلمٍ، أو قُدرة؛ فأراد بلوغ المغرب، فأتبع سببا: يوصله إِلَيْهِ حتَّى بلغ؛ وكذلك أَرَادَ المشرق فأتبع سببا، وأراد بلوغ السدَّين فأتبع سببا؛ «ثُمَّ أتبع» كوفيٌّ وشاميٌّ، الباقون بِوَصل الألف وتشديد التاء. عَن الأصمعي: «أتبع: لَحِقَ، واتَّبع: اقتفى وإن لم يلحق».

﴿**حتَّى إِذَا بَلَغَ مَغربَ الشمس**﴾ أي: مُنتَهى العمارة نحو المغرب، وكذا المطلع، ﴿**وجدها تَغرُبُ فِي عين حَمِئَة**﴾ ذات حمأة، مِنَ حَمِئَت[1] البئر: إِذَا صارت فِيهَا الحَمْأة. «حَامِيَةٌ» شاميٌّ وكوفيٌّ غَيْر حفص، بمعنى حارَّة. ﴿**وَوَجَد عندها**﴾ عند تلك العين ﴿**قوما**﴾ عُراةً مِنَ الثياب؛ ﴿**قلنا: يا ذا القرنين**﴾ (لَعَلَّهُ) ألهمه ذَلِكَ ﴿**إِمَّا أن تُعذِّب، وَإِمَّا أن تَتَّخذ فِيهِم حُسنا(٨٦)**﴾ (لَعَلَّهُ) أي: إليك الاختيار فِي أن تعصي الله فِيهِم، أو تطيع.

---

١ - فِي الأصل: «حمت»، والصواب ما أثبتناه من الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٥٨١. «والحَمْأة: الطين الأسود المنتن... وحَمِئت البئر حَمَأً بالتحريك، فهي حَمِئةٌ إذا صارت فيها الحمْأة وكثرت». ابن منظور: لسان العرب، ١/٧١٢.

**﴿قَالَ: أمَّا مَـن ظَلَـمَ فسـوف نعذِّبـه، ثُـمَّ يُـردُّ إِلَى ربِّـه فيعذِّبـه عذابـا نُكْرًا(٨٧)﴾** أي: مُنكَرا بالنار فِي القيامة؛ يعني: أمـَّا مَـن دَعَوتـه إِلَىَ الإسـلام فأبى إِلاَّ البقاء عَلَى الظلم، فذاك هُوَ المعذَّب فِي الدارين.

**﴿وأمَّا مَن آمن وعملَ صالحا﴾** أي: عَمِل مَا يقتضيه الإيمان **﴿فله جزاءً الحسنى﴾** أي: فله الفعلة الحسنى التِي هِيَ كلمة الشهادة؛ (لَعَلَّهُ) أي: التوفيق والثواب، **﴿وسـنقول لَـهُ مِـن أَمرِنـا يُسـرا(٨٨)﴾** أي: ذا يُسرٍ، أي: يـأمره باليسر لاَ بالعسر.

**﴿ثمَّ أَتبع سببا(٨٩)﴾** أي: (لَعَلَّهُ) سَلَكَ طريقا ومنازل **﴿حتَّـى إِذَا بلـغ مَطلِع الشمس، وجدها تطلع عَلَى قوم لم نجعل لَهُم من دونها سـترا(٩٠)﴾** أي: أبنيـَةً؛ وقيل: الستر: اللباس. **﴿كذلـك﴾** أي: أمـر ذي القرنـين كذلـك؛ أي: كما وصفناه آمرا بالمعروف، ناهيًا عَن الـمنكر، مُجيبا لدين الله. وهكذا يَجب عَلَى كلِّ مسلم بِمَا بلغ إِلَيْـهِ طَوْلُه وحَوْلُه وقوَّتُـه وقدرتـه مِـن إحيـاء ديـن الله وإماتـة البـدع؛ **﴿وقـد أَحطنـا بِمَـا لديـه﴾** مِـن الجنـود والآلات والأسباب **﴿خُبْرًا(٩١)﴾** أو بلغ مَطلِـع الشـمس مثـل ذَلِـكَ؛ أي: كَمَـا بَلَـغ مغربها؛ أو يطلع عَلَى قوم مثل ذَلِكَ القبيل الذِي تغرب عَـلَيْـهِـم؛ يعني: أنـَّهـم كَفَرَة مِثلهم، وحكمهم [مثل حكمهم][1] فِي تعذيبه لمن بقيَ مِنْهُم عَلَى الكفر وإحسانه إِلَىَ مَن آمن مِنْـهُم.

---

١ - إضافة من الزمخشري: الكشَّاف، ٥٨٢/٢. ليستقيم التركيب.

﴿ثمَّ أتبع سببا(٩٢)﴾ سلك طريقا، ﴿حتَّى إِذَا بلغ بين السـدَّينِ﴾ بـين الجبلين: وهما جَبلاَن[1] ﴿وَجَدَ [٣٣٦] مِن دونهما﴾ مِن ورائهما ﴿قومًـا لاَ يكادون يفقهون قولا(٩٣)﴾ فإن قيل: كيـف قَـالُوا وَهُـم لاَ يفقهـون قـولا؟ قيل: كلَّم عَنْـهُم مترجم، ويُحتمل لاَ يكـادون يفقهـون قـولا حـقًّا، ويعضـد ذَلِكَ ما بعده.

﴿قَالُوا: يا ذا القرنين إنَّ يـأجوج ومـأجوج مُفسـدون فِي الأَرْض، فهـل نجعل لك خَرْجًا﴾ جُعلا نُخرجُه مـن أموالنـا ﴿عَلَـى أن تَجعـل بيننـا وبينهـم سَدًّا(٩٤) قَالَ: مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خير﴾ أي: مَـا جعلـني فِيـهِ مَكِينـا[2] مِـن كثرة المال واليسار (لَعَلَّهُ) والعلم، خير مِمَّا تَبذُلون لي مِنَ الخـراج، فـلا حاجـة لي إِلَيْـهِ؛ ﴿فأعينوني بقوَّة﴾ بعَمَلَة وصُنَّـاع يُحسنون البناء والعمـل بـالآلات، ﴿أَجْعَلْ بينكم وبينهم رَدْمًا(٩٥)﴾ حاجزا حصينا مُوَثَّقا؛ والردم: أكبر مِـنَ السدِّ عَلَى مَا قيل.

﴿آتوني زُبَرَ الحديد﴾ قِطَعَ الحديد؛ والـزُّبرَة: القطعة الكبيرة؛ قيـل: حَفَـرَ للأساس حتَّى بَلَغَ الماء، وجعل الأساس مِنَ الصخرِ والنحاس المـذاب، والبنيـانَ مِن زُبَرِ الحديد، بينهما الحطب والفحم، حتَّى سَدَّ مَا بين الجبلين إِلىَ أعلاهمـا؛ ثُمَّ وضع المنافخ حتَّى إِذَا صارت كالنـار صَـبَّ النحـاسَ المـذابَ عَلَى الحديـد

---

١ - كذا في الأصل، وَهُوَ تكـرار لا مَعنَـى لـه، وعنـد الزمخشـريِّ: «وهمـا جبـلان سَـدَّ ذو القرنين ما بينهما». المصدر نفسه.

٢ - في الأصل: «مكين»، وهو خطأ.

المحميِّ، فاختلط والتصق بعضه ببعض، وصار جبلا صلدا. وبُعدَ ما بين السدَّين يعلمه الله، ومَن أَعلَمَه مِن خلقه. ﴿حتَّى إِذَا ساوى بين الصَّدَفَينِ﴾ جانبي الجبلين، لأنَّهما يتصادفان، أي: يتقابلان، ﴿قَالَ: انفخوا﴾ أي: قَالَ ذو القرنين للعَمَلَة: انفخوا فِي الحديد، ﴿حتَّى إِذَا جَعَلَه نارا﴾ أي: صارَ الحديد المنفوخ كالنار، ﴿قَالَ آتوني أُفرِغ﴾ أصُبَّ ﴿عليه قِطرًا(٩٦)﴾ نُحاسا مُذابا، لأَنَّهُ يقطر.

﴿فما اسطَاعُوا أن يظهروه﴾ أن يعلوه ﴿وَمَا استطاعوا لَهُ نَقْبًا(٩٧)﴾ أي: لاَ حيلةَ لَهُم فِيهِ من صعود لارتفاعه، وَلاَ نَقْبَ لصلابته.

﴿قَالَ: هَذَا رحمة مِن ربِّي﴾ أي: هَذَا السدُّ نعمة مِنَ الله ورحمة عَلَى عباده؛ أو هَذَا الإقدار والتمكين مِن تسويته؛ ﴿فإذا جاءَ وعدُ ربِّي﴾ فإذا دَنَا مَجيء القيامة، وشارَفَ إتيانُها ﴿جعله دَكَّاءَ﴾ مبسوطا مسوًّى بالأَرْض، وكلُّ مَا انبسط بعد ارتفاع، فقد اندكَّ. «دَكَّاء» كوفيٌّ؛ أي: أرض مستوية؛ ﴿وكَانَ وعدُ رَبِّي حقًّا(٩٨)﴾ آخر قول ذي القرنين.

﴿وتَرَكنا﴾ وجعلنا ﴿بعضَهم﴾ بعضَ الخلقِ ﴿يومئذ يَمُوجُ﴾ يختلط ﴿فِي بعضٍ﴾ أي: يضطربون ويختلطون، إنسهم وجِنُّهم، حَيَارى سُكارى لاَ يسلكون طريقا، وَلاَ يهتدون سبيلاً؛ وَهَذَا وصف للعاصين مِنَ الخليقة؛ ويجوز أن يكون الضمير ليأجوج ومأجوج حين[1] يَخرجون مِنَ السدِّ مُزدحمين فِي

---

١ - في الأصل: «حتى»، وهو خطأ. انظر الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٥٨٤.

البلاد؛ ﴿وَنُفِخَ فِي الصور﴾ لقيام الساعة، ﴿فجمعناهم﴾ أي: جميع الخلائق للثواب والعقاب ﴿جَمْعًا(٩٩)﴾ فِي صعيد وَاحِد.

﴿وَعَرَضنا﴾ وأبرزنا ﴿جَهَنَّم يومئذ للكَافِرِينَ عرضا(١٠٠)﴾ أظهرناها لَهُم، فرأوها وشاهدوها عَيَانًا.

﴿الذِينَ كَانَت أَعينهم﴾ أعينُ بصائرهم؛ وسُمِّيت أَعْيُنا عَلَى قدر أهويتهم، لأَنَّ الهوى ظُلمَة تَمنع نورَ البصيرة، فيكون كالغطاء المانع عَن التبصرة لحقائق الأشياء؛ فكانت (لَعَلَّهُ) البصيرة تُبصر الغطاءَ وَلاَ تُبصر الشيء الذِي غطَّاه؛ فإذا خالف العبد الهوى فِي شيء [٣٣٧] مِنَ الأشياء الدُّنْيَويَّة ارتفع الحجابُ عَن ذَلِكَ الشيء، وأبصر بنور بصيرته الحقَّ، وإن اتَّبع هواه فِي ذَلِكَ الشيء، تراكمت الظُّلمة عَلَى عين البصيرة، فَلاَ تَقدِر أن تستبصر عاقبة الأمر. ﴿فِي غطاءٍ عَن ذِكري﴾ الغطاء: هُوَ الحجاب الذِي ذَكرناه؛ والذكر: هُوَ حقيقةُ الأمر وسرُّه. ﴿وكَانُوا لاَ يستطيعون سَمعا(١٠١)﴾ أي: وكَانُوا صُمًّا عَنْهُ، بَل أبلغ مِنَ الصُّمِّ؛ إذ الأصمُّ قد يستطيع السمع إِذَا صِيح بِهِ؛ وهؤلاء كأنَّهم أصميت[1]، فلا استطاعة بهم للسمع.

﴿أفحسب الذِينَ كَفَرُوا أن يتَّخذوا عبادي من دوني أولياء﴾ كلاَّ إنَّهم لاَ يكونون لَهُم أولياء، وإن اتَّخذوهم هم أولياء، (لَعَلَّهُ) ويعني: بـ«أولياء»: الشياطين، أطاعوهم مِن دون الله؛ وقيل: الأصنام؛ وقيل: الأهوية، وَهُوَ أصحُّ مَا قيل. فإنَّهم لاَ يضرُّون إن تركوا عِبادتهم، وَلاَ ينفعون إن

١ - فِي الأصل: «أصمت». وما أثبتناه فمن الزمخشري: الكشَّاف، ٢/٥٨٥.

عبدوهم بظنّهم. ﴿إنّا أعتدنا جهنّم للكَافِرِينَ نُزُلاً(١٠٢)﴾ هُوَ مَا يُقام للنّزيل، وَهُوَ الضيف ونحوه؛ ﴿فبشِّرهم بعذاب أليم﴾[1].

﴿قل: هل نُنبِّئُكم بالأخسرين﴾ أخسر مِن كلِّ خاسر ﴿أعمالا(١٠٣)؟ الذِينَ ضلَّ سَعيُهم﴾ ضاعَ وبَطَلَ، يعني: الذِينَ أتعبوا أنفسهم فِي عمل، (لَعَلَّهُ) يرجون[2] بِهِ فضلا ونَوالا، فنَالوا بِهِ هلاكا ﴿فِي الحياة الدُّنيَا، وَهُم يَحسبون أنّهم يُحسنون صُنعا(١٠٤)﴾ (لَعَلَّهُ) لِعُجْبهم بأعمالهم، واعتمادهم الحقَّ بغير دليل مِنَ الدليل[3]؛ ويحتمل هَذَا المتديِّنين خاصّةً؛ ويحتمل فِي جميع الْكَافِرِينَ لعموم الآية، وَهُوَ قوله:

﴿أُولَئِكَ الذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ ربِّهم ولِقَائِه فَحَبِطَت أعمالهم، فلا نُقِيم لَهُم يوم القيامة وزنا(١٠٥)﴾ فلا يكون لَهُم وَزْنٌ ومقدارٌ، لأَنَّهُم عُصَاة؛ فلا تقوم مِنْهُم طاعة. ﴿ذَلِكَ جزاؤهم جهَنّم بِمَا كَفَرُوا، واتَّخذوا آياتي ورُسُلي هُزُوا(١٠٦)﴾ أي: جزاؤهم جَهَنّم، بكفرهم واستهزائهم بِآيَاتِ الله ورسله.

﴿إنَّ الذِينَ آمنوا وعملوا الصالحات كَانَت لَهُم جنّاتُ الفردوس نُزُلاً(١٠٧) خالدين فِيهَا لاَ يبغون عنها حِوَلاً(١٠٨)﴾ تَحَوُّلاً إلىَ غيرها رِضًى بِمَا أُعطوا؛ أي: لاَ مَزِيد عليها حتّى تُنازعهم أنفسهم إلىَ أجمع إلىَ

١ - سورة آل عمران: ٢٤؛ وسورة التوبة: ٣٤؛ وسورة الانشقاق: ٢٤.

٢ - فِي الأصل: «يرجوا»، وهو خطأ، لأَنَّهُ لا موجب لحذف النون.

٣ - هنا إحالة إلى الحاشية و لم يكتب فيها شَيْء، والعبارة ناقصة كما هو واضح.

أغراضهم[1] مِمَّا هم فِيهِ وعليه، وَهَذَا غاية الوصف؛ لأَنَّ الإنسان وإن كَانَ فِي الدُّنْـيَا فِي أَعَم نعيم، فهو طامِحُ الطَّرْفِ إِلىَ أرفع مِنْهُ.

﴿قل: لو كَانَ البحرُ مِدَادًا لِكَلِمات ربِّي﴾ قَالَ أبو عبيدة: «المـراد: مَـا يُكتب بِهِ»؛ أي: لو كُتبت[2] كلماتُ علم ا لله وحكمته، وكَـانَ البحـر مـدادا لها ﴿لَنَفِدَ البحرُ قبل أن تنفَدَ كلماتُ رَبِّي، ولو جئنـا بمثلـه﴾ بـمثل البحـر ﴿مددا(١٠٩)﴾ لنَفِدَ أَيْضًا، والكلمات غير نافـدة؛ وقيل: قَـالَ حيـيُّ[3] ابن أخطَب: «فِي كتابكم ﴿ومن يُؤتَ الحكمةَ فقد أوتي خيرا كثـيرا﴾[4]، ثُـمَّ تقرؤون: ﴿وَمَا أُوتيتم مِنَ العلم إِلاَّ قليلا﴾[5]» فـنزلت؛ يعنـى: أنَّ ذَلِـكَ خـير كثير، ولكـنَّه قطرة من بَحرِ كلماتِ ا لله.

﴿قل: إنَّـمَا أنا بشرٌ مثلكم يُوحَى إليَّ[6] أنَّـما إلهكم إله واحد﴾ أي: يُوحَى إِلَيَّ أَنَّـهُ إله واحدٌ، ﴿فمن كَانَ يرجو لقاءَ ربِّـه﴾ فمن كَانَ يأملُ حُسنَ لقاءِ ربـه، وأن يَلقَاه لقاءَ رضىً وقبول؛ أو فمن كَانَ يخاف سوءَ لقـاءِ ربـه؛ والمـُرَاد باللقـاء: القدوم عَلَى جزاء الأعمال؛ ﴿فليعمل عملا صالحا﴾ خالصا، لاَ يريد بِهِ إِلاَّ وجـه ربه، وَلاَ يَخلط بِـهِ غـيره، ﴿وَلاَ يُشـرِكْ بعبـادة ربِّـه أحـدا(١١٠)﴾ نهـى عَن

---

١ - كذا في الأصل، وعند الزمخشري: «إلى أجمعَ لأغراضهم». انظر: الزمخشري: الكشَّاف، ٥٨٦/٢.

٢ - في الأصل: «كتب»، وهو خطأ. انظر: م.ن.

٣ - في الأصل: «حي».

٤ - سورة البقرة: ٢٦٩.

٥ - سورة الإسراء: ٨٥.

٦ - في الأصل: - «إليَّ»، وهو خطأ.

الشرك جَلِيِّه وخفيِّه، وعن الرياء. قَالَ الْتَلِيِّلاِ: «*اتَّقُوا* [٣٣٨] *الشركَ الأصغرَ*» قَالُوا: «وَمَا الشركُ الأصغرُ؟» قَالَ: «*الرياء*»[١].

وأرجو أنَّه يوجد عَن أبي عبد الله مُحَمَّد بن رَوح بن عربي أنَّه قَالَ: «إنَّ الشركَ يتصرَّف عَلَى ثلاثة وجوه: فشرك جحود، وشرك طاعة، وشرك رياء. فأمَّا شرك الجحود: فهو الإشراك بالله، يعني: الذِي يعدل بِهِ غيره؛ فكلٌّ من جَحَدَ الله، أو عَبَدَ معه إلها آخر، وشكَّ فيه، أو شكَّ فِي رسوله، أو جحد بِمَا جاء بِهِ، فهو مشرك يلحقه اسم الشرك. وَأَمَّا شرك الطاعة: فهو طاعة الشيطان، وَهُوَ قوله: ﴿فلَمَّا آتاهما صالحا جعَلاَ لَهُ شُركاء فيما آتاهما﴾[٢]، فدخل عليهما فِي طاعة الشيطان الشرك، من غير عبادة، يُعبد الشيطان من دون الله؛ كذلك قوله: ﴿إنَّمَا سُلطانه عَلَى الذِينَ يتولَّونه، وَالذِينَ هم بِهِ مشركون﴾[٣]، وقوله: ﴿إنِّي كَفَرتُ بِمَا أشركتمون مِن قبل﴾[٤]، وقوله: ﴿ألم أَعهَد إليكم يا بني آدم ألاَّ تعبدوا الشيطان، إِنَّهُ لكم عدوٌّ مبين﴾[٥]، فعبادته هاهنا طاعةُ الشيطان، فقد عَبَدَه

---

١ - رواه الإمام أحمد بلفظ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ، قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمُ اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً»، رقم ٢٢٥٢٣، ٢٢٥٢٨.

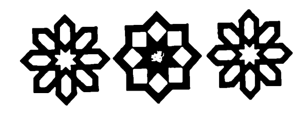
٢ - سورة الأعراف: ١٩٠.

٣ - سورة النحل: ١٠٠.

٤ - سورة إبراهيم: ٢٢.

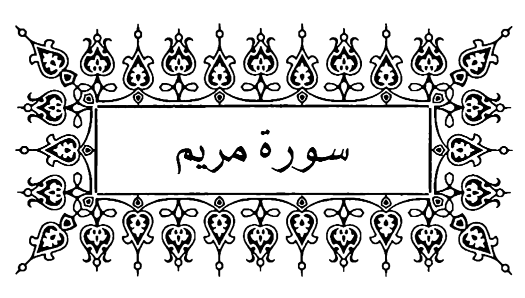
٥ - سورة يس: ٦٠.

مِن حيث لاَ يعلم، وَهَذَا الشرك شرك الرياء، ويلحقه اسم النفاق، وَلاَ يلحقه اسم الجحود. كذلك شرك الرياء إِنَّمَا هُوَ شرك يَلحقه اسم النفاق، وَلاَ يلحقه اسم الجحود، وَهُوَ قوله: ﴿مَن كَانَ يرجو لقاءَ ربه فليعمل عملا صالحا، وَلاَ يُشرك بعبادة ربه أحدا﴾، فدخل عليه الشرك مِن حيث لاَ يعلم، إِذَا[1] أَشرَك فِي عبادة ربه غيره» انتهى كلامه. أحببت أن أنقل مِنْهُ مَا سألتنيه[2]، وقد حذفت مِنْهُ طلبا للاختصارِ، وسأكتبه عَلَى المعنى: «قَالَ الغزالي: والإخلاص يضادُّه الإشراك، فمن ليس مُخلصا فهو مشرك، إِلاَّ أَنَّ الشرك درجات؛ والإخلاص فِي التوحيد يضادُّه التشريك فِي الإلهيَّة».



١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «إِذْ».

٢ - يمكن أن نقرأ: «سأكتبه».



# سورة مريم

قيل: ٨ أو ٩٩ آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

**﴿كهيعص(١) ذِكرُ﴾** هَذَا ذِكر **﴿رحمة رَبـِّكَ﴾** أي: هَـذَا الـمَتلُوُّ ذِكـر رَحمة ربك **﴿عبدَه زكريـَّا(٢)﴾** أي: ذِكرُ رَبـكَ عبـده زكريـا برحمتـه، **﴿إذ نادى رَبـَّه نداء خَفِيـًّا(٣)﴾** دعاء سرًّا من قومـه، **﴿قَـالَ: رَبِّ إنـِّي وَهَـنَ﴾** ضَعُف **﴿العظمُ منـِّي واشتعلَ﴾** ابيضَّ **﴿الرأسُ شيبًا﴾** (لعلّه) أي: قـرب مِـنَ الموت، **﴿ولم أكن بدعائك رَبِّ شَقِيـًّا(٤)، وَإنـِّي خِفتُ المواليَ من ورائـي﴾** قيل: خاف مِنْهُم تبديـل ديـن الله، وتغيير أحكامـه، وأن لاَ يُحسنوا الخلافـة عَلَى أمـَّته؛ فسأل ربَّه ولدا صالحـا يرثـه النبوءة والعلم، ويكـون خليفـة عَلَـى أمـَّته، **﴿وكانت أمرأتي عاقرا، فَهَب لي من لدنك وليـًّا(٥) يرثني ويرث من آل يعقـوب﴾** المـُرَاد: وراثـة الشـرع والعلـم فـإنَّ الأنبيـاء لاَ يُورَثـون المـــال، **﴿واجعله رَبِّ رضيًّا(٦)﴾** مِمَّن ترضى عَـنْـهُ ويرضى عنك.

**﴿يا زكريا، إنـَّا نبشِّرك بغلامٍ اسمه يحيى لم نجعل لَـهُ مـن قبـلُ سميـًّا(٧)؛ قَالَ: رَبِّ أَنـَّى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقـد بَلَغْـتُ مِـنَ الكِبَر عِتِيـًّا(٨)﴾** أي: سِنـًّا، **﴿قَـالَ: كذلـكَ قَـالَ رَبـُّكَ هُـوَ علـيَّ هيـِّنٌ، وقـد خلقتُك من قبلُ ولم تَكُ شَيْـئًا(٩)﴾**.

﴿قَالَ: رَبِّ اجعل لِّي آية﴾ يطمئنُّ بها قلبي، ويصدقني الناس بها، ﴿قَالَ: آيتك ألاَّ تُكلِّم الناسَ ثلاثَ ليالٍ سويًّا(١٠)﴾ وأنت سويُّ الخلق، مَا بك من خرس وَلاَ بُكم.

﴿فخرج عَلَى قومه مِنَ المحراب﴾ قيل: مِنَ المصلَّى، ﴿فأَوحَى إِلَيْهِم﴾ [٣٣٩] لقوله: ﴿إلاَّ رمزا﴾؛ وقيل: كتب لَهُم عَلَى الأَرْض، ﴿أن سَبِّحوا﴾ صلُّوا؛ أو نزهوا رَبَّكُم ﴿بُكرةً وعشيًّا(١١)﴾، طرفي النهار أو جملته، فإنَّهم مَا داموا فِي طاعته فَهُم مُسبحون لَهُ فِي الحقيقة بلسان الحال، وإن لم ينطقوا بلسان المقال.

﴿يا يحيى خُذِ الكتابَ بقوَّة﴾ بجدٍّ وعزيمة، واستظهار بالتوفيق، فإنَّه لاَ يبلغه من لعب. وأَخْذُه بالجد: بأن يكون مُتجردا له عند قراءته، منصرفَ الهم، إِلَيْهِ عَن غيره. وفي معنى أخذِه بقوَّة: التكرير لتلاوته، والمراجعة بالفكر، والتدبُّر فِي استخراج سر تأويله، والعمل بأحسنه، ﴿وآتيناه الحكم صبيًّا(١٢)﴾ يعني: الحكمة، أحكم الله عقله فِي صباه، ﴿وحنانا مِن لدُنَّا﴾ رحمة مِنَّا عليه، ﴿وزكاةً﴾ وتطهيرا مِنَ الذنوب، ﴿وكَانَ تقيًّا(١٣)﴾ مطيعا، مُتجنبا عَن المعاصي، ﴿وَبَرًّا بوالديه﴾ بتأدية حقوقهما، وتركِ لعقوقهما، ﴿ولم يكن جبَّارًا عصيًّا(١٤)﴾ مستعصيًا لأمر الله تعالى.

﴿وسلامٌ عليه﴾ سلام لَهُ مِنَّا لَهُ[1]، أي: مدَّة حياته، ﴿يوم وُلِد ويوم يَموت ويوم يُبعَث حيًّا(١٥)﴾.

---

١ - كذا فِي الأصل، ولَعَلَّ الصواب: - «له».

﴿**واذكر في الكتاب مَرْيَم**﴾ يعني: قصّتها، ﴿**إذِ انتَبَذَت من أهلها**﴾ اعتزلت ﴿**مكانا شرقيًّا(١٦)**﴾ شرقيَّ بيت المقدس، أوشرقي دارها؛ ولذلك اتَّخذ النصارى المشرق قِبلَة فيما قيل؛ ﴿**فاتَّخذَت من دونهم حجابا**﴾ سِتراً، ﴿**فأرسلنا إلَيْهِا رُوحَنا فتمثَّل لها بَشرا سويًّا(١٧)**، **قالت: إنِّي أعوذ بالرحمنِ منكَ**﴾ التجأت إلىَ خالقها لَمَّا دَهَمَها ما يسوؤها، لأنَّهُ لاَ معين فيِ الحقيقة سواه؛ وكذلك ينبغي لِكُل مُؤْمِن، ﴿**إن كنتَ تقيًّا(١٨)**﴾ تتَّقي الله؛ وقيل: اسم رجل فاجر اسمه تقيًّا.

﴿**قَالَ: إنَّمَا أنا رسول رَبِّك**﴾ الذِي استعذتِ أنت بِهِ، بُعِثتُ ﴿**لأهب لك غلاما**﴾ لأكون سببا فيِ هبته ﴿**زكيًّا(١٩)**﴾ طاهرًا مِنَ الذنوب، أو ناميا على الخير، أو مترقّيا من سن إلىَ سن عَلَى الخير والصلاح.

﴿**قالت: أنَّى يكون لي غلام ولم يَمسَسْني بَشَرٌ**﴾ بالحلال، ﴿**ولم أكُ بغيًّا(٢٠)**﴾ وَهُوَ "فعول" مِنَ البغي، ﴿**قَالَ: كذلكِ قَالَ رَبُّكِ: هُوَ عليَّ هيِّنٌ، ولِنجعلَه آيةً للناس**﴾ علامة لهم، وبرهانا عَلَى كمال قدرتنا، ﴿**ورحمةً منَّا**﴾ عَلَى العباد، يهتدون بإرشاده، ﴿**وكَانَ أمرا مَّقضيًّا(٢١)**﴾ تعلّق بهِ قضاء الله فيِ الأزل، أو قُدر وسُطِّر فيِ اللوح، أو كَانَ أمرا حقيقيًّا بأن يُقضى ويُفعل، لكونه آيَة ورحمة.

﴿**فحملته**﴾ أي: فحملت بهِ فيِ بطنها، ﴿**فانتَبَذَت بهِ**﴾ فاعتزلت ﴿**مكانا قَصيًّا(٢٢)**﴾ بعيدا من أهلها. ﴿**فأجاءها المخاضُ**﴾ فألجأها المخاض ﴿**إلىَ جذعِ النخلةِ**﴾ لتستقرَّ بهِ وتعتمد عليه، لتستعين بهِ عند الولادة؛ ﴿**قالت: يا ليتني مِتُّ قبل هَذَا وكنت نَسْيًا مَّنسِيًّا(٢٣)**﴾.

﴿**فناداها مِن تَحتِهَا**﴾ قيل: عيسى أو جبريل ﴿**ألاَّ**[1] **تحزني**﴾ أي: لاَ تحزني، أو بِأن لاَ تحزني، ﴿**قد جعل رَبُّكِ تحتكِ سَرِيًّا(٢٤)**﴾ قيل: جدولا؛ أو سيدا من السرور[2] وَهُوَ عيسى.

﴿**وهُزِّي إليكِ بجِذعِ النخلةِ تُسَاقِطْ عليك رُطَبًا جَنيًّا(٢٥)**﴾ قيل: إِنَّها كَانَت نخلة يابسة لاَ رأس لها وَلاَ تمر، وكَانَ وقت شتاء، فهزَّتها، فجعل ا لله لها رأسا وخوصا، ورطبا يُسلِّيها بذلك، لِمَا فِيهِ مِنَ المعجزات الدالَّة عَلَى براءة ساحتها ـ فإنَّ مثلها لاَ يُتصوَّر لمن يرتكب الفواحش ـ والمنبهة لمن رآها عَلَى أنَّ من قدر أن [٣٤٠] يُثمر النخلة اليابسة فِي الشتاء، قَدرَ أن يُحبلها من غير فحل، وَأَنَّهُ ليس ببدع من شأنها، مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الشراب والطعام، ولذلك رتَّب عليه الأمرين، فقال:

﴿**فكلي واشربي**﴾ أي: مِنَ الرطب، وماء السري، ﴿**وقَرِّي عينا**﴾ وطيبي نفسك، وارفضي منها مَا أحزنك؛ يقال: أقرَّ ا لله عينكَ: إذَا صادف فؤادك مَا يرضيك؛ وقيل: أقرَّ ا لله عينك، أي: أنامها؛ يقال: قرَّ يَقرُّ إذَا سكن، وجديرة هِيَ بقرار العين، لأَنَّ قرار العين الحقيقيَّ فِي الحياة الدُّنْيَا لاَ يكون إلاَّ فِي امتثال أمر ا لله تعالى. واشتقاقه مِنَ القَرَار، فإنَّ العين إذَا رأت مَا يسرُّ النفس سكنت إِلَيْهِ مِنَ النظر إِلىَ غيره. وقد قالت العلماء: «وَلاَ نَعِمَت عين فِي معصية ا لله، وَلاَ بالدُّنْيَا».

---

١ - فِي الأصل: «لا تحزني» وهو خطأ.

٢ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «السَّرْوِ». انظر الزمخشري: الكشَّاف، ٣/١٠. و«السَّرْوُ: المروءة والشرف». ابن منظور: لسان العرب، ٣/١٣٩. مادَّة «سرا».

﴿فإمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البشر أحدا﴾ فإن تَرَيْ آدميًّا، فسألك عَن وَلَدَك، ﴿فقولي: إنِّي نذرتُ للرحمن صوما﴾ صُمتا، أو صياما؛ وكَانُوا لاَ يتكلَّمون فِي صيامهم فيما قيل؛ ﴿فلن أكلِّمَ اليومَ إنسيًّا(٢٦)﴾ بعد أن أخبرتكم بنذري، وقيل: أخبرتهم بنذرها بالإشارة؛ وأَمَرَهَا بذلك لكراهة المجادلة، والاكتفاء بكلام عيسى.

﴿فأتت بِهِ قومَها﴾ راجعة إِلَيْهِم ﴿تَحمله؛ قَالُوا: يا مَرْيَم لَقَد جئتِ شَيْئًا فَرِيًّا(٢٧)﴾ بديعا مُنكَرا، من فَرِيَ الجلدُ. قَالَ أبو عبيدة: «كلُّ أمر فائق من عجب، أو عمل فهو فَرِيٌّ». قَالَ النبيء عَلَيْهِ السَّلاَمُ فِي عُمَر: «*فلم أَرَ عبقريًّا يَفري فَرِيَه*»[1]، أي: يعمل بعمله.

﴿يا أختَ هارونَ مَا كَانَ أبوكِ امرأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَت أمُّك بغيًّا(٢٨)﴾ كأنَّهم رجموها بالظن، وذلك مِن طَبع النفوس، وَلاَ يسلم مِنْهُ إِلاَّ المخلصون[2].

﴿فأشارت إِلَيْهِ؛ قَالُوا: كيف نُكلِّم مَن كَانَ فِي المهد صبيًّا(٢٩)﴾ يُروى عَن ابن مسعود أنَّه قَالَ: «لـمَّا لم يكن حجَّة أشارت إِلَيْهِ، ليكون كلامه حجَّة لها، وحجَّة عليهم».

فَلَمَّا سمع كلامهم أقبل عليهم، ﴿قَالَ: إنِّي عبدُ الله﴾ أنطقه الله بالإِقْرَار لله تعالى بالربوبيَّة، وعلى نفسه بالعبوديَّة، لأَنَّهُ أوَّلُ المقامات، ﴿آتانيَ الكتابَ

١ - رواه البخاري في كتاب المناقب، برقم ٣٣٦١، ٣٤٠٠...؛ كتاب التعبير؛ التوحيد. مسلم: فضائل الصحابة. الترمذي: الرؤيا. أحمد: مسند المكثرين من الصحابة.

٢ - في الأصل: «المخصلون»، وهو خطأ.

**وجعلني نَبِيًّا(٣٠)﴾** (لعلّه) معناه: سيؤتيني الكتاب، ويجعلني نَبِيًّا؛ وَقِيلَ: هَذَا (لعلّه) أخبر[1] عَمَّا كتب له فِي اللوح؛ وَقِيلَ: أوتي الإنجيل [وَهُوَ] طفلٌ، وكان يعقل؛ **﴿وجَعَلَني مُبَارَكًا﴾** نافعا مُعلِّما للخير **﴿أين مَا كنتُ﴾** فِي أي مكَانٍ، وأي حال كنت. **﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة﴾** زكاة المال إن ملكته، أو تطهير النفس عَن الرذائل. **﴿مَا دمت حيًّا(٣١)﴾** متعبدا، **﴿وبرًّا بوالدتي، ولم يجعلني جبَّارا شقيًّا(٣٢)﴾** قيل: الشقيُّ الذِي يُذنب وَلاَ يتوب. **﴿والسلام عليَّ يوم وُلدتُ ويوم أموت ويوم أُبعث حيًّا(٣٣)﴾** فهذه ولايةُ حقيقةٍ، والتعريض باللعن عَلَى أعدائه، كقوله: ﴿والسلامُ عَلَى من اتَّبع الهدى﴾[2]، فإنَّه تعريض بِأَنَّ العذاب عَلَى من كذَّب وتولَّى.

**﴿ذَلِكَ عيسى ابن مَرْيَم﴾** أي: الذِي تقدَّم نعته هُوَ عيسى بن مَرْيَم، مَا لاَ تصفه[3] النصارى، وَهُوَ تكذيب لَهُم فيما يصفونه عَلَى الوجه الأبلغ [٣٤١] والطريق البرهاني، حيث جعله موصوفا بأضداد مَا يصفونه، ثُمَّ عَكَسَ الحكم. **﴿قولُ الحَقِّ﴾** أي: هُوَ قول الحَق **﴿الذِي﴾** لاَ ريب **﴿فِيهِ يمترُونَ(٣٤)﴾** فِي أمره، يشكُّون أو يتنازعون.

**﴿مَا كَانَ لله أن يتَّخذَ مِن ولدٍ سبحانه﴾** تكذيب للنصارى، وتنزيه الله عمَّا بهتوه؛ **﴿إِذَا قضى أمرا﴾** كائنا فِي علمه وقضائه؛ **﴿فَإِنَّمَا يقول لَهُ:**

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «إخبار».

٢ - سورة طه: ٤٧.

٣ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «لا ما تصفه».

كن، فيكُونَ(٣٥) وإنَّ الله رَبـِّي وربُّكُم فاعبدوه هَـذَا﴾ الـذِي ذكرتـه ودعوتكم إِلَيْـهِ ﴿صِرَاط مُسْتَقِيم(٣٦)﴾.

﴿فاختلف الأحزابُ من بَيْنِهِم﴾ يعني: الذِينَ أُرسل إِلَيْهِم؛ ﴿فويل للذين كَفَرُوا مِن مشهدِ يومٍ عظيم(٣٧)﴾ من شهود يوم عظيم، هوله وحسابه، وَهُوَ أن يشهد عَلَيْهِمُ المَلاَئِكَة والأنبياء والعلماء وألسنتهم وآرابهم بِمَا فعلوا، أو مِن وقت الشهادة أو مِن مكانها.

﴿أسمِعْ بهم وأَبصِرْ﴾ تعجُّب معناه: أنَّ استماعهم وإبصارهم ﴿يوم يأتوننا﴾ أي: يوم القيامة، جديرٌ بِأن يُتعجَّب منهما، بعدما كَانُوا صمًّا وعميا فِي الدُّنْيَا؛ أو تهديد سيسمعون ويبصرون يومئذ؛ وقيل: أمر بِأن يُسمِعهم ويُبصرهم مواعيد ذَلِكَ اليوم، وَمَا يحيق بهم فِيهِ؛ وقيل: مَا أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة حين لاَ ينفعهم السمع والبصر؛ أخبر أنـَّهم يسمعون ويبصرون، مالم يسمعوا ومالم يبصروا فِي الدُّنْيَا. ﴿لَكنِ الظالمون اليوم﴾ أي: فِي الدُّنْيَا ﴿فِي ضلال مُبين(٣٨)﴾ أوقع الظالمين موقِعَ الضمير، إشعارًا بأنـَّهم ظلموا أنفسهم حيث أغفلوا الاستماع والنظر حين ينفعهم، وسجَّل عَلَى إغفالهم بأنـَّه ضلال مبين.

﴿وأنذرهم يومَ الحسرة﴾ يوم يتحسَّر المسيء عَلَى إساءته، ﴿إذ قُضِيَ الأمرُ﴾ فُرِغ مِنَ الحساب، وتصادر الفريقان إِلَى الجنَّة والنار، (لعلَّه) ثُمَّ يقال:

*«يا أهل الجنّة خلود فلا مَوت، ويا أهل النار خلود فلا موت»*[1]. قيل: (لعلّه) قَالَ أبو عيسى: «فلولا أنَّ الله تعالى قضى لأهل الجنّة بالحياة والبقاء، لماتوا فَرَقًا[2]؛ ولولا أنَّ الله تعالى قَضى لأهل النار بالبقاء، لماتوا فرحا»؛ **﴿وَهُم فِي غفلة وَهُم لاَ يُؤْمِنُونَ(٣٩)﴾**.

**﴿إنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْض ومَن عليها﴾** لاَ نبقي لأحد غيرنا عليها[3]؛ أو نتوفّى الأَرْضَ ومن عليها بالإفناء والإهلاك، توفي الوارث لإرثه، لأنَّ كلَّ شيء راجع إِلىَ مالكه، وَالله مالك الأشياء عَلَى الحقيقة، وَأَمَّا تمليك المخلوقين، فهو تمليك وهميٌّ، **﴿وإلينا يُرجعُونَ(٤٠)﴾** للجزاء.

---

١ - رواه البخاريُّ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ؛ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ؛ ثُمَّ يُنَادِي يَا أَهْلَ النَّارِ! فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ؛ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ. فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وَهَؤُلاَءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا ﴿وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ البخاري: كتاب تفسير القرآن، رقم ٤٣٦١. ورواه مسلم: كتاب صفة الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، رقم ٥٠٨٧. وأحمد: باقي مسند المكثرين، عن أبي هريرة، رقم ٨١٧٩. العالمية: موسوعة الحديث، مادَّة البحث: «خلود فلا موت».

٢ - الفرق: الخوف. انظر: الرازي: مختار الصحاح، ص ٣٢٠، مادَّة: فرق.

٣ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «لاَ نبقي لأحد غيرنا ما عليها». وَفِي تفسير أبي السعود: «لاَ يبقى لأحد غيرنا عليها وعليهم ملك ولا ملك». أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٥/ ص ٢٦٦. والملاحظ أنَّ المُؤَلِّف بقدر ما اعتمد كثيرا في تفسير الربع الثاني عَلَى الكشَّاف للزمخشريِّ، فهو فِي هَذَا الجزء (الثالث) اعتمد كثيرا عَلَى تفسير أبي السعود.

﴿واذكر فِي الكتاب إبراهيم إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا﴾ ملازماً للصدق، كثير التصديق، لكثرة مَا صَدَّق بِهِ مِن حجج الله، وآياته وكتبه ورسله، ﴿نَبِيًّا(٤١)﴾ قد استحقَّ التعظيم بهذا الاسم الشريف بأحواله، لأَنَّهُ مستأهل للنبوَّة بخصائصه، وقد علم الله مِنْهُ ذَلِكَ.

﴿إذ قَالَ لأبيه: يا أبت لِمَ تعبد مَا لاَ يَسمع وَلاَ يُبصر﴾ فيعرف حالك، ويسمع ذكرك، ويرى خضوعَك، ﴿وَلاَ يُغني عنك شَيْئًا(٤٢)﴾ فِي جلب نفع، ودفع ضرٍّ، دعاه إِلَى الهدى، وبيَّن ضلالة، واحتجَّ عليه أبلغ احتجاج، وأرشقه[1] برِفق، وحسن أدب؛ حيث لم يصرح بضلاله؛ بَل طلب العلّة التِي تدعوه إِلَى عبادة مَا يستخِفُّ بِهِ العقل [٣٤٢] الصحيح، ويأبى[2] الركون إِلَيْهِ، فضلا عَن عبادته التِي هِيَ غايَة التعظيم، وَلاَ يحقُّ إلاَّ لمن لَهُ الاستغناء التام، والإنعام العامُّ، وَهُوَ الخالق الرازق، المُحيي المُميت، المُعاقب المُثيب. ونبَّه عَلَى أنَّ العاقل ينبَغي أن يفعل مَا يفعل لغرض صحيح؛ والشيء [و]لو كَانَ حيًّا مُميزا سميعًا بصيرًا لاستنكف العقل القويم عَن عبادته، وإن كَانَ أشرف كالمَلاَئِكَة والنبيين، لَمَّا يراه [مثله][3] فِي

---

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الأصوب: «رشَقَه»، بغير همز. والرَّشْق: الرمي. وَأَمَّا أرشق إرشاقا فهو بمعنى: إحداد النظر. انظر: مجد الدين محمَّد بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ضبط وتوثيق: يوسف الشيخ محمَّد البقاعي، إشراف مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع١٤١٥هـ / ١٩٩٥م. ص ٧٩٨، مادَّة رشق. ابن منظور: لسان العرب، ١١٧٠/٢، مادَّة رشق.

٢ - فِي الأصل: «ويائب»، وهو خطأ. انظر: أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٥/ ص٦٦٧.

٣ - إضافة من المصدر نفسه، ليستقيم المعنى.

الحاجة والانقياد للقدرة الواجبة؛ فكيف إِذَا كَانَ جمادًا لاَ يسمع وَلاَ يبصر. ثُمَّ دعاه إِلَى أن يتبعه ليهديه الحقَّ القويم، والصراط المُسْتَقِيم لَمَّا لم يكن محضوضًا للعلم الإلاهي[1]، مستقلاً بالنظر السوي. فقال:

﴿**يا أبت إِنِّي قد جاءني مِنَ العلم مَا لم يأتك فاتَّبعني أَهدِكَ صراطا سويًّا(٤٣)**﴾ و لم ينسب أباه بالجهل[2] المُفرط، وَلاَ نفسه بالعلم الفائق، بَل جعل نفسه كرفيق له فِي مسير يكون أعرَفَ بالطريق، ثُمَّ ثَبَّطَه عمَّا كَانَ بأنَّه مَعَ خلُوه عَن النفع مستلزم للضر، فإنَّه فِي الحقيقة الشيطان[3] مَعَ أنَّه الآمر بهِ، فقال:

﴿**يَآ أبت لاَ تعبد الشيطان**﴾ واستهجن[4] ذَلِكَ، وبيَّن وجه الضر فيه بِأنَّ الشيطان مستعصٍ عَلَى رَبِّكَ المولى المنعم للنعم كلِّها، بقوله: ﴿**إِنَّ الشيطان كَانَ للرحمن عصيًّا(٤٤)**﴾ ومعلوم أنَّ المطاوعَ للعاصي عاصٍ، وكلُّ عاص حقيق بِأن تُستردَّ مِنْهُ النعم، وينتقم [منه]؛ ولذلك عقَّبه بتخويفه سوءَ عاقبته، وَمَا نجزه [كَذَا] ا لله، فقال:

---

١ - كذا فِي الأصل، والصواب: «محظوظا من العلم الإلهيِّ». انظر المصدر نفسه.

٢ - كذا فِي الأصل، والصواب: «إلى الجهل». وَفِي تفسير أبي السعود: «و لم يسمِّ أباه بالجهل». المصدر نفسه.

٣ - كذا فِي الأصل، والعبارة غير واضحة: وَفِي تفسير أبي السعود: «ثُمَّ ثَبَّطَه عمَّا كَانَ عَلَيه بتصويره بصورة يستنكرها كُلُّ عاقل، ببيان أَنَّهُ مع عرائه عَن النفع بالمرَّة مستجلبٌ لضرر عظيم، فإنَّه فِي الحقيقة عبادةُ الشيطان». المصدر نفسه.

٤ - فِي الأصل: «استجهن»، وهو خطأ.

**﴿يا أبت إنِّي أخاف أن يَمسَّك عذاب مِنَ الرحمن﴾** فِي الدارين، **﴿فتكون للشيطان وليًّا(٤٥)﴾** قرينا [له في][1] اللعن؛ أو مِنَ العذاب تليه ويليك؛ أو ثابتا فِي موالاته، فإنَّه أكبر مِنَ العذاب؛ كما أنَّ رضوان الله أكبر مِنَ الثواب. ومن كَانَ للشيطان وليًّا فهو فِي [الـ]ـعذاب الأدنى لاَ مَحالة، ومن كَانَ فِي [الـ]ـعذاب الأدنى، كان في [الـ]ـعذاب الأكبر لاَ مَحالة، إلاَّ أن يتوب. وذكر الخوف والمس، وتنكير العذاب إمَّا للمجاملة، أو لخفاء العاقبة. ولعلَّ اقتصاره عَلَى عصيان الشيطان من جناياته لارتقاء همَّته فِي الربانيَّة، ولأنَّه ملاكها؛ أو لأَنَّهُ من حيث أنَّه نتيجة معاداته لآدم وذريَّته، فتنبه[2] عليها.

**﴿قَالَ: أراغب أنت عَن آلهتي يا إبراهيم﴾**؟ قابل استعطافه بالإرشاد، بالفظاظة وغلظة العناد، فناداه باسمه، و لم يقابل «يا أبت» بـ«يا بنيَّ»، وقدَّم الخبر عَلَى المبتدأ، وصدَّره بالهمزة لإنكار نفس الرغبة عَلَى ضربٍ مِنَ التعجُّب، كأنَّها مِمَّا لاَ يرغب عنها عاقل. ثُمَّ هدَّده فقال: **﴿لئن لم تنته﴾** عَن مقالك **﴿لأرجُمنَّك﴾** بالحجارة حتَّى تموت، **﴿واهجُرني مليًّا(٤٦)﴾** زمانا طويلاً[3] مِنَ الملاوة؛ أو مليًّا بالذهاب عني، استبدلَ[4] بنوَّته بالهجران، لأَنَّ قلبه تعذَّب بقربه؛ وهكذا المضاددة بين الأشخاص المتقاربين بالأنساب، تولَّد التباعد بَيْنَهُم؛ كما أنَّ الإسلام يُقرب بين الأباعد.

---

١ - إضافة من المصدر نفسه.

٢ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «فَنَبَّهَهُ».

٣ - في الأصل: + «يلا»، وهو تكرار.

٤ - في الأصل: «استبدال»، وهو خطأ.

﴿قَالَ سلام عليك﴾ توديع ومتاركة، ومقابلة للسَّيئة بالحسنة، أي: سَلِمت مني لاَ أصيبنَّك بمكروه، ولكن ﴿سأستغفر لك رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بي حَفِيًّا(٤٧)﴾ بليغا بالبر والألطاف.

﴿وأعتزلكم وَمَا تدعون من [٣٤٣] دون ا لله﴾ بالمهاجرة بديني، ﴿وأدعو رَبِّي﴾ وأعبده وحده ﴿عسى ألاَّ أكونَ بدعاء رَبِّي شقيًّا(٤٨)﴾ خائبا ضائع السعيِ مثلكم فِي دعاء آلهتكم. وفي تصدير الكلام بـ«عَسَى» للتّواضع، وهضم النفس، والتنبيه عَلَى أنَّ الإجابة والإنابة تَفضُّل غير واجب، وأنَّ مَلاَك الأمر خاتمته، وَهُوَ غيب.

﴿فَلَمَّا اعتزلهم وَمَا يعبدون من دون ا لله وهبنا لَهُ إسحاق ويعقوب﴾ بَدَلَ مَن فارقهم مِنَ الكفرة، لأَنَّهُ كُلُّ من استغنى عَن شيء لله فقد أغناه بسواه أفضل مِنْهُ، ﴿وكلاًّ جعلنا نبيًّا(٤٩)﴾ لأَنَّهُم أهل لها.

﴿ووهبنا لَهُم من رحمتنا﴾ قيل: مَا بَسط له مِن سعة الرزق؛ وقيل: الكتاب والنبوَّة، ﴿وجعلنا لَهُم لسانَ صِدْقٍ عَليًّا(٥٠)﴾ عَلـيًّا عَلَى لسان الكذب؛ وقيل: نبأً حسنا ورفيعا فِي كُل أهل الأديان.

﴿واذكر فِي الكتاب موسى إِنَّهُ كَانَ مُخلصا﴾ مُوَحدا، أخلص عبادته عَن الشرك والرياء؛ أو أسلم وجهه لله، وأخلص نفسه عمَّا سواه. وقرأ الكوفيُّون بالفتح؛ عَلَى أنَّ ا لله أخلصه، ﴿وكَانَ رسولا نبيًّا(٥١)﴾ مدحه ا لله عَلَى الرسالة والنبوَّة، وإن كَانَ جَعْلُهما مِنَ ا لله لَهُ، لأَنَّهُ لاَ يصطفي لهما إلاَّ المخلصين، وقد أرسله ا لله إِلَى الخلق فأنبأهم عَنْهُ؛ ولذلك قدَّم رسولا، مَعَ أنَّه أخصُّ وأعلى.

﴿وناديناه من جانب الطور الأيمن﴾ من ناحيته اليمنى مِنَ اليمين، وهي التِي تلي يمين موسى؛ أو مَن جانبه الميمون[1] مِنَ اليمن، ﴿وقرَّبْنَاه﴾ تقريب تشريف لا مكاني، بعدمَا تقرَّب مِنّا بالطاعة؛ شبَّهه بمن قرَّبه الملك لمناجاته، ﴿نجيًّا(٥٢)﴾ مُناجيا؛ ومعنى التقريب: إسماعه كلامه.

﴿ووهبنا لَهُ مِن رحمتنا﴾ من أجل رحمتنا؛ أو من بعض رحمتنا ﴿أخاه﴾ معاضدة أخيه ومؤازرته، إجابةً لدعوته، ﴿هارون نبيًّا(٥٣)﴾.

﴿واذكر فِي الكتاب إسماعيل إنَّهُ كَانَ صادق الوعد﴾ ذَكَره بذلك لأَنَّهُ المشهور بِهِ، والموصوف بأشياء فِي هَذَا الباب لم تُعهد من غيره؛ وناهيك أنَّه وعد [الصبر] عَلَى الذبح[2]، فقال: ﴿ستجدني إن شاء الله مِنَ الصابرين﴾[3]، ﴿وكَانَ رسولا نبيًّا(٥٤)﴾ مخبرا عَن الله تعالى.

﴿وكَانَ يَأْمُرُ أهله بالصلاة والزكاة﴾ اشتغالا بالأهم، وَهُوَ أن يُقبل الرجل عَلَى نفسه، فمن هُوَ أقرب الناس إِلَيْهِ بالتكميل. ﴿وكَانَ عند ربِّه مَرضِيًّا(٥٥)﴾ لاستقامة أقواله وأفعاله؛ وقيل: ارتضاه الله لرسالته.

﴿واذكر فِي الكتاب إدريسَ﴾ قيل: اشتقاق إدريس مِنَ الدرس؛ نَعَمْ، لاَ يبعد أن يكون معناه فِي تلك اللغة قريبا من ذَلِكَ، فَلُقِّب بِهِ لكثرة دَرسِه، إذ

---

١ - فِي الأصل: «اليمون» وَهُوَ خطأ. انظر: أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٥/ ص٢٧٠؛ الألوسي: روح المعاني، ١٦/١٠٣.

٢ - فِي الأصل: «وعد عَلَى المديح»، ولا مَعنَى له. وأثبتنا الصواب من: أبو السعود: المصدر نفسه.

٣ - سورة الصافات: ١٠٢.

رُوي أنَّه تعالى أنزل عليه ثلاثين صحيفـة. وقيـل: هُـوَ أَوَّل مـن خـطَّ بـالقلم، ونظر فيِ علم النجوم والحسـاب، ﴿إنَّـهُ كَـانَ صدِّيقـا نبيـًّا(٥٦) ورفعنـاه مكانا عَلِيـًّا(٥٧)﴾ يعني: شرف النبوَّة، والزلفى عند ا لله.

﴿أُولَـئِكَ﴾ إشـارة إِلىَ المذكوريـن فيِ السـورة مِـن زكريـا إِلىَ إدريـس. ﴿الذِينَ أنعم ا لله عليهم﴾ بأنواعِ النعم الدينيَّة والدُّنْـيَاوِيَّة، لأَنَّ من لم يتوصَّل بالنعم الدُّنْـيَاويـَّه إِلىَ النعمة الأخرويَّة فليست بنعمـة، لأَنـَّهُ لَمَّـا أن[1] كفرهـا كَانَت سببا لوقوعه فيِ العذاب، ومحال أن يكون مغضوبا عليه منعَما عليه، وَلاَ مُنعما عليه، مغضوبا عليه، هَذَا من تنافي المعاني؛ ولكنَّ النعم [٢٤٤] تصـير فيِ حق الكافر نِقَما، والضرَّاء فيِ حق المؤمن سرَّاء؛ فكَـانَ الإنسـان لاَ مَحالـ[ـة] إمـَّا مُنعَم عليه وَهُوَ المؤْمِن، وَإِمـَّا مغضوب عليه معذَّب، وَهُوَ مَن نَقَضَ جملتـه بمعصية، أو معاصي، وكلَّما كثرت النعم فيِ حـق المؤمـن كَـانَ زيـادة فيِ ثوابـه بشكره لها؛ وكلَّما كثرت النعم فيِ حق الكافر كَـانَ أشـدَّ وبـالا عليـه بسـبب كفرانه لها. ﴿مِن النبيـِّين من ذُرِّيـَّة آدم وممـَّن حملنا مَعَ نـوح، ومـن ذُرِّيـَّة إبراهيم وإسرائيل وممـَّن هدينا﴾ إِلىَ الإسلام ﴿واجتبينا﴾ عَلَى الأنـام؛ ﴿إِذَا تُتلى عَـلَيْـهِـم آيات الرحمنِ خرُّوا سُجَّدا﴾ منقـادين لله، ﴿وبُـكيـًّا(٥٨)﴾ خائفين من عذابه لبيان خشـيتهم مِـنَ ا لله وإخبـاتهم لَـهُ، مَـعَ مـالهم مـن عُلـو الطبقة فيِ كمال النفس، والزلفى مِنَ ا لله.

﴿فَخَلَفَ مِن بعدِهم خَلْفٌ﴾ فعقبهم، وجاء بعدهم عَقـب سـوء؛ يقـال: خَلَفُ صِدقٍ بـالفتح، وخَلْـف سوءٍ بالسـكون، ﴿أضـاعوا الصـلاة واتـَّبعوا

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: - «أن».

**الشهواتِ، فسوف يَلْقَوْن غيًّا(٥٩)﴾** شرًّا، قيل: وادٍ فِي جهنَّم تستعيذ أودية جهنَّم من حَره[1]. **﴿إلاَّ مَن تاب وآمن وعمل صالحا، فأولئك يدخلون الجَنَّة وَلاَ يُظلمون شَيْئًا(٦٠)﴾** لاَ يُنقصون من أجورهم شَيْئًا.

**﴿جنَّات عدن التِي وعدَ الرحمنُ عبادَه بالغيب﴾** أي: وعدها إيَّاهم وهي غائبة عَنْهُم لم يروها؛ أو وعدهم بإيمان الغيب. **﴿إنَّهُ كَانَ وعده مأتيًّا(٦١) لاَ يسمعون فِيهَا لغوا﴾** فضولَ كلام، **﴿إلاَّ سلاما﴾** ولكن يسمعون قولا يسلمون فِيهِ مِنَ العيب والنقيصة؛ أو لتسليم المَلاَئِكَة عَلَيْهِم السلام. **﴿ولهم رزقهم فِيهَا بكرةً وعَشيًّا(٦٢)﴾** وقيل المُرَاد: دوام الرزق ودُرُوره.

**﴿تلك الجَنَّة التِي نورث من عبادنا من كَانَ تقيًّا(٦٣)﴾** نورثهم إيَّاها بسبب تقواهم، **﴿وَمَا نتنزَّل إلاَّ بأمر رَبِّكَ﴾** حكاية قول جبريل حين استبطأه رسول الله لـمَّا سُئل عَن قِصَّة أهل الكهف، وذي القرنين، والروح، ولم يدر مَا يجيب، ورَجَى أن يوحَى إِلَيْهِ فِيهِ، فأبطأ حتَّى قَالَ المشركون: «ودَّعَه ربُّه وقلاه»، ثُمَّ نزل ببيان ذَلِكَ. والتنزُّل: النزول عَلَى مَهْل؛ والمعنى: وَمَا نتنزَّل إلاَّ بأمر الله عَلَى مَا تقتضيه حكمته.

**﴿لَهُ مَا بين أيدينا وَمَا خَلفَنا وَمَا بين ذَلِكَ﴾** وَهُوَ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الأماكن والأحايين، لاَ ننتقل من مكَانَ إِلَى مكان، ولاَ ننزل فِي زمان إلاَّ بأمره، ومشيئته. **﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسيًّا(٦٤)﴾** تاركا لك، أي: مَا كَانَ عدم النزول إلاَّ لعدم

---

١ - هنا وضع الناسخ إحالة إلى الحاشية و لم يكتب بها شيئًا.

الأمر بِهِ، و لم يكن ذَلِكَ عَن ترك لله لك، وتوديعه إيـّاك، كما زَعَمَت الكفرة، وإنّما كَانَ لحكمة أخّرها[1]. وقيل: أوّل الآيَة حكاية قول المتّقين حين يدخلون الجنّة، والمعنى: وَمَا تتنزّل الجنّة إلاّ بأمر ا لله.

﴿ربُّ السَّمَاوَات والأَرْض وَمَا بينهما﴾ بيان لامتناع النسيان عليه. ﴿فاعبده واصطبر لعبادته﴾، لأَنـّهَا لاَ تبلغ إلاّ بحبس النفس عَن الشهوات، ﴿هل تعلم لَهُ سميًّا(٦٥)﴾؟ مِثلا يستحقُّ أن يُسمَّى إلها، أو أحدا يُسمَّى ا لله، وإذا لم يصحّ أنّ أحدا مثله فلا يستحقُّ العبادة غيره؛ لم يكن بدٌّ مِنَ التسليم لأمره، والاشتغال بعبادته، والاصطبار عَلَى مشاقّها.

﴿ويقول الإنسان﴾ المـُرَاد به الجنسُ بأسره [٣٤٥] ﴿أئذا مَا مِتُّ لسوف أُخرَج حيًّا(٦٦)﴾ وذلك ثمرة عَدَم الإيمان بالموعود والشك فِيهِ، ﴿أَوَلاَ يذكرُ الإنسانُ أنـّا خلقناه مِن قبلُ ولم يَكُ شَيْئًا(٦٧)﴾ لأَنَّ تذكّره لذلك[2] يَنتج مِنْهُ الإيمان.

﴿فوربِّكَ لنحشرنـّهم والشياطينَ﴾ قيل: إنَّ الكفرة يُحشرون مَعَ قرنائهم مِنَ الشياطين الذِينَ أغوَوْهُم مَعَ كل[3] شيطانه فِي سلسلة؛ ﴿ثُمَّ لنحضرنّهم حولَ جَهَنَّم جثيًّا(٦٨)﴾ عَلَى رُكَبِهِم لِمَا يدهمهم مِن هول المطلع. ﴿ثمَّ لننزعنَّ من كُلِّ شيعة﴾ مِن كُل أمّة شاعت دينا ﴿أَيـُّهُم أشدُّ

١ - يمكن أن نقرأ: «أخبرها».

٢ - يمكن أن نقرأ: «بذلك»، والأصوب ما أثبتناه.

٣ - كذا في الأصل، والصواب: «كلٌّ معَ شيطانه».

**عَلَى الرحمن عِتيـًّا(٦٩)** من كَانَ أعصى؛ أو القادة فِي الضلالة. **﴿ثمَّ لنحـن أعلمُ بالذين هُم أولىَ بها صِليـًّا(٧٠)﴾** أحقُّ بها إحراقا.

**﴿وإن منكم إلاَّ واردها﴾** عَن أبي سعيد فيما أرجو، «وعن قول ا لله: ﴿وإن منكم إلاَّ واردها﴾، فقد قيل: إنَّه يوم القيامة؛ وقيل: الورود هاهنا المنظـر»؛ وَا للهُ أعلم بتأويل كتابه. **﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حتما مَّقضيـًّا(٧١)﴾** كَانَ ورودهم واجبا أوجبه ا لله عَلَى نفسه، فلا مُحال فِي وقوعه. **﴿ثمَّ ننجِّي الذِينَ اتَّقَوا﴾** فَيُساقون إلىَ الجنَّة، **﴿ونذرُ الظالمين فِيهَا جثيـًّا(٧٢)﴾** مُنهارةً بهم.

**﴿وإذا تتلى عَلَيْهِـم آياتنا بَيِّـنَات﴾** مرتَّلاتِ الألفـاظ، مبيـَّنات المعـاني بنفسها؛ أو ببيان الرسول؛ أو واضحات الإعجاز، **﴿قَالَ الذِينَ كَفرُوا للذيـن آمنـوا: أيُّ الفريقين خيرٌ مَّقاما﴾** موضع قيام، أو مكانا، **﴿وأحسنُ نديـًّا(٧٣)﴾** إمـدادا بِمَا خُولـوا؛ والمعنى: أنـَّهم لـمَّا سمعوا الآيات الواضحـات، وعجـزوا عَـن معارضتهـا والدخول عليها، أخذوا فِي الافتخار بِمَا لَهُم من حظـوظ الدُّنْـيَا، والاستدلال بزيـادة حظِّهم فيها، يدلُّ عَلَى فضلهِـم، وحُسن حالهم عند ا لله، لقصور نظرهم عَلَى الحـال، وعلمهم بظاهر مِنَ الحياة الدُّنْـيَا؛ وقولهم هَذَا لَهُم إمـَّا لَفظًا بلسان المقال، وَإِمـَّا معنـًى بلسان الحال؛ وذلك دأب الخليقة، لا يزال التفاخر بَيْنَـهُم بالمـال والأولاد والأزواج، وبقوة الأجسام، وثقابة الرأي، وغزارة العلوم، وكأنَّه يُخيـَّل إِلَيْهِم أنـَّهم أوتوا ما أوتوا من قِبَل ا لله بسبب استحقاقهم، أو بحيلتهـم وقوَّتهـم. ولذلـك قَـالَ مَن قَـالَ: ﴿إنـَّمَا أُوتيته عَلَى عِلم عندي﴾[1] وكلُّ ذَلِـكَ جهـل، وتخيـل مِـنَ الشيطان، و لم ينظـروا إلىَ

١ - سورة القصص: ٧٨.

قوله: ﴿وكم أهلكنا قبلهم مِن قرن هم أحسنُ أثاثا ورِئيًا(٧٤)﴾ سمّى أهل[1] كُل عصر قرنا، لأَنَّهُ يتقدَّم من بعدهم. والأثاث: متاع البيت. والرئيُ: المنظر، فِعل مِنَ الرؤية لِمَا يُرى؛ أو عَلَى أنَّه مِنَ الري الذِي هُوَ مِنَ النعمة؛ ثُمَّ بيَّن أنَّ تمتيعهم استدراج ليس بإكرام بقوله:

﴿قل: من كَانَ فِي الضلالة فلْيَمدُدْ لَهُ الرحمنُ مَدًّا﴾ فيمدُّه، ويُمهله بطول العمر والتمتُّع، ﴿حتىَّ إِذَا رأوا مَا يُوعدون إِمَّا العذاب﴾ يُحتمل عذاب الموت بضرب المَلاَئِكَة وجوههم وأدبارهم، كما أخبر ا لله عَنْهُم[2]. ولأنـَّهم يَتعذَّبون بفوات العاجلة، ويَقْدُمون عَلَى الآخِرَة مفاليس بضد المؤمنين، لأنـَّهُم يخرجون من سجنهم وخوفهم إِلىَ فضائهم وأمنهم ﴿وإمـَّا الساعة﴾ بقيامها عليهم، ﴿فسيعلمون﴾ عند ذَلِكَ، ﴿مَن هُوَ شرٌّ مَّكانا﴾ منزلةً أو منزلاً مِنَ الفريقين، بأن عاينوا الأمر عَلَى عكس مَا قدَّروه، وعاد مَا مُتِّعوا بِهِ خذلانا ووبالا عَلَيْهِم ﴿وأضعفُ جُندا(٧٥)﴾ أي: فئة وأنصارا، قابل بِهِ ﴿أحسنُ [٣٤٦] نَدِيًّا﴾، من حيث أنَّ حسن النادي باجتماع وجوه القوم وأعيانهم، وظهور شوكتهم واستظهارهم.

﴿ويزيد ا لله الذِينَ اهتدوا﴾ اهتداء، بمعنى: "افتعل" مِنَ الهداية ﴿هدى﴾ عطف عَلَى الشرطيـَّة المحكية[3] بعد القول؛ كأنـَّه لـمَّا بيـَّن أنَّ إمهال الكافر

---

١ - فِي الأصل: «هل»، وهو خطأ.

٢ - وذلك فِي قوله تعالى: ﴿ولو تَرَى إذ يَتَوفَّى الذين كفروا الملائكةُ يضربون وجوهَهم وأدبارَهم وذوقوا عذاب الحريق﴾. سورة الأنفال: ٥٠.

٣ - فِي الأصل: «المحكمية»، وهو خطأ. انظر: أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٥/ ص٢٧٨.

وتمتيعه بالحياة الدُّنْـيَا ليس لفضله، أَرَادَ أن يبين أنَّ قصور حظِّ المؤمن منها ليس لنقصه، بَل لأَنَّ الله أَرَادَ بِهِ مَا هُوَ خير، وعوَّضه مِنْهُ. ﴿**والباقيات الصالحاتُ**﴾ الطاعات التِي تبقى عائدتها أبدَ الآباد ﴿**خير عند ربِّكَ ثوابا**﴾ عائدة مِمَّا متَّع الله بِهِ الكفرة مِنَ النعم المخدجة الفانية، التِي يفتخرون بها، سيما ومآلها النعيم المقيم، ومآلُ هَذِهِ: الحسرةُ والعذابُ الدائمُ، كما أشار إِلَيْهِ بقوله: ﴿**وخير مردًّا(٧٦)**﴾.

﴿أفرأيت الذِي كفر بآيَاتِنا وقال: لأُوتَيَنَّ مالا وولدا(٧٧) أطَّلع الغيبَ أم اتَّخَذَ عند الرحمن عهدا(٧٨) كلاَّ﴾ ردع وتنبيه عَلَى أنَّه مُخطئ فيما صوَّرَه لنفسه، ﴿سنكتبُ مَا يقول﴾ سنُظهِر لَهُ أنَّا كتبنا قوله، ﴿ونَمُدُّ لَهُ مِنَ العذاب مدًّا(٧٩)﴾ يحتمل أنَّه يُؤتَى مالا وولدا يُعذَّب بهما مَا دام عاصيا إِلَى أن يموت إِذَا لم يتب، كما قَالَ: ﴿فلا تُعجبك أموالهم وَلاَ أولادهم...﴾[1] الآية؛ ويدلُّ عَلَى ذَلِكَ قوله:

﴿**ونرثه مَا يقول**﴾ يعني: المال والولد، لأَنَّهُ لم يُرِد بِهِ الله؛ ويحتمل ﴿نمدُّ لَهُ مِنَ العذاب مَدًّا﴾ أي: نزيده عذابا فوق عذابه، ﴿**ويأتينا فردا(٨٠)**﴾ لاَ يصحبه مال وَلاَ ولد، بإهلاكنا إيَّاه، وإبطال ملكه. وقوله: ﴿مَا نقول﴾ لأَنَّهُ زَعَم أنَّ لَهُ مالاً وولدًا، أي: لاَ يعطيه إيَّاه، ويعطيه غيره، فيكون الإرث (لعلَّه)

١ - سورة التوبة: ٥٥؛ وتمامها: ﴿فلا تُعجبك أموالهم وَلاَ أولادهم، إِنَّمَا يريد الله ليعذبهم بها فِي الحياة الدُّنْـيَا، وتَزهَقَ أنفسهم وَهُم كَافِرُونَ﴾

راحل[1] إِلىَ مَا يجب القول، لاَ إِلىَ نفس القول؛ وقيل: معنى قوله: ﴿ونرثُه مَا يقول﴾ أي: نَحفظ مَا يقول، حتَّى نُجازيه بِهِ.

﴿**واتَّخَذوا مِن دون ا لله آلهةً ليكونوا لَهُم عِـزًّا(٨١)**﴾ ليتعـزَّزوا بهـم. ﴿**كلاَّ**﴾ ردع وإنكار لتعزُّزهم بها، ﴿**سيكفرون بعبـادتهم**﴾ ستَجحَد الآلهـة عبادتَـهم، ﴿**ويكونـون عَلَيْهِـم ضِـدًّا(٨٢)**﴾ لأَنَّ أعمـالهم الدُّنْـيَويَّة لمـَّا كَانَت لغير ا لله تكون عَلَيْهِـم حسرة.

﴿**ألم ترَ أنـَّا أرسلنا الشياطينَ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ بـأَنَّ سلطانهم [كَـذَا] عليهم باتباعهم لهم، ﴿وقيَّضنا لَهُم قُرناء﴾[2]. ﴿**تَؤُزُّهم أزًّا(٨٣)**﴾ تَهزُّهـم، وتغريهم عَلَى المعاصي بالتسويلات، وتَحبيب الشهوات. والمراد: تعجيب رسول ا للهﷺ من أقاويل الكفرة، وتماديهم فِي الغي، وتصميمهـم عَلَى الكفـر بعد وضوح الحق، عَلَى مَا نطقت بِهِ الآيات المتقدمة.

﴿**فلا تعجلْ عَلَيْهِـم إِنـَّمَا نَعدُّ لَهُم**﴾ أيَّام آجالهم ﴿**عدًّا(٨٤)**﴾ والمعنـى: لاَ تعجل بهلاكهم، فإنـَّه لم يبق لَهُم إلاَّ أيـَّام محصورة، وأنفاس معدودة، ليتوصَّلـوا بها إِلىَ دركتهم التِي خُلِقت لَهُم وخُلِقوا لها، وَهُوَ يسعى إِلَيْهِا طائرا.

﴿**يوم نَحشرُ المتَّقِينَ[3] إِلىَ الرحمـن وفـدا(٨٥)**﴾ أي: جماعـات وافديـن عَلَيه، كما تـفد الوفاد[4] عَلَى الملوك منتظرين لكرامتهم وإنعامهم. ﴿**ونسوق**

---

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «راجع»، ومع ذلك فالعبارة غير واضحة.

٢ - سورة فصِّلت: ٢٥.

٣ - فِي الأصل: «يوم نحشرهم إِلىَ الرحمن...»، وهو خطأ.

٤ - كذا فِي الأصل، و لم نجد هَذَا الجمع، ولعلَّ الصـواب: «الأوفـاد». قـال فِي القـاموس: «وهـم =

**المجرمين﴾** كَمَا تُساق البهائم **﴿إِلَى جَهَنَّم وِردًا(٨٦)﴾** عِطاشا، فإنَّ مَن يَرِد الماء لاَ يَرِدُه إلاَّ لعطش. **﴿لاَ يملكون الشفاعةَ﴾** الضمير فِيهَا للعباد المدلول عليها[1] بذكر القسمين، **﴿إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عند الرحمن عهدا(٨٧)﴾** إِلاَّ مَن تحلَّى بما يَستعدُّ بِهِ، وَهُوَ كلمة التوحيد بكمال شروطها.

**﴿وَقَالُوا:** [٣٤٧] **اتَّخَذَ الرحمن ولدا(٨٨) لَقَد جئتم شَيْئًا إِدًّا﴾** عَلَى الالتفات للمبالغة فِي الذم، والتسجيل عَلَيْهِم بالجرأة عَلَى ا للهِ؛ والإِدُّ: العظيم المنكَر؛ **﴿تكاد السَّمَاوَات يتفطَّرن مِنْهُ﴾** يتشقَّقن مرَّة بعد أخرى، **﴿وتنشقُّ الأَرْض وتخرُّ الجبال هدًّا(٩٠)﴾** تهدُّ هدًّا؛ وَهُوَ تقرير لكونه إدًّا؛ والمعنى: أنَّ هول هَذِهِ الكلمة وعِظَمها بحيث لو يُتَصوَّر بصورة مَحسوسة، لَم تتحمَّلها هَذِهِ الأجرام العظام، وتفتَّتت[2] مِن شدَّتها؛ أو إنَّ فَضَاعتها مُحِلَّة لغضب ا للهِ، بحيث لولا حِلمُه لخَرَّب العالم، وبَدَّد قوائمَه غضبا عَلَى مَن تَفَوَّه بها. **﴿أن دَعَوا للرَّحمن ولدا(٩١)﴾** قَالَ ابن عبَّاس: «فزعت السَّمَاوَات والأَرْض والجبال وجميع الخلائق إلاَّ الثقلين، فكادت أن تزول؛ وغضبت المَلاَئِكَة، واستعَرَت جهنَّم حين قَالُوا: "للهِ ولد"».

---

=

وفود، ووفْد، وأوفاد، ووُفَّد». وفي اللسان: «قيل الوفد: الركبان المكرَّمون... وهم الوفد والوفود، فأمَّا الوفد فاسم جمع، وَقِيلَ: جمع، وَأَمَّا الوفود فجمع وافد». الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ص ٢٩٥. ابن منظور: لسان العرب، ٩٥٧/٦، مادَّة وفد.

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «عليهم».

٢ - في الأصل: «وتفتت»، وَهُوَ خطأ.

ثُمَّ نفى عَن نفسه الولد فقال: ﴿وَمَا ينبغي للرحمن أن يتَّخذَ ولـدا(٩٢)﴾ وَلاَ يليق بِهِ اتـخَاذ الولد. ولعلَّ ترتيب الحكم بصفة الرحمانيَّة للإشعار بأنَّ كُلَّ مَا عداه نعمة، ومنعَم عليه؛ فـلا يتجـانس مـن هُـوَ مبـدأ النعـم كلِّهـا، ومـولى أصولها وفروعها؛ فكيف يمكن أن يتَّخذ ولدا، ثُمَّ صرَّح بِهِ فِي قوله:

﴿إن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَات والأَرْض﴾ أي: وَمَا مِنْهُم ﴿إلاَّ آتي الرحمنِ عبدا(٩٣)﴾ إلاَّ وَهُوَ مَملـوك لَـهُ، يـأوي إِلَيْـهِ بالعبوديـَّة والانقيـاد. ﴿لَقَـد أحصـاهم﴾ حَصَرَهـم، أو أحـاط بهـم بحيـث لاَ يخرجـون عَـن حـوزة عِلمـه، وقبضة قدرته، ﴿وعدَّهم عدًّا(٩٤)﴾ عدَّ أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم، فإنَّ كُلَّ شيء عنده بِمقدار. ﴿وكلُّهم آتيه يوم القيامة فردا(٩٥)﴾ منفـردًا عَـن الأتباع والأنصار، وعن الدُّنْـيَا وَمَا فِيهَا.

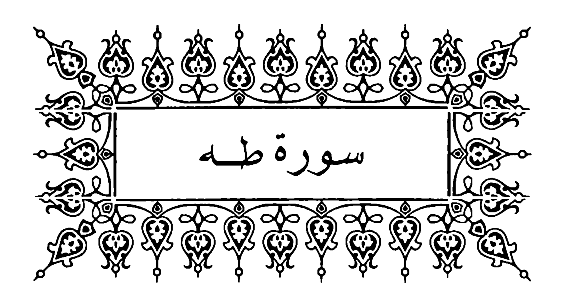
﴿إنَّ الذِينَ آمنوا وعملوا الصالحـات سيجعلُ لَهُـمُ الرحمـن وُدًّا(٩٦)﴾ سَيُحدث لَهُم فِي القلوب مودَّة، مِن غَيْرِ تعريض مِنْهُم لأسبابها؛ وقيـل: مَـا أقبـل عبد بقلبه إِلَى ا لله إلاَّ أقبل ا لله بقلوب أهل الإيمان إِلَيْـهِ، حتَّى يرزقه مودَّتهم.

﴿فإنَّـما يسَّـرناه بلسـانك﴾ بـأن أنزلنـاه بِلُغَتـك ﴿لتُبشِّـر بِـهِ المُـتَّـقِينَ، وتُنذر بِهِ قوما لُدًّا(٩٧)﴾ أشدَّاء الخصومة.

﴿وكـم أهلكنـا قَبلهـم مِـن قـرن﴾ تخويـفٌ للكفـرة، وتَجسـير للرســول عَلَـى إنذارهم، ﴿هل تُحِسُّ مِنْهُم مِن أحد﴾؟ هل تَشعر بأحدٍ مِنْهُم أو تَراه؟ ﴿أو تَسـمع لَهُم رِكزًا﴾ الركز: الصوت الخفيُّ؛ هل ترى مِنْهُم مِن أحد، أو تسمع لَهُم[1] صوتا.

---

١ - فِي الأصل: + «لهم»، وهو خطأ.



# سورة طـه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طه(١)﴾ قيل: معناه يا رجل؛ وقيل: أمرٌ للرّسول بـأن يطـأ أرض مكّـة بقدميه. ﴿مَا أنزلنا عليك القرآن لتشقى(٢)﴾ قيل: مَا أنزلنا عليك القرآن[1] لتتعب بفرط تَأسُّفك عَلَى كُفر مَن كَفَر إذ مَا عليك إلاّ البلاغ. ﴿إلاّ تذكـرةً لِمَن يَخشى(٣)﴾ لِمَن فِي قلبه خشيةٌ ورقّةٌ يتأثّر بـالإنذار؛ وقيـل: لـمَّا رأى المشركون اجتهاد رسولِ الله فِي العبادة، قَـالُوا: مَـا أُنـزِل عليـكَ القـرآن [إلاّ] لشقائِك، نزلـت: ﴿مَـا أنزلنـا عليـك القـرآن لتشـقى﴾ أي: لتشـقى وتتعـب؛ وأصل الشقاء فِي اللغة: العناء. ﴿إلاّ تذكـرةً لِمَـن يَخشـى﴾ أي: لكـن أنزلنـاه عِظةً لِمَن يخشى.

﴿تنزيلا مِمَّن خلقَ الأَرْضَ والسماواتِ العُلَى(٤)﴾ مَا بعده إِلَى قولـه: ﴿لَهُ الأسماء الحسنى﴾ تفخيم لشأن المنزَّل، بغرضِ تعظيم المنزل، بذكر [٣٤٨] أفعالـه وصفاتـه عَلَى الـترتيب الـذِي هُـوَ عنـد العقـل، فبـدأ بِخلـقِ الأَرْض والسماوات التِـي هِيَ أصول العـالم؛ وقـدَّم الأَرْض، لأَنـَّهَا أقـرب إِلَى الحس، وأظهر عنده مِنَ السماوات العلى.

---

١ - في الأصل: «القرن»، وهو خطأ.

ثُمَّ أشار إِلىَ وجه إحداث الكائنات، وتدبير أمرها بأن قصد العرش، فأجرى مِنْهُ الأحكام والمقادير، وأنزل مِنْهُ الأسباب عَلَى ترتيبٍ ومقادير حسب مَا اقتضته حكمته، وتعلّقت بِهِ مشيئته، فقال: ﴿الرحمـنُ عَلَى العرش استوى(٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْض وَمَا بينهما وَمَا تحت الثرى(٦)﴾ ليدلَّ بذلك عَلَى كمال قدرته وإرادته، وَلَـمَّا كَانَت القدرةُ تابعة للإرداة، وهي لاَ تنفكُّ عَن العلم عَقَّب ذَلِكَ بإحاطة علمه تعالى، بِجَلِيَّات الأمور وخفيَّاتها[1] عَلَى سواء، فقال:

﴿وإن تَجهرْ بالقول فَإِنَّهُ يعلم السرَّ وأخفى(٧)﴾ السرُّ: مَا أَكنَّته الصدور؛ وأخفى مِنَ السر مَا سَتُكِنُّه بعد، و لم تكن أكنَّته؛ وفيه تنبيه عَلَى أنَّ شرع الذكر والدعاء، والجهر فيما[2] ليس لإعلام ا لله، بَل لتصوير[3] النفس بالذكر، ورسوخه فِيهَا، ومَنعها عَن اشتغال بغيره، [و]هضمها بالتضرُّع والجُؤَار[4].

ثُمَّ لـمَّا ظهر بذلك أنَّه المستجمع لصفات الألوهيَّة، بيَّن أنَّه المنفرد بها، والمتوحد بِمتقضاها، فقال: ﴿ا لله لاَ إله إلاَّ هُوَ لَهُ الأسماء الحسنى(٨)﴾ تفخيم المنزل مِن وَجهين: إسناد إنزاله إِلىَ ضمير الوَاحِد العظيم الشأن، ونسبته

---

١ - هكذا كتب الناسخ، ثُمَّ شطَّب عليه وكتب: «وخفائها». ويبدو أنَّ الصواب ما أثبتناه.

٢ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «فيهما».

٣ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «لتضوير»، من التضوُّر، وَهُوَ «التلوي والصياح من وجع الضرب أو الجوع»، أي لَعَلَّهُ يقصد إذلال النفس وقهرها. راجع: ابن منظور: لسان العرب، ٣/٥٥٦.

٤ - «جأر يجأر جأْرًا وجُؤارا: رفع صوته مع تضرُّع واستغاثة». ابن منظور: لسان العرب، ١/٣٩٠.

إِلَى المختص بصفات الجلال والإكرام، والتنبيه عَلَى أنَّه واجب الإيمان بِهِ، والانقياد لَهُ مِن حيث أنَّه كلامٌ مَن هَذَا شأنُه. والثرى: الطبقة الترابيَّة، وهي آخر مَا تَحت طبقتها. والحسنى: تأنيث لأحسن، وفَضلُ أسماء ا لله تعالى عَلَى سائر الأسماء فِي الحسن، لدلالتها عَلَى معان هِيَ أشرف المعاني وأفضلها.

﴿وهَل أتاك حديث موسى(٩)﴾؟ قفا[1] تمهيد نبوَّته عليه السلام قصَّة موسى ليؤتمَّ بِهِ فِي تحمُّل أعباء النبوَّة، وتبليغ الرسالة، والصبر عَلَى مقاساة الشدائد؛ فإنَّ هَذِهِ السورة مِن أوائل مَا نزل.

﴿إذ رأى نارا فقال لأهله: امكثوا إِنِّي آنست نارا لعلِّي آتيكم منها بقبس أو أَجِدُ عَلَى النار هُدى(١٠)﴾ هاديا يَدلُّني عَلَى الطريقِ أو يَهديني أبواب الدين؛ فإنَّ أفكار الأبرار مائلة إِلَيْهِا فِي كُل مَا يَعِنُّ لَهُم.

﴿فَلَمَّا أتاها نُودِيَ: يا موسى(١١) إِنِّي أنا رَبُّكَ﴾ قيل: إِنَّهُ لـمَّا نُودي قَالَ مَنِ المتكلِّم؟ قَالَ: إِني أنا ا لله، فوسوس إِلَيْهِ إبليس، لعلَّك تسمع كلام شيطان، فقال: عرفت أنَّه كلام[2]، وَهُوَ إشارة إِلَى أنَّه عليه السلام تلقَّى ربَّه كلامه[3] تلقيًا

١ - كذا فِي الأصل، وَفِي الكشَّاف: «قفَّاه بقصَّة موسى عليه السلام ليتأسَّى به فِي تحمُّل أعباء النبوَّة» الزمخشري: الكشَّاف، ٣/٤٠.

٢ - كذا فِي الأصل، والعبارة غير كاملة، وَفِي الكشاف: «لعلَّك تسمع كلام شيطان، فقال: أنا عرفت أنَّه كلام ا لله بأني أسمعه من جميع جهاتي الست، وأسمعه بجميع أعضائي». الزمخشري: الكشَّاف، ٣/٤٢؛ أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص.

٣ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «تلقَّى كلام ربه». وَفِي تفسير أبي السعود: «وقيل: تلقَّى عليه الصلاة والسلام كلام رَب العِزَّة تلقيا روحانيًّا...»، أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص٧.

روحيًّا، ثُمَّ تمثَّل ذَلِكَ الكلام لبدنه، وانتقل إِلَى الحس المشترك، فانتقش بِهِ مِن غير اختصاص بعُضوٍ وجهةٍ؛ وكلُّ إلهام أُلهم المخلوقُ أتاه مِن قِبَل ا لله تشهد لَهُ أنوار الحجج أنَّه مِن عند ا لله فاتَّبعه؛ والشيطان يُلقي إِلَيْهِ أنَّه مِن إبليس فلا تتَّبعه[1].

﴿فاخلع نعليك﴾ أمره بذلك، لأَنَّ الحَفوة تواضع وأدب، ولذلك طاف السلف حافين؛ وقيل: لنجاسة نعليه، وقيل: معناه فَرِّغ قلبك مِنَ الأهل والمال؛ أو للاستقرار والمكث بالبقعة المباركة، ليكون أحضر لقلبه لِتَلَقِّي وحي ربه. ﴿إنَّك بالوادي المقدَّس﴾ المطهَّر من حضور الشياطين، ﴿طُوًى(١٢)﴾ [٣٤٩] بالضم، وبكسر وتنوين؛ واد بالشام عَلَى مَا يوجد طوى[2].

﴿وأنا اخترتك﴾ اصطفيتك للنبوَّة عَلَى عِلم بأحوالك، عَلَى عالَمي أهل زمانك؛ وينبغي لكل إمام[3] استولى عَلَى بلد، أن يَختار لها الأفضل مِنَ الناس يُوليه أمر العبادِ والبلادِ، ليُنزل كلاًّ مِنَ الناس منزلَتَه. ﴿فاستمِعْ لِمَا يُوحَى(١٣)﴾ لأَنَّهُ واجب استماع الوحي، مَا كَانَ مِنَ الوحي بإلهام أو غيره، لأَنَّ قَبولَه عَلَى كُل متعبد.

﴿إنَّنِي أنا ا لله لاَ إله إلاَّ أنا، فاعبدني﴾ دالٌّ عَلَى أنَّه مقصور عَلَى تقرير التوحيد الذِي هُوَ مُنتهى العلم، والأمر بالعبادة التِي هِيَ كمال العمل. ﴿وأَقِم

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ صواب العبارة: «وإن كان الشيطان يُلقي إِلَيْهِ أنَّه مِن إبليس فلا يتَّبعه» بضمير الغائب.

٢ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «اسمه: طُوى».

٣ - في الأصل: «الإمام»، وهو خطأ.

**الصلاة لِذِكرِي(١٤)﴾** خَصَّها بالذكر وأفردها بالأمر للعلّـة التِـي أناطَ بهـا إقامتها، وهي تذكُّر المعبودِ، وشَغلُ القلب واللسان بذكره؛ وَقِيلَ: ﴿لذكري﴾ لأنـي ذكرتهـا في الكتـب، وأمـرت بهـا؛ أو لأنْ أذكـرك بالثنـاء؛ أو لذكـري خاصَّة لاَ ترائي بها غيري، ولا تشوبها بذكر غيري؛ وقيل: لأوقات ذكـري، وهي مواقيت الصلاة؛ أو لذكر صلاتي. لـمَّا روي أنـّه عَلَيْهِ السَّلام قَالَ: «*مـن نـام عَـن صـلاة أو نَسـيها فليقضهـا إِذَا ذَكَرهـا*»[1]. إِنَّ الله تعـالى يقـول: ﴿وأقـم الصلاة لذكري﴾.

﴿**إنَّ السـاعَةَ آتيـةٌ**﴾ كائنـة لاَ مَحالـة، ﴿**أكـادُ أُخفـيها**﴾ أريـدُ إخفـاءَ وقـتها، أو أُخـفيها فِي قـلوب الأعداء، فلا يُـؤمنوا بإتـيانـها؛ ﴿**لِـتُجزى كُـلُّ نفسٍ بِمَا تَسعى(١٥)**﴾ متعلّق بـ: «آتيةٌ» أو «أُخفيها» عَلَـى المعنـى الأَخِـير. ﴿**فلا يَصُدَّنَّك عنها**﴾ عَن تصديـق السـاعة، أو عَـن الصـلاة ﴿**مَـن لاَ يُؤْمِـنُ بها**﴾ المُرَاد: نهيه الانصداد عنها، تنبيهـا عَلَـى أنَّ فطرتـه السـليمة لـو خُلـيت بحالها لاختارها، و لم يعرض عنها؛ وأنّـه ينبغي أن يكون راسـخا فِي دينـه؛ فـإنَّ صَدَّ الكفَّار إِنَّـمَا يكون بسـبب ضعفـه أو مـرضٍ فِيـهِ. ﴿**واتَّـبَعَ هـواه**﴾ ميَّـل نفسـه إِلَى اللــذَّات المحسوسـة المخدجـة، فقصـر نظـره عَـن غيرهـا، ﴿**فَتَرْدَى(١٦)**﴾ فتهلك بالانصداد بصده؛ والهلك: الهويُّ مَا بين كل شَيئين.

---

١ - رواه الإمام الربيع بن حبيب عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد قال: بلغني عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ نَسِيَ صَلاَةً أَوْ نَامَ عَنْهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا». كتاب الصلاة ووجوبهـا، باب [٢٨] في أوقات الصلاة، حديث رقم ١٨٤.

قال الربيع: وذلك في حيـن تجب عليه فيه الصلاة.

﴿وَمَا تِلك﴾ استفهام يتضمَّن استيقاظا لِمَا يُريه فِيهَا مِنَ العجائب. ﴿بيمينك يا موسى(١٧)﴾؟ تكرير لزيادة الاستئناس والتنبيه. ﴿قَالَ: هِيَ عصايَ أتوكَّأ عليها﴾ اعتمد عليها إذَا عييت، ﴿وأهشُّ بها عَلَى غنمي﴾ وأخبط بها الورق عَلَى رُؤوس غنمي، ﴿وَلِي فِيهَا مآرب أُخْرَى(١٨)﴾ حاجات أخر؛ وكأنَّه الطَّيْلا فَهِم أنَّ المقصود مِنَ السؤال أن يتذكَّر حقيقتها، وَمَا يرى من منافعها. وفيه تنبيه عَلَى أنَّ المؤمن لاَ ينبغي لَهُ أن يستعمل شَيْـئًا لاَ معنى لَهُ، وَلاَ يشتغل بِهِ، وأنَّه مسؤول عمَّا يتَّخذه، كما سئل موسى عَن عصاه، فكَانَ مِن جوابه مَا كَانَ.

﴿قَالَ: أَلقِها يا موسى(١٩) فألقاها فإذا هِيَ حيَّة تسعى(٢٠)﴾ تَمشي بسرعة عَلَى بطنها؛ قيل: لـمَّا ألقاها انقلبت حيَّة صفراء بغلظ العصا؛ ثُمَّ تورَّمت وعظمت، فلذلك سَمَّاها جانًّا تارة نظرًا[1] إلَى المبدإ، وثعبانا مرَّة باعتبار المنتهَى، وحيَّة أُخْرَى بالاسم الذِي يَعمُّ الحالين. قيل: كَانَت فِي ضخامة الثعبان، وجلادة الجان، ولذلك قَالَ: ﴿كأنَّها جانٌّ﴾[2]. ﴿قَالَ خُذها وَلاَ تَخَفْ﴾ فإنَّه لـمَّا رآها حيَّة تُسرع خاف وهرب. وقيل: كَانَ بين لِحييها أربعون ذِراعا، ففزعَ موسى منها. ﴿سنعيدها سِيرَتَها الأولى(٢١)﴾ هيأتها[3] وحالتها المتقدمة.

١ - فِي الأصل: «نظر»، وهو خطأ.

٢ - سورة النمل: ١٠؛ وسورة القصص: ٣١.

٣ - فِي الأصل: «هيتها»، وهو خطأ.

﴿واضمم يدك إِلَى جَناحِك﴾ [٣٥٠] أي: جَنبك تَحت العضد، ﴿تَخرجْ بيضاءَ مِن غير سوء﴾ مِن غير عاهة، ﴿آية أُخْرَى(٢٢)﴾ مُعجزة أُخْرَى. ﴿لِنُرِيَكَ مِن آياتنا الكبرى(٢٣)﴾ ليزداد قلبك اطمئنانيَّة. ﴿اذهب إِلَى فرعون﴾ بهاتين الآيتين، وادعُه إِلَى توحيدي وعبادتي. ﴿إِنَّهُ طَغى(٢٤)﴾ بشركي، وعبادة خلقي.

﴿قَالَ: رَبِّ اشرح لي صدري(٢٥)﴾ للإسلام، ووسعه للحق، ﴿ويسِّر لي أمري(٢٦)﴾ للطاعة، لَمَّا أمره الله بِخَطب عظيم، وأمرٍ جَسيم، سأله أن يشرح صدره، ويَفسح قلبه لتحمُّل أعبائه، والصبر عَلَى مشاقه؛ والتلقِّي لِمَا تنزَّل عليه، ويُسهل الأمر عليه بإحداث الأسباب، ورفع الموانع. ﴿واحلُلْ عُقدَةً مِن لِساني(٢٧) يَفقَهوا قولي(٢٨)﴾ فأحسنُ التبليغَ مِنَ البليغ؛ قيل: ﴿واحلل عُقدةً مِن لساني﴾ تَمنع الإفهام، ولذلك نَكَّرها؛ وقيل: غير ذَلِكَ.

﴿واجعل لي وزيرا مِن أهلي(٢٩) هارونَ أخي(٣٠)﴾ يُعِينُني عَلَى مَا كلَّفتني بِهِ. ﴿اشدُدْ بِهِ أَزرِي(٣١)﴾ الأزرُ: القوَّة والضعف، ضدٌّ، والتقويةُ والظهرُ[1]. ﴿وأَشركه فِي أمري(٣٢)﴾ لإصلاح الخلق، ﴿كي نُسَبِّحَك كثيرا(٣٣) ونَذكُرَك كثيرا(٣٤)﴾ فإن التعاون يُهيج الرغبات، ويُؤدي إِلَى تكاثر الخير وتزايده، ﴿إِنَّك كنتَ بنا بصيرا(٣٥)﴾ عالما بأحوالنا؛ وأنَّ التعاون مِمَّا يُصلحنا، وأنَّ هارون نِعمَ المعين لي فيما أمرتني بِهِ؛ وإذا ارتفعت الأهوية مِنَ الشخصين، انضمَّ المطلوب منهما إِلَى توحيد الله وعبادته؛ ولذلك

١ - انظر: الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ص ٣٠٩، مادَّة: «أزر».

قلّت الموافقة بين الأشخاص لِمَا فِي القلوب مِنَ المرض. وائتلافُ القلوب عَلَى قَدرِ الموافقة منها ومقاربتها فِي الطباع.

**﴿قَالَ قد[1] أوتيت سُؤلَك يا موسى(٣٦)﴾** أي: مَسؤولك، **﴿وَلَقَد مَنَنَّا عليك مرَّة أُخْرَى(٣٧)﴾** يُذكِّرُه إن كَانَ ناسيا، وينبهه إن كَانَ غافلا، ويُعلمه إن كَانَ جاهلا، أنَّهُ أنعم عليه فِي وقت آخر بقوله:

**﴿إذ أوحينا إِلَى أُمِّك﴾** بإلهام، أو فِي منام، أو عَلَى لسان نبيٍّ فِي وقتها؛ أو مَلَك لاَ عَلَى وَجهِ النبوَّة، **﴿مَا يُوحى(٣٨)﴾** مَا [لاَ] يُعلم إلاَّ بالوحي؛ أو مِمَّا ينبغي أن يُوحى وَلاَ يُترك لِعِظَم شأنه لِمَا فِيهِ مِنَ الحكمة، وأنَّه كائن لاَ محالة. **﴿أَن اقذِفيه فِي التَّابوت فاقذِفِيه فِي اليمِّ﴾** القذف: يُقال (لَعَلَّهُ) للإلقاء. **﴿فَليُلقِه اليمُّ بالساحل﴾** لَمَّا كَانَ إلقاء البحر إيَّاه عَلَى الساحل أمرا واجبَ الحصول ـ لتعلُّقِ الإرداة بِهِ ـ جَعَل البحر كأنَّه ذو تَمييز مُطيع أمره بذلك، وأخرج الجواب مَخرج الأمر؛ والأَولىَ أن يَجعل الضمائر كلَّها لموسى مراعاة للنَّظم؛ والمقذوف فِي البحر، والمُلقى إِلَى الساحل، وإن كَانَ التابوت بالذات، فموسى بالعرض. **﴿يَأخذه عدوٌّ لِي وعدوٌّ لَهُ﴾** قيل: إنَّها جَعَلَت فِي التابوت قُطْنًا، ووضعته فِيهِ، ثُمَّ قَيَّرته[2]، وألقته فِي اليم خِفيَة مِن فرعون وآله؛ وكَانَ يشرع إِلَى بستان فرعون نهر، فرفعه الماء إِلَيْهِ، فأدَّاه إلى بركة فِي البستان، وكَانَ

---

١ - فِي الأصل: «لقد» وهو خطأ.

٢ - فِي المنجد: «قَيَّر الشيء: طلاه بالقارِ. القار والقير: مادَّة سوداء تطلى بها السفن والإبل وغيرها، وَقِيلَ: هو الزفت». ص: ٦٦٥. مادَّة: قَيَرَ.

فرعون جالسا عَلَى رأسها مَعَ امرأته آسية بنت مُزاحم؛ فأمر بـهِ، فـأُخرِج، فَفُتِـح، فإذا فيهِ صبيٌّ أصبَحُ الناسِ وجها، فأحبَّه حُبًّا شديدا، كما قَالَ:

﴿وَأَلقيتُ عليك مَحبَّة مِنِّي﴾ أي: مَحبَّة كافيَة منـي، قـد زرعتهـا فِي القلوب، بحيث لاَ يكاد يصبر عنك مَن رآك؛ فلذلك أحبَّك فرعـون. ويجـوز أن يتعلَّق «منـي» بـ«ألقيـت» أي: أحببتُـك، ومَـن أحـبَّه الله [٣٥١] أحبـَّته القلوب؛ وظاهر اللفظ أنَّ اليمَّ ألقاه بساحله وَهُوَ شاطئه، لأَنَّ الماء يَسـحله[1]، فالتقطه مِنْهُ. ﴿ولِتُصنَعَ عَلَى عَينِـيَ(٣٩)﴾ ولِتُربَّـي بكلاءتي، أي: وليكـون عملك عَلَى عَينٍ منـي، لئلاَّ تُخالَف بِهِ عَن أمري.

﴿إذ تَمشي أُختك فتقول: هل أدلُّكم عَلَى مَن يكفُلُه﴾ وذلـك أنـَّه لاَ يقبل ثديَ المراضع؛ فجاءت أخته متفحِصَّة خبره، فصادفتهم يَطلبون لَهُ مُرضعةً يَقبَل ثديَها؛ فقالت: هل أدلُّكم...؟ فجاءت بأمه فَقَبِل ثديَها؛ ﴿فَرَجَعناك إِلَى أمِّك﴾ وفاءً بقولنـا: ﴿إنـَّا رادُّوه إليـكِ﴾[2]، ﴿كـي تقـرَّ عينهـا﴾ بلقـائك، ﴿وَلاَ تَحزن﴾ هِيَ بفراقك، أو أنت عَلَى فراقها. وفائدة هَذِهِ المِنَّة العظيمة مـن قوله: ﴿وَلَقَد مَنَنَّا عليـك مـرَّة أُخرَى...﴾ إِلَى ﴿...وَلاَ تَحـزن﴾ وذلـك أنَّ فرعون حاذرَ زوالَ مُلكِهِ عَلَى يد رجل مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ، فكَانَ يقتل أبنـاءهم، ويستحيِي نساءهم؛ فأمر الله تعالى أمَّ موسى لـمَّا خافت عليـه القتـل ـــ كمـا يقتل غيره مِن أبناء بَنِي إِسْرَائِيلَ، لأَنـَّهُ مِنْهُم ـ أن تُلقيه فِي التابوت ويُلـقِيه فِي

١ - فِي الكشَّاف: «لأنَّ الماء يسحله، أي يقشره». الزمخشري: الكشَّاف، ٣/٤٩.

٢ - سورة القصص: ٧.

البحر، ولـيُلقه البحر بالساحل، ويأخذه عدوٌّ ا لله وعدوُّه، وليرجع بـهِ إِلَىٰ أمـه لتربـيه بأمان مِنَ القتـل، لئـلاَّ يعرفـوه أنــَّه مِـن بَنِـي إِسْـرَائِيلَ. فـانظر إِلَىٰ هَـٰذِهِ الحكمة الباهرة، لأَنَّ ا لله غالبٌ عَلَى أمره إِلَىٰ أن ﴿قالت امرأة فرعـون: قـرَّتُ عينٍ لي ولَكَ لاَ تقتلوه عَسَى أن ينفعَنا أو نـتَّخذه ولدا وَهُم لاَ يشعرون﴾[1].

﴿وقَتَلتَ نفسا﴾ نفسَ القِبطِي الذِي استغاثه عليه الإسرائيليُّ. ﴿فنجَّيناك مِنَ الغمِّ﴾ غم قتله خوفـا مِـن عقـاب ا لله واقتصـاصِ فرعـون، بـالمغفرة والأمـن مِنـْهُ بالهجرة إِلَىٰ مدين. ﴿وفَتَنَّاك فُتُونا﴾ وابتليناك ابتلاء، أو أنواعا مِنَ الابتــلاء؛ عَلَـى أنَّه جمع فَتْن؛ فخلَّصناك مـرَّة بعـد أُخْـرَى؛ وَهُـوَ إجمـال لِمَـا نالـه فِي سـفره مِـنَ الهجرة عَن الوطن، ومفارقة الأُلاَّف[2]، والمشي راجلا علىحـذرٍ وخـوف، وفَقْـدِ الزاد، وأجر نفسه إِلَىٰ غير ذَلِكَ؛ أو لَهُ ولِمَا سبق ذكره. ﴿فلبثـتَ سـنين فِي أهـلِ مدين﴾ لبثتَ فِيهِم عشرسنين قضـاءً لأَوْفَـى الأجلين؛ ﴿ثـمَّ جئـتَ عَلَـى قَـدَرٍ﴾ قـدرة[3] لأَن أكلِّمـك وأُرسلك، غـير متقدم وقتَـه المعيـَّن، ولاَ مسـتأخر، ﴿يـا موسى(٤٠)﴾ كرَّره عُـقَيبَ ما هُوَ غاية[4] الحكاية للتنبيه عَلَى ذَلِكَ.

---

١ - سورة القصص: ٩.

٢ - فِي الأصل: «الآلات»، ولا مَعنَى له. «والأُلاَّف: جمع آلـف، مثـل: كـافر، وكُفـَّار». ابن منظور: لسان العرب، ٨٣/١، مادَّة: «ألف».

٣ - كذا فِي الأصـل، ولعـلَّ الصـواب مـا ذكـره أبـو السـعود: «﴿على قـدر﴾ أي: تقديـرِ قدَّرتـه»، ويدلُّ عَلَيه السياق. انظر: أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص١٦.

٤ - كذا فِي الأصل، والعبارة غير واضحة، وَفِي تفسير أبي السعود: «﴿يا موسى﴾ تشـريف له عليه الصلاة والسلام، وتنبيه عَلَى انتهاء الحكاية». المصدر نفسه.

﴿واصطنعتُك لنفسي(٤١)﴾ واصطفيتك لمحبَّتي وعبادتي ورسالتي، وَإِلاَّ فكلُّ الخلق قد خلقهم لعبادته، لكن اصطنعهُ لنفسه عَلَى عِلم مِنْهُ أنـَّه مُستأهل لِمَا جعله لَهُ؛ ﴿اذهب أنتَ وأخوك بِـآيَـاتِي﴾ بمعجزاتي، ﴿وَلاَ تَنِيَا﴾ بمعنى: التَّواني؛ أي: وَلاَ تُقصرا تعطلا وتبطلا [كَذَا]. ﴿فِي ذكـري(٤٢)﴾، ولاَ تنسياني حيث تقلَّبتما؛ وقيل: فِي تبليغ ذكري، والدعاء لي.

﴿اذهبا إِلَى فرعون إِنـَّهُ طغى(٤٣) فقولا لَهُ قولا ليِّنـًا﴾ مثل: ﴿هل لَّك إِلَى أن تزكَّى، وأهدِيَكَ إِلَى رَبـكَ فتخشى﴾[1]، فإنـَّه دعـوة فِي صـورة عَـرْض ومشورة؛ احذَرَا أن تَحمله الحماقة عَلَى أن يَسطو عليكما. ﴿لَعَلَّـهُ يتذكَّـر أو يَخشى(٤٤)﴾ أي: بَاشر[2] الأمر عَلَى رَجائكمـا وطَمعِكمـا أنـَّه يُثمر، وَلاَ يَخيب سعيكما؛ فإنَّ الراجي مُجتهد، والآيس مُتكلِّف. والفـائدة فِي إرسـالهما والمبالغة عليهما فِي الاجتهاد، مَعَ علمه بأنـَّه لاَ يُؤْمِنُ؛ [٣٥٢] إلزامـا للحجَّـة، وقطعا للمعذرة، وإظهار ما حدث فِي تضـاعيف ذلـك مِنَ الآيـات، والتذكُّـر للمتحقِّق، والخشية للمُتوهم.

﴿قالاَ: رَبَّنَا إِنـَّنَا[3] نَخاف أن يَفرُط علينـا﴾ أن يَعجَـل علينـا بالعقوبـة، وَلاَ يصبر إِلَى تَمام الدعوة وإظهار المعجزة؛ أي: نَخاف أن يَحملـه حـامل مِـن استكبار، أو خـوفٍ عَلَـى الـمُلكِ، أو شـيطان إنسـيٌّ أو جِنـيٌّ عَلَـى المعاجلـة بالعقاب، ﴿أو أَن يَطغى(٤٥)﴾ أي: يُجاوِزُ الحدَّ فِي الإساءة إلينا.

---

١ - سورة النازعات: ١٨-١٩.

٢ - كذا في الأصل، ولعلَّ الأصوب: «باشِرَا». بالتثنية خطابا لموسى وهارون عليهما السلام.

٣ - فِي الأصل: «إنا»، وهو خطأ.

﴿قَالَ: لاَ تَخافا إِنَّنِي معكما﴾ بـالحفظ والنصـرة ﴿أسمـعُ وأرَى(٤٦)﴾ مَا يَجري بينكما، وبينه مِن قول وفعل، فَأُحدِث فِي كُل حال مَا يصرف شـرَّه عنكما، ويُوجِبُ نُصرَتي لكما.

﴿فَأْتِيَاه فقولا: إِنَّا رسولا رَبِّكَ فأَرسِـلْ معنـا بَنِـي إِسْـرَائِيلَ﴾ أَطلِقهـم ﴿وَلاَ تُعذِّبهم﴾ بالتكاليف الصعبة[1]، وقتل الولدان؛ ﴿قد جئنـاك بِـآيـَةٍ مِـن رَبِّـكَ﴾ لاَ يتأتـّي إتيانهـا بقـوَى البشريـَّة، ﴿والسـلام عَلَـى مَـن اتَّـبع الهدَى(٤٧)﴾ السلامة فِي الدارين لَهُـم، كمـا أنَّ عـذاب الداريـن لِمَـن تـولىَّ وكفر. والعذاب ضدُّه السلام؛ فلا يَجتمعان فِي حق شـخص وَاحِـد فِي مَحيـاه ومَماتـه، بدليـل قولـه: ﴿إنـَّا قَـد أُوحـي إلينـا أنَّ العـذابَ عَلَـى مَـن كـذَّب وتولىَّ(٤٨)﴾ أنَّ عذاب المَنزِلَيْنِ عَلَى مَن كَذَّب وتولىَّ.

﴿قَالَ: فمـن رَبـُّكما يـا موسـى(٤٩)؟ قَـالَ: رَبـُّنَا الـذِي أعطـى كُـلَّ شيء﴾ مِنَ الأنواع ﴿خَلقه﴾ صورته وشكله الذِي يُطابق كَمالـه الممكـن لَـهُ، أو أَعطى خليقته كُلَّ شيء يَحتاجون إِلَيْـهِ، ويرتفقون بِهِ؛ وقيـل: أعطـى كُـلَّ حيوان نظيره فِي الخلق والصورة زوجا؛ وقيل: أعطى كُلَّ مَخلوق مَا لاَ يستقيم إلاَّ بِـهِ؛ وقيـل: أعطـى [كـلَّ] شـيء صلاحـه، وهـداه لِمَـا يصلُحـه. ﴿ثـمَّ هَدَى(٥٠)﴾ ثُمَّ عرَّفه كيف يترفَّق بمَا أُعطِي، وكيـف يتوصَّـل بِـهِ إِلىَ بَقائـه وكماله اختيارًا أو طبعا، وَهُوَ جواب فِي غاية البلاغة، لاختصاره وإعرابـه عَـن الموجودات بأسرها عَلَى مَراتبها، ودلالته عَلَى أنَّ الغنيَّ القـادر بـالذات، المنعِـم

١ - في الأصل: «العصبة»، وهو خطأ.

عَلَى الإطلاق هُوَ ا لله تعالى، وأنَّ جميع مَا عداه مُفتقر إِلَيْـهِ، مُنعَم عليه فِي حـد ذاته وصفاته وأفعاله. ولذلك بُـهِتَ الذِي كَفَر، وأُفحِـم عَـن الدَّخَـل[1] عليـه، فلم يَرَ إِلاَّ صرفَ الكلام عَـنْـهُ، فقال:

﴿قَالَ: فما بـالُ القرونِ الأولى(٥١)﴾؟ فمـا حـالهم بعد موتهـم مِنَ السعادة والشقاوة؟ ﴿قَالَ: عِلمُها عند رَبِّي﴾ أي: أنَّه غيب لاَ يعلمه إِلاَّ ا لله، وإنَّما أنا عبـدٌ مثلك لاَ أعلم منه إِلاَّ مَا أخبرني بِهِ ﴿فِي كِتَابٍ﴾ مُثبَت فِي اللوح المحفوظ. ويجـوز أن يكون تَمثيلاً، لتمكُّنه فِي علمه، بِمَا استحفظه العالِم، وقيَّده بالكَتَبَة[2]، ويُؤيـده: ﴿لاَ يَضِلُّ رَبِّي[3] وَلاَ يَنسى(٥٢)﴾ والضلال: أن يُخطِئَ الشيءَ فِي مكانـه، فلـم يهتـد إِلَيْـهِ؛ والنسيان: أن يَذهب عَنْـهُ[4] بحيث لاَ يَخطر ببالك، وهما مُحالان عَلَـى العـالِم بالذات. ويجوز أن يكون سؤاله دَخَلاً عَلَى إحاطةِ قدرةِ ا لله بالأشياء كُلِّها، وتخصيصه أبعاضهـا بـالصورة، والخواص المختلفـة، لأنَّ ذَلِكَ يَستدعي عِلمه بتفـاصيل الأشـياء وجزئيَّـاتها، والقرونِ الخالية، مَعَ كثرتهم، وتَمادي مُدَّتهم، وتبـاعدِ [٣٥٣] أطرافهـم، كيف عِلمه بهم وبأجزائهم وأحوالهم؟! فيكون مَعنى الجواب أنَّ عِلمَه تعـالى مُحيـط بذلك كُلِّه، وأنَّه مُثبَت عنده لاَ يَضِلُّ وَلاَ يَنسى.

---

١ - «الدَّخَل: ما داخل الإِنسَانَ من فساد في عقل أو جسم...»، وفيه معانٍ أخرى يمكن أن تليق بهذا السياق. انظر: ابن منظور: لسان العرب، ٩٥٦/٢. مادَّة «دخل».

٢ - كذا في الأصل، ولعلَّ الأصوب: «بالكتابة». ونفس الكلمة: «الكتبة» نجدها عنـد أبـي السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص٢١.

٣ - في الأصل: - «رَبـي»، وهو خطأ.

٤ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «عنك».

﴿**الـذِي جعـل لكـم الأَرْض مَهْـدًا**﴾ أي: كـالمهد تـتمهَّدونها؛ وقُـرئ: ﴿**مِهادا**﴾ وَهُوَ اسم مَـا يُمهـد، كـالفِرَاش، أو جمـع مهـد، ﴿**وسَـلَكَ لكـم فِيهَـا سُبُلا**﴾ وجعل لكـم فِيهَـا سُبُلا بـين الجبـال والأوديـة والـبراري، تسـلكونها مِـنَ الأَرْض إِلىَ الأَرْض لِتبلغوا منافعها. ﴿**وأنزل مِنَ السَّمَـاء ماءً، فأخرجنا بهِ**﴾ عدَلَ بهِ مِن لَفظ الغَيبـَة إِلىَ صيغـة التكلُّـم عَلَـى الحكايـة؛ لكـلام ا لله عـزَّ وجـلَّ تنبيهـا لظهور مَا فِيهِ مِنَ الدلالة عَلَى كَمال القدرة والحكمـة، وايذانـا بأنـَّه مُطـاع تَنقـاد الأشياء المختلفة لِمشيئَته، ﴿**أزواجا**﴾ أصنافا سُـميت بذلـك لازدواجهـا، واقـتران بعضها ببعض، ﴿**مِن نباتٍ شتَّى(٥٣)**﴾ أي: متصرفات[1] فِي الصُّوَرِ والأغـراض والمنافع، يصلح بعضها للناس، وبعضها للبهائم؛ فلذلك قَال:

﴿**كُلوا وارعَوا أنعامَكم إنَّ فِي ذَلِكَ لآيات لأُولِي النُّهَى(٥٤)**﴾ لـذوي العقول الناهية عَن اتبـَاع الباطل، وارتكـاب القبـائح؛ جمـع نُهْـيَة[2]، سُـميت نُهْيَة لأَنـَّهَا تنهى صاحبها عَن المعاصي.

﴿**منها خلقناكم وفيهـا نُعيدكـم ومنهـا نُخرجكـم تـارةً أُخْـرَى(٥٥)**﴾ بتأليف أجزائكم المتفـتـتة المختلطة بالتراب.

﴿**وَلَـقَد أريناه آياتِـنا كُلَّها**﴾ بصَّرناه إِيَّاها، وعرَّفناه صحَّتها. (لَعَلَّهُ) مَـن أُوتـيَ تـأويل القـرآن العظيـم، فقـد أُوتـي مِـن آيـات ا لله تعـالى. ﴿**فكـذَّب وأَبَـى(٥٦)**﴾ الإيمان والطاعة لِعُتوه.

---

١ - كذا في الأصل، و لم أجد فيما بين يديَّ مـن مصـادر اللغـة مـا يفيـد مَعنـَى الاختـلاف والتنوُّع. ولعلَّ الصواب: «مختلفات».

٢ - انظر: الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ص ١٢٠٦، مادَّة: «نهي».

﴿قَالَ: أجئتنا لتُخرجَنا مِن أرضنا بسِحْرك يا موسى(٥٧)﴾؟ هَذَا تعلُّل وتحيُّر، ودليلٌ عَلَى أنَّه عَلِم كونه مُحقًّا، حتَّى خاف مِنْهُ عَلَى مُلكه، فإنَّ ساحرًا لاَ يقدِر أن يُخرج مَلِكا مثله من أرضه. ﴿فلَنَأتينَّك بسِحْرٍ مثلِه﴾ مثل سِحرك، ﴿فاجعل بيننا وبينك مَوعدا لاَ نُخلِفُه نَحْنُ وَلاَ أنت﴾ فإنَّ الإخلافَ لاَ يُلائم الزمان والمكان، ﴿مَكانا سُوًى(٥٨)﴾.

﴿قَالَ: موعدكم يومُ الزينة﴾ قيل: يوم عاشوراء؛ أو يوم النيروز؛ أو يوم عيد كَانَ لَهُم فِي كُل عام؛ وإنَّما عيَّنه ليَظهر الحقُّ، ويَزهقَ الباطل عَلَى رؤوس الأشهاد، ويشيع ذَلِكَ فِي الأقطار، ﴿وأن يُحشر الناس ضُحًى(٥٩)﴾.

﴿فتولىَّ فرعونُ فجمع كيده﴾ مَا كاد بِهِ، يعنِي: السحرة وآلاتهم. ﴿ثمَّ أتى(٦٠)﴾ بالموعد. ﴿قَالَ لَهُم موسى: ويلَكم لاَ تفتروا عَلَى ا لله كَذِبا﴾ بِأن تدعوا آياته سحرا. ﴿فيسحتكم بعذابٍ﴾ فيهلككم ويستأصلكم بِهِ؛ والسحت: هُوَ الهلاك. ﴿وقد خاب مَن افترى(٦١)﴾ كَما خابَ فرعون، فإنَّه افترى واحتال لِيبقى الملكُ عليه فلم ينفعه. وهذه الآية تعمُّ جميع العصاة.

﴿فتنازعوا أمرَهم بَيْنَهُم﴾ أي: تشاورت السحرةُ فِي أمر موسى حين سمعوا كلامَه، فقال بعضهم: «ليس هَذَا مِن كلامِ السحر». ﴿وأسرُّوا النجوى(٦٢) قَالُوا: إنْ هذان لَسَاحران﴾ تفسير لـ:﴿أسرُّوا النجوى﴾. ﴿يُريدان أن يُخرجاكم مِن أرضكم﴾ بالاستيلاء عليها، لأَنَّهُ إِذَا استولى عَلَيْهِم فلم يبق لَهُم رأي وَلاَ تدبير؛ فكأنَّه فِي المعنى أخرجكم مِن أرضكم، وكلُّ ذَلِكَ حُبٌّ للرئاسة، كما قَالَ: ﴿وتكونَ لكما الكبرياء فِي الأَرْض﴾[1].

---

١ - سورة يونس: ٧٨.

﴿بسِحْرِهما، ويَذهَبَا بطريقتِكم المُثلَى(٦٣)﴾ بِمذهبكم الذِي هُوَ أفضل المذاهب، بإظهار مذهبه وإعلاء [٣٥٤] دينه، لقوله: ﴿إنِي أخاف أن يُبدل دينَكم﴾[1]؛ وقيل: أرادوا أهل طريقتكم، وَهُم بنو إسرائيل، فإنَّهم كَانُوا أرباب عِلمٍ فيما بَيْنَهُم، لقول موسى: ﴿أرسل معنا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[2]، وقيل الطريقة: اسم لوجوه القوم وأشرافهم، من حيث أنَّهم قدوة لغيرهم.

﴿فأجْمِعوا كيدَكم﴾ أي: اجعلوه مجمَعا عليه، لاَ يختلف عَنْهُ وَاحِد منكم؛ أي: اعزموا عَلَى الكيد مِن غير اختلاف بينكم فِيهِ؛ والكيد: يؤتى بِهِ عَلَى خِفيَة، ﴿ثمَّ ائتوا صفًّا﴾ مُصطفِّين، لأَنَّهُ أهيَب فِي صدور الرائين؛ قيل: كَانُوا سبعين ألفا، مَعَ كُل وَاحِد مِنْهُم حبلٌ وعصا؛ وأقبلوا عليه إقبالةً وَاحِدَة. ﴿وقد أفلحَ اليومَ من استعلَى(٦٤)﴾ فازَ بالمطلوب مَن غَلَب وترأَّس.

﴿قَالُوا: يا موسى إمَّا أن تُلقِي، وَإمَّا أن نَكون أَوَّل مَن ألقى(٦٥)﴾؟ أي: بعدما أتَوا مراعاة للأدب. ﴿قَالَ: بَل ألقوا﴾ مقابلةَ أدبٍ مِنَ الأوَّل بأدب، وعدم مبالاة بسحرهم، وإسعافا إِلىَ ما أَوهَموا من الميل إِلىَ البدء بذكر الأَوَّل فِي شقِّهم، وتغيير النظم فِي وَجه أبلغ[كَذَا]؛ ولأَنْ[3] يُبرزوا مَا معهم، ويَستنفدوا أقصى وُسعهم؛ ثُمَّ يظهر الله سلطانه، فيقذف بِالْحَق عَلَى الباطل فيدمغه.

---

١ - سورة غافر: ٢٦.

٢ - سورة الشعراء: ١٧.

٣ - فِي الأصل: «والآن»، وهو خطأ. انظر فيما مَعنَى العبارة: الزمخشري: الكشَّاف، ٣/٥٧. أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص٢٦-٢٧.

﴿فإذا حِبالهم وعِصيُّهم يُخيَّل إِلَيْـهِ مِن سحرهم أَنــَّهَا تسعى(٦٦)﴾ قيل: إنـَّهم لطَّخوها بالزئبق، فَلَـمَّا ضَربـت عليهـا الشـمس اضطربَـت، فَخُيـل إِلَيْـهِ أنـَّها تـتحرَّك. ﴿فأوجس فِي نفسـه خِيفَةً مُوسـى(٦٧)﴾ فـأضمر فِيهَـا خوفا مِن مفاجأته عَلَى مَا هُوَ مقتضى الجبلَّـة البشـريَّة، أو أن[1] يُخـالِجَ النـاس شكٌّ فلا يتَّبعوه.

﴿قلنا: لاَ تَخف﴾ مَـا تَوهَّمـت ﴿إنـَّكَ أنـت الأعلـى(٦٨)﴾ الغـالب، ﴿وألقِ مَا فِي يَمينك تلقَّفْ مَا صَنعوا﴾ تبتلعه بقدرة ا لله، ﴿إنـَّمَا صنعوا كيدُ ساحرٍ﴾ وقرئ: ﴿كيدُ سِحْرٍ﴾ بمعنى: ذي سحر؛ أو بتَسمية السـاحِر سِـحرا للمبالغة، ﴿وَلاَ يُفلح الساحرُ حيث أتى(٦٩)﴾ حيث كَانَ، وأين أقبل، لأَنـَّهُ وهميٌّ لاَ حقيقة لَهُ.

﴿فأُلقِيَ السحرةُ سُجَّدا﴾ أي: فَـأُلقي، فَتَحقَّـق عنـد السـحرة أنـَّه ليـس بسحرٍ، وإنـَّما هُوَ مِن آيات ا لله، ومعجزة مِن مُعجزاتـه، فألقـاهم ذَلِـكَ عَلَـى وجوههم سُجَّدا لله، توبة عمَّا صَنَعوا وإعتابا، وتعظيمـا لِمَـا رأوا؛ ويجـوز أن يكـون الإلقـاء بمعنـى: الاستسـلام والانقيـاد. ﴿قَـالُوا: آمنـا بِـرَبٍّ هـارون وموسى(٧٠)﴾.

﴿قَالَ: آمنتم لَهُ قبلَ أن آذنَ لكـم﴾ فِي الإيمـان لَـهُ؟ ﴿إنـَّهُ لكبير كم﴾ لَعظيمكم فِي وقتكم وأَعلَمكـم بـهِ، أو أستاذكم ﴿الـذِي علَّمكـم السـحرَ﴾

---

[1] - في الأصل: «من»، وهو خطأ. انظر: المصدرين السابقين.

وأنتم تواطأتم عَلَى مَا فعلتم. **﴿فلأُقَطِّعنَّ أيديَكـم وأرجلَكـم[1] مِـن خِـلاف، ولأُصلِّبنَّكم فِي جُذوع النخلِ، ولتعلمُنَّ أيُّنا أشدُّ عذابا وأبقى(٧١)﴾**.

**﴿قَالُوا: لـن نُؤثِـرَك﴾** لـن نَختـارك **﴿عَلَـى مَـا جاءنـا مِـنَ البَيِّـنَات﴾** المعجزات الواضحات؛ **﴿والذي فَطَرَنا﴾** عطفٌ عَلَى: «مَا جاءنا». **﴿فـاقضِ مَا أنت قـاضٍ﴾** مَـا أنـت قاضيـه؛ أي: صانعـه. **﴿إنـَّمَا تقضـي هَـذِهِ الحيـاةَ الدُّنْـيَا(٧٢)﴾** إنَّمَا تَصنَع مَـا تهـواه، أو تَحكـم بِمَـا تـراه فِي هَـذِهِ الدُّنْـيَا؛ والآخِرَة خير وأبقى.

**﴿إنـَّا آمنـا بربِّنَا ليَغْفِـر لَنَـا خطايانـا﴾** مِـنَ الكفـر والمعـاصي، **﴿وَمَـا أكرهتنا عليه مِنَ السحر﴾** فِي معارضة المعجزة. رُوي: أنـَّهـم قَـالُوا لفرعـون: "أرنا موسى نائما"، فوجدوه تَحرسـه العصـا؛ فَقَـالُوا: "مَـا هَـذَا بسـحر! فـإنَّ السـاحر إِذَا نـام بَطُـل سِـحره"؛ فـأبى إلاَّ أن يُعـارضوه. **﴿وا لله خـيرٌ وأبقى(٧٣)﴾** جزاء، [٣٥٥] أو خير مِنك ثوابا، وأبقى عقابا.

**﴿إنَّهُ مَن يأتِ ربَّه مُجرما﴾** بِأن يَموت عَلَى كفره وعصيانه. **﴿فـإنَّ لَـهُ جَهَنَّم لاَ يَموت فِيهَا﴾** فيستريح، **﴿وَلاَ يَحيـا(٧٤)﴾** حيـاةً مُهنَّـأة. **﴿ومَـن يأتِه مؤمنا﴾** بِأن يموت عَلَـى الإيمـان، **﴿قـد عَمِـل الصالحـات، فـأولئك لَهُـمُ الدرجات العُلَى(٧٥) جَنَّاتُ عدن تَجري مِن تَحتها الأنهـار خـالدين فِيهَـا وذلك جزاءُ مَن تزكَّى(٧٦)﴾** تَطَهَّر مِن أدناس الكفر والمعاصي.

---

١ - فِي الأصل: «ورجلكم»، وهو خطأ.

﴿**وَلَقَد أوحينا إِلَىَ موسى أَن أسْرِ بعبادي**﴾ أي: مـن مصـر، ﴿**فـاضربْ لَهُم طريقا فِي البحر يَبَسًا، لاَ تخاف دَرَكا وَلاَ تخشى(٧٧)**﴾ (لَعَلَّهُ) قيـل: لا تخاف فرعون، ولا تخشى البحر. ﴿**فأتبعهم فرعـونُ بِجنـوده فغشـيهم مِـنَ اليمِّ**﴾ أي: علاهم مِنَ البحر ﴿**مَـا غشـيهم(٧٨) وأضـلَّ فرعـونُ قومَـه وَمَـا هَدَى(٧٩)**﴾ أي: أضلَّهم فِي الدين، وَمَا هَداهم.

ثُمَّ ذكَّر ا لله بَنِي إِسْرَائِيلَ نِعَمَه، فقال (لَعَلَّهُ) لإنزال الكتـاب[1]: ﴿**يـا بَنِـي إِسْرَائِيلَ قد أنجيناكم مِن عدوِّكم وواعدناكم جانبَ الطـور الأيمـنَ**﴾ (لَعَلَّهُ) للميقات، وهُـوَ مِـن أجـل النعـم الدينيـَّة والدنيويـَّة. ﴿**وأنزلنـا عَلَيْكُـم المـنَّ والسلوى(٨٠)**﴾.

﴿**كُلوا من طَيِّبَـات مَا رزقناكم وَلاَ تطغوا فِيهِ**﴾ فيما رزقناكم بالإسـراف، وبإخلالٍ عَن شكره، والتعدي لِمَا حدَّ ا لله لكم فِيهِ، كالبطر، والمنع عَن المستحق؛ ﴿**فيحِلَّ عَلَيْكُم غضَبي**﴾ فيلزمكم عذابي فِي الدُّنْـيَا والآخِرَة. ويجب عَلَـيْكُم مِـن أجل الدين إذا وَجَب أداؤه. ﴿**ومَن يَحلِلْ عليه غضـبي فقـد هـوَى(٨١)**﴾ فقـد تردَّى وهلك، ووقع فِي الهاوية من حيث لاَ يشعر.

﴿**وإنـِّي لَغفـَّار لِمَن تاب وآمـنَ وعمـل صالحـا ثُـمَّ اهتـدَى(٨٢)**﴾ ثُـمَّ استقام عَلَى الهـدى المذكـور؛ وقيـل: عَلـم أنَّ ذَلِـكَ بتوفيـق ا لله لَـهُ، لاَ بقوَّتـه وحَولِه؛ (لَعَلَّهُ) وقيل: لزم الإسلام حتَّى مات عليه؛ وقيـل: عَلِـم أنَّ لَـهُ ثوابـا؛ وقيل: تَعلَّم العلم ليهتدي كيف يعمل.

---

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «لأهل الكتاب».

﴿وَمَا أعْجَلَكَ عَن قومك يا موسى(٨٣)﴾؟ سؤال عَن سبب العجلة يتضمَّن إنكارها مِن حيث أنَّها مُقتضيَّة فِي نفسها، انضمَّ إِلَيْها إغفال القوم، وإيهام التعظيم عليهم[1]؛ فلذلك أجاب موسى عَن الأمرين، وقدَّم جواب الإنكار لأنَّهُ أهمُّ: ﴿قَالَ هُمْ أُولاَء عَلَى أَثَري﴾ مَا تقدَّمتُهم إلاَّ بخطى يسيرة، لاَ يُعتدُّ بها عادة، وليس بيني وبَيْنَهُمْ إلاَّ مسافة قريبة، يتقدَّم بها الرفقة بعضهم بعضا. ﴿وعَجِلتُ إليك رَبِّ لترضى(٨٤)﴾ فإنَّ المسارعةَ إِلىَ امتثال أمرك، والوفاء بعهدك، يُوجب مرضاتك؛ كأنَّه رأى الاستعجال أحسن، وإن كَانَ تركه حسنا.

﴿قَالَ: فَإنَّا قد فَتَنَّا قومَك مِن بعدك﴾ ابتليناهم بعبادة العجل، بعد خروجك من بينهم، وَهُم الذِينَ خلَّفهم مَعَ هارُونَ، ﴿وأضلَّهم السامريُّ(٨٥)﴾ باتخَاذِ العجل، والدعاء عَلَى[2] عبادته.

﴿فرجعَ موسى إِلَى قومه غضبان﴾ عليهم ﴿أَسِفا﴾ حَزِينا بمَا فعلوا. ﴿قَالَ: يا قومِ ألم يَعِدْكُم رَبُّكُم وعدا حَسَنا﴾؟ بأن يعطيكم التَّوْرَاة فِيهَا هدى ونور. ﴿أفطال عَلَيْكُمُ العهدُ﴾؟ أي: الزمان؛ يعني: زمان مفارقته لَهُم.

---

١ - هَذِهِ العبارة غير واضحة، ونجد توضيحها عند أبي السعود: «وهذا ــ كما ترى ــ سؤال عن سبب تقدُّمه عَلَى النقباء، مسوق لإنكار انفراده عنهم، لِمَا ذلك ــ بحسب الظاهر ــ من مخايل إغفالهم، وعدم الاعتداد بهم، مع كونه مأمورا باستصحابهم وإحضارهم معه؛ لا لإنكار نفس العجلة الصادرة عنه عليه الصلاة والسلام، لكونها نقيصة منافية للحزم اللائق بأولي العزم». أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص٣٣.

٢ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «إلى».

﴿أم أردتم أن يَحِلَّ عَلَيْكُم﴾ يجب عليكم ﴿غضبٌ من رَبِّكُم﴾ بعبادة مَا هُوَ مَثَلٌ فِي الغباوة، وَلاَ يضرُّ تركه، وَلاَ تنفعُ عبادته، وأنَّه شغل وعناء وكَدحٌ جزاؤه جَهَنَّم؛ ﴿فأخلفتم مَوعِدِي(٨٦)﴾ وَعدَكم إِيَّايَ بالثبات عَلَى الإيمان با لله، والقيام عَلَى مَا أمركم بِهِ.

﴿قَالُوا: مَا أخلفنا مَوعِدَك بِمَلكِنا﴾ [٣٥٦] بأن مَلَكنا أمرنا، إذ لو خُلينا وأمرَنا، و لم يُسول لَنَا السامريُّ، لَمَا أخلفناه؛ ﴿ولكنَّا حُمِّلنا أوزارا مِن زينةِ القوم﴾ أحمالاً مِن حُلي القِبطِ عَلَى مَا قيل؛ ﴿فَقَذَفنَاهَا﴾ أي: فِي النار؛ ﴿فكذلك أَلقى السامريُّ(٨٧)﴾ أي: مَا كَانَ معه منها.

﴿فأخرج لَهُم عِجلا جسدا لَهُ خُوَار﴾ مِن تلك الحلي المذابَة، لَهُ صوت؛ ﴿فَقَالُوا﴾ يعني: السامريُّ ومَن افتتن بِهِ أوَّل مَا رآه: ﴿هَذَا إلهكم وإلهُ موسى فَنَسِيَ(٨٨)﴾ أي: فنسيه موسى، وذهب يطلبه عند الطور؛ أو فنسيَ السامريُّ، أي: ترك مَا كَانَ عليه مِن إظهار الإيمان.

﴿أفلاَ يَرَونَ ألاَّ يَرجع إِلَيْهِم قولا﴾ أنَّه لاَ يرجع إِلَيهِم كلاما، وَلاَ يردُّ عَلَيْهِم جوابا ﴿وَلاَ يَملك لَهُم ضَرًّا وَلاَ نفعا(٨٩) وَلَقَد قَالَ لَهُم هارون من قبلُ﴾ مِن قبل رجوعِ موسى: ﴿يا قوم إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ﴾ ابتُلِيتم بِهِ اختبارًا، ﴿وإِنَّ رَبَّكُم الرحمنُ﴾ لاَ غير، ﴿فاتَّبِعوني وأطيعوا أمرِي(٩٠)﴾ فِي الثبات عَلَى الدين.

﴿قَالُوا لَن نَبرحَ عليه عاكفين﴾ عَلَى العجل وعبادتِه مُقيمين، ﴿حتَّى يرجعَ إلينا موسى(٩١)﴾.

﴿قَالَ: يا هارون﴾ أي: قَالَ لَهُ موسى لَمَّا رَجَع: ﴿مَا مَنَعَك إذ رأيتهم ضلُّوا(٩٢)﴾ بعبادة العجل ﴿ألاَّ تتَّبعني﴾ أن تتَّبعني فِي الغضب لله، والمقاتلة لِمَن كَفَر بِهِ، ﴿أفعصيت أمري(٩٣)﴾؟ بالصلابة فِي الدين، والمحاماة عليه.

﴿قَالَ: يَبنَؤُمَّ﴾ خَصَّ الأمَّ استعطافا وترفيقًا؛ وقيل: لأَنَّهُ أخوه[1] مِن أمه. ﴿لاَ تأخذ بِلحيَتِي وَلاَ برأسي﴾ أي: شَعْرِ رأسي؛ قَبَضَ عليهما يَجرُّه إِلَيْهِ من شدَّة غيظه، وقوَّةِ غضبه لله. وكَانَ الـﷺ حديدًا خَشِنًا متصلِّبًا فِي كُل شيء، فلم يتمالك حينَ رآهم يَعبدون العجل. ﴿إنِّي خَشيت أن تقولَ: فرَّقت بين بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ لو قاتلتُ أو فارقتُ بعضهم ببعض، ﴿ولم ترقُب قولي(٩٤)﴾ حين قُلتَ: ﴿اخلفني فِي قومي وأصلح﴾[2]، وإنَّ الإصلاح كَانَ فِي حِفظ الدهماء، والمدراة بهم إلى أن ترجع إِلَيْهِم، فتدارك الأمر برأيك.

﴿قَالَ: فما خَطبُك يا سامريُّ(٩٥)﴾؟ ثُمَّ أقبل عليه، وقال لَهُ مُنكِرًا: ما خطبك؟ أي: مَا طَلَبك لَهُ؟ وَمَا الذِي حَمَلك عليه؟ وَهُوَ مصدر خَطَبَ الشيء: طلبه. ﴿قَالَ بَصُرتُ بِمَا لم يَبصُرُوا بِهِ﴾ أي: عَلِمت مَا لم يَعلموه، ﴿فقبضتُ قبضةً مِن أثرِ الرسول﴾ من تُربة موطئه، ﴿فنبذتُها﴾ فِي الحلي المذابَة، ﴿وكذلك سوَّلت لي نفسي(٩٦)﴾ زَيَّنته وحسَّنته إليَّ.

﴿قَالَ: فاذهب فإنَّ لك فِي الحياة﴾ عقوبةً عَلَى مَا فَعَلت ﴿أن تقول: لاَ مِسَاسَ﴾ خَوفا مِن أن يَمسَّك أحدٌ، فتأخذك الحُمَّى، وَمن مَسَّك فتحامي

---

١ - فِي الأصل: «أخاه»، وهو خطأ.

٢ - سورة الأعراف: ١٤٢.

الناس وتَحاموك[1]، فتكون طريدًا وحيـدًا كالوحشـي النـافر، بحيـث لـو مسَّـه أحدٌ، أو مسَّ هُـوَ أحـدا حـمَّ كلاهمـا (لَعَلَّـهُ الدهمـاء: الجماعـة الكثـيرة)[2]. ﴿وإنَّ لك مَوعِدا﴾ فِي الآخِرَة ﴿لن تُخلَفَه﴾ لن يُخلفك ا لله، ويُنجزه لك فِي الآخِرَة بعد مَا عاقبك فِي الدُّنْـيَا. ويوجد عن أبي سعيد فيما أرجو أنـَّه قَـالَ: «وكذلك انصبا [كَذَا] فِي السامريّ، وَهُوَ معنا فِي ظاهر الآية لزوم الوعيد مِـن لزوم العقوبة فِي الدُّنْـيَا، والوعيـد فِي الآخِـرَة»[3]. ﴿وانظـر إِلَى إِلَهِـك الـذِي ظَلْتَ عليهِ عاكفا﴾ ظَلَلْتَ عَلَى عبادته مُقيمًا، ﴿لَنُحرِّقنَّه﴾ أي: بالنار، ﴿ثمَّ لَننسِفَنـَّه﴾ لنذرينـَّه رمادا ﴿فِي اليمِّ نَسفًا(٩٧)﴾ فلا تصـادف منـه شيـئًا[4]. والمقصود من ذَلِكَ: زيادةً عَلَى عقوبته، وإظهارُ غباوة المفتتـنين بـهِ، لِمَـن لَـهُ أدنى [٣٥٧] نَظَرٍ؛ وهكذا يَجب إلقاء كُل مَا يُشغِلُ عَن ا لله.

﴿إنـَّمَا إلهُـكم﴾ المستحقُّ للعبادة ﴿ا للهُ الذِي لاَ إله إلاَّ هُـوَ﴾ إذ لاَ أحـدَ يُماثله أو يُدَاينه فِي كمـال العلـم والقـدرة، ﴿وسـعَ كُـلَّ شـيءٍ عِلْمًـا(٩٨)﴾ وَسِع علمه كُلَّ مَا يصحُّ أن يُعلم، لاَ العجلُ الذِي يصاغ ويُحرق.

---

١ - كذا في الأصل، ومثل تلك العبـارة نجدهـا عنـد الزمخشـري: الكشّـاف، ٦٧/٣. ولعـلَّ الصـواب: «فتتَـحَامَى النـاسَ ويـتَحَامَوْنَكَ». أي يجتـنبونك. في اللسـان: «وتحامـاه الناس: أي توقَّوه واجتنبوه». ابن منظور: لسانِ العرب، ٧٣١/١. مادَّة: «حما».

٢ - ما بين قوسين لا محلَّ له من السياق، ويبدو أنَّ العبارة مقحمة. وكلمة الدهماء ذكـرت قبل تسعة أسطر، وَلَعَلَّ الناسخ نقل شرحها من الحاشية و لم يورده في محلِّه من المتن.

٣ - كذا في الأصل، والعبارة غير واضحة.

٤ - في الأصل: «شيء»، وهو خطأ.

﴿كذلك﴾ مَثَل ذَلِكَ الاقتصاص، يعني: اقتصاص قصَّة موسى ﴿نَقُصُّ عليك مِن أنباءِ مَا قَد سَبَقَ﴾ مِن أخبار الأمور الماضية، والأمم الدارجة[1]؛ تبصرةً لك، وزيادةً في عِلمك، وتكثيرًا لمعجزاتك، وتنبيهًا وتذكيرًا للمستبصرين مِن أمَّتك؛ ﴿وقد آتيناك مِن لدنَّا ذِكرا(٩٩)﴾ كِتَابًا مُشتَملا عَلَى هَذِهِ الأقاصيص والأخبار، حقيقًا بالتفكير والاعتبار.

﴿مَن أعرضَ عَنْهُ﴾ عَن الذكر ـ الذِي هُوَ القرآن الجامعُ لوجوهِ السعادة والنجاة ـ فلم يُؤْمِنْ بِهِ، و لم يدَّبَّر آياته، و لم يَعمل بمُقتَضَاه؛ أو عَن الله. ﴿فإنَّه يَحمِلُ يومَ القيامة وِزرا(١٠٠)﴾ عُقوبة ثقيلةً فادحةً عَلَى كُفره وذنوبه. سمَّاها وِزرا فِي ثِقلها عَلَى المعاقَب، وصعوبة احتمالها بالحَمل الذِي يَفدَح[2] الحاملَ، وينقض ظَهره؛ أو إثما عظيمًا ﴿خالدين فِيهِ﴾ فِي الوِزرِ، وفي حمله. ﴿وساء لَهُم يوم القيامة حِملا(١٠١)﴾ أي: بِئْسَ لَهُم؛ أي: ساء حِملا وِزْرُهم.

﴿يوم يُنفخ فِي الصور ونَحشر المجرمين يومئذ زُرْقًا(١٠٢)﴾ زُرقَ العيون؛ وُصفوا بذلك، لأنَّ الزُّرقَة أسوأ ألوان العين وأبغضها؛ أو عميا، فإنَّ حَدَقة الأعمى تَزْرَقُّ؛ وقيل: عِطاشا، ﴿يَتَخافَتون بَيْنَهُم﴾ يَخفضون أصواتهم لِمَا يَملأُ صدورهم مِنَ الرعب والهول. والخَفت: خَفضَ الصوت

١ - أي المنقرضة. «ودرَجَ القومُ: إذا انقرضوا». ابن منظور: لسان العرب، ٩٦٣/٢.

٢ - «الفَدْحُ: إثقال الأمرِ والحِملِ صاحبَهُ. فدحه الأمرُ والحِمل والدَّين، يفدحه فدْحا: أثقله، فهو فادح». ابن منظور: لسان العرب، ١٠٦١/٤. مادَّة «فدح».

وإخفاؤه. ﴿إن لبثتم إلاَّ عَشرًا(١٠٣)﴾ أي: فِي الدُّنـيَا يَستقصرون مُدَّة لبثهم فِيهَا لِزوالها، ولاستطالتهم مُدَّة الآخِرَة؛ أو لِتأسُّفهم عليها لَمَّا عاينوا الشدائد، وعَلِموا أنَّهم استحقُّوها عَلَى إضاعتهما فِي قضاء الأوطار، واتباع الشهوات؛ أو فِي القبر لقوله: ﴿ويوم تقومُ الساعةُ...﴾[1] إِلَى آخر الآيات.

﴿نَحْنُ أعلم بِمَا يقولون﴾ وَهُوَ مدَّة لبثهم، ﴿إذ يقول أمثَلُهم طريقةً﴾ أعدَلُهم رَأيا وعملا: ﴿إن لبثتم إلاَّ يوما(١٠٤)﴾ استرجاع لقول من يكون أشدَّ أثقالا منهم.

﴿ويسألونك عَن الجبال﴾ عَن مآل أمرها، ﴿فقل: يَنسِفها رَبِّي نَسْفًا(١٠٥)﴾ يَجعلها كالرمل؛ ثُمَّ يُرسل عليها الرياح فتقرعها[2]، ﴿فَيَذَرُها﴾ فَيَذَر مَقارَّها، أو الأَرْض ﴿قاعا﴾ خاليا ﴿صَفْصَفًا(١٠٦)﴾ مُستويا؛ كَأَنَّ أجزاءَها عَلَى وصفٍ وَاحِد. ﴿لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجا وَلاَ أَمْتًا(١٠٧)﴾ اعوجَاجًا وَلاَ نُتُوءًا، إن تأملْتَ فِيهَا بالقياس الهندسي. وثَلاَثَتُها أحوال مرتَّبة، فالأوَّلان: باعتبار الإحساس، والثالث: باعتبار

١ - سورة الروم: ٥٤-٥٦؛ وتمامها: ﴿ويومَ تقومُ الساعةُ يُقسِم المجرمون ما لبثوا غيرَ ساعةٍ كذلك كانوا يؤفكون، وقال الذين أوتوا العلم والإيمان: لقد لبثتم في كتاب الله إلى يومِ البعثِ فهذا يومُ البعثِ ولكنَّكم كنتم لا تعلمون﴾.

٢ - كذا في الأصل، ولعلَّه مِن قَرِعَ، أي ذهب شعر رأسه. (انظر: الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ص ٦٧٥، مادَّة: "قرع"). فشبَّه الأَرْض حين تُنسف جبالها بالرأس حين يذهب شعرها. ولكن نجد نفس العبارة عند أبي السعود والزمخشري: «يُرسل عليها الرياح فتفرقها». الزمخشري: الكشَّاف، ٦٩/٣. أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص٤٣.

القياس؛ ولذلك ذكر العِوَجَ بالكسر، وَهُوَ يَخُصُّ المعاني، والأَمْتَ، وَهُوَ النُّتُوء اليسير؛ وقيل: «لاَ ترى» استئناف للحالين. وعن الحسن: «العِوَج: مَا انخفض مِنَ الأَرْض؛ والأَمْتُ: مَا ارتفع من الروابي».

﴿يومئذ يتَّبعون الداعيَ﴾ دَاعي ا لله إِلىَ المحشر؛ قيل: هُوَ إسرافيل يدعو الناس إِلَيْهِ؛ ﴿لاَ عِوَج لَهُ﴾ لاَ يَعوَجُّ لَهُ مَدعُوٌّ، أو لاَ يعدل عَنْهُ. ﴿وخَشَعَت الأصواتُ للرَّحمن﴾ خَضَعت لمهابته، وسكنت وذلَّت؛ وَصَفَ الأصوات بالخشوع، والمراد: أهلها؛ ﴿فَلا[1] تسمع إلاَّ هَمسا(١٠٨)﴾ صوتًا خفيًّا؛ ومنه الهمس: لصوت أَخْفَافِ الإبل؛ وقد فُسر الهمس: بِخفق أقدامهم، ونقلها إِلىَ المحشر.

﴿يومئذ لاَ تَنفع الشفاعةُ إلاَّ مَن أَذِنَ لَهُ الرحمن﴾ [٣٥٨] إلاَّ شفاعة مَن أَذِن لَهُ ﴿وَرَضِي لَهُ قولا(١٠٩)﴾ أي: ورَضِي لِمكانه عند ا لله قولَه فِي الشفاعة؛ أو رَضِي لأجله قولَ الشافع فِي شَأنه؛ أو قوله لأجله، لأَنـَّهُ قَالَ صِدقًا، وعَملَ حقًّا.

﴿يعلم مَا بين أيديهم﴾ يعلم مَا تقدَّمهم مِنَ الأحوال، ﴿وَمَا خَلفهم﴾ وَمَا بعدهم فيما يستقبلونه، ﴿وَلاَ يُحيطون بِهِ عِلما(١١٠)﴾ وَلاَ يُحيط علمهم بِمعلوماته؛ وقيل: بذاته، كما قَالَ: ﴿وَمَا قَدَروا ا للهَ حقَّ قَدْرِه﴾[2] أي: مَا عَرَفوه حقَّ معرفته؛ وقيل: الضمير لأحد الموصولين، أو لمجموعهما؛ فإنـَّهم لم يعلموا جميع ذَلِكَ، وَلاَ تفصيل مَا عَلِموا مِنْهُ.

---

١ - فِي الأصل: «قد»، وهو خطأ.

٢ - سورة الأنعام: ٩١؛ وسورة الزمر: ٦٧.

﴿وعَنَتِ الوجوهُ للحيِّ القيُّوم﴾ ذلـَّت وخضعت لَـهُ خضوع العُنَـاة، وَهُم الأسارى فِي يَد الملِك القهَّـار. وظاهرها يقتضي العمـوم؛ ويجـوز أن يُـراد بها وجوه المجرمين، ويؤيـده: ﴿وقد خَابَ مَن حَمل ظُلما(١١١)﴾ أي: مَـن مات مُصرًّا؛ كذا قَالَ أبو عبد ا لله.

﴿ومَن يعملْ مِـنَ الصالحـات وَهُـوَ مُؤْمِـنٌ﴾ إِذِ الإيمـان شـرط فِي صِحَّـة الطاعات، وَإِلاَّ فهي حَسرة لعامِلِها. ﴿فلا يَخاف ظُلما﴾ مَنعَ ثوابِ مُستحقٌ بالوعد[1]، ﴿وَلاَ هَضمًا(١١٢)﴾ وَلاَ كَسرًا مِنـْهُ بنقصان.

﴿وكذلك﴾ عطفٌ عَلَى: ﴿كذلك نَقصُّ﴾، أي: مِثل ذَلِـكَ الإنـزال؛ أو مثل إنزال هَذِهِ الآيات المتضمـنة للوعيد؛ ﴿أنزلنـاه قرآنـا عربيـًّا﴾ كلُّه عَلَـى هَذِهِ الوتيرة، ﴿وصرَّفنا فِيــهِ مِـنَ الوعيـد﴾ مُكررين فيـ[ـه] آيـات الوعيـد، ﴿لَعَلَّهُم يتَّقون﴾ المعـاصي، فـتصير التقـوى لَهُـم مَلَكـة، ﴿أو يُحـدِث لَهُـم ذِكرا(١١٣)﴾ عِظةً واعتبارًا، حين يسمعونها، فيثبـطهم عنها. ولهـذه النكتـة أسند التقوى إِلَـيْهِم، والإحداث إِلىَ القرآن.

﴿فَتَعَالى ا لله﴾ فِي ذاته وصفاته، عَن مُمَاثلـة المخلوقـين. لاَ يُمـاثل كلامـه كلامَهم، كما لاَ يُماثِل ذاتَه ذاتهم، ﴿الملكُ﴾ النافذ أمره ونهيـه، الحقيـق بِـأن يُرجى وعدُه، ويُخشى وعيدُه ﴿الحقُّ﴾ فِي مَلَكوته، يستحقـُّه لذاته؛ أو الثـابت فِي ذاته وصفاته.

---

١ - توضيح العبارة: «مَنعَ ثوابِ مُستحقٌ بموجب الوعد». أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص٤٣.

**﴿وَلاَ تَعجَلْ بالقرآن مِن قَبلِ أن يُقضَى إليكَ وحيُه﴾** نَهي عَن الاستعجال ـ فِي تلقِّي الوحيِ مِن جبريل، ومساوقَتِه[1] فِي القراءة، حتَّى يتمَّ وحيه ـ بعد ذِكر الإنزال عَلَى سبيل الاستطراد؛ وقيل: نَهى عَن تبليغ مَا كَانَ مُجمَلاً قبل أن يأتي بيانه. **﴿وقل: رَبِّ زدني عِلمًا(١١٤)﴾** أي: سَل الله زيادَة العلمِ بَدَل الاستعجال؛ ومعنى السؤال: يحتمل بمعنى[2] التعلُّم.

**﴿وَلَقَد عَهِدْنا إِلَى آدم﴾** أمرناه؛ يقال: عَهِدَ إِلَيْهِ إذا أمرَه. وإنَّما عَطَف قصَّة آدم عَلَى قوله: ﴿وصرَّفنا فِيهِ مِنَ الوعيد﴾[3] للدلالة عَلَى أساسِ بني آدم عَلَى العصيان[4]، وعِرقُهم راسخ فِي النسيان. **﴿مِن قَبلُ فَنَسِي﴾** العهدَ، ولم يُعنى بِهِ حتَّى غَفَل، أو ترك مَا وُصيَ بِهِ من احتراز عَن الشجرة. قَالَ أبو الحسن والعبَّاد: «على طبع أبيهم فِي النسيان». **﴿ولم نَجد لَهُ﴾** فِي حال نسيانه **﴿عَزمًا(١١٥)﴾** تصميم رأي، وثباتًا[5] عَلَى الأمر؛ إذ لو كَانَ ذا عزيمة وتصلُّب، لم يُزلَّه الشيطان. ولعلَّ ذَلِكَ فِي بَدْءِ أمره، قبل أن يُجرب

---

١ - أي متابعته ومزاحمته. «وتساوقت الإبل: تتابعت، وتقاودت. وتساوقت الغنم: تزاحمت في السير». الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ص ٨٠٦، مادَّة «سوق».

٢ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «والسؤال يحتمل معنى التَّعَلُّم».

٣ - سورة طه: ١١٣.

٤ - توضيح العبارة عند الزمخشري: «وكأنَّه يقول: إنَّ أساس أمر بني آدم عَلَى ذلك». الزمخشري: الكشَّاف، ٣/٧١.

٥ - في الأصل: «وثبات»، وهو خطأ. وعند أبي السعود: «تصميم رأي، وثبات قدم في الأمور». أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص٤٥.

الأمور. وعن النبي عليه السلام: «*لو وُزِنت أحلامُ بني آدم بِحلم آدم لَرَجَح حكمه*»[1].

﴿وإذ قلنا للمَلاَئِكَة: اسجدوا لآدم فسجدوا إلاَّ إبليس أبى(١١٦) فقلنا: يا آدم إنَّ هَذَا عدوٌّ لك ولزوجك فلا يُخرجنَّكما﴾ فلا يَكونَنَّ سببًا لإخراجكما ﴿مِن الجَنَّة فتشقى(١١٧)﴾ فتضلَّ تائها حيراناً، ﴿إنَّ لك ألاَّ تَجوع فِيهَا وَلاَ تَعرى(١١٨) وَأَنَّكَ لاَ تظمأ فِيهَا وَلاَ تَضحَى(١١٩)﴾ أي: لاَ تبرز للشمس فيؤذيك حرُّها؛ فإنَّه بيان وتذكير لما لَهُ فِي الجنَّة من أسباب الكفاية، وقطب الكفاف التِي هِيَ[2] الشبع والري والكسوة والكنُّ[3]، مُستغنيا عَن اكتسابها والسعي في تحصيل أغراضها، عسى ينقطع ويزول منها، بذكر نقائضها، ليطرق سمعه بأصناف الشقوة المُحذَّر منها. ﴿فَوَسوس إِلَيْهِ الشيطان﴾ فأنهى إِلَيهِ وَسوَسَته، ﴿قَالَ: يا آدم هل أَدُلُّك عَلَى شجرةِ الخلدِ﴾ الشجرة التِي مَن أكل منها خلَد و لم يَمُت أصلا، فأضافها إِلَى الخلد وَهُوَ الخلود، لأَنَّهُ سببه بزعمه، ﴿ومُلكٍ لاَ يَبلَى(١٢٠)﴾ لاَ يَزول وَلاَ يَضعف.

---

١ - كذا فِي الأصل، والصواب: «حلمه». كما فِي تفسير أبي السعود: م.ن. لم نعثر عَلَيه في الربيع ولا في الكتب التسعة.

٢ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «الذي هو». أو: «وأقطاب الكفاف التي هي...». وَفِي الكشّاف: «الشبع والريُّ والكسوة والكنُّ: هي الأقطاب التي يدور عَلَيها كفاف الإنسَان». الزمخشري: الكشّاف، ٧٢/٣.

٣ - في الأصل: «ولكن»، وهو خطأ.

﴿فأكلاَ منها فَبَدَت لَهما سوآتهما، وطفقا يَخصِفَان عليهما﴾ عَلَى سوآتهما ﴿مِن ورق الجَنَّة﴾ أخذا يَلزِقان الورق عَلَى سوآتهما للتستُّر، ﴿وعصى آدم رَبَّه فغوى(١٢١)﴾ فضلَّ عَن المطلوب، حيث طلب الخلد بأكل مَا نُهِي عَن أكله، فخاب و لم ينل مراده؛ لأَنَّهُ طلب مَا لاَ يُدرك مَا دام مُتعبدًا. ﴿ثمَّ اجتباه رَبُّهُ﴾ اصطفاه وقرَّبه لَمَّا تقرَّب، ﴿فتاب عليه وَهَدى(١٢٢)﴾ إِلَى الثبات عَلَى التوبة، والتسبُّب بأسباب العصمة.

﴿قَالَ: اهبطا مِنها جميعا بعضُكم لبعض عدوٌّ﴾ لأمر المعاش، كما عليه الناس مِنَ التجاذب والتحارب. ﴿فإمَّا يأتينكم مِنِّي هُدى فمن اتَّبع هدايَ﴾ قيل: حججه مِن حيث أتته، ﴿فلا يَضِلُّ﴾ بالضلال، لأَنَّهُ عذاب فِي الدارين (لَعَلَّهُ) عَن الجادَّة ﴿ولاَ يَشقَى(١٢٣)﴾ قَالَ ابن عبَّاس: «أجار الله تابع القرآن مِن أن يَضلَّ فِي الدُّنيَا، ويشقى فِي الآخِرَة»، وقرأ: الآيَة[1].

﴿ومَن أعرض عَن ذِكري﴾ عَن الهدى الذاكر لي، والداعي إِلَى عبادتي مِن حيث جاءهم، ﴿فإنَّ لَهُ معيشةً ضَنكا﴾ ضيقا، وذلك لأَنَّ مَجامع همه، ومَطامِح نَظَره يكون إِلَى أغراض الدُّنيَا، متهالكًا عَلَى ازديادها، خائفا عَلَى انتقاصها؛ بخلاف المؤمن الطالب للآخرة، مَعَ أَنَّه تعالى قد يُضيق بشؤم الكفر، ويُوسع ببركة لأهل[2] الإيمان، كما قَالَ: ﴿وضُربت عَلَيْهِمُ الذلَّة

---

١ - أوردها الزمخشريُّ بلفظ: «ضمن الله لمن اتَّبع القرآن...». الكشاف: ٣/٧٤.

٢ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: - «لأهل»، كما هو عند أبي السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص٤٨.

والمسكنة...﴾[1] ﴿ولو أنـّهم أقاموا التّوْرَاة والإنجيل...﴾[2]، ﴿ولـو أنّ أهـل القرى آمنوا...﴾[3] الآيات. وقيل: هُوَ الضريع والزقّوم فِي النار، ويحتمل فِيهِ، لأنّ معيشة الحياة الدُّنْـيَا قليلة فِي جَنب الآخِرَة، كما قَالَ: ﴿فليضحكوا قليـلاً وليبكوا كثيرًا﴾[4] وَعَلَى كُل حال فإنّ معيشـتهم ضنـكٌ، لأنـّهُم ليـس عليهـا يُؤجرون[كَذَا]. وروي عَن ابن عـبّاس أنـّه قَالَ: «كلُّ مَا أعطـى العبـد قـلّ أو كَثُر، فلم يتّق فِيهِ، فلا خير فِيهِ، وَهُوَ الضنك فِي المعيشة». وإنّ قومـا أعرضـوا عَن الحق وكَانوا أولي سـعة مـن الدُّنْـيَا مكـثرين، وكـانت معيشـتهم ضنكـاً، وذلك أَنـّهُمْ كَانُوا يرون أنّ الله ليس بمخلـف عَـلَيْـهِـم، فاشتدّت عَـلَيْـهِـم من سوء ظنـهم[5]. ﴿**ونَحشره يوم القيامة أعمى(١٢٤)**﴾ أعمى البصـر، أو القلب؛ ويؤيـد الأوّلَ [قولُه]:

﴿**قَالَ: رَبِّ لِمَ حَشرتني أعمى، وقد كُنتُ بصيرا(١٢٥)؟ قَالَ: كذلك أتتك آياتنا فنسيتها**﴾ فتعامَيت عنها، وتركتها غير منظور إِلَيها[6]، ﴿**وكذلك**﴾ ومِثل تَركِك إِيـّاهَا ﴿**اليوم تُنسى(١٢٦)**﴾ تترك فِي العَمَى والعذاب.

---

١ - سورة البقرة: ٦١؛ ومحلُّ الشاهد تمامها: ﴿وباءوا بغضبٍ من الله، ذلـك بأنـّهم كـانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيـين بغير الحَق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾.

٢ - سورة المائدة: ٦٦؛ وتمامها: ﴿ولو أَنّهُمْ أقاموا التـوراة والإنجيـل ومـا أنـزل إليهـم مـن ربـهم لأَكَلوا مِن فوقِهم ومِن تحتِ أرجلِهم﴾.

٣ - سورة الأعراف: ٩٦؛ وتمامها: ﴿ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقَوا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض، ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾.

٤ - سورة التوبة: ٨٢.

٥ - وضع الناسخ هنا إحالة إلى الحاشية وكتب فيها: «هَذَا الكلام لَعَلّهُ لم يتمّ».

٦ - كذا فِي الأصل، وَفِي الكشّاف: «وتركتها وعميت عنها». ٣/٧٥.

﴿وكذلك نَجزي مَن أسرَفَ﴾ بالانهماك فِي الشهوات، والإعـراض عَـن الآيـات، ﴿ولم يُؤْمِـنُ بـآيَـاتِ رَبـِّهُ﴾ بـ[الـ]ـعذابِ الأدنـــى، لأَنـــَّهُ قَـــالَ: ﴿ولَعذاب الآخِرَة أشدُّ وأبقى(١٢٧)﴾ مِمَّا جُوزيَ بِهِ فِي الدُّنْـيَا.

﴿أفلم يَهدِ لَهُم﴾ أي: أفلم يُبين لَهُم ﴿كَم أهلكنا قبلَهم[1] مِنَ القرون [٣٦٠] يَمشـون فِي مسـاكنهم﴾ ويُشـاهدون آثـار هلاكهـم. ﴿إنَّ فِي ذَلِـكَ لآيات لأولي النُّـهَى(١٢٨)﴾ لذوي العقول الناهية عَن التغافل والتعامِي.

﴿ولولا كلمةٌ سَبقت مِن رَبّـكَ لكَانَ لِزاما﴾ لكـان مثـل مَـا نَـزل بعَـادٍ وثمود، لاَزِما لهؤلاء الكَفَرة. ﴿وأجلٌ مُسَمًّى(١٢٩)﴾ عطف عَلَى «كَلِمـةٌ»؛ أي: ولولا العِدَة بتأخير العذاب، وأجلٌ مُسمًّى لأعمارهم.

﴿فاصبر عَلَى مَا يقولون﴾ مِنَ الإفك، لأَنـَّهُ يتأذَّى بِهِ، وَلاَ يُدفع إلاَّ بالصـبر، ﴿وسبِّح بِحمد رَبِّكَ﴾ وصَل، وأثنِ حامدا لرَبّـكَ عَلَى هدايته وتوفيقه؛ أو نزهــه عَن الشرك، وسائر مَا يضيفون إِلَيْـهِ مِنَ النقائص، حامدا لَهُ عَلَى مَا ميَّزك بالهدى، مُعترفا بأنـَّه المولي للنـعم كلِّها. ﴿قبل طلوع الشمس﴾ قبل صلاة الغداة، ﴿وقبل غُروبها. ومن آناء الليل﴾ مِن ساعته؛ ﴿فسبِّح﴾ قبـل المغـرب والعشـاء. وإنـَّما قدَّم الزمان فِيهِ لاختصاصه بمزيد الفضل؛ فإن القلب فِيـهِ أجمـع، والنفـس أميـل إِلَى الاستراحة، فكانت العبادة فِيهِ أحسن، ولذلـك قَـالَ: ﴿إنَّ ناشئة الليـلِ هِـيَ أشـدُّ وَطْـأً وأقومُ قِيلا﴾[2]. ﴿وأطرافَ النهار لَعَلَّكَ تَرضَـى(١٣٠)﴾ أي: تُسبح فِي هَذِهِ الأوقات طمعا أن تنال عند الله مَا بِهِ تَرضى نفسُك.

١ - في الأصل: «مِن قبلِهم»، وهو خطأ.

٢ - سورة المزمل: ٦.

﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عينيك إِلَىٰ مَا متَّعنا بِهِ﴾ استحسانا له، وتمنيا أن يكون لَك مثله. ﴿أزواجا مِنْهُم﴾ أصنافا مِنَ الكفرة، (لَعَلَّهُ) لأَنَّ كلَّ صنف مُتِّع بِمَا لم يُمتَّع بِهِ الصنف الآخر، والكلُّ لاَ خير فِيهِ بَل هُوَ شرٌّ لَهُم؛ ﴿زهرةَ الحياة الدُّنْيَا﴾ أي: زينتها وبهجتها وغرورها، ﴿لنفتنهم فِيهِ﴾ لنعذِّبهم فِي الدُّنْيَا والآخِرَة بسببه. ﴿ورزقُ رَبِّكَ﴾ وَمَا ادَّخر لك فِي الآخِرَة؛ أو رزقك مِنَ الهدى والنبوَّة؛ أو مَا رزقك الله مِنَ الحلال، ﴿خير﴾ مِمَّا منحهم فِي الدُّنْيَا ﴿وأبقى(١٣١)﴾ فإنَّه لاَ ينقطع.

﴿وأمُر أهلكَ بالصلاة﴾ أمَرَه بأن يَأْمُر أهل بيته بالصلاة، بعد مَا أمَره بها، ليتعاونوا عَلَى الاستعانة فِي خصاصتهم، وَلاَ يهتمُّوا بأمر المعيشة، وَلاَ يلتفِتوا لَفْتَ أرباب الثروة، ﴿واصطبر عليها﴾ وداوم عليها بالتصبُّر. ﴿لاَ نسألك رِزْقًا﴾ لاَ نُكلِّفك أن ترزق نفسك، ولاَ[1] أهلك، إِنَّمَا نُكلِّفك عملا، ﴿نَحْنُ نرزقك﴾ وإيَّاهم، ففرغ بالك لأمر الآخِرَة. ﴿والعاقبةُ﴾ المحمودة ﴿للتَّقوى(١٣٢)﴾ لذي التقوى.

﴿وَقَالُوا: لولا يأتينا بِآيَةٍ مِن ربِّهِ﴾ تدلُّ عَلَى صِدقه فِي ادعاء[2] النبوَّة؛ أو بِآيَةٍ مُقترحة؛ إنكارا لِمَا جاء بِهِ مِنَ الآيات؛ أو للاعتداد بِهِ تعنُّتا وعنادا؛ فألزمهم بإتيانه بالقرآن الذي هُوَ أمُّ المعجزات وأعظمها وأبقاها، لأَنَّ حقيقة المعجزة: اختصاص مُدَّعي النبوَّة بنوع من العلم أو العمل عَلَى وجه خارق للعادة؛ وَلاَ شكَّ أَنَّ العلم أصلُ العمل، وأعلى مِنْهُ قدرا، وأبقى أثرا؛ فكذا مَا كَانَ من هَذَا القبيل. وينبههم أَيْضًا عَلَى وجه أبين من وجوه إعجازه

---

١ - فِي الأصل: «والا»، وهو خطأ.

٢ - فِي الأصل: «الدعاء»، وهو خطأ.

المختصَّة بهذا الباب، فقال: ﴿**أولم تأتهم بيِّنة مَا فِي الصحف الأولى(١٣٣)**﴾ مِنَ التَّوْرَاة والإنجيل، وسائر الكتب السماويَّة، فإنَّ اشتمالها عَلَى مَا فِيهَا مِنَ العقائد والأحكام الكلِّيَّة ـ مَعَ أنَّ الآتي بها أميٌّ لم يَرها، ولَم يتعلَّم مِمَّن عَلِمها ـ إعجاز بين؛ وفيه إشعار بأنَّه كمال يدلُّ عَلَى نبوَّته، [و]بُرهان لِمَا تقدَّمه مِنَ الكتب، من حيث أنَّه مُعجِز، وتلك ليست كذلك، بَل هِيَ مُفتقرة إِلَى مَا يَشهد عَلَى صِحَّتها.

[٣٦١] ﴿**ولو أنَّا أهلكناهم بعذاب مِن قبله**﴾ مِن قَبل القرآن؛ أو محمَّد؛ ﴿**لقالوا: رَبَّنَا**[1] **لولا أرسلت إلينا رسولا**﴾ يدعونا، ﴿**فنتَّبع آياتك مِن قبلِ أن نَّذِلَّ ونَخزى(١٣٤)**﴾ وهذا كقوله: ﴿أن تقولوا: مَا جاءنا مِن بشير وَلاَ نذير﴾[2]، وقوله: ﴿أن تقولوا: إنَّمَا أُنزل الكتاب عَلَى طائفتين مِن قبلنا، وإن كُنَّا عَن دِرَاستهم لغافلين؛ أو تقولوا لو أنَّا أُنزل علينا الكتابُ لكنَّا أهدى مِنْهُم، فقد جاءكم بينة من رَبكُم وهُدى ورحمة﴾[3].

﴿**قل: كُلٌّ**﴾ مِنَّا ومنكم ﴿**مُتَربِّص**﴾ مُنتظر لِمَا يؤول إِلَيْهِ أمرُنا وأمرُكم. ﴿**فتربَّصوا؛ فستعلمون**﴾ بعين اليقين عند الموت، أو الجزاء. ﴿**مَن أَصحابُ الصِّرَاط السَّوِيِّ**﴾ المُسْتَقِيم، ﴿**ومَن اهتدَى(١٣٥)**﴾ مِنَ الضلالة، نَحْنُ أم أَنتُم.

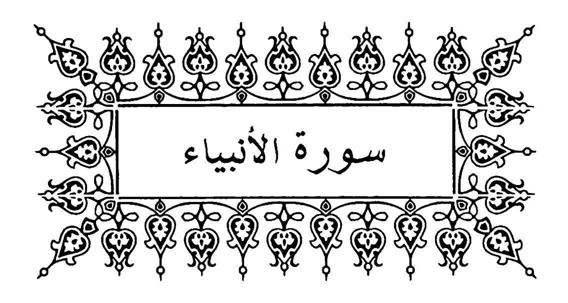


---

١ - في الأصل: - «ربَّنا»، وهو سهو.

٢ - سورة المائدة: ١٩.

٣ - سورة الأنعام: ١٥٦-١٥٧.



# سورة الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿**اقتربَ للنَّاس حِسابُهم**﴾ أي: انقضاء آجالهم مِنَ الدُّنْيَا، أو وقوع القيامة، لأنَّ كلَّ مَا هُوَ آت قريب، ﴿**وَهُم فِي غفلة**﴾ أغفلهم الشيطان، ﴿**معرضُونَ(١)**﴾ أي: فِي غفلة مِنَ الحساب مُعرضون عن التفكُّر فِيهِ، والعمل بِمقتضاه.

﴿**مَا يأتيهم مِن ذِكرٍ**﴾ يُنبِّههم عَن سِنَة الغفلة والجهالة، ﴿**مِن ربهم مُحدَث**﴾ تنزيله، ليكرِّر عَلَى أسماعهم التنبيه كي يتّعظوا، ﴿**إلاَّ استمعوه**﴾ استماع البهائم ﴿**وَهُم يلعبُونَ(٢)**﴾ يستهزئون بِهِ، ويستسخرون مِنْهُ، لتناهي غفلتهم، وفرط إعراضهم عَن النظر فِي الأمور، والتفكُّر فِي العواقب.

﴿**لاَهيَةً قلوبُهم**﴾ أي: استمعوه جامعين بين الاستهزاء بِهِ، والتلهِّي عَنْهُ بغيره، والذهول عَن التفكُّر فِيهِ، ﴿**وأسرُّوا النجوَى**﴾ بالغوا فِي خَفَائها[1] ﴿**الذِينَ ظَلموا، هل هَذَا إلاَّ بشرٌ مثلكم**﴾؟ تكذيبا لَهُ. ﴿**أفتأتون السحر وأنتم تُبصرُونَ(٣)**﴾؟ كأنَّهم استدلُّوا (لَعَلَّهُ) ببَشريَّته عَلَى كَذِبه فِي ادِّعاء

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «إخفائها». كما عند أبي السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص٥٤.

الرسالة، لاعتقادهم أنَّ الرسولَ لاَ يكـون إلاَّ مَلَكـا؛ واستلزموا مِنـْهُ أنَّ [مـا] جاء به مِنَ الخوارق كالقرآن سِحرٌ، فأنكروا حضوره. وإنّـما أسرُّوا بِهِ تَشاورًا فِي استنباط مَا يَهدِم أمرَه، ويُظهِر فساده للناس عامَّة.

﴿قَالَ: رَبـي يَعلـم القـولَ فِي السَّمَـاء والأَرْض﴾ جهـرا كَـانَ أو سـرًّا، فضلا عمَّا أسرُّوا بِهِ، ﴿وَهُوَ السميع العليم(٤)﴾ فِيهِ وعدٌ ووعيد.

﴿بَل قَالُوا: أضغاثُ أحلامٍ، بَل افتراه، بَـل هُـوَ شـاعر﴾ إضراب لَهُـم عَـن قولهم هُوَ سِحر، إِلىَ أنَّه تخاليط الأحلام، ثُمَّ إِلىَ أنَّه كلام افتراه، ثُمَّ إِلىَ أنَّه قـولُ شاعر، ﴿فليأتنا بـآيَةٍ كما أُرسِل الأوَّلُونَ(٥)﴾ مثل اليد البيضاء والعصا.

﴿مَا آمنت قبلَهم مِـن قريـةٍ أهلكناهـا﴾ باقـتراح الآيـات لَمَّـا جـاءتهم، ﴿أفهم يُؤْمِنُونَ(٦)﴾ لو جِئتَهم بها وَهُم أعمى مِنـْهُم ؟ . وفيه تنبيه عَلَـى أنَّ عَدم الإتيان بالـمُقـتَرَح للإبقاء عليهـم؛ إذ لـو أتـى بـه لم يؤمنـوا، واستوجبوا عذابَ الاستئصال، كَمَن قبلَهم.

﴿وَمَا أرسلنا قَبلَك إلاَّ رجالاً نُوحي إِلَيْهِم، فاسألوا أهلَ الذكرِ إن كُنتـُم لاَ تعْلَمُونَ(٧)﴾ جواب لقوهم: ﴿هل هَذَا إلاَّ بشرٌ مثلُكـم﴾ فـأمرهـم أن يسـألوا مُؤمني أهل الكتاب عَن حال الرسلِ المتـقـدِّمة، لتـزول عَـنـْهُم الشبهة؛ وقيل: أَرَادَ بالذكر: القرآن، أي: فاسألوا المؤمنـين العَـالِمِينَ بـالتنزيل، (لَعَلَّهُ) الراسـخِينَ[1] فِي التأويل، وفيه إيجابٌ للسؤال للعبد إِذَا حلَّ فيما لاَ يسعه من أمر دينه.

---

١ - فِي الأصل: «الرسخين»، وهو خطأ.

﴿وَمَا جعلناهم جَسَدا لاَ يأكلون الطعامَ﴾ قيل: جواب لقولهم: ﴿مَا لِهذا الرسول يأكل الطعام﴾[1]، ﴿وَمَا كَانُوا خالدِينَ(٨)﴾ توكيد وتقرير لَهُم، فإنَّ التعيُّش بالطعام مِن توابع التحلُّل المؤدِّي إلىَ الفناء[2]. ﴿ثمَّ صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومَن نَّشاء﴾ يعني: المؤمنين [٣٦٢] بهم. ﴿وأهلكنا المسرفِينَ(٩)﴾ وهكذا سنَّة الله فِي خلقه.

﴿لَقَد أنزلنا إليكم كِتَابًا فِيهِ ذكركم﴾ صيتكم، ﴿وإنَّه لَذِكرٌ لك ولِقومك﴾[3]، أو موعظتكم، أو مَا تطلبون بِهِ حسنَ الذكر مِن مكارم الأخلاق، ﴿أفلا تعقلُونَ(١٠)﴾ فتؤمنون.

﴿وكم قَصَمنَا مِن قريةٍ﴾ واردة عَن غضب عظيم، لأنَّ القَصْمَ: كسرٌ يُبين تَلاؤمَ الأجزاء، بخلاف العَصْمَ، ﴿كَانَت ظالمة﴾ بسبب ظلمهم، ﴿وأنشأنا بعدها قوما آخرِينَ(١١)﴾ مكانهم، ﴿فَلَمَّا أحسُّوا بأسَنَا﴾ فَلَمَّا أيقنوا مِن وقوع عذابنا ﴿إذَا هُم منها يركُضُونَ(١٢)﴾ يُهزَمون مسرعين، (لَعَلَّهُ) هاربين ﴿لاَ تَركضوا﴾ عَلَى إرادة القول، أي قيل لهم استهزاء: «لاَ تَركضوا» إمَّا بلسان الحال أو المقال؛ وهذا الوعيد يعمُّ كلَّ مَن مات عَلَى شيء مِن معاصي الله مُصرًّا، ﴿وارجِعوا إلىَ مَا أُترفتم فِيهِ﴾ مِنَ التنعُّم

---

١ - سورة الفرقان: ٧.

٢ - في الأصل: «التحليل المؤدِّي إلىَ القياء»، ولا مَعنَى له. والصواب ما أثبتناه اعتمادا عَلَى أبي السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص٥٧.

٣ - سورة الزخرف: ٤٤.

والتلذُّذ؛ والإتراف: إبطارُ النعمة، ﴿**ومساكِنِكُم**﴾ التِي كَانَت لكم، ﴿**لَعَلَّكُم تُسألُونَ(١٣)**﴾ غدًا عَن أعمالكم؛ أو يسألكم أهلكم إذَا رجعتم. وقال قتادة: «لَعَلَّكُم تُسألون شَيْئًا مِن دُنيَاكم فتعطون مَن شئتم، وتَمنعون مَن شئتم»؛ يقولون[1] ذَلِكَ استهزاء بهم.

﴿**قَالُوا: يا ويلنا إنَّا كُنَّا ظالِمِينَ(١٤)**﴾ لمَّا رأوا العذاب، و لم يروا وجه النجاة. ﴿**فما زالت تلكَ دعواهم**﴾ فما زالوا يُردِّدون ذَلِكَ، إلىَ أن قُبضت أرواحهم عَلَى ذَلِكَ العذاب، وكانت دعواهم عذابا لَهُم فوق عذاب البأس؛ وإنَّما سَمَّاه دَعوى، لأنَّ المُوَلْوِلَ كَانَ يدعو بالويل: تعالَ فَهَذَا أوانك[2]. ﴿**حتَّى جعلناهم حصيدا**﴾ مثل الحصيد: وَهُوَ النَّبتُ المحصود، ﴿**خامدِينَ(١٥)**﴾ مَيتِّين، مِن "خَمَدَت النارُ".

﴿**وَمَا خلقنا السَّمَاء والأَرْض وَمَا بينهما لاعبِينَ(١٦)**﴾ وإنَّما خلقناهما مشحونة بِضُروب البدائع، تَبصِرةً للنُّظَّار، وتذكرةً لذوي الاعتبار، وتسبُّبا لِمَا تنتظم بِهِ أمور العباد فِي المعاش والمعاد؛ فينبغي أن يتوسَّلوا بها إلىَ تَحصيل الكمال، وَلاَ يَغترُّوا بزخارفها، فإنَّها سريعة الزوال.

﴿**لَو أردنا أن نتَّخذَ لهوا**﴾ مَا نَتَلَهَّى بِهِ ونلعب، و﴿**لاتَّخذناه مِن لَدُنَّا**﴾ مِن جهة قدرتنا، أو مِن عندنا؛ فما يليق بِحضرتنا مِنَ المجرَّدات لاَ مِنَ

---

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الأصوب: «يقال لهم».

٢ - يبدو أنَّ فِي العبارة خللا، وَفِي الكشَّاف: «لأنَّ المولول كأنَّه يدعو الويلَ فيقول: تعالَ ياويلُ فَهَذَا أوانُكَ». الزمخشري: الكشَّاف، ٨٣/٣. وانظر: أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص٥٩.

الأجسام المرفوعة، والأجرام المبسوطة، كعادتهم فِي رفع السقوف وتزويقها، وتسوية الفرش وتزيينها[1]؛ وقيل اللهو: الولد بلُغَة اليمن؛ وقيل: الزوجة؛ والمُرَاد: الردُّ عَلَى النصارى، ﴿إن كُنَّا فاعِلِينَ(١٧)﴾ ذَلِكَ، ويدلُّ عَلَى حَذف الجواب المتقدِّم.

﴿بَل نقذفُ بِالْحَق عَلَى الباطل﴾ إضراب من اتِّخَاذ اللهو، وتنزيه لذاته مِنَ اللعب؛ أي: بَل مِن شأننا أن نقلب الحقَّ الذِي من جملته الحد عَلَى الباطل، الذِي مِن عداده[2]، ﴿فَيدمَغُه﴾ فَيمحَقه. وإنَّما استعار لذلك "القَذفَ" وَهُوَ الرمي المستلزم لصلابة الرمي، و"الدمغَ" الذِي هُوَ كَسر الدماغ، بحيث يشقُّ غشاءه المؤدِّي إِلَى زُهوق الروح، تصويرا لإبطاله بِهِ ومبالغةً. ﴿فإذا هُوَ زاهق﴾ هالك؛ والزهوق: ذهاب الروح؛ والمعنى: أن يبطل كَذِبهم لِمَا تبيِّن مِنَ الحقِّ، حتَّى يَضمحلَّ الباطلُ فلا يبقى لَهُ أثرٌ، ﴿ولكم الويلُ مِمَّا تَصفُونَ(١٨)﴾ مِمَّا لاَ يَجوز عليه.

﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَات والأَرْض﴾ خَلقا ومُلكا ﴿ومَن عندَه﴾ يعني: المَلاَئِكَة المنزَّلين مِنْهُ ـ لكرامتهم عليه ـ منزلةَ المقرَّبين عند الملوك، ﴿لاَ يَستكبرون عَن عبادَته﴾ لاَ يَتعظَّمون عنها، ﴿وَلاَ يَستحسِرُونَ(١٩)﴾ وَلاَ يَعيون منها؛ وإنَّما [٣٦٣] جيء بالاستحسار الذِي هُوَ أبلغ مِنَ الحسور،

١ - فِي الأصل: «وتزيُّنها».

٢ - كذا فِي الأصل، وَفِي العبارة خلط كبير، وصوابها: «بَل مِن شأننا أن نغلِّب الحقَّ ـ الذِي من جملته الجدُّ ـ عَلَى الباطل، الذِي مِن قبيله اللهوُ». أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص٦٠.

تَنبيها عَلَى أنَّ عِبادَتهم بثقلها ودوامِها حقيقةٌ بِأن يُستحسَرَ منها، وَلاَ يستحسرون. ﴿**يُسبحون الليلَ والنهار**﴾ وينزِّهونه ويعظِّمونه دائما، ﴿**لاَ يفترُونَ(٢٠)**﴾ لأَنَّ الشيطان لاَ يأتيهم بالوسوسة فيشغل قلوبهم بالغفلة كما يأتي بني آدم. وَاللّٰه تبارك تعالى مستحقٌّ للتسبيح والتقديس، والتنزيه عمَّا لاَ يليق بِهِ فِي كُلِّ حال؛ فمن ذَلِكَ لاَ يفترون بغفلة، وَلاَ يستحسرون مِن عياء، وَلاَ يَسأمون من ساءمه ليلاً ونهارًا[كَذَا]. وكذلك تسبيح الجمادات ومن لاَ يعقل، وسجودها دائما فِي كُلِّ وقت؛ وكذلك توحيد المؤمنين للّٰه تعالى وطاعتهم له، وتسبيحهم لَهُ دائماً بلسان الحال، وإن غفلوا عَن النطق بِهِ بلسان المقال، وَلاَ يفتر عَن طاعة اللّٰه وتسبيحه وتنزيهه - فِي الحقيقة - إلاَّ من عصاه، وخرج من جملة التوحيد.

﴿**أم اتَّخَذوا آلهةً**﴾ بَل اتَّخَذوا آلهة، يعني: الأصنام، ويعمُّ كُلَّ مَا خالف الحقَّ؛ والهمزة لإنكار اتِّخَاذهم، ﴿**مِنَ الأَرْض**﴾، وفائدتها التحقير دون التخصيص، ﴿**هم ينشرُونَ(٢١)**﴾ الموتى؛ والمراد: تجهيلهم والتهكُّم بهم.

﴿**لو كَانَ فيهما آلهة إلاَّ اللّٰه**﴾ غير اللّٰه ﴿**لَفَسَدَتا**﴾ لَبَطُلَتا، لِمَا يكون بينهما مِنَ الاختلاف والتمانع، فإنَّها إن توافقت فِي المراد تطاردت عليه القدر، وإن تَخالفت فِيهِ تعاوقت عَنْهُ؛ ﴿**فسبحانَ اللّٰه رَب العرش**﴾ المحيط بجميع الأجسام، الذِي هُوَ محلُّ التدابير، ومنشأ المقادير، ﴿**عَمَّا يصفُونَ(٢٢)**﴾ من اتِّخَاذ الشريك والصاحبة والولد.

﴿لاَ يُسأَل عَمَّا يَفعَل﴾ عَن حكمه فِي عباده، لعظمته وقوَّة سلطانه، وتفرُّده بالألوهيَّة الذاتيَّة، ﴿وَهُم يُسأَلُونَ(٢٣)﴾ عمَّا عملوا، لأَنـَّهُم لَهُ مَملوكون مُستَعبَدُون مُجَازَوْن.

﴿أم اتَّخَذوا من دونه آلهة﴾ كرَّره استفظاعا لأمرهم وتبكيتًا، وإظهارًا لِجهلهم؛ ﴿قل: هاتوا برهانكم﴾ عَلَى ذَلِكَ، إمَّا مِنَ العقل أو مِنَ النقل؛ فإنـَّه لاَ يصحُّ القول بِمَا لاَ دليل عليه، كيف وقد تطابقت الحجج عَلَى بُطلانه عقلاً ونقلاً، ﴿هَذَا ذكر مَن مَعِي وذِكر مَن قَبلي﴾ من الكتب السماويَّة، فانظروا هل تجدون فِيهَا إِلاَّ الأمر بالتوحيد، والنهي عَن الإشراك جليًّا وخفيًّا. و«من معي»: أمَّته، و«من قبلي»: الأمم المتقدِّمة. وإضافة[1] الذكر إِلَيْهِم لأَنَّهُ عظتهم. ﴿بَل أكثرهم لاَ يَعْلَمُونَ الحَقَّ﴾ وَلاَ يُميِّزون بينه وبين الباطل، بقلَّة تدبُّرهم وتعلُّمهم، وإنـَّما يأخذون ظواهر الأمور تساهلا للنُّفوس، ﴿فَهُم مُعرضُونَ(٢٤)﴾ عَن التوحيد، واتِّباع الرسول، وعن التدبُّر فِي حقائق الأمور.

﴿وَمَا أرسلنا مِن قبلِك مِن رسولٍ إِلاَّ نُوحي إِلَيْهِ أَنـَّهُ لاَ إله إِلاَّ أنا فاعبدونِ(٢٥)؛ وَقَالُوا: اتَّخَذَ الرحمن ولدا﴾ نزلت فِي خُزَاعة حيث قَالُوا: «المَلاَئِكَة بناتُ ا لله». ﴿سبحانه﴾ تنزيه لَهُ عَن ذَلِكَ، ﴿بَل عبادٌ﴾ بل هم عباد مِن حيث أنـَّهم مَخلوقون؛ وليسوا بأولاد ﴿مُكرَمُونَ(٢٦)﴾ مُقرَّبون. شهد لنفسه بالتنزيه عَن قولهم وفعلهم بالباطل.

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «وأضَافَ».

﴿أولم يَرَ الذِينَ كَفَرُوا أنَّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ كانـتا رَتْـقًا﴾ ذات رَتْقٍ؛ أو مَرتُوقَتَين: وَهُوَ الضمُّ والالتحام، أي: كانتـا شيـئًا واحـدًا، ﴿ففتقناهمـا﴾ بالتنويع والتمييز؛ وكانت السَّمَاوَات وَاحِدَة، فَفُتِقَت بالتحريكات المختلفـة، حتّى صارت أفلاكًا، وكانت الأَرْضون وَاحِدَة؛ فجُعلـت بـاختلاف كيفياتهـا وأحوالِها طبقات أو أقاليم. وقيل: كانتـا بِحيـث لاَ فُرجـة بينهمـا، فَفُـرِج[1]؛ وقيل: ﴿كانتـا رَتقـا﴾: لاَ تُمطـر وَلاَ تُنبـت، ﴿ففتقناهمـا﴾ بـالمطر والنبـات؛ فيكون المراد بالسماوات: سماء الدُّنْـيَا، جَمَعَها باعتبار الآفـاق؛ أو السَّـمَاوَات بأسرها، عَلَى أنَّ لها مدخلا مَا فِي الأمطار. والكفرة وإن لَم يعلموا ذَلِـكَ فَهُـم متمكّنون من العلم بِهِ نظرًا؛ فإنَّ الفتقَ عارضٌ مفتقرٌ إِلَى مُؤثـِّر واجـب ابتـداء، أو استسفارا[2] مِنَ العلماء، أو مطالعة الكتب.

﴿وجعلنا مِنَ الماءِ كلَّ شيء حيٍّ﴾ وخلقنا مِنَ الماءِ كُلَّ حيـوان، كقولـه: ﴿وا لله خلق كُلَّ دَابـَّة مِنَ ماء﴾[3]، وذلك لأنـَّه أعظم موادِّه، ولفرط احتياجه لَهُ وانتفاعه بِهِ بعينه، أو صيَّرنا كـلَّ شـيء حيٍّ بسـبب مِـنَ المـاء لاَ يَجـيء[4] دونه، ﴿أفلا يُؤْمِنُونَ(٣٠)﴾ عَلَى ظهور الآيات.

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «ففرجتا».

٢ - كذا في الأصل، وَفِي تفسير أبي السـعود: «وإمـَّا بالاستفسـارِ مِـنَ العلمـاء، أو مطالعـة الكتب». أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص٦٥.

٣ - سورة النور: ٤٥. وفي الأصل: «من الماء» وهو خطأ.

٤ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «لا يَحيَى».

﴿لاَ يسبقونه بالقول﴾ لاَ يقولون شيئا خلاف قوله حيث يقوله كما [هو] ديدن العبيد المؤدَّبين؛ وأصله لاَ يسبق قولُهم قولَه، فنسب الفعل: "السبق" إِلَيْهِ وإِلَيْهِم[1]، المعرِّض بِهِ للقائلين عَلَى ا لله مَا لم يَقله؛ وأُنيب اللام عَن الإضافة اختصارا، وتجافيًا عَن تكرير الضمير، ﴿وَهُم بأمره يَعْمَلُونَ(٢٧)﴾ لاَ يعملُونَ قطُّ مَا لم يَأْمُرُهم بِهِ.

﴿يعلم مَا بين أيديهم وَمَا خَلْفَهم﴾ لاَ تَخفى عليه خافية مِمَّا قدَّموا وأخَّروا؛ فإنَّهم لإحاطتهم بذلك يَضبطون [٣٦٤] أنفسهم، ويراقبون أحوالهم، ﴿وَلاَ يَشفعون إلاَّ لِمَن ارتَضَى﴾ أن يُشفع لَهُ، مَهابة مِنْهُ تعالى، ﴿وَهُم من خَشيتِهِ﴾ عَظَمَتِه ومَهَابَتِه ﴿مُشفِقُونَ(٢٨)﴾ مُرتَدعون؛ وأصل الخشية: خوفٌ مَعَ تعظيم؛ ولذلك خَصَّ بِهِ العلماء[2].

﴿ومن يَقُل مِنْهُم﴾ مِنَ المَلاَئِكَة، أو مِنَ الثقلين المتعبِّدين: ﴿إِنـي إلهٌ مِن دونه﴾ وذلك يضُمُّ كُلَّ مَن دعا إِلَى طاعة نفسه بغير حقٍّ، ﴿فذلك نَجزيه جهنَّم﴾ يريد بِهِ نفيَ النبوَّة، وادعاءِ ذَلِكَ عَن المَلاَئِكَة، وتهديد[3] للمشركين بتهديد مدَّعي الربوبيَّة. ﴿كذلك نَجزي الظالِمِينَ(٢٩)﴾ مَن ظَلَمَ بالإشراك، وادِّعاء الربوبيَّة.

---

١ - انظر نحوَ هَـذِهِ العبارة : أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص٦٣. الألوسي: روح المعاني، ٣٢/١٧.

٢ - في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخشَى ا لله من عبادِهِ العلماءُ﴾ سورة فاطر: ٢٨.

٣ - كذا في الأصل، ولعلَّ الأصوب: «وتهديدًا»، أي: ويريد به تهديدًا...

﴿**وجعلنا فِي الأَرْض رواسي**﴾ ثابتات ﴿**أن تَميد بهم**﴾ لأَن لا تميد، فحذف إلاَّ عن الالتباس[1]، ﴿**وجعلنا فِيهَا**﴾ فِي الأرض أو الرواسي ﴿**فِجاجًا سُبُلا**﴾ مسالك واسعة، ﴿**لَعَلَّهُم يهتدُونَ(٣١)**﴾ إِلىَ مصالحهم. ﴿**وجعلنا السَّمَاءَ سقفا مَحفوظا**﴾ عَن الوقوع بقدرته؛ أو الفسادِ والانحلال إِلىَ الوقت المعلوم بمشِيئَته؛ أو استراقِ السمع بالشهب، ﴿**وَهُم عَن آياتها**﴾ وأحوالها الدالَّة عَلَى وجود الصانع ووحدته وكمال قدرته، وتناهِي حكمته التِي يُحسُّ ببعضها (لَعَلَّهُ) شمسها وقمرها ونجومها وَمَا فِيهَا؛ ويبحث عَن بعضها فِي علمي الطبيعة والهيئة، ﴿**مُعرضُونَ(٣٢)**﴾ غير مُتفكِّرين فِي آياتها وَلاَ مُعتبرين.

﴿**وَهُوَ الذِي خَلَقَ الليل والنهارَ والشمسَ والقمرَ**﴾ بيانٌ لبعض تلك الآيات، ﴿**كلٌّ فِي فَلَك**﴾ أي: كُلُّ وَاحِد مِن ذَلِكَ، ﴿**يسبحُونَ(٣٣)**﴾ يُسرعون عَلَى سَطح الفلك، إسراعَ السابح عَلَى سَطح الماء.

﴿**وَمَا جعلنا لِبَشر مِن قَبلك الخلدَ**﴾ دوام البقاء عَلَى الدُّنْيَا، لأَنـَّهَا دار تعبُّد، وليس بعد التعبُّد إلاَّ الجزاء، ﴿**أفإن مِتَّ فَهُم الخالدُونَ(٣٤)**﴾ أي: فَهُم الخالدون إن مِتَّ. نزَلَت حين قَالُوا: ﴿نتربَّص بِهِ رَيبَ المنون﴾[2].

﴿**كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت**﴾ ذائقةُ مرارة مفارقتها جسدها؛ لَم يَخلق ا لله الموتَ لعباده عبثا، بَل لِحكمة أو حِكَم؛ ومِن ذَلِكَ رُبـَّما يكون لزيادة ثواب للمؤمنين،

١ - كذا في الأصل، والصواب ما جاء في تفسير أبي السعود: «فحذف "اللام" و"لا" لعدم الإلباس». المصدر نفسه.

٢ - سورة الطور: ٣٠.

وزيادة عذاب للكَافِرِينَ. ﴿ونبلوكم﴾ ونُعَامِلكم معاملةَ المختبر ﴿بالشر﴾ (لَعَلَّـهُ) مِن قليلِ ذَلِكَ وجليله؛ فالمؤمن [٣٦٥] يَخرج مِنَ الابتلاء بالسرَّاء والضرَّاء بزيادة ثواب عمَّا كَانَ عِند دخوله فِيهِ، مِن قِبَلِ صبره للضرَّاء، ولو فِي قرص نملة، أوالتصدُّق بحبَّة؛ أو شكره للسرَّاء، ولو ناله أدنى مَسرَّة، ولو تجشى جشوة[1] فحمد الله عَلَى ذَلِكَ؛ والكافر يَخرج مِنَ الابتلاء بزيادة عِقابٍ إِذَا خَرج غير شاكر للسرَّاء، وَلاَ صابر للضرَّاء، فعذابه (لَعَلَّهُ) بتضييعه للفرض، وإن أدَّى الفرض فِي ذَلِكَ فغير مقبول مِنهُ؛ وتَحسُّره عَلَى فوات الثواب هُوَ عين العذاب، لأَنَّهُ عاصٍ، وعمله مردود عليه، كما قَالَ: ﴿إن هِيَ إلاَّ فتنتُك...﴾[2] الآية، فصحَّ أنَّ الضرَّاء صارت للمؤمن سرَّاء، إذ فِي العاقبة مأجور عَلَى فِعلها، والأمور للعواقب؛ والسرَّاء للكافر ضرَّاء، إذ [هو] معاقب عليها فِي العاقبة؛ فصحَّ أنَّ الخير لاَ يكون إلاَّ لأهل الخير، والشرَّ لاَ يكون إلاَّ لأهل الشرِّ. ﴿والخيرِ فتنةً وإلينا تُرجعُونَ(٣٥)﴾ فَنُجازيكم حسب مَا يوجد منكم مِنَ الصبر والشكر. وفيه تنبيه بأنَّ المقصود مِن هَذِهِ الحياة: الابتلاء. والتعريض للثَّواب والعقاب تقرير لِمَا سبق.

---

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «تجشَّأ جُشَأَةً». «والتجشُّؤ: تنفُّس المعدة عند الامتلاء». والمصدر: تَجَشُّؤ، وجُشاء من باب عُطاس، والاسم: جُشَأَة كهُمَزَة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، ١/٤٦٠. الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ص ٣٥. مادَّة: «جشأ».

٢ - سورة الأعراف: ١٥٥. وتمامها: ﴿...قال: رَبِّ لو شئتَ أهلكتَهم مِن قبلُ وإيَّايَ أتُهلكنا بما فعل السفهاء منَّا، إن هي إلاَّ فتنتك تُضِلُّ بها من تشاء وتهدي من تشاء، أنت وليُّنا، فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾. و لم يتَّضح لنا محلُّ الشاهد فِي الآية بما يوافق السياق.

﴿**وإذا رآك الذِينَ كَفَرُوا إن يتَّخذونك إلاَّ هُزُوًا**﴾ مَا يتَّخذونك إلاَّ هُزؤا، مهزوءًا بِهِ، ويقولون: ﴿**أهذا الذِي يَذكُر آلهتكم**﴾؟ أي: بسوء؛ وإنـَّما أطلقه لدلالة الحال، فإنَّ ذكر العدوِّ لاَ يكون إلاَّ بسوء. ﴿**وَهُم بذكر الرحمن**﴾ بالتوحيد؛ أو بإرشاد الخلق ببعث الرسل، وإنزال الكتب، رحمة عَلَيْهِم؛ أو بالقرآن ﴿**هم كَافِرُونَ(٣٦)**﴾ منكرون، فَهُم أحقُّ أن يُهزَأ بهم.

﴿**خُلِق الإنسانُ من عَجَل**﴾ كأنـَّه خُلق مِنْهُ لفرط استعجاله، وقلَّة تأنِّيه؛ كقولك: خُلِقَ زيد مِنَ الكرم، جُعل مَا طُبع عليه بمنزلة المطبوع هُوَ مِنْهُ، مبالغة فِي الدومة[1] لَهُ، ومن عجلته مبادرته إِلىَ الكفر، واستعجال الوعد. ﴿**سَأُرِيكم آياتي**﴾ نقماتي فِي الدُّنْيَا والآخِرَة، ﴿**فلا تستعجلونِ(٣٧)**﴾ فِي الإتيان بها، والنهي عمَّا جُبِلَت عليه نفوسهم لِيُقعِدوها عَن مُرادها. ﴿**ويقولون مَتى هَذَا الوعد**﴾؟ وقت وعدِ العذاب؛ أو يوم القيامة، ﴿**إن كُنتُم صادقِينَ(٣٨)**﴾ يَعنُون النَّبِيَّ وأصحابه.

﴿**لو يعلم الذِينَ كَفَرُوا حين لاَ يَكُفُّون**﴾ لاَ يَمنعون ﴿**عَن وجوههم النارَ وَلاَ عَن ظهورهم وَلاَ هم يُنصَرُونَ(٣٩)**﴾ أي: لو يَعْلَمُونَ الوقت الذِي يستعجلون مِنْهُ بقولهم: ﴿مَتى هَذَا الوعد﴾ وَهُوَ حين تُحيط بهم النار مِن كُلِّ جانب، بحيث لاَ يقدرون عَلَى دفعها، وَلاَ يَجدون ناصرا يَمنعها لَمَا استعجلوا؛ ﴿**بَل تأتيهم**﴾ العِدَة، أو الساعة ﴿**بغتةً**﴾ فجأة ﴿**فتبهَتُهم**﴾ فتحيِّرهم، ﴿**فلا يستطيعون ردَّها**﴾ ويحتمل فِي قوله: ﴿بل تأتيهم بغتة

١ - كذا فِي الأصل، وَلَعَلَّ الصواب ما ذكره أبو السعود: «لزومه لَهُ». مج٣/ ج٦/ ص٦٧.

فتبهتهم﴾ أي: النار بخروج أرواحهم بَهَتَتهم، أي: كذّبت ظنونَهم الفاسدة، لأنَّ الموت يأتيهم بغتة، من فرط آمالهم؛ ولأنَّهم يأملونه بعيدًا، كانوا في صِحَّة أو مرض؛ ومن ذَلِكَ أنَّهم لاَ يُؤْمِنُونَ وَلاَ يتوبون حتَّى تنزل بهم، فيتحقَّقون وقوعَ العذاب حينئذ. ﴿وَلاَ هُم يُنظَرُونَ(٤٠)﴾ ولا يمهلون، وفيه تذكير بإمهالهم في الدنيا.

﴿وَلَقَد استُهزِئَ برسلٍ مِن قبلك﴾ تسليةً لَهُ، ﴿فحاق بالذين سَخِروا مِنْهُم مَا كَانُوا بِهِ يستهزءُونَ(٤١)﴾ وعدٌ لَهُ بأنَّ مَا يفعلونه يَحيق بهم، كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء مَا فعلوا، يعني: جزاؤه.

﴿قل﴾ يا محمَّد: ﴿مَن يَكلَؤُكم﴾ يَحفظكم ﴿بالليل والنهار مِنَ الرحمن﴾ مِن بَأسِه، إن أَراد بكم؛ وفي لفظِ الرحمن: تنبيه [٣٦٦] عَلَى أن لاَ كالئ غير رحمته العامَّة، وإنَّ اندفاعه بمُهلته [كَذَا]، ﴿بَل هم عَن ذكر ربهم مُعرضُونَ(٤٢)﴾ لاَ يتوقَّعونه ببالهم، فَضلا أن يَخافوا بَأسه، حَتَّى إِذَا أُكلئوا مِنْهُ عَرفوا الكالِئَ، وصلحوا للسؤال عَنْهُ.

﴿أم لَهُم آلهةٌ تَمنعهم مِن دُوننا﴾ مِن عذابنا، ﴿لاَ يستطيعون نصرَ أنفسهم وَلاَ هم مِنَّا يُصحَبُونَ(٤٣)﴾ استئناف بإبطال مَا اعتقدوه، فإنَّ مَن لاَ يقدرُ عَلَى نصرِ نفسه، وَلاَ يصحبه نصر مِنَ الله، كيف يَنصر غيره.

﴿بَل متَّعنا هؤلاء وآباءَهم حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ﴾ إضراب عمَّا تَوهَّموا، ببيان مَا هُوَ الداعي إِلىَ حِفظهم، وَهُوَ الاستدراج والتمتيع بِمَا قدّر لَهُمْ مِنَ الأعمار والأرزاق؛ أو مهَّلهم حتَّى طالت أعمارهم، فَحَسبوا أن لاَ

يزالوا كذلك، وأنَّهُم بسبب مَا هم عليه؛ ولذلك عَقَّبه بِمَا يدلُّ عَلَى أنَّه أمل كاذب، فقال: ﴿أفلاَ يرون أنَّا نأتي الأَرْض﴾؟ أرضَ الكفرة ﴿ننقُصُها مِن أطرافها﴾ بتسليط الـمُسْلِمِينَ عليها؛ أي: مَا نَنقص مِن أطراف المشركين، ونزيد فِي أطراف المؤمنين؛ نريد بذلك فتح النَّبِيِّ ديارَ المشركين أرضا فأرضا، ﴿أفهم الغالبُونَ(٤٤)﴾؟ رسولَ الله والمؤمنين.

﴿قل: إنَّمَا أُنذِرُكم بِالوحي، وَلاَ يَسمع الصمُّ الدعاءَ﴾ إنَّمَا سمَّاهم الصمَّ للدلالة عَلَى تصامُمهم، وعدم انتفاعهم بِمَا يسمعون، ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ(٤٥). ولَئِن مَسَّتهم نفحة﴾ أدنى شيء، فإنَّ أصلَ النفح: هبوب رائحة الشيء؛ وقيل: قِطعة، ﴿مِن عذاب رَبك﴾ مِنَ الذِي يُنذَرون بِهِ، ﴿ليقولنَّ: يا ويلنا إنَّا كُنَّا ظالِمِينَ(٤٦)﴾ لَدَعَوْا[1] عَلَى أنفسهم بالويل، واعترفوا عليها بالظلم.

﴿ونضعُ الموازينَ القسطَ﴾ قيل: وضعُ الموازين تَمثيل لإرصاد الحساب السويِّ، والجزاءِ عَلَى حَسب الأعمال بالعدل، ﴿لِيومِ القيامة﴾ لجزاء يوم القيامة؛ أو لأهله؛ أو فِيهِ. ﴿فلا تُظلم نفسٌ شَيْئًا﴾ فلا تُنقص من حسناتها، وَلاَ تُزاد عَلَى سيِّئاتها، ﴿وإن كَانَ مِثقالُ حَبَّة مِن خَردَل﴾ أي: وإن كَانَ العمل مقدارَ ثقلِ حَبَّة ﴿أتينا بها﴾ أحضَرنَاها، ﴿وكفى بنا حاسبِينَ(٤٧)﴾ إذ لاَ مزيد عَلَى عِلمنا وعدلنا.

---

١ - في الأصل: «لدعواه»، وهو خطأ.

﴿وَلَقَد آتينا موسى وهارون الفرقانَ﴾ الكتاب الفارِقَ بين الحقّ والباطل، ﴿وضياءً وذكرًا للمتَّقِينَ(٤٨)﴾ أي: الكتاب الجامع لكونه فارقًا بين الحقّ والباطل، وضياءً يُستضاء بهِ فِي ظُلمات الحيرة والجهالة، وذِكرًا[1] يتَّعظ بِهِ المتَّقون؛ أو ذِكرَ مَا يَحتاجون إِلَيْهِ مِنَ الشرائع، ﴿الذِينَ يَخشون ربَّهم﴾ صلة لِلْمُتَّقِينَ ﴿بالغيب﴾ أي: يَخافونه ولم يَرَوه، ﴿وَهُم مِنَ الساعة مُشفِقُونَ(٤٩)﴾ خائفون. ﴿وهذا ذِكر مُبارك﴾ كثير خيره ﴿أنزلناه، أفأنتم لَهُ منكِرُونَ(٥٠)﴾؟.

﴿وَلَقَد آتينا إبراهيم رُشدَه﴾ الاهتداءَ لوجوهِ الصلاح؛ والرشد: عبارة عَن هدا[2] باعثة إِلَى جهة (لَعَلَّهُ) السعادة، مُحرِّكة لها، ﴿مِن قَبلُ﴾ من قبل موسى، أو محمَّد؛ أو مِن قبل استنبائه أو بلوغه، ﴿وكُنَّا بهِ عالِمِينَ(٥١)﴾ عَلِمنا أنَّه أهل لِمَا آتيناه؛ أو جامع لِمحاسن الأوصاف، ومكارم الخصال؛ وفيه إشارة إِلَى أنَّ فعله تعالى باختيارٍ وحكمةٍ، وأنَّه عالم بالجزئيَّات.

﴿إذ قَالَ لأبيه وقومه: مَا هَذِهِ التماثيل التِي أَنتُم لها عاكِفُونَ(٥٢)﴾؟ تحقير لشأنها، وتوبيخ عَلَى إجلالها، فإنَّ التمثالَ صورةٌ لاَ رُوح فِيهَا، ولاَ تَضرُّ وَلاَ تنفع. ﴿قَالُوا: وَجَدنا آباءنا [٣٦٧] لَها عابدِينَ(٥٣)﴾ فقلَّدناهم. ﴿قَالَ: لَقَد كُنتُم أَنتُم وآباؤكم فِي ضلال مُبِين(٥٤)﴾ منخطرون[3] فِي

---

١ - فِي الأصل: «وذكر»، وهو خطأ. لأَنَّهُ معطوف عَلَى خبر كان وَهُوَ قوله: «فارقا».

٢ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «هداية».

٣ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «منخرطون». وَفِي اللسان: «انخرط الرجل فِي الأمر، وتخرَّط: ركب فيه من غير علم ولا معرفة». ابن منظور: لسان العرب، ٢/٨١٤.

سلك ضلال لاَ يَخفى عَلَى عاقل، لعدم استناد الفريقين إِلىَ دليـل؛ والدليـل إن جاز فإنّما يَجوز لِمَن عَلِم فِي الجملة أنّه عَلَى حقّ. ﴿**قَالُوا أجئتـنا بالْحـَق، أم أنتَ مِنَ اللاَّعبِينَ(٥٥)**﴾ كأنّـهم[1] استبعادهم تضليل آبائهم، ظنُّوا أنـّمَا قاله عَلَى وجهِ الملاعبة؛ فقالوا[2]: أتَجدُّ بقولك أم تلعب؟ ﴿**قَالَ: بَل[3] رَبُّكُم رَبُّ السَّمَاوَات والأَرْضِ الذِي فَطَرَهنَّ**﴾ إضـراب عَـن كَونـه لاعِبـا، بإقامة البرهان عَلَى مَا ادَّعاه، وَهُوَ السَّمَاوَات والأَرْض؛ أو للتـّماثيل. وَهُوَ أدخَل فِي تضليلهم، وإلزامِ الحجَّةِ عليهم. ﴿**وأنـا عَلَـى ذلكـم**﴾ المذكـور مِـنَ التوحيـد، ﴿**مِن الشاهدِينَ(٥٦)**﴾ مِنَ المتحقّقين لَهُ، والمبرهِنِين عليه؛ فـإنَّ الشـاهد: مـن تَحَقّق الشيءَ، وحقّقَه.

﴿**وتا لله لأكيدنَّ أصنامَكم**﴾ لأجتهدنَّ فِي كسرها؛ ولفظُ الكيد، وَمَـا فِي التاء مِنَ التعجُّب لصعوبة الأمر، وتوقُّعه عَلَـى أنـواع مِـنَ الـحِيَل، ﴿**بعـد أن تُوَلُّوا**﴾ عنها؛ أو عَن النصحِ ﴿**مُدبِرِينَ(٥٧)**﴾ ولعلّه قَالَ: ذَلِكَ سِرًّا.

﴿**فجعلهم جُذاذا**﴾ قِطَعـا؛ مِـنَ الجـذّ: وَهُـوَ القطـع، ﴿**إلاَّ كبـيرًا لَهُـم**﴾ للأصنام، كَسَر غيره واستبقاه، ﴿**لَعَلَّهُـم إِلَيْـهِ يَرجعُـونَ(٥٨)**﴾ لأنـّهُ غَلَـب عَلَى ظنـّه[4] لاَ يَرجعون إلاّ إِلَيْـهِ، لتَفَرُّدِه واشتهاره بعداوة آلهتـهـم، فيحَـاجّهم بقوله: «بَل فعله كَبيرهم»؛ أو يرجعون إِلىَ كَبيرهم.

---

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «كأنـّهم استبعدوا».

٢ - فِي الأصل: «فقال» وَهُوَ خطأ.

٣ - فِي الأصل: - «بل»، وهو خطأ.

٤ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: + «أنـّهم».

﴿قَالُوا: مَن فَعَل هَذَا بآلهتنا إِنَّهُ لَمِن الظالِمِينَ(٥٩)﴾ بِجُرأتـه عَلَـى آلهـة الحقيقـة[1] بالإعظـام؛ أو بإفراطـه فِي حطمهـا؛ أو بتوريـط نَفسِـه فِي الهـلاك. ﴿قَالُوا: سَمعنا فَتًى يَذكرهـم﴾ يَعيبهـم، ﴿يقـال لَـهُ: إبراهيـم(٦٠) قَـالُوا: فأتوا بِهِ عَلَى أَعيُنِ الناس﴾ بِمَرأًى مِنْهُم؛ بِحيث تتمكّن صورتـه فِي أعينهـم، ﴿لَعَلَّهُم يَشهدُونَ(٦١)﴾ بفعله، أو قوله، أو يَحضر عُقوبتنا لَهُ.

﴿قَالُوا: أأنت فعلت هَذَا بآلهتنا يا إبراهيم(٦٢)؟ قَالَ: بَل فَعَله كبيرهم هَذَا﴾ غضبا مِنْهُ عَن أَن تُعبَد معهُ الصغار، فكسَرهنَّ؛ وأراد إقامة الحجَّة عَلَيْهِم، ﴿فاسألوهم إن كَانُوا ينطقُونَ(٦٣)﴾ قيل: إنَّه فِي المعنى مُتعلِّق بقوله: ﴿إن كَانُوا ينطقـون﴾[2]. ﴿فَرَجعوا إِلَى أنفسهم﴾ وراجعوا عُقولهم ﴿فَقَالُوا﴾ فقال بعضهم لبعض: ﴿إِنَّكُم أَنتُم الظالمُونَ(٦٤)﴾ بهـذا السؤال؛ أو بعبادة مَا لاَ ينطق وَلاَ يضرُّ وَلاَ يَنفَع، لاَ مَن ظَلَمتُموه بقولكم: ﴿إنَّهُ لَمِنَ[3] الظالمين﴾، وذلك مِنْهُم كلام عَقليٌّ إن لو ثَبتوا عليه.

﴿ثُمَّ نُكِسوا عَلَى رُءوسهم﴾ ارتدُّوا إِلَى المجادلة بعدما استقاموا بالمراجعة، شبَّه عودهم إِلَى الباطل بصيرورة أسـفل الشـيء مُستعليا عَلَى أعلاه، ﴿لَقَد

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «الآلهةِ الحقيقةِ». أو: «آلهةٍ حقيقةٍ».

٢ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «متعلِّق بقوله: ﴿بَل فَعَله كبيرهم هَـذَا﴾». وَفِي تفسير الألوسي: «وقيل: إنَّ: ﴿فَعَله كبيرهم هَذَا﴾ جواب قوله: ﴿إن كانوا ينطقون﴾ معنًى. وقوله: ﴿فاسألوا﴾ جملة معترضة مقترنة بالفاء...». الألوسي: روح المعاني، ٦٥/١٧.

٣ - فِي الأصل: «من»، وهو خطأ.

**عَلِمت مَا هؤلاء ينطقُونَ(٦٥)﴾** فكيف تأمرنا بسؤالها؟ أقرُّوا عَلَى أنفسهم بالضلال مِن حيث لاَ يَعْلَمُونَ، حتّى وبّخهم عَلَى لَعِبهم وتعبهم حيث **﴿قَالَ: أفتعبدون مِن دون ا لله مَا لاَ ينفعكم شَيْئًا وَلاَ يضرُّكم(٦٦)﴾** إنكارًا لعبادتهم لها، بعد اعترافهم بأنَّها جمادات لاَ تنفع وَلاَ تضرُّ؛ فَإِنَّهُ يُنافي الألوهية، ويُطابق اللَّعِب.

**﴿أُفٍّ لكم وَلِمَا تَعبدون مِن دون ا لله﴾** تَضجُّرًا مِنْهُم عَلَى إصرارهم بالباطل البيِّن. أفٍّ: صوت المتضجِّر، ومعناه: قبحا واستقذارا، لأَنَّ عبادتها لاَ تضرُّه إن ترك عبادتها، وَلاَ تنفعه إن عَبدها؛ والعاقل يأنف ويضجر ويَمَلُّ (لَعَلَّهُ) ويُسائم مِن عَمَلٍ لاَ ينفعه، **﴿أفلا تعقلُونَ(٦٧)﴾** قُبْحَ صنيعِكم؟!.

**﴿قَالُوا﴾** أخذا فِي المضارَّة لـمَّا عجزوا عَن المحاجَّة: **﴿حرقوه﴾** فإنَّ النار أشدُّ مَا يُعاقب بِهِ، **﴿وانصروا آلهتكم﴾** بانتقام[1] [٣٦٨] لَها، **﴿إن كُنتُم فاعلِينَ(٦٨)﴾** إن كُنتُم ناصرين لها.

**﴿قلنا: يا نارُ كوني بَرْدًا وسلاما﴾** ذات بردٍ وسلام، أي: ابرُدي بردًا غير ضارٍّ؛ وفيه مبالغات، جَعل النارَ المسخرَّة لقدرته مأمورة مطيعةً. روي أنَّهم بنوا حظيرة، وجمعوا فِيهَا نارا عظيمة، ثُمَّ وضعوه فِي المنجنيق مغلولاً، فرموا بِهِ فِيهَا؛ فقال لَهُ جبريل: «هل لك مِن حاجة؟» كأنَّه يُوَدِّعه وَدَاع الخارج مِنَ الدُّنْيَا اختبارًا وابتلاءً فوق ابتلائه، ليتضَاعَف لَهُ الأجر؛ فقال: «أمَّا إليك فلا» أي: إنَّك مخلوق مثلي لاَ تقدر عَلَى شيء من نجاتي. فقال لَهُ: «سل رَبَّكَ»، فقال:

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الأصوب: «بالانتقام». انظر: أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص٧٦.

«حسبي مِن سؤالي علمه بحالي، إنِّي وُضعت فِي ذَلِكَ الحال اجتهادا فِي دينه، ورِضًى لَهُ، وَهُوَ إن شاء يُميتني، وإن شاء يُحييني»؛ فأنجاه الله منها. وانقلاب النار هواء طيِّبة، ليس بِبِدعٍ فِي قدرة الله، غير أنَّ ذَلِكَ عَلَى خلاف المعتاد، فهو إذنْ مِن معجزاته. ﴿عَلَى إبراهيم(٦٩)﴾.

﴿وأرادوا بِهِ كيدا﴾ مَكرًا فِي إضراره، ﴿فجعلناهم الأخسرِينَ(٧٠)﴾ أخسر مِن كُلِّ خاسر، لَمَّا عاد سعيهم برهانا قاطعًا عَلَى أنَّهم عَلَى الباطل، وإبراهيم عَلَى الحقِّ، وموجبا لمزيد درجته، واستحقاقهم أشدَّ العذاب.

﴿ونَجَّيناه ولوطا إِلَى الأَرْض التِي باركنا فِيهَا للعالمِينَ(٧١)﴾ قيل: مِنَ العراق إِلَى الشام. وبركاته العامَّة: أنَّ أكثر الأنبياء بُعثوا فِيهِ، فانتشرت فِي الْعَالَمِينَ شَرائعهم التِي هِيَ مَبادئ الكمالات، والخيرات الدينيَّة والدنيويَّة؛ وقيل: كثرة النعم والخصب.

﴿ووهبنا لَهُ إسحاق ويعقوب نافلةً﴾ عطيَّةً، ولدًا لولده، ﴿وكلاًّ جعلنا صالحِينَ(٧٢)﴾ بأن وفَّقناهم للصَّلاح، وحملناهم عليه، فصاروا كاملين. ﴿وجعلناهم أئمَّةً﴾ يُقتدى بهم ﴿يَهدون﴾ الناسَ إِلَى الحقِّ ﴿بأمرنا﴾ لَهُم بذلك، وإرسالنا إيَّاهم، حتَّى صاروا مكملين، ﴿وأوحينا إِلَيْهِم فِعْل الخيراتِ﴾ ليحثُّوهم عليه، فيتمَّ كمالهم بانضمام العمل إِلَى العلم؛ وأصله: أن تفعل الخيرات، ثُمَّ فعلا الخيرات عليها[1]، وكذلك قوله:

١ - نقل المصنِّف هَذِهِ العبارة الغامضة من الزمخشريِّ ومن تابعه من المفسِّرين، ونجد توضيحها عند الألوسيِّ حيث يقول: «وأصله: عَلَى ما ذهب إِلَيهِ الزمخشريُّ ومن تابعه =

﴿وإقامَ الصلاة وإيتاء الزكاة، وكَانُوا لَنَا عابدِينَ(٧٣)﴾ مُوَحِّدين، مُخلصين فِي العبادة.

﴿ولوطا آتيناه حُكما﴾ حِكمة؛ أو نبوَّة؛ أو فصلاً بين الخصوم، ﴿وعِلما﴾ بِمَا ينبغي علمه للأنبياء، ﴿ونَجَّيناه مِنَ القريةِ التِي كَانَت تعمل الخبائث﴾ يأتون الذُّكرَان فِي أدبارهم، وأشياء أُخَر مِنَ المنكرات، ﴿إنَّهُمْ كَانُوا قوم سَوءٍ فاسقِينَ(٧٤) وأدخلناه فِي رحمتنا إِنَّهُ مِنَ الصالحِينَ(٧٥)﴾.

﴿ونوحا إذ نادى مِن قبلُ﴾ مِن قبل المذكورين، ﴿فاستجبنا لَهُ، فَنَجَّيناه وأهله مِنَ الكربِ العظيم(٧٦)﴾ مِنَ الطوفان؛ أو أَذى قومه؛ أو من غمِّ المعصية؛ والكرب: الغمُّ الشديد. ﴿ونصرناه[1] مِنَ القومِ الذِينَ كذَّبوا بِآيَاتِنا إِنَّهُمْ كَانُوا قومَ سَوءٍ فأغرقناهم أجمعِينَ(٧٧)﴾ لاجتماع الأمرين: تكذيب الحقِّ، والانهماك فِي الشرِّ؛ فإنَّهما لم يَجتمعا فِي قوم إلاَّ وأهلكهم الله.

﴿وداوودَ وسليمانَ إذ يَحكُمان فِي الحرثِ إذ نَفَشَت فِيهِ غَنَمُ القومِ﴾ رَعَته ليلا؛ والنَّفْشُ: الرَّعيُ بالليل، (لَعَلَّهُ) والهمْل بالنهار، همالة ترعى بلا

---

=

أن يُفعل الخيراتُ، ببناء الفعل لَمَّا لم يسمَّ فاعله، ورفع "الخيرات" عَلَى النيابة عن الفاعل، ثُمَّ "فعلاً الخيراتُ" بتنوين المصدر ورفع "الخيرات" أيْضًا، عَلَى أَنَّهُ نائب الفاعل لمصدر المجهول، ثُمَّ "فعلَ الخيراتِ" بحذف التنوين، وإضافة المصدر لمعموله القائم مقام فاعله، والداعي لذلك كما قيل: إنَّ ﴿فعل الخيرات﴾ بالفعل المصدريِّ ليس موحًى، إنَّمَا الموحى أن يُفعل...». الألوسي: روح المعاني، ٧١/١٧. وانظر: الزمخشري: الكشَّاف، ١٠٠/٣. أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص٧٧.

١ - فِي الأصل: «وانصرناه»، وهو خطأ.

راع[1]. ﴿**وكنَّا لِحكمهم شاهدِينَ(٧٨) ففهـَّمناها سليمانَ، وكلاًّ آتينا حُكما وعِلما. وسخَّرنا مَعَ داوودَ الجبالَ يسبحن**﴾ يقدِّسن الله معه، إمَّا بلسان الحال، أو بصوت يتمثَّل لَهُ، أو بخلق الله [٣٦٩] فِيهَا، ﴿**والطير**﴾ عطف عَلَى الجبال؛ وقيل: سخَّر الله الجبالَ والطيرَ يُسبِّحن مَعَ داوود إِذَا سبَّح. قَالَ ابن عبَّاس: «كَانَ يفهم تسبيح الحجَر والشجر». قَالَ وهب: «كانت الجبال تُجاوبه بالتسبيح، وكذلك الطير»، ﴿**وكُنَّا فاعلِينَ(٧٩)**﴾ لأمثاله، فليس بِبِدع مِنَّا، وإن كَانَ عجيبا عندكم.

﴿**وعلَّمناه صَنعَةَ لَبوس**﴾ عَمَل الدروع، وَهُوَ فِي الأصل: اللباس. قَالَ: «اِلْبَس لِكُلِّ حالة لَبُوسها، إمَّا نَعيمها وإمَّا بُوسها»، ﴿**لَكُم لِتُحصِنَكم مِن بأسكم، فهل أَنتُم شاكرُونَ(٨٠)**﴾؟. ﴿**ولِسليمانَ الريحَ عاصفةً**﴾ شديدة الهبوب، ﴿**تَجري بأمرِه إِلَى الأَرْض التِي باركنا فِيهَا**﴾ بَرَكة الدين والدُّنْيَا عَلَى مَن فِيهَا، ﴿**وكنَّا بِكُل شَيْء عالِمِينَ(٨١)**﴾ فنجزيه عَلَى مَا تقتضيه الحكمة.

﴿**ومن الشياطين مَن يغوصون لَهُ**﴾ فِي البحار، ويُخرجون نَفَائِسها، ﴿**ويعملون عملاً دون ذَلِكَ**﴾ ويتجاوزون ذَلِكَ إِلَى أعمال أُخرى، كبناء المدن والقصور، واختراع الصنائع الغريبة، لقوله: ﴿يعملُونَ لَهُ مَا يَشَاء﴾[2]،

---

١ - كذا فِي الأصل، وفي اللسان: «والاسم: النَّفَش، ولا يكون النفَش إلاَّ بالليل، والهمَل يكون ليلا ونهارا». ابن منظور: لسان العرب، ٦٩١/٦. مادَّة: «نفش». وانظر: مادَّة: «همل» ٨٣٠/٦.

٢ - سورة سبأ: ١٣.

﴿وكنَّا لَهُم حافظِينَ(٨٢)﴾ أن يزيغوا عَن أمره؛ أو يفسدوا عَلَى مَا هُوَ مقتضى جبلَّتهم.

﴿وأيُّوب إذ نادى رَبَّهُ أَنـي مسَّني الضرُّ﴾ أصابني الجهد والمشقَّة، ﴿وأنت أرحمُ الراحِمِينَ(٨٣)﴾ وصفَ رَبَّهُ بغاية الرحمة، بعدما ذَكَر نفسه بِمَا يُوجبها، واكتفى بذلك عَن غَرضِ المطلوب لُطفا فِي السؤال. ﴿فاستجبنا لَهُ فَكَشَفنا مَا بِهِ مِن ضرٍّ وآتيناه أهله ومثلَهم معهم﴾ قيل: وُلد لَهُ ضِعف مَا كَانَ ﴿رحمةً مِن عندنا وذكرى للعابدِينَ(٨٤)﴾ رحمةً عليه، وتذكرة للعابدين، ليصبروا كما صَبَر، فيثابوا كَمَا أُثِيب[1]؛ أو لِرَحمتنا للعابدين، فإنَّا نَذكُرُهم بالإحسان وَلاَ ننساهم.

﴿وإسماعيل وإدريس وذا الكفل﴾ يَعني إلياس؛ وقيل: يُوشع، أو غيرهما، ﴿كلٌّ مِنَ الصابرِينَ(٨٥)﴾ عَلَى مشاقِّ التكاليف. ﴿وأدخلناهم فِي رحمتنا إِنَّهُمْ مِنَ الصالِحِينَ(٨٦)﴾ الكاملين فِي الصلاح، بِمَا تَعبَّدهم الله بِهِ.

﴿وذا النونِ﴾ يونس ﴿إذ ذَهَب مُغَاضِبا﴾ عَلَى قومه حين لم يؤمنوا بِهِ، عَلَى مَا قيل؛ ﴿فظنَّ أن لَّن نَقدِر عليه﴾ البلاءَ بسبب غضبه، مِنَ القَدْر، وقُرِئ مثقَّلا؛ وَلَعَلَّهَا كَانَت خَطرة شيطانية، سيقت إِلىَ وَهمه، فسمِّي ظنًّا للمبالغة، ﴿فنادى فِي الظلمات﴾ قيل: ظلماتِ بطنِ الحوت والبحر والليل؛ أو ظلمات المعاصي، وذلك عند خروجه منها إِلىَ النور، وَهُوَ التوبة؛ ودليله قوله:

---

١ - فِي الأصل: «ثيب»، وهو خطأ.

﴿أن لاَ إله إلاَّ أنتَ سُبحانك إنـي كنتُ مِنَ الظالِمِينَ(٨٧)﴾ لِنَفسي بالمبادرة إِلَى مَا لم تأمرني بِهِ، وكَانَ ذَلِكَ توبة لَهُ.

﴿فاستجبنا لَهُ وَنَجَّيْنَـاهُ مِنَ الغم﴾ مِن غمِّ المعصية، وَمَا بِهِ مِنَ الكـرب، ﴿وكذلك نُنَجي المؤمنِينَ(٨٨)﴾ مِن غمومٍ دَعَوا الله فِيهَـا بـالإخلاص؛ أي: ننجِّي كُلَّ مَن نزل بِمنزلته فِي الاضطرار والإخلاص.

﴿وزكريا إذ نادى رَبَّـهُ: رَب لاَ تذرنـي فـردا﴾ وحيـدا فِي الديـن، بـلا وارث يرثُني بَعدي فِي الدين، ﴿وأنت خير الوارثِينَ(٨٩) فاستجبنا لَهُ ووهبنا لَهُ يَحيى، وأصلحنا لَـهُ زوجَـه﴾ قيـل: للـولادة بعـد عقرهـا؛ أو لـه بتحسـين خُلُقِهـا؛ ﴿إنـَّهُمْ﴾ يعـني: المتوالديـن؛ أو المذكوريـن مِـنَ الأنبيـاء ﴿كَـانُوا يُسارِعون فِي الخيرات﴾ بالمسـابقة إِلَـيْها خـوفَ الفـوات، ﴿ويدعوننـا رَغَبـا وَرَهَبا﴾ راغبين فِي الثواب، راجين الإجابة؛ أو فِي الطاعة خـائفين العـذاب، أو المعصية؛ والرغبةُ والرهبة فِي القلب؛ ﴿وكَانُوا لَنـَا خاشـعِينَ(٩٠)﴾ مُخبتيـن؛ أو دَائِمـين الوجـل. قَـالَ مُجـاهد: «الخشـوع: الخـوف الـلاَّزم فِي القلـب»؛ والمعنى: أنـَّهم نالوا مِنَ الله مَا نالوا بهذه الخصال.

﴿والتي [٣٧٠] أحصنَت فَرجها﴾ مِنَ الحلال والحرام، ﴿فنفخنـا فِيهَـا مِـن رُوحِنا﴾ مِنَ الروح الذِي هُوَ بأمرنا وحده، ﴿وجعلناها وابنها﴾ أي: قصَّتهمـا أو حَالهما، ﴿آيةً للعالَمِينَ(٩١)﴾ وهي مِن أعظم الآيات لِمَن تأمَّلها.

﴿إنَّ هَذِهِ أُمـَّتكم أُمـَّة وَاحِدَة﴾ أمرا بالائـتلاف، ونهيا عَـن الاختـلاف؛ أي: إنَّ مِلـَّة التوحيـد مِلـَّتكم التِـي يَجـب عَلَيْكُـم أن تكونـوا عليهـا، غـير

مُختلفين فيما بين الأنبيـاء؛ أو لاَ مُشـاركة لغيرهـا فِي صِحَّـة الاتِّبـاع، ﴿وأنـا ربُّكُم﴾ لاَ إله غيري ﴿فاعبدونِ(٩٢)﴾ لاَ غير.

﴿وتقطَّعوا أمرَهم بَيْنَهُم﴾ صرَفَه إِلَى الغيبة التفاتـا، لِـينعى عَلَى الذِينَ تفرَّقوا فِي الدين، وجَعلوا أمره قِطَعـا موزَّعـة، [و]يقبِّـحَ فعلهـم إِلَى غيرهم؛ ﴿كلٌّ﴾ مِنَ الفرقِ المتحزِّبة ﴿إلينا راجعُونَ(٩٣)﴾ فنُجازيهم. ﴿فمن يَعمَلْ مِنَ الصالحات وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فلا كُفرانَ لسعيهِ﴾ فـلا تَضييـع لسـعيه؛ استُعير لِمنـع الثـواب، كمـا استُعِير الشـكرُ لإعطائـه، ﴿وَإِنَّـا لَـهُ﴾ لسـعيه ﴿كاتبُونَ(٩٤)﴾ مُثبتون فِي صحيفة عمله.

﴿وحرامٌ عَلَى قَريَةٍ﴾ ومُمتنع عَلَى أهلها غير مُتصوَّر مِنـْهُم، ﴿أهلكناها﴾ حَكَمنا بإهلاكها ﴿أَنَّهُمْ لاَ يَرجعُونَ(٩٥)﴾ إِلَى التوبة، أو الحياة؛ وهـذا الوعيد يتناول كُلَّ نفسٍ عَلِم الله شقاءها، فلا ترجع إِلَى السعادة أبدا.

﴿حتَّى إِذَا فُتِحَت يَأجوجُ ومَأجوجُ﴾ مُتعلِّق بـ«حـرامٌ»، أو بمحـذوف[1] دَلَّ عليه الكلام؛ أو بـ«لا يرجعون»، أي: يسـتمرُّ الامتنـاع إِلَى قيـام السـاعة، وظهـور أماراتهـا، وفتـح سدِّ يـأجوج ومـأجوج، ﴿وَهُـم﴾ يعـني: يـأجوج ومـأجوج، أو النـاس كلُّهـم ﴿مِـن كُـل حَـدَبٍ﴾ نَشَـز مِـنَ الأَرْض ﴿يَنسِلُونَ(٩٦)﴾ يُسرعون.

﴿واقترَبَ الوعدُ الحـَقُّ﴾ هُـوَ يـوم القيامـة؛ أو انقضـاء كُـلِّ نفس عَلَى حيالها، ﴿فإذا هِيَ شاخصةٌ أبصـارُ﴾ فاتحـةٌ أعينهـم لاَ تكـاد تطرف؛ وقيـل:

---

١ - في الأصل: «لمحذوف».

ذاهبة، ﴿الذِينَ كَفَرُوا: يا ويلنا﴾ أي: الويـلُ لَنـا، ﴿قَـد كُنـَّا فِي غفلـةٍ مِـن هَذَا﴾ فِي غطاء مِـن قِبَـل هَـوى أنفسـنا، ﴿بَـل كُنـَّا ظـالِمِينَ(٩٧)﴾ لأنفسـنا بإخلالِ النظر، والاعتدادِ بالنُّذُر.

﴿إنـَّكُم وَمَـا تَعبـدون مِن دُون ا للهِ﴾ يَحتمـل الأوثـان، وإبليـس وأعوانـه، لأَنـَّهُمْ بطـاعتهم لَهُـم فِي حُكـم عبدتهـم، كمـا قَـالَ: ﴿والذِيـنَ يَكـنزون الذهـب والفضَّـةَ...﴾ [إلى] تمام الآية[1]. ﴿حَصَبُ جَهَنـَّم﴾ مَا يُرمى بِهِ لهـا، وتَهيـج بِـهِ؛ مِن حَصَبَه يَحصَبه: إِذَا رماه بالحصباء. ﴿أَنتُم لَها وارِدُونَ(٩٨)﴾ داخلون.

﴿لو كَانَ هؤلاء آلهةً مَا وَرَدوها﴾ لأَنَّ الورود إِلَـيْهِا إن كَانَ عذابا لَهُ أو لغيره لاَ يكون إلهًـا[كَذَا]، ﴿وكلٌّ فِيهَا خالدُونَ(٩٩)﴾ لا خَلاَصَ لَهُم عنها. ﴿لَهُم فِيهَا زفيرٌ﴾ أنينٌ وتَنفُّس شـديد، ﴿وَهُـم فِيهَـا لاَ يسـمعُونَ(١٠٠)﴾ مِنَ الهـول، وشـدَّة العـذاب؛ وقيـل: لاَ يسـمعون مَـا يَسُـرُّهم كمـا كَـانُوا فِي الدُّنْـيَا؛ لأَنَّ العاصي لاَ يسمع وَلاَ يُبصر مَا يَسُرُّه السرور الحقيقيَّ، وكيـف لا وَهُم أموات غير أحياء، ولكن لاَ يشعرون.

﴿إنَّ الذِيـنَ سـبقت لَهُـم منـَّا الحسـنَى﴾ الخصلـة الحسـنى، وهـي الحـقُّ والسعادة، والتوفيق للطاعة، ﴿أُولَـئِكَ عنها مُبعدُونَ(١٠١)﴾ لأَنـَّهُم يُرفعون إِلَى أعلى عِلِّيين. ﴿لاَ يَسمعونَ حَسِيسَها﴾ يعـنِي: صوتهـا، وحركـة تلهُّبهـا؛

---

١ - سورة التوبة: ٣٤-٣٥. وتمامها: ﴿والذيـن يكـنزون الذهـبَ والفضَّـة ولا ينفقونهـا في سبيل ا لله فبشِّرهم بعذاب أليمٍ، يومَ يُحمَى عليها في نار جَهَنـَّمَ فـتـُكوَى بهـا جِباهُهُم وجُنوبهم وظُهورُهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنِزون﴾.

والحسيس: الصوت الخفيُّ، ﴿وَهُم فِي مَا اشتَهَت أنفسُهم خـالدُونَ(١٠٢)﴾ دائمون فِي غاية التنعُّم.

﴿لاَ يَحزُنُهُم الفزعُ الأكبرُ﴾ لأنَّهُ أكبر مِن كُلِّ فـزع؛ وإذا لَـم يُحزنهـم ذاك، فقد سَلِموا [عند] النفخـةِ الأخِيرة، ـــ لقولـه: ﴿ويـوم يُنفـخ فِي الصـور فَفَـزِع [٣٧١] مَن فِي السَّمَاوَات ومَن فِي الأَرْض﴾[1] ـــ أو الانصـرافِ إلَى النـار؛ أو حـين يُطبَـقُ عَلَى النـار؛ أو يُذبَـحُ المـوت. ﴿وتَتَلَقَّـاهم المَلاَئِـكَة﴾ تستقبلهم بالتهنِئَـة والبشـرى بالسـلامة: ﴿هَـذَا يومُكُـم﴾ هَـذَا يـوم ثوابكـم ﴿الذِي كُنتُم تُوعدُونَ(١٠٣)﴾ فِي الدُّنْـيَا.

﴿يوم نَطوِي السَّمَـاءَ﴾ الطيُّ: ضـدُّ النَّـشْر؛ أو المحـوُ، مِـن قولـك: اطـوِ عنِّي هَذَا الحديث؛ وذلك أنَّها نُشِرت مِظلَّـةً لبـنِي آدم، فـإذا انقفلـوا انقضَـت عَـنْهُم، ﴿كطي السـجِل للكُتُب﴾ طيًّـا كطيِّ الطومار[2] لأجـل الكتابـة؛ أو لِمَا يُكتب، أو كُتب فِيهِ؛ وتدلُّ عليه قراءة حفص عَلَـى الجمـع؛ أي: للمعـاني الكثيرة المكتوبة؛ وقيل: السِّجِلُّ: مَلَك يَطوي كُتُب الأعمال إذَا رُفعت إلَيْـهِ؛ أو كاتب[3] كان لرسول ا لله ﷺ ﴿كَمَا بَدأنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعيده وَعداً علينا﴾ أي: نُعيد مَا خلقناه للإعادة، ﴿إنَّـا كُنَّـا فاعلِينَ(١٠٤)﴾ ذَلِكَ لاَ مَحالة.

---

١ - سورة النمل: ٨٧. ومحلُّ الشاهد في الآية عند إتمامها: ﴿إلاَّ من شاء ا لله...﴾.

٢ - في المنجد: «الطامور والطومار، جمع طوامير: الصحيفة، يقال: كتب في الطومار أو الطوامير». ص ٤٧١، مادَّة: طمر.

٣ - في الأصل: «كانت»، ولا مَعنَى له.

﴿وَلَقَد كَتَبنَا فِي الزبورِ﴾ فِي كِتَابِ داوود ﴿مِن بعد الذكر﴾ أي: التَّوْرَاة؛ وقيل المراد بالزبور: جنس الكتب المنزَّلة؛ وبالذكر: اللَّوح المحفوظ؛ ﴿أنَّ الأَرْضَ﴾ أرضَ الجنَّة؛ أو أرضَ الدُّنْيَا ﴿يَرِثُها عِبَادِيَ الصالحُونَ(١٠٥)﴾ للجزاء، إن كَانَت أرض الجنَّة؛ أو للخلافة، إن كان يعني به أرض الدُّنْيَا، كما قَالَ: ﴿هو الذي جعلكم خلائف فِي الأرض﴾[1] ﴿إنَّ فِي هَذَا﴾[2] أي: فيما ذكِر مِنَ الأخبار والمواعظ والمواعيد، ﴿لَبَلاَغا﴾ لَكِفاية؛ أو لَسبب بلوغٍ إِلىَ البُغيَة، ﴿لِقومٍ عابدِينَ(١٠٦)﴾ هِمَّتهم العبادة دون العادة، لأَنَّ فِيهِ ذِكر العابدين؛ وقيل: القرآن زادُ الجنَّة، كَبَلاغِ المسافر.

﴿وَمَا أرسلناك إلاَّ رحمةً للعالَمِينَ(١٠٧)﴾ لان[3] مَا بعثناك إلاَّ سببا لإسعادهم، ومُوجبا لصلاح مَعاشهم ومعادهم. ﴿قل: إنَّمَا يُوحى إِلَيَّ أنَّمَا إلهكم إلهٌ واحدٌ﴾ أي: مَا يُوحي إليَّ إلاَّ أنَّه لاَ إله لكم إلاَّ إله واحد؛ وذلك لأَنَّ المقصود الأصليَّ من بِعثته مقصور عَلَى التوحيد، وذلك يقتضي الائتلاف فِي الدين، إذ كَانَ المعبود واحدا دون الافتراق، ﴿فهل أَنتُم مُسْلِمُونَ(١٠٨)﴾؟ مُخلصون العبادة لله عَلَى مُقتضى الوحي المصدَّق بالحجَّة.

﴿فإن تَوَلَّوا﴾ عَن التوحيد، ﴿فقل: آذَنتُكم﴾ أَعلَمتُكُم مَا أُمرت بِهِ ﴿عَلَى سَواء﴾ مُستَوين فِي الإعلام بِهِ، ومُستَوين أنا وأنتم فِي العلم بِمَا

---

١ - سورة فاطر: ٣٨. فِي الأصل: «وجعلناكم فيها خلائف»، ولا وجود لآية هكذا!.

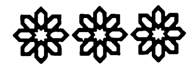
٢ - فِي الأصل: «إِنَّ هَذَا»، وهو خطأ.

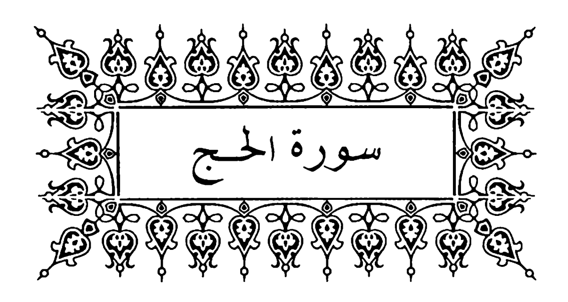
٣ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «أي».

أعلمتكم بِهِ؛ أو فِي المعاداة؛ أو إيذانا عَلَى سـواء؛ وقيـل: أَعلَمتكـم أَنـِّي عَلَى سواء، أي: عـدلٍ واستقامة رأي بالبرهـان النيِّر المبين، ﴿**وإن أدري**﴾ ومـا أدري ﴿**أَقَرِيب أم بَعيد مَا تُوعدُونَ(١٠٩)**﴾ بِهِ فِي الدُّنْيَا أو الآخِـرَة، فإنـَّه كائن لاَ مَحالة. ﴿**إِنـَّهُ يعلم الجهرَ مِنَ القول**﴾ ما يُجاهرون بِهِ مِـنَ الطعـن فِي الإسلام، ﴿**ويعلـم مَـا تَكتمُـونَ(١١٠)**﴾ مِـنَ الإحَـنِ والأحقـاد للمسـلمين، فيجازيكم عليه.

﴿**وإن أدري لَعَلَّهُ فتنـةٌ لكـم**﴾ وَمَـا أدري لَعَـلَّ خـير جزائكـم استدراج لكـم، وزيـادة فِي افتتـانكم؛ أو امتحـان لننظـر مَـا تَعملـونَ، ﴿**ومتـاع إِلَى حِينَ(١١١)**﴾ وتَمتيع إِلىَ أجل مُقدَّر تَقتضيه مشيئته.

﴿**قَالَ: رَب احْكُـم بالْحـَق**﴾ طَلَبـا للنـُّصرة؛ ﴿**ورَبـُّنَا الرحمن**﴾ كثـير الرحمـة عَلَـى خَلْقِـه، ﴿**المستعان**﴾ المطلـوب مِنـْهُ المعونـة ﴿**عَلَـى مَـا تَصفُونَ(١١٢)**﴾ مِنَ الحال.





# سورة الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يا أَيُّهَا الناس اتَّقُوا رَبَّكُم إنَّ زلزلة الساعة﴾ [٣٧٢] تَحريكها للأشياء؛ أو تحريك الأشياء فِيهَا؛ وقيل: هِيَ زَلزلة تكون قبل طلوع الشمس مِن مغربها؛ وأضافها إِلىَ الساعة، لأَنَّهَا مِن أشراطها، ﴿شيءٌ عظيم(١)﴾ هائل. علَّل أمرهم بالتقوى بِفَظاعة الساعة، ليتصوَّرُوها (لعلَّه) بعقولهم، ويعلموا أنَّه لا يُؤمنهم منها سِوى التدرُّع بلباس التقوى، فيتَّقوا عَلَى أنفسهم، ويتَّقوها بِملازمة التقوى؛ والزلزلة[1]: شدَّة الحركَة عَلَى الحال الهائلة؛ واختلفوا فِيهَا، فقيل: إنَّها من أشراط الساعة قبل قيامها[2].

﴿يوم تَرَونها﴾ يعنى: الزلزلة، (لعلَّه) الزلزلة[كَذَا]، ﴿تَذهَلُ كُلُّ مُرضِعة عَمَّا أَرضَعت﴾ تصويرٌ لِهولها؛ والذهول: الذهاب عَن الأمر بِدهشة؛ والمقصود الدلالة عَلَى أنَّ هَولَها بحيث إِذَا دَهشت التِي أَلقَمت الرضيعَ ثَديها نَزَعته عَن فِيهِ،

---

١ - في الأصل: «والزوالة»، وهو خطأ.

٢ - هنا وضع الناسخ إحالة إلى الحاشية و لم يكتب فيها شَيْئا. والعبارة تبدو ناقصة، إذ بقي للمصنِّف أن يسرد قولا أو أقوالا أخرى. وانظر الاختلاف حول مَعنَى الساعة: الألوسي: روح المعاني، ١٧/١١٠-١١١.

وذهلت عَنْـهُ. ﴿**وتضع كُلُّ ذات حَمل حملها**﴾ تسـقط ولدهـا مـن هـول ذَلِـكَ اليوم. قَالَ الحسن: «تذهل المرضعة عَن ولدها من غير فطـام». ﴿**وتـرى النـاس**﴾ كأنـّهم ﴿**سـكارى وَمَـا هـم بسـكارى**﴾ عَلَى الحقيقـة، ﴿**ولكـنَّ عــذاب ا لله شديد(٢)**﴾ فأرهقهم هوله بحيث طيَّر عقولهم وأذهب تمييزهم.

﴿**ومـن النـاس مـن يجـادلُ فِي ا لله**﴾ فِي توحيـده وعبادتـه، ﴿**بغـير علــم ويَتَّبعُ**﴾ فِي المجادلة؛ أو فِي علامة أحواله، ﴿**كـلَّ شـيطان مَريـد(٣)**﴾ متجـرد للفسـاد، عـار مِنَ الخـير، لأَنَّ أصـل الـمَرد العـري. ﴿**كُتـب عليــه**﴾ عَلَــى الشيطان؛ أي: صحَّت عليه الأحوال ﴿**أنـّه من تولاّه**﴾ تبعه، ﴿**فأنـّه يُضلُّـه**﴾ المعنى: كُتب عليه إضلال من تولاّه، لأَنـَّهُ جُبِـل عليـه. ﴿**ويهديـه إِلَى عـذاب السعير(٤)**﴾ بِمَا يزيـن لَهُ مِنَ الباطل.

ثُمَّ ألزم الحجـَّة عَلَى منكري البعـث، فقـال: ﴿**يَـا أَيـُّهَا النـاس إن كُنتـُم فِي ريبٍ مِنَ البعث**﴾ من إمكانه، وكونه مقدَّرا، ﴿**فإنـّا خلقناكم**﴾ أي: فـانظروا فِي بدء خَلقِكم، فإنـّه يزيح ريبكم إذ خلق ﴿**مِن تراب، ثُمَّ من نطفة ثُمَّ مِن علقـة**﴾ قطعة مِنَ الدم جامدة، ﴿**ثمَّ من مُضغة**﴾ قطعة من لحم، وهي فِي الأصـل قَـدر مَـا يُمضغ. ﴿**مُخلَّقة وغير مُخلَّقة**﴾ مُسوَّاة لاَ نقص فِيهَا وَلاَ عيب، وغير مسـوَّاة؛ أو مصوَّرة وغير مصوَّرة. ﴿**لنبيـِّنَ لكم**﴾ بهذا التدريج كمال قدرتنا وحكمتنـا، وأنَّ من قدر عَلَى تصويره، وتغييره، أَوَّلاً قَدر عَلَى ذَلِكَ ثانيا، إيماء عَلَى أنَّ أفعاله هَـذِهِ يتبيَّن بِهَا مِن قدرته وحكمته مَا لاَ يحيط بِهِ الذكر.

﴿ونُقرُّ فِي الأرحام مَا نشاء إِلَى أجل مُسَمًّى، ثُمَّ نُخرجكم طفلا﴾ عطف عَلَى «نبين»، كأنَّهم خلقهم تدرُّجا[1] لغرضين: تبيين القدرة، وتقريرهم فِي الأرحام، حتَّى يولدوا وينشؤوا ويبلغوا حدَّ التكليف؛ ﴿ثُمَّ لِتبلغوا أشُدَّكم﴾ كمالكم فِي القوَّة والعقل، جمع شدَّة؛ ﴿ومنكم من يُتوفَّى﴾ عند بلوغ الأشُد، أو قبله. ﴿ومنكم من يُردُّ إِلَى أرذل العمر﴾ الهرم والخرف، حتَّى لاَ يعقل؛ ﴿لكيلا يعلم مِن بعد عِلمٍ شَيْئًا﴾ ليعود كهيئته الأولى؛ أوان الطفوليَّة، من سخافة العقل، وقلَّة الفهم؛ فينسى مَا علمه، وينكر من عرفه؛ والاستدلال بِأَنَّ ـ عَلَى إمكَانَ [٣٧٣] البعث بِمَا يعتري الإنسان فِي أسنانه مِنَ الأمور المختلفة، والأحوال المتضادَّة ـ مَن قَدَر عَلَى ذَلِكَ قدر عَلَى نظائره، فقال: ﴿وترى الأَرْض هامدة﴾ مَيتة يابسة؛ مِن "هَمَدَت النارُ": إِذَا صارت رمادا؛ ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزَّت﴾ تحرَّكت بالنبات، ﴿وَرَبَت﴾ وانتفخت؛ وقيل: ارتفعت. ﴿وأنبتت مِن كُلِّ زوج﴾ من كل صِنفٍ ﴿بهيج(٥)﴾ حَسَن رائق؛ وهذه دلالة ثالثة كرَّرها الله فِي كتابه لظهورها، وكونها مشاهدة.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إِلَى مَا ذكر من خلق الإنسان فِي أطوار مختلفة، وتحويله عَلَى أحوال متضادَّة، وإحياء الأَرْض بعد موتها ﴿بِأَنَّ الله هُوَ الحَقُّ﴾؛ أي: بسبب أنَّه الثابت فِي نفسه، الذِي بِهِ تتحقَّق الأشياء، ﴿وأنَّه يُحيي الموتَى﴾ وَأَنَّهُ يَقْدِر عَلَى إحيائها، لـمَّا أحيا النطفة، والأَرْض الميتة، ﴿وأنَّه عَلَى كُلِّ

---

١ - في الأصل: «مدرجا»، وهو خطأ.

**شيء قدير(٦)﴾** لأنَّ قدرته لذاته الـذِي نِسبته إِلىَ الكل عَلَى سواء. فَلَـمَّا دلَّت المشاهَدة عَلَى قدرته عَلَى إحياء بعض الأموات، لزم اقتداره عَلَى إحياء كلِّها، وعَلَى كل شيء. **﴿وأنَّ الساعة آتية لاَ ريب فِيهَا﴾** فإنَّ التغيير مِنَ مقدمات الانصِرَام وطلائعه؛ **﴿وأنَّ ا لله يبعث مَن فِي القبور(٧)﴾** بمقتضى وَعدِه الذِي لاَ يقبل الخلف.

**﴿ومن الناس مَن يُجادل فِي ا لله بغير علم﴾** تكرير للتأكيد، وَلِـمَا ينطُّ[1] بِهِ مِنَ الدلالة بقوله: **﴿وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنير(٨)﴾** عَلَى أنَّه لاَ سند لَهُ مِنَ استدلال، أو وحي؛ أو الأوَّل فِي المقلِّدين، وَهَذَا مِنَ المقلّدين. والمـُرَاد بالعلم: العلم الفطريُّ لاَ الفكريُّ، ليصحَّ عطف «الهدى» وَ«الكتاب» عليه. **﴿ثَانِيَ عِطفه﴾** متكبر؛ أو ثَنْي العطف كناية عَن التكبُّر كَلَيِّ الجيد؛ أو مُعرِضا عَن الحق، استخفافا بِهِ؛ والعِطف: الجانب. **﴿لِيُضلَّ عَن سبيل ا لله﴾** علّة للجدال؛ وقرئ بفتح الياء، عَلَى أن إعراضه عن الهدى المتمكّن مِنْهُ بالإقبال عَلَى الجدال الباطل، خروج مِنَ الهدى إِلىَ الضلال. **﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزيٌ﴾** كلُّ مَن كَانَ وصفه عَلَى هَذَا فله فِي الدُّنْيَا خِزي يُعَذَّب بِهِ. **﴿ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق(٩)﴾** الـمُحرق، وَهُوَ النار.

**﴿ذَلِكَ بِمَا قدَّمَت يداك﴾** عَلَى الالتفات، أو إرادة القول؛ أي: يقال لَهُ يوم القيامة: ذَلِكَ الخزي والتعذيب بسبب كفرك؛ **﴿وأنَّ ا لله ليس بظلاَّم للعبيد(١٠)﴾** وإنَّما هُوَ مُجاز لَهُم عَلَى أعمالهم.

---

١ - «النطُّ الشدُّ». لَعَلَّهُ يقصد: وما يَتَّصِل به من الدلالة...إلخ. ابن منظور: لسان العرب، ٦٦١/٦. مادَّة: «نطط».

وعن أبي سعيد فيما أرجو: «وعن قول الله تبارك وتعالى: ﴿**ومِن النـاس مَن يعبدُ الله عَلَى حَرفٍ، فإن أصابَه خيـر اطمأنَّ بِهِ**﴾ (أي: طَرَف وجانب وَاحِد مِنَ الدين، لاَ يدخل فِيهِ عَلَى الثبات والتمكين. والحرف: ـ قيل ـ منتهى الجسم. وقال مُجاهد: "عَلَى شـكٍّ". وقيـل: الحـرفُ مِـن كـل شـيء: طَرفـه، وشـفيره، وحـدُّه، ومِـنَ الجبـل: أعـلاه المحـدَّد)[1]. ﴿**وإن أصابتـه فتنـة**﴾ أي: طَرَف وجانب وَاحِد مِنَ الدين، لاَ يدخل فِيهِ عَلَى الثبات والتمكين. والحرف: ـ قيل ـ منتهى الجسم. وقال مُجاهد: "عَلَى شـكٍّ". وقيـل: الحـرفُ مِـن كـل شيء: طَرفه، وشفيره، وحدُّه، ومِنَ الجبل: أعلاه المحدَّد. ﴿**انقلب عَلَى وجهه، خَسِر الدُّنـيَا والآخِرَة، ذَلِكَ هُوَ الخسرانُ المُبِـين(١١)**﴾ مَـا معنـى ذَلِـكَ؟ قَالَ: يوجد فِي التفسير أنَّ أُولَـئِكَ قوم دخلوا في الإسلام لطلـب الغنـائم، فـإذا كَـانَت الدائـرة عَلَى أعـداء الله اطمأنـُّوا وفرحـوا؛ وإذا كَـانَت الدائـرة عَلَـى المُسْلِمِينَ سخطوا، وَقَالُوا: يا ليتنا لم نكن عندهـم، أو نحـو هَـذَا مِـنَ القـول، وَهُوَ حسن [٣٧٤] مِنَ التفسير». انتهى كلام الشيخ.

وخسرانه للدنيا: لأَنـَّهُ نسي نصيبـه مِمَّـا يتـزوَّد منهـا للآخـرة، وخسـرانه للآخرة: لأَنـَّهُ خسر نعيـم الجـنَّة الـذِي أُعِـدَّ للمطيعـين، وَلاَ أعظـم مـن هَـذَا خسرانـًا، لأَنـَّهُ لم يثمر لَهُ إلاَّ [الـ]ـعذاب الأدنى، والعذاب الأكبر. ﴿**يدعو من**

---

١ - ما بين قوسين كتبه الناسخ في الحاشية بعد الإحالة إليها في المتن عند تفسير قولـه تعـالى: ﴿ومِن الناس مَن يعبـد الله عَلَى حَـرفٍ، فـإن أصابـه خـير اطمـأنَّ بـِهِ﴾ وهـي المكـان المناسب للعبارة. لكن أعاد كتابتها في المتن عند تفسير قوله تعالى: ﴿وإن أصابته فتنة﴾.

**دون ا لله مَا لاَ يضرُّه﴾** أي: يعبد مَا لاَ يضرُّه إن ترك عبادته، **﴿وَمَا لاَ ينفعه﴾** إن عبده، بَل يتضرَّر بتعبه وعبادته لَهُ، ويتعذَّب، **﴿ذَلِكَ هُوَ الضلال البعيد(١٢)﴾** عَن المقصد؛ مستعار مِن ضلال مَن أَبعدَ فِي التِّيهِ ضلالاً[١].

**﴿يدعو﴾** أي: يعبُد **﴿لَمَن ضَرُّه﴾** بكونه معبودًا[٢]، لأَنَّهُ يوجب الخزي فِي الدُّنْيَا، والعذاب فِي الآخِرَة، **﴿أقربُ مِن نفعه﴾** الذِي يتوقَّعه بعبادته. **﴿لبِئْسَ المولَى﴾** المعبود، **﴿ولبِئْسَ العشير(١٣)﴾** العابد. وَهَذَا يتناول كلَّ مَا يشغل عَن فرائض ا لله مِنَ المعاصي.

ثُمَّ عقَّب ذكر صدهم؛ فقال: **﴿إِنَّ ا لله يُدخل الذِينَ آمنوا وعملوا الصالحات جَنَّاتٍ تَجري مِن تَحتها الأنهار إِنَّ ا لله يفعل مَا يريد(١٤)﴾**.

**﴿من كَانَ يَظنُّ أن لن يَنصرَه ا لله فِي الدُّنْيَا والآخِرَة﴾** كلام فِيهِ اختصار؛ والمعنى: أنَّ ا لله ناصر رسوله فِي الدُّنْيَا والآخِرَة، فمن كَانَ يظنُّ خلاف ذَلِكَ، ويتوقَّعه مِن غيظه، **﴿فليمدد بسبب إِلَى السَّمَاء ثُمَّ ليقطع﴾** فليستقصِ فِي إزالة غيظه أو جزعه بِأَنْ يفعَل كلَّ مَا يفعَله المُمتَلئ غيظا، أو المبالغ جزعا. قيل: أَرَادَ بالسَّمَاء: سقف البيت، أي: ليشدد حبلا فِي سقف بيته، فليختنق بِهِ حتَّى يموت، ثُمَّ ليقطع الحبل بعد الاختناق. وقيل: المراد بالسَّمَاء: السَّمَاء المعروفة؛ ومعناه: فليقطعه من أصله، فإنَّ أصله مِنَ

---

١ - كذا فِي الأصل، والصواب: «ضالاًّ». انظر: الزمخشري: الكشَّاف، ٣/١١٦. أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص٩٨.

٢ - فِي الأصل: «معبود»، وهو خطأ.

السَّمَـاء، ﴿فليمدد بسبب إِلىَ السَّمَـاء ثُمَّ ليقطع﴾ عَن النــَّبِي الوحـي، فلينظـر هل يقدِر عَلَى ذهاب غيظه بهذا الفعل. ﴿فلينظـر﴾ فليصـور فِي نفسـه ﴿هـل يُـذهِبنَّ كيدُه﴾ فعله ذَلِكَ؛ وسمَّاه عَلَى الأوَّل كيدا، لأَنـَّهُ منتهى مَا يقدر عليه. ﴿مَا يغيظ(١٥)﴾ غيظَه، أو الذِي يغيظه من نصر ا للهِ.

﴿وكذلك﴾ ومثل ذَلِكَ الإنزال ﴿أنزلناه﴾ أنزلنـا القـرآن كلّـه، ﴿آيـات بَيِّـنَات﴾ للمتدبرين لاَ غير، ﴿وأنَّ ا للهَ يَهدي مَن يريد(١٦)﴾ هدايته.

﴿إنَّ الذِينَ آمنوا وَالذِينَ هادوا والصابئين والنصارى والمجوس﴾ قيـل: إنَّ المجوس هُمُ البانيان[كَذَا]. ﴿وَالذِينَ أشركوا، إِنَّ ا للهَ يفصل بَيْنَـهُم يـوم القيامـة﴾ بالحكومـة بَيْنَـهُم، وإظهـار المحق مِنـْهُم عَلَى المبطل؛ أو الجـزاء فيجازي كلاًّ مَا يليق بِهِ، ويدخله المحلَّ المعدَّ لَـهُ، ﴿إِنَّ ا للهَ عَلَـى كُـلِّ شـيء شهيد(١٧)﴾ عالم بِهِ مراقب لأحواله.

﴿ألم تر﴾ بعقلك وقلبك ﴿أنَّ ا للهَ يسجد لَهُ من فِي السَّـمَاوَات ومـن فِي الأَرْض﴾ يتسخَّر بقدرته، وَلاَ يتأبَّي عَـن تدبيره؛ أو يـدلُّ بذلِّـه عَلَـى عظمـة مدبره. و«مَن» يجوز أن يتـمَّ[1] أولي العقـل وغـيرهم عَلَى التغليـب، فيكـون قوله: ﴿والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والـدوابُّ﴾ إفـرادا لهـا بالذكر لشهرتها، واستبعاد ذَلِكَ منها، ﴿وكثيرٌ مِنَ الناس، وكثـير حـقَّ عليـه

---

١ - كـذا فِي الأصـل، ولعـلَّ الصـواب: «أن تعـمَّ». وَفِي الألوسي: «و"من" إِمـَّا خاصـَّة بالعقلاء، وَإِمـَّا عامـَّة لهم ولغيرهم بطريق التغليب، وَهُوَ الأولى، لأَنـَّهُ الأنسب بالمقـام». الألوسي: روح المعاني، ١٣١/١٧.

**العذاب**﴾ بكفره وإيبائه عَن الطاعة، ﴿**وَمَن يُهِن ا للهُ**﴾ بالشقاوة، ﴿**فما لَهُ مِن مُكرِمٍ**﴾ يكرمه، [٣٧٥] ﴿**إنَّ ا للهَ يفعل مَا يَشَاء(١٨)**﴾ مِنَ الإكرام والإهانة، يهين من يَشَاء بالكفر[1]، ويكرم من يَشَاء بالإيمان[2]؛ وَلاَ يَشَاء من ذَلِكَ إلاَّ مَا يقتضيه عمل العاملين، واعتقاد المعتقدين.

﴿**هذان خَصْمَان**﴾ يحتمل أنَّه يصف الناس الذِينَ سجدوا مَعَ الساجدين مِن خلق ا لله؛ والخصم الثاني: الذِينَ أَبَوا عَن السجود، الذِينَ حقَّ عَلَيْهِمُ العذاب. ﴿**اختصموا فِي ربِّهم؛ فالذين كَفَرُوا**﴾ فصلٌ لخصومتهم، وَهُوَ المعنيُّ بقوله: ﴿إنَّ ا لله يفصلُ بَيْنَهُم يوم القيامة﴾[3]. ﴿**قُطِّعَت لَهُم**﴾ قُدرت عَلَى مقادير جثثهم ﴿**ثِيابٌ مِن نار**﴾ نيران تحيط بهم إحاطة الثياب. ﴿**يُصبُّ مِن فوق رءوسهم الحميم(١٩)**﴾ ماءٌ حارٌّ، لو سقطت مِنْهُ قطرة عَلَى جبال الدُّنْيَا لأذابتها. ﴿**يُصهر بِهِ مَا فِي بطونهم**﴾ مِنَ الأمعاء، ﴿**والجلودُ(٢٠)**﴾ أي: يؤثر من فرط حرارته فِي باطنهم تأثيره فِي ظاهرهم؛ فتذاب بِهِ أحشاؤهم كما تُذاب بِهِ جلودهم. ﴿**ولهم مقامعُ مِن حديد(٢١)**﴾ سياط يُجلدون بها. وقيل: المِقْمَعة: شبه الجرز مِنَ الحديد[4]، من قولهم: قَمَعتُ رأسه، إذَا ضربته ضربا عنيفا. ﴿**كلَّما أرادوا أن يَخرجوا منها مِن غمٍّ**﴾ أي: كلَّما حاولوا

١ - فِي الأصل: «بالفكر»، وهو خطأ.

٢ - فِي الأصل: + «والإهانة»، ولا محلَّ لها من النصِّ. انظر: الزمخشري: الكشَّاف، ١١٧/٣.

٣ - سورة الحجِّ: ١٧.

٤ - «والمِقمع والمِقمعة كلاهما: ما قُمع به. والمقامع: الجِرَزة وأعمدة الحديد منه، يضرب بها الرأس». ابن منظور: لسان العرب، ١٦٤/٥.

الخروج مِنَ النار بِمَا يلحقهم مِنَ الغم والكرب الذِي أخَذ بأنفاسهم، ﴿أُعيدوا فِيهَا﴾ ردُّوا إِلَيْهِا بالمقامع؛ وقيل لَهُم: ﴿وذوقوا عَذاب الحريق(٢٢)﴾ النارَ البالغة فِي الإحراق.

﴿إنَّ ا لله يُدخل الذِينَ آمنوا وعملوا الصالحات جَنَّات تَجري مِن تَحتها الأنهار، يُحلَّون فِيهَا مِن أساور مِن ذهبٍ ولؤلؤًا، ولباسهم فِيهَا حرير(٢٣)﴾ أي: أنَّهم يَلبسون فِي الجنَّة ثياب الإبريسَم[1]، وَهُوَ الذِي حُرم لبسه فِي الدُّنْيَا عَلَى الرجال؛ وأنَّهُم يطيبون بالحلي وإن كَانُوا طيبين من غير تطيُّب. ﴿وَهُدوا إلَى الطيِّب مِنَ القول﴾ كلمة التوحيد، ﴿وهُدُوا إِلَى صِرَاط الحميد(٢٤)﴾ المحمود نفسه؛ أو عاقبته، وَهُوَ الجنَّة؛ أو الحقُّ؛ أو المستحقُّ لذاته. والحميد: وَهُوَ ا لله تعالى. وصراطه: الإسلامُ.

﴿إنَّ الذِينَ كَفَرُوا ويصدُّون عَن سبيل ا لله﴾ عَن دِينه؛ أو شيء مِنْهُ؛ وَهُم الشيطان وحزبه، مِن جنٍّ وإنس؛ ﴿والمسجد الحرام﴾ عطف عَلَى «ا للهِ»، لأَنَّ الصادَّ عَنْهُ كالصاد عَن سبيل ا لله؛ والصادُّ عَن عمارة بقيَّة المساجد كالصاد عَن المسجد الحرام، ﴿الذِي جعلناه للناس سواءً العاكفُ﴾ أي: المقيم ﴿فِيهِ، والبادِ﴾ والطارئ، ﴿ومَن يُرد فِيهِ﴾ مِمَّا تُرك مفعوله ليتناول كلَّ متناول؛ وقرئ بالفتح، مِنَ الورود؛ ﴿بإلحادٍ﴾ عُدُول عَن القصد،

---

١ - الإبريسم هو الحرير، وفيه ثلاث لغات: بكسر السين وفتحها وضمِّها. انظر مادَّة «برسم». ابن منظور: لسان العرب، ١/١٩٤. الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ص ٩٧٤، مادَّة «برسم».

﴿بظلم﴾ بغير حقٍّ؛ أي: مُلحِـدا بسـبب الظلـم كالإشـراك، واقـتراف الآثـام؛ وكذلك مَن عَدَل عَن مساجد الله، عمَّا أمر الله مِن ذكره فِيهَا، فَقَد صَدَّ عَن سبيل الله؛ فقد أحاط بِهِ الوعيد، لقوله: ﴿نُذِقْه مِن عذاب أليم(٢٥)﴾.

﴿وإذ بوَّأنا لإبراهيم مَكَانَ البيت﴾ أي: واذكر إذ عيَّنّاه، وجعلنا[هُ] لَـهُ مَبَاءةً؛ وقيل: وادٍ أنزلناه فِيهِ، ﴿أن لاَ تُشـرِكْ بـي شَيْـئًا﴾ أي: أن لاَ تَعصـي بشيء، وخاصـَّة فِي مكَـانَ البيـت، فـإنَّ المعصيـة وإن كَـانَت عظيمـة فِي كـل مكَانٍ، فإنَّ المعصية فِيهِ أعظم، ﴿وطهِّرْ بيـتيَ للطـائفين والقـائمِين[1] والركَّـع السـجود(٢٦)﴾ أي: مِـن كـل مَـا يُـؤذي البيـت، مِـنَ القـاذورات التِـي يستقذرها الشرع والعقل، وتَمنع الطائفين بـهِ [٣٧٦] والقـائمين فِيـهِ للذكـر، والعابدين الله بالركوع والسـجود، كمـا قَـالَ: ﴿فِي بيـوت أذن الله أن تُرفـع ويُذكرَ فِيهَا اسمه، يُسبح لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال﴾[2]. قَالَ أبو سعيد فِي قولـه: ﴿وطهرْ بيـتي للطـائفين﴾: «إنـَّمَا أمَـره أن يطهـره مِـنَ الأصنـام والمشـركين، ﴿للطائفين والقائمين والركَّع السجود﴾».

﴿وأذِّن فِي الناس﴾ نادِ فِيهِم ﴿بالحجِّ﴾ بدعوة الحج، والأمرِ بِهِ، ﴿يـأتوك رجالا﴾ مُشاةً، ﴿وعلى كُلِّ ضامرٍ﴾ ورُكبانا عَلَى كل بعير مهزول أتعبه بُعـد السفر، ﴿يأتين﴾ صفة لضامر، ﴿مِن كُلِّ فجٍّ﴾ طريق ﴿عميق(٢٧)﴾ بعيـد. ﴿ليشهدوا﴾ ليحضروا ﴿مَنافع لَهُم﴾ دينيـَّة ودنيويَّة؛ وتنكيرها[3] لأَنَّ المـُرَاد

١ - فِي الأصل: «والعاكفين» وهو خطأ.

٢ - سورة النور: ٣٦.

٣ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «ونكَّرها».

بها: نوع مِنَ المنافعِ مَخصوص بهـذه العبـادة، ﴿**ويَذكـروا اسـم ا لله فِي أيـَّام معلومات عَلَى مَا رزقهم مِن بهيمة الأنعام، فكلوا منها وأطعمـوا البـائسَ**﴾ الذِي أصابه بؤس أو شدَّة، ﴿**الفقير(٢٨)**﴾ المحتاج.

﴿**ثمَّ لِيَقضوا تَفَثَهـم**﴾ ثـمَّ لِـيُزيلوا وَسَخَهم، بقـص الشـارب والأظفـار، ونتف الإبـط، وحَلقِ العانـة، ﴿**ولْيُوفُـوا نُذورهـم**﴾ مَـا يَنـذرون مِـنَ الـبر فِي حجهم، وقيل: مواجب الحـج، ﴿**وليطَّوَّفـوا بـالبيتِ العتيـق(٢٩)**﴾ القديـم، لأنَّـهُ أوَّلُ بيت وُضع للناس؛ أو المعتـقِ مِن تَسلُّط الجبابرة؛ فكم من جبَّـار سَار إليه ليهدمه، فمنعه ا لله؛ وَأَمـَّا الـحَجَّاج، فإنـَّما قَصَد إخـراج ابـن الزبـير مِنـْهُ دون التسلُّط عليه عَلَى مَا قيل.

﴿**ذَلِكَ ومَن يُعظِّم حُرمات ا لله**﴾ أحكامـه، وسـائر مَـا لاَ يَحـلُّ هتكـه؛ وتعظيمها: ترك ملابستها؛ وقيل: الـحُرمة: مَا وجب القيام بِهِ، وحَرُم التفريـط فِيهِ؛ ﴿**فهو خيرٌ لَهُ**﴾ فالتعظيم خير لَهُ ﴿**عند ربِّه**﴾ ثوابا، ﴿**وأُحلَّـت لكـم**[1] **الأنعام**﴾ قيل: أُريـد ببهيمـة الأنعـام: جنـين الأنعـام، ﴿**إلاَّ مَـا يُتلَـى عَلَيْكُـم، فاجتنبوا الرجسَ مِـنَ الأوثـان**﴾ فـاجتنبوا الرجـس الـذِي هُـوَ الأوثـان، كمـا تُجتنـب الأ نجـاس؛ وَهُـوَ غايـة المبالغـة فِي النهـي عَـن تعظيمهـا، والتنفـير عَـن عبادتها، وذلك يتناول جميع معاصي ا لله من أعمال القلوب والجوارح، لأنـَّهَا تُعبد من دون ا لله، ﴿**واجتنبوا قولَ الزور(٣٠)**﴾ تعميم بعد تَخصيص؛ فـإنَّ

١ - فِي الأصل: «وأُحلَّت لكم بهيمة الأنعام»، وهو خطأ. وفِي سورة المائدة: ﴿أُحِلَّت لكـم بهيمةُ الأنعامِ إلاَّ ما يُتلى عليكم﴾ الآية: ١.

عبـادة الأوثـان رأس الـزور؛ والـزور: هِـيَ الانحـراف، كمـا أنَّ الإفــك: هُـوَ الصرف؛ وكلُّ ذَلِكَ عبادة غير الله؛ والمشرك زاعم أنَّ الوثنَ يَحقُّ لَهُ العبادة.

﴿**حُنَفاءَ للهِ**﴾ مُخلصين لَهُ ﴿**غيرَ مُشركين بِهِ**﴾ شَيْـئًا من معاصيـه، ﴿**ومَن يُشرك با للهِ**﴾ بشيء من الشرك، جلية وخفيـه؛ ﴿**فكَأَنـَّما خرَّ مِنَ السَّمَـاء**﴾ لأَنَّهُ سقط مِن أوج الإيمان إِلىَ حَضيض الكفر، وخـرج مِـن جملتـه التِـي دان بِهـا لخالقه إِلىَ حضرةِ[1] شياطين الجن والإنس، ﴿يُوحـي بعضُهـم إلى بعـضٍ زُخـرُف القولِ غرورا﴾[2]؛ ومعناه: أنَّ بُعدَ مَن أشـركَ مِـنَ الحق، كبُـعدِ مَـن سـقَطَ مِـنَ السَّمَـاء، فذهبت بِهِ الطير، أو هَوَت بِهِ الريـح، ﴿**فتخطَّفُـه الطـيرُ**﴾ فـإنَّ الأهـواء المردية توزع أفكاره، ﴿**أو تَهوي بِهِ الريح في**[3] **مكَانٍ سحيق(٣١)**﴾ بعيد.

﴿**ذَلِكَ ومـن يُعظِّـم شـعائرَ الله**﴾ أعـلامَ ديـن الله، ﴿**فإنـَّها مِن تَقـوى القلوب(٣٢)**﴾ فـإنَّ تعظيمهـا لله [٣٧٧] مِـن أفعـال ذوي تَقـوى القلـوب؛ وذَكَر القلوب لأَنـَّهَا مَنشَأُ التقوى والفجور، والآمرة بهـما، ﴿**لكم فِيهَا منافع إِلىَ أجلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحلُّها إِلىَ البيت العتيـق(٣٣)**﴾ أي: لكـم فِيهَـا منـافع: درُّها ونسلها وصوفها وظهورها إِلىَ أن تُنحر، وقتَ نَحرها منتهية إِلىَ البيـت؛ أي: لكم فِيهَا منافع دنيويَّة إِلىَ وقتِ النحر، وبعده منافع دينيـَّة أعظم منها.

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «حضيرة». «والحضيرة: جماعة القوم، وَقِيـلَ: الحضـيرة من الرجال: السبعة أو الثمانية... وَقِيلَ: الحضيرة: الأربعة والخمسة يَغزُون، وَقِيلَ: هـم النفر يُغزَى بهم، وَقِيلَ: هم العشرة فمن دونهم». ابن منظور: لسان العرب، ٥٥٩/١.

٢ - سورة الأنعام: ١١٢.

٣ - في الأصل: «من»، وهو خطأ.

﴿ولكلِّ أُمـَّةٍ﴾ أهل شريعة، ﴿جعلنا مَنسَكا﴾ متعبَّدا، وقربَـانـًا يتقرَّبـون بِهِ إِلىَ ا الله؛ وقرئ بالكسر؛ أي: موضع نسـك، ﴿ليذكـروا اسـم ا الله﴾ دون غيره، ويَجعلوا نُسكَهم لوجهه؛ علَّل[1] الجعل به تنبيهـا عَلَى أنَّ المقصـود مِـنَ المناسك تَذكُّر المعبود. ﴿عَلَى مَا رزقهم مِـن بهيمـة الأنعام﴾ سمـَّاها بهيمـة الأنعام، لأَنـَّهَا لا تـتكلَّم، ﴿فإلهكم إلهٌ وَاحِد، فله أسلِموا﴾ أخلصوا للقـرب، أو الذكـر وَلاَ تشـوبوه بالإشـراك، ﴿وبشِّـر المخبتِين(٣٤)﴾ المتواضعـين، أو المخلصين؛ فإنَّ الإخبات صفتهم، وَهُوَ الخشوع.

﴿الذِينَ إِذَا ذُكِر ا الله وَجِلَت قلوبهم﴾ هيبةً مِنـْهُ، لإشراق أشعَّة جلالـه، وهيبتـه عليهـا، ﴿والصـابرين عَلَـى مَـا أصـابهم﴾ مِنَ المصـايب والتكـاليف، ﴿والمقيمِـي الصـلاة﴾ بشـروطها فِي أوقاتهـا، ﴿ومِمـَّا رزقنـاهم﴾ مِـن قـوَّة أبدانهم، وثَقَابـة آرائهـم، وغـزارة عقولهـم، وأنـوار علومهـم، وفضـل أموالهـم ﴿ينفقُونَ(٣٥)﴾[2] فِي وظائف الدين.

﴿والبُـدْنَ﴾ جمـع بدنـَةٍ، الإبـل، لِعظـم بَدَنِهـا، مـأخوذة مـن بَـدَنَ، و﴿جعلناها لكم من شعائر ا الله﴾ من أعلام دينـه التِـي شـرعها ا الله، ﴿لكـم فِيهَا خير﴾ دينيٌّ ودنيويٌّ، إن رُعيَ بها أمر ا الله، وَإِلاَّ فعلى العكـس؛ و كذلـك الدُّنـْيَا وَمَا فِيهَا، ﴿فاذكروا اسم ا الله عليهـا صَـوافَّ﴾ قائمـات قـد صُفِّفـن أيديهنَّ وأرجلهنَّ؛ ﴿فإذا وَجَبَت جُنوبها﴾ سقطت عَلَى الأَرْض؛ وَهُـوَ كنايـة

١ - فِي الأصل: «على»، ولا مَعنًى له. انظر العبارة في: أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص١٠٦.

٢ - فِي الأصل: «ينقون» وهو خطأ.

عَن الموت، ﴿**فكلوا منها وأطعموا القانع**﴾ الراضي بِمَا عنده، وبما يُعطَى مـن غير مسألة، ﴿**والمعترَّ**﴾ المعترض بالسؤال وغيره، ﴿**كذلك سـخّرناها لكـم**﴾ مَعَ عظمها وقوّتها، حتّـى تأخذوهـا منقـادة، فتعقلوهـا[1] وتَحبِسوها صافـّة قوائمها، ثُمَّ تطعنـون فِي لبـّاتها. ﴿**لَعَلَّكُم تَشكرُونَ(٣٦)**﴾ إنعامَنـا عَلَيْكـم بالقرب والإخلاص؛ ومَن لم يَشكر فقد كَفَر.

﴿**لن يَنَالَ ا للهَ**﴾ لن يُصيب رِضاه، و لم يقع مِنْهُ موقـع القبـول، ﴿**لحومهـا**﴾ المتصدَّق بها، ﴿**وَلاَ دماؤها**﴾ الـمهراقة بالنحر، من حيث أنـّها لحوم دماء، (لعلّه) وكذلك غنيٌّ عن بقيَّة الأغراض والأعمال، لأَنـَّهُ غنيٌّ بذاته، ﴿**ولكن ينَاله التقـوى منكم**﴾ ولكن يناله مَا يَصحبه مِن تقوى قلوبكم، الذِي يدعوكـم إِلىَ تعظيـم أمـر ا لله، والتقرُّب إليه، والإخلاص لَهُ؛ وَهُوَ صفة للقلب. فمـن هَـذَا الوجـه يَجـب لاَ مَحالة أن تكون أعمال القلـب ـ عَلَى الجملـة ـ أفضـل مِـن حركـات الجـوارح، ﴿**كذلك سخَّرها لكم**﴾ كـرَّره تذكـيرا للنعمـة، وتعليـلا لَـهُ بقولـه: ﴿**لِتُكبـِّروا ا للهَ**﴾ أي: لتعرفوا عَظَمته باقتداره عَلَى مَا لاَ يَقدِر عليه غيره؛ فَتُوَحدوه بالكبرياء ﴿**عَلَى مَـا هداكـم**﴾ أرشـدكم إِلىَ طريـق تسـخيرها، وَكَـيفِيـَّة التقـرُّب بهـا؛ أو لتكبـروا ا لله، أي: لتعظِّموه عَلَى مَا هداكم لأمر دينه، ﴿**وبشِّـر المحسـنِين(٣٧)**﴾ المخلصين فيما يأتونه [٣٧٨] ويذرونه بالجنَّة.

﴿**إنَّ ا للهَ يُدافِع عَـن الذِيـنَ آمنـوا**﴾ يُدافـع وسـاوس الشـيطان بالإلهـام، ويُدافـع المضـارَّ الدينيَّـة والدُّنـْيَاويَّة، بِمَـا يضادُّهـا مِـنَ الأدويـة المريحـة لِمَـن

---

١ - في الأصل: «فتعلقوها»، وَهُوَ خطأ. وانظر أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص١٠٧.

استعملها؛ وهذه نعمةٌ عظيمة لِمَن شَكَرها؛ ﴿إِنَّ ا لله لاَ يُحِبُّ كُلَّ خوَّان﴾ فِي أمانة ا لله، ﴿كَفُورٍ(٣٨)﴾ لنعمته.

﴿أُذِنَ﴾ رُخّص؛ وقُرئ عَلَى بناء الفاعل[1] وهو ا للهُ[2]؛ ﴿للذين يُقَاتَلون﴾ يُقاتِلون المشركين[3] ﴿بأنَّهم ظُلموا﴾ بسبب أنَّهم ظُلموا، ﴿وإنَّ ا لله عَلَى نصرهم لَقديرٌ(٣٩)﴾ وعدٌ لهم بالنصر. ﴿الذِينَ أُخرجوا مِن دِيارهم بغير حقٍّ﴾ بغير مُوجب استحقُّوا بِهِ، ﴿إلاَّ أن يقولوا: رَبُّنَا ا لله﴾ ويستكن [كَذَا] فِي قولهم عملهم وإخلاصهم لله؛ أي: مَا نَقَموا مِنْهُم إلاَّ [لِـ]ـتوحيدهم وعبادتهم لله؛ ﴿ولولاَ دَفْعُ ا لله الناسَ بعضَهم ببعض﴾ بتسليط المؤمنين مِنْهُم عَلَى الكَافِرِينَ؛ ﴿لَهُدِمَت﴾ لَخُربت باستيلاء[4] المشركين عَلَى ملَّة الإسلام. ﴿صوامع﴾ الرهبانيَّة، ﴿وبِيع﴾ النصارى، ﴿وصلواتٌ﴾ وكنائس اليهود، سُميت بها، لأَنَّهُ يُصلَّى فِيهَا، ﴿ومساجدُ﴾ المُسْلِمِينَ ﴿يُذكَرُ فِيهَا اسم ا لله كثيرا﴾ صفة للأربع؛ أو المساجد، خُصَّت بها تفضيلا. ويَدخل فِي معنى هدمها: تعطيلها مِنَ العمارة بالصلاة والذكر؛ وَلِمَا أَذِنَ ا لله فِيهَا، واستعمالها باللهو[5]، والخوض فِي الباطل، لأَنَّهَا إِذَا

---

١ - فِي الأصل: «الفاعفل»، وهو خطأ.

٢ - فِي الأصل: «لله»، وهو خطأ.

٣ - كذا فِي الأصل، والصواب كما ذكر أبو السعود: «يقاتلهم المشركون»، ثُمَّ قال: «وقرئ عَلَى صيغة المبنيِّ للفاعل، أي يريدون أن يقاتلوا المشركين». أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص١٠٨.

٤ - فِي الأصل: «باستلاء»، وهو خطأ.

٥ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «للَّهو».

عُطِّلت مِنَ الصلاة والذكر، واستُعملت بالخوض[1]؛ فكأنَّـها هُدِمت مِن حيث المعنى، بَل صارت هِيَ وبيت الماء بمثابةٍ وَاحِدَةٍ، بَل هُوَ أنفع منها لقضاء الحاجةِ[2]، ولأنَّه هُوَ لم يُستعمل لغير مَا جُعل لَهُ، وبقيت هِيَ مُتعبَّدًا للشيطان وحِزبه؛ والدليل عَلَى ذَلِكَ، قوله: ﴿ومَن أظلمُ مِمَّن مَنَع مَساجد ا لله أن يُذكرَ فِيهَا اسمه، وسعى فِي خرابها﴾[3] فكَانَ الهدم والخراب بمعنى واحد.

**﴿ولَينصرنَّ ا لله من يَنصره﴾** مَن يَنصُر دينه، **﴿إنَّ ا لله لقويٌّ﴾** علىنصرهم، **﴿عزيز(٤٠)﴾** لاَ يُمانعه شيء. **﴿الذِينَ إن مَّكَّنَّاهم فِي الأَرْض أقاموا الصلاةَ وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونَهوا عَن المنكر﴾** بدلٌ مِن «مَن ينصره». **﴿و لله عاقبة الأمور(٤١)﴾** فإنَّ مَرجِعها[4] إلَى حكمه؛ وفيه تأكيد لِمَا وعده.

**﴿وإن يُكذِّبوك فَقَد كذَّبت قبلهم قومُ نوح وعادٌ وثمود(٤٢) وقوم إبراهيم وقومُ لوط(٤٣) وأصحابُ مدين﴾** تسليةً لَهُ، بأَنَّ قومه إن كذَّبوه، فهو ليس بأوحديٍّ فِي التكذيب، فإنَّ هؤلاء قد كَذَّبوا رسلهم قبل قومه،

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «للخوض».

٢ - في العبارة مبالغة من المُؤَلِّف، إذ كيف يشبِّه المساجد ببيت الماء الذِي لا وجه لتشبيهه ومقارنته ببيت ا لله! وينبغي أن نرفع من قدر المساجد، ونطهِّرها مِمَّا ذكره المصنِّف، ومن الذين يسعون في خرابها، وأن نجنِّبها السفهاء، ولكن لا أن نعتبرها أخسَّ من بيت الماء، مهما وقع فيها من تجاوزات: ﴿في بيوت أذن ا لله أن تُرفع...﴾. سورة النور: ٣٦.

٣ - سورة البقرة: ١١٤.

٤ - في الأصل: «مرجها»، وهو خطأ.

﴿**وكُذِّب مُوسى**﴾ غَيَّر فِيهِ النظمَ، وبَنَي الفعل للمفعول، لأنَّ قَومه بنو إسرائيل، و لم يُكذِّبوه، وإنَّما كذَّبه القبط؛ ﴿**فأمليتُ للكافِرِينَ**﴾ فأمهلتهم حتَّى انصرمَت آجالهم المقدَّرة؛ ﴿**ثمَّ أخذتُهم فكيف كَانَ نكيرِ(٤٤)**﴾ إنكاري عَلَيْهِم بتغيير النعمة مِحنةً، والحياة هلاكا، والعمارة خرابًا. والأخذُ مِنَ الله لاَ يكون إلاَّ عَلَى مَن غَضِب عليه؛ ويعمُّ كلَّ مَن مات عَلَى الكفر؛ وَأمَّا المؤمنون ـ وإن قُتلوا أو ماتوا حَتْفَ أنوفهم، أو وقع عَلَيْهِم حرق أو غرق أو نحوه ـ فلا يُسمَّى أَخذًا، لأَنَّهُ قَالَ: ﴿لَيرزقنَّهم الله رزقا حسنا﴾[1].

﴿**فكأيِّن مِن قرية [٣٧٩] أهلكناها**﴾ بإهلاك أهلها، ﴿**وهي ظالمةٌ**﴾ أي: أهلها، ﴿**فهي خاويةٌ عَلَى عُروشها**﴾ ساقطة حيطانها عَلَى سُقوفها، بِأن تعطَّل بنيانها، فَخربت سقوفها، ثُمَّ تهدَّمت حيطانها، فسقطت فوق السقوف؛ أو خالية مَعَ بقاء عُروشها وسَلامتها، ﴿**وبئرٍ معطلة**﴾ أي: وكم بئرٍ عامرة فِي البوادي تُركت لاَ يُستقى منها لهلاك أهلها، ﴿**وقَصْرٍ مَشِيد(٤٥)**﴾ مرفوع، أخليناه عَن ساكنيه.

﴿**أفلم يسيروا فِي الأَرْض**﴾ حثٌّ لَهُم عَلَى أن يُسافروا لِيَروا مَصَارع المهلَكين فيعتبروا، وَهُم وإن كَانُوا قد سافروا لم يُسافروا لذلك؛ ويَحتمل هاهنا السير بتفكُّر القلوب فِي قصص الماضين، ليعتبروا بِمَا وقع مِنْهُم، وبهم وفيهم، ليحذروا مشاربهم، ﴿**فتكونَ لَهُم قلوب يعقلون بها**﴾ مَا يَجب أن يُعقل مِنَ التوحيد، بِمَا حَصل لَهُم مِنَ الاستبصار والاستدلال، ﴿**أو آذانٌ**

---

١ - سورة الحجّ: ٥٨.

يَسمعون بها﴾ مَا يجب أن يُسمع مِنَ الوحـي، والتذكـير بِحـال مَـن شـاهدوا آثارهم؛ ﴿فإنَّها لاَ تعمَى الأبصار﴾ أبصارُ العيون، فإنَّه لاَ يَضرُّ عَمَاهـا عنـد الاستبصار، ﴿ولكن تَعمَى القلوبُ التِي فِي الصـدور(٤٦)﴾ عَـن الاعتبـار؛ أي: ليس الخلل فِي مشـاعرهم[1]، وإنـَّما عَمِيَـت بصـائرهم باتـبـاع الهـوى، والانهماك فِي التقليد؛ وفصَّل التنبيه عَلَى أنَّ العمى الحقيقيَّ، والسمع الحقيقيَّ، ليس المتعارف الذِي يَخصُّ البصر، والسمع الظاهر.

﴿ويسـتعجلونك بـالعذاب﴾ المتوعَّـد بِـهِ، ﴿ولـن يُخلِـفَ ا لله وَعــدَه﴾ لامتناع الخلف عَنـْهُ فِي خبره، فيصيبهم بِمَا أوعدهم، ولـو بعـد حـين. ﴿وإنَّ يوما عند رَبّكَ كألفِ سنةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ(٤٧)﴾ مِن أيـَّامكم؛ أي: مِـن شـدَّة مَا يَلقَى فِيــهِ أعـداؤه مِـنَ الشـدائد؛ لأَنَّ أيـَّام الشـدائد مُسـتطالة، وَأَن يكـون للمؤمنين كما بين الصلاتين، لأَنـَّهُم لاَ يحزنهم الفزع الأكبر.

﴿وكأيِّن مِن قريةٍ أَملَيْتُ لَها﴾ كما أمهلتكم، ﴿وهــي ظالمـة﴾ مثلكـم، ﴿ثمَّ أخذتـُها﴾ بالعذاب، ﴿وإليَّ المصير(٤٨)﴾ وَإِلىَ حكمي مرجع الجميع.

﴿قل: يَـا أَيُّهَا الناس إِنـَّمَا أنا لكم نذيـر مُبـين(٤٩)﴾ أُوضـح لكـم مَـا أنذركم بِهِ، والاقتصار عَلَى الإنذار ـ مَعَ عموم الخطـاب، وذِكـر الفريقـين ــ لأَنَّ مصدر الكلام مَسَاقه للمشركين؛ وإنـَّما ذَكَر المؤمنين وثوابهـم، زيـادة فِي غيظهم. ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لَهُم مغفرةٌ ورزقٌ كريـم(٥٠)﴾ هِيَ الجـنَّة؛ والكريم مِن كل نوعٍ: مَا تُجمع فضائله.

١ - كذا في الأصل، ولعلّه يقصد: في حواسِّهم الظاهريَّة.

﴿وَالذِينَ سَعَوا فِي آياتنا﴾ أي: عملوا فِي إبطال آياتنا وإطفائها بالرد والإبطال، والخوض والفساد؛ ويعمُّ هَذَا جميع العاصين، ﴿مُعَاجِزِين﴾ مسابقين مشاقين للسَّارِعين فِيهَا بالقبول والتحقيق. عَاجَزَهُ، فأعجَزَه، وعَجَزه: إِذَا سَابَقه فسبقه، لأَنَّ كُلاًّ مِنَ المتسابقين يطلب إعجاز الآخر عَن اللحاق بِهِ، ومن ذَلِكَ يكونون حربا لله ولرسوله، ولدينه وللمسلمين؛ وفي موضع: أي ظنُّوا أنَّهم يعجزون فلا يقدر عليهم، ﴿أُولَـئِكَ أصحابُ الجحيم(٥١)﴾ النار الموقدة.

ومن كِتَاب الاستقامة فِي تأويل الآيَة الآتية، فقال: «وَلاَ يجوز التقليد، وَلاَ يَحلُّ فِي الدين إلاَّ لأنبياء الله ورسله ﷺ [كَذَا] فيما [٣٨٠] يَجوز التقليد لَهُم مِنَ المحكم غير المتشابه، والناسخ غير المنسوخ، مِمَّا لاَ يَجري عَلَى وجه الغلط مِنْهُم، وَلاَ مِمَّا يُلقيه الشيطان عَلَى ألسنتهم، فإنَّه قد قَالَ الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أرسلنا مِن قبلك مِن رسول وَلاَ نَبيٍّ، إلاَّ إِذَا تَمنَّى أَلقى الشيطان فِي أُمنِيَته، فينسخُ الله مَا يُلقي الشيطان، ثُمَّ يُحكم الله آياتِه وَالله عليم حكيم(٥٢) ليجعلَ مَا يُلقي الشيطانُ فتنةً للذين فِي قلوبهم مَرَض والقاسيةِ قلوبهم، وإنَّ الظالمين لفي شقاقٍ بعيد(٥٣)...﴾ إِلَى آخر القصَّة[1] فصدَق الله،

١ - لقد عقد الشيخ بيُّوض إبراهيم رحمه الله في تفسير الآيتين ٥٢-٥٣ من السورة، فصلا مطوَّلا قيِّما في الردِّ عَلَى قصَّة الغرانيق، وافتراءات الجاهلين والمغرضين. انظر: بيُّوض إبراهيم بن عمر: في رحاب القرآن، تفسير سورتي الأنبياء والحجِّ، تحرير: عيسى بن محمَّد الشيخ بالحاج، المطبعة العَرَبيَّة، نشر جمعية التراث، القرارة، ١٤١٧هـ /١٩٩٧م. ٥١٣/٤-٥٤١.

ونَحن عَلَى تصديق قول الله مِنَ الشاهدين، ولو كره الْكَافِرُونَ والمنافقون، وتـأوَّل فِي ذَلِكَ المتأولون؛ فنحن نُؤمن بهذا مِن قول الله تبارك وتعالى: إنـَّهُ كذلـك، وإنَّ ذَلِكَ لاَ يَجوز أن يقتدى بِهِ مِنَ الأنبياء والرسل، وإنَّ ذَلِكَ فتنة لِمَـن اقتـدى[1] بـهِ وقبله، وإنَّ الله ناسخٌ لذلك، كما وعد تبارك وتعالى.

﴿وليعلمَ الذِينَ أوتوا العلمَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَبّكَ﴾ أنَّ ذَلِكَ الحقَّ عَلَى مَـا قد ابتلى الله بِهِ خلقه وعباده، ﴿فيؤمنوا بِهِ﴾ بذلك، ﴿فَتُخْبِت لَـهُ قلوبهـم﴾ أي: تَخشـع، (لعلّـه) وتتواضـع، وَلاَ يُنكرونـه، وَلاَ يتأوَّلونـه عَلَـى غـير تـأويل الحق، ﴿وإنَّ الله لَهادي الذِينَ آمنوا إِلَىَ صِرَاط مُـسْتَقِـيم(٥٤)﴾ فِي جميـع مَا اختلف فِيهِ المختلفون، وفِي جميع مَا فُتِنَ بِهِ المفتونون» انتهى كلام الشيخ.

﴿وَلاَ يَـزال الذِيـنَ كَفَـرُوا فِي مِريـة﴾ فِي شـكٍّ ﴿مِنـْهُ، حَتَّـى تـأتيهم الساعةُ﴾ القيامة؛ أو أشراطها؛ أو الموت ﴿بغتةً﴾ فجأة، ﴿أو يـأتيهم عـذابُ يومٍ عقيم(٥٥)﴾ لاَ خيرَ لَهُم فِيهِ. ﴿الـمُلْكُ يومئذ لله يَحكم بَيْنَـهُم﴾. ثُمَّ بيَّـن حكمـه، فقـال: ﴿فـالذِين[2] آمنـوا وعَمِلـوا الصالحـات فِي جَـنَّات النعيـم(٥٦) وَالذِيـنَ كَفَـرُوا وكذَّبـوا بِآيَـاتِنا فـأولئك لَهُـم عــذاب مهِين(٥٧)﴾ فِي الدارين.

﴿وَالذِينَ هـاجروا فِي سبيل الله﴾ أي: فـارقوا أوطـانهم وعشـائرهم فِي طاعة الله وطلب رضاه، ﴿ثـمَّ قُتِلـوا أو مَـاتوا لَيرزقَنـَّهم الله رزقـا حَسَـنا﴾

---

١ - فِي الأصل: «اقتداء»، وهو خطأ.

٢ - فِي الأصل: «الذين» وهو خطأ.

الجنَّة ونعيمها؛ وإنَّما سوَّى بين مَن قُتل فِي الجهاد، ومن ماتَ حتـفَ أنفه فِي الوعـدِ، لاستوائهما فِي القصـد وأصـل العمـل، ﴿وإنَّ ا لله لَهـو خـيرُ الرازقِين(٥٨) لَيُدخلنَّهم مدخلا يَرضَونه﴾ هُوَ الجنَّة فِيهَا مَا يُحِبُّونه، ﴿وإنَّ ا لله لَعليم﴾ بأحوالهم، وأحوال معادهم؛ ﴿حليم(٥٩)﴾ لاَ يُعاجلُ بالعقوبة.

﴿ذَلِكَ ومَن عَاقب بِمثل مَـا عُوقـب بِـهِ ثُـمَّ بُغِـيَ عليـه﴾ بالمعاودة إِلَى العقوبة، ﴿لَيَنصُرنَّـه ا لله، إِنَّ ا للهَ لَعَفُوٌّ غفُور(٦٠) ذَلِكَ بِأَنَّ ا لله يُولِج الليـل فِي النهار، ويولِج النهارَ فِي الليل، وأنَّ ا لله سميع بصير(٦١) ذَلِكَ﴾ الوصف بكمال القدرة والعلم، ﴿بأنَّ ا لله هُوَ الحَقُّ﴾ الثابت فِي نفسه، الواجـب لذاتـه وحده، فإنَّ وجوب وجوده ووحدته، يقتضيان أنَّـه مبتدأ لِكُلِ مَا يوجد سواه، عالِمٌ[1] بذاته، ولِمَا عداه، والثابت الإلهيَّة، وَلاَ يصلـح لها إِلاَّ مَـن كَـانَ قـادرا عالما بذاته. وقد يَجوز أن يعني بقولـه: ﴿بـأنَّ[2] ا لله هُـوَ الحـقُّ﴾ أنَّ ا لله هُـوَ الباقي الـمُحيي الـمُميت، ﴿وأنَّ مَا يَدعون مِن دُونه هُوَ البـاطل﴾ أَرَادَ بِـهِ[3] يَبطل ويَذهب، وَأَنَّهُ لاَ يَملك لأحـد ثوابـا وَلاَ عقابـا، ﴿وأنَّ مَـا يدعـون مـن دونـه هُـوَ الباطــل﴾: المعـدوم فِي حـد ذاتـه، ﴿وأنَّ ا لله هُـوَ العلـيُّ﴾ عَلَـى الأشياء، ﴿الكبـير(٦٢)﴾ عَن أن يكون لَهُ شـريك، [٣٨١] لاَ شـيء أعلـى مِنـْهُ شأنا، وأكبر سلطانا.

---

١ - فِي الأصل: «عالما»، وهو خطأ.

٢ - فِي الأصل: «ان»، وهو خطأ.

٣ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «أراد أنَّهُ».

﴿ألم تَرَ أنَّ ا لله أنـزلَ مِنَ السَّمَـاء مـاءً، فَتُصبـح الأَرْض مُخضـرَّة إنَّ ا للهَ لطيفٌ﴾ يصـلُ علمـه أو لُطفـه إلىَ كـل مَـا جـلَّ ودقَّ، ﴿خبـير(٦٣)﴾ بالتدابـير الظاهرة والباطنة، ﴿لَـهُ مَـا فِي السَّـمَاوَات وَمَـا فِي الأَرْض وإنَّ ا لله لَهـو الغنيُّ﴾ بذاته[1] عَن كل شيء، ﴿الحميد(٦٤)﴾ المستوجب للحمد بصفاته و كبريائه.

﴿ألم تَرَ أنَّ ا لله سـخَّر لكـم مَـا فِي الأَرْض﴾ جعلهـا مذلَّلـة لكـم، معـدَّة لمنافعكم، ﴿والفلكَ تَجري فِي البحر بأمره، ويُمسك السَّمَـاء أن تَقَـع عَلَـى الأَرْض إلاَّ بإذنه﴾ إلاَّ بمشيئته؛ وفيه ردٌّ لاستمساكها بذاتهـا، فإنـَّها مسـاوية لسائر الأجسام فِي الجسميَّة، فتكون قابلة للميل الهابط قبول غيرهـا؛ ﴿إنَّ ا لله بالنـاس لَـرَءوف رحيـم(٦٥)﴾ حيـث هيَّـأ لَهُـم أسـباب الاسـتدلال، وفتـح عَـلَيْـهِـم أبواب المنافع، ودَفَع عَنْـهُم أنواع المضار.

﴿وَهُوَ الذِي أحياكم﴾ أوجدكم مِنَ العـدم لعبادتـه؛ ﴿ثـمَّ يُميتُكـم، ثُـمَّ يُحييكم﴾ للجزاء، ﴿إنَّ الإنسان لَكفور(٦٦)﴾ جحود للنـعم مَعَ ظهورها.

﴿لِكلِّ أُمَّة جعلنا مَنسكا﴾ شريعة يعبدو ن ا لله بها، ﴿هـم ناسِـكوه فـلا يُنازِعُنَّك﴾ سائـرُ أرباب الملل الجاحدة ﴿فِي الأمر﴾ فِي أمر الدين، لأَنـَّهُم بـين جُهَّال وأهل عناد؛ أو لأَنَّ أمر دينك أظهـر مـن أن يقبـل الـنزاع، ﴿وادع إلىَ رَبِّكَ﴾ إلىَ توحيده وعبادته، ﴿إنَّكَ لعلى هُـدًى مُـسْتَقِـيم(٦٧)﴾ طريـق إلىَ الحق سويٍّ.

---

١ - في الأصل: «في ندته»، ولا مَعنَى له.

﴿وإن جـادلوك﴾ بعـد ظهـور الحـق، ولـزوم الحجـّة، وإبـلاغ الدعــوة، ﴿فقل: ا للهُ أعلم بِمَا تَعْمَلُونَ(٦٨)﴾ فيجازيكم عَلَى عملكم، وَهُوَ وعيد فِيهِ رفق، ﴿ا لله يحكم بينكم﴾ يفصل بين المؤمنين والْكَـافِرِينَ بـالثواب والعقـاب ﴿يوم القيامة﴾ كما فَصَلَ فِي الدُّنْـيَا بـالحجج والآيـات ﴿فيما كُنتُـم فِيـهِ تَختلفُونَ(٦٩)﴾ فحينئذ يَتَبيّنُ المحقُّ مِنَ المبطل.

﴿ألم تعلم أنَّ ا لله يعلـم مَـا فِي السَّمَــاء والأَرْض إنَّ ذَلِكَ فِي كِتَـاب﴾ قيل: اللوح المحفوظ، كتب فِيهِ قبل حدوثه، فلا يهمَّـنَّك أمرهم مَـعَ علمنـا بِـهِ وحفظنا لَهُ، ﴿إنَّ ذَلِكَ﴾ الإحاطة[1] بِهِ، وإثباته فِي اللوح المحفـوظ؛ أو الحكـم بينكـم، ﴿عَلَـى ا لله يَسـيرٌ(٧٠)﴾ لأَنَّ علمـــه مقتضــى ذاتــه المتعلّــق بِكُـل العلامات[2] عَلَى سواء. ﴿ويعبـدون مـن دون ا لله مَـا لم يُـنزِّل بِـهِ سـلطانا﴾ حجَّة تدلُّ عَلَى جواز عبادته، ﴿وَمَا ليس لَهُم بِهِ علم﴾ عقلـيٌّ، يعـني: أنـَّهم فعلوا مَا فعلوا عَن جهل لاَ عَن علم، ﴿وَمَا للظالمين﴾ وَمَا للذين ارتكبـوا هَـذَا الظلم ﴿من نصير(٧١)﴾ يُقرر مذهبهم، أو يدفع العذاب عَـنْهُم.

﴿وإذا تُـتلى عَـلَيْهِـم آياتنـا﴾ حـجج الحـق مـن حيـث مَـا كَـانَت، ﴿بَـيِّـنَات﴾ واضحات تعرفونها، وتعرفون المراد بها، ﴿تَعرفُ فِي وجوه الذِينَ كَفَرُوا الـمُنكَرَ﴾ الإنكار، لفرط نكرهم للحق ﴿يكادون يسطون﴾ يبطشون ﴿بالذين يتلون عَـلَيْهِـم آياتنا﴾ يُقيمُون حجج ا لله عليهم؛ ﴿قل: أفأنبِّئكم

---

١ - في الأصل: «لإحاطة»، وهو خطأ.

٢ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «المعلومات».

**بِشرٍّ من ذلكم﴾** من غيظكم عَلَى التالين، وسطوكم عليهم، **﴿النارُ وعَدَها الله الذِينَ كَفَرُوا وبِئسَ المصير(٧٢)﴾**.

**﴿يا أيـُّها الناس ضُرِبَ مَثَلٌ﴾** بُيـن لكم حالٌ مُستغربة، أو قصّة رائقة(١)، ولذلك سمّاها مثلاً، **﴿فاستمِعوا لَهُ﴾** للمثل، أو لشأنه استماع تدبُّر وتفكُّر(٢)، **﴿إنَّ الذِينَ تدعون من دون الله﴾** يعني: الأصنام، [٣٨٢] ومع أهل المعاني: «يتناول كلَّ معصية لله تبارك وتعالى». **﴿لن يَخلقوا ذُبابا﴾** لاَ يقدرون(٣) عَلَى خلقه مَعَ صغره **﴿ولو اجتمعوا لَهُ﴾** مَعَ اجتماعهم، فكيف إذَا تفرَّقوا؟. **﴿وإن يَسلُبْهُمُ الذباب شَيْـئًا لاَ يستنقذوه مِنـْهُ﴾** لاَ يستردُّونه مِنْهُ لعجزهم، فصاروا فِي ذَلِكَ أعجز مِنْهُ. جَهَّلَهم غايةَ التجهيل، بأن أشركوا إلها ـ قَدر عَلَى المقدورات كُلِّها، وتفرَّد بإيجاد الموجودات بأسرها ـ تماثيلَ هِيَ أعجز الأشياء؛ وبيَّن ذَلِكَ بأنـَّها لاَ تقدر عَلَى خلق أقل الأحياء وأذلِّها، ولو اجتمعوا لَهُ، بَل لاَ يقوون عَلَى مقاومة هَذَا الأقل الأذل، ويعجزون عَن دبه فِي نفسها، واستنفاذ مَا تختطفه من عندها، **﴿ضَعُفَ الطالب والمطلوب(٧٣)﴾** عابد الصنم ومعبوده؛ أو مِنَ(٤) السالب والمسلوب.

---

١ - وَفِي التفاسير الأخرى: «رائعة»، وهما بمعنى واحد. انظر: الزمخشري: الكشَّاف، ٣/١٣٤. أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص١٢٠. ابن منظور: لسان العرب، ٢/١٢٥٨-١٢٥٩. مادَّة «روق».

٢ - فِي الأصل: «تكفر»، وهو تحريف.

٣ - فِي الأصل: «يقدروا»، وهو خطأ، إذا لا موجب لحذف النون.

٤ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: - «من».

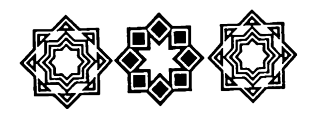
﴿مَا قَدَرُوا ا لله حقَّ قَـدرِه﴾ مَـا عرفـوه حـقَّ معرفتـه، ولا عظَّمـوه حـقَّ تعظيمه، حيث أشركوا بِهِ، وسَمُّوا باسمه مَا هُوَ أبعد الأشياء مناسبة، ﴿إنَّ ا لله لقويٌّ﴾ عَلَى خلق الممكنات بأسرها، ﴿عزيز(٧٤)﴾ لاَ يغلبه شيء؛ وآلهتهـم التِي يدعونها عاجزة عَن أقلّها، مقهورة من أذلـها.

﴿ا لله يصطفي مِـنَ المَلاَئِـكَة رُسُلاً﴾ كمـا يصطفـي مِـنَ البشـر؛ لعلمـه بأحوالٍ لهم دون غيرهم، ﴿ومن الناس﴾ يدعون سـائرهم إلَى الحـق، ويُبلِّغـون إلَيْهِم مَا أُنـزِل عَـلَيْهِـم؛ كأنـَّه لـمَّا قـرَّر وحدانيَّتـه فِي الألوهيَّـة، ونفـى أن يشاركه غـيره فِي صفاتهـا، بيـَّن أنَّ لَـهُ عبـادا مصطفـين فِي الرسـالة، يُرسِلهم ليُقتَدَى بهم فِي عبادة ا لله، وهي أعلى المراتب، ومنتهى الدرجـات لِمَن عـداه مِنَ الموجودات. ﴿إنَّ ا لله سميع بصير(٧٥) يعلم مَا بين أيديهم وَمَا خلفهم﴾ عالم بِمَا كَانَ وَمَا يكون مِمَّـا هـم عملـوا، وَمَـا هـم عـاملون مِمَّـا لم يعملـوا، ﴿وإلى ا لله تُرجَع الأمور(٧٦)﴾، لأَنـَّهُ مُنشِئها وخالقها، فمرجعها إليه.

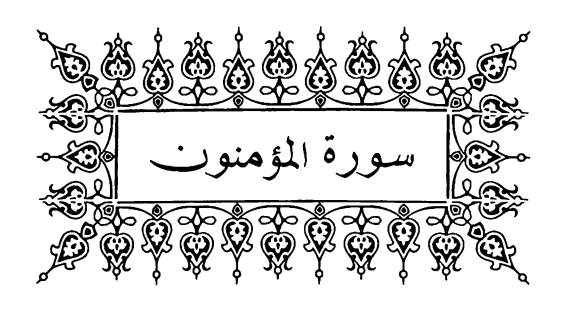
﴿يَـا أَيُّهَا الذِيـنَ آمنـوا اركعـوا واسـجدوا﴾ فِي صلاتكـم، ﴿واعبـدوا رَبَّكُم﴾ بسائر مَا تَعبَّدَكم بِهِ، ﴿وافعلوا الخير﴾ وتقرَّبوا إليه بنوافل الطاعات، ﴿لَعَلَّكُم﴾ لكي ﴿تفلحُونَ(٧٧) وجـاهدوا فِي ا لله﴾ لله ولدينـه أعـداءَ دينـه الظاهرة: كأهل الزيغ، والباطنة: كالهوى والنفس. وعنه عليه السلام أنـَّه رجـع مـن غزوة مِنَ المغازي فقال: «*رجعنا مِنَ الجهاد الأصغر إلَى الجهاد الأكبر*»، فَسئل عَن الجهاد الأكبر فقال: «*جهاد النفس*»[1]، أو نحو هَـذَا مِـنَ الكـلام. ﴿حـقَّ

١ - لم نعثر عَلَيه فِي الربيع ولا فِي الكتب التسعة.

**جِهادِه﴾** أي: جهادا فِيهِ حقًّا خالصا لوجهه، ببذل الوسع، والأنفس، والأموال، والمهج، وأخذ الحذر عَن المخالفة والفتور، وَهُوَ استفراغ الطاقة؛ **﴿هُوَ اجتباكم﴾** اختاركم لدينه ولنصرته، **﴿وَمَا جعل عَلَيْكُم فِي الدين من حَرَجٍ﴾** أي: ضيق، بتكليف مَا لاَ يستطاع. **﴿مِلَّة أبيكم إبراهيم﴾** أي: وَسَّع دينَكم توسُّعَ ملَّة أبيكم؛ وإنَّما جعله أباهم، لأَنَّهُ أبو رسول الله ﷺ، وَهُوَ كالأب لأمَّته، من حيث أنَّه سبب لحياتهم الأبديَّة، ووجودهم عَلَى الوجه المعتد بِهِ فِي الآخِرَة. **﴿هُوَ سمَّاكم المُسْلِمِينَ من قبلُ﴾** من قبل القرآن فِي الكتب المتقدمة، **﴿وفي هَذَا﴾** وفي القرآن، **﴿ليكون الرسول﴾** مُتعلِّقٌ[1] بـ«سمَّاكم»، **﴿شهيدا عليكم﴾** بطاعة من أطاع، وعصيان من عصى، **﴿وتكونوا شهداء عَلَى الناس﴾** من حيث تنزلون [٣٨٣] مِنْهُم كلاًّ منزلته، وتُوفُّونه حقَّه وقسمه، **﴿فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾** عَلَى الوجه المأمور بِهِ، لَمَّا خصَّكم بهذا الفضل والشرف، **﴿واعتصموا بالله﴾** واتَّقوا بِهِ فِي مجامع أموركم، **﴿هُوَ مولاكم﴾** ناصركم ومتولِّي أموركم، **﴿فنعم المولى ونِعمَ النصير(٧٨)﴾** هُوَ، إذ لاَ مثل لَهُ فِي الولاية والنصرة، بَل لاَ مولى وَلاَ نصير سواه فِي الحقيقة.



١ - في الأصل: «متعلقا»، وهو خطأ.



## سورة المؤمنون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قد أفلح المؤمنُونَ(١)﴾[1] تقرِّب الماضي من الحال أنَّ فَلاحَهم[2] قد (لَعَلَّهُ) حصل. ﴿الذِينَ هم فِي صلاتهم خاشعُونَ(٢)﴾ خائفون مِنَ الله وجلون مُتذلِّلون لَهُ، ملزمون أبصارهم مساجدهم. والخشوع: هُوَ الخضوع؛ أو قريب مِنْهُ؛ أو هو[3] الخشوع في الصوت والبصر والسلو[كَذَا] والتذلُّل.

﴿وَالذِينَ هم عَن اللغو﴾ عمَّا لاَ يعنيهم من فعل وقول وحديث نفس، ﴿معرضُونَ(٣)﴾ لِمَا بهم مِنَ الجلد، وَمَا شغلهم عَنْهُ[4]؛ وَهُوَ أبلغ

١ - هنا وضع الناسخ إحالة إِلى الحاشية و لم يكتب فيها شيئًا، والعبارة غير مفهومة، ويبدو أنَّ فيها نقصا.

٢ - هنا إحالة أخرى إِلى الحاشية، و لم يكتب فيها شيئًا.

٣ - في الأصل: «اهوو»، ولا مَعنَى له.

٤ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «لما بهم من الجد ما يشغلهم عنه»، كما في تفسير الزمخشري، حيث قال: «يعني أنَّ بهم من الجد ما يشغلهم عن الهزل». ١٣٨/٣.

مِنَ الذِينَ لا يلهون من وجوه...[1] ﴿وَالذِيـنَ هـم للزكـاة فـاعلُونَ(٤)﴾ وصفهم بذلك بعدما وصفهم بالخشوع فِي الصلاة، ليدلَّ عَلَى أنـّهم بلغوا الغاية فِي القيام عَلَى الطاعات البدنيـّة والماليـّة، والتجنُّب عَـن المحرَّمـات، وسائر مَا توجب المروءة اجتنابَه. ﴿وَالذِيـنَ هـم لفروجهـم حـافظُونَ(٥) إلاَّ عَلَى أزواجهم أو مَا ملكت أيمانهم فَإنـَّهُمْ غير مَلومِين(٦) فمن ابتغى وراءَ ذَلِكَ فأولئك هُمُ العادُونَ(٧)﴾ المعتدون لحدوده.

﴿وَالذِينَ هم لأماناتهم[2] وعهدهم﴾ لـما يُؤْمَنُونَ عليه، ويعـاهدون مـن جهة الحقِّ والخلق، ﴿راعُونَ(٨)﴾ قائمون بحفظها و إصلاحها. ﴿وَالذِينَ هم عَلَى صلواتهم يُحافظُونَ(٩)﴾ يواظبون عليهـا ويؤدُّونهـا فِي أوقاتهـا؛ وليـس ذَلِكَ تكريرا لِمَا وصفهم بِهِ أوَّلاً، فإنَّ الخشوع فِي الصلاة غير المحافظـة عليهـا، وفي تصدير الأوصـاف وختمهـا بـأمر الصـلاة تعظيـمٌ لشـأنها. ﴿أُولَـئِكَ﴾ الجامعون لهذه الصفات، ﴿هـم الوارثُونَ(١٠)﴾ الأحقَّاء أن يُسمُّوا وارثين دون غيرهم فِي القيامة. ﴿الذِيـنَ يَرِثُـون الفـردوسَ﴾ بيـان لِمَـا يرثونـه؛ والفردوس: خير الجنان فِيمَا قيل، ﴿هم فِيهَا خالدُونَ(١١)﴾.

---

١ - يبدو أنَّ فِي العبارة سقطا، وَفِي تفسير أبي السعود: «وهو أبلغ مـن أن يقـال: لا يلهـون من وجوه جعلِ الجملة اسْمِيَّةً، وبناءِ الحكم عَلَى الضمير، والتعبير عنه بالاسم، وتقديـمِ الصلة عَلَيه، وإقامـةِ الإعـراض مقـام الـترك، ليـدلَّ عَلَـى تبـاعدهم عنـه رأسًـا، مباشـرة وتسبُّبا، وميلا وحضورا...». أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص١٢٤.

٢ - فِي الأصل: «لماناتهم»، وهو خطأ.

﴿وَلَقَد خلقنا الإنسانَ مِن سُلالة﴾ من خلاصة سُلّت من بين الكدَر ﴿من طِينٍ(١٢) ثُمَّ جعلناه نطفةً فِي قرارٍ مكِينٍ(١٣)﴾ حريز، مكن[1] لاستقرارها فِيهِ إِلىَ بلوغ أمدها، وَهُوَ الرحم. ﴿ثُمَّ خلقنا النطفةَ علقةً﴾ بأن أحَلنا النطفةَ البيضاءَ علقة حمراء، ﴿فخلقنا العلقة مُضغة، فخلقنا المُضغة عظاما، فكسونا العظام لحما، ثُمَّ أنشأناه خلقا آخر﴾ آخر: قيل: الروح، أو نبات الشعر والأسنان؛ أو تصريف أحواله بعد الولادة مِنَ الدلالة عَلَى ثدي أمِّه إِلىَ كمال عقله، ﴿فتبارك الله﴾ فتعالى شأنه فِي قدرته وحكمته، ﴿أحسنُ الخالقِين(١٤)﴾ المقدِّرين تقديرا. ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بعد ذَلِكَ لَمَيتُونَ(١٥) ثُمَّ إِنَّكُم يوم القيامة تُبعثُونَ(١٦)﴾ للحساب والجزاء.

﴿وَلَقَد خلقنا فوقكم سبعَ طرائق﴾ سبع سماوات، لأَنَّهَا طُورِقَ[2] بعضُها فوق بعضٍ مُطَارقةَ النعل، وكلُّ ما فوقه مثله فهو طريقه، أو لأَنَّهَا طُرق المَلاَئِكَة، أو الكواكب فِيهَا مسيرها. ﴿وَمَا كُنَّا عَن الخَلقِ غافلِين(١٧)﴾ مهملين أمرها، بَل نحفظها عَن الزوال والاختلاف، وندبِّر [٣٨٤] أمرها حتَّى تبلغ منتهى مَا قُدِّر لها من الكمال، حسب مَا اقتضته الحكمة وتعلَّقت بِهِ المشيئة.

﴿وأنزلنا مِنَ السَّمَاء ماءً بِقدَرٍ﴾ بتقدير، يكثر نفعه ويَقلُّ ضرره؛ أو بمقدار مَا عَلِمنا من صلاحهم ﴿فأسكنّاه فِي الأَرْض﴾ فجعلناه ثابتا مستقرا،

---

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «مكين».

٢ - فِي الأصل: «طروق»، ولا مَعنَى له. والصواب ما أثبتناه، وَهُوَ ما ورد فِي الزمخشري: الكشَّاف، ١٤١/٣. أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص١٢٧. وَفِي اللسان: «وكلُّ ما وضع بعضه فوق بعض فقد طورِقَ». ابن منظور: لسان العرب، ٥٨٧/٤. مادَّة: «طرق».

﴿**وَإِنَّا عَلَى ذهابٍ بِهِ لقادرُونَ(١٨)**﴾ كما كُنَّا قادرين عَلَى إنزاله، ﴿**فأنشأنا لكم بِهِ جَنَّات من نَخيل وأعناب، لكم فِيهَا فواكه كثيرةٌ ومنها تأكلُونَ(١٩) وشجرةً تَخرج مِن طور سَيْناءَ، تَنبُت بالدهن، وصِبغٍ للآكلِين(٢٠)**﴾ أي: مِمَّا يُتَأَدَّم بِهِ. ﴿**وإنَّ لكم فِي الأنعام لَعبرةً**﴾ تعتبرون بحالها، ﴿**نسقيكم مِمَّا فِي بطونها، ولكم فِيهَا منافعُ كثيرةٌ ومنها تأكلُونَ(٢١) وعليها وعلى الفلك تُحملُونَ(٢٢)**﴾.

﴿**وَلَقَد أرسلنا نوحا إِلَى قومه، فقال: يا قوم اعبدوا الله مَا لكم من إله غيره أفلا تتَّقون(٢٣)**﴾؟ أفلا تخافون أن يُزيل عنكم نعمه، فيهلككم ويعذِّبكم برفضكم عبادته إِلَى عبادة غيره، وكفرانكم نِعَمه التِي لاَ تحصونها. ﴿**فقال الملأ الذِينَ كَفَرُوا من قومه: مَا هَذَا إِلاَّ بشرٌ مثلكم يريد أن يتفضَّل عليكم**﴾ أن يطلب الفضل عَلَيْكُم ويسودكم، ﴿**ولو شاء الله لأنزل مَلاَئِكَةً**﴾ رسلا، ﴿**مَا سمعنا بهذا فِي آبائنا الأوَّلين(٢٤)**﴾ يعنون نوحا، أي: مَا سمعنا بِهِ أنَّه نبيٌّ، أو مَا كلَّمهم بِهِ، من الحثِّ عَلَى عبادة الله، ونفي مَا تهواه أنفسنا، أو من دعوى النبوَّة؛ وذلك إمَّا من فرط عبادتهم، أو لأَنَّهُم كَانُوا فِي فترة متطاولة. ﴿**إن هُوَ إلاَّ رجل بِهِ جنَّة**﴾ أي: جنون، ولأجله يقول ذَلِكَ، ﴿**فتربَّصوا بِهِ**﴾ فاحتملوه وانتظروا ﴿**حَتَّى حِين(٢٥)**﴾.

﴿**قَالَ**﴾ بعدما أيس من إيمانهم: ﴿**رَب انصرني**﴾ بإهلاكهم؛ أو بإنجاز مَا وعدتهم مِنَ العذاب، ﴿**بِمَا كذَّبونِ(٢٦)**﴾ بسبب تكذيبهم. ﴿**فأوحينا إليه أنِ اصنعِ الفلكَ بأعيننا**﴾ بحفظنا نحفظه أن يُخطئ فِيهِ، ﴿**وَوحيِنَا**﴾

وأمرنا وتعليمنا كيف يصنع. ﴿**فإذا جاء أمرنا**﴾ بنزول العذاب، ﴿**وفار التنُّور، فاسلك فِيهَا من كُلٍّ زوجين اثنين**﴾ لحكمة عَلمها ا لله ومنافع لخلقه، كما لم يخلق ذَلِكَ فِي الابتداء عبثا وَلاَ لعبا، ﴿**وأهلك، إلاَّ مَن سبق عليه القولُ مِنـْهُم**﴾ أي: القول مِنَ ا لله بإهلاكه، ﴿**وَلاَ تُخاطبني فِي الذِينَ ظلموا**﴾ بالدعاء لَهُم بالإنجاء ﴿**إنَّهُمْ مُغرَقُونَ(٢٧)**﴾ بمعاصيهم.

﴿**فإذا استَويْتَ أنت ومن معك عَلَى الفلك، فقل: الحمد لله الذِي نجَّانا مِنَ القوم الظالِمين(٢٨)**﴾ بمعاصيهم أو بطشهم. ﴿**وقل: رَب أنزِلْنِي مُنزَلاً مباركا**﴾ فِي المكَانَ أو الحال ﴿**وأنت خير المنزلِين(٢٩)**﴾، لأَنَّهُ لاَ منزل غيره فِي الحقيقة. ﴿**إنَّ فِي ذَلِكَ**﴾ فيما فعل بنوح وقومه، ﴿**لآيات**﴾ يعتبر بها أولو الاعتبار، ﴿**وإن كُنَّا لَمُبتَلِين(٣٠)**﴾ لمتحنين نوحا وقومَه، ومن بلغه قصصهم.

﴿**ثُمَّ أنشأنا من بعدهم قرنا آخرِين(٣١) فأرسلنا فِيهِم رسولا مِنـْهُم، أن اعبدوا ا لله مَا لكم من إلهٍ غيره أفلا تتـَّقون(٣٢)**﴾ عذابه. ﴿**وقال الملأ من قومه الذِينَ كَفَرُوا وكذَّبوا بلقاء الآخِرَة**﴾ بلقاء مَا فِيهَا مِنَ الثواب والعقاب، أو بمَعَادهم إلىَ الحياة، ﴿**وأترفناهم**﴾ نعَّمناهم ووسَّعنا عَلَيْهِم ﴿**فِي الحياة الدُّنـْيَا**﴾ بكثرة النعم الدُّنـْيَوِيَّة لا الدِّينِيَّة: [٣٨٥] ﴿**مَا هَذَا إلاَّ بشرٌ مثلكم**﴾ فِي الصفة، ولأنـَّهم لم يتوصَّلوا إِلىَ علم حاله، لتعاميهم لأمر قبل العدم[كَذَا]، ﴿**يأكل مِمَّا تأكلون مِنـْهُ ويشرب مِمَّا تَشرَبُونَ(٣٣)**﴾ تقرير للمماثلة الظاهرة، لا السرّ الذِي منحه ا لله إيَّاه كتمانا للشهادة بِمَا قامت لَهُ معهم من أنوار الحقِّ.

﴿**ولئن أطعتم بشرا مثلكم**﴾ فيما يَأْمُرُكم ﴿**إنـَّكُم إذًا لَخَاسِرُونَ(٣٤)**﴾ من حيث مراده أن يصوِّمهم عَن شهوات أنفسهم الباطلة،

ولم يؤمنوا بالإعادة، بدليل قوله: ﴿أَيَعِدُكم أَنَّكُم إِذَا مِتّم وكنتم تُرابا وعظاما أَنَّكُم مُخرجُونَ(٣٥)؟ هيهات هيهات لِمَا توعدُونَ(٣٦)﴾ وهي كلمة «بَعُدَ»، معناه: بعيد مَا يوعد. ﴿إن هِيَ إلاَّ حياتنا الدُّنْيَا نَموت ونَحيا﴾ يَموتُ بعضنا ويُولد بعض، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمبعوثِين(٣٧)﴾ وهذا الحال الذِي صدَّ الناس عَن الطاعة، وَهُوَ قِلَّة إيمانهم بالإعادة، ويشهد عَلَيهم إمَّا لسان مقالهم أو لسان حالهم. وَمَا مُؤْمِن إيمانا حقيقيًّا بالبعث إلاَّ وهِمَّته إلَى التزوُّد لَهُ. ﴿إن هُوَ﴾ ما هو ﴿إلاَّ رجلٌ افترى عَلَى ا لله كَذِبًا﴾ فيما يدَّعيه مِنَ الرسالة ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمؤمنِين(٣٨)﴾ بِمصدِّقين.

﴿قَالَ: رَب انصرني﴾ عَلَيْهِم، وانتقم لي مِنْهُم ﴿بِمَا كذَّبونِ(٣٩)﴾ بسبب تكذيبهم إِيَّايَ. ﴿قَالَ: عَمَّا قليلٍ لَيُصبِحُنَّ نادمِين(٤٠)﴾ عَلَى التكذيب، إِذَا عاينوا عذاب الموت، لأَنَّ الندامة تقع بِكُلِّ كافر فِي ذَلِكَ الحين.

﴿فأخذتهم الصيحة بِالْحَق﴾ بالوجه الثابت الذِي لاَ تبديل عَنْهُ، ﴿فجعلناهم غُثَاءً﴾ شبَّههم فِي دمارهم بغثاء السيل، كقول العرب: «سَالَ بِهِ الوادي» لِمَن هَلَكَ؛ والغثُّ: الفساد فِي اللُّغة؛ ﴿فَبُعدًا للقوم الظالِمين(٤١)﴾ «بُعْدًا»: مصدر بَعُدَ، إِذَا هلك. ﴿ثُمَّ أنشأنا مِن بعدهم قرونا آخرِين(٤٢). مَا تَسبقُ مِن أُمَّة أجَلَها﴾ الوقت الذِي حُدَّ لها، ﴿وَمَا يستأخرُونَ(٤٣)﴾.

﴿ثُمَّ أرسلنا رُسلَنا تَتْرَى﴾ مُتَواترين واحدا بعد وَاحِد؛ مِنَ الوتر: وَهُوَ الفرد؛ وقيل: معناه: مُنقطعة، بين كلِّ رسولين بُرهة مِنَ الزمان، ﴿كلَّ مَا جاء أُمَّةً رسولُها كذَّبوه، فأتبعنا بعضَهم بعضا﴾ فِي الإهلاك، ﴿وجعلناهم

**أحاديثَ﴾** لَم يبق مِنـْهُم إلاَّ نشر حديثهم عظةً للمتّعظين، ولهوا لِمَـن سِـوَاهم، **﴿فَبُعدا لقومٍ لاَ يُؤْمِنُونَ(٤٤)﴾**.

**﴿ثُـمَّ أرسـلنا موسـى وأخـاه هـارون بِـآيَـاتِنا وسُـلطان مُبِـينٍ(٤٥) إِلَى فرعونَ ومَلَئِه فاستكبروا﴾** عَن القبول والإيمان، **﴿وكَانُوا قوما عالِين(٤٦)﴾** مُتكبِّرين. **﴿فَقَالُوا: أَنؤمنُ لبشـرَيْنِ مِثلِنـا﴾**؟ فِي الخِلْقَـة، إذ نظرهـم مقصـور عَلَى الظاهر، **﴿وقومُهُما لَنَـا عـابدُونَ(٤٧)﴾** يعـنِي: بَنِـي إِسْـرَائِيلَ خـادمون مُنقادون كالعبيد؛ وذلك يُنَبِّؤك أنَّ أصل العبادة هِـيَ الطاعـة، إذا أطاعـه فقـد عَبَده؛ ومعلوم أنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَم يعبدوا فرعـونَ وقومـه عبـادةَ تديُّـن، لقولـه تبارك وتعالى يُخبر عَن قولهم لموسى: ﴿قَالُوا: أُوذينا مِن قبلِ أن تأتينا ومن بعدِ مَا جئـتنا﴾[1]، **﴿فكذَّبوهما، فكَانُوا مِنَ المهلَكِين(٤٨) وَلَقَـد آتينـا موسـى الكتاب لَعَلَّهُم﴾** لَعَـلَّ[2] بَنِـي إِسْـرَائِيلَ، وَلاَ يَجـوز عَـوْدُ الضمـير إِلَى فرعـون وملَئـه، لأَنـَّهُ قَـالَ: ﴿آتينـا موسـى الكتـابَ﴾ بعـد قولـه: ﴿فكَـانُوا مِـنَ الـمُهلَكين﴾. **﴿يهتدُونَ(٤٩)﴾** إِلَى المعارف والأحكام.

**﴿وجعلنا ابنَ مَرْيَـم وأمَّـه آيةً، وآويناهما إِلَى رَبوَةٍ ذاتِ قَرَارٍ﴾** مُسـتَقَرٍّ [٣٨٦] مِنَ أَرْض مُنبسطة؛ وقيل: ذات ثمار وزروع، فإنَّ ساكنيهما يَستقرُّون فِيهَا لأجلها. **﴿ومَعِين(٥٠)﴾** وماء مَعين، ظاهر جارٍ عَلَى وجه الأَرْض، مِن مَعنَ الماءُ: إِذَا جَرى؛ أو مِنَ الماعون وَهُوَ المنفعة، لأَنـَّهُ نفَّـاع؛ أو مفعول مِن

١ - سورة الأعراف: ١٢٩.

٢ - فِي الأصل: «نعل»، وهو خطأ.

عانه: إِذَا أدركه بعينه، لأَنَّهُ لظهوره مُدرَك بالعيون. وَصَف ماءها بذلك، لأَنَّهُ الجامع لأسباب التنزُّه، و طِيب المكَانَ.

﴿**يَا أَيُّهَا الرسُلُ كُلوا مِنَ الطَّيبَاتِ**﴾ نداء وخطاب لِكُلِّ الرسل، لاَ عَلَى أنَّهم خُوطبوا بذلك دُفعة وَاحِدَة لتفاوت أزمنتهم، بَل عَلَى معنى أنَّ كُلاًّ مِنْهُم خوطب بِهِ فِي زمانه؛ فيدخل عيسى تحته دخولاً أَوَّليًّا؛ ويكون ابتداء كلام ذكره تنبيها أنَّ تَهيئة أسباب التنعُّم لم تكن لَهُ خاصَّةً؛ وأنَّ إباحة الطِّيِّبَات شَرعٌ قديم؛ واحتجاجا عَلَى الرهبانيَّة فِي رفض الطِّيِّبَات. والطيِّب: مَا يُستلَذ مِنَ المباحات؛ وقيل: الحلال الصافي القوام؛ فالحلال مَا لاَ يُعصى الله[1] فِيهِ، والصافي مَا لاَ يُنسى الله فِيهِ، والقوام: مَا يُمسِك النفس، ويَحفظ العقل. ﴿**واعملوا صالحا**﴾ فإنَّه المقصود منكم، والنافع الثابت لكم عند رَبِّكُم؛ والعمل الصالح: وضع الأمور مَواضعَها، وأن لاَ تَجعلوا لله شريكا فِي العبادة، وَلاَ تستنكفوا عَن عبادته، ﴿**إني بِمَا تَعْمَلُونَ عليم(٥١)**﴾ فأُجازيكم عليه.

﴿**وإنَّ هَذِهِ أمتُكم أُمَّة وَاحِدَة**﴾ مِلَّتُكم أيُّها الرسل، ملَّة وَاحِدَة، فِي العقائد، وأصول الشرائع، ﴿**وأنا رَبُّكُم فاتَّقُونِ(٥٢)**﴾ فِي شقِّ العصا، ومُخالفة الكلمة. ﴿**فتقطَّعوا أمرَهم بَيْنَهُم**﴾ تقطَّعوا أمر دينهم، وجعلوه أديانا مُختلفة، ﴿**زُبُرًا**﴾ قِطَعا، جمع زَبور، الذِي معناه: الفرقة، ﴿**كُلُّ حِزبٍ**﴾ مِنَ المتحزِّبين ﴿**بمَا لديهم**﴾ مِمَّا يَدينون ﴿**فَرِحُونَ(٥٣)**﴾ مُعجَبون،

---

١ - فِي الأصل: «لله»، وهو خطأ.

مسرورون مُعتقدون أنَّهم عَلَى الحقِّ. ﴿**فَذَرهُم فِي غَمرتهم**﴾ فِي جَهالتهم؛ شَبَّهها بالماء الذِي يَغمر القامة، لأَنَّهُم مَغمورون فِيهَا؛ أو لاعبون؛ وقرئ: «فِي غمراتهم». ﴿**حَتَّى حِين(٥٤)**﴾ إِلَى أن يُقتَلوا أو يَموتوا.

﴿**أيَحسبون أنَّمَا نُمِدُّهم بِهِ**﴾ نُعطيهم، ونَجعله مَدًّا لَهُم، ﴿**مِن مال وبَنِين(٥٥)**﴾ بيان لِـ«مَا»، وليس خبرًا لَهُ، فَإِنَّهُ غير مُعاب عليهم؛ وإنَّما المعابُ عَلَيْهِم اعتقادهم أنَّ ذَلِكَ خيرا لَهُم. ﴿**نُسارع لَهُم فِي الخيرات**﴾ المعنى: أنَّ الذي نُمدُّهم بِهِ نسارع بِهِ لَهُم فيما فِيهِ خيرهم وإكرامهم، ﴿**بَل لاَ يَشعرُونَ(٥٦)**﴾ بَل هم كالبهائم، لا فطنة لَهُم وَلاَ شعور، ليتأمَّلوا فيعلموا أنَّ ذَلِكَ الإمداد استدراج لاَ مسارعة فِي الخير؛ فَيُفرَّق الإمداد بافتراق العاصي والمطيع، فيكون للمطيع مسارعة لَهُ فِي الخير، ويكون للعاصي استدراجا لَهُ فِي الشرِّ؛ فيظنُّ العاصي أنَّ إمداده وإمداد المطيع عَلَى وتيرة وَاحِدَة، ويعلم المطيع أنَّ إمداده له بمنزلة الترياق، لأَنَّهُ يقون[1] به عَلَى الخير، وأنَّ إمدادَ ضدِّه فعلى العكس؛ فعلى المرءِ أن يُقبِل عَلَى شأنه، ويتفقَّد أحوال عَمَله، ويُقوِّمها عَلَى الصِّرَاط السويِّ، وإن خالف ذَلِكَ بِحرف وَاحِد، لَحقه وعيدُ الاستدراج والغرور، مِن حيث لاَ يشعر.

﴿**إنَّ الذِينَ هُم مِن خَشيةِ ربهم مُشفقُونَ(٥٧)**﴾ مِن خوف عذابه واستدراجه لَهُم؛ [٣٨٧] فالمؤمن قد جمع إحسانا وخشية، والمنافق قد جمع إساءة وأمنا. ﴿**وَالذِينَ هم بِآيَاتِ ربِّهم**﴾ البالغة لَهُم ﴿**يُؤْمِنُونَ(٥٨)**﴾ يُصدِّقون.

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «يبقى».

﴿وَالذِينَ هم بِرَبـهِم لاَ يُشرِكُونَ(٥٩)﴾ شركا جليًّا وَلاَ خفيًّا. ﴿وَالذِينَ يُؤتون مَا آتَوا﴾ يُعطون مَا أَعطَوه مِنَ الصدقات؛ وقُرِئَ مقصورا[1]، أي: يفعلون مَا فعلوه مِنَ الطاعات، ﴿وقلوبُهم وَجِلَة﴾ خائفة أن لاَ يُقبل مِنْهُم (لَعَلَّهُ) بشؤم ذنوبهم، وأن لاَ تقع عَلَى الوجه اللاَّئق فَتُردّ عَلَيْهِم، ويؤاخَذوا بها؛ أو مِن خوف سوء الخاتمة عند كلِّ خطرة وحركة، ﴿أَنَّهُمْ إِلَى ربهم راجعُونَ(٦٠)﴾ فَيُسألوا عَن جميع مَا أَتَوا. وفِي هَذَا بيان الحكمة من أنَّه لم ينزل الكتاب بذكر مَا يُؤتى ويذر كلّ شيء بعينه مفسَّرا، ليكون المؤمن خائفا راجيا.

﴿أُولَـئِكَ يُسارعون فِي الخيرات﴾ يَرغبون فِي الطاعات أشدَّ الرغبة، فيبادرونها، أو يسارعون فيما آتاهم ا لله من ثواب الدُّنْيَا، المعاونة لَهُم عَلَى صالح الأعمال باستعمالها، كقوله : ﴿فآتاهم ا لله ثوابَ الدُّنْيَا﴾[2] فيكون إثباتا لَهُم مَا نُفي عَن أضدادهم المتقدِّم ذكرهم، ﴿وَهُم لَها سابقُونَ(٦١)﴾ لأجلها، فاعلون المسابقة، فيسبقون الناس إِلَى الطاعة أو الجنَّة؛ أو سابقونها، أي: ينالونها قبل الآخِرَة حيث عُجِّلت لَهُم فِي الدُّنْيَا، كما عُجِّل الشرُّ لأضدادهم؛ فهؤلاء لَهُم خير الدُّنْيَا والآخِرَة، وهؤلاء لَهُم شرُّ الدُّنْيَا والآخِرَة، وليس لَهُم مِنَ الخير مثقال ذَرَّة.

---

١ - أي: «يَأْتُون ما أَتَوا»، كما فِي: الزمخشري: الكشَّاف، ١٥١/٣. أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص١٤٠. وللتفصيل حول هَذِهِ القراءة والروايات الواردة فِي الموضوع انظر: الألوسي: روح المعاني، ٤٤/١٧.

٢ - سورة آل عمران: ١٤٨.

﴿وَلاَ نُكلِّف نفسا إلاَّ وُسعَها﴾ قَدْرَ طاقتها؛ يريد بِهِ التحريض عَلَى مَا وصف بِهِ الصالحين، وتسهيله عَلَى النفوس؛ ﴿ولدينا كِتَابٌ﴾ اللوح المحفوظ؛ أو صحيفة الأعمال؛ أو عِلم ا لله المكنون[1] ﴿يَنطق بالْحق﴾ بالصدق، لاَ يوجد فِيهِ مَا يُخالِف الواقع، ﴿وَهُم لاَ يُظلمُونَ(٦٢)﴾ بزيادة عقاب، أو نقصان ثواب. ﴿بَل قُلوبُهم﴾ قلوبُ الكفرة ﴿فِي غَمرَة﴾ فِي غفلة غامِرة لها، ﴿مِن هَذَا﴾ مِنَ الذِي وصف بِهِ هؤلاء؛ أو مِنَ القرآن، لاَ يدرون تأويله بسبب تعاميهم عَنْهُ، ﴿ولهم أعمالٌ﴾ خبيثة ﴿مِن دُون ذَلِكَ﴾ مُتجاوزة مَا وُصفوا بِهِ، ﴿هم لَها عاملُونَ(٦٣)﴾ مُعتادون فِعلها.

﴿حتَّى إذَا أخذنا مُترفيهم﴾ مُتنعّميهم ﴿بالعذاب﴾ القتل، أو الموت، ﴿إذَا هُم يَجأَرُونَ(٦٤)﴾ فاجؤوا الصراخ بالاستغاثة. ﴿لاَ تَجأَروا اليوم﴾ فإنَّه مُقدَّر بالقول، أي: قيل لَهُم: «لاَ تَجأَروا اليوم». ﴿إنَّكُم مِنَّا لاَ تُنصرُونَ(٦٥)﴾ أي: لاَ تُمنعون مِنَّا؛ أو ليس لكم نصرٌ من عندنا. ﴿قد كَانَت آياتي﴾ حُجَجي ﴿تُتلَى عليكم﴾ تُبَلَّغون إيَّاها، ﴿فكنتم عَلَى أَعقَابكم تَنكصُونَ(٦٦)﴾ تُعرضون مُدبِرين عَن سَماعها وتصديقها والعمل بها؛ والنكوص: الرجوع، ﴿مُستكبرين بِهِ﴾ الضمير للقرآن فيما أرجو، فإنَّه بمعنى: مُكذِّبين بِهِ ﴿سامِرًا﴾ أي: تَسمرون بذكر القرآن، والطعن فِيهِ، ﴿تَهجُرُونَ(٦٧)﴾ مِنَ الهَجْرِ بالفتح؛ أو بمعنى القطيعة؛ أو بترك القرآن لقوله : ﴿يا رَبِّ إنَّ قوميَ اتَّخَذوا هَذَا القرآن مَهجورا﴾[2].

١ - فِي الأصل: «المنكون»، وهو خطأ.

٢ - سورة الفرقان: ٣٠.

﴿أفلم يَدَّبَّروا القولَ﴾؟ أي: القرآن ليعلموا أنَّه الحقُّ من ربِّهم بإعجاز لفظه، ولفظ دلائله، ﴿أم جاءهم مَا لم يأتي آباءَهم الأوَّلِين(٦٨)﴾ يريد أنَّا بعثنا مِن قبلهم (لَعَلَّهُ) رُسلا إِلىَ قومهم، كذلك بعثنا محمَّدًا[١] ﷺ رسولا إِلَيْهِم. ﴿أم لَم يَعرفوا رسولهم﴾ بقيام الدليل لَهُ بالأمانة والصدق وكمال العلم، وحسن الخلق، مِمَّا هُوَ صفة [٣٨٨] للرسل، وذلك عَلَى معنى التوبيح عَنْهُ[٢] عَلَى الإعراض عَنْهُ بعد مَا عَرفوه بالصدق والأمانة، ﴿فَهُم لَهُ مُنكِرُونَ(٦٩)﴾ دعواه، لأحد هَذِهِ الوجوه.

﴿أم يقولون: بِهِ جِنَّة﴾ خفَّة عقل، وصف[٣] رأي، وكَانَ هُوَ أرجحهم عقلا، وأغزرهم علما، وأحدَّهم نظرا، ﴿بَل جاءهم بِالْحَق﴾ أي: بالقول، بالصدق[٤] الذِي لاَ تَخفى صحَّته وحسنه عَلَى عاقل، ﴿و أكثرهم لِلْحَق كارهُونَ(٧٠)﴾ لأَنَّهُ يخالف شهواتهم وأهواءهم، فلذلك أنكروه.

﴿ولو اتَّبع الحَقُّ أهواءهم﴾ بأن كَانَ فِي الواقع آلهة شتَّى عَلَى قدر أهويتهم، حتَّى يكون لِكُلٍّ معبودُه هواه، لتطاردت الإرادات إِلىَ مَا يعقب فساد العالم، كما قَالَ: ﴿لَفَسَدت السَّمَاوَات والأَرْض ومَن فيهنَّ﴾ كما سبق تقريره فِي قوله : ﴿لو كَانَ فيهما آلهةٌ إِلاَّ الله لَفَسدتا﴾[٥]؛ وقيل: لو

١ - فِي الأصل: «محمد»، وهو خطأ.

٢ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: - «عنه».

٣ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «وسفه رأي»، أو نحو ذلك.

٤ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «بالقول الصدق».

٥ - سورة الأنبياء: ٢٢.

اتَّبع الحقُّ أهواءهم وانقلب باطلا، لذهب مَا قام بِهِ العالم؛ أو ولو اتَّبع الحقُّ الذِي جاء بِهِ محمَّدٌ أهواءَهم وانقلب شركًا، لجاء الله بالقيامة وأهلك العالَمَ من غضب الله. ﴿بَل أتيناهم بذكرهم﴾ بالكتاب الذِي هُوَ ذِكرهم، أي: وعظهم؛ وقيل: بمَا فِيهِ فَخرهم وشرفهم، كما قَالَ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لك ولقومِك﴾[1]، ﴿فَهُم عَن ذكرهم مُعرضُونَ(٧١)﴾ لايلتفتون إليه.

﴿أم تسألهم خَرجًا﴾ أجرا عَلَى أداء الرسالة، ﴿فخراجُ رَبكَ﴾ رزقه فِي الدُّنْيَا، وثوابه فِي العقبى ﴿خير﴾ لسعَتِه ودوامه، فإنَّه لايتأتَّى انقطاعه كانقطاع مَا فِي الأيدي، ﴿وَهُوَ خير الرازقِين(٧٢)﴾ تقرير لخيريَّة خراجه. ﴿وإنَّك لَتَدعوهم إِلىَ صِرَاط مُسْتَقِيم(٧٣)﴾ تشهد العقول السليمة عَلَى استقامته لاَ عوج فِيهِ، ليوجب اتِّهامهم لَهُ، لأَنَّهُ لاَ مَجال للتُّهمة. واعلم أنَّه سبحانه ألزمهم الحجَّة وأزاح العلَّة، بِأَنَّ حصر أقسام ما يُؤدِّي إِلىَ الإنكار والاتِّهام، وبيَّن انتفاءها، مَا عدى كراهة الحقِّ، وقِلَّة الفطنة.

﴿وإن الذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة عَن الصرَاط لناكبُونَ(٧٤)﴾ لعادلون عَنْهُ مائلون؛ فإنَّ خوف الآخِرَة أقوى البواعث عَلَى طلب الحقِّ، وسلوك طريقه. ﴿ولو رحمناهم وكشفنا مَا بِهم مِن ضُرٌّ لَلَجُّوا﴾ اللَّجاج: التَّمادي فِي الشيء، ﴿فِي طغيانهم﴾ إفراطهم فِي الكفر، والاستكبار عَن الحقِّ ﴿يعمهُونَ(٧٥)﴾ عَن الهدى.

---

١ - سورة الزخرف: ٤٤.

﴿**وَلَقَد أخذناهم بالعذاب**﴾ سواء وُسِّع لَهُم، أو ضُيِّق عَلَيْهِم، ﴿**فما استكَانُوا لِرَبِهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ(٧٦)**﴾ فهؤلاء أشدُّ مِنَ الذِينَ يدعون الله مخلصين لَهُ الدين فِي حال الشدائد، ويشركون[1] بِهِ إِذَا نجَّاهم، بَل أقاموا عَلَى عُتوِّهم واستكبارهم. و«استكان» استفعل مِنَ الكون، لأَنَّ المفتقر انتقل مِن كون إِلَى كون. ﴿**حتَّى إِذَا فتحنا عَلَيْهِم بابا ذا عذابٍ شديدٍ**﴾ قيل: هُوَ عذاب الموت ﴿**إِذَا هم فِيهِ مبلِسُونَ(٧٧)**﴾ متحيِّرون، آيسون مِن كلِّ خير، مُبشَّرون بِكُلِّ شرٍّ.

﴿**وَهُوَ الذِي أنشأ لكم السمع والأبصارَ**﴾ لتستدلُّوا بهما مَا نصب مِنَ الآيات، ﴿**والأفئدةَ**﴾ لتتفكَّروا وتستدلُّوا بها، إِلَى غير ذَلِكَ مِنَ المنافع الدينيَّة والدنيويَّة، ﴿**قليلا مَا تَشكُرُونَ(٧٨)**﴾ تشكروا بها شكرا قليلا، لأَنَّ العمدة فِي شكرها استعمالها فيما خُلقت لأجله، والإذعان لِمَانِحِها من غَيْرِ إشراك بِهِ شَيْئًا مِن مَخلوقاته.

﴿**وَهُوَ الذِي ذَرَأكم فِي الأَرْض وَإليه تُحشرُونَ(٧٩)** [٣٨٩] **وَهُوَ الذِي يُحيي ويُميت وَلَهُ اختلاف الليلِ والنهارِ**﴾ مُختصٌّ بِهِ تعاقبهما لاَ يقدِر عليه غَيْره، ﴿**أفلا تعقلُونَ(٨٠)**﴾؟ بالنظر والتأمُّل أنَّ الكلَّ[2] مِنَّا، وأنَّ قدرتنا تعمُّ الممكنات كلَّها، وأنَّ البعث من جملتها. ﴿**بَل قَالُوا مثل مَا قَالَ**

١ - فِي الأصل: «ويشركوا»، وهو خطأ.

٢ - فِي الأصل: «ان كل»، وهو خطأ، والصواب ما أثبت من: أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص١٤٧.

**الأَوَّلُونَ(٨١)﴾** آباؤهم ومَن دان بدينهم، **﴿قَالُوا: أئذا مِتنا وَكُنَّا ترابا وعظاما أئنَّا لَمبعوثُونَ(٨٢)﴾**؟ استبعادا؛ و لم يتأمَّلوا أنَّهم كَانُوا قبل ذَلِكَ أَيْضًا تُرابا فَخُلقوا. **﴿لَقَد وُعدنا نَحْنُ وآباؤنا هَذَا مِن قبل﴾** أي: لَقَد وُعدنا وآباؤنا (لَعَلَّهُ) فلم نرَ هَذَا الوعد، **﴿إنْ هَذَا إلاَّ أساطير الأَوَّلِين(٨٣)﴾** إلاَّ أكاذيبهم التِي كَتَبوها، جمع أُسطورة، لأَنَّهَا تُستعمل فيما يُتلهَّى بِهِ، كالأعاجيب والأضاحيك؛ وقيل: جمع أَسطَار، جمع سَطر.

**﴿قل﴾** يا مُحَمَّد: **﴿لِمَن الأَرْضُ ومَن فِيهَا إن كُنتُم تَعْلَمُونَ(٨٤)﴾**؟ إن كُنتُم مِنَ الْعَالِمِينَ بذلك، فيكون استهانة بهم، وتقريرا لفرط جهالتهم، حتَّى جَهلوا مثل هَذَا الجليِّ الواضح، وإلزاما لِمَا لا يمكن ـ لِمَن لَهُ مسكة مِنَ العلم ـ إنكارُه؛ ولذلك أخبر عَن جوابهم قبل أن يُجيبوا، فقال : **﴿سيقولون: للهِ﴾** لأنَّ العقل الصريح قد اضطرَّهم بأدنى نظر إِلَىَ الإِقْرَار بأنَّه خالقها، **﴿قل﴾** أي: بعد مَا قالوه: **﴿أفلا تذَكَّرُونَ(٨٥)﴾**؟ فتعلموا أنَّ مَن فَطر الخلق ابتداء، قَدرَ عَلَى إيجادها ثانيا؛ فإنَّ الابتداء ليس بأهون مِنَ الإعادة.

**﴿قل: مَن ربُّ السَّمَاوَات السبعِ وربُّ العرش العظيم(٨٦)﴾** فإنَّها أعظم من ذَلِكَ. **﴿سيقولون: للهِ﴾** لأَنَّ العقول السليمة تُلجئهم إِلَىَ الإِقْرَار بذلك، **﴿قل: أفلا تتَّقُونَ(٨٧)﴾** عقابه، فلا تُشركوا بِهِ بعض مَخلوقاته، وَلاَ تنكروا قُدرته عَلَى بعض مقدوراته.

**﴿قل: مَن بيده مَلكوتُ كُل شيء﴾** مُلكه؛ وقيل: خزائنه؛ وقيل حقائقه، **﴿وَهُوَ يُجير﴾** يُغيث مَن يَشَاء ويَحرسه، **﴿وَلاَ يُجار عليه﴾** وَلاَ يُغاث، وَلاَ

يُمنع أحد مِنْهُ ﴿إن كُنتُم تَعْلَمُونَ(٨٨) سيقولون: لله، قل: فأنَّى تُسحَرُونَ(٨٩)﴾؟ فمن أين تخدعون، فتصرفون عَن الرُّشد مَعَ ظهور الأمر، وتظاهر الأدلّة. ﴿بَل أتيناهم بِالْحق﴾ مِنَ التوحيد والوعد بالنشور، ﴿وَإنَّهُم لكاذبُونَ(٩٠)﴾ حيث أنكروا ذَلِكَ.

﴿مَا اتَّخَذَ الله مِن ولدٍ﴾ لتقدُّسِه عَن ذَلِكَ، ﴿وَمَا كَانَ مَعَه مِن إله﴾ يُساهمه فِي الألوهيَّة، ﴿إذًا لَذَهب كُلُّ إله بِمَا خَلَق ولَعَلاَ بعضُهم عَلَى بعضٍ﴾ جواب مُحاجَّتهم، وجزاء شرط، حُذف لدلالة مَا قبله عليه، أي: لو كَانَت معه آلهة كما يقولون، لذهبَ [كلُّ] وَاحِدٍ مِنْهُم بِمَا خَلقه واستبدَّ بِهِ، وامتاز مُلكه عَن مُلك الآخرين، ووقع بينهن التحارب والتغالب، كما هُوَ حال ملوك الدُّنْيَا، فلم يكن بيده وحده مَلكوت كُلِّ شيء؛ ﴿سبحانَ الله عَمَّا يصفُونَ(٩١)﴾ مِنَ الولد والشريك، لِمَا سبق مِنَ الدليل عَلَى فَساده. ﴿عالِمِ الغيبِ والشهادةِ﴾ هُوَ دليل آخر عَلَى نفي الشريك، بناء عَلَى توافقهم فِي أنَّه المنفرد بذلك؛ ولهذا رتَّب عليه: ﴿فتعالَى عَمَّا يُشركُونَ(٩٢)﴾ عَن أن يَضرَّه شركهم.

﴿قل: رَب إمَّا تُرِيَنِي﴾ إن كَانَ لاَ بُدَّ (لَعَلَّهُ) مِن أن تُرِيَنِي، لأَنَّ ما والنون للتأكيد، ﴿مَا يُوعدُونَ(٩٣)﴾ مِنَ العذاب فِي الدُّنْيَا والآخِرَة. ﴿رب فلا تَجعلني فِي القوم الظالِمِين(٩٤)﴾ قرينا لَهُم فِي العذاب. ﴿وَإنَّا عَلَى أن نُرِيك مَا نَعِدهم لَقادرُونَ(٩٥)﴾ لكنَّا نؤخِّره لحكمة ومشِيئَة مِنَّا فِيهِم.

[٣٩٠] ﴿ادفع بالتي هِيَ أحسنُ السَّيئَةَ﴾ هُوَ الصفح عنها، والإحسان فِي مقابلتها، لكن بحيث لم يؤدِّ إِلَىَ وَهَن فِي الدين. وقيل هِيَ: كلمة التوحيد.

وَالسَّيِّئَـةَ: الشرك؛ ﴿**نَحْنُ أعلم بِمَا يصفُونَ(٩٦)**﴾ مِنَ الشرك مِمَّا ينطق بـه لسان مقالهم، أو لسان حالهم؛ وأَقْدَرُ عَلَى جزائهم، فكِل إلينا أمرهم.

﴿**وقل: رَب أعوذ بك**﴾ أي: مُستجير، ومُستَليذ، ومعتصم بك ﴿**مِن هَمزات**﴾ نَزَغات ﴿**الشياطِين(٩٧)**﴾ وَسَاوسهم؛ وأصل الهمز: النخس؛ والهمز: شدَّة الدفع؛ والمعنى: دفعهم بالإغواء إِلَى المعاصي. ﴿**وأعوذُ بك رَب أن يَحضرون(٩٨)**﴾ فِي شيء من أحوالي؛ وحضورهم هنا الاستجابة لدعوتهم، وَإِلاَّ فَهُم حاضرون فِي جميع الأحوال، وَلاَ يُطمع في أن يغيبوا عَن أحد من أهل التعبُّد من الثقلين؛ ولو لم يكن هكذا لَزَال التعبُّد، وانحطَّت المجاهدة عَن العبد.

﴿**حتَّى إِذَا جاء أحدَهم الموتُ**﴾ مُتعلّق بـ«يصفون»، ﴿**قَالَ**﴾ تَحسُّرا عَلَى مَا فرَّط، لـمَّا أن حقَّ يقينه: ﴿**رب ارجعون(٩٩)**﴾ رُدُّوني إِلَى الدُّنْـيَا. ﴿**لعلِّي أعملُ صالحا فيما تَركتُ**﴾ فِي الدُّنْيَا مِنَ العمل الواجب عليَّ؛ ﴿**كَلاَّ**﴾ رَدع عَن طلب الرجعة، واستبعاد لَهُم، ﴿**إنـَّهَا كلمةٌ**﴾ يعني قوله: ﴿رَبِّ ارجعون...﴾ إِلَى آخره. ﴿**هُوَ قائلها**﴾ وَلاَ ينالها لاَ مَحالة، لتسلُّط الحسرة عَلَيه عذابا، وَهُوَ أهل لَهُ. روي عَن النَّبِيِّ ﷺ: «*إِذَا عَاين المؤمن المَلاَئِكَة قَالُوا: نُرجعك إِلَى الدُّنْيَا؟ قَالَ: إِلَى دار الهموم والأحزان، بَل قُدوما إِلَى الله، وَأَمَّا الكافر فيقول: رَبِّ ارجعون*»[1]. قَالَ قتادة: «مَا تَمَنَّى أن يَرجع إِلَى أهلٍ وعشيرة، وَلاَ ليجمع الدُّنْيَا، ويقضي الشهوات؛ ولكن تَمَنَّى

١ - لم نعثر عَلَيه في الربيع، ولا في الكتب التسعة، ولا في الجامع الصغير وزياداته.

أن يرجع، فيعمل لطاعة الله؛ فرحم الله امرء عمل فيما يتمنّاه». ﴿ومِن وَرائهم﴾ أمامهم ﴿بَرزَخ﴾ حائل بَيْنَهُم وبين الرجعة ﴿إلَى يوم يُبعثُونَ(١٠٠)﴾ يوم القيامة، وَهُوَ قَطعٌ عَن طمع الرُّجوع إلَى الدُّنْيَا، لَمَّا عَلِم أنَّه لاَ رجعة يوم البعث إلَى الدُّنْيَا.

﴿فإذا نُفخ فِي الصور﴾ لقيام الساعة، ﴿فلا أنسَابَ بَيْنَهُم﴾ ينفعهم لزوال التعاطف والتراحم مِن فرط الحيرة، واستيلاء الدَّهشة، بحيث ﴿يَفرُّ المرء من أخيه، وأُمِّه وأبيه، وصاحبته وبنيه﴾[1]، ﴿يومئذ﴾ كما يفعلون اليوم، ﴿وَلاَ يَتَساءلُونَ(١٠١)﴾ وَلاَ يَسأل بعضهم بعضا سؤالَ نفع، وكَأنَّ الآيَة مَخصوصة فِي الْكَافِرِينَ، أو فِي الجميع، لقوله:

﴿فمن ثَقُلت مَوازينه﴾ موزونات عقائده وأعماله، مَا سلم مِنَ الكبائر، ﴿فأولئك هُمُ المفلحُونَ(١٠٢)﴾ الفائزون بالدرجات. ﴿ومن خفَّت موازينه﴾ و لم يكن لَهُ مَا يكون لَهُ وزن، ﴿فأولئك الذِينَ خَسِروا أنفسهم﴾ غبنوها، حيثُ ضيَّعوا زمان استكمالها، وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها، ﴿فِي جَهنَّم خالدُونَ(١٠٣) تَلفَح[2] وجوهَهم النارُ﴾ تَحرقها، ﴿وَهُم فِيهَا كالِحُونَ(١٠٤)﴾ من شدَّة الاحتراق؛ والكلوح: تقلُّص[3] الشفتين عَن الأسنان فِي عُبوس. ﴿ألم تكن آياتي تُتلى عَلَيْكُم فكنتم بها تُكذِّبُونَ(١٠٥)﴾ تذكير لَهُم بِمَا استحقُّوا هَذَا العذاب لأجله.

---

١ - سورة عبس: ٣٤-٣٦.

٢ - في الأصل: «تفلح»، وهو خطأ.

٣ - في الأصل: «تلقص»، وهو خطأ.

﴿قَالُوا: رَبَّنَا غَلَبَت علينا شِقوَتُنا﴾ مَلَكَتْنا بِحيث صارت مَجامع أحوالنا مؤدِّية إِلىَ سوء العاقبة، ﴿وكنا قوما ضالِّين(١٠٦)﴾ عَن الحق. [٣٩١] ﴿رَبَّنَا أَخرِجْنا منها، فإن عدنا فَإِنـَّا ظَالِمُونَ(١٠٧) قَالَ: اخسَئُوا فِيهَا﴾ اسكتوا سكوتَ هَوان؛ مِن خَسَأْت الكلب: إِذَا زَجَرته فَخسأ، ﴿وَلاَ[1] تُكلِّمون(١٠٨)﴾ فعند ذَلِكَ أَيِس المسرفون مِنَ الفرَج؛ وقيل: هُوَ آخر كلام أهل النار، وَلاَ يتكلَّمون بعدها، إلاَّ الشهيق والزفير، والأنين والصراخ.

﴿إِنـَّهُ كَانَ فريقٌ مِن عبادي يقولون: رَبَّنَا آمنـَّا فاغفر لَنَا وارحمنا وأنت خيرُ الراحمِين(١٠٩)، فاتَّخذتموهم سِخريًّا﴾ هُزؤًا، ﴿حتَّى أَنْسَوكم ذِكري﴾ من فَرط تشاغلكم بالاستهزاء بهم، فلم تَخافوني فِي أوليائي[2]. ﴿وكنتم[3] مِنـْهُم تَضحكُونَ(١١٠)﴾ مبالغة فِي الاستهزاء بهم. ﴿إِني جَزَيتُهم اليومَ بِمَا صبروا﴾ عَلَى استهزائكم ﴿أَنـَّهُمْ هُمُ الفائزُونَ(١١١)﴾ فوزَهم لِمجامع مراداتهم.

﴿قَالَ: كم لبثتم فِي الأَرْض﴾؟ أحياء وأمواتا فِي القبور ﴿عَدَدَ سنِينَ(١١٢)؟ قَالُوا: لبثنا يوما أو بعضَ يوم﴾ استقصارا لِمدَّة لبثهم فِيهَا، بالنسبة إِلىَ خلودهم فِي النار؛ أو لأَنـَّهَا كَانَت أيـَّام سرورهم، وأيـَّام السرور قِصار؛ أو لأَنـَّهَا منقضية، والمنقضي فِي حكم المعدوم؛ ﴿فاسأل العادين(١١٣)﴾ الذِينَ يَتمكَّنون فِي عَدِّ أَيـَّامها (لَعَلَّهُ) وَهُم المَلاَئِكَة، أو المؤمنون.

---

[1] - فِي الأصل: - «لا»، وهو خطأ.

[2] - فِي الأصل: «أولياء»، وهو خطأ.

[3] - فِي الأصل: «فكنتم»، وهو خطأ.

﴿قَالَ إن لبثتم إِلاَّ قليلا﴾ سُمِّي قليلا، لأَنَّ الوَاحِد ولو طال مَكثه فِي الدُّنْيَا فإنه يكون قليلا فِي جَنب الآخِرَة، ﴿لو أنَّكُم كُنتم تَعْلَمُونَ(١١٤)﴾ قَدرَ لبثكم فِي النار، تصديق لَهُم فِي مَقالهم. ﴿أفحسبتم أَنَّمَا خلقناكم عَبَثا﴾؟ توبيخٌ عَلَى تعاقبهم، ﴿وَأَنَّكُم إلينا لاَ تُرجعُونَ(١١٥)﴾ للجزاء.

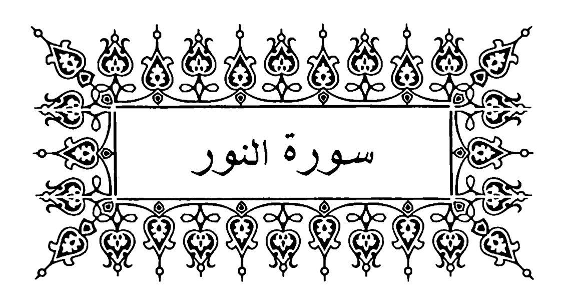
﴿فتعالى ا لله الملك الحَقُّ﴾ الباقي الذِي يَحقُّ لَهُ الملك مُطلقا؛ فإنَّ مَن عداه مَملوك بالذَّات، مالك بالعرض، مِن وجه دون وجه، ومن حال دون حال؛ ﴿لاَ إله إِلاَّ هُوَ﴾ فإنَّ مَن عداه عبيد، ﴿ربُّ العرشِ الكريم(١١٦)﴾ الذِي يُحيط بالأجرام، وينزل مِنْهُ مُحكمات الأقضية والأحكام؛ ولذلك وصفه بالكرم[1]؛ أو لنسبته إِلَى أكرم الأكرمين؛ وقرئ بالرفع، عَلَى أنَّه صفة الربِّ.

﴿ومن يَدعُ مَعَ ا لله إلها آخر﴾ يعبده إفرادا أو شركًا؛ وذلك يتناول جميع العصاة، ﴿لاَ برهان لَهُ بِهِ﴾ تنبيها عَلَى أنَّ التديُّن بِمَا لاَ دليل عليه مَمنوع، فضلا عمَّا دَلَّ الدليل عَلَى خِلافه، ﴿فَإِنَّمَا حِسابه عند رَبِّه﴾ فهو مُجازٍ لَهُ مقدار مَا يستحقُّه ﴿إِنَّهُ لاَ يُفلح الْكَافِرُونَ(١١٧)﴾ أي: حسابهم عدم الفلاح.

بدأ السورة بتقرير فَلاحِ المؤمنين، وخَتَمَها بنفي الفلاح عَن الْكَافِرِينَ؛ ثُمَّ أمر رسوله بأن يَستغفره ويسترحمه، فقال: ﴿وقل: رَب اغفر وارحم وأنت خيرُ الراحمِين(١١٨)﴾.



١ - في الأصل: «بالكرام»، ولا مَعنَى له.



# سورة النور

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿**سورةٌ أنزلناها وفرضناها**﴾ قرئت بالتخفيف، ومعناه: أوحينا مَا فِيهَا مِنَ الأحكام، وألزمناكم العمل بها؛ وقيل: بالتثقيل، ومعناه: فصَّلناها وبيَّناها، ﴿**وأنزلنا فِيهَا آيات بَيِّنَات**﴾ واضحات الدلالة، ﴿**لَعَلَّكُم تذَكَّرُونَ(١)**﴾ فتتَّقون المحارم.

﴿**الزانيةُ والزاني فاجلدوا كُلَّ وَاحِد منهما مائةَ جلدةٍ، وَلاَ تأخذْكم بهما رأفةٌ فِي دينِ الله**﴾ فِي طاعته وإقامة حده، فتعطِّلوه، أو تُسامحوا فِيهِ، ﴿**إن كُنتُم تُؤمنون با لله واليوم الآخر**﴾ فإنَّ الإيمان يقتضي [٣٩٢] الجدَّ فِي طاعة الله، والاجتهادَ فِي إقامة أحكامه، وَهُوَ من باب التهييج. والرأفة والرحمة لاَ تنال العاصين، ألم تر أنَّ الله لم يُجِرْهم مِن عذابه إِذَا[1] لم يقيموا بدينه؟. ﴿**وليشهد عذابَهما طائفةٌ منَ المؤمنِين(٢)**﴾ زيادة فِي التنكيل؛ فإنَّ التفضيح قد ينكِّل أكثر مَا ينكِّل التعذيب؛ والمراد بالطائفة: جمع يَحصل بِهِ التشهير.

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الأصوب: «إذْ».

**﴿الزاني لاَ يَنكح إِلاَّ زانيةً أو مشــركةً، والزانيــةُ لاَ يَنكِحهــا إِلاَّ زانٍ أو مشركٌ، وحُرِّم ذَلِكَ عَلَى المؤمنِين(٣)﴾** قَالَ أبو سعيد فِي تأويل هَــذِهِ الآيَــة: «معي أنَّه فِي التأويل مِمَّا تأوَّل أصحابنا أنَّ المحدود عَلَى الزنا مِن أهل القبلة لاَ ينكح إِلاَّ مَحدودة من أهـل القبلـة عَلَى الزنـا، أو مشـركة مِـن أهـل الكتـاب مَحدودة، أو غير مَحدودة؛ والمحدودة من أهل الكتــاب لاَ ينكحهـا إِلاَّ محـدود من أهل القبلة عَلَى الزنـا، أو مشـرك مـن أهـل دينهـا كَـانَ مَحـدودا أو غـير مَحدود؛ وحُرم مَا سِوى هَذَا عَلَى المؤمنين؛ والمحدودة من أهل القبلة لاَ يَجـوز لها المشرك عَلَى حال من أهل الكتاب، وَلاَ مِن غيرهم».

**﴿وَالذِيـنَ يَرمـون المحصَنـاتِ﴾** بالزنـا **﴿ثُـمَّ لم يـأتوا بأربعـة شـهداء، فـاجلدوهم ثمـانين جلـدةً، وَلاَ تقبلــوا لَهُــم شــهادة أبــدا، وأولئــك هُــمُ الفاسقُونَ(٤)، إِلاَّ الذِيـنَ تـابوا مـن بعـد ذَلِـكَ وأصلحـوا، فـإنَّ ا لله غَفُـور رحيـم(٥)، وَالذِيـنَ يرمـون أزواجهـم ولم يكـن لَهُـم شـهداءُ إِلاَّ أنفسُــهم، فشهادةُ أحدهم أربع شهاداتٍ بـا لله إِنَّـهُ لمن الصـادقِين(٦)، والخامسـة أن لعنة ا لله عليه إن كَانَ مِنَ الكـاذبِين(٧)؛ ويـدرَؤُا عنهـا العـذابَ أنْ تشـهد أربع شهادات با لله إِنَّهُ لمن الكاذبِين(٨)، والخامسة أن غضب ا لله عليها إن كَانَ مِـنَ الصـادقِين(٩)؛ ولـولا فضـل ا لله عَلَيْكُـم ورحمتـه وأنَّ ا لله تـوَّاب حكيم(١٠)﴾** متروك الجواب، أي: لفضحَكم وعاجَلكم بالعقوبة.

**﴿إِنَّ الذِينَ جاءوا بالإفك﴾** بأبلغ[1] مَا يكون مِـنَ الكـذب مِـنَ الأفـك،

---

١ - في الأصل: «بالغ». والصواب مـا أثبتـناه مـن: الزمخشـري: الكشّـاف، ٣/١٧١. أبـو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص١٦٠.

وَهُوَ الصرف[1]، لأَنَّهُ قول مَأفوك عَن وجهه، وَالْمُرَاد مَا أُفك به عَـن عائشـة. ﴿عُصبَة منكم﴾ جماعةٌ منكـم، ﴿لاَ تحسـبوه شـرًّا لكـم﴾ مسـتأنَف، معنـاه: [يا]عائشة ويا صفوان[2]؛ (لَعَلَّهُ) وَقِيلَ: هُوَ خِطـاب لعائشـة؛ ﴿بَـل هُـوَ خـير لكم﴾ لاكتسابكم بِهِ الثواب العظيم من أجل صبركم، ﴿لكلِّ أمرئٍ مِنْهُم مَّا اكتسَبَ مِنَ الإثم﴾ لكلٍّ جزاء مَا اكتسـب بقـدر مَـا خـاض فيـه مختصًّـا بـهِ، يعني: مِـنَ العُصبـة الكاذبـة، ﴿والـذي تـولىَّ كِبره﴾ معظمـه ﴿مِنـْهُم﴾ مِـنَ الخائضين، ﴿لَهُ[3] عذاب عظيم(١١)﴾.

﴿لولا﴾ هـلاَّ ﴿إذ سمعتمـوه ظَـنَّ المؤمنـون والمؤمنـاتُ بأنفسـهم خـيرا، وَقَالُوا: هَذَا إفك مُبين(١٢)﴾ قَالَ محبوب: «بلغنا أنَّها نزلت في أبي أيـُّـوب الأنصاري، إذ قالت لَهُ أمرأته: ألا تسمع [يا]أبا أيـُّـوب مَـا يقـول النـاس[4] في عائشة، فقال لها أبو أيُّوب: كنتِ فاعلة ذَلِكَ يـا أمَّ أبـي أيـُّـوب، فقـالت: لاَ وا لله، فقال لها: فعائشة خير منك؛ فأنزل ا لله فِيهِ الآيَـة».

﴿لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء، فإذْ[5] لم يأتوا بالشهداء، فأولئك عند ا لله هُمُ الكاذبُونَ(١٣)﴾ فإن قيل كيف يصيرون عند ا لله كاذبين إِذ لم يـأتوا

---

١ - «وأَفَكَ عنه يأفِكُه أَفْكًا: صَرَفه وقلبه، أو قلب رأيَـه». الفيروزآبادي: القـاموس المحيـط، ص ٨٣٨، مادَّة: «أفك».

٢ - وَهُوَ الصحابيُّ: صفـوان بـن المعطَّـل السـلميُّ. انظـر: الزمخشـري: المصـدر نفسـه. أبـو السعود: المصدر نفسه.

٣ - في الأصل: «لهم»، وهو خطأ.

٤ - في الأصل: «للناس»، وهو خطأ.

٥ - في الأصل: «فإذا»، وهو خطأ.

بالشهداء، ومن كذب فهو عند الله كاذب، سواء أتى بالشهداء أو لم يأت؟ قيل: «عند الله» أي: فِي حكم الله.

[٣٩٣] ﴿ولولا فضلُ الله عَلَيْكُم ورحمته فِي الدُّنْيَا والآخِرَة﴾ المَعْنَى: لولا فضل الله عَلَيْكُم فِي الدُّنْيَا بأنواع النعم التِي من جُملَتها الإمهال للتَّوبة، ورحمته فِي الآخِرَة بقبولها، ﴿لمسَّكم فِي مَا أفضتم فِيهِ﴾ خُضتُم فِيهِ ﴿عذاب عظيم(١٤)، إذ تلقَّونه بألسنتكم﴾ يأخذه بعضكم من بعض ﴿وتقولون بأفواهكم مَا ليس لكم بِهِ علم وتحسبونه هيِّنا﴾ سهلا لاَ عقوبة لَهُ، وَلاَ سؤال عَنْهُ، ﴿وَهُوَ عند الله عظيم(١٥)﴾ فِي الوزر واستجلاب العذاب، وتفويت الرحمة، وهكذا جميع معاصي الله، ولو حسبها فاعلُها لظنهِ أنَّهَا هينة فلا عُذر لَهُ، وَلاَ يسعه جهله مَعَ قيام الحجَّة.

﴿ولولا إذ سمعتموه، قلتم: مَا يكون لَنَا أن نتكلَّم بهذا﴾ مَا ينبغي وَمَا يصحُّ لَنَا، ﴿سبحانك هَذَا﴾ تعجُّب لِمَن يقول ذَلِكَ، وأصله أن يُذكَر عند كل مُتعجَّب[1] تنزيها لله تعالى مِن أن يصعب عليه مثله، ثُمَّ كثُر فاستعمل لِكُل مُتعجَّب؛ ﴿بهتانٌ عظيم(١٦)﴾.

﴿يعظكم الله أن تَعودوا لمثله أبدًا﴾ مَا دمتم أحياء مكلَّفين، وذلك يتناول تحقيق كُل ظنٍّ قَولا واعتقادا، ﴿إن كُنتُم مؤمِنِين(١٧)﴾ فإنَّ الإيمان

١ - فِي العبارة نقص، وتمامها عند أبي السعود: «وأصله أن يذكر عند معاينة العجيب من صنائعه تعالى تنزيها له عن أن يصعب عَلَيه أمثاله، ثُمَّ كثر حَتَّى استعمل فِي كُلِّ متعجَّب منه». أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص١٦٣. وانظر نحو تلك العبارة: الزمخشري: الكشَّاف، ١٧٣/٣.

يمنع عَنْـهُ. ﴿ويُبيِّن ا لله لكم الآيات﴾ الدالَّة عَلَى الشرائع، ومحاسـن الآداب، كي تـتَّعظوا، ﴿وا لله عليم حكيم(١٨)﴾.

﴿إنَّ الذِينَ يُحبُّون أن تشيع﴾ أن تنتشر ﴿الفاحشة فِي الذِينَ آمنوا، لَهُم عذاب أليم فِي الدُّنْـيَا والآخِرَة، وَا للهُ يعلم وأنتـم لاَ تَعْلَمُونَ(١٩)، ولـولا فضل ا لله عَلَيْكُم ورحمته[1] وأنَّ ا لله رءوف رحيم(٢٠)﴾ لعلَّه جواب "لـو" محذوف، أي: لعاجلكم بالعقوبة. ﴿يَـا أَيُّهَا الذِينَ آمنوا لاَ تتـَّبعوا خطـوات الشـيطان﴾ أي: وساوسه، ﴿ومـن يتَّبـع خطـوات الشـيطان فَإنَّـهُ يَـأْمُـرُ بالفحشاء والمنكر﴾ فإنَّه يَـأْمُرُ بضد مَا أمر ا لله بِهِ، وينهى عَن جميـع مَـا أمـر ا لله بِهِ، ﴿ولولا فضل ا لله عَلَيْكُم ورحمته﴾ بتوفيـق التوبـة، ﴿مَـا زكـى﴾ مَـا طهر من دنسها ﴿منكم مِن أحد أبدا﴾ من أوَّلكم إِلىَ آخركم، ﴿ولكـنَّ ا لله يُزكِّي مَن يَشَـاء﴾ يحمله عَلَى التوبة، ﴿وا لله سميع عليم(٢١)﴾.

﴿وَلاَ يأتل﴾ وَلاَ يحلف، افتعال مِنَ الألية. قيل: نزل فِي أبي بكر، وقد حلـف أن لاَ يُنفق عَلَى مسطح بعدُ، وكَانَ ابن خالته، وكَانَ مِنَ الفقراء، ﴿أولو الفضـل منكـم﴾ فِي الديـن، ﴿والسـعة﴾ فِي المـال، ﴿أن يُؤتـوا أولي القربـى والمسـاكين والمهاجرين فِي سبيل ا لله، وليعفوا﴾ مَا فرط مِنْهُم، ﴿وليصفحـوا﴾ بالإغمـاض عَنْـهُ، ﴿ألاَ تُحبُّون أن يَغْفِر ا لله لكم﴾ عَلَى عفوكم وصفحكـم وإحسـانكم إِلىَ من أساء إليكم، ﴿وا لله غَفُور رحيم(٢٢)﴾ مَعَ كمال قدرته، فتخلَّقوا بأخلاقه. روي أنَّـه عليه السلام قرأها على أبي بكر، فقال: بلى أحبُّ، ورجع إِلىَ مسطح نفقته.

---

١ - في الأصل: - «ورحمته»، وهو سهو.

﴿إنَّ الذِينَ يرمون المحصنات﴾ العفـائف ﴿الغـافلات﴾ عمـَّا قُذفـن بـِهِ، الغافلات عَن الفاحشة أن لاَ تقع فِي قلوبهنَّ فضلا عَن مُواقعتها، ﴿المؤمنات﴾ با لله ورسوله، استباحة لعِرضهن، ﴿لُعنـوا﴾ أُبْعِدوا مِنَ الرحمـة ﴿فِي الدُّنـْـيَا والآخِرَة﴾ كما طعنوا فِيهِنَّ، ﴿ولهم عذابٌ عظيمٌ(٢٣)﴾ فِي الدَّارين. ﴿يـوم تشهد عَلَيْهِم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهـم بِمَـا كَـانُوا يَعْمَلُـونَ(٢٤) يومئـذ يُوفِّيهم ا لله دينَهم الحَقَّ﴾ جزاءهم المستحقَّ، ﴿ويعلمـون﴾ لمعـاينتهم الأمـر ﴿أنَّ ا لله [٣٩٤] هُوَ الحقُّ الْمُبِـين(٢٥)﴾ الثـابت بذاتـه، الظـاهر الألوهيـة، لايشاركه فِي ذَلِكَ غيره، وَلاَ يقدِر عَلَى الجزاء سواه.

﴿الخبيثـات للخبيثـين، والخبيثـون للخبيثـات، والطيِّبـات للطيِّـبين، والطيِّـبون للطيِّـبات﴾ فقـد قيـل الطـيب مِنَ القـول للطيـب مِنَ العبـاد، والخبيث مِنَ القول للخبيث مِنَ العباد، ويخرج فِي النيات والأعمال، كما يخرج فِي الأقوال؛ ويخرج فِي الجنان والنيران لأهلهما؛ ويخرج فِي الأرواح، ولعلَّـه قـد قيل ذَلِكَ بدليل قولـه: ﴿أُولَـئِكَ مُـبرَّءون مِمَّـا يَقولـون، لَهُـم مَغفـرة ورزق كريم(٢٦)﴾ فِي الدَّارين.

﴿يَـا أَيُّهَا الذِينَ آمنوا لاَ تدخلوا بيوتا غـير بيوتكـم حَتَّـى تستأنسـوا﴾ تسـتأذنوا، مِنَ الاسـتئناس بمَعْنَـى: الاستعلام، مـن أنـس الشـيء إِذَا أبصـره ﴿وتُسلِّموا عَلَى أهلها، ذلكم خيرٌ لكم لَعَلَّكُم تذكَّرُونَ(٢٧)، فإن لم تجـدوا فِيهَا أحدا، فلا تدخلوها حَتَّى يُؤذن لكم، وإن قيـل لكـم ارجعـوا فـارجعوا هُوَ أزكى لكم﴾ أي: أطهر، ﴿وا لله بِمَا تَعْمَلُونَ عليـم(٢٨)؛ ليـس عَلَيْكُـم

**جُناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة﴾** قيل: هِيَ الخانات عَلَـى طُرق النـاس، **﴿فِيهَا متاع لكم﴾** لعلّه مِنَ الحر والبرد، أو منفعة مـن قضـاء حاجـة، **﴿وا لله يعلم مَا تُبدون وَمَا تكتمُونَ(٢٩)﴾**.

**﴿قل للمؤمنين: يغضُّوا من أبصـارهم ويحفظـوا فروجهـم، ذَلِكَ أزكـى لَهُـم، إِنَّ ا للهّ خبـير بِمَـا يصنعُـونَ(٣٠)﴾** لاَ يخفـى عليـه إجالـة أبصـــارهم، واستعمال سائر حواسهم، وتحريك جوارحهم، وَمَا يقصدون بها فيكون عَلَـى حذر مِنْهُ فِي كُل حركة وسكون.

**﴿وقـل للمؤمنـات: يغضضـن مـن أبصـارهنَّ، ويحفظـن فروجهـنَّ، وَلاَ يُبدِين زينتهنَّ﴾** قَالَ أبو الحسن العمانيُّ: «فمن أبدى مِـنَ النسـاء زينتهـا فقـد كفرت وارتكبت كبيرة، ويُبرَأ مِنها، من حينها، وهذا إِنَّمَا تَكفـر إِذَا أصرَّت عَلَى ذَلِكَ و لم تـتُب من حينهـا». انتهـى كلامـه. **﴿إلاَّ مَـا ظهـر منهـا﴾** هُـوَ الوجه والكفَّان، **﴿وليضربن بخمرهنَّ عَلَى جيوبهنَّ﴾** سـترا لأعنـاقهن؛ وقيـل لصدورهن وقروطهن، **﴿وَلاَ يُبدِين زينتهنَّ﴾** الخفيـَّة التِـي أُمـرت بتغطيتهـا، وهي مَا عدى الوجه والكفَّين، **﴿إلاَّ لبعولتهنَّ أو آبائهنَّ أو آباء بعولتهـنَّ أو أبنائهنَّ أو أبناء بُعولتهنَّ أو إخوانهـنَّ أو بـني إخوانهـنَّ أو بـني أخواتهـنَّ أو نسائهنَّ أو مَا ملكت أيمانهنَّ أو التابعين غير أولي الإربة مِنَ الرجـال﴾** قيـل: البُلّه الذِينَ يتّبعون الناس لفضلِ طعامهم، وَلاَ يعرفون شَيْـئًا من أمـور النسـاء، **﴿أو الطفل الذِينَ لم يظهروا عَلَى عورات النساء﴾** لعدم تمييزهم، مِنَ الظُّهور بمعنى الإطّلاع، أو لعدم بلوغهم حدَّ الشهوة مِنَ الظهور بمعنـى الغلبـة؛ وقيـل:

أَرَادَ: لم ينكشفوا عَن عورات النساء للجماع فيطّلعوا عليها؛ وقيل: لم يعرفوا العورة من غيرها مِنَ الصغَر؛ وقيل: لم يبلغوا حدَّ (لَعَلَّهُ) الشهوة؛ **﴿وَلاَ يضربن بأرجلهنَّ ليُعلم مَا يُخفين مِن زينتهنَّ﴾** ليتقعقع خلخالها، فيعلم أنَّهَا ذات خلخال، فإنَّ ذَلِكَ يُورث ميلاً فِي الرجال، **﴿وتوبوا إِلَى ا لله جميعا﴾** مِنَ التقصير فِي أمره ونهيه، **﴿أيُّها المؤمنون، لَعَلَّكُم تفلحُونَ(٣١)﴾**.

**﴿وأنكحوا الأيامَى منكم﴾** زوجُوا التِي لاَ أزواج لهنَّ مِنَ النساء إن طَلَبن، أو استأمروهن إن طُلِبن، **﴿والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾** تخصيص الصالحين، قيل: المُرَاد الصالحون للنكاح والقيام بحقوقه، **﴿إن يَكونوا فقراء يُغنهم ا لله مِن فضله﴾** المعنى [٣٩٥] لم يمنعن فقرا الخاطب أو المخطوبة مِنَ المناكحة[١]، فإنَّ فِي فضل ا لله غُنية عَن المال، فإنَّه غادٍ ورائح. (وقيل: الغنى هُوَ القناعة)[٢]، **﴿وا لله واسع﴾** ذو سَعة لاَ تنفد نعمته، إذ لاَ تتناهى قدرته، **﴿عليم(٣٢)﴾** يبسط الرزق ويقدِر عَلَى مَا تقتضيه حكمته.

**﴿وليستعفف﴾** وليجتهد فِي العفّة وقمع الشهوة، مِنَ الاستفعال لطلب العفّة عَن الحرام والزنا، **﴿الذِينَ لاَ يجدون نكاحا﴾** أسبابه، ويجوز أن يراد بالنكاح مَا يُنكح، أو بالوجدان التَّمكُّن مِنْهُ، **﴿حتَّى يُغنِيَهم ا لله من فضله﴾** فيجدوا مَا يتزوَّجونه، أو يتزوَّجون بِهِ.

---

١ - كذا في الأصل، والصواب ما ذكره أبو السعود: «لا يَمنعنَّ فقرُ الخاطبَ أو المخطوبةَ مِنَ المناكحة». أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص١٧١.

٢ - ما بين قوسين كتب في الحاشية ولا يُدرى محلُّه من النصِّ وأثبتناه في سياقه باجتهادنا، ويبدو أنَّه من إضافة الناسخ.

﴿وَالذِينَ يبتغون الكتاب﴾ المكاتبة ﴿مِمَّا مَلكت أيمانكم، فكَ... علمتم فِيهِم خيرا﴾ أمانة وقدرة عَلَى أداء المال بالاحتراز. وقد رُوي مثله مرفوعا؛ وقيل صلاحا فِي الدين، ﴿وآتوهم من مال ا لله الذِي آتاكم﴾ لأَنَّ المال وجميعَ الخلق من [ا للهِ] إِنَّمَا يؤتي مِنْهُ من يشاء مِنْهُم. ﴿وَلاَ تُكرهوا فتياتكم﴾ إماءكم ﴿عَلَى البغاء﴾ عَلَى الزنا. قيل: كَانَت لعبد ا لله بن أُبَيّ ستُّ جوار يُكْرَهْنَ عَلَى الزنا، وضرب عليهنَّ الضرائب، فشكا بعضهنَّ إلِىَ رسول ا لله ﷺ، فنزلت. ﴿إن أردن تحصُّنا﴾ تعففا ﴿لتبتغوا عَرَض الحياة الدُّنْيَا ومن يُكرههُّنَّ﴾ عَلَى الزنا ﴿فإنَّ ا لله مِن بعدِ إكراهِهِنَّ غَفُور رحيم(٣٣)﴾.

﴿وَلَقَد أنزلنا إليكم آيات مُبيِّنات﴾ مِنَ الحلال والحرام، يَعني الآيات التِي بُينت فِي هَذِهِ السورة، وأوضحت فِيهَا الأحكام والحدود، أو مَا تقدَّم مِنَ التنزيل. وقُرئ هنا وفِي الطَّلاق بالكسر، لأَنَّهَا واضحات تُصدقها الكتب المتقدمة والعقول السليمة المستقيمة؛ أو لأَنَّهَا بَيَّنت الأحكام والحدود، ﴿ومَثَلاً مِنَ الذِينَ خَلَوْا من قبلكم﴾ أي: ومثلا من أمثال مَن قبلكم ﴿وموعظة للمتَّقِين(٣٤)﴾ يعني: مَا وُعظ بِهِ فِي تلك الآيات، وتخصيص المتَّقين لأَنَّهُم المنتفعون بها.

﴿ا لله نور السَّمَاوَات والأَرْض﴾ (ومن كتب أصحابنا: «وعن قول ا لله: ﴿ا لله نور السَّمَاوَات والأَرْض﴾ المعنى: لَعَلَّهُ أَنَّهُ الهادي لِمَن فِي السموات والأرض)[1]. النور فِي الأصل: كَيفِية تدركها الباصرة أَوَّلاً، وبواسطتها سائر

---

١ - ما بين قوسين كتب فِي الحاشية و لم يُحِل إِلَيهِ فِي النص، وأثبتناه فِي سياقه باجتهادنا، ويبدو أَنَّه من إضافة الناسخ.

المبصرات، كالكيفية مِنَ النيرين عَلَى الأجـرام الكثيفـة المحاذيـة لهمـا، وَهُـوَ بهـذا المعنـى لايصحُّ إطلاقه عَلَى ا للهِ تعـالى إلاَّ بتقدير مضـاف، كقولـك: زيـدٌ كَـرَمٌ، بمَعنَـى: ذو كرم. أو عَلَى تَجوُّز، إمَّا بمعنى: مُنَـور السَّمَاوَات والأَرْض، وقـد قـرئ بـه؛ وأنَّ ا للهَ تعالى نوَّرها بـالكواكب، وَمَـا يفيض عليهـا مِنَ الأنـوار، أو بالمَلاَئِـكَة والأنبيـاء. أو مدبرُها ــ من قولهم للرئيس الفائق فِي التدبير: نور القوم، لأَنَّهُم يهتدون بِهِ فِي الأمور ــ وموجدُها، فإنَّ النور ظاهر بذاته مُظهر لغـيره؛ وأصـل الظهـور هُـوَ الوجـود، كمـا أنَّ أصل الخفاء هُوَ العـدم، وَا للهُ سبحانه موجـود بذاتـه موجـد لِـمَا عـداه. أو للـذي بِـهِ يُدرَك. أو يُدرك أهلها، من حيث أنَّه يُطلق عَلَى الباصرة لتعلُّقها بِـهِ، أو لمشـاركتها لَـهُ فِي توقُّف الإدراك عليه، ثُمَّ عَلَى البصيرة، لأَنَّـهَا أقـوى إدراكـا، فإنَّـها تُـدرك نفسـها وغيرهـا مـن الكلِّيَّـات والجزئيَّـات للموجـودات والمعدومـات، وتغـوص فِي بواطنهـا وتنصرف فِيهَا بالتراكيب والتحليل، ثُمَّ إنَّ هَـذِهِ الإدراكـات ليسـت لذاتهـا، وَإِلاَّ لَمَـا فارقتها، فهي إذن مِن سببٍ يُفيضها عليها، وَهُوَ ا للهُ سبحانه وتعالى ابتداء أو بتوسُّـطٍ مِنَ المَلاَئِكَة والأنبياء، ولذلك سمُّو أنوارًا. ويقرب مِنْهُ قول ابن عبَّاس: «معناه هــادي من فِيهِمَا». فَهُم بنوره يهتدون، وإضافته إِلَيْهِما للدلالة عَلَى سعة إشـراقه. [٣٩٦] أو لاشتمالهما عَلَى الأنوار الحسية والعقليَّة، قصـور الإدراكـات البشريَّـة عَلَيهمـا وَعَلَـى المتعلّق بهما، والمدلول لهما[1].

﴿مَثَل نُوره﴾ صفة نوره العجيبة الشـأن؛ وإضافتـه إِلَىَ ضمـيره سـبحانه، دليل عَلَى أنَّ إطلاقه عليه لم يكن عَلَى ظاهره، ﴿كَمِشكَاة﴾ كصفة مِشــكاة:

١ - كذا في الأصل، ويبدو أنَّ في العبارة سقطا.

وهي الكوَّة الغير النافذة، ﴿**فِيهَا مِصباح**﴾ سِراج ضَخم ثاقب؛ وقيل المشكاة: الأنبوب فِي وسط القنديل؛ والمصباح: الفتيلة المشتعلة، ﴿**المصباحُ فِي زُجاجة**﴾ فِي قنديل مِنَ الزجاج، ﴿**الزجاجة كأنَّها كوكبٌ دُرِّيٌّ**﴾ مُضيء مُتلألئ كالزهرة فِي صفائه وزهرتِه، منسوبٌ إِلىَ الدُّر، ﴿**يُوقَد مِن شجرةٍ مباركة زيتونةٍ**﴾ أي: ابتداء ثقوب المصباح مِن شجرة الزيتون المتكاثر نفعه، بِأن رُويت ذبالتها بزيتها؛ وفي إبهام الشجرة ووصفها بالبركة، ثُمَّ إبدال الزيتونة عنها تفخيم لشأنها؛ ﴿**لاَ شَرقيَّة وَلاَ غربيَّة**﴾ تقع عليها الشمس حينا بعد حين، بَل بِحيث تقع عليها طوال النهار، كالتِي تكون عَلَى قُلَّة[1]، أو صحراء واسعة، فإنَّ ثمرتها تكون أنضج، وزيتها أصفى؛ أو لأنَّهَا نابتة فِي شرق المعمورة وغربها[2]، بَل فِي وسطها، وَهُوَ الشام، فإنَّ زيتونه أجود الزيتون؛ أو لأنَّهَا [لاَ] فِي مَضحى تُشرق الشمس عليها دائما فتحرقها، وَلاَ مَقنَأةٍ تغيب عنها دائما فتتركها نيًّا[3]. وفي الحديث: «*لاَ خير فِي شجرة وَلاَ فِي نبات في مقنأة، وَلاَ خير فيهما فِي مضحى*»[4].

---

١ - «وقُلَّة كُل شَيْء: رأسه. والقُلَّة: أعلى الجبل... وخصَّ بعضهم به أعلى الرأس والسنام والجبل». ابن منظور: لسان العرب، ٥/١٥٤، مادَّة: «قلل».

٢ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «أو لأنَّهَا لاَ نابتة فِي شرق المعمورة ولا في غربها». كما ذكر أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص١٧٦.

٣ - أي غير ناضجة. انظر الكلمة وتصاريفها ومعانيها في: ابن منظور: لسان العرب، ٦/٧٥٢، مادَّة: «نيأ».

٤ - لم نعثر عَلَيه فِي الربيع ولا في الكتب التسعة. وقد أورده الزمخشريُّ في الكشَّاف، ٣/١٩٠، وقال مصححه: «لم أجده». وأورده أبو السعود فِي تفسيره، مج٣/ ج٦/ ص١٧٦. و لم يعزه إِلى أحد.

﴿يكادُ زيتها يُضيء ولو لم تَمسَسْه نارٌ﴾ أي: يكاد يُضيء بنفسه من غير نار، لتلألـئِه، وفرط بيضه[1]، ﴿نورٌ عَلَى نور﴾ نور مُتضاعف، فإنَّ نور المصباح زادَ فِي إنارته صفاء الزَّيت، وزهرة القنديل، وضبط المشكاة لأشعَّته.

وقد ذُكر فِي مَعنَى التمثيل وجوه:

- الأوَّل: أنَّه تمثيل للهدى الذِي دلَّ عليه الآيَات البَينَات، فِي جلاء مدلولها، وظهور ما تضمَّنته مِنَ الهدى بالمشكاة المنعوتة؛ أو تشبيه للهدى مِن حيث [أنَّه] مَحفوف بظلمات أوهام الناس وخيالاتهم، وإنَّما ولى بالمصباح الكاف المشكاة [كَذَا] لاشتمالها عليه؛ وتشبيهُه بِهِ أوفق من تشبيهه بالشمس.

- أو تَمثيل لِمَا نوَّر الله بِهِ قلب المؤمن مِنَ المعارف والعلوم، بنور المشكاة، والمثبت فِيهَا من مصباحها؛ ويؤيده قراءة أُبيٍّ: «مَثَل نور المؤمن».

- أو تمثيل لِمَا مَنح الله بِهِ عباده مِنَ القوى الدرَّاكة الخمس المُتَرَتبَة، التِي ينوط بها المعاش والمعاد، وهي الحسَّاسة التِي تُدرِك المحسوسات بالحواس الخمس؛ والخيالية التِي تَحفظ صُوَر تلك المحسوسات، لتعرضها عَلَى القوَّة العقليَّة متى شاءت؛ والعلميَّة تدرك الحقائق الكُلِّيَّة؛ والفكرة[2]: وهي التِي تُؤلف المعقولات لتستنتج منها عِلم مَا لم يُعلم؛ والقوَّة القدسية التِي تتجلَّى فِيهَا لوائح الغيب، وأسرار الملكوت المختصَّة بالأنبياء والأولياء، والمعنية بقوله

---

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «وَبيصِهِ». و«الوبيص: البريق». ابن منظور: لسان العرب، ٨٦٩/٦، مادَّة: «وبض».

٢ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «والفكريَّة».

تعالى: ﴿ولكن جعلناه نورا نَهدِي بِهِ من نشاء من عبادنا﴾[1] بالأشياء الخمسة المذكورة فِي الآيَة، وهي: المشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت، فإن الحسَّاسة كالمشكاة، لأَنَّ مَحلَّها كالكوى، ووجهها إِلىَ الظاهر لاَ يُدرك مَا وراءها، وإضاءتها بالمعقولات لاَ بالذات؛ والخياليَّة كالزجاجة فِي قبول صور [٣٩٧] المدركات مِنَ الجوانب، وضبطها للأنوار العقليَّة، وإنارتها بِمَا يشتمل عليها مِنَ المعقولات؛ والعاقلة: كالمصباح لإضاءتها بالإدراكات الكُلِّيَّة، والمعارف الإِلَهِيَّة؛ والفكرة كالشجرة المباركة لتؤديها[2] إِلىَ ثَمرات لاَ نهاية لها.

الزيتونة: المثمرة بالزيت الذِي هُوَ مادَّة المصباح، التِي لاَ تكون شرقيَّة وَلاَ غربيَّة، لتجرُّدها عنَ اللواحق الجسميَّة، أو لوقوعها بين الصور والمعاني متصرّفة فِي القبيلتين، منتفعة مِنَ الجانبين. والقوة القدسيَّة كالزيت، فإنَّها لصفائها وشدَّة ذكائها تكاد تضيء بالمعارف، من غير تفكير وَلاَ تعليم، ولا تمثيل للقوَّة العقليَّة فِي مراتبها بذلك؛ فإنَّها فِي مبدإ أمرها خالية عَن العلوم، مستعدَّة لقبولها كالمشكاة، ثُمَّ ينتقش بالعلوم الضَّرورية بتوسُّط إحساس الجزئيَّات، بحيث يتمكَّن مِن تَحصيل النظريَّات، فتصير كالزجاجة متلألئة فِي نفسها، قابلة للأنوار؛ وذلك التمكُّن إن كَانَ تفكُّرا واجتهادا، فكالشجرة الزيتونة؛ وإن كَانَ بالحدس فكالزيت؛ وإن كَانَ بقوَّة قدسيَّة، فكالذي يكاد

---

١ - سورة الشورى : ٥٢.

٢ - فِي الأصل: «لتأديها»، وَلَعَلَّهُ يقصد: «لتأديتها».

زيتها يُضيء، لأَنـَّهَا تكاد تعلم ولو لم تَتَّصِل بملك الوحي، والإلهام الذِي مثلـه النار، من حيث أنَّ العقول تشتعل منهما؛ ثُـمَّ إِذَا حصلـت لهـا العـوم[1] بحيـث يتمكَّن مِن استحضارها متى شاءت، كَانَ كالمصباح؛ فـإذا استحضرها كَـانَ نورا عَلَى نور.

﴿يهدي ا لله لنوره﴾ لهذا النور الثاقب ﴿مَن يَشَـاء﴾ فإنَّ الأسـباب دون مشيئـته لاغية، إذ بها تَمامها، ﴿ويضربُ ا لله الأمثالَ للناس﴾ إدناءً للعقـول مِنَ المحسوس، توضيحا وبيانا، ﴿وا لله بِكُلِّ شيء عليم(٣٥)﴾ معقـولا كَـانَ أو مَحسوسا؛ ظـاهرا كَـانَ أو خفيـًّا؛ وفيـه وعـد ووعيـد لِمَـن تدبـَّرها، و لم يكترث بها.

﴿فِي بيوتٍ أَذِنَ ا لله أن تُرفع﴾ عمـَّا يُستقذر فِيهَـا مِـن أعمـال الدُّنْـيَا والأنجاس، بالثنـاء والتعظيـم. قَـالَ أبـو سـعيد: «فثبـت فِي هَـذِهِ البيـوت أنـَّها المساجد، لاَ يُعلم فِي ذَلِكَ اختلاف[2]، مِنَ المسجد الحرام وغيره مِنَ المساجد؛ فمعناها وَاحِد فِي التعظيم؛ وإن اختلف تعظيمهـا بمنزلـة كُـل وَاحِـد منهـا بِمَـا عظَّمه ا لله؛ فإنـَّها كلَّها وَاحِدَة مرفوعة مطهَّرة، فيخرج فِي معاني الإتـفَاق وَمَا تسنـُّه السُّـنـَّة والكتاب أنَّ المشرك مَمنوع من دخول المساجد كلِّها، فلا يَجوز أن يَقرب أحد المشركين إِلىَ دخول المسـجد الحـرام، لثبـوت قـول ا لله تعـالى: ﴿فلا يَقربوا المسجد الحرامَ بعد عامِهِم هَذَا﴾[3] فهو عَلَى الأبد».

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «العلوم».

٢ - في الأصل: «اختلافا»، وهو خطأ.

٣ - سورة التوبة: ٢٨.

﴿ويُذكرَ فِيهَا اسمه﴾ عامٌّ فيما يتضمَّن ذكـره، ﴿يُسبِّح لَهُ فِيهَا بالغدوِّ والآصال(٣٦)﴾ ينزهونه، أو يُصلُّون لَهُ فيهـا بـالغدوات والعشـايا؛ والغـدوُّ: مصدر إطلاق للوقت؛ ولذلك حَسن اقترانه بالآصال.

﴿رجال لاَ تُلهيهم تِجارة﴾ لاَ تشغلهم تحامرة (لَعَلَّهُ تجارة)[1] معاملة دنياويَّة رابحة، وَهُوَ يتناول جميع أعمال الدُّنْـيَا. وخصَّ الرجال بالذكر فِي هَـذِهِ المسـاجد، لأَنَّهُ ليس عَلَى النساء جُمعة وَلاَ جماعة، وخصَّ التجارة بالذكر، لأَنَّهَا أعظـم مَـا يشتغل بِهِ الإنسان عَن الصَّلاة والطَّاعات. ﴿وَلاَ بيعٌ عَن ذكـر ا لله﴾ عَـن طاعتـه وأداء فرائضـه، لقولـه: ﴿يَـا أَيـُّهَا الذِينَ [٣٩٨] آمنـوا لاَ تُلهكـم أموالكـم وَلاَ أولادُكم عَن ذكر ا لله، ومن يفعل ذَلِكَ فأولئك هُمُ الخاسرون﴾[2] مبالغة فِي باب التعميم[3] بعد التَّخصيص إن أريـد بـِهِ مطلق المعاوضـة، ﴿وإقـام الصـلاة وإيتـاء الزكاة﴾ مَا يجب إخراجه من المال للمستحقِّين.

﴿يخافون يوما﴾ أو لأَنـَّهُم لاَ يملكون ثباتها عَلَى مَا هم عليـه مِـنَ الطاعـة مَـعَ مَـا هـم عليـه مِـنَ الذكـر والطاعـة[4]، ﴿تتـقلَّب فِيـهِ القلـوب والأبصار(٣٧)﴾ تتغيَّر مِنَ الهول من هوله [كَذَا] بين طمع فِي النجاة، وحـذر مِنَ الهلاك؛ وقيـل تتقلَّـب القلـوب عمَّـا كَـانَت عليـه فِي الدُّنْـيَا مِـنَ الشـك

---

١ - كذا في الأصل، وما بين قوسين كتب في الحاشية.

٢ - سورة المنافقون: ٩.

٣ - في الأصل: «بات لتعميم»، ولا مَعنَى له.

٤ - كذا في الأصل، والعبارة غامضة، و لم نجد ما يوضحها فيما بين أيدينا من المصادر.

والكفر، وتتفتَّح الأبصار مِنَ الأغطية، **﴿ليَجزيَهم ا لله أحسنَ مَا عملوا﴾** أحسن جزاء مَا عملوا الموعود لَهُم مِنَ الجنَّة. **﴿ويزيدهم من فضله﴾** أشياءَ لم يَعِدْهم عَلَى أعمالهم و لم تخطر ببالهم، **﴿وا لله يرزق من يَشَاء بغير حسابٍ(٣٨)﴾** تقرير للزيادة، وتنبيه عَلَى كمال القدرة، وإنفاذ المشِيئَة، وسعة الإحسان.

**﴿وَالذِينَ كَفَرُوا أعمالهم كَسَرَابٍ﴾** كأنَّه فِي النظر ماء، فإذا قرب مِنْهُ لم ير شَيْئًا، **﴿بقيعةٍ يحسبه الظمآن[1] ماء﴾** العطشان. الآيَةُ قَالَ أبو سعيد فِيهَا: «إنَّه قيل: الدائن بضلال يعمل بدين، ويجتنب بدين، ومجتهد بذلك، وأمَّا قوله: ﴿أو كظلماتٍ فِي بحر لُجيٍّ...﴾ الآيَة، أحسب أنَّه قيل هَذَا [فيمن] يرتكب مَا يدين بتحريمه ويتجاهل، ويعمل المعاصي بغير دين، وَا لله أعلم بتأويل كتابه». **﴿حتَّى إذَا جاءه لم يجده شَيْئًا، ووجد ا لله عنده﴾** عقابه، أو محاسبا إيَّاه، **﴿فوفَّاه حسابه، وَا لله سريع الحساب(٣٩)﴾** لاَ يشغله حساب عَن حساب.

**﴿أو كظلماتٍ فِي بحر لُجِّيٍّ يغشاه موجٌ مِن فوقِه موجٌ﴾** أمواج مترادفة متراكمة، **﴿من فوقه﴾** من فوق الموج الثاني **﴿سحابٌ﴾** غطَّى النجوم، وحجب أنوارها، **﴿ظلماتٌ بعضُها فوق بعض؛ إذَا أَخرج يده﴾** وهي أقرب مَا يرى إليه، **﴿لم يَكَد يراها﴾** لم يقرب أن يراها، فضلا عَن أن يراها، أو يرى ما هُوَ أبعد منها. **﴿ومن لم يجعل ا لله لَهُ نورا﴾** ومن لم يُقدر لَهُ الهداية و لم يوفِّقه لأسبابها، **﴿فما لَهُ من نور(٤٠)﴾** خلاف الموفَّق الذِي لَهُ نور عَلَى نور.

---

١ - هنا وضع الناسخ إحالة إِلى الحاشية وكتب فيها: «العطشان»، ولا مَعنَى لِهَذِهِ الإضافة.

﴿ألم تر﴾ ألم تعلم علما يشبه المشاهدة فِي اليقين، والوثاقة بالوحي، أو الاستدلال، ﴿أنَّ الله يُسبِّح لَهُ من فِي السَّماوَات والأَرْض﴾ ينـزهه[1] عَن كُل نقصٍ وآفةٍ أهلُ السَّمَاوَات والأَرْض. و«من» لتغليب العقلاء، أو المَلاَئِكَة والثقلان، مَا يدلُّ عليه، أو دلالة حال، ﴿والطير﴾ عَلَى الأَوَّل بتخصيص، لما فِيهَا مِنَ الصنيع الظاهر، والدليل الباهر، لذلك قيَّدها بقوله: ﴿صافَّات﴾ فإنَّ إعطاء الأجرام الثقيلة مَا بِهِ تقوى عَلَى الوقوف فِي الجو صافَّة باسطة أجنحتها بِمَا فِيهَا مِنَ القبض والبسط، حُجَّة قاطعة عَلَى كمال قدرة الصانع، ولطف تدبيره. ﴿كُلٌّ﴾ كلُّ وَاحِد مِمَّا ذُكر، أو مِنَ الطير ﴿قد علم صلاته وتسبيحه﴾ أي: قد علم الله دعاءه وتنزيهه، اختيارا أو طبعا، لقوله: ﴿والله عليم بِمَا يفعلُونَ(٤١)﴾ أو علم كُلٌّ عَلَى تشبيه حاله فِي الدلالة عَلَى الحق، والميل إِلَى النفع، على وجه يخصُّه بحال من علم ذَلِكَ، مَعَ أنَّه لاَ يبعد أن يُلهم الله الطير دعاءً وتسبيحًا، كما ألهمها علوما دقيقة فِي تعيُّشها وغيره، لاَ يكاد يهتدي إليه العقلاء.

﴿ولله مُلكُ السَّمَاوَات والأَرْض﴾ فإنَّه الخالق لهما، أو لما فيهما مِنَ الذوات والصفات [٣٩٩] والأفعال، من حيث أنَّها مُمكِنة، واجبة الانتهاء إِلَى الواجب، أي: تقديرها، وتدبير أمرها، وتصريف أحوالها كما يَشَاء، ﴿وإلى الله المصير(٤٢)﴾ مرجع الجميع.

﴿ألم تر أنَّ الله يُزجِي سحابا﴾ يسوق سحابا إِلَى حيث يَشَاء من أرضه وخلقه، ومنه "البضاعة المزجاة"، فإنَّها يزجيها كلُّ أحد. ﴿ثُمَّ يُؤلِّف بينه﴾

---

١ - في الأصل: «تنزه»، وهو خطأ.

بأن يكون قِزَعًا[1]، فيضمُّ بعضه إلىَ بعض، ﴿ثُمَّ يجعله رُكامًا﴾ متراكما بعضه فوق بعض، ﴿فترى الوَدقَ﴾ المطر، ﴿يخرج من خلاله﴾ من فُتوقِه؛ جمع خَلَل، ﴿ويُنزِّل مِنَ السَّمَاء﴾ مِنَ الغمام؛ وكلُّ مَا علاك فهو سماء، ﴿من جبال فِيهَا﴾ من قطعٍ عظامٍ تشبه الجبال فيِ عظمها، أو جمودها، ﴿من بَرَدٍ﴾ بيان للجبال، ﴿فيصيب بهِ من يَشَاء﴾ فيهلك زرعه وأمواله، ﴿ويَصرفه عَن من يَشَاء﴾ فلا يضرُّه؛ والضمير للبَرَد، ﴿يكاد سَنَا بَرْقِهِ﴾ ضوء برقه ﴿يَذهَب بالأبصار(٤٣)﴾ الناظرين إليه من فرط الإضاءة، وذلك أقوى دليل عَلَى كمال القدرة من حيث أَنَّهُ توليد الضد مِنَ الضد.

﴿يُقلِّب ا لله الليلَ والنهارَ﴾ بالمعاقبة بينهما، أو بنقص أحدهما وزيادة الآخر، أو بتغيُّر أحوالهما بالحر والبرد، والظلمة والنُّور، أو بما يعمُّ ذَلِكَ، ﴿إنَّ فيِ ذَلِكَ﴾ فيما تقدَّم ذكره ﴿لَعِبرةً لأُولي الأبصار(٤٤)﴾ لَدَلالة عَلَى وجود الصانع القديم، وكمال قدرته، وإحاطة علمه، وإنفاذ مشيئته، وتنزيهه مِنَ الحاجة وَمَا يفضي إِلَيْهِا، لمن يرجع إلىَ بصيرة[2].

﴿وَا للهُ خَلَقَ كُلَّ دابَّة مِّن مَّاء﴾ هُوَ جزء مادَّته، أو ماء مخصوص هُوَ النطفة، فيكون تنزيلا للغالب منزلة الكل، إذ مِنَ الحيوان مَا يتولَّد لاَ من نطفة، ﴿فمنهم من يمشي عَلَى بطنه، ومنهم من يمشي عَلَى رِجلين، ومنهم من يمشي

١ - فيِ المنجد: «القزع، الواحدة: قزعة: أخذ بعض الشعر وترك بعضه. كُلُّ شيء يكون قطعا متفرقة. قطع من السحاب صغار متفرقة. ص ٦٢٧، مادَّة: «قزع».

٢ - كذا فيِ الأصل، ولعلَّ الصواب: «بصيرته».

عَلَى أربعٍ، ﴿يخلقُ ا لله مَا يَشَاءُ﴾ مِمَّا ذُكِر، ومِمَّا لم يُذكر، بسيطا ومركَّبا عَلَى اختلاف الصُّور والأعضاء والهيئات والحركات والطبائع والقوى والأفعال، مَعَ اتحَاذ العناصر بمقتضى مشيئته، ﴿إنَّ ا لله عَلَى كُلِّ شيء قدير(٤٥)﴾.

﴿لَقَد أنزلنا آيات مُّبيِّنات﴾ للحقائق بأنواع الدلائل، ﴿وا لله يهدي من يَشَاءُ﴾ بالتوفيق للنظر فِيهَا، والتدبُّر لمعانيها، ﴿إِلَى صِرَاط مُسْتَقِيم(٤٦)﴾ هُوَ دين الإسلام الموصل إِلَى درك الحق، والفوز والجنَّة.

﴿ويقولون: آمنَّا با لله وبالرسول وأطعنا، ثُمَّ يتولَّى﴾ بالامتناع عَن قبول حكمه ﴿فريق مِنْهُم من بعد ذَلِكَ﴾ بعد قولهم هَذَا، ﴿وَمَا أُولَـئِكَ بالمؤمنِين(٤٧)﴾ سَلَب الإيمانَ عَنْهُم تولِّيهم عَن قبول حكمه، وَهُم المنافقون. ﴿وإذا دُعُوا إِلَى ا لله ورسوله ليحكمَ بَيْنَهُم إِذَا فريقٌ مِنْهُم مُّعرضُونَ(٤٨)﴾ هُوَ شرح للتولِّي ومبالغة فِيهِ، ﴿وإن يكن لَهُمُ الحَقُّ﴾ أي: الحكم لاَ عَلَيْهِم ﴿يأتوا إليه مذعنِين(٤٩)﴾ منقادين لعلمهم بأنَّ الحكم مُتوجه إِلَيْهِم لاَ عَلَيْهِم. ﴿أفي قلوبهم مرضٌ﴾؟ كفر أو ميل إِلَى الظلم، ﴿أم ارتابوا﴾؟ بأن رأوا منك تهمةً، فزالت[1] ثقتهم ويقينهم بك، ﴿أم يخافون أن يَحيف ا لله عَلَيْهِم ورسولُه﴾ فِي الحكومة، ﴿بَل أُولَـئِكَ هُمُ الظالِمُونَ(٥٠)﴾ حكم ا لله عليهم بالظلم بعد [ما] بيَّن فعلهم.

﴿إِنَّمَا كَانَ قول المؤمنين إِذَا دُعوا إِلَى ا لله ورسوله ليحكمَ بَيْنَهُم أن يقولوا: سمعنا﴾ قولك، ﴿وأطعنا﴾ أمرك، ﴿وأولئك هُمُ المفلحُونَ(٥١)﴾

١ - في الأصل: «فزال»، وهو خطأ.

الفـلاح هُـوَ: [٤٠٠] الفـوز والنجـاة، والبقـاء فِي الخـــير. ﴿**ومــن يُطــع ا لله ورسـوله**﴾ فيمـا حكمـا بِـهِ عليـه، ﴿**ويخـش ا لله ويَتّــقه، فـأولئك هُــمُ الفائزُونَ(٥٢)**﴾ الفوز: النجاة والظفر بالخير، ضدُّ الهلاك.

﴿**وأقسموا با لله جهدَ أيمانهم**﴾ إنكارا للامتناع عَن حكمه وأمره، ﴿**لئن أمرتهم**﴾ بالخروج عَن ديارهم وأموالهم، ﴿**ليخرُجُنَّ، قل: لاَ تُقسـموا طاعـةٌ معروفةٌ**﴾ أي: المطلوب منكم طاعـة معروفـة لاَ اليمـين، ﴿**إنَّ ا لله خبـير بِمَـا تَعْمَلُونَ(٥٣)**﴾ فلا تخفى عليه سرائركم.

﴿**قل: أطيعوا ا لله وأطيعوا الرسول، فإن تولّوا فَإنّمَا عليـه مَـا حُمِّـل**﴾ مِنَ التبليغ، ﴿**وعليكم مَا حُمِّلتُم**﴾ مِنَ الامتثال؛ ﴿**وإن تطيعوه**﴾ فيما بلّغكـم ﴿**تهتدوا**﴾ إلَى الحق، ﴿**وَمَا عَلَى الرسـول إلاَّ البـلاغ الْمُبـين(٥٤)**﴾ التبليـغ الموضح لـما كُلِّفتم بِهِ، وقد أدَّى، وإنّما بقي مـا حُملتـم، فـإن قبلتـم فلكـم، وإن توليتم فعليكم.

﴿**وعد ا لله الذِينَ آمنوا منكم وعملوا الصالحات**﴾ ترغيـبٌ لقبـول مَـا أمر بِـهِ الرَّسول وبلّغهم إيَّاه ﴿**ليَستخلِفَنّهم فِي الأَرْض**﴾ لَيَجعلنَّهم خلفـاء متصرفـين فِي الأَرْض، تصرُّف الملوك فِي ممالكهم، ﴿**كمـا استخلف الذِيـنَ من قبلهـم**﴾ مِمَّـن مَضى، ﴿**وليُمكّننَّ لَهُم دينَهم الذِي ارتضَى لَهُم**﴾ ووهُوَ الإسـلام، بالتقويـة والعلـم والتثبيت، ﴿**وليُبدِّلنَّهم من بعد خوفهم**﴾ مِنَ الأعداء ﴿**أمنًا، يعبدونني لاَ يُشركون بي شَيْئًا**﴾ يعبدونني غير مشركين؛ ﴿**ومن كفر**﴾ ومـن ارتـدَّ، أو كفـر هَـذِهِ النعمـة ﴿**بعد ذَلِكَ**﴾ بعـد حصـول الخلافـة، ﴿**فـأولئك هُـمُ الفاسـقُونَ(٥٥) وأقيمــوا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأطيعوا الرسول**﴾ فِي سائر مَا أمركـم بِـهِ، ﴿**لَعَلّكُـم ترحُمُونَ(٥٦)**﴾.

﴿لاَ تحسبنَّ الذِينَ كَفَرُوا معجزين فِي الأَرْض﴾ لاَ تحسبنَّ يا محمَّد، الكفَّار معجزين ا لله عَن إدراكهم وإهلاكهم، ﴿ومأواهم النار ولبِئْسَ المصير(٥٧)﴾ المأوى الذِي يصيرون إليه.

﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمنوا لِيستأذِنكم الذِينَ مَلَكَت أيمانكم﴾ رجوع إِلَىٰ تتمَّة الأحكام السالفة بعد الفراغ مِنَ الإلهيات الدالَّة عَلَى وجوب الطاعة فيما سلف مِنَ الأحكام وغيره، ﴿وَالذِينَ لم يبلُغوا الحُلُمَ منكم﴾ والصبيان الذِينَ لم يبلغوا، مِنَ الأحرار؛ فعبَّر عَن البلوغ بالاحتلام، لأَنَّهُ أقوى دلائله، ﴿ثلاث مرَّات: من قبل صلاة الفجر﴾ لأَنَّهُ وقت القيام مِنَ المضاجع، وطرح ثياب النوم، ولبس ثياب اليقظة، ﴿وحين تَضعون ثيابكم﴾ مِنَ اليقظة للقيلولة، ﴿من الظهيرة، ومن بعدِ صلاة العشاء﴾ لأَنَّهُ وقت التجرُّد عَن اللباس، ﴿ثلاث عورات لكم﴾ أي: هَـٰذِهِ الثلاث الأوقات، ﴿ليس عَلَيْكُم وَلاَ عَلَيْهِم جُناحٌ بعدَهنَّ طوَّافون عَلَيْكُم بعضُكم عَلَى بعض، كذلك﴾ مثل ذَلِكَ التبيين، ﴿يُبيِّن ا لله لكم الآيات، وَا للهُ عليم حكيم(٥٨)﴾.

﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم، فليستأذنوا كما استأذن الذِينَ من قبلهم﴾ الذِينَ بلغوا من قبلهم فِي كل الأوقات، ﴿كذلك يُبَيِّنُ ا لله لكم آياته وَا للهُ عليم حكيم(٥٩)﴾.

﴿والقواعدُ مِنَ النساء اللاتي لاَ يرجون نكاحا﴾ (لَعَلَّهُ) ومن كتب أهل عمان (لَعَلَّهُ): اللاتي قعدن عن الأزواج، وهي اللاتي ادبراهن[1] الرجال،

---

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «أدبر عنهنَّ».

[و]استقذروهنّ، فأمَّا من كَانَت فِيهِنّ بقيَّة من جمَال، وَهُوَ محلُّ الشهوة، فلا تدخل فِي هَذِهِ الإباحة، لأنَّ علَّة الحجر التِي [٤٠١] لزمها، لم تَزُل عنها من أجلها، وهي المرعي المرجال[كَذَا]، ﴿فليس عليهنَّ جُناح أن يضعن ثيـابهنَّ﴾ (لَعَلَّهُ) عند الرجال؛ يعني: يضعن بعض ثيابهنَّ وهو الجلباب والرداء الذِي فوق الثياب، فوق الخمار، فأمَّا الخمار فلا يجوز. ﴿غير مُتبرِّجات بزينة﴾ قيل: هُوَ الجلباب، وذلك فِي المرأة الكبيرة، التِي لاَ تريد الرجال ولا تُراد، وقد انقضت شهوتها مِنْهُم؛ قلت: «فعندَ مَن يَسَعُها وضعُ الجلباب عند الكلام؟ [أم] ذَلِكَ خاصٌّ؟ قَالَ: لا أعلم فِي ذَلِكَ فرقا، إلاَّ أنَّه لاَ يعجبني أن تضعه عند المتَّهمين. وقوله: ﴿وأن يَستعفِفنَ خيرٌ لهنَّ﴾ فقيل: عَن وضع الجلباب». انتهى. وقوله: ﴿غير مُتبرجات بزينة﴾ أي: من غير أن تريد[1] بوضع الجلباب إظهار زينتهنَّ والتبرُّج، وَهُوَ أن تظهر المرأة من محاسنها مَا يجب عليها أن تستره، ﴿والله سميع عليم(٦٠)﴾.

﴿ليس عَلَى الأعمى حرجٌ، وَلاَ عَلَى الأعرج حرجٌ، وَلاَ عَلَى المريض حرجٌ﴾ إِذَا علم رِضَى صاحب البيت بإذنٍ أو قرينة، ﴿وَلاَ عَلَى أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم﴾ مِنَ البيوت التِي فِيهَا أزواجكم وعيالكم؛ ويدخل فِيهَا بيوت الأولاد، لأنَّ بيت الولد كبيته عَلَى قوله ﷺ: *«أنت ومالك لأبيك»*[2]، ﴿أو بيوت آبائكم أو بيوت أمَّهاتكم أو بيوت إخوانكم أو

---

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «يُرِدْنَ».

٢ - رواه ابن ماجه عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِي مَالاً وَوَلَدًا، =

**بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عمَّاتكم أو بيوت أخوالكـم أو بيوت خالاتكم أو مَا مَلكتُم مفاتحه﴾** وَهُوَ مَا يكون تحت أيديكم وتصرُّفِكـم مـن صنعـة[1] أو غيرهـا، وكالـة أو حفظـا، **﴿أو صديقكـم﴾** فإنـَّهم أرضـى بالتبسُّط في أموالهم، وأسرُّ بـه؛ ولذلـك خصَّص هـؤلاء، فَإِنـَّهُ يعتـاد التبسُّـط بَيْنَـهُم، **﴿ليس عَلَيْكُم جُناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا، فـإذا دخلتـم بيوتـا فسلِّموا عَلَى أنفسكم﴾** وذلك يعمُّ البيوت والمساجد عامَّة؛ وذلك أدب مِـنَ ا للهِ وتعليم؛ فإذا دخل الرَّجل بيت نفســه، فليقـل: «السَّلام علينـا مـن رَبـنَـا، والحمد لله رب الْعَالَمِينَ». حتَّى قيل: إن تَرَكَه تهاونـا واستخفافا بـأدب ا للهِ هَلَكَ. **﴿تحيَّةً من عند ا للهِ مباركةً﴾**، لأَنـَّهَا ترجى بها زيـادة الخير والثَّواب، **﴿طـيِّبةً﴾** وقيل: ذكـر البركـة والطيـب هاهنـا لِمَـا فِيـهِ مِـنَ الثَّـواب والأجـر، **﴿كذلك يُبَـيِّـنُ ا للهُ لكم الآيات لَعَلَّكُم تعقلُونَ(٦١)﴾** الخير فِي الأمور.

**﴿إِنـَّمَا المؤمنون الذِينَ آمنوا با للهِ ورسـوله، وإذا كَـانُوا معـه عَلَـى أمـر جامع﴾** كالجمعة والأعياد، والحروب، والمشـاورة فِي الأمـور؛ ووصـف الأمـر بالجمع للمبالغة، **﴿لم يذهبوا حَتَّى يستأذنوه﴾** جعل الاستئذان علامة للإيمـان. **﴿إنَّ الذِينَ يستأذنونك أُولَـئِكَ الذِينَ يُؤْمِنُونَ با للهِ ورسوله﴾** كَانَ المنـافقون يتفرَّقون من غير إذن، **﴿فإذا استأذنوك لبعض شـأنهم﴾** مَـا يعـرض لَهُـم مِـنَ

---

=

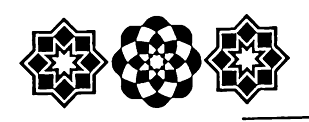
وَإِنَّ أَبِي يُرِيدُ أَنْ يَجْتَاحَ مَالِي، فَقَالَ: «أَنْتَ وَمَالُكَ لأَبِيـكَ». كتـاب التجـارات، رقـم ٢٢٨٢، ٢٢٨٣. وروى نحوه أبـو داود في كتـاب البيـوع، رقـم ٣٠٦٣، مـع زيـادة. أحمد: مسند المكثرين من الصحابة، رقم ٦٣٩١، ٦٦٠٨، ٦٧٠٦.

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «ضيعة».

المهام، ﴿**فَأْذَن لِمَن شِئتَ مِنـْهُم**﴾ تفويض للأمر إِلَى رأي الرَّسول، وكَأَنَّ المَعنَى: فَأذَن لمن عَلِمت أنَّ لَهُ عـذرا، ﴿**واستغفر لَهُمُ ا للهَ**﴾ لزلاَّتهم وصغائرهم، ﴿**إِنَّ ا للهَ غَفُور رحيم(٦٢)**﴾.

﴿**لاَ تجعلوا دعاءَ الرسول بينكم كدعاءِ بعضِكم بعضا**﴾ [٤٠٢] لاتقيسوا دعاءه إيَّاكم عَلَى دعاء بعضكم بعضا فِي جوار الإعراض، والمساهلة فِي الإجابة، والرجوع بغير إذن، فإنَّ المبادرة إِلَى إجابته واجبة، والرجعة بغير إذن مُحرَّمة؛ وقيل: لاَ تجعلوا نداءه وتسميته كنداء بعضكم بعضا باسمه، ورفع الصوت بِهِ، والنداء وراء الحجرة، ولكن بلقبه المعظَّم مثل: يا نَبِيَّ ا لله، ويارسول ا لله؛ مَعَ التوقير والتواضع، وخفض الصوت، ﴿**قد يَعلم ا للهُ الذِينَ يتسلَّلون منكم لِواذا**﴾ يتسلَّلون قليلاً قليلاً مُلاَوذة، بأن يستتر بعضهم ببعض، حتَّى يخرج؛ أو لواذا ببعض المعاذير الكاذبة، كقوله: ﴿إِنَّ بيوتنا عورةٌ وَمَا هِيَ بعورة، إن يريدون إِلاَّ فرارا﴾[1]، ﴿**فليحذر الذِينَ يُخالفون عَن أمره أن تُصيبهم فتنةٌ**﴾ مِحنة فِي الدُّنـْيَا، ﴿**أو يصيبَهم عذاب أليم(٦٣)**﴾ فِي الآخِرَة؛ واستدِلَّ بِهِ عَلَى أنَّ الأمر للوجوب.

﴿**أَلاَ إِنَّ للهِ مَا فِي السَّمَاوَات والأَرْض**﴾ ملكا وعبيدا وخَلْقا، ﴿**قد يعلم مَا أَنتم عليه**﴾ أيُّها المكلَّفون مِنَ المخالفة والموافقة، والنفاق والإخلاص ﴿**ويوم يُرجَعون إليه فَينبِّئهم بِمَا عَملوا**﴾ بالجزاء، ﴿**وا للهُ بِكُلِّ شيء عليم(٦٤).**﴾ فِيهِ وعد ووعيد.



١ - سورة الأحزاب: ١٣.



# سورة الفرقان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿**تبارك الذِي نَزَّل الفرقان عَلَى عَبده**﴾ تكاثر خيره، مِنَ البركة، وهي كثرة الخير؛ أو تزايد عَن كُلِّ شيء، وتعالى عَنْهُ فِي صفاته وأفعاله، فإنَّ البركة تتضمَّن معنى الزيادة؛ وقيل: تبارك الله: تقدَّس وتنزَّه، صفة خاصَّة با لله تعالى وبرتبته [كَذَا] عَلَى إنزال الفرقان لِمَا فِيهِ من كثرة الخير، أو لدلالته عَلَى تعاليه. والفرقان: مصدر فَرَقَ بين الشَّيْئَين: إِذَا فصل بينهما؛ سُمِّيَ بِهِ القرآن لفصله بين الحقِّ والباطل بتقريره، والـمُحِقِّ والـمُبطل بإعجازه؛ أو لكونه مفصولا بعضه عَن بعض فِي الإنزال؛ وقيل: إنَّ الفرقان اسم جنسٍ للكتب السماويَّة. ﴿**ليكون**﴾ العبد، أو الفرقان ﴿**للعالمين**﴾ للجنِّ والإنس ﴿**نذيرا(١)**﴾.

﴿**الذِي لَهُ مُلك السَّمَاوَات والأَرْض، ولم يتَّخذ ولدا ولم يكن لَهُ شريك فِي الملك**﴾ فلا يستحقُّ أن يكون لَهُ شريك فِي العبادة، ﴿**وخلق كُلَّ شيء**﴾ أحدثه إحداثًا مراعًا فِيهِ التقدير حسب إرادته، كخلقه الإنسان من موادَّ مخصوصةٍ، وصور وأشكال مُعيَّنة، ﴿**فقدَّره تقديرا(٢)**﴾ فقدَّره وهيَّأه لِمَا أَرَادَ مِنْهُ مِنَ الخصائص والأفعال، كهيئة الإنسان للإدراك، والفهم والحفظ

والنظر والتدبير، واستنباط الصنائع المتنوِّعة، ومزاولة الأعمال المختلفة، إِلىَ غير ذَلِكَ؛ أو فقدَّره للبقاء إِلىَ أجل مسمًّى؛ وقد يطلق الخلق لِمجرَّد الإيجاد من غير نظر إِلىَ وجه الاشتقاق، فيكون المَعنَى: وأوجد كُلَّ شيء فقدَّره فِي إيجاده، حتَّى لاَ يكون متفاوتا.

﴿وَاتَّخَذوا من دونه آلهة﴾ لَمَّا تضمَّن الكلام إثبات التوحيد والنبوَّة، أَخَذ فِي الردِّ عَلَى المخالفين، [٤٠٣] ﴿لاَ يَخلقون شَيْئًا وَهُم[1] يُخلَقون﴾ لأَنَّ عبدتهم يَخلقونهم ويُصوِّرونهم، ﴿وَلاَ يملكون لأنفسهم ضَرًّا وَلاَ نفعا، وَلاَ يَملكون موتا وَلاَ حياةً وَلاَ نُشورا(٣)﴾ وَلاَ يَملكون إماتة أحد، وَلاَ إحياءه أوَّلاً، وبعثه ثانيا؛ ومن كَانَ كذلك فبمَعزل عَن الألوهية؛ وفيه تنبيه عَلَى أنَّ الإله يَجب أن يكون قادرا عَلَى الإيجاد والجزاء.

﴿وقال الذِينَ كَفَرُوا: إنْ هَذَا إلاَّ إفكٌ﴾ كذبٌ مصروف عَن وجهه، ﴿افتراه﴾ اختلقه، ﴿وأعانه عليه قومٌ آخرون﴾ أي: اليهود، فإنَّهم يلقون إِلَيْهِ أخبار الأمم، وَهُوَ يُعبِّر عنه بعبارتهم، ﴿فقد جاءوا ظُلما﴾ يَجعل الكلام المعجز إفكا مُختلَقًا مُتلَفَّقًا، ﴿وزورا(٤)﴾ بنسبة مَا هُوَ بريء مِنْهُ إِلَيْهِ. و«أتى» و«جَاءَ» يُطلَقان بمعنى: فَعَل. ﴿وَقَالُوا: أساطيرُ الأَوَّلين﴾ مَا سطَّره المتقدِّمون ﴿اكتتبها، فهي تُملى عليه بُكرةً وأصيلاً(٥)﴾ لـيَحفظها، فإنَّه أمِّيٌّ لا يقدر أن يُكرِّر مِن الكتاب، أو ليكتب.

١ - في الأصل: - «هم»، وهو خطأ.

﴿**قل: أنزلَه الذِي يَعلَمُ السرَّ فِي السَّمَاوَات والأَرْضِ**﴾ لأَنَّهُ أعجزكم عَن آخرِكم بفصاحته؛ وتضمَّن إخبارا عَن مغيبات مستقبلة، وأشياء مكنونة لاَ يعلمها إِلاَّ عالم الأسرار؛ فكيف يجعلونه أساطير الأولين؟. ﴿**إِنَّهُ كَانَ غَفُورا رحيما(٦)**﴾ فلذلك لاَ يُعجِّل فِي عقوبتكم عَلَى مَا تقولون، مَعَ كمال قدرته عليها، واستحقاقكم أن يَصبَّ عَلَيْكُم العذاب صبًّا.

﴿**وَقَالُوا: مَالِ هَذَا الرسول**﴾ مَا لهذا الذِي يزعم الرسالة؛ وفيه استهانة وتهكُّم، ﴿**يأكل الطعام**﴾ كما نأكل، ﴿**ويَمشي فِي الأسواق**﴾ لطلب المعاش كما نَمشي؛ والمَعنَى: إن صحَّ دعواه فما باله لم تخالف حاله حالنا، وذلك لعماهم وقصور نظرهم عَلَى المحسوسات، فإِنَّ تَمييز الرسل عمَّن عداهم ليس [بأمور][1] جسمانيَّة، وإنَّما هُوَ بأحوال نفسانيَّة، كما أشار إِلَيْهِ بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أنا بشر مِثْلُكم يُوحى إليَّ أنَّمَا إلهُكم إله واحد﴾[2]، ﴿**لولا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فيكونَ معه نذيرا(٧)**﴾ لنعلم صدقه بتصديق المَلَك.

﴿**أو يُلقَى إِلَيْهِ كنزٌ**﴾ فيستظهر بِهِ، ويستغني عَن تَحصيل المعاش، ﴿**أو تكون لَهُ جنَّة**﴾ اغتناء بها عَن العدم، ﴿**يأكل منها**﴾ لأَنَّ نظرهم قاصر عَلَى ظواهر الأمور؛ ﴿**وقال الظالمون**﴾: وضع "الظالمون" موضع ضميرهم تسجيلا عَلَيْهِم بالظلم فيما قالوه، ﴿**إن تتَّبعون إِلاَّ رَجلا مسحورا(٨)**﴾ سُحر فغُلب عَلَى عقله؛ وقيل: ذا سحر، أي: بشرا لاَ مَلَكا.

---

١ - زيادة من أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص٢٠٥، ليستقيم المَعنَى.

٢ - سورة الكهف: ١١٠؛ وسورة فصِّلت: ٦.

﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثالَ﴾ يعني: الأشباه، فَقَالُوا: مسحور، وَقَالُوا فيك الأقوال الشاذَّة، واخترعوا لك الأحوال النادرة، ﴿فضلُّوا﴾ عَن الطريق الموصل إِلَى معرفة خواص النَّبِي؛ والميز بينه وبين المتنبئ، فخبطوا خَبْط عشواء، ﴿فلا يستطيعون سبيلا(٩)﴾ إِلَى القدح فِي نبوَّتك، أو إلى الرشد والهدى.

﴿تبارك الذِي إن شاءَ جَعَل لك خيرا مِن ذَلِكَ﴾ الذِي اخترعوه، ﴿جَنَّات تَجري مِن تَحتها الأنهار﴾ خيرا مِنَ الجنَّة التِي [٤٠٤] ذكروها، ﴿ويَجعل لَّك قصورا(١٠)﴾ خيرا مِنَ البيت المزخرف كما قَالُوا: ﴿أو يكون لك بيت من زُخرف﴾[1] وسمَّاها[2] قصورا وجنَّات، وَهُوَ جمع مَا زاد عَلَى الاثنين إِلَى مَا فوق ذَلِكَ.

﴿بَل كَذَّبوا بالساعة﴾ فقَصُرت أنظارهم عَلَى الحطام الدنيويَّة، وظنُّوا أنَّ الكرامة إِنَّمَا هِيَ بالمال، وطعنوا فيك لفقرك؛ أو فلا تَعجَب بتكذيبهم إيَّاك، فإنَّه أعجب منه، ﴿وأعتدنا لِمَن كذَّب بالساعة سعيرا(١١)﴾ نارا شديدة الاستعار؛ وقيل: هُوَ اسم لجهنَّم. ﴿إِذَا رأَتهُم﴾ إِذَا كَانَت بمرأًى[3] مِنْهُم ﴿مِّن مَّكَانٍ بعيد﴾ هُوَ أقصى مَا يُمكن أن يُرى منه، ﴿سَمِعوا لها تغيُّظا وزفيرًا(١٢)﴾ صوت تغيُّظٍ؛ شبَّه صوت غَلَيانها بصوت المغتاظ وزفيره، وَهُوَ صوت يُسمع مِن جوفه. ﴿وإذا أُلقوا منها مكانا ضيِّقا﴾ لزيادة

---

١ - سورة الإسراء: ٩٣.

٢ - في الأصل: «وسما هو»، ويمكن أن نقرأ: «وبينما هو قصور أو جنَّات».

٣ - في الأصل: «بمراء»، وهو خطأ.

العذاب، فإنَّ الكرب مَعَ الضيق، والرَّوْحَ مَعَ السَّعة، ﴿**مُقَرَّنين**﴾ قُرنت أيديهم إِلَى أعناقهم بالسلاسل؛ أو مقرَّنين مَعَ الشياطين فِي السلاسل، ﴿**دَعَوا هنالك**﴾ فِي ذَلِكَ المكَان ﴿**ثُبورًا(١٣)**﴾ إهلاكا؛ أي: يَتمنَّون الهلاك، وينادونه فيقولون: "يا ثبوراه تَعال، فَهَذَا حينك!!". ﴿**لاَ تَدعوا اليومَ ثُبورا واحدا**﴾ أي: يُقال لَهُم ذَلِكَ، ﴿**وادعوا ثُبورا كثيرا(١٤)**﴾ لأَنَّ عذابكم أنواع كثيرة، وكلُّ نوع منها ثبورٌ عَلَى حياله لشدَّته.

﴿**قل: أذلك خيرٌ أم جنَّة الخلدِ التِي وُعِدَ المتَّقون**﴾؟ الإشارة إِلَى العذاب؛ والاستفهام للتقريع مَعَ التهكُّم، ﴿**كَانَت لَهُم**﴾ فِي عِلم الله ﴿**جزاءً**﴾ عَلَى أعمالهم، ﴿**ومصيرا(١٥)**﴾ ينقلبون إِلَيْهِ. ﴿**لَهُم فِيهَا مَا يَشَاءون**﴾ مَا يَشَاؤونه مِنَ النعيم، و(لعلَّه) لِقِصَرِ هممهم[1]، كُلُّ طائفة عَلَى مَا لاَ يليق برتبته[2]؛ ولعلَّ الناقص لاَ يُلقَى إِلَيْهِ إن شاء كما يَشَاء الكامل، لكمال النعمة للجميع فِيهَا، وإن كَانَت أكبر درجات وأكبر تفضيلا، (لعلَّه) لزوال الحزن عَن الأقل؛ وفيه تنبيه عَلَى أنَّ كُلَّ المرادات لاَ تَحصل إلاَّ فِي الجنَّة، ﴿**خالدين**﴾ فِيهَا ﴿**كَانَ عَلَى رَبِّكَ وعدًا مَسئولا(١٦)**﴾ أي: كَانَ ذَلِكَ موعودا حقيقيًّا، بأن يُسأل ويُطلب؛ أو مسؤولا يَسأله الناس فِي دعائهم: ﴿رَبَّنَا وآتنا مَا وعدتَنا عَلَى رسلك﴾[3]، أو المَلاَئِكَة بقولهم: ﴿رَبَّنا وأدخِلْهم جنَّاتِ عدن﴾[4].

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «هِمَمِ كُلٍّ».

٢ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «برتبتها».

٣ - سورة آل عمران: ١٩٤.

٤ - سورة غافر: ٨.

﴿**ويوم يَحشـرهم**﴾ للجزاء، ﴿**وَمَا يعبدون مِن دون ا لله**﴾ تعمُّ كُلَّ معبود سواه، ﴿**فيقول**﴾ أي: للمعبودين ﴿**أأنتم أضللتم عبادِي هؤلاء، أم هم ضلُّوا السبيل(١٧)**﴾؟ لإخلافهم بالنظر الصحيح، وإعراضهم عَن المرشد النصيح؛ وهو استفهام تقريع وتبكيت؛ ﴿**قَالُوا: سُبحانك**﴾!! تعجُّبا مِمَّا قيل لَهُم، لأنـَّهُم إمـَّا مَلاَئِكَة أو أنبياء، أو جمادات لاَ تَقدِر عَلَى شيء؛ أو إشعار[1] بأنـَّهم الموسومون بتسبيحه وتوحيده، فكيف يليق بهم إضلال عبيده؟ أو تنزيها لله عَن الأنداد؛ وَمَعنَى ﴿سبحانك﴾: وَهُوَ ا لله[2] من أن يكون معه إله، ﴿**مَا كَانَ ينبغي لَنَا**﴾ يَصحُّ لَنَا ﴿**أن نتـَّخذ مِن [٤٠٥] دونك مِن أولياء**﴾ للعصمة إن كَانُوا مَلاَئِكَة، أو عدم القدرة إن كَانُوا جمادا؛ فكيف يصحُّ لَنَا أن ندعو غيرنا أن يَتولَّى أحدا دونك، ﴿**ولكن متـَّعتهم وآباءَهم**﴾ بأنواع النعم، فاستغرقوا فِي الشهوات، ﴿**حتَّى نَسوا الذكرَ**﴾ حتَّى غَفَلوا عَن ذكرك؛ أو التذكُّر لآلائك، والتدبُّر فِي آياتك، ﴿**وكانوا**﴾ فِي قَضائك ﴿**قوما بورا(١٨)**﴾ هالكين متروكين فِي الهلاك؛ والبور واجب تركه.

﴿**فقد كذَّبوكم**﴾ المعبودون ﴿**بِمَا تقولون، فما تستطيعون**﴾ فِي قولكم إنـَّهم آلهة، أو هؤلاء أضلُّونا. ﴿**صَرْفا**﴾ دَفعا للعذاب عنكم؛ وقيل: حيلة من قولهم: لَيَتَصَرَّفُ، أي: يَحتال، ﴿**وَلاَ نصرا**﴾ فيعينكم عليه، ﴿**وَمَن يَظلم مِّنكم**﴾ أيـُّها المكلَّفون، ﴿**نُذقه عذابا كبيرا(١٩)**﴾ فِي الدَّارين.

---

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الأصوب: «أو إشعارًا». لأنـَّهُ عطف عَلَى «تعجُّبًا مِمَّا قيل...»، وَهُوَ ما ذكره أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص٢٠٨.

٢ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «وهو تنزيه لله».

﴿وَمَا أرسلنا قبلَك مِنَ المرسلين إلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأكلون الطعام ويَمشون فِي الأسواق﴾ لأن ليس أكل الطعام والمشي فِي الأسواق مِمَّا يبطل الرسالة، ﴿وجعلنا بعضَكم لبعض فتنةً﴾ ابتلاءً، ﴿أتصبرون﴾؟ علَّة للجعل؛ والمَعنَى: وجعلنا بعضكم لبعض فتنة لنعلم أيُّكُم يصبر، ﴿وكَانَ رَبُّكَ بصيرا(٢٠)﴾ بالصَّابرين والجازعين، وَهُوَ فِي صورة الوعد والوعيد.

﴿وقال الذِينَ لاَ يرجون لقاءنا﴾ بالخير، لكفرهم بالبعث: ﴿لولا﴾ هلاَّ ﴿أُنزل علينا المَلاَئِكَة﴾ فتخبرنا بصدق محمَّد؛ وقيل: فيكونون رسلا إلينا؛ ﴿أو نَرَى رَبَّنَا﴾ عَيانا، فيَأمُرُنا بتصديقه واتباعه؛ ﴿لَقَد استكبروا فِي أنفسهم﴾ أي: فِي شأنها، ﴿وعَتوا﴾ وتَجاوزوا الحدَّ فِي الظلم، ﴿عُتُوًّا كبيرا(٢١)﴾ بالغا أقصى مَراتبه، حيث عاينوا المعجزات القاهرة، فأعرضوا عنها، واقترحوا لأنفسهم الخبيثة مَا سدَّت دونه مطامح النفوس القدسيَّة.

﴿يوم يَرَون المَلاَئِكَة﴾ عند الموت، أو يوم القيامة ﴿لاَ بُشرَى يومئذ للمجرمين﴾ بمعنى: يمنعون البشرى، ﴿ويقولون: حِجْرا مَحجورا(٢٢)﴾ أي: حراما مُحرَّما عَلَيْكُم الجنَّة والبشرى. ﴿وقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلوا مِن عَمَل فجعلناه هَبَاء منثورا(٢٣)﴾ لأَنَّهُ لاَ يثبت عملُ طاعةٍ مِن عاص. ﴿أصحابُ الجَنَّة يومئذ خيرٌ مستقرًّا وأحسنُ مَقِيلا(٢٤)﴾.

﴿ويوم تَشَقَّق السَّمَاءُ بالغمام ونُزِّل المَلاَئِكَة تنزيلا(٢٥)﴾ يَحتمل لقبض الأرواح؛ أو يوم القيامة. ﴿المُلك يومئذ الحَقُّ للرحمن﴾ الثابت له، لأَنَّ كُلَّ مُلكٍ يبطل يومئذ، وَلاَ يبقى إِلاَّ ملكه، ﴿وكَانَ يوما عَلَى الكَافِرِينَ عَسيرا(٢٦)﴾ (لعلَّه) لأَنَّهُ يُجازى بعمله.

﴿ويوم يَعَضُّ الظالم عَلَى يَدَيْه﴾ مِن فرط الحسرة؛ وعضُّ اليدين، وأكل البَنَان، وحرق الأسنان ونحوها، كنايات عَن الغيظ والحسرة، لأَنَّهَا مِن روادفها؛ والمُرَاد بالظالم: الجنس؛ وقيل عقبة بن أبي مُعيط، ﴿يقول: يا ليتني اتَّخَذتُ مَعَ الرسول سبيلا(٢٧)﴾ طريقا إِلَى النجاة. ﴿يا وَيلتى لَيتني لم أَتَّخذْ فُلانا خليلا(٢٨)﴾ يعني: مَن أَضلَّهُ. ﴿لَقَد أضلَّني عَن الذكر بعد إذ جاءني﴾ والذكر: يعمُّ جميع حجج الله وآياته البالغة للعبد، من أي حال قامت عليه، ﴿وكَانَ الشيطانُ﴾ يعني الخليلَ المضلَّ، أو إبليس الموَسْوِس، لأَنَّهُ حمله عَلَى مُخالته، [٤٠٦] أو كُلّ من تَشَيطن مِن جنٍّ وإنس، لأَنَّ كُلَّ مَن صدَّ عَن سبيل الله فهو شيطان ﴿للإنسان خَذولا(٢٩)﴾ يُواليه حتَّى يؤديهُ إِلَى الهلاك، ثُمَّ يتركه وَلاَ ينفعه. وحُكم هَذِهِ الآيات عامٌّ فِي كُل مُتحابَّيْن اجتمعا فِي معصية الله.

﴿وقال الرسول﴾ مُحَمَّد ﷺ: ﴿يا رَبِّ إنَّ قوميَ اتَّخَذوا هَذَا القرآنَ مَهجورا(٣٠)﴾ بأن تركوه، وصدُّوا عَنْهُ. ﴿وكذلك جعلنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدوًّا مِنَ المُجرمين﴾ كَما جعلناه لك، فاصبر كما صبروا، ﴿وكفى بربِّكَ هاديا ونَصيرا(٣١)﴾.

﴿وقال الذِينَ كَفَرُوا: لولا نُزِّل عليه القرآنُ جُملة وَاحِدَة، كذلك لِنثبِّت[1] بِهِ فُؤادَك﴾ أي: كذلك أنزلناه مُفرَّقا، لِنُقَويَ بتفريقه فؤادَك عَلَى حفظه وفهمه، ولأنَّه إِذَا نزل بِهِ جبريل حالاً بعد حال يثبت بِهِ فؤادك،

١ - فِي الأصل: «نثبت»، وهو خطأ.

﴿ورتّلناه ترتيلا(٣٢)﴾ وقرأناه عليك شَيْئًا بعد شيء عَلَى تَوأدة وتَمهُّل؛ وأصل الترتيل أن يكون فِي الأسنان، وَهُوَ تَفليجُها.

﴿وَلاَ يَأتونك بمَثَل﴾ سؤال عجيب، كأنّه مَثَل فِي البطلان، يريدون بهِ القدح فِي نبوّتك، ﴿إلاَّ جئناك بالْحق﴾ الدّافع لَهُ فِي جوابه؛ أي: يبطل ما جاءوا بهِ مِنَ المثل؛ فسمَّى مَا يوردون مِنَ الشبه مَثَلا؛ وسمَّى مَا تُدفع بهِ الشبه حقًّا. ﴿وأحسنَ تَفسيرا(٣٣)﴾ أو إنّما هُوَ أحسن بيانا وتفصيلا؛ والتفسير تفعيل مِنَ الفَسْرِ: وَهُوَ كَشف مَا غُطِّي. ﴿الذِينَ يُحشرون عَلَى وُجوههم إِلَى جَهَنّم﴾ أي: مقلوبين، أو مَسحوبين إِلَيْها، ﴿أُولَئِكَ شرٌّ مَكانا وأضلُّ سبيلا(٣٤)﴾ عَن الرحمة؛ أي: أخطأ طريقا.

﴿وَلَقَد آتينا مُوسى الكتابَ وجعلنا مَعَه أخاهُ هارون وزيرا(٣٥)﴾ يُؤازره فِي الدّعوة وإعلاء الكلمة، وَلاَ يُنافي ذَلِكَ مشاركته فِي النبوّة، لأَنَّ المتشارِكَين فِي الأمر مُتوازران عليه. ﴿فقلنا: اذهبا إِلَى القوم الذِينَ كَذّبوا بِآيَاتِنا فدمَّرناهم تَدميرا(٣٦)﴾ (لعلّه) أي: إهلاكا.

﴿وقومَ نوحٍ لَمَّا كذَّبوا الرسلَ﴾ كذَّبوا نوحا ومَن قبله؛ أو نوحا وحده؛ ولكنَّ تكذيب وَاحِد مِنَ الرُّسل كَتكذيب الكلِّ، ﴿أغرقناهم وجعلناهم﴾ أي: وجعلنا إغراقهم، أو قصَّتهم ﴿للنّاس آيةً﴾ عبرةً، ﴿وأعتدنا للظالمين عذابا أليما(٣٧)﴾ (لعلّه بالحجارة والآجر، فهي رسٌّ؛ وقيل: فَلَج باليمامة؛ وقيل: الأخدود؛ وقيل: المعدن)[1].

١ - ما بين قوسين يظهر أنّه ليس في محلِّه لأَنَّهُ تفسير معنى: «الرس».

﴿وعادًا وثمودًا وأصحابَ الرَّس﴾ (لعلّه) بئر؛ قيل: وكلُّ ركبة [كَذَا] لم تُطو، ﴿وقُرونا بين ذَلِكَ كثيرا(٣٨) وكلاًّ ضَرَبـنَا لَـهُ الأمثالَ﴾ بيـّنـّا لَـهُ (لعلّه) له الأشباه فِي إقامة الحُـجَّة عَـلَـيْـهِـم، أو القصـص العجيبـة مِـن قصـص الأوّلين إنذارا، فَلَـمَّا أصرُّوا أُهلكوا، كما قَالَ: ﴿وكلاًّ تـبَّرنا تـتـبـيرا(٣٩)﴾ فتنـّاه تـفـتينا؛ (لعلّه) أي: أهلكنـاه إهلاكـا. ﴿وَلَقَـد أَتَـوا عَلَـى القريـةِ التِـي أُمطِرَت مَطَـرَ السَّـوءِ﴾ يعـنِي: قُريشـا، مِـرارا فِي مَتـاجِرهم إِلىَ الشَّـام عليهـا، [٤٠٧] وهي قريةُ "سَدُوم" العظمى، قُرى قوم لوط، أُمطرت عليها الحجـارة، ﴿أفلم يكونوا يَرَونها﴾ فِي مرار مُرورهم، فيتـّعظون بمَا يَرون فِيهَـا مِـن آثـار عذابِ الله، ﴿بَل كَانُوا لاَ يَرجُون نُشورا(٤٠)﴾ بَل كَانُوا كَفَرة لاَ يتوقّعون نشورا وَلاَ عاقبة؛ فلذلك لم ينظروا ولم يتّعظوا؛ فمرُّوا بها كما مرَّت ركابهم، وَلاَ يُؤمـِّلون كما يُؤمِّله[1] المؤمنون طمعا فِي الثواب.

﴿وإِذَا رَأَوك إن يتـّخذونك إِلاَّ هُـزُوًا﴾ مَا يتـّخذونك إِلاَّ موضـع هـزؤ؛ أو مهزوء بِهِ؛ وهذا يعمُّ كُلَّ مُؤْمِن رآه كُلُّ كـافر، مَـا يلقـاه إِلاَّ مُستهزئا بِـهِ؛ لأَنـّهُ إِذَا خالفه صار مُستهزئا بِهِ مِن حيـث المعنـى؛ لأَنَّ الذِيـنَ اتـّخَذوا آيـات الله هزوًا هم الذِينَ لم يعملوا بها، ﴿أهـذا الـذِي بَعَـث الله رَسـولا(٤١)﴾؟ استحقارا لَـهُ، واستهزاءً بِـهِ. ﴿إن كـادَ﴾ أنـّهُ كَـانَ ﴿لَيُضلُّـنا عَـن آلهتنـا﴾

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصـواب: «ولا يتأمـّلون كمـا يتأمـّله المؤمنـون...»، لأنَّ أمَـل يَأْمَـل، وأمَّـل يؤمـل بمعنى: رجا يرجو. بخلاف تأمَّـل فهو بمعنى: تـثبَّـت في الأمر أو في النظر. راجع: ابن منظور: لسان العرب، ١/١٠٠، مادَّة: «أمل».

لِيصرفنا عَن عبادتها، بفرط اجتهاد فِي الدعـاء إِلىَ التَّـوحيد، وكثرة مَا يورد مِمَّا يسبق إِلىَ الذهن أنّـها حجج ومعجزات، ﴿لَولا أن صَبَرنا عليها﴾ ثَبَـتنا عليها، واستمسكنا بعبادتها، ﴿وسوف يَعْلَمُونَ حـين يَرون العـذاب﴾ حـين وُقوع الموت بهم، أو يوم القيامة، ﴿مَن أضلُّ سبيلا(٤٢)﴾.

﴿أرأيت من اتَّخَذَ إلهه هواه﴾ بأن أطاعه وبَنى عليـه دينـه، لاَ يسـمع حجّـة وَلاَ يَتَبصَّر دليلا، ﴿أفأنت تكون عليه وكيلا(٤٣)﴾؟ حفيظا لِمنعـه عَن الشرك والمعـاصي، وحالـةُ هَـذَا ليـس عليـك إلاَّ البـلاغ. ﴿أم تَحسـب أنَّ أكـثرهم يسمعون﴾ سماعَ تفهُّم، ﴿أو يعقلون﴾ بقلوبهم مَا تُبلّغهم مِنَ الحجـج، فتجـدي لَهُمُ الآيات والحجج، فتهتمَّ بشأنهم، وتطمع فِي إيمانهم؛ وَهُوَ أشدُّ مذمَّة مِمَّا قبله حتّى حقَّ بالإضراب عنه إليه، ﴿إن هُـم الاَّ كالأنعام﴾ فِي عـدم انتفـاعهم بقـرع الآيات آذانهم، وعدم تَدبُّرهم فيما شاهدوا مِنَ الدلائل والمعجزات، ﴿بَل هم أضلُّ سبيلا(٤٤)﴾ مِنَ الأنعام، لأنَّـهَا تنقاد لِمَن يتعهَّدها، وتُميِّز مَـن يُحسـن إِلَـيْها مِمَّن يُسيء إِلَـيْها، و تطلب مَا ينفعها، وتَجتنب مَا يضرُّها؛ وهـؤلاء لاَ ينقادون لِرَبِّـهِمْ، وَلاَ يعرفون إحسانه مِن إساءة الشيطان، وَلاَ يطلبـون الثـواب الذِي هُوَ أعظم المنافع، وَلاَ يَتَّقون العقاب الذِي هُوَ أشـدُّ المضـارِّ، ولأنـَّها إن لم تعتقد حـقًّا، و لم تلتبس خيرًا، لم تنعقد[1] باطلا، و لم تكتسب شرًّا، بِخلاف هؤلاء؛ ولأنَّ جهالتها لاَ تضرُّ بأحد، وجهالة هـؤلاء تـؤدِّي إِلىَ تهييـج الفـتن، وصدِّ النَّاس عَن الحقِّ، ولأنَّها غير مُمَكَّنة مِن طلب المنافع، فلا تقصير منها وَلاَ

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «تعتقد». وانظر أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص٢٢١.

ذمٌّ؛ وهؤلاء مقصِّرون مستحقُّون أعظم العقاب عَلَى تقصيرهم، لأَنَّ القادر عَلَى نيل الكمال أحرى بالذَّمِّ، وأجدر بالنسبة إِلىَ الضلال مهما تقاعد عَن طلب الكمال.

﴿أَلم ترَ إِلىَ رَبكَ﴾ أَلم تنظر كيف صُنعه، ﴿كيف مَدَّ الظلَّ﴾ كيف بَسَطه، أَلم تنظر إِلىَ الظلِّ كيف مدَّه ربُّكَ؟؛ فغيَّر النظمَ إشعارا بِأَنَّ المعقول مِن هَذَا الكلام لِوضع برهانه، هُوَ دلالة [٤٠٨] حدوثه، ولصرفه عَلَى الوجه النافع، بأسباب مُمكنة عَلَى أنَّ ذَلِكَ فِعْل الصانع الحكيم، كالمشاهدة[1] المرئي، فكيف بالمحسوس مِنْهُ؛ أو أَلَمْ ينته علمك إِلىَ أنَّ رَبّكَ كيف مدَّ الظلَّ فيما بين طلوعِ الفجر إِلىَ طلوع الشمس، وَهُوَ أطيب الأحوال؛ فإنَّ الظلمة الخالصة تُنفِّر الطَّبع وتشدُّ النظر، وشعاعُ الشمس يُسخِّن الجوَّ ويبهر البصر، ولذلك وَصف بِهِ الجنَّة، فقال: ﴿وظلٌّ مَمدود﴾[2]. ﴿ولو شاء لَجعله ساكنا﴾ ثابتا مِنَ السكنى؛ أو غير متقلِّص مِنَ السكون، بِأَن يَجعل الشمس مُقيمة عَلَى موضع وَاحِد، ﴿ثمَّ جعلنا الشمسَ عليهِ دَليلا(٤٥)﴾ فإنَّه لاَ يظهر للحسِّ حتَّى تَطلع، فيقع ضوؤها عَلَى بعض الأجرام؛ أو لاَ يوجد وَلاَ يتفاوت إِلاَّ بسبب حَرَكتها؛ أي: الشمس جُعلت دليلا عَلَى الظلِّ، ولولا النور لَمَا عُرفت الظلمة؛ والأشياءُ تُعرف بأضدادها.

---

١ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «كالمشاهَدِ».

٢ - سورة الواقعة: ٣٠.

﴿ثُمَّ قَبَضنَاه إلينا﴾ أي: أنزلنا بإيقاع الشعاع فِي مَعنَى موقعه لـمَّا عبَّر عَن إحداثه بالمدِّ، بمعنى: التسيير، عبَّر عَن إزالته بالقبض إِلىَ نفسه، الـذِي هُـوَ فِي مَعنَى الكفِّ، ﴿قَبضًا يَسيرا(٤٦)﴾ قليلا قليلا حسب مَا ترتفع الشـمس، لتنتظم بذلك مَصالح الكـون، ويتحصَّـل بـِهِ مَـا لاَ يُحصـى مِـن منـافع الخلـق. و«ثـمَّ» في الموضعين لتفـاضل الأمـور، أو لتفـاضل مبـادئ أوقـات ظهورهـا؛ وقيـل: مـدَّ الظـلَّ لـمَّا بنـى السَّمَـاء، ودَحَـى الأَرْض تَحتهـا فـالتفت عليهـا ظلّها[1]، ولو شاء لَجعله ثابتا عَلَى تلك الحال، ثُـمَّ خلَـق الشـمس عليـه دليـلا أي: مُسلـَّطا عليه، مُستتبعا إيَّـاه كما يستتبع الدليل المدلول؛ أو دليلُ الطَّريقِ[2] مَن يهديه، فإنـَّه يَتَفاوت بحركتها، ويتحوَّل بتحوُّلها، ﴿ثُمَّ قبضناه إلينـا قبضـا يسيرا﴾: شَيْـئًا فشَيْـئًا، إِلىَ أن ينتهى إِلىَ غايـة نقصانـه؛ أو قَبْضـا سـهلا عنـد قيام الساعة، بقبض أسبابه مِنَ الأجرام المظلَّة، والمظَلِّ عليها. وقيل: مَعنَـى ﴿ثُمَّ قبضناه إلينا قبضا يسيرا﴾ بالشمس التِي تأتي عليه. والقبـض: جَمـع المنبسـط مِنَ الشيء؛ وَمَعنَـاه: أنَّ الظلَّ يَعمُّ جميـع قبـل الشـمس؛ فـإذا طلعـت الشـمس فَيُقِلُّ الله الظلَّ جزءً جزءً. ﴿قَبْضًا يسيرا﴾ أي: خَفيـًّا.

﴿وَهُوَ الذِي جَعل لكـم الليـلَ لِباسـا﴾ شبـَّه ظلامـه باللبـاس فِي سـتره، ﴿والنومَ سُباتا﴾ راحةً للأبدان بقطع المشاغل؛ وأصل السبت: القطع؛ أو موتا

---

١ - كذا في الأصل، وصواب العبارة عند أبي السعود: «وقيل: إنَّ الله تعالى لَمَّا بنى السماء كالقبَّة المضروبة، ودحا الأرض تحتها، ألقت القبَّة ظلَّها عَلَى الأرض لعدم النيـر». أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص٢٢٣. وانظر نحو هَذِهِ العبارة: الزمخشري: الكشَّاف، ٢٢٣/٣.

٢ - كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «دليلٌ لِطَرِيقٍ».

كقوله: ﴿وَهُوَ الذِي يَتوفَّاكم بالليل﴾[1] لأَنَّهُ قطع الحياة، ومنه المسبوت: للمَيِّت، ﴿وجعل النهار نشورا(٤٧)﴾ ذا نشور؛ أي: انتشار ينتشر فِيهِ النَّاس للمعاش؛ أو بعث مِنَ النوم بعث الأموات؛ أو يكون إشارة إِلَى [أنَّ][2] النوم واليقظة أنموذجٌ للموت والنشور.

﴿وَهُوَ الذِي أَرسل الرياحَ بُشْرًا بَين يَدَي رحمته﴾ يعني: قدَّام المطر، ﴿وأنزلنا مِن [٤٠٩] السَّمَاء ماءً طَهورا(٤٨)﴾ توصيف[3] الماء بِهِ إشعارا بالنعمة فِيهِ، وتتميما للمِنَّة فيما بعده، فإِنَّ الماء الطهور أهنأ وأنفع مِمَّا خالطه مِمَّا يُزيل طهوريتَّه؛ وتنبيهٌ عَلَى أنَّ ظواهرهم لَمَّا كَانَت مِمَّا ينبغي أن يطهِّرها، فبواطنهم أولى. ﴿لِنُحيي بِهِ بلدةً مَيْتا﴾ بالنبات؛ وتذكير «مَيْتا» لأَنَّ البلدة فِي معنى البَلَد، ﴿وَنُسْقِيَه مِمَّا خَلَقنا أنعاما وأَنَاسيَّ كثيرا(٤٩)﴾ يعني: أهل البراري الذِينَ يعيشون بالحيا. ونكَّر الأنعام والأناسي وتخصيصهم، لأَنَّ أهل المدن والقرى يقيمون بالقرب مِنَ الأنهار والمنابع، فبهم[4] وبما خوَّلهم مِنَ الأنعام غُنية عَن سُقيا السَّمَاء، وسائر الحيوانات تبعد فِي طلب الماء، فلا

---

١ - سورة الأنعام: ٦٠.

٢ - إضافة منَّا ليستقيم المَعنَى، وَفِي تفسير أبي السعود: «وفيه إشارة إِلَى أنَّ النوم واليقظة أنموذجٌ للموت والنشور». أبو السعود: المصدر نفسه.

٣ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «وَصَفَ الماءَ...». وَفِي تفسير أبي السعود: «ووصف الماء بِهِ إشعارٌ بالنعمة فِيهِ، وتتميمٌ للمِنَّة فيما بعده... يُزيل طهوريتَّه». أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص٢٢٤.

٤ - كذا فِي الأصل، وفِي تفسير أبي السعود، ولعلَّ الأصوب: «فبها»، أي بالأنهار والمنابع.

يعوزُها الشرب غالبا، مَعَ أنَّ (لعلّـه) مساقَ هَـذِهِ الآيـَات للـدّلالات[1] عَلَى عِظم القـدرة، فهـو لِتعـداد أنـواع النعمـةِ؛ والأنـواع قنيـة[2] النّـاس، وعامّـة منافعهم، وغْلْيهُ[3] معايشهم منوطة، ولذلك قدّم سَقيها عَلَى سقيهم، كما قدَّم عليها إحياء الأَرْض، فإنّه سبب لِحياتها وتعيُّشها.

﴿وَلَقَد صَرَّفنَاه بَيْنَـهُم﴾ صرّفنا هَذَا القول بين النّاس فِي القرآن، وسـائر الكتب؛ أو المطر بَـيْنَـهُم فِي البلدان المختلفـة، والأوقـات المتغـايرة، والصفـات المتفاوتة، مِن وابل وطلّ وغيرهما. وعن ابن عـبَّاس: «مَا عام أمطـر مِـن عـام، ولكنَّ ا لله قسّم ذَلِكَ بـين عبـاده عَلَى مـن يَشَـاء»، وتـلا هَـذِهِ الآيـَة. أو فِي الأنهار والمنافع. ﴿ليذَّكَّروا﴾ ليتفكّروا ويعرفوا كمالَ القدرة، وحقَّ النعمـة فِي ذَلِكَ، ويقوموا بِشكره؛ أو ليعتـبروا بـالصرف عَنْـهُم وإِلَـيْهِم، ليتيقّنـوا عـدم حيلتهم إِذَا صُرف (لعلّه) عَـنْـهُم؛ وإذا صُرف إِلَيْهِم (لعلّه) لَعَلَّهُـم يشـكرون؛ ﴿فأبى أكثرُ الناسِ إلاَّ كُفُورا(٥٠)﴾ لكفران النعمة، وقِلّة الاكـتراث لها؛ أو جحودها بأن يقولوا: مُطِرنا بنوء كذا[4]؛ أو مَن لاَ يرى الأمطار إِلاَّ مِنَ الأنواء

---

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «للدلالة». كما عند أبي السعود: تفسير، المصدر نفسه.

٢ - «القِنوَة والقُنوة والقِنية، والقُنية: الكِسبة». ابن منظور: لسان العرب، ١٧٧/٥، مادَّة: «قنا».

٣ - كذا فِي الأصـل، مـع الشـكل، ولا مَعنـَى لـه، وَفِي تفسـيرَيْ أبـي السـعود والألوسـي: «وعامَّة منافعهم ومعايشهم منوطة بها». أبو السعود: المصـدر نفسـه. الألوسـي: روح المعاني: ٣١/١٩.

٤ - إشارة إِلى الحديث الذي رواه الإمام الربيع بن حبيب عن أبي عبيدة عن جـابر بـن زيـد قال: بلغني عن رسول ا لله ﷺ أنـّه صلّى بأصحابه صلاة الصبح بالحديبيـّة فِي أثر سماء =

كَانَ كافرا؛ بِخلاف مَن يرى أنَّها مِن خلق الله؛ والأنواء وسائطٌ وأَمَاراتٌ يَجعلها الله.

﴿ولو شِئنا لبعثنا فِي كُلِّ قريةٍ نَّذيرا(٥١)﴾ نَبِيًّا يُنذر أهلها، فتخفُّ عليك أعباء النبوَّة؛ ولكن قَصرنا الأمر عليك إجلالا لك، وتعظيما لشأنك، وتفضيلا لك عَلَى سائر الرسل؛ فقابِلْ ذَلِكَ بالثبات والاجتهاد فِي الدعوة وإظهار الحق؛ أو لاجتهاد النَّاس الذِينَ لم يشاهدوا الرسول لِيَتَعَاظم الأجر لَهُم، لأَنَّهُ ليس الخبر كالمشاهدة. ﴿فلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ فيما يريدونك؛ وَهُوَ تهييج لَهُ وللمؤمنين، ﴿وجَاهِدْهُم بِهِ﴾ بالقرآن؛ وَالمَعنَى: أنَّهم مُجتهدون فِي إبطال حقك، فقاتلهم بالاجتهاد فِي مُخالفتهم، وإزاحة باطلهم اجتهادا، ﴿جِهَادا كبيرا(٥٢)﴾ لأَنَّ مُجاهدة السفَهاء بالحجج، أكثر مِن مُجاهدة الأعداء بالسيف؛ أو ينضمُّ إِلَيْهِما جهادُ النفس، ليعمَّ كُلَّ جهاد.

﴿وَهُوَ الذِي مَرَجَ البَحرَيْنِ﴾ خَلاَّهما مُتجاورين متلاصقين، بحيث لاَ يتمازجان؛ مِن مَرَجَ دابَّته: إِذَا خلاَّها، ﴿هَذَا عَذبٌ فُراتٌ﴾ قاطع [٤١٠] للعطش مِن فرط عذوبته، ﴿وهذا مِلح أُجَاج﴾ بليغ الملوحة، ﴿وجعل بينهما

=

كان من الليل فَلَمَّا انصرف من صلاته أقبل على الناس فقال: «هَلْ تَدْرُونَ مَا قَالَ رَبُّكُمْ؟»؛ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ، فأمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوَاكِبِ؛ وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤمِنٌ بِالْكَوَاكِبِ». باب [١٠] في ذكر الشرك والكفر، حديث رقم ٦٢.

**بَرزَخا﴾** حاجزا مِن قدرته، **﴿وحِجْرا مَحجورا(٥٣)﴾** تنافرا بليغا، كأنَّ كلاًّ منهما يقول للآخر مَا يقوله المتعوِّذ مِنْهُ؛ وقيل: حدًّا مَحدودا، وذلك كدجلة تَدخل البحر فتشقُّه، فتجري فِي خلاله فراسخ لاَ يتغيَّر طعمها؛ وقيل: المـُرَاد بالبحر العذبِ: النهر العظيم، مثل: النيل، وبالبحر الملح: البحر الكبير؛ وبالبرزخ: مَا يحول بينهما مِنَ الأَرْض، فتكون القدرة فِي الفصل، واختلاف الصفة، مَعَ أنَّ مُقتضى طبيعة إجراء كُل عنصرات[1] تضامَّت وتلاصقت وتشابهت فِي الكيفيَّة.

**﴿وَهُوَ الذِي خَلَق مِنَ الماء بَشرا، فجعله نَسَبا وصهرا﴾** أي: قسَّمه قسمين، ذوي نسب، أي: ذكورا ينتسب إِلَيْهِم، وذوات صهر، أي: إناثا يصاهر بهنَّ، كقوله: ﴿فجعل منه الزوجين الذكرَ والأنثى﴾[2]؛ وقيل: النسب مَن لاَ يَحلُّ نكاحه، والصهر ما يحلُّ نكاحه، **﴿وكَانَ رَبـُّكَ قديرا(٥٤)﴾** حيث خلق مِنَ مادَّة وَاحِدَة بشرا ذا أعضاء مختلفة، وطباع متباعدة، وجعله قسمين متماثلين؛ وربَّما يَخلق من نطفة وَاحِدَة توأمين ذكرا وأنثى.

**﴿ويعبدون مِن دون ا لله مَا لاَ ينفعهم وَلاَ يضرُّهم﴾** يعني: الأصنام؛ وَهُوَ يعمُّ كلَّ مَا عُبد مِن دون ا لله، إذ مَا من مَخلوق يستقلُّ بالنفع والضر، **﴿وكَانَ الكافرُ عَلَى رَبـِّه ظهيرا(٥٥)﴾** يظاهر الشيطان بالعداوة والشرك؛ وَالمـُرَاد بالكافر: الجنس، مُعِينا للشيطان عَلَى معصية ا لله.

١ - كذا فِي الأصل، والصواب ما ذكره أبو السعود: «مَعَ أنَّ مُقتضى طبيعة كُل عنصر التضامُّ والتلاصق والتشابه فِي الكيفيَّة».

٢ - سورة القيامة: ٣٩. فِي الأصل: «وجعل...»، وهو خطأ.

﴿وَمَا أرسلناك إِلاَّ مبشِّرا ونذيرا(٥٦)﴾ للمؤمنين والْكَافِرِينَ. ﴿قل: مَا أَسأَلكم عليه﴾ عَلَى التبليغ الذِي يَدلُّ عليه: «إِلاَّ مُبشرا ونذيرا»، ﴿مِن أجر إِلاَّ مَن شاء﴾ إِلاَّ فِعل مَن يَشَاء ﴿أن يتَّخذ إِلَى رَبِّه سبيلا(٥٧)﴾ أن يتقرَّب إِلَيْهِ، ويطلب الزلفى عنده بالإِيمان والطَّاعة؛ فصوَّر ذَلِكَ بصورة الأجر مِن حيث أنَّه مقصود فعله؛ وقيل: الاستثناء منقطع، معناه: لكن مَن شاء أن يتَّخذ إِلَى رَبه سبيلا فليفعل.

﴿وتوكَّل عَلَى الحيِّ الذِي لاَ يَموت﴾ فِي استكفاء شرورهم، والإِغناء عَن أجورهم، فإِنَّه الحقيق بأن يُتَوَكَّل عليه، دون الأحياء الذِينَ يموتون، فَإِنَّهُم إِذَا ماتوا ضاع مَن توكَّل عَلَيْهِم، ﴿وسبِّح بحمده﴾ ونزهه عَن صفاتِ النقصان مُثنيا عليه بأوصاف الكمال، طالبا لمزيد الإِنعام بالشكر عَلَى سوابغه، ﴿وكفى بِهِ بذنوب عِبادِه﴾ ما ظَهَر منها وَمَا بطن، ﴿خبيرا(٥٨)﴾ مطَّلعا؛ فما عليك إِن آمنوا أو كَفَرُوا.

﴿الذِي خَلَق السَّمَاوَات والأَرْض وَمَا بينهما فِي ستَّة أَيَّام، ثُمَّ استوى عَلَى العرش﴾ سَبَق الكلامُ فِيهِ؛ ولعلَّ ذكرَه زيادةُ تقرير لكونه حقيقًا بِأن يُتَوَكَّلُ عليه مَن حيث أنَّه الخالق للكل، والمتصرف فِيهِ؛ وتحريضٌ عَلَى الثبات والتأني فِي الأمر، فإِنَّه تعالى مَعَ كمال قدرته، وسرعة نفاذ أمره فِي كلِّ مراد، خلق الأشياء عَلَى تُؤدَة وتدرُّج، ﴿الرحمنُ، [٤١١] فاسأل بِهِ خبيرا(٥٩)﴾ عمَّا ذكر مِنَ الخلق والاستواء عالما يخبرك بحقيقته، وَهُوَ الله تعالى، أو جبريل، أو من وجده فِي الكتب المتقدمة، ليصدُّقك فِيهِ؛ وقيل: الضمير للرحمن،

والمَعنَى: إن أنكروا إطلاقه عَلَى ا لله فاسأل عَنْهُ مَن يُخبرك من أهل الكتاب، لتعرفوا مجيء مَا يُرادفه فِي كتبهم.

**﴿وإذا قيل لَهُم: اسجدوا للرحمن، قَالُوا: وَمَا الرحمن﴾؟** لأَنَّهُم مَا كَانُوا يطلقونه عَلَى ا لله؛ أو لأَنَّهُم ظنُّوا أنَّه غيره[1]، أو لأَنَّهُم نَفَوا الإلهية، كقوله: ﴿وَهُم يكفرون بالرحمن﴾[2]، [ولذلك] قَالُوا: **﴿أنسجُدُ لِمَا تأمرنا﴾**؟ أي: الذِي تأمرناه[3]، يعني: تأمرنا بسجوده؛ أو لأمرك النَّاس من غير عرفان؛ وقرئ: بالياء عَلَى أنَّه قول بعضهم لبعض، **﴿وزادهم﴾** أي: الأمر بالسجود **﴿نفورا ٦٠﴾** عَن الإيمان؛ وفيه دليل عَلَى أنَّ السجود هُوَ الإذعان والانقياد، لقوله: ﴿وزادهم نفورا﴾ عَن[4] نفورهم المتقدم.

**﴿تبارك الذِي جَعَل فِي السَّمَاء بُروجا﴾** يعني: البروج (لعلَّه) الإثنا عشر؛ سُميت بِهِ، وهي القصور العالية، لأَنَّهَا للكواكب السائرة السيَّارة، كالمنازل لسكَّانها، واشتقاقها مِنَ البرج: وَهُوَ الظهور. **﴿وجعل فِيهَا سِراجا وقمرا منيرا(٦١) وَهُوَ الذِي جعل الليل والنهار خِلْفَة﴾** أي: ذوي خلفة يَخلف كلٌّ منهما الآخر، بأن يقوم مقامه فيما ينبغي أن يعمل فِيهِ؛ أو بأن

---

١ - فِي الأصل: + «ولذلك»، وهو خطأ، فالصواب تأخيرها إِلَى ما قبل قوله: «قالوا: ﴿أنسجد لِمَا تأمرنا﴾»، كما فِي أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص٢٢٧.

٢ - سورة الرعد: ٣٠.

٣ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «تأمرنا به».

٤ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «على».

يعتقبا، لقوله: ﴿واختلاف الليل والنهار﴾[1]. ﴿لِمَن أَرَادَ أن يذّكر﴾ أن يتذكّر آلاء الله، ويتفكّر فِي صنعه، فيعلم أنّه لاَ بُدَّ لَهُ من صانع حكيم، واجب الذّات، رحيم عَلَى العباد، ﴿أو أَرَادَ شُكُورا(٦٢)﴾ أن يشكر الله تعالى عَلَى مَا فِيهِ مِنَ النعم؛ أو ليكونا وقتين للذاكرين والشاكرين، من فاته وِردُه فِي أحدهما تَدَاركه فِي الآخر.

﴿وعِبَادُ الرحمن الذِينَ يَمشون عَلَى الأَرْض﴾ وإضافتهم إِلىَ الرحمن للتخصيص والتفضيل؛ أو لأنّهُم الرّاسخون فِي عبادته، ﴿هونا﴾ هينين؛ أو مشيًا هينًا؛ والمَعنَى: أنّهم يَمشون سكينة وتواضعا عَلَى هيأتهم لاَ يسرعون، وذلك مِنَ الأخلاق الحسنة، وَهُوَ من أخلاق الصّالحين، ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون، قَالُوا: سلاما(٦٣)﴾ تسليما لكم ومباركة لَهُم؛ لاَ خير بيننا وبينكم وَلاَ شرّ؛ أو سَدادا مِنَ القول تَسلَمون فِيهِ مِنَ الإيذاء والإثم، وَلاَ تنافية آية القتال لتنسخه؛ فإِنَّ المُرَاد بِهِ هُوَ: الإغضاء عَن السفهاء، وترك مقابلتهم فِي الكلام بِمَا لاَ ينفع، اشتغالا عَمّا ينفع.

﴿وَالذِينَ يَبيتون لِرَبِّهِمْ سُجَّدا وقياما(٦٤)﴾ فِي الصلاة؛ وتخصيص البيتوتة لأَنَّ العبادة بالليل أضمن، وأبعد مِنَ الرياء؛ وقيل: مَن صلّى ركعتين بالليل، عمّه تأويل هَذِهِ الآيَة. قَالَ أبو سعيد: «التأويل فيما يقال فِي هَذِهِ الآيَة: القيام آخر الليل؛ قَالَ: ويقال: إنَّ مَن صلّى ركعتين لحقتة الآيَة». وَالله أعلم بذلك.

---

١ - سورة البقرة: ١٦٤؛ وسورة آل عمران: ١٦٠؛ وسورة الجاثية: ٥.

**﴿وَالذِينَ يقولون: رَبـَّنَا اصرِف عَنـَّا عـذابَ جَهَنـَّم إنَّ عَذابهـا كَـانَ غَراما(٦٥)﴾** [٤١٢] مُلازما؛ ومنه الغريم، لملازمته؛ وَهُوَ إيـذان بأنـَّهم مَـعَ حسن مُخالقتهم مَعَ الخلق واجتهادهم فِي عبـادة الحق، وَجِلُون مِنَ العـذاب، مبتهلون إِلىَ ا لله فِي صرفه عَنـْهُم، لعـدم اعتدادهـم بأعمـالهم، ووثوقهـم عَلَـى استمرار أحوالهم؛ قيل: الغريم: الشرُّ الدائم، والعذاب والهلاك. **﴿إنـَّهَا سـاءت مُستقرًّا ومُقَاما(٦٦)﴾** أي: بئسَت مُستقرًّا ومقامـةً.

**﴿وَالذِينَ إِذَا أَنفقوا لَم يُسرفوا﴾** لم يجاوزوا حدَّ الكـرَمِ، **﴿ولم يَقتُرُوا﴾** و لم يُضيقوا تضييق الشَّـحيح؛ وقيل: الإسراف: هو الإنفـاق فِي المحارم، والتَّقـتِيـر: منع الواجب. (لَعَلَّهُ) ويروى عَن أُبيٍّ: «سبـَّب فِي هَذِهِ الآيَة أولئك أصحاب محمـَّد ﷺ، كَانُوا لاَ يأكلون طعـامًا للتـَّنعُّم واللذَّة، وَلاَ يلبسون ثوبا للجمال، ولكن كَانُوا يريدون مِنَ الطعام مَا يَسُدُّ عَنـْهُم الجوع، ويقويهـم عَلَى عبـادة ا لله؛ ومـن الثـيَاب مَـا يستر عوراتهم وَمَا يُكنـُّهم مِنَ الحر والبرد». **﴿وكَانَ بين ذَلِكَ قَوَاما(٦٧)﴾** وسطا وعدلا سُمي به لاستقامة الطرفين، كما سُـمي «سويٌّ» [1] لاستوائهما؛ وقـرئ: بالكسـر، وَهُوَ مَا تُقام بِهِ الحاجة، لاَ فضل يفضل عنها، وَلاَ ينقص.

**﴿وَالذِينَ لاَ يَدعون مَعَ ا لله إلها آخر﴾** لاَ يعبدون هواهـم مـن دون ا لله، **﴿وَلاَ يَقتلون النفسَ التِي حـرَّم ا لله إِلاَّ بِالْحـَقِّ وَلاَ يَزنـُون﴾** نفـى عَنـْـهُم أمـَّهات المعاصي بعد مَا أثبت لَهُم أصول الطَّاعـات، إظهـارا لكمـال إيمـانهم،

---

١ - ويمكن أن نقرأ: «سُوًى»، إشارة إِلى قوله تعالى: ﴿فاجعلْ بيننا وبينَك مَوعِدًا لا نُخلِفُـه نحن ولا أنتَ مَكانا سُوًى﴾. سورة طـه: ٥٨.

وإشعارا بِأَنَّ الأجر المذكور موعود للجامع بين ذَلِكَ، وتعريضا للكفرة بأضداده، ولذلك عقبه الوعيد تهديدا لَهُم فقَالَ: ﴿ومَن يَفعل ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاما(٦٨)﴾ جزاءَ إثم، أو آثما بإضمار الجزاء؛ وقيل: «أثاما» وادٍ فِي جهنَّم، ﴿يُضاعَف لَهُ العذاب يومَ القيامة ويَخلُد فِيهِ مُهَانا(٦٩)﴾ (لعلَّه) استحقُّوا تضعيف العذاب بتركهم المأمور بِهِ، وارتكابهم المنهي عَنْهُ.

﴿إلاَّ مَن تابَ وآمن وعمل عملا صالحا، فأولئك يُبدِّل ا لله سَيِّئاتهم حسناتٍ﴾ بأن يَمحو سوابق معاصيهم بالتوبة، ويثبت مكانها لَواحق الطَّاعات؛ أو يبدل ملكة المعصية فِي النفس بملكة الطَّاعة؛ وقيل: بأن يُوفقه لأضداد مَا سلف مِنْهُ؛ أو بأن يثيب لَهُ بدل كُل عقاب ثوابا؛ ويحتمل فِي تأويل قوله تعالى: ﴿فأولئك يُبدل ا لله سيئاتهم حسنات﴾ أي: يُبدل ا لله سيئاتهم، أي: أعمالهم السيئة، ﴿وكَانَ ا لله غَفُورا رَحيما(٧٠)﴾ فلذلك يَعفو عَن السيئات، ويثيب عَلَى الحسنات. ﴿ومَن تَاب﴾ عَن المعاصي بتركها، والنَّدم عليها، ﴿وعمل صالحا﴾ يتلافَى بِهِ مَا فرط؛ أو خرج عَن المعاصي، ودخل فِي الطَّاعة، ﴿فإنَّه يتوب إِلَى ا لله﴾ يرجع إِلَى ا لله بذلك ﴿متابا(٧١)﴾ مرضيًّا عند ا لله مَاحيا للعقاب، مُحصلا للثواب.

﴿وَالذِينَ لاَ يَشهدون الزور﴾ بلسان مقالهم، وَلاَ لسان حالهم؛ وأصل الزُّور: تَحسين الشيء ووضعه عَلَى [٤١٣] خِلاف صنعته، فهو تمويه الباطل[1]؛ ﴿وإذا مَرُّوا باللغو﴾ مَا يَجب أن يلقى ويطرح، ولو من لسان

١ - هنا وضع الناسخ إحالة إِلى الحاشية و لم يكتب فيها شيئًا. وَلَعَلَّ في العبارة نقصا.

وساوسهم، وخيال أفكارهم، وكَذُوب أمانيهم، ﴿**مَرُّوا كِرَامـا(٧٢)**﴾ مُعرضين عَنْهُ، مكرمين أنفسهم عَن الوقوف عليه، والخوض فِيهِ، والاشتغال بِهِ؛ ومن ذَلِكَ الإغضاء عَن الفواحش، والصفح عَن الذنوب. والكناية عَمَّا يُستهجن التصريح بِهِ.

﴿**وَالذِينَ إِذَا ذُكِّروا بِآيَاتِ ربِّهم**﴾ بالوعظ والقراءة، وقيام الحجَّة من حيثمَا كَانَت، ﴿**لم يَخِرُّوا عليها صُمًّا وعُميانا(٧٣)**﴾ لم يقيموا عليها غير واعين لها، ولا متبصرين بِمَا فِيهَا، كمن لاَ يسمع وَلاَ يبصر؛ بَل أكبُّوا عَلَيها سامعين بآذان واعية، مبصرين بعيون (لعلّه) راعية.

﴿**وَالذِينَ يقولون: رَبَّنَا هَبْ لَنَا من أزواجنا وذرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أعين**﴾ بتوفيقهم للطَّاعَة، وحيازة الفضائل؛ فإنَّ المؤمن إِذَا شاركه أهله فِي طاعة الله سرَّ بِهِم قلبه، وقرَّت بِهِم عينه، لِمَا يرى من مساعدتهم لَهُ فِي الدين؛ وَلاَ تقرُّ عين المؤمن إلاَّ بالطَّاعَة، بَل يتأذَّى قلبه بالمعصية، وخاصَّة مِنَ الأقارب؛ لأَنَّهُم يكونون فِي الدُّنْيَا مُشاققين معادين لَهُ، وفي الآخِرَة خائف عَلَيْهِمُ العذاب، كما قَالَ إبراهيم عليه السَّلام: ﴿يا أبت إِني أخاف أن يَمسَّك عذابٌ...﴾[1] الآيَة، وقول نوح لابنه: ﴿يا بُنَيَّ اركب معنا وَلاَ تكن معَ الْكَافِرِينَ﴾[2]. ﴿**واجعلنا للمتَّقين إماما(٧٤)**﴾ يَقتدون بنا فِي أمر الدين، بإضافة العلم والتوفيق للعمل، كأنَّهم

---

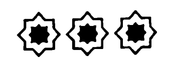
١ - سورة مريم: ٤٥؛ وتمامها: ﴿...أن يَمسَّك عذابٌ مِنَ الرحمن فتكون للشيطان وليًّا﴾.

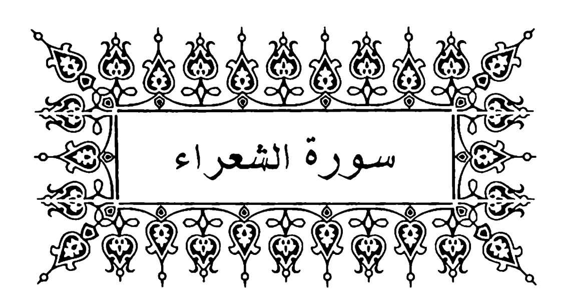
٢ - سورة هود: ٤٢.

يريدون المسابقة والمسارعة إِلىَ الخير، لأَنَّ السابق جدير بأن يُقتدى بِهِ اقتداء بالرسول؛ فيكون لَهُم أجر المسابقة، وأجر من اقتدى بهم.

﴿**أُولَـئِكَ يُجزون الغرفةَ**﴾ أعلا موضع فِي الجنَّة، ﴿**بِمَا صَبَروا**﴾ بصبرهم عَلَى المشاق مِن مضض الطَّاعَات، ورفض الشهوات، وتَحمُّل المجاهدات، ﴿**ويُلَقَّون فِيهَا تَحيَّة وسلامًا(٧٥)**﴾ دعاء بالتعمير والسلامة؛ أي: يُحييهم المَلاَئِكَة ويُسلِّمون عليهم، أو يُحيي بعضهم بعضا، ويسلِّم عليه؛ أو ببقاء دائم وسلامة مِن كُل آفة. ﴿**خالدين فِيهَا**﴾ لاَ يَموتون وَلاَ يحزنون، ﴿**حَسُنَت مُستقرًّا ومُقاما(٧٦)**﴾ مقابل «ساءت مستقرًّا».

﴿**قل مَا يَعْبَؤُا بِكُم رَبِّي**﴾ مَا يصنع بكم ربي، مِن عَبَّأت الجيش: إِذَا هيَّأته، ﴿**لولا دُعاؤكم**﴾ لولا عبادتكم؛ فإِنَّ شرف الإنسان وكرامته بالمعرفة والطَّاعة، وَإِلاَّ فهو وسائر الحيوانات سواء، ﴿**فقد كذَّبتم**﴾ بِمَا أُخبركم بِهِ حيث خالفتموه، ﴿**فسوف يَكون لِزاما(٧٧)**﴾ جزاء التكذيب لازما يَحيق بكم لاَ مَحالة، فإِنَّ أثره لازم بكم حتَّى يَكُبَّكِم بِهِ فِي النار.





بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسم(١) تلك آيات الكتاب الْمُبِين(٢)﴾ الظاهر إعجازه وصحَّته، والإشارة إِلَى السُّورة، أو القرآن.

﴿لعلَّك باخعٌ نَفسك﴾ قاتل نفسك؛ وقرئ: «باخعُ نفسِك» بالإضافة، و«لعلَّ» للإشفاق، [٤١٤] أي: اشفق عَلَى نفسك أن تَقتلها، ﴿ألاَّ يكونوا مؤمنِين(٣)﴾ لئلاَّ يُؤمنوا؛ أو خيفة أن لاَ يؤمنوا؛ وذلك أنَّه لـمَّا كذَّبه أهل مكَّة شقَّ عليه، فأعلمه الله تعالى أنَّه لو شاء لاضطرَّهم. ﴿إن نَّشأ نُنزل عَلَيْهِم مِنَ السَّمَاء آيَة﴾ دلالة مُلجئه إِلَى الإيمان، ﴿فظلَّت أعناقهم لها خاضعِين(٤)﴾ منقادين يذلُّون لها، فلا يَلوِي أحد مِنْهُم عُنقه إِلَى معصية الله. ﴿وَمَا يَأتيهم مِن ذِكر﴾ موعظة؛ أو طائفة مِنَ القرآن ﴿مِن الرحمن﴾ بوحيه إِلَى نبيِّه، ﴿مُحدث﴾ مُجدَّد إنزاله، لتكرير التذكير وتنويع التقرير؛ ويدخل في ذَلِكَ الآيات الإهاميَّة[1] والسماويَّة والأَرْضية، إِذَا قامت عليه حجَّتها لمعرفتها، ﴿إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعرضِين(٥)﴾ إِلاَّ جدَّدوا إعراضا عَنْهُ،

١ - لم أجد فيما بين يديَّ من مصادر اللغة والتفسير مَعنًى لِكلمة «إِهام».

وإصرارا عَلَى مَا كَانُوا عليه. ﴿فقد كذَّبوا﴾ بالذكر بعد إعراضهم، فأمعنوا فِي تكذيبه، بحيث أدَّى بهم إِلىَ الاستهزاء بِهِ، المخبر به عَنْهُم ضمنا فِي قوله: ﴿فسيأتيهم أنباء﴾ أخبار وعواقب ﴿مَا كَانُوا بِهِ يستهزءُون(٦)﴾ مِن أنَّه كَانَ حقًّا أم باطلا، وكَانَ حقيقا بأن يُصدَّق ويُعظَّم قدره، فصاروا بالإعراض والكذب مستهزئين.

﴿أولم يَرَوا إِلَى الأَرْض﴾ أو لم ينظروا إِلىَ عجائبها، ﴿كم أنبتنا فِيهَا مِن كُل زوج﴾ صنف ﴿كريم(٧)﴾ مَحمود كثير المنفعة؛ وَهُوَ صفة لِكُلِّ مَا يُحمد ويُرضى؛ وههنا يحتمل أن تكون مفيدة لِمَا تتضمَّن الدلالة عَلَى القدرة؛ وأن تكون مبيِّنة منبِّهة عَلَى أنَّه مَا من نبت إلاَّ وله فائدة، إمَّا وحده أو مَعَ غيره؛ و«كلّ» لإحاطة الأزواج؛ و«كم» لكثرتها. ﴿إن فِي ذَلِكَ﴾ إنَّ فِي إثبات تلك الأصناف، أو فِي كُلِّ وَاحِدَة ﴿لآية﴾ عَلَى أنَّ مُنبتَها تامُّ القدرة والحكمة، سابغ النِّعمة والرَّحمة، مستحقٌّ للحمد والشُّكر؛ وهذه الآيَة مِن آيات القرآن...[1]، ﴿وَمَا كَانَ أكثرهم مؤمنِين(٨)﴾ فِي علم الله وقضائه؛ فلذلك لاَ تنفعهم أمثال هَذِهِ الآيات العظام. ﴿وإنَّ رَبَّكَ لَهو العزيز﴾ الغالب القادر عَلَى الانتقام مِنَ الكفرة، ﴿الرحيم(٩)﴾ حيث أمهلهم؛ أو العزيز فِي انتقامه مِمَّن كفر؛ الرَّحيم لِمَن تاب وآمن.

﴿وإذ نَادى رَبُّكَ موسى: أن ائتِ القومَ الظالِمين(١٠) قَوم فرعونَ ألاَ يتَّقُون(١١)﴾ ألا يصرفون عَن أنفسهم عقوبة الله بطاعته.

١ - يبدو أنَّ فِي العبارة نقصا، إذ أين هو خبرُ قوله: «وهذه الآيةُ»؟.

﴿قَالَ: رَب إِنِي أخاف أن يُكذِّبون(١٢) ويضيق صدري﴾ بسبب تكذيبهم إيَّاي، ﴿وَلاَ يَنطَلِق لِساني﴾ فإنَّ انطلاق اللِّسان عَلَى قَدْر وسع الصَّدر؛ ﴿فأرسل إِلَىَ هارُون(١٣)﴾ (لَعَلَّهُ) كأنَّه رآه مُستأهلا للرِّسالة بوجود صفات [فيه]. ﴿ولَهم عليَّ ذنب﴾ إنَّمَا سمَّاه ذنبا عَلَى زعمهم، ﴿فأخاف أن يقتلونِ(١٤)﴾ قوله ذَلِكَ ليس تَعلُّلا، إنَّمَا هُوَ استدفاع للبليَّة المتوقَّعة.

﴿قَالَ كلاَّ﴾ (لَعَلَّهُ) بالذَّهاب كِلَيهما، ويكون المقدَّم فِي الرسالة موسى، وهارون (لَعَلَّهُ) [٤١٥] وزيرا لَهُ، ﴿فاذهبا بآيَاتِنا إنَّا[1] معكم مُّستمعُون(١٥) فَأتيا فرعون فقولا: إنَّا رسولُ رَب الْعَالَمِين(١٦) أَن أرسل معنا بَنِي إِسْرَائِيلَ(١٧)﴾.

﴿قَالَ: أَلم نُرَبكَ فينا﴾ فِي منازلنا ﴿وليدا﴾ سُمِّيَ بِهِ لقربه مِنَ الولادة؛ أقبل بخطابه لموسى دون هارون، لأَنَّهُ هُوَ المقدَّم فِي الرِّسالة؛ أو مِن قِبَل الغيظ الكامِن عليه، ﴿ولبثْتَ فينا مِن عُمرك سنِينَ(١٨) وفعلتَ فَعلَتك الَتِي فَعلتَ وأنت مِنَ الْكَافِرين(١٩)﴾ بنعمتي.

﴿قَالَ: فَعَلتُها إذًا وأنا مِنَ الضالِّين[2](٢٠)﴾ المَعنَى: مِنَ الفاعلين فعل أولي الجهل والسفَه. ﴿ففررتُ منكم لَمَّا خِفتكم، فَوَهَب لِي رَبي حُكمًا﴾ حكمةً، ﴿وجعلني مِنَ المرسلِين(٢١)﴾ فيالها مِن هِبة مَا أعظمها!. ﴿وتلك نعمةٌ تَمُنُّها عليَّ أن عبَّدت بَنِي إِسْرَائِيلَ(٢٢)﴾ أي: وتلك التربية نعمة تَمنُّها عَلَيَّ ظاهرًا وهي فِي الحقيقة تعبيدك بَنِي إِسْرَائِيلَ.

---

١ - فِي الأصل: «إنَّما»، وهو خطأ.

٢ - فِي الأصل: «الظالمين»، وهو خطأ.

﴿قَالَ فرعون: وَمَا رَبُّ الْعَالَمِين(٢٣)﴾؟ لـمَّا سَمع جواب مَا طعن بِهِ فِيهِ، ورآى أنـَّه لم يرعو بذلك شرع فِي الاعتراض عَلَى دعواه؛ فبدأ بالاستفسار عَن حقيقة المرسِل.

﴿قَالَ: رَبُّ السَّمَاوَات والأَرْض وَمَا بينهما﴾ عرَّفه بأَظهَر خواصِّه وآثاره، لـمَّا امتنع تعريف الأفراد إلاَّ بذكر الخواصِّ والأفعال، وَإِلَيْهِ أشار بقوله: ﴿إن كُنتُم مُوقنِين(٢٤)﴾ أي: إن كنتم موقنين الأشياء، مُحقِّقين لها علمتم أنَّ هذه[1] الأجرام المحسوسةَ مُمكنةٌ لتركيبها وتعدُّدها، وتغيُّر أحوالها، فلها مبدأٌ واجبٌ لذاته. قَالَ أهل المَعاني: أي كَما تُوقنون هَذِهِ الأشياء التِي تُعاينوها، فأيقنوا أنَّ لَهُ الخلق، هُوَ الله عزَّ وجلَّ[2].

﴿قَالَ لِمَن حوله: ألاَ تستمعُون(٢٥)﴾ وذلك من قول فرعون لِمَن حوله يتكلَّم بكلام مَن لاَ عقل لَهُ؛ لاَ يعقله وَلاَ يَعرف صحَّته. ﴿قَالَ﴾ موسى مُفهما لَهُم، ومُلزما للحجَّة عَلَيْهِم، ﴿رَبُّكُم وربُّ آبائكم الأَوَّلِين(٢٦) قَالَ﴾ فِرعون: ﴿إنَّ رَسولكم الذِي أُرسل إليكم لَمجنُون(٢٧)﴾ إِلَى[3] زعمه ودعواه.

﴿قَالَ: رَبُّ المشرق والمغربِ وَمَا بينهما﴾ (لَعَلَّهُ) يُشاهدون كلَّ يوم أنـَّه يأتي بالشمس مِنَ المشرق، ويحرِّكها عَلَى مَدَار غير مَدَار اليوم الذِي قَبلَه،

---

١ - فِي الأصل: «لهذه»، ولا مَعنَى له.

٢ - كذا فِي الأصل، ويبدو أنَّ الصواب: «فأيقنوا أنَّ لَها خالقًا، هُوَ الله عزَّ وجلَّ». أو: «فأيقنوا أنَّ مَنْ لَهُ الخلقُ هُوَ الله عزَّ وجلَّ».

٣ - هنا وضع الناسخ إحالة إِلَى الحاشية وكتب فيها: «لَعَلَّهُ». والصواب: «فِي».

حتَّى يبلغها إِلَى المغرب عَلَى وجه نافع، تنتظم بِهِ أمور الكائنات، **﴿إن كُنتُم تعقلُون(٢٨) قَالَ﴾** فرعون حين لزمته الحجَّة، (لَعَلَّهُ) وانقطع عَن الجواب تكبُّرًا عَن الحقِّ: **﴿لَئِن اتَّخَذت إلها غيري لأجعَلنَّك مِنَ المسجونِين(٢٩)﴾** عُدولا إِلَى التهديد عَن المحاجَّة بعد الانقطاع، وهكذا ديدن المعاند المحجوج.

**﴿قَالَ: أَوَلَو جئتُك بشيء مُبِين(٣٠)﴾** بحجَّةٍ بيِّنة؛ وإنَّما قَالَ ذَلِكَ موسى، لأَنَّ مِن أخلاق النَّاس السكون إِلَى الإنصاف، والإجابة إِلَى الحقِّ بعد البيان. **﴿قَالَ: فَأْت بِهِ إن كنتَ مِنَ الصادقِين(٣١)﴾**.

**﴿فألقى عَصَاه، فإذا هِيَ ثعبان مُبِين(٣٢) ونزعَ يَدَه، فإذا هِيَ بيضاء** [٤١٦] **للنَّاظِرِين(٣٣) قَالَ: للملإ حوله إنَّ هَذَا لَسَاحر عليم(٣٤)﴾** فائق فِي علم السِّحر. **﴿يُريد أن يُخرجكم مِن أرضكم بسحره، فماذا تأمرُون(٣٥)﴾**؟ بهره سلطان المعجزة، حتَّى حطَّه عَن دعوى الربوبيَّة، إِلَى مؤامرة القوم وائتمارهم، وتنفيرهم عَن موسى، وإظهار الاستشعار عَن ظهوره، واستلائه عَلَى ملكه[1].

**﴿قَالُوا: أَرجِه وأخاه﴾** أخِّر أمرهما، **﴿وابعث فِي المدائن حاشرِين(٣٦) يأتوك بِكُل سحَّار[2] عليم(٣٧) فَجُمِع السحرة لِميقات يوم معلوم(٣٨)**

---

١ - كذا فِي الأصل، وَفِي العبارة خلل واضح، وَفِي تفسير أبي السعود صوابها: «وأظهَرَ استشعارَ الخوفِ من استيلائه عَلَى ملكه، ونسبةُ الإخراجِ والأرضِ إِلَيهم لتنفيرهم عن موسى عليه السلام». أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص٢٤١. وانظر: الألوسي: روح المعاني: ٧٦/١٩.

٢ - فِي الأصل: «ساحر»، وهو خطأ.

**وقيل للناس: هل أَنتُم مجتمِعُون(٣٩) لَعَلَّنا نتَّبع السحرةَ إن كَانُوا هُمُ الغالبِين(٤٠)**﴾؟ لأَنَّ اتِّباعهم أشهى مِن اتِّباع موسى وأخيه، ومقصودهم الأصليُّ ألاّ يتّبعوا موسى، وإن قامت لَهُ الحجَّة.

﴿**فلَمَّا جاء السحرةُ، قَالُوا لفرعون: أَئِنَّ لَنَا لأجرا إن كُنَّا نَحْنُ الغالبِين(٤١)**﴾ لأَنَّ ديدن أهل الدُّنْيَا لاَ يَعْمَلُونَ إلاَّ بالجعالة لها، وأهل الآخِرَة يَعْمَلُونَ للآخرة، والذين هم فارطون منهما جميعا، لاَ يَعْمَلُونَ لشيء، وَلاَ فِي شيء. ﴿**قَالَ: نعم وَإِنَّكُم إِذًا لَمن المقرَّبين(٤٢)**﴾ وَعَدهم بالجاه، لأَنَّهُ أملك بالأحوال معهم.

﴿**قَالَ لَهُم موسى: ألقوا مَا أَنتُم مُلقُون(٤٣)**﴾ لَم يُرِدْ به[1] أَمْرَهم بالسِّحر والتمويه، بَل الأدبَ فِي تقديم مَا هُم فاعلوه لاَ مَحالة، توسُّلا بِهِ إِلَى إظهار الحقِّ. ﴿**فأَلقَوْا حبالهم وعِصِيَّهُم، وَقَالُوا: بعزَّة فرعون إنَّا لنحن الغالبُون(٤٤) فألقى موسى عصاه، فإذا هِيَ تَلَقَّف مَا يأفكُون(٤٥)**﴾ مَا يقلبونه بتمويههم وتزويرهم.

﴿**فَأُلقِيَ السحرةُ ساجدِين(٤٦)**﴾ لعلمهم بِأَنَّ مثله لاَ يأتي بالسِّحر؛ وفيه دليل عَلَى أَنَّ منتهى السِّحر تَمويه وتزويق يخيِّل شَيْئًا لاَ حقيقة لَهُ. ﴿**قَالُوا: آمنا برَب الْعَالَمِين(٤٧) رَب موسى وهارُون(٤٨) قَالَ: آمنتم لَهُ قبل أن آذن لَكم إِنَّهُ لَكَبيركم الذِي علَّمكم السحرَ**﴾ أَرَادَ بِهِ التلبيس عَلَى

١ - في الأصل: «بهم»، وهو خطأ.

قومه، كيلا يعتقدوا أنّهم آمنوا عَن بصيرة، وظهور حقٍّ، ﴿**فلسوف تَعْلَمُونَ؛ لأُقَطِّعنَّ أيديَكم وأرجلَكم من خِلاف، ولأُصلِّبنَّكم أجمعِين(٤٩)**﴾.

﴿**قَالُوا: لاَ ضَيْرَ**﴾ لاَ ضَرَر علينا؛ وذلك لأَنَّهُ لاَ يَضرُّهم مَا ينالهم مِنَ الضُّر فِي دنياهم، لأَنَّهُم عَلَى حقيقة مِنَ الأمر، ولو أنّهم عَلَى العكس لضرّهم أقلُّ مِن ذَلِكَ، إذ يكون عَلَيْهِم عذابا، لأَنَّهُم لاَ يبتغون بِهِ ثوابا، ﴿**إنَّا إلَى رَبِّنَا مُنقلبُون(٥٠)**﴾ لأَنَّهُ لم يكن دائما، كما قَالُوا: ﴿إنَّمَا تقضِي هَذِهِ الحياةَ الدُّنْيَا﴾[1]. ﴿**إنَّا نطمع أن يَّغْفِر لَنَا رَبُّنَا خطايانا أن كُنَّا أَوَّلَ المؤمنِين(٥١)**﴾ أوَّلَ مَن آمن بموسى.

﴿**وأوحينا إلَى موسى أَن أسرِ بعبادي إنَّكُم مُتَّبعُون(٥٢)**﴾ يتبعكم فرعون وجنوده. (لَعَلَّهُ) قيل: خرج فرعون فِي الكرسيِّ العظيم. ﴿**فأَرسَلَ فرعونُ فِي المدائن حاشرِين(٥٣)**﴾ يَحشرون النَّاس، يعني: الشرط ليجمعوا السحرة والجيشَ؛ وقيل: إنَّ المدائن ألف مدينة، واثنتي عشر ألف قرية. ﴿**إنَّ هؤلاء لَشِرذمةٌ قليلُون(٥٤) وَإنَّهُم لَنَا لغائظُون(٥٥)**﴾ [٤١٧] لفاعلون مَا يغيظنا. ﴿**وَإنَّا لَجميعٌ حاذِرُون(٥٦)**﴾ وَإنَّا لَجميعٌ مِن عَادَتِنَا الحذرُ واستعمال الحزم فِي الأمور، أشار أَوَّلاً إلَى[2] عدم مَا يَمنع اتِّبَاعهم من شوكتهم، ثُمَّ إلَى تَحقُّق مَا يدعو إلَيْهِ مِن فرط عداوتهم، ووجوب التيقُّظ فِي شأنهم، حثًّا عليه.

---

١ - سورة طـه: ٧٢.

٢ - في الأصل: «لي»، وهو خطأ.

﴿**فأخرجناهم**﴾ بأن خلقنا داعية الخروج بهـذا السبب، فحَمَلتهـم عليـه؛ ﴿**مِن جَـنَّات وعيُون(٥٧) وكُنوز ومَقام كريم(٥٨)**﴾ يعني: المنازل الحسنة، والمجالس البهيَّة. قيل: كَانَ لفرعون ثَمـاني مائـة ألـف غـلام، كـلُّ غـلام عَلَـى فرس، فِي عنق كلِّ فرس طَوْقا مِن ذهب، والبساتين كَانَت عَلَى حـافتي النيـل. ﴿**كذلك وأورثناها**[1] **بَنِـي إِسْـرَائِيلَ(٥٩) فَأَتبَـعوهم مُشـرِقِين(٦٠) فَلَـمَّا تراءا الجمعان، قَالَ أصحاب موسى: إنَّـا لَمدرَكُون(٦١)**﴾ لـمَّا رأو من هنا البحـر، ومـن هنـا القتـل. ﴿**قَـالَ: كـلاَّ**﴾ لـن يُدركونـا[2] ﴿**إنَّ مَعِـي رَبِّـي سيهدينِ(٦٢)**﴾ كما وَعَدَني.

﴿**فأوحينا إِلَى موسى: أن اضرب بـعَصَاك البحرَ فانفَلَقَ، فكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطَّودِ العظيم(٦٣)**﴾ كالجبل المنيـف الثـابت فِي مقـرِّه. ﴿**وأزلفنـا**﴾ قَرَّبـنَا ﴿**ثَمَّ الآخرِين(٦٤)**﴾ فرعون وقومه حتَّى دخلوا عَلَى أثرهم مداخلهم؛ وهـذه آيَـة عظيمة لو اعتبروا بها؛ لكن الضَّال لاَ يَهتدي. ﴿**وأنجينا موسى ومـن معه أجمعِـين(٦٥)**﴾ بحفـظ البحـر عَلَى تلـك الهيئـة إِلَى أن عـبروا. ﴿**ثُـمَّ أغرقنـا الآخرين(٦٦) إنَّ فِي ذَلِكَ لآية وَمَا كَانَ أكثرهم مؤمنِـين(٦٧)**﴾ وَمَـا تَنبـَّه عليها أكثرهم، إذ لم يُؤْمِنُ بها أحـد، فَمَـن بقـيَ فِي مصـر مِـنَ القبـط وبـني[3] إسرائيل بعد مَا نَجوا سألوا بقـرة يَعبدونهـا، واتـَّخذوا العجـل، وَقَـالُوا: ﴿لـن

---

١ - فِي الأصل: - «و»، وهو خطأ.

٢ - فِي الأصل: «يدركون»، وهو خطأ.

٣ - فِي الأصل: «وبنوا اسرائيل»، وهو خطأ.

نؤمن لك حتّى نَرى ا لله جهرة﴾[1]. **﴿وإنَّ رَبـّكَ لَهـو العزيـز﴾** المنتقـم مـن أعدائه، **﴿الرحيم(٦٨)﴾** بأوليائه.

**﴿واتل عَلَيْهِم نَبأ إبراهيم(٦٩) إذ قَالَ﴾** هُوَ **﴿لأبيه وقومه: مَا تعبدُون(٧٠)﴾**؟ سألهم ليريهم أنَّ مَا يعبدونه لاَ يستحقُّ العبادة. **﴿قَالُوا: نعبد أصناما فَنَظَلُّ لَها عاكفِين(٧١)﴾** فأطالوا جوابهم لشرح حالهم، افتخارا بِهِ، و«نَظَلُّ» ههنا بمعنى: نَدوم. **﴿قَالَ: هل يسمعونكم﴾** دعاءكم **﴿إذ تَدعُون(٧٢) أو ينفعونكم﴾** عَلَى عبادتكم لها **﴿أو يَضُرُّون(٧٣)﴾**؟ مَن أعرَض عنها. **﴿قَالُوا: بَل وجدنا آباءنا كذلك يفعلُون(٧٤)﴾** أضرَبوا عَن أن يكون لهم سمع، أو يتوقَّع مِنْهُم ضرٌّ أو نفع؛ [وإنَّما] التجأوا إلَى التقليد.

**﴿قَالَ: أفرأيتم مَا كُنتُم تعبدُون(٧٥) أَنتُم وآباؤكم الأقدمُون(٧٦)﴾** فإنَّ التقدُّم لاَ يدلُّ عَلَى الصِحَّة، وَلاَ ينقلب بِهِ الباطل حقًّا. **﴿فَإنَّهُم عدوٌّ لي﴾** وأنا بريء مِنْهُم؛ والمَعنَى: أنَّ كلَّ معبود لكم عدوٌّ لي. فإن قيل: كيف وصف الأصنام بالعداوة وهي جمادات؟ قيل: معناه فَإنَّهُم عدوٌّ لي لو عبدتهم يوم القيامة، كما قَالَ: ﴿سيكفرون بعبادتهم ويكونون عَلَيْهِم ضِدًّا﴾[2]. **﴿إلاَّ رَبَّ الْعَالَمِين(٧٧) الذِي خَلَقني فهو يهدين(٧٨)﴾** لأَنَّهُ يهدي [٤١٨] كلَّ مخلوق لِمَا خلق لَهُ مِن أمور المعاش والمعاد، كما قَالَ: ﴿والذي قدَّر فهدى﴾[3] هداية

١ - سورة البقرة: ٥٥.

٢ - سورة مريم: ٨٢.

٣ - سورة الأعلى: ٣.

مقدَّرة مُدرَجة مِن مبدإ إيجاده إِلىَ منتهى أجَله، يتمكَّن بها مِن جلب المنافع، ودفع المضارِّ؛ مبدؤها بالنسبة إِلىَ الإنسان: هدايةُ الجنين إِلىَ امتصاص دم الطمث مِنَ الرحم؛ ومنتهاها: الهداية إِلىَ طريق الجنَّة والتنعُّم بلذائذها.

﴿**والذي هُوَ يطعمني ويَسقينِ(٧٩) وإذا مَرِضت فهو يشفينِ(٨٠)**﴾ عطف عَلَى «يطعمني ويسقين» لأَنَّهُ من روادفهما من أنَّ الصِحَّة والمرض فِي الأغلب يتبعان المأكول والمشروب؛ وإنَّما لم ينسب المرض إِلَيْهِ، لأَنَّ المقصود تعديد النعم، وَلاَ تنقص بإسناد الإماتة إِلَيْهِ، فإِنَّ الموت من حيث لاَ يحسُّ بِهِ لاَ ضرر فِيهِ، وإنَّما الضرر فِي مقدِّماته وهي المرض؛ ثُمَّ إنَّه لأهل الكمال وصلة إِلىَ نيل المحابِّ التِي تُستحقر دونها الحياة الدنيويَّة، وخلاص من أنواع المحن والبليَّة؛ ولأَنَّ المرض فِي غالب الأمر إِنَّمَا يَحدث بتفريط مِنَ الإنسان فِي مطاعمه ومشاربه. ﴿**والذي يُميتُني ثُمَّ يُحيينِ(٨١) والذي أطمع أن يَغْفِر لِي خَطِيئتي يوم الدِين(٨٢) رَب هب لِي حُكمـا**﴾ كمالا فِي العلم والعمل، أستعدُّ بِهِ [لـ]ـخلافة الحقِّ، ورئاسة الخلق، ﴿**وألحقني بالصالحِين(٨٣)**﴾ ووفِّقني فِي العلم والعمل، لأنتظم بِهِ فِي عداد الكاملين فِي الصَّلاح، الذِي لاَ يشوب صلاحهم بفساد.

﴿**واجعل لِي لسانَ صِدق فِي الآخرِين(٨٤)**﴾ لسان مقالي، ولسان حالي. ﴿**واجعلني مِن وَرَثَة جنَّة النعيم(٨٥) واغفر لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضالِّين[1](٨٦)**﴾ طريق الحقِّ. ﴿**وَلاَ تُخزني يومَ يُبعثُون(٨٧) يومَ لاَ ينفع مال**

١ - فِي الأصل: «الظالمين»، وهو خطأ.

**وَلاَ بنُون(٨٨) إِلاَّ مَن أتى ا لله بقلب سليم(٨٩)﴾** أي: لاَ ينفعان أحدًا إلاَّ مخلصا سليم القلب عَن الكفر وميل المعاصي[1] وسائر آفاته. ومن كِتَاب بيان الشرع: «وَقَالَ فِي قول ا لله تعالى: ﴿إلاَّ مَن أتى ا لله بقلبٍ سليم﴾ قَالَ: ليس فِي قلبه إِلاَّ ا للهُ وأمرُه، خالصًا لاَ غير ذَلِكَ، وَإِلاَّ فالهلاك، عَلَى مَعنَى قوله. وقيل: ﴿إلاَّ مَن أتى ا لله بقلب سليم﴾ قيل: سليم مِنَ الذنوب؛ وأمرُهما وَاحِد».

﴿**وأُزلِفَت الجَنَّة**﴾ أي: طويت مسافتها ﴿**للمتَّقِين(٩٠)**﴾ الطائرين[2] لها ﴿**وبُرزت الجحيم للغاوِين(٩١)**﴾ السالكين سبيلها. ﴿**وقيل: لَهُم أين مَا كُنتُم تعبدُون(٩٢) مِن دون ا لله هل يَنصرونكم أو ينتصرُون(٩٣)؟ فَكُبكِبوا فِيهَا هم والغاوُون(٩٤)**﴾ أي: الآلهة وعبدتهم؛ والكبكبة: تكرير الكبِّ لتكرير مَعنَاه، كَأَنَّ مَن أُلْقِيَ فِي النار ينكبُّ مرَّة بعد أُخْرَى؛ وقيل: طرح بعضهم عَلَى بعض. ﴿**وجنودُ إبليسَ أجمعُون(٩٥)**﴾ متَّبعوه من عصاة الثقلين، أو شياطينه.

﴿**قَالُوا وَهُم فِيهَا يَختصمُون(٩٦)**﴾ وباختصامهم فِيهَا يُعذَّبون: ﴿**تا لله إن كُنَّا لفي ضلال مُبين(٩٧) إذ نُسويكم بِرَب الْعَالَمِين(٩٨)**﴾ أي: فِي استحقاق العبادَة والألوهية؛ والمَعنَى: أنَّهم مَعَ تَخاصمهم فِي مبدإ ضلالهم، معترفون بانهماكهم [٤١٩] فِي الضلالة، متحسِّرون عليها. ﴿**وَمَا أضلَّنا**﴾ أي: وَمَا دعانا إِلَى الضلالة الذِينَ اقتدينا بهم، ﴿**إلاَّ المجرمُون(٩٩) فما لَنَا**

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «والميل إِلَى المعاصي».

٢ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «الصائرين إِلَيْهَا».

**من شافعِين(١٠٠) وَلاَ صديق حميـم(١٠١) فلـو أن لَنـَا كـرَّةً** رجعـة إِلىَ الدُّنْـيَا، **﴿فنكون مِنَ المؤمنِين(١٠٢)﴾**.

**﴿إنَّ فِي ذَلِكَ لآية﴾** لَحجَّة وعظةً لِمَن أَرَادَ أن يستبصر بها ويعتبر؛ فإنَّـها جاءت عَلَى أنظم تَرتيب، وأحسن تقرير، يتفطَّن المتأمِّل فِيهَا لغزارة علمه، لِمَا فِيها مِنَ الإشارة إِلىَ أصول العلوم الدينيَّة عَلَى دلائلها، وحسن دعوته للقـوم، وحسن مُخالفته معهم، وكمال إشـفاقه عَـلَيْـهِـم، وقصـور الأمـر فِي نفسـه. وإطلاق الوعد والوعيد عَلَى سبيل الحكاية تعريضا وإيقاظا، ليكون أدعى لَهُـم إِلىَ الاستماع والقبول، **﴿وَمَا كَانَ أكـثرهم مؤمنِـين(١٠٣) وإنَّ رَبَّـكَ لَهـو العزيز الرحيم(١٠٤)﴾**.

**﴿كذَّبـت قـومُ نـوح المرسلِين(١٠٥) إذ قَـالَ لَهُـم أخوهـم نـوح: ألاَ تتَّقُون(١٠٦)﴾** الله فتتركوا غَيْره. **﴿إنـي لكم رسولٌ أمِـين(١٠٧)﴾** عَلَى الوحـي والرسـالة. **﴿فاتَّقُـوا الله وأطيعون(١٠٨)﴾** فيمـا آمركـم بـهِ مِـنَ التوحيد والطَّاعة لله. **﴿وَمَا أسألكم عليه مِـن أجـر إن أجـري إلاَّ عَلَـى رَب الْعَالَمِين(١٠٩)﴾** لأَنَّ الأمانة وترك السؤال للأجر، والعمل (لَعَلَّهُ) لأجـر الله مِن دلائل الرسالة لو اعتبروا. **﴿فاتَّقُـوا الله وأطيعون(١١٠)﴾**.

**﴿قَالُوا: أنؤمن لـكَ واتـَّبعك الأرذلُون(١١١)﴾**؟ الأقلـُّون جاهـا ومـالا؛ وهذا مِن سخافة عقلهم وقصور رأيهم عَلَى الحطام الدنيويَّة، حتَّـى جعلـوا اتـِّبـاع المقلِّين فِيهَا مانعا عَن اتِّبَـاعهم وإيمانهم بِمَا يدعوهم إِلَيْـهِ، ودليـلا عَلَـى بُطلانـه؛ وأشاروا بذلك عَلَى أنَّ اتِّبَـاعهم ليس عَن نظـر وبصيرة، وإنـَّما هُـوَ لتوقُّـع مـال

ورفعة؛ فلذلك ﴿قَالَ: وَمَا عِلمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون(١١٢)﴾ أنـهُم عملوه إخلاصا، أو طمعا فِي طعمـةٍ، وَمَا عَلَيَّ [إلاَّ] اعتبار الظاهر. ﴿إِنْ حِسابهم إِلاَّ عَلَى رَبـي﴾ مَا حسابهم عَلَى بواطنهم إِلاَّ عَلَى ا لله ﴿لو تشعرُون(١١٣) وَمَا أنا بطارد المؤمنِين(١١٤) إن أنا إِلاَّ نذير مُبِين(١١٥)﴾.

﴿قَالُوا: لئن لم تَنته يا نوح لتكونَنَّ مِنَ المرجومِين(١١٦) قَالَ: رَب إِنَّ قَومي كذَّبونِ(١١٧) فافتح بيني وبينهم فتحا ونَجني ومن معي مِنَ المؤمنِين(١١٨) فَأنجيناه ومن معه فِي الفلك المشحُون(١١٩)﴾ المملوء. ﴿ثُمَّ أغرقنا بعدُ الباقِين(١٢٠) إنَّ فِي ذَلِكَ لآية﴾ لِمَن آمن، ﴿وَمَا كَانَ أكثرُهم مؤمنِين(١٢١) وإنَّ رَبَّكَ لهو العزيز الرحيم(١٢٢)﴾.

﴿كذَّبت عاد المرسلِين(١٢٣) إذ قَالَ لَهُم أخوهم هود: ألاَ تتَّقُون(١٢٤) إِنـي لكم رسول أمِين(١٢٥) فاتَّقُوا ا لله وأطيعون(١٢٦) وَمَا أسألكم عليه مِن أجر إن أجري إِلاَّ عَلَى رَب الْعَالَمِين(١٢٧)﴾ تصدير القصص بها دلالة عَلَى أنَّ البعثة مقصورة عَلَى الدعاء إِلَى معرفة الحقِّ والطَّاعة فيما يُقرِّب المدعو إِلَى ثوابه، ويبعده عَن عقابه؛ وكَانَ الأنبياء متَّفقين عَلَى ذَلِكَ، وإن اختلفوا [٤٢٠] فِي بعض التفاريع، مبَرَّؤون عَن المطامع الدنيـَّة، والأغراض الدنيويَّة.

﴿أتَبنون بكُل رِيع﴾ بكُلِّ مكَان مرتفع، أو بِكُلِّ طريق؛ وقيل: هُوَ الفجُّ بين الجبلين ﴿آية﴾ أي: علامةً ﴿تعبثُون(١٢٨)﴾؟! لِمَن[1] مَرَّ بالطريق؛

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «ممن».

وقيل: إنـّهم كَـانُوا يبنـون المواضـع المرتفعـة ليشـرفوا عَلَـى المـارّة والسّـابلة. ﴿آية﴾: للمارّة، ﴿تعبثون﴾ ببنائها؛ إذ كَانُوا يهتـدون بـالنجوم فِي أسـفارهم، فلا يحتاجون إِلَيْها؛ أو بنيانا يَجتمعون إِلَيْها للعبـث[1] بمن يمـرّ عَـلَيْـهـم؛ أو قصورا يفتخرون بها؛ والعبث لاَ ينفع عمله إِذَا عُمل، وَلاَ يضرّ تركه إن تُـرك، وعمله والاشتغال بِهِ فِي لاَ شيء، بَل يشغل عمّا ينفع. ﴿وتتـّخذون مصانع﴾ مَـآخذ المـاء، وقيـل: قصـورا مشيّدة وحصونـا ﴿لَعَلَّكُـم تَخلـدُون(١٢٩)﴾ فتبنون بناء التخليد، ﴿وإذا بطشـتم﴾ بسيف أو سـوط أو لسـان، ﴿بطشـتم جبّارِين(١٣٠)﴾ مُتسلّطين غاشمين بلا رأفة، وَلاَ قصـد تـأديب، وَلاَ نظـر فِي العاقبـة. ﴿فاتّقُـوا الله﴾ بـترك هَـذِهِ الأشـياء، ﴿وأطيعـون(١٣١)﴾ فيمـا أدعوكم إِلَـيْـهِ. ﴿واتّـقُوا الذِي أمدّكم بِمَـا تَعْلَمُـون(١٣٢)﴾ كـرّره مرتّبـا عَلَى إمداد الله إيّاهم بِمَا يعرفونه من أنواع النعم، تعليلا وتنبيهـا عَلَـى الوعـد عليـه بـدوام الإمـداد، والوعيـد عَلَـى تركـه بالانقطـاع. ﴿أمدّكـم بأنعـام وبنين(١٣٣) وجنّات وعيُون(١٣٤)﴾ ثُمّ أوعدهـم فقـال: ﴿إنـي أخـاف عَلَيْكُم عذابَ يوم عظيم(١٣٥)﴾ فِي الدُّنْيَا والآخِرَة.

﴿قَالُوا: سواء علينا أَوَعظت أم لم تكن مِنَ الواعظِين(١٣٦) إن هَذَا إلاّ خُلُقُ الأَوَّلِين(١٣٧)﴾ مَا هَذَا الذِي جئتنا بِهِ إلاّ كـذب الأوّلـين؛ أو مَـا هَـذَا خُلُقُنا إِلاّ كخُلُقِهم نَحيَى ونموت، وهي إعادة مَن سـبق نعيـش كمـا عاشـوا، ونموت كما ماتوا بلا بعث وَلاَ جزاء. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمعذَّبِين(١٣٨)﴾ عَلَى مَـا

---

[1] - في الأصل: «للبعث»، ولا مَعنَى له.

نَحْنُ عليه، لأَنَّ عذابهم ليس بحسيٍّ؛ وإنَّما هُوَ يُعرف بالتمييز بين الموافقة والمخالفة؛ فلذلك لم يُحسُّوا بِهِ؛ وَقَالُوا: وما نَحْنُ بمعذَّبين، وَهُم معذَّبون بِهِ فِي الدارين، إِلاَّ مَن تاب. ﴿**فكذَّبوه فأهلكناهم إنَّ فِي ذَلِكَ لآية وَمَا كَانَ أكثرهم مؤمنِين(١٣٩) وإنَّ رَبَّكَ لهو العزيز الرحيم(١٤٠)**﴾.

﴿**كذَّبت ثمود المرسلِين(١٤١) إذ قَالَ لَهُم أخوهم صالح: ألاَ تتَّقُون(١٤٢)؟ إِني لكم رسول أمِين(١٤٣) فاتَّقُوا الله وأطيعون(١٤٤) وَمَا أسألكم عليه مِن أجر إن أجري إلاَّ عَلَى رَب الْعَالَمِين(١٤٥) أَتُتركون فِي مَا ها هنا آمنِين(١٤٦)**﴾؟ أي: فِي الدُّنْيَا آمنين مِن مكر الله وعذابه؟ إنكار لأَن يُتركوا كذلك؛ أو تذكير بالنعمة فِي تخلية الله إيَّاهم فِي أسباب تَنَعُّمهم آمنين؛ ثُمَّ فسَّره بقوله: ﴿**فِي جَنَّات وعيُون(١٤٧) وزروع ونَخل طلعُها هَضِيم(١٤٨)**﴾ لطيف هيِّن؛ وإفراد النخل لفضله عَلَى سائر أشجار الجنَّات. ﴿**وتنحتون مِنَ الجبال بُيوتا فارهِين(١٤٩)**﴾ قيل: بَطِرين؛ [٤٢١] أو حاذقين، مِنَ الفراهة وهي النشاط، فإنَّ الحاذق يعمل بنشاط وطيب قلب؛ وقرئ: ﴿فَرِهين﴾ وَهُوَ أبلغ. ﴿**فاتَّقُوا الله وأطيعون(١٥٠)**﴾ فِي العمل. ﴿**وَلاَ تُطيعوا أمرَ المسرفِين(١٥١) الذِينَ يُفسدون فِي الأَرْض وَلاَ يُصلحُون(١٥٢)**﴾ لأَنَّ المسرف لن يقع مِنْهُ صلاح لنفسه أصلا، لأَنَّ أعماله غير مقبولة مِنْهُ، ومردودة عليه، وإن وقع مِنْهُ صلاح لغيره فذلك تسخير مِنْهُ، وَهُوَ بمعزل عَن نفعه.

﴿**قَالُوا: إنَّمَا أنت مِنَ المسحَّرِين(١٥٣)**﴾ قيل: الذِينَ سُحِّروا كثيرا حتَّى غُلِب عَلَى عقلهم؛ أو مِن ذوي السِّحر. ﴿**مَا أنت إلاَّ بشر مثلنا فَأْتِ بِآيَةٍ إن كنتَ مِنَ الصادقِين(١٥٤)**﴾.

﴿**قَالَ: هَذِهِ ناقـةٌ لَهـا شِـرْبٌ**﴾ نصيـبٌ مِـنَ المـاء، ﴿**ولكـم شِـرْبُ يـومٍ معلـوم(١٥٥)**﴾ فـاقتَصِروا عَلَى شُربـكُم وَلاَ تزاحموهـا فِي شُـربها. ﴿**وَلاَ تَمسُّوها بسوء**﴾ بضرب أو عقر، ﴿**فيأخذَكم عذابُ يومٍ عظيم(١٥٦)**﴾ مَا يَحُلُّ فِيهِ، وَهُوَ أبلغ مِن تعظيم العذاب.

﴿**فعقروها**﴾ أسند العقر إِلَىٰ كلِّهـم، لأَنَّ عاقرهـا إِنـَّمَا عَقَرهـا برضـاهم، ولذلـك أُخِـذوا جميعـا، ﴿**فـأصبحوا نـادمِين(١٥٧)**﴾ فِي عَقْرِهـا، خوفـا مـن حُلول العذاب لاَ توبة؛ أو عند معاينة العذاب، ولذلك لم ينفعهـم. ﴿**فـأخذهم العـذاب**﴾ أي: العـذاب الموعـود، ﴿**إنَّ فِي ذَلِـكَ لآيـة وَمَـا كَـانَ أكـثرهم مؤمنِين(١٥٨)**﴾ فيحملهم إيمانهم عَلَى التدبُّر والاعتبار للآيات. ﴿**وإنَّ ربَّكَ لَهو العزيز الرحيم(١٥٩)**﴾ فِي نفي الإيمان عَن أكثرهم فِي هَذَا المعرض، إيماء بأنـَّه لَو آمن أكثرهم أو شطرهم لَمَا أُخذوا بالعذاب؛ وأَنَّ قريشا إِنـَّمَا عُصِموا عَن مثله ببركة مَن آمن مِنـْهُم، هكذا قيل.

﴿**كذَّبـت قـوم لُـوط المرسلِين(١٦٠) إذ قَـالَ لَهُـم أخوهـم لـوط: ألا تتَّقُون(١٦١) إنـي لكم رسول أمِين(١٦٢) فاتَّقُـوا الله وأطيعـون(١٦٣) وَمَا أسألكم عليه من أجر إن أجـري إلاَّ عَلَـى رَب الْعَـالَمِين(١٦٤) أتـأتون الذكران مِنَ الْعَالَمِين(١٦٥) وتذرون مَا خَلَق لكم ربّكُم من أزواجكم بَل أَنتُم قوم عادُون(١٦٦)**﴾ متجـاوزون عَـن حـدِّ الشـهوة؛ حيـث زادوا عَلَى سائر النَّاس بَل عَلَـى الحيوانـات. ﴿**قَـالُوا: لئـن لم تنتـه يـا لـوط لتكونـنَّ مِنَ المخرجِين(١٦٧) قَالَ: إنـي لِعَمَلكـم مِنَ القـالِين(١٦٨)**﴾ مِـنَ المبغضـين. ﴿**رب نَجني وأهلي مِمَّا يَعْمَلُون(١٦٩)**﴾ أي: من شؤمه وعذابه.

**﴿فنجَّيناه وأهله أجمعِين(١٧٠) إلاَّ عجوزا فِي الغابرِين(١٧١)﴾** مُقدَّرة فِي الباقين فِي العذاب. **﴿ثُمَّ دمَّرنا الآخرِين(١٧٢) وأمطرنا عَلَيْهِم مطرا فساءَ مطرُ المنذَرِين(١٧٣) إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَة وَمَا كَانَ أكثرهم مؤمنِين(١٧٤) وإنَّ رَبَّكَ لهو العزيز الرحيم(١٧٥)﴾**.

**﴿كذَّب[1] أصحابُ الأيكَةِ المرسلِين(١٧٦)﴾** قيل: الأيكة: غيضة[2] تنبت ناعم الشَّجر. **﴿إذ قَالَ لَهُم﴾** أخوهم[3] **﴿شعيب: ألاَ تتـَّقون(١٧٧)﴾** وقيل: الأيكة: شجر ملتفٌّ؛ وكَانَ شجرهم الدوم، وَهُوَ المُقل. **﴿إنـي لكم رسول أمِين(١٧٨) فاتـَّقُوا ا لله وأطيعون(١٧٩) وَمَا أسألكم عليه من أجر إن أجريَ إلاَّ عَلَى [٤٢٢] رَب الْعَالَمِينَ(١٨٠)﴾** لـمَّا أبقوا معنى دعوتهم لقومهم أنبأ[4] عَلَى معنى خطابهم بلفظ وَاحِد، وهُوَ[5] قوله: ﴿ألاَ تتـَّقون إِنـِّي لكم رسول أمين، فاتـَّقُوا ا لله وأطيعونِ، وَمَا أسألكم عليه من أجر إن أجريَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ

١ - فِي الأصل: «كذبت»، وهو خطأ.

٢ - فِي الأصل: «عيطه»، وهو خطأ.

٣ - كذا فِي الأصل، والصواب أنَّ شعيبا لم يكن أخًا لأصحاب الأيكة، كما ذكر المفسرون، قال الزمخشريُّ: «فإن قلتَ: هلاَّ قيل: " أخوهم شعيبٌ " كما فِي سائر المواضع ؟ قلت: قالوا: إنَّ شعيبا لم يكن من أصحاب الأيكة، وَفِي الحديث: "إنَّ شعيبا أخا مدين، أرسل إِلَيهِم وَإِلَى أصحاب الأيكة"». الزمخشري: الكشَّاف، ٢٦٢/٣. وانظر: أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص٢٦١-٢٦٢. الألوسي: روح المعاني: ١١٧/١٩.

٤ - فِي الأصل: «ابناء»، وهو خطأ.

٥ - فِي الأصل: «أو هو»، ولا مَعنَى له.

﴿**الْعَالَمِينَ**﴾ فصار كأنَّه لسان قائل وَاحِد مِنْهُم. ﴿**أوفوا الكيل وَلاَ تكونوا مِنَ الـمُخسِرِين(١٨١)**﴾ حقوق النَّاس. ﴿**وَزِنوا بالقسطَاس المُستَقِيم(١٨٢) وَلاَ تبخسوا الناس أشياءهم**﴾ وَلاَ تُنقِصوهم شَيْـئًا من حقوقهم، ﴿**وَلاَ تعثَوا فِي الأَرْض مُفسِدِين(١٨٣) واتَّقُوا الذِي خلقكم والـجِبِلَّة الأَوَّلِين(١٨٤)**﴾ وذوي الـجِبِلَّة الأَوَّلين، يعني: من تَقدَّمهم مِنَ الخلائق.

﴿**قَالُوا: إنَّمَا أنت مِنَ الـمُسحَّرِين(١٨٥) وَمَا أنت إلاَّ بشر مثلنا وإن نظنُّك لِمَن الكاذبِين(١٨٦) فأسقط علينا كِسَفا مِنَ السَّمَاء**﴾ قطعة مِنْها ﴿**إن كنت مِنَ الصادقين (١٨٧) قَالَ رَبِّي أعلم بِمَا تَعْمَلُون(١٨٨)**﴾ ويَعِد أنَّه ينزل عَلَيْكُم فِي وقته المقدَّر لَـهُ. ﴿**فكذَّبوه، فأخذهم عذاب يوم الظُلَّةِ**﴾ عَلَى نحو مَا اقترحوا، بأن سلَّط الله عَلَيْهِمُ الحرَّ سبعة أيَّام، فأظلَّتهم سحابة، فاجتمعوا تحتها، فأمطرت عَلَيْهِم نارا، فاحترقوا عَلَى مَا قيل، ﴿**إنَّهُ كَانَ عذابَ يوم عظيم(١٨٩) إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَة وَمَا كَانَ أكثرهم مؤمنِين(١٩٠) وإنَّ رَبَّكَ لهو العزيز الرحيم(١٩١)**﴾ هَذَا آخر القصص السبع المذكورة عَلَى سبيل الاختصار، تسلية لرسوله ﷺ، وتهديد للمكذِّبين بِهِ، واطِّراد نزول العذاب عَلَى تكذيب الأمم بعد إنذار الرُّسل بِهِ؛ واقتراحهم لَهُ استهزاء، وعدم مبالاة بِهِ.

﴿**وَإِنَّهُ لتنزيل رَب الْعَالَمِين(١٩٢) نَزَل بِهِ الروح الأَمِين(١٩٣) عَلَى قلبك**﴾ تقرير لحقِّ القرآن، وتنبيه عَلَى إعجازه، ونبوَّة محمَّد ﷺ، فإِنَّ الإخبار

عنها مِمَّن لم يتعلَّمها لاَ يكون إلاَّ وحيا مِنَ ا لله. و"القلب" إن أَرَادَ بِهِ الروح فذاك، وإن أَرَادَ بِهِ العضو فتخصيصه، لأَنَّ المعاني الروحانية تنزل أَوَّلاً عَلَى الروح، ثُمَّ تنتقل مِنْهُ إِلَى القلب لِمَا بينهما مِنَ التَّعَلُّق، ثُمَّ تتصعَّد مِنْهُ إِلَى الدماغ، فينتقش بها لوح المتخيِّلة. والروح الأمين: جبريل، فإنَّه أمين ا لله عَلَى وحيه؛ أمين مِنَ الزيادة والنقصان عمَّا أُمر بِهِ وأُوحي إِلَيْهِ. وهكذا ينبغي لِكُلِّ عالم لأهل زمانه؛ وَإِلاَّ وقع فِي الخيانة مِن حيث لاَ يشعر، ﴿**لِتكُون مِنَ المنذِرِين(١٩٤) بلسان عربيٍّ مُبِين(١٩٥)**﴾ واضح المعنى، لئلاَّ يقولوا لاَ نفهمه. ﴿**وَإِنَّهُ لفي زُبُرِ الأَوَّلِين(١٩٦)**﴾ وإنَّ ذكره، أو معناه لفي الكتب المتقدِّمة.

﴿**أولم يكن لَهُم آيةً**﴾ عَلَى صِحَّة القرآن، أو نبوَّة محمَّد ﷺ، ﴿**أن يَعْلَمَه علماءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ(١٩٧)**﴾ أن يعرفوه. ﴿**ولو نزَّلناه عَلَى بعض الأعجمِين(١٩٨)**﴾ كما هُوَ زيادة فِي إعجازه؛ أم بلغة العجم. ﴿**فقرأه عَلَيْهِم مَا كَانُوا بِهِ مؤمِنِين(١٩٩)**﴾ لفرط عنادهم واستكبارهم؛ أو لعدم فهمهم واستنكافهم من اتِّباع العجم.

﴿**كذلك سلكناه**﴾ أدخلناه ﴿**فِي قلوب [٤٢٣] المجرمِين(٢٠٠)**﴾ إلزاما للحجَّة إن كَانَ الضمير للقرآن؛ وَقِيلَ: الضمير للكفر. ﴿**لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَروا العذاب الأليم(٢٠١)**﴾ هُوَ الموت الملجئ إِلَى الإيمان. ﴿**فيأتيهم بغتةً وَهُم لاَ يشعرُون(٢٠٢) فيقولوا: هل نَحْنُ منظَرُون(٢٠٣)**﴾ فِي الدُّنْيَا وأبقيناهم[كَذَا].

﴿أفبعذابنا يستعجلُون(٢٠٤)؟ أفرأيت إن متَّعناهم﴾ وذلك أنَّ المشركين قَالُوا للنبيِّ ﷺ: إلىَ متى تُوعِدنا العذاب؟، فأنزل ا لله تعالى: ﴿سِنِين(٢٠٥) ثُمَّ جاءهم مَا كَانُوا يوعدُون(٢٠٦)﴾ يعني: العذاب. ﴿مَا أغنى عَنْهُم مَا كَانُوا يُمَتَّعُون(٢٠٧)﴾ لم يغن عَنْهُم تَمتُّعهم المتطاول فِي دفع العذاب وتخفيفه، لأنَّهُمْ لم يستعدُّوا به دفع العذاب. ﴿وَمَا أهلكنا مِن قرية إلاَّ لَها مُنذِرُون(٢٠٨)﴾ أنذروا أهلها إلزاما للحجَّة. ﴿ذكرى﴾ بِمَا تذكِّرهم الحجَّة، ﴿وَمَا كُنَّا ظالِمِين(٢٠٩)﴾ فنُهلِك قبل الإنذار.

﴿وَمَا تنزَّلت بِهِ﴾ أي: القرآن ﴿الشياطِينُ(٢١٠)﴾ كما زعم المشركون بأنَّه من قبيل مَا يُلقي الشيطان عَلَى الكهنة. ﴿وَمَا ينبغي لَهُم﴾ وَمَا يصحُّ لَهُم أن يتنزَّلوا بِهِ، ﴿وَمَا يستطيعُون(٢١١)﴾ وَمَا يقدرون. ﴿إنَّهُمْ عَن السمع﴾ عَن استراق السمع لكلام المَلاَئِكَة ﴿لَمعزولُون(٢١٢)﴾ لأنَّهُ مشروط بمشاركة فِي صفاء النوات، وقبول فيضان الحقِّ، والانتقاش بالصور الملكوتيَّة؛ ونفوسهم خبيثة ظلمانيَّة شرِّيرة بالذَّات، لاَ تقبل ذَلِكَ؛ والقرآن مشتمل عَلَى حقائق ومغيبات، لاَ يُمكن تلقِّيها إلاَّ مِنَ المَلاَئِكَة؛ لأنَّ القرآن نور إلهيٌّ، والنفوس الشيطانيَّة مِنَ الجنِّ والإنس ظلمانيَّة، فلا يَجتمع النور والظلمة، كما قَالَ: ﴿سأصرف عَن آياتي الذِينَ يتكبَّرون فِي الأَرْض بغير الحقِّ﴾[1] وَلاَ يصحُّ أن يَحمله شياطين الإنس والجنِّ حمل انتفاع؛ ولكن يجوز أن يحمِّلوا إيَّاه، ويهدوا بِهِ هدي البيان، إبلاغا للحجَّة.

---

١ - سورة الأعراف: ١٤٦.

﴿فلا تَدْعُ مَعَ ا للهِ إلها آخر﴾ وَهُوَ يقتضي نهيا عَن عمل جميع المعاصي، ﴿فتكونَ مِنَ المعذَّبين(٢١٣)﴾ فِي الدارين؛ تهييج لازدياد الإخلاص، ولطف لسائر المكلَّفين. ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين(٢١٤)﴾ الأقرب مِنْهُم فالأقرب، فإنَّ الاهتمام بشأنهم أهمُّ. ﴿واخفض جناحك لِمَن اتَّبعك مِنَ المؤمنِين(٢١٥)﴾ ليِّن جانِبَك لَهُم؛ مستعار عَلَى خفض الطائر جناحيه إِذَا أَرادَ أن ينحطَّ. ﴿فإن عَصَوك﴾ و لم يتَّبعوك، ﴿فقل: إنِي بريء مِمَّا تَعْمَلُون(٢١٦)﴾ من عبادة غير ا لله. ﴿وتوكَّل عَلَى العزيز الرحيم(٢١٧) الذِي يراك حين تقوم(٢١٨) وتَقَلُّبك فِي الساجدِين(٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السميع العليم(٢٢٠)﴾.

﴿هل أنبئكم عَلَى مَن تنزَّلُ الشياطِينُ(٢٢١)﴾ (لَعَلَّهُ) مِنَ الخلق؛ ثُمَّ قَالَ: ﴿تنزَّل عَلَى كُل أفَّاك أثيم(٢٢٢)﴾ لَمَّا بيَّن أنَّ القرآن لاَ يصحُّ أن يكون مِمَّا تنزَّلت بِهِ الشياطين، أَكَّدَ ذَلِكَ بِأن يُبَيِّنَ أنَّ محمَّدا عليه السلام لاَ يصحُّ أن يتنزَّلوا عليه من وجهين: أحدهما: أنَّه إِنَّمَا يكون عَلَى شرِّير كذَّاب كثير الإثم، فإِنَّ الطبائع بينهما متناسبة، وحال محمَّد ﷺ، عَلَى خلاف [٤٢٤] ذَلِكَ؛ وثانيهما: قوله: ﴿يُلقُون السمع وأكثرهم كاذبُون(٢٢٣) والشعراء يتَّبعهم الغاوُون(٢٢٤)﴾ وأتباع محمَّد ﷺ ليسوا كذلك.

﴿ألم تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُل وادٍ يَهيمُون(٢٢٥)﴾ قيل: من أودية الكلام، فِي كُلِّ أمر يخوضون؛ لأَنَّ أكثر مقدِّماتهم خيالات لاَ حقيقة لها. ﴿وَأَنَّهُمْ يقولون مَا لاَ يفعلُون(٢٢٦)﴾ وكأنَّه لمَّا كَانَ إعجاز القرآن من جهة المَعنَى واللفظ، وقد

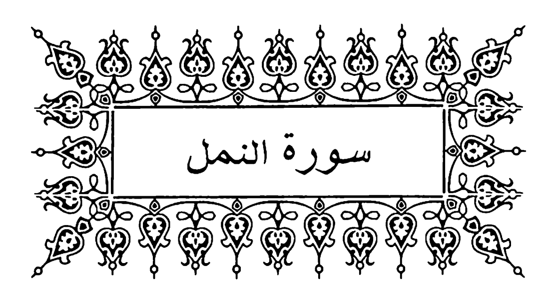
قدحوا فِي المَعنَى بأنَّه مِمَّا تنزَّلت بِهِ الشياطين، وفي اللفظ بأنــَّه مـن حسـن كـلام الشعراء، تكلَّم فِي القسمين، وبيَّن منافاة القرآن لهما، ومضادَّة حـال الرسـول ﷺ لحـال أربابهمـا. ﴿**إلاَّ الذِينَ آمنـوا وعملـوا الصالحـات وذَكَـروا ا لله كثــيرا**﴾ بإخلاص، ﴿**وانتصروا من بعد مَا ظُلِمـوا، وسـيعلم**﴾ لإقامـة ديـن ا لله ﴿**الذِيـنَ ظلموا، أيَّ منقلَب ينقلبُون(٢٢٧)**﴾ تهديد[1] شديد، لِمَـا[2] فِي «سـيعلم» مِنَ الوعـد البليـغ، وفي «الذِيـنَ ظلمـوا» مِـنَ الإطــلاق والتعميــم؛ وفي «أيَّ منقلــب ينقلبون» أي: بعد الموت، (إِلى أيٍّ مرجع يرجعون إِلَـيهِ بعد مماتهم)[3].



١ - في الأصل: «تهيد»، وهو خطأ.

٢ - يمكن أن نقرأ: «كما».

٣ - ما بين قوسين كتب في الحاشية، و لم يحِل إِلَـيهِ في المتن، وأثبتناه في سياقه باجتهادنا.



# سورة النمل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿**طس تلك آياتُ القرآن**﴾ آيات السورة، و«القرآن»: الوارد فِيهَا؛ أو القرآن كُلُّه، ﴿**وكتاب مُبينٍ(١) هُدى وبشرى للمؤمنِين(٢) الذِينَ**﴾ من شأنهم ﴿**يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وَهُم بالآخِرَة هم يوقنُون(٣)**﴾ كأنَّه قيل: وهؤلاء الذِينَ يُؤْمِنُونَ ويعملون الصالحات هُمُ الموقنون بالآخِرَة؛ فإنَّ تَحمُّل المشاقِّ إنَّمَا يكون لخوف العاقبة، والوقوف عَلَى المحاسبة.

﴿**إنَّ الذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة زيَّنَّا لَهُم أعمالهم فَهُم يعمهُون(٤)**﴾ يتحيَّرون (إلَى أيِّ مرجع يرجعون إلَيْهِ بعد مماتهم)[1]. زيَّن الله لهم أعمالهم القبيحة (لَعَلَّهُ) التِي رأوها حسنة، بأن جعلها مشتهاة بالطبع، محبوبة للنفس؛ أو الأعمال الحسنة التِي وجب عَلَيْهِم أن يعملوها، بترتيب المثوبات عليها مَا يتبعها من ضرٍّ أو نفع. ﴿**أولَئِكَ الذِينَ لَهُم سوء العذاب**﴾ أيُّ عذاب كَانَ من عذاب[2] الأدنى، كما قَالَ: ﴿ولنذيقنَّهم مِنَ العذاب الأدنى﴾[3].

---

١ - ما بين قوسين إضافة من الحاشية و لم يُحِل إِلَيْهَا الناسخ فِي المتن، وأثبتناها فِي سياقها.

٢ - كذا فِي الأصل، ويبدو أنَّ الصواب: «العذاب»، أو لَعَلَّهُ بتقدير مضاف، أي: «من عذاب الحياة الأدنى».

﴿وَهُم فِي الآخِرَة هُمُ الأخسرُون(٥)﴾ أشدَّ النَّاس خسرانا لفوات المثوبة، واستحقاق العقوبة.

﴿وإنَّك لَتُلَقَّى القرآن﴾ لتؤتاه ﴿من لَدُن حكيم عليم(٦)﴾ العلم: داخل فِي الحكمة لعموم العلم، ودلالة الحكمة عَلَى إتقان الفعل.

﴿إذ قَالَ موسى لأهله: إنِّي آنست نارا سآتيكم منها بِخبر أو آتيكم بشهاب قبس لَعَلَّكُم تصطلُون(٧) فَلَمَّا جاءها نودي: أن بُورِك من فِي النار ومَن حولَها وسبحان ا لله رَبِّ الْعَالَمِين(٨) يا موسى إنَّهُ أنا ا لله العزيز الحكيم(٩) وألْقِ[1] عصاك، فَلَمَّا رآها تهتزُّ﴾ تَتَحَرَّكُ باضطراب، ﴿كأنَّها جانٌّ﴾ حيَّة خفيفة سريعة، ﴿وَلَّى مدبرا ولم يُعقِّب﴾ و لم يرجع؛ مِن عقب المقاتل: إِذَا كرَّ بعد الفرار، ﴿يا موسى لاَ تَخف إنِّي [٤٢٥] لاَ يَخاف لديَّ المرسَلُون(١٠) إلاَّ مَن ظَلَم ثُمَّ بدَّل حُسنا بعد سوء فَإنِّي غَفُور رحيم(١١) وأدخِلْ يدك فِي جَيبك تَخرجْ بيضاءَ من غير سوء فِي تِسع آياتٍ إِلَى فرعون وقومه إنَّهُمْ كَانُوا قوما فاسقِين(١٢)﴾.

﴿فَلَمَّا جاءتهم آياتنا مُبْصِرةً﴾ بيِّنةً، اسم فاعل أُطلق للمفعول، إشعارا بأنَّها لفرط اجتلائها للأبصار بحيث تكاد تبصر نفسها، ﴿قَالُوا: هَذَا سحر مُبِين(١٣)﴾ واضح سحريَّته. ﴿وجحدوا بها﴾ وكذَّبوها، ﴿واستيقنتها

=

٣ - سورة السجدة: ٢١.

١ - فِي الأَصْلِ: «وألقى». وَهُوَ خطأ.

**أنفسهم﴾** صارت بمعنى اليقين؛ ولكن عاندوها، **﴿ظلما﴾** لأنفسهم، **﴿وعُلُوًّا﴾** ترفُّعا مِنَ الإيمان، **﴿فانظر كيف كَانَ عاقبة المفسدِين(١٤)﴾**.

**﴿وَلَقَد آتينا داوودَ وسليمان علما، وقالاَ: الحمد لله الذِي فضَّلنا عَلَى كثير من عباده المؤمنِين(١٥)﴾** يعني: من لم يؤتَ علما؛ أو مثل علمهما؛ وفيه دليل عَلَى فضل العلم وشرف أهله، حيث شَكَرا الله عَلَى مَا آتاهما مِنَ العلم، وجعلاه أساس الفضل؛ ولم يذكرا دونه مَا أوتيا مِنَ المـُلك مَا لم يؤتَ غيرهما؛ وتحريض للعالم أن يَحمد الله عَلَى مَا آتاه مِن فضله، وأن يتواضع ويعتقد أنَّه وإن فُضِّل عَلَى كثير فقد فُضِّل عليه كثير.

**﴿وَوَرِث سليمانُ داوودَ﴾** النبوَّة، أو العلم، أو الملك، بأن قام مقامه فِي ذَلِكَ دون سائر بنيه، **﴿وقال: يَا أَيُّهَا الناس عُلِّمنا مَنطقَ الطير، وأُوتينا من كُلِّ شيء﴾** تشهيرا لنعمة الله، وتنزيها لها[1]، ودعاء للناس إِلىَ التصديق بذكر المعجزة التِي هِيَ علم منطق الطير، وغير ذَلِكَ من عظائم مَا أوتيه، **﴿إِنَّ هَذَا لَهو الفضل الْمُبين(١٦)﴾** الذِي لاَ يَخفى عَلَى أحد.

**﴿وحُشِر﴾** وجُمِع **﴿لسليمانَ جنودُه مِنَ الجنِّ والإنس والطير فَهُم يُوزعُون(١٧)﴾** يُحبسون بحبس أَوَّلهم عَلَى آخرهم (لَعَلَّهُ) ليتلاحقوا. **﴿حتَّى إِذَا أتوا عَلَى وادي النمل قالت نملةٌ: يَا أَيُّهَا النمل ادخلوا مساكنكم لاَ يَحطمنَّكم سليمانُ وجنودُه وَهُم لاَ يشعُرُون(١٨)﴾** قيل: علم النمل أَنَّ

١ - كذا فِي الأصْلِ، ولا مَعْنَى له، وَفِي تفسيرَيْ الزمخشري وأبي السعود: «وتنويها بها». الزمخشري: الكشَّاف، ٢٧٨/٣. أبو السعود: تفسير، مج٣/ ج٦/ ص٢٧٧.

سليمان نَبيٌّ ليس فِيهِ جبروتة[1] وظلم؛ وَمَعنَى الآيَة: أَنَّكُم لو لم تدخلوا مساكنكم وطؤوكم، و لم يشعروا بكم. **﴿فتبسَّم ضاحكا مِن قولها﴾** تعجُّبا من حذرها وتحذيرها، واهتدائها إِلَى مصالحها؛ أو سرورا بما خصَّه ا لله بِهِ من إدراك همسها وفهم غرضها؛ ولذلك سأل توفيقَ شُكره **﴿وقال: رَبِّ أوزعني﴾** قيل: أَلْهِمني **﴿أن أشكرَ[2] نعمتك التِي أنعمت عليَّ وعلى والِدَيَّ وأن أعمل صالحا تَرضاه﴾** تَماما للشكر، واستدامة للنعمة، **﴿وأدخلني برحمتك فِي عبادك الصالحِين(١٩)﴾**.

**﴿وتفقَّد الطير﴾** وتعرَّف الطير، **﴿فقال: مَا لي لاَ أرى الهدهدَ أم كَانَ مِنَ الغائبين(٢٠)؟ لأعذبنَّه عذابا شديدا﴾** لنجعلنَّه فِي (لَعَلَّهُ) قفص مَعَ ضدِّه؛ وقيل: أضيق السجون، معاشرة الأضداد. **﴿أو لأذبَحَنَّه﴾** ليعتبر بِهِ أبناء جنسه، **﴿أو لَيَأتيني بسلطان مُبِين(٢١)﴾** بحجَّة تبيِّن عذره. ولو لم يُظهِر سليمانُ الهيبة لجنوده [٤٢٦] لَـمَا استقاموا لَهُ طوعا.

**﴿فَمَكَث غيرَ بعيد﴾** زمانا غير بعيد، يريد بِهِ الدلالة عَلَى سرعة رجوعه خوفا من عُقوبته، **﴿فقال: أَحَطتُ بِمَا لم تُحِطْ بِهِ﴾** يعني: حال سبأ؛ وفي

---

١ - لم أجد فيما بين يديَّ من مصادر اللغة المصدر عَلَى هَذَا الوزن. قال ابن منظور: «يقال: جَبَّار بيِّن الجَبَرِيَّةِ والجِبرِيَّة والجَبْرُوَّة والجَبَرُوَّة والجُبُروت والجَبَرُوتِ والجُبُّورة والجَبُّورة مثل الفرُّوجة. والجبرياءُ والتَّجْبارُ هو بمعنى الكِبْر... وَفِي الحديث: "سبحان ذي الجَبَروت والملكوت"، هو فَعَلوت من الجبر والقهر». ابن منظور: لسان العرب، ج١/ ص٣٩٥، مَادَّة «جبر».

٢ - فِي الأَصْلِ: «أن شكر»، وَهُوَ خطأ.

مخاطبته إيَّاه بذلك تنبيه لَهُ عَلَى أنَّ فِي أدنى خلق ا لله مَن أحاط علما بِمَا لاَ يحيط بِهِ لتتحاقر إِلَيْهِ نفسه، ويقلَّ إِلَيْهِ علمه؛ والإحاطة: العلم بالشيء مِن جميع جهاته، **﴿وجئتُكَ مِن سبإٍ بِنَبإٍ يقِين(٢٢) إنِّي وجدت امرأةً تَملكهم، وأوتِيَتْ من كُلِّ شيء﴾** يَحتاج إِلَيْهِ الملوك؛ وَأَمَّا فِي التحقيق فلم تؤت سبأ كما أوتي سليمان، لأنَّهَا من عبدة[1] الأصنام، **﴿ولها عرش عظيم(٢٣)﴾** عظَّمَهُ بالنسبة إِلَيْها، أو إِلَىَ عرش[2] أمثالِها. **﴿وجدتُّها وقومَها يسجدون للشمس من دون ا لله﴾** كأنَّهم كَانُوا يعبدونها، **﴿وزيَّن لَهُمُ الشيطان أعمالهم﴾** عبادة الشمس وغيرها من مقابح أعمالهم، وجميع أعمال المعاصي، من تزيينه للخلق المتعبِّدين لعنه ا لله؛ كما أنَّ أعمال البرِّ مِن تزيين ا لله لَهُم، **﴿فصدَّهم عَن السبيل﴾** سبيل السعادة، **﴿فَهُم لاَ يهتدُون(٢٤)﴾** إِلَيْهِ مَا داموا عَلَى ذَلِكَ الحال.

**﴿ألاَّ يَسجدوا لله﴾** قصدهم لأَن لاَ يسجدوا؛ أو زَيَّن لَهُم أن لاَ يسجدوا؛ **﴿الذِي يُخرج الخبْءَ فِي السَّمَاوَات والأَرْض﴾** قيل: مَعنَى الخبْء: الغيب؛ يريد: يعلم غيب السَّمَاوَات والأَرْض، **﴿ويعلم مَا تُخفُون وَمَا تُعلنُون(٢٥)﴾** وصفٌ لَهُم بِمَا يوجب اختصاصه باستحقاق السجود، مِنَ التفرُّد لكمال القدرة والعلم، والحثّ عَلَى السجود لَهُ، وَرَدًّا عَلَى من يسجد لغيره؛ والخبْء: مَا خفي مِن[3] غيره، وإخراجُه: إظهاره؛ وَهُو[4] يعمّ

١ - فِي الأَصْلِ: «عباده» ولا مَعْنَى له.

٢ - فِي الأَصْلِ: «العرش»، وَهُوَ خطأ.

٣ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «عن».

٤ - فِي الأَصْلِ: «وهم»، وَهُوَ خطأ.

إشراق الكواكب، وإنزال الأمطار، وإنبات النبات؛ بَل الإنشاء: فإنـَّه إخراج مَا فِي الشيء بالقوَّة[1] إِلىَ الفعل؛ والإبداع: فإنَّه إخراج مَا كَانَ الإمكان مِـنَ العدم إِلىَ الوجوبِ والوجود[2]؛ ومعلوم أنـَّه يَختصُّ بالواجب لذاته. وقرئ: ﴿مَا يُخفون وَمَا يُعلنون﴾ بالياء.

﴿ا لله لاَ إله إلاَّ هُوَ رَبُّ العرش العظيم(٢٦)﴾ أي: هُوَ المستحقُّ للعبادة والسجود لاَ غيره. الآن وصف عرشها بالعظم، بالإضافة إِلىَ عرش أبناء جنسها مِنَ الملوك؛ ووصفُ عرشِ ا لله تعالى بالعظم تعظيمٌ لَهُ بالنسبة إِلىَ سائر مَا خلق ا لله مِنَ السَّمَاوَات والأَرْض؛ فبين العظمتين بَوْنٌ عظيم، لأَنَّ حملته عَلَى مَا جاء فِي التأويل أَنـَّهُمْ ثمانية أجزاء مِنَ الملاَئِكَة، (لَعَلَّهُ) مَعَ مَا جعل ا لله لَهُم مِنَ القوَّةِ، كُلُّ جزء مثل الثقلين؛ والحافـِّين من حوله هم غير الحملة؛ وَا للهُ العالم بهم وبعددهم.

﴿قَالَ: سننظر﴾ سنعرف مِنَ النظر، بمعنى: الاعتبار، ﴿أصدَقْتَ أم كُنتَ مِنَ الكاذبين(٢٧) اذهب بكتابي هَذَا فألقه إِلَيْهِم، ثُمَّ تولَّ عَنْهُم﴾ [٤٢٧] ثُمَّ تنحَّ عَنْهُم إِلىَ مكَان قريب تتوارى فِيهِ، ﴿فانظر ماذا يَرجعُون(٢٨)﴾ ماذا يرجع بعضهم إِلىَ بعض مِنَ القول.

---

١ - كذا فِي الأصل، ونفس العبارة عند أبي السعود، (مج٣/ ج٦/ ص٢٨٢). ولعلَّ الصواب: «من القُوَّة»، أي أَنَّ وجود الأشياء كان بِالقُوَّةِ ثُمَّ صار وجودا بالفعل، كما يقول علماء الكلام.

٢ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «مَا كَانَ فِي الإمكان مِنَ العدم إِلىَ الوجوبِ والوجود»، وَفِي تفسير أبي السعود: «إخراج مَا فِي الإمكان والعدم إِلىَ الوجود وغير ذَلِكَ». المصدر نفسه.

﴿قالت﴾ أي: بعدما أُلقيَ إِلَيْهِا، ﴿يَا أَيُّهَا الملأ إنــِّي أُلقي إليَّ كِتَـاب كريم(٢٩)﴾ لكرم مضمونه؛ أو لغرابةِ شأنه؛ فقيل: إنـَّها كَانَت مسـتلقية فِي بيت مغلقة الأبواب، فدخل الهدهد مِن كـوَّة، وألقـاه عَلَـى نَحرهـا، بحيـث لم تشعر بِهِ. ﴿إنَّهُ مِن سليمان﴾ استئناف، كأنـَّه قيل لها: مِمـَّن هُوَ؟ وَمَـا هُـوَ؟ فقالت: إنـَّهُ أي: إنَّ الكتاب، أو العنوان مِن سليمان، ﴿وَإِنـَّهُ﴾ وَإِنَّ المكتوب، أو المضمون ﴿بِسْمِ ا للهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٣٠) ألاَّ تَعلُوا عليَّ﴾ «أن» مفسِّرة لـ«كتابٌ»، أو مصدريـَّة؛ فيكون بِصِلَتِه خبرَ محذوفٍ، أي: هُوَ؛ أو: المقصـود أن لاَ تعلوا؛ أو بدل من «كِتَـابٌ»، ﴿وأتونـي مُسْلِمِين(٣١)﴾ مؤمنـين، أو منقادين. وهذا كـلام فِيـهِ غايـة الوجـازة مَـعَ كمـال الدلالـة عَلَـى المقصـود، لاشـتماله عَلَـى البسـملة، الدلالـة[1] عَلَـى ذات الصـانع، وصفاتهـا صريحـا[2] والتزاما؛ والنهي عَـن الـترفُّع الـذِي هُـوَ أمُّ الرذائـل؛ والأمـر بالإسـلام الجـامع لأمـَّهات الفضائل، والأمر فِيهِ بالانقياد بعـد إقامـة الحجـَّة عَلَـى رسـالته؛ فـإنَّ إلقاء الكتاب إِلَيْهِا عَلَى منقار الطائر، وهي عَلَى تلك الحالة مِن أعظم الدلالة.

﴿قالت: يَـا أَيُّهَا الملأ أفتوني فِي أمـري﴾ أجيبونـي فِي أمـري، واذكـروا مَـا تستصوبون فِيهِ، ﴿مَا كنت قاطعةً أمرا﴾ مَا أبتُّ أمرا ﴿حتَّى تشـهدُون(٣٢)﴾ إلاَّ بمحضركـم؛ استعطفتهم بذلـك ليمالــئوها عَلَـى الإجابــة، أي: يُجامعوهــا ويعاضدوها، وذلك بعد مَا أهالَها[3] أمر الكتاب والكـاتب، ولم تستهن بـِهِ، ولم

---

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «للدَّلالة»، أو «الدالـَّة».

٢ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «تصريحا».

٣ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «هَالَها»، لأنَّ الفعل "هال" يتعدَّى بنفسه بـلا همـزة.

تستخفَّ بِهِ، و لم تُهمِله، وعظُم شأن عاقبته فِي قلبها؛ وهي ربَّما لم تشعر بأحوال سليمان وَلاَ جنوده، وكلُّ ذَلِكَ لأمر مُلكِها ودنياها، لاَ عَلَى دينها. وانظر مَا صنعه سليمان وَهُوَ بعدُ لم يصحَّ معه صِدق الطير مِن كَذِبه، كيف لم يتوسَّع بالعذر، وَهُوَ عدم الصِحَّة مَا عَلَى مَا نَطَق بِهِ الطير[1]، وانتهز الفرصة للمسابقة عَلَى الأمر بالمعروف، والنهي عَن المنكر، وَعَلَى إظهار دين ا لله.

﴿قَالُوا: نَحْنُ أُولو قوَّة﴾ بالأجساد والعدد، ﴿وأُولو بأس شديد﴾ نَجدة وشجاعة، ﴿والأمرُ إليك﴾ وتدبير الأمر إليك مَوكول؛ لأَنَّ القوَّة مَعَ عدم التدبير للأمور، تؤول إِلَى الموهن[2]، ﴿فانظري ماذا تَأمُرِين(٣٣)﴾ من المقاتلة، أو الصلح نُطِعْك، ونتبعْ رأيك.

﴿قالت: إنَّ الملوك إِذَا دخلوا قرية أفسدوها﴾ تزييف لِمَا أحسَّت مِنْهُم إِلَى الميل إِلَى المقاتلة، بادِّعائهم القوَى الذاتيَّة والعرضيَّة، وإشعار بأنَّها ترى الصلح، مَخافة أن يَتخطَّى سليمان خططهم، فيسرع إِلَى فساد مَا يصادفه من أموالهم وعماراتهم؛ ثُمَّ إنَّ الحرب سِجَال لاَ يُدرى عاقبتها، ﴿وجعلوا أَعِزَّة أهلها[3] أذلَّة﴾ بجبرهم لَهُم عَلَى الانقياد والطَّاعة، [٤٢٨] وأن يكونوا مَملوكين لاَ مالكين، ﴿وكذلك يفعلُون(٣٤)﴾ تأكيد لِمَا وصفت مِن

---

«وهَالني الأمر يَهُولُني هَوْلاً: أفزعني». ابن منظور: لسان العرب، ج٦/ ص٨٤٥، مَادَّة «هول».

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «وَهُوَ عدم التبيُّن من صِحَّة مَا نَطَق بِهِ الطير».

٢ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: «الوهن».

٣ - فِي الأصل: - «أهلها»، وهو سهو.

حالهم؛ وتقرير بِأَنَّ ذَلِكَ مِن عاداتهم الثابتة المستمرَّة. **﴿وإنِّي مُرسلة إِلَيْهِم بهديَّة﴾** بيان لِمَا ترى تقديمه مِنَ المصالحة؛ والمَعنَى: أَنِّي (لَعَلَّهُ) مُرسلة رسلا بهديَّة دَفعَة بها عَلَى مُلكي، **﴿فناظرةٌ بِمَ يرجعُ المرسلُون(٣٥)﴾** من حاله، حتَّى أعمل بِحسب ذَلِكَ.

**﴿فَلَمَّا جاءَ سليمانَ﴾** أي: الرسولُ، **﴿قَالَ: أَتُمِدُّونَنِ بمال﴾** خطاب للرسول ومن معه، **﴿فما آتاني الله﴾** مِنَ النبوَّة والملك الذِي لاَ مَزيد عليه، **﴿خيرٌ مِمَّا آتاكم﴾** فلا حاجة لي إِلىَ هديَّتكم، وَلاَ وقع لها عندي، **﴿بَل أَنتُم بِهديَّتكم تفرحُون(٣٦)﴾** لأنَّكم لاَ تَعْلَمُونَ إلاَّ ظاهرا مِنَ الحياة الدُّنْيَا، فتفرحون بِمَا يُهدى إليكم، حبًّا لزيادة أموالكم؛ أو بِمَا تهدونه افتخارا عَلَى أمثالكم. **﴿ارجع﴾** أيُّها الرَّسول **﴿إِلَيْهِم، فلنأتينَّهم بِجنود لاَ قِبَلَ لَهُم بها﴾** لاَ طاقة لَهُم بمقاومتها، وَلاَ قدرة لَهُم عَلَى مقابلتها، **﴿ولنخرجنَّهم منها﴾** مِن سبأ، **﴿أذلَّة﴾** بذهاب مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ العزِّ، **﴿وَهُم صاغرُون[1](٣٧)﴾** أُسَرَاء مُهانون.

**﴿قَالَ: يَا أَيُّهَا الملأ أَيُّكم يأتيني بعرشها﴾** أَرَادَ بذلك أن يريها بعض مَا خصَّه الله مِنَ العجائب الدالَّة عَلَى عظيم القدرة، وصدقه فِي دعوى النبوَّة، ويختبر عقلها بِأَن يُنكِّر عرشها، فينظر أتعرفه أم تُنكِره، **﴿قَبل أن يأتوني مُسْلِمِين(٣٨)﴾** فإنَّهم إِذَا أَتَوه مُسْلِمِينَ منقادين لأمره وطاعته، حُرِّمت عليه غنيمة أموالهم.

---

١ - فِي الأصل: «صارغرون»، وهو خطأ.

﴿**قَالَ: عِفريت**﴾ خبيث ماردٌ ﴿**مِن الجنِّ: أنا آتيك بِهِ قبلَ أن تقوم من مَقَامك**﴾ ذَلِكَ، ﴿**وإنِّي عليه**﴾ عَلَى حَمله ﴿**لقويٌّ أمِين(٣٩)**﴾ لاَ أختزل مِنْهُ شَيْئًا، وَلاَ أضيِّعه، وَلاَ أضعه فِي غير مأمنه؛ ووصف نفسه مَا يكون بِهِ آلةً لحمله وحفظه، وَهُوَ القوَّة والأمانة، اللَّذان لاَ بُدَّ للأمين منهما، وإن أختلَّ[1] مِنْهُ واحدهما، فلا يكون آلة وَلاَ حجَّة لذلك.

﴿**قَالَ: الذِي عنده علمٌ مِنَ الكتاب**﴾ قيل: هُوَ آصف بن برخيا؛ أو جبريل، أو ملك غيره، أو سليمان نفسه، فيكون التعبير عَنْهُ بذلك للدَّلالة عَلَى شرف العلم؛ وَأَنَّ هَذِهِ الكرامة كَانَت نسبيَّة. والخطاب: ﴿**أنا آتيك بِهِ قبل أن يَرتَدَّ إليك طرفُك**﴾ للعفريت، أَرَادَ إظهار معجزة فِي نقله، فتحدَّاهم أوَّلاً؛ ثُمَّ أراهم أنَّه يتأتَّى لَهُ مَا لاَ يتهيَّأ لعفاريت الجنِّ فضلا عَن غيره. والمراد بالكتاب: جنسُ الكتب المنزَّلة، وهذا غاية فِي الإسراع ومَثَل فِيهِ، ﴿**فَلَمَّا رآه مستقرًّا عنده، قَالَ: هَذَا مِن فضل رَبِّي**﴾ و لم يقل: إنَّمَا أوتيته عَلَى علم عندي[2] ﴿**لِيبلُوني أأشكر أم أكفر، وَمَن شَكر فَإنَّمَا يشكر لنفسه، ومن كفر فإنَّ رَبِّي غنيٌّ كريم(٤٠) قَالَ: نَكِّروا لَهَا عرشَهَا**﴾ بتغيير[3] هيأته وشكله، ﴿**ننظر أتهتدي، أم تكون مِنَ الذِينَ لاَ يهتدُون(٤١)**﴾ قيل: إِلَى معرفته؛ أو إِلَى الإيمان با لله ورسوله.

١ - فِي الأصل: «اختلاًّ»، وَهُوَ خطأ.

٢ - كما قال قارون لَمَّا سأله قومه أن يحسن كما أحسن ا لله إليه. انظر: سورة القصص: ٧٧-٧٩.

٣ - فِي الأَصْلِ: «تتغير»، وَهُوَ خطأ.

﴿فَلَـمَّا جاءت [٤٢٩] قيل: أهكذا عرشك﴾؟ تشبيها عليها، زيـادة فِي امتحان عقلها، ﴿قالت: كأنـَّه هُـوَ﴾ و لم تَقـل هُـوَ هُـوَ، لاحتمـال أن يكـون مثله، وذلك من تتدقُّها فِي النظريات؛ تعرَّف سليمان كمالَ عقلها، حيـث لم تُقـرَّ و لم تُنكـر؛ وَقِيـلَ: اشتبه عليهـا؛ ﴿وأُوتينـا العلـم مِـن قبلهـا وَكُنـَّا مُسْلِمِين(٤٢)﴾ قيل: إنَّـه كـلام سـليمان؛ أي: أوتينـا العلـم بـا لله وقدرتـه، وصِحَّة مَا جاء مِن عنده قبلها، وَكُنـَّا منقـادين لحكمـه، لم نـزل عَلَـى دينـه. ﴿وصدَّها مَا كَانَت تعبد مِن دون ا لله﴾ أي: وصدَّها عبادتهـا الشـمس عَـن التقدُّم إِلىَ الإسلام، ﴿إِنـَّهَا كَانَت مِن قوم كَافِرِين(٤٣)﴾ أي: صدَّها نشؤها بين أظهر الكفَّار، واختيارها للكفر.

﴿قيل لها: ادخلـي الصـرح، فَلَـمَّا رأتـه حَسِبَته لُجَّة، وكشـفت عَـن ساقيها﴾ روي: أنـَّه أمرَ قبل قدومها ببناء قصـر، صحنـه مـن زجـاج أبيـض، وأجرى من تَحتِه الماء، وألقـى حيوانـات البحـر، ووضـع سـريره فِي صـدره، فجلس عليه؛ فَلَـمَّا أبصرته ظنـَّته ماءً راكدا، فكشـفت عَـن سـاقيها، ﴿قَـالَ: إِنـَّهُ صرحٌ مُمرَّد﴾ مُملَّس ﴿مِن قوارير﴾ من الزجـاج. وتلـك أسـوة حسـنة لملوك الدين، بإلقاء القوَّة والهيبة والحيلة عَلَى مَن عاداهم فِي دين ا لله؛ فإنـَّها مَا نزلت هَذِهِ الآيات بخـبر صنعهـم عبثـا وَلاَ لعبـا، بَـل لِحكمـة قـاهرة وحجَّـة باهرة. فَلَـمَّا رأت مَا رأت، ﴿قالت: رَبِّ إِنـِّي ظلمت نفسي﴾ بعبادةِ غيرك، ﴿وأسلمت مَعَ سليمانَ لله رَبِّ الْعَالَمِين(٤٤)﴾ فيما أمر بِهِ عباده.

﴿وَلَقَد أرسلنا إِلىَ ثَمود أخاهم صالحـا أن اعبـدوا ا لله فـإذا هـم فريقـان يَختصمُون(٤٥)﴾ تفاجأ التفرُّق والاختصام، فآمن فريق، وكفر فريق. ﴿قَالَ:

**يا قوم لم تستعجلون بالسيِّئة** بالعقوبة، فتقولون ائتنا بمَا تعدنا، **﴿قبل الحسنةِ﴾** قبل التوبة، فتؤخّرونها إلىَ نُزول العذاب، **﴿لولا تستغفرون الله﴾** قبل نزوله، **﴿لَعَلَّكُم تُرحمون(٤٦)﴾** بقبولها، فإنَّها لاَ تُقبل حين ذَلِكَ.

**﴿قَالُوا اطَّيرنا﴾** تشاءمنا **﴿بك وبمن معك﴾** إذ تَتَابَعَت علينا الشدائد؛ أو وقع بيننا الافتراق منذ اخترعتم دينكم، **﴿قَالَ: طائركم﴾** سببكم الذِي جاء مِنْهُ شركم، **﴿عند الله﴾** وَهُوَ قدَرُه؛ أو علمكم المكتوب عنده؛ أي: مَا يصيبكم مِنَ الخير والشرِّ مِن عند الله بأمره، وَهُوَ مكتوب عليكم؛ يُسمَّى طائرا لسرعة نزوله بالإنسان، فإنَّه لاَ شيء أسرعَ مِن قضاء مَحتوم. وَقِيلَ عَن ابن عبَّاس: «الشؤم أتاكم من عند الله لكفركم». **﴿بَل أَنتُم قوم تُفتَنُون(٤٧)﴾** تُختبرون بتعاقب السَّرَّاء والضَّرَّاء.

**﴿وكَانَ فِي المدينة تسعة رهطٍ، يُفسدون فِي[1] الأَرْض وَلاَ يُصلحُون(٤٨)﴾** أي: شأنهم الفساد الخالص من شوب الصلاح. **﴿قَالُوا﴾** أي: قَالَ بعضهم لبعض [٤٣٠] **﴿تَقَاسموا بالله﴾** أي: تَحالفوا بالله **﴿لَنُبيِّتنَّه وأهله﴾** لَنُباغتنَّ صالحا وأهله ليلاً، **﴿ثمَّ لنقولنَّ لوليِّه﴾** لوليِّ دمه، **﴿مَا شَهِدنا مَهلِك أهله﴾** فضلا أن تولَّينا إهلاكهم، **﴿وَإِنَّا لصادقُون(٤٩) ومكروا مكرا﴾** بهذه المواضعة، **﴿ومكرنا مكرا﴾** بَل جعلناها سببا لإهلاكهم، **﴿وَهُم لاَ يشعرُون(٥٠)﴾** بذلك.

**﴿فانظر كيف كَانَ عاقبةُ مكرهم أنَّا دمَّرناهم وقومهم أجمَعِين(٥١) فتلكَ بيوتُهم خاويةً﴾** خالية؛ مِن "خَوَى البطنُ": إِذَا خَلا؛ أو ساقطة

---

١ - في الأصل: + «و»، وهو خطأ.

منهدمة؛ مِن "خَوى النجم": إذَا سَقط، ﴿بِمَا ظَلَموا﴾ بسبب ظُلمِهم، ﴿إنَّ فِي ذَلِكَ لآية لقوم يَعْلَمُون(٥٢)﴾ فيتَّعظون. ﴿وأنجينا الذِينَ آمنوا﴾ صالحا ومن معه، ﴿وكَانُوا يتَّقُون(٥٣)﴾ الكفر والمعاصي؛ فلذلك خصُّوا بالنجاة. ويوجد عَن أبي سعيد فيما أرجو (لَعَلَّهُ): «وَأَمَّا التسعة الرهط، فأولئك معنا ألزم أمرا فِي البراءة، وأوضح كفرا، وَلاَ يسع جهلهم مَعَنا؛ لأَنَّ فِي ظاهر الآيَة لزوم العقوبة لَهُم، والكفر لازم لَهُم، وَلاَ يسع جهلُهم مَن وقف عَلَى تغيير أمرهم؛ والبراءة مِنْهُم براءة الحقيقة بالشهادة عَلَى مَا صحَّ فِي كِتَاب ا لله فِيهِم، وَا للهُ أعلم بالصَّواب».

﴿ولوطا إذ قَالَ لقومه: أتأتون الفاحشةَ وأنتم تُبصرُون(٥٤)﴾ فُحشَها؛ واقتراف القبائح مِنَ العالِم بقُبحِها أقبح؛ أو تبصرون آثار العصاة وَمَا نزل بهم. ﴿أئنَّكم لتأتون الرجالَ شهوةً﴾ بيان لإتيانهم الفاحشة اتِّبَاعا للشَّهوة، لاَ بحجَّة حقٍّ؛ للدَّلالة عَلَى قُبحه، والتنبيهِ عَلَى أنَّ الحكمةَ فِي المواقعة طلب النسل، ﴿مِن دُون النساء﴾ اللاّئي خُلِقنَ لذلك، ﴿بَل أَنتُم قوم تَجهلُون(٥٥)﴾ تَفعلون فِعل من يَجهل قُبحها؛ أو يكون سفيها لاَ يُميِّز بين الحسنِ والقبيح؛ أو تَجهلون العاقبة.

﴿فما كَانَ جواب قومه إلاَّ أن قَالُوا: أَخرِجوا آل لوط مِن قريتكم، إنَّهُمْ أُناس يتطهَّرُون(٥٦)﴾ يتنزَّهون عَن أفعالنا، أو عَن الأقذار، ويعدُّون فعلنا قذرا.

﴿فأنجيناه وأهله، إلاَّ أمرأته قدَّرناها مِنَ الغابرِين(٥٧)﴾ قدَّرنا كونها مِنَ الباقين فِي العذاب. ﴿وأمطرنا عَلَيْهِم مطرا فساء مطرُ المنذرِين(٥٨)﴾.

﴿قل: الحمد لله وسلامٌ عَلَى عباده الذِيـنَ اصطفَـى﴾ أمـر رسـوله ﷺ بعد مَا قصَّ عليه القصص الدالَّة عَلَى كمال قدرته، وعِظَم شأنه، وَمَا خصَّ بِهِ رسله مِنَ الآيات الكبرى، والانتصار مِنَ العِدا بتحميده، والسلام عَلَى المصطفين مِن عبيده، شكرا عَلَى مَا أنعمَ عليهم، وعلَّمَه مَا جهل مِن أحوالهم، وعرفانا لفضلهم وحقِّ تقدُّمهم، واجتهادهم فِي الدين. أو لوطا بِأَن يَحمده عَلَى هلاك كفرةِ قومه، ويسلِّم عَلَى مَن اصطفاه بالعصمة مِنَ الفواحش، والنجاة مِنَ الهلاك. ﴿آ لله خيرٌ أَمـَّا يشركُون(٥٩)﴾ إلزاما لَهُم، وتهكُّم بهم، وتسفيه لرأيهم؛ إذ معلوم أن لاَ خيرَ فيما أشركوه رأسا حتَّى [٤٣١] يُوازَن بينه وبين مَن هُوَ مبدأُ كُلِّ خير.

﴿أمَّن خلق السَّمَاوَات والأَرْض﴾ التِي هِيَ أصول الكائنات ومبادئ المنافع، ﴿وأنزل لكم﴾ لأجلكم ﴿من السَّمَاء ماء، فأنبتنا بِهِ حدائقَ ذات بهجةٍ﴾ تنبيه عَلَى أنَّ نبات الحدائق البهيَّة، المختلفة الأنواع، المتباعدة الطباع، مِنَ الموادِّ المتشابهة التِي لاَ يقدر عليها غيره، كما أشار إِلَيْهِ بقوله: ﴿مَا كَانَ لكم أن تُنبتوا شَجرَها﴾ شجر الحدائق، وهي البساتين؛ مِنَ الإحداق: وَهُوَ الإحاطة، ﴿أإله مَعَ ا لله﴾ أغيره يُقرن بِهِ، ويُجعل لَـهُ شريكا، وَهُوَ المنفرد بالخلق والتكوين، ﴿بَل هم قوم يَعدِلُون(٦٠)﴾ عَن الحقِّ الذِي هُوَ التوحيد.

﴿أمَّن جعل الأَرْض قرارا﴾ بدلٌ من «أمَّن خلق السَّمَاوَات» وجعلُها قرارًا: تسويتُها بحيث يتأتَّى استقرار الإنسان والدَّوابِّ عليها، ﴿وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي﴾ جبالا تتكوَّن فِيهَا المعادن، وتنبع من

حضيضها المنافع، ﴿**وجعل بين البحرين**﴾ العذب والمالح ﴿**حاجزا**﴾ برزخا، ﴿**أإله مَعَ ا لله بَل أكثرهم لاَ يَعْلَمُون(٦١)**﴾ لأنـَّهُم لاَ يتعلّمون فيعلمون؛ أو لاَ يقبلون العلم إن أتاهم.

﴿**أمَّن يُجيب المضطرَّ إِذَا دعاه**﴾ المضطرُّ: الذِي أحوجه شدَّة مَا بِهِ إِلىَ اللّجَأ[1] إِلىَ ا لله، مِنَ الاضطرار، وَهُوَ افتعال مِنَ الضرورة، ﴿**ويكشف السوءَ**﴾ ويدفع عَنْهُ مَا يسوؤه، ﴿**ويجعلكم خُلَفاء الأَرْض**﴾ خلفاء فِيهَا، بأن ورَّثكم سكناها، والتَّصرف فِيهَا مِمَّن قبلكم؛ ﴿**أإله مَعَ ا لله**﴾ الذِي خصَّكم بهذه النِّعم العامَّة والخاصَّة، ﴿**قليلا مَا تذَّكَّرُون(٦٢)**﴾ أي: تذكرون آلاءه تذكُّرا قليلا؛ والمُرَاد بالقلَّة: العدم، أو الحقارة المزيحة للفائدة.

﴿**أمَّن يَهديكم فِي ظُلمات البرِّ والبحر**﴾ بالنجوم وعلامات الأَرْض؛ والظلمات: ظلمات الليالي، أضافها إِلىَ البرِّ والبحر للملابسة؛ أو مشتبهات الطرق؛ يقال: طريقة ظلماء وعمياء: للتي لاَ مَنَار بها، ﴿**ومن يُرسل الرياح بُشْرًا بين يَدي رحمته**﴾ يعني: المطر؛ ولو صحَّ أنَّ السبب الأكثريَّ فِي تكوُّن الريح معاودةُ الأدخنة الصاعدَّة مِنَ الطبقة الباردة، لانكسار حرِّها وتَمويجها الهويَّ؛ وَلاَ شكَّ أنَّ الأسباب الفاعليَّة والقابليَّة لذلك مِن خلق ا لله، والفاعل

---

١ - المصدر الأكثر استعمالا هو اللجوء، وَلَكِن قد تستعمل أوزان أخرى للفعل "لجأ" كما ورد هنا، قال فِي اللسان: «لَجَأَ إِلىَ الشَّيْء والمكانِ يلجَأُ لَجْأً ولُجُوءاوملجَأً، ولَجِئَ لَجَأً والتجأ، وألجأت أمري إِلىَ ا لله: أسندتُ». ابن منظور: لسان العرب، ج٥/ ص٣٤٣، مَادَّة «لجأ».

السبب للسَّبب فاعل المُسَبَّب؛ ﴿أإله مَعَ ا للهِ﴾ يَقدِر عَلَى مثل ذَلِكَ؟ ﴿تعالى ا لله عَمَّا يُشركُون(٦٣)﴾ تعالى القادر الخالق عَن مشاركة العاجز المخلوق.

﴿أمَّن يبدأ الخلق ثُمَّ يعيده﴾ والكفرة وإن أنكروا الإعادة، فَهُم محجوجون بالحجج الدالَّة عليها، ﴿ومن يرزقكم مِنَ السَّمَاء والأَرْض﴾ أي: بأسباب سماويَّة وأرضيَّة، [٤٣٢] ﴿أإله مَعَ ا للهِ﴾ يفعل ذَلِكَ؟ ﴿قل: هاتوا بُرهانكم﴾ عَلَى أنَّ غَيْره يقدر عَلَى شيء مِن ذَلِكَ ﴿إن كُنتُم صادقِين(٦٤)﴾ فِي إشراككم؛ فإنَّ القدرة من لوازم الألوهيَّة.

﴿قل: لاَ يعلم من فِي السَّمَاوَات والأَرْض الغيبَ إلاَّ ا للهُ﴾ لـمَّا بيَّن اختصاصه بالقدرة التامَّة الفائقة العامَّة، أتبعه بما هُوَ كاللاَّزم لَهُ، وَهُوَ التفرُّد بعلم الغيب، ﴿وَمَا يشعرون أيَّان يُبعثُون(٦٥)﴾ متى يُنشرون؛ مركَّبة من: "أي" و"آن".

﴿بَل ادَّارك عِلمهم فِي الآخِرَة﴾ لـمَّا نفى عَنْهُم علم الغيب، وَأَكَّدَ ذَلِكَ بنفي شعورهم بِمَا هُوَ مآلهم لاَ محالة، بالغ فِيهِ بأن أضرب عَنْهُ؛ وبيَّن أنَّ مَا انتهى وتكامل فِيهِ أسباب علمهم مِنَ الحجج والآيات، وَهُوَ أنَّ القيامة كافية لاَ مَحالة، لاَ يعلمونه كما يحقُّ وينبغي؛ وقيل: أَرَادَ مَا جهلوا فِي الدُّنْيَا، وسقط علمه عَنْهُم، علموه فِي الآخِرَة. وقال مجاهد[1]: «﴿بَل هم

١ - وضع الناسخ هنا إحالة إِلَى الحاشية و لم يكتب فيها شَيْئًا، وَلَعَلَّ فِي العبارة نقصا، لأنَّ السياق اللاحق يبدو أَنَّهُ مواصلة للتفسير وليس مقولة مجاهد، وَا لله أعلم، و لم أجد فيما بين يديَّ من مصادر التفسير مقولة مجاهد غير قراءة نسبت إِلَيْهِ،قال الألوسي: «وقرأ مجاهد: "أم أدرك" جعل "أم" بدل ﴿بل﴾ وأدرك عَلَى وزن أفعل».

**في شكٍّ منهـا﴾** كمـن تَحـيَّر فِي أمـر لاَ يَجـد عليـه دليـلا». **﴿بَـل هـم منهـا عَمُون(٦٦)﴾** لاَ يُدركون دلائلها لتعـاميهم عنهـا. وقـرئ: «بَـل أدَّارك» [1] بمعنى: تبابع حتَّى استحكم، أو تبابع حتَّى انقطع.

**﴿وقال الذِينَ كَفَرُوا: أئذا كُنَّا تُرابا وآباؤنا أئنـَّا لَمُخرَجُـون(٦٧)﴾**؟ بيان لِعَمَهِهم. **﴿لَقَد وُعدنا هَذَا نَحْنُ وآباؤنا من قبل﴾** من قبل وعد محمَّـد؛ وتقديم «هَذَا» عَلَى «نَحْنُ» لأنَّ المقصود بـالذِّكر هُـوَ البعـث، وحيـث أُخِّـر فالمقصود[2] بِهِ المبعوث، **﴿إن هَذَا إلاَّ أساطير الأولِين(٦٨)﴾**.

**﴿قـل: سـيروا فِي الأَرْض فـانظروا كيـف كَـانَ عاقبـة المجرمِـين(٦٩)﴾** تهديد لَهُم عَلَى التكذيب[3]، وتخويف بأن ينزل بهم مثـل مَـا نـزل بـالمكذِّبين قبلهـم. **﴿وَلاَ تَحـزن عليهـم﴾** عَلَى تكذيبهـم وإعراضهـم، **﴿وَلاَ تكـن فِي ضيق﴾** فِي حرج صدر **﴿مِمَّا يَمكرُون(٧٠)﴾** مِن مكرهم.

**﴿ويقولـون: متـى هَـذَا الوعـد﴾** العـذاب الموعـود، **﴿إن كُنتـُـم صادقِين(٧١) قل: عسى أن يكون رَدِف لكم﴾** تَبِعكم ولحقكم؛ وقيل: دنـا وَقَرُب لكم **﴿بعضَ الذِي تَستعجِلُون(٧٢)﴾** حلوله.

---

=

الألوسي: روح المعاني، ج٢٠/ ص١٤.

١ - «بَل أدَّارك، بهمزة داخلة عَلَى ادَّارك، فتسقط همزة الوصل المجتلبة لأجل الإدغام والنطق بالساكن»، وهي قراءة ابن عَبَّاس فِي رواية. وانظر مختلف القراءات فِي قَوله تَعَالَى: ﴿بل ادَّارك﴾: المصدر نفسه.

٢ - فِي الأصْل: «بالمقصود»، ولا مَعْنَى له.

٣ - فِي الأصل: «الكذيب»، وَهُوَ خطأ.

﴿وإنَّ رَبّكَ لذو فضل عَلَى الناس﴾ بتأخير عقوبتهم عَلَى المعاصي، ﴿ولكنَّ أكثرهم لاَ يشكرُون(٧٣)﴾ لاَ يعرفون حقَّ النّعمة فِيهِ، بَل[1] فلا يشكرون، بَل يستعجلون بِجهلهم وقوعه. ﴿وإنَّ رَبّكَ ليعلم مَا تُكِنُّ صدورُهم وَمَا يُعلنُون(٧٤) وَمَا مِن غائبة فِي السَّمَاء والأَرْض إلاَّ فِي كِتَاب مُبِين(٧٥)﴾ بيِّن، أو مبيِّن مَا فِيهِ لِمَن يطالعه؛ والمـُرَاد: اللوح، أو القضاء عَلَى الاستعارة.

﴿إنَّ هَـذَا القرآن يقصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أكثرَ الذِي هم فِيهِ يَختلفُون(٧٦)﴾ [٤٣٣] أمر الدِّين؛ قيل: إنَّ أهلَ الكتاب اختلفوا فيما بَيْنَهُم، فصاروا أحزابا يطعن بعضهم عَلَى بعض؛ فنزل القرآن ببيان مَا اختلفوا فِيهِ. ﴿وَإِنَّهُ لَهدى ورحمةٌ للمؤمنِين(٧٧)﴾ فإنَّهم المنتفعون بِهِ لاَ غير. ﴿إنَّ رَبَّكَ يقضي بَيْنَهُم﴾ (لَعَلَّهُ) بين المختلفين فِي الدِّين يوم القيامة ﴿بحكمه، وَهُوَ العزيزُ العليم(٧٨)﴾.

﴿فتوكَّل عَلَى الله﴾ وَلاَ تُبال بمعاداتهم، ﴿إنَّك عَلَى الحَقِّ الْمُبِين(٧٩)﴾ وصاحب الحقِّ حقيق بالوثوق بِحفظ الله ونصره. ﴿إنَّك لاَ تُسمع الموتى﴾ تعليل آخر للأمر بالتوكُّل، من حيث إنَّه يَقطع طمعه عَن متابعتهم ومشايعتهم ومعاضدتهم رأسا، وإنَّما شُبِّهوا بالموتى لعدم انتفاعهم باستماع مَا يُتلى عَلَيْهِم، كما شبِّهوا بالصمِّ فِي قوله: ﴿وَلاَ تُسمع الصمَّ الدعاءَ إِذَا ولَّوا مدبرِين(٨٠)﴾ فإن إسماعهم فِي هَذِهِ الحالة أبعد، وإدبارهم

١ - كذا فِي الأصل، ولعلَّ الصواب: - «بل».

هاهنا كناية لعدم قبولهم. ﴿**وَمَا أنت بِهـادي العمـيِ عَـن ضلالتهـم**﴾ حيـث الاهتداء لاَ يحصل إلاَّ بالبصر، ﴿**إِن تُسمِع**﴾ أي: مَا يُجدي إسماعك ﴿**إلاَّ مَن يُؤْمِـنُ بِـآيـَاتِنا**﴾ مَـن هُـوَ فِي علـم ا لله كذلـك، ﴿**فَهُــم مُسْــلِمُون(٨١)**﴾ منقادون مستسلمون لأمر ا لله.

﴿**وإذا وقع القولُ عليهم**﴾ إِذَا دنا وقوع معناه، وَهُوَ مَا وُعـدوا بِـهِ مِـنَ البعث أو العذاب؛ (لَعَلَّهُ) وقيل: وجوب العذاب عليهم؛ وقيل: إِذَا غضب ا لله عَـلَـيْـهِـم، ﴿**أَخرَجْنا لَهُم دَابـَّة مِنَ الأَرْض**﴾ وهـي التِـي لاَ يفوتهـا هـارب، وَلاَ يُدركها طالب، ﴿**تُكَلِّـمهم**﴾ ببطلان الأديان، إلاَّ دين الإسلام فيما قيل، ﴿**أنَّ الناسَ كَانُوا بِـآيـَاتِنا لاَ يُوقِنُون(٨٢)**﴾.

﴿**ويـوم نَحشـر مِـن كُـلِّ أُمـَّة فوجـا مِمـَّن يُكـذِّب بِـآيــَاتِنا فَهُــم يُوزعُون(٨٣)**﴾ يحبس أَوَّلهم عَلَى آخرهـم ليتلاحقوا؛ وَهُوَ عبـارة عَـن كـثرة عددهم، وتباعد أطرافهم. ﴿**حَتَّى إِذَا جاءوا قَالَ: أكذَّبتـم بِـآيـَاتِي ولَم تُحيطـوا بها علما**﴾؟ أي: أكَذَّبتم بها بادئ الرأي، غير ناظرين فِيهَا نظـرا يُحيـط علمكـم بكنههـا، وَأَنـَّهَا حقيقـة بـالتصديق، ﴿**أمـَّاذا كُنتُـم تَعْمَلُون(٨٤)**﴾؟ حـين لم تَتَفكَّروا فِيهَا؛ وَمَعنَى الآيَة أكذَّبتم بِـآيـَاتِي غير عالمين بها؟.

﴿**وَوَقَع القولُ عليهم**﴾ حلَّ بهم العذاب الموعود، وَهُـوَ كَبـُّـهم فِي النَّـار بعد ذَلِكَ ﴿**بِمَا ظلموا**﴾ بسبب ظُلمهم؛ وَهُوَ التكذيب بِـآيـَاتِ ا لله، ﴿**فَهُـم لاَ ينطقُون(٨٥)**﴾ باعتذار لشغلهم بالعذاب.

﴿ألم يَرَوا﴾ ليتحقَّق لَهُمُ التوحيد، ويرشدهم إِلَىَ تجويز الحشر، وبعثة الرسـل؛ لأَنَّ تعاقب النور والظلمة عَلَى وجه مخصوص، غير متعيِّن بذاته، لاَ يكون إلاَّ بقدرة قاهرة، [٤٣٤] وَأَنَّ من قدر عَلَى إبدال الظلمة بالنور فِي مادَّة وَاحِدَة، قَدر عَلَى إبدال الموت بالحياة فِي موادِّ الأبدان، ﴿أنَّا جعلنا الليل ليسكنوا فِيهِ وَالنَّهَار مبصرا، إنَّ فِي ذَلِكَ لآيات لقوم يُؤْمِنُون(٨٦)﴾.

﴿ويوم يُنفخ فِي الصور فَفَزع مَن فِي السَّمَاوَات ومَن فِي الأَرْض إِلاَّ من شاء ا لله وكلٌّ أَتَوه داخرين(٨٧)﴾ صاغرين.

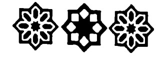
﴿وترى الجبالَ تَحسَبها جامدةً﴾ ثابتة فِي مكانها، ﴿وهي تَمرُّ مرَّ السحاب﴾ فِي السرعة؛ وذلك لأَنَّ الأجرامَ الكبار إِذَا تَحرَّكت فِي سمت وَاحِد، لاَ يكاد يتبيَّن حركتها، ﴿صُنعَ ا لله الذِي أتقنَ كُلَّ شيء﴾ أحكم كلَّ شيء، وسوَّاه عَلَى مَا ينبغي، ﴿إِنَّهُ خبير بِمَا تفعلُون(٨٨)﴾ عالم بظواهر الأفعال وبواطنها، فيجازيهم عليها، كما قَالَ:

﴿مَن جاء بالحسنة﴾ قيل: كلُّ طاعة وقعت مِن مُطيع، ﴿فله خيرٌ منها﴾ يُضاعف لَهُ بالوَاحِدَة سبعمائة، ﴿وَهُم من فزعٍ يومئذ آمنُون(٨٩)﴾ يعني: بِهِ خوف عذاب يوم القيامة. ﴿ومن جاء بالسيِّئة فكُبَّت وجوههم فِي النار﴾ (لَعَلَّهُ) كما كَانَت فِي الدُّنْيَا، ﴿هل تُجزون إِلاَّ مَا كُنتُم تَعْمَلُون(٩٠)﴾.

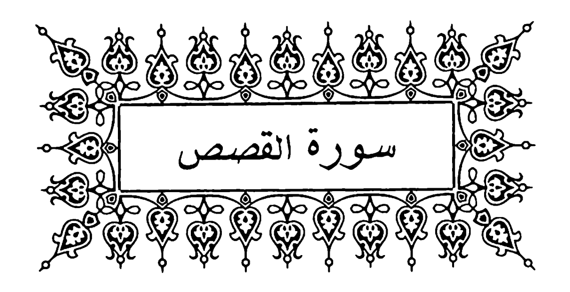
﴿إِنَّمَا أُمرتُ أن أعبدَ رَبَّ هَذِهِ البلدة الذِي حَرَّمها﴾ أَمَر الرَّسول بأن يقول لَهُم ذَلِكَ بعد مَا بيَّن المبدأَ والمعادَ، وشرح أحوال القيامة، إشعارا بأنَّه قد أتمَّ الدَّعوة، وَمَا عليه بعدُ إِلاَّ الاشتغال بشأنه والاستغراق فِي عبادة ربِّه، ﴿وَلَهُ

**﴿كُلُّ شيءٍ﴾** خلقا وملكا، **﴿وأُمِرتُ أن أكونَ مِنَ المُسْلِمِين(٩١)﴾** المنقادين. **﴿وأن أَتلُوَا القرآن﴾** وأن أُواضِب عَلَى تلاوته، لتنكشف لي حقائقه فِي تلاوته شَيْئًا فشَيْئًا؛ أو أن أَتلُوَ القرآن عَلَى الثقلين، ويُحقِّق ذَلِكَ قوله: **﴿فمن اهتدى﴾** باتِّباعه إيَّاي فِي ذَلِكَ، **﴿فَإِنَّمَا يهتدي لنفسه﴾** فإنَّ منافعه عائدة إِلَيْهِ، **﴿ومن ضلَّ﴾** بمخالفتي، **﴿فقل: إنَّمَا أنا مِنَ المنذِرين(٩٢)﴾** بِهِ، فليس عليَّ وبال ضلاله، إذ مَا عَلَى الرَّسول إلاَّ البلاغ؛ وفيه إيذان أنَّ مَن قُرئ عليه القرآن فقد قامت عليه حجَّة الله، قَبِلَها أم ردَّها.

**﴿وقل: الحمد لله﴾** عَلَى مَا علَّمني ووفَّقني للعمل بِهِ، **﴿سَيُريكم آياته﴾** القاهرة فِي الدُّنْيَا أو فِي الآخِرَة؛ أو ضرب المَلاَئِكَة وجوههم وأدبارهم، وكلُّ مَا لم يؤمنوا بِهِ؛ نظيره ﴿سأريكم آياتي﴾[1] **﴿فتعرفونها﴾** حيث لاَ ينفعكم، **﴿وَمَا ربُّكَ بغافل عمَّا تَعْمَلُون(٩٣).﴾** فلا تحسبوا أنَّ تأخير عذابكم لغفلته عمَّا تَعْمَلُونَ.



١ - سورة الأنبياء: ٣٧.



# سورة القصص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طَسِم(١) تلـك آيات الكتـاب الْمُبِـين(٢)﴾ آيـاتُ السـورة [٤٣٥] ﴿نتلو عليـك مِـن نَبـإِ موسى وفرعـون﴾ بَعض نَبَئِـهما ﴿بِالْحـَقِّ لقـوم يُؤْمِنُونَ(٣)﴾ لأَنـَّهُم المنتفعون بهِ.

﴿إِنَّ فرعـونَ عـلاَ فِي الأَرْض وجعـل أهلهـا شِيَعًا﴾ فِرَقـا ﴿يسـتضعف طائفةً مِنْهُم، يُذَبـِّحُ أبناءَهم ويستحيي نساءهم، إِنـَّهُ كَانَ مِنَ المفسـدِينَ(٤) ونريد أن نَّمُنَّ عَلَى الذِينَ اسـتُضعِفُوا فِي الأَرْض ونَجعلَهـم أئمَّـة﴾ مُقَدَّمـين فِي أمر الدِّيـن، ﴿ونجعلهـم الوارثِـينَ(٥)﴾ للأئمَّـة المتقدِّمـين، ﴿ونُمكِّـن لَهُـم فِي الأَرْض، ونُرِيَ فرعونَ وهامان وجنودَهما مِنْهُم﴾ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿مَا كَـانُوا يَحذرُونَ(٦)﴾ مِن ذهاب مُلكِهم، وذهابِهم عَلَى يد مولودٍ مِنْهُم فيما قيل.

﴿وأوحينا إِلَى أمِّ موسى﴾ بإلهام، أو رؤيـا، ﴿أن أرضِعِيـه﴾ مَـا أمكنـك إخفاؤه، ﴿فإذا خِفتِ عليه﴾ قامت عليكِ دلائـل الخـوف، ﴿فألقيـه فِي اليـمِّ وَلاَ تَخَـافِي﴾ عليـه ضياعـا وَلاَ شـدَّة، ﴿وَلاَ تَحزَنـي﴾ لفراقـه، ﴿إِنـَّا رادُّوه إِليكِ﴾ عَن قريب، بحيث تأمَنين عليه، ﴿وجاعلوه مِنَ المرسَلِينَ(٧)﴾.

﴿فالتَقَطَه آلُ فرعونَ ليكونَ لَهُم عَدُوًّا وحَزَنا﴾ تعليـل لالتقـاطهم إيـَّاه بِمَا هُوَ عاقبته، ﴿إنَّ فرعونَ وهامانَ وجنودَهما كَانُوا خاطِئِينَ(٨)﴾.

﴿وقالت امرأة فرعونَ: قرَّتُ عينٍ﴾ قرَّة العين: تَرَى مَا يسرُّها، وذلـك لأَنَّهُ أتى بِهِ الماء مِن أرضٍ أُخْـرَى، وليـس مِـن بَنِـي إِسْـرَائِيلَ؛ ﴿لي ولـكَ، لاَ تَقتلوه عسى أن ينفعنا، أو نتَّخذه ولدا، وَهُم لاَ يشـعرُونَ(٩)﴾ أي: وَهُـم لاَ يشعرون أنـَّهم عَلَى الخطإِ فِي التقاطه، أو فِي تربيته لِمَا يتوسَّمون مِنـْهُ (مِـن كلِّ شيء، إلاَّ مِن ذِكر موسى)[1].

﴿وأصبح فُؤاد أمِّ موسى فارغا﴾ (لَعَلَّهُ) مِن كُلِّ شيء، إلاَّ مِن ذِكر موسى، لِمَـا دهمهـا مِـنَ الخـوف والحـيرة حـين سمعـت بوقوعـه فِي يـدِ فرعـون؛ كقولـه: ﴿وأفئدتُهُم هَوَاء﴾[2] أي: خاليَة لاَ عقول فِيهَا، ﴿إن كَادَت لَتُبدِي بِـهِ﴾ إنـَّها كادت لتُظهِر بموسى، أي: بأمره وقصَّته، مِن فرط الضَّجَر؛ ﴿لولا أن رَبطنا عَلَى قَلبهَا﴾ بالصبر والثبات، ﴿لتكون مِنَ المؤمنِينَ(١٠)﴾ لتكون مِنَ المصدِّقين بوعد الله، إذ أُوحِيَ إِلَيْهِا مِن قبلُ فِي شأن موسى، وبأنـَّه مِنَ المرسلين.

﴿وقالت لأخته: قُصِّيهِ﴾ اتَّبعي أثره، وتـتبـَّعي خبره؛ ﴿فَبَصُرَت بِهِ عَن جُنُب﴾ عَن بُعد ﴿وَهُم لاَ يشعرُونَ(١١)﴾ أنـَّها تَقصُّ، أو أنـَّها أخته.

﴿وحرَّمنا عليه المراضعَ﴾ وَمَعنـَاه: أن يَرضِعَ مِنَ المرضعات ﴿مِن قبـل﴾ من قبل قَصِّها أثره؛ ﴿فقالت: هل أدلُّكم عَلَى أهـل بيـت يَكفُلُونـه لكـم﴾ لأجلكم ﴿وَهُم لَهُ ناصحُونَ(١٢)﴾ لاَ يُقصِّرون [٤٣٦] فِي رضاعه وتربيته.

١ - ما بين قوسين يبدو أنـَّهُ لا محلَّ له هنا، وَهُوَ تكرار لِمَا سيأتي بعد سطر.

٢ - سورة إبراهيم: ٤٣.

﴿فرددناه إِلَىٰ أمِّه كي تقرَّ عينُها وَلاَ تحزن، ولتعلمَ أنَّ وعدَ ا لله حقٌّ﴾ عِلم مشاهدة، ﴿ولكنَّ أكثرهم لاَ يَعْلَمُونَ(١٣)﴾ أنَّ وعدَ ا لله حقٌّ فَيَرتابون فِيهِ.

﴿وَلَـمَّا بَلَغَ أَشُدَّه﴾ مَبلَغه الذِي لاَ يزيد عليه نشْؤُه، ﴿واستوى﴾ صارَ رجلا. [قال] ابن عبَّاس: «الأشدُّ مَا بين ثلاث عشرة سنة إِلَىٰ ثلاثين؛ ثُمَّ هُوَ مَا بين الثلاثين إِلَىٰ الأربعين شدَّته سواء؛ فإذا طفر[1] فِي الأربعين أَخَذ فِي النقصان». وقيل: استوى قدُّه، أو عقله، أو أنهت قوَّته، واستوى عقله، وحدُّه: بأن يكون عاقلا للتعبُّد، لأَنَّهُ قيل: «الصلاة عَلَى مَن عَقَل»، فيكون بحدِّ مَن يعقلها إِذَا تعلَّمها؛ أي: الفقه والعلم والعقل فِي الدِّين، وهذا الحال يؤتى كلُّ متعبد إلاَّ من بيده...[2] ﴿آتيناه حُكما وعِلما﴾ بالدين، ﴿وكذلك﴾ ومثل ذَلِكَ الذِي فعلنا بموسى وأمِّه ﴿نجزي المحسنِينَ(١٤)﴾ عَلَى إحسانهم؛ والمعنى: أنَّه «مَن عَمِل بِمَا عَلِم ورَّثه ا لله علم مَا لم يعلم»[3].

---

١ - «طَفَر يطفِر طَفْرا وطُفورا: وثب فِي ارتفاع، وطفر الحائطَ: وثبه إِلَىٰ ما وراءه». ابن منظور: لسان العرب، ج٤/ ص٥٩٧، مَادَّة «طفر»، وهنا شبَّه الانتقال من العقد الرابع إِلَىٰ الخامس بالوثبة.

٢ - وضع الناسخ هنا إحالة إِلَىٰ الحاشية و لم يكتب فيها شَيْئًا، وَفِي العبارة نقص واضح.

٣ - لم ينصَّ هنا عَلَى أَنَّهُ حديث، وفي تفسير آخر آيَة من سورة العنكبوت أورده عَلَى أَنَّهُ حديث. ولكن لم نعثر عَلَيْهِ عند الربيع ولا فِي الكتب التسعة، ولا فِي الجامع الصغير وزياداته. ونجد رواية فِي الموضوع عن أبي الشيخ عن ابن عبَّاس جاء فيها: «العِلْمُ حَيَاةُ الإِسْلاَمِ، وَعِمَادُ الإِيمَانِ، وَمَنْ عَلِمَ عِلْمًا أَتَمَّ ا للهُ أَجْرَهُ، وَمَنْ تَعَلَّمَ فَعَمِلَ عَلَّمَهُ ا للهُ مَا لَمْ يَعْلَمْ». السيوطي: الجامع الصغير، رقم ٨٣٠٨. برنامج سلسلة كنوز السنَّة.

﴿**ودخلَ المدينة عَلَى حين غَفلة مِن أهلها**﴾ قيل: كَانَ لموسى نَفَرٌ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ يستمعون لَهُ ويقتدون (لَعَلَّهُ) بِهِ؛ فَلَمَّا عرف مَا هو عليه مِنَ الحقِّ، رأى فراق فرعون وقومه، فخالفهم فِي دينه، حتَّى (لَعَلَّهُ) ذكر ذَلِكَ مِنْهُ وخافوه وخافهم، (لَعَلَّهُ) وكَانَ لاَ يدخل فريدا إلاَّ خائفا (لَعَلَّهُ) مستخفيا؛ فدخلها يوما عَلَى حِينِ غفلة من أهلها ﴿**فوجد فِيهَا رجلين يقتتلان، هَذَا مِن شيعته وهذا من عدوِّه، فاستغاثه الذِي مِن شيعتِه عَلَى الذِي مِن عدوِّه، فوكزه موسى فقضى عليه**﴾ فقتله، وأصله أنهى حياته، مِن قوله: ﴿وقضينا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمرَ﴾[1]. ﴿**قَالَ: هَذَا مِن عملِ الشيطان**﴾ لأَنَّهُ لم يُؤمَر بقتله، وكلُّ شيء لم يَأْمُر ا لله بِهِ بَل نهى عَنْهُ وعَمِلَه العامل فلا شكَّ أنَّه مِن عمل الشيطان، ﴿**إِنَّهُ عدوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ(١٥)**﴾ ظاهر العداوة، ومِن شأنه يصدُّ النَّاس عَن الحقِّ إِلىَ الضلالة.

﴿**قَالَ: رَبِّ إِنِّي ظَلَمتُ نفسي**﴾ بقتله، ﴿**فاغفر لي؛ فغفر لَهُ إِنَّهُ هُوَ الغَفُور الرحيم(١٦) قَالَ: رَبِّ بِمَا أنعمتَ عليَّ، فلن أكون ظهيرا للمجرمِينَ[2](١٧)**﴾ بالمغفرة؛ وقيل معناه: بِمَا أنعمت عليَّ مِنَ القوَّة أُعِين أولياءك، فلن أستعملها فِي مظاهرة أعدائك.

﴿**فأصبح فِي المدينة خائفا يترقَّب**﴾ الاستقادة، ﴿**فإذا الذِي استنصره بالأمس يستصرخه**﴾ يستغيثه مشتقٌّ مِنَ الصُّراخ؛ [٤٣٧] ﴿**قَالَ لَهُ موسى: إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ(١٨)**﴾ بيِّنُ الغوايةِ، لأنَّك تسبَّبت لقتل رجل وتقاتل آخر.

---

١ - سورة الحجر: ٦٦.

٢ - فِي الأصل: «للمؤمنين»، وهو خطأ فاحش.

﴿فَلَـمَّا أن أَرَادَ أن يبطشَ بالذي هُوَ عدوٌّ لهمـا﴾ لموسى والإسرائيليّ، لأَنَّهُ لم يكن عَلَى دينهما؛ أو لأَنَّ القِبطَ كَانُوا أعداء بَنِي إِسْرَائِيلَ، ﴿قَالَ: ياموسى أتريد أن تقتلني كما قَتلتَ نفسا بالأمس﴾؟ قيل: قَالَ لَهُ الإسرائيليُّ لـمَّا سمَّاه غويًّا ظنَّ أنَّه يبطش عليه؛ أو القبطي، وَكَأَنَّهُ توهَّم مِن قوله أنَّه الذِي قتله القبطي بالأمس لهذا الإسرائيلي[1]؛ ﴿إن تُريد﴾ مَا تريد ﴿إلاَّ أن تكون جبَّارا فِي الأَرْض﴾ تَطاوِل عَلَى النَّاس، وَلاَ تنظر إِلَى العواقب، ﴿وَمَا تريدُ أن تكونَ مِنَ المصلحِينَ(١٩)﴾ أمورك، أو بين النَّاس، بدفع التخاصم بالتِي هِيَ أحسن؛ قيل: لـمَّا قَالَ، انتشر الحديث وارتقى إِلَى فرعون وملئه، وهمُّوا بقتله؛ فخرج مُؤْمِن مِن آل فرعون ليخبره بِمَا عَلِم فقال:

﴿وجاء رجلٌ مِن أقصى المدينة﴾ مِن آخرها ﴿يسعى﴾ يُسرع، ﴿قَالَ: يا موسى إنَّ الملأَ يَأتَمِرون بك ليقتلوك، فاخرج إنِّي لك مِنَ الناصحِينَ(٢٠) فخرج منها خائفا يترَقَّب﴾ الطلب، ﴿قَالَ: رَبِّ نَجِّنِي مِنَ القوم الظالِمِينَ(٢١)﴾ خلِّصني مِنْهُم، واحفظني مِن لحوقهم، أو مِن عملهم.

﴿وَلَـمَّا توجَّه تلقاءَ مدين﴾ قُبَالة مَدين، قرية شعيب، ولم تكن فِي سلطان فرعون؛ ﴿قَالَ: عسى رَبِّي أن يَهدِيَنِي سواءَ السبيل(٢٢)﴾ توكُّلا عَلَى الله، وحسنَ ظنٍّ بِهِ، وكَانَ لاَ يعرف الطرق.

﴿وَلَـمَّا وَرَدَ ماءَ مدين﴾ وصل إِلَيْهِ، وَهُوَ بئر كَانُوا يسقون منها، ﴿وجد عليه أُمَّة مِنَ الناس﴾ جماعة ﴿يسقون﴾ قيل: مواشيهم، ﴿ووجد

---

١ - لَعَلَّ مَعْنَى العبارة: وَكَأَنَّهُ توهَّم القبطيُّ بقول موسى للإسرائيليِّ: «إِنَّكَ لغويٌّ مبين» أَنَّ ذَلِكَ الإسرائيليَّ هو الذي قتل القبطيَّ بالأمس. وَا لله أعلم.

**مِن دونهم امرأتين تَذودَان** قيل: تَمنعان أغنامهما مِنَ الماء لئلاَّ تختلط بأغنامهم، **﴿قَالَ: مَا خطبكما﴾**؟ مَا شأنكما تذودان؟ **﴿قالتا: لاَ نسقي حَتَّى يُصدرَ الرعاءُ وأبونا شيخٌ كبير(٢٣)﴾** كبيرُ السِّنِّ.

**﴿فسقَى لهما﴾** مواشيهما **﴿ثمَّ تولىَّ إِلىَ الظلِّ، فقال: رَبِّ إِنـِّي لِمَا أنزلتَ﴾** أيِّ شيءٍ أنزلت **﴿إِليَّ مِن خير﴾** يدعو عَلَى معنى دعاء المضطرِّ، **﴿فقير(٢٤)﴾** محتاج، يبلغ بِهِ إِلىَ درجات الخير الحقيقيِّ.

**﴿فجاءته إحداهما تَمشي عَلَى استحياء، قالت: إنَّ أَبـِي يدعوك لِيَجزيَك﴾** ليكافئك **﴿أجر مَا سَقَيت لَنَا﴾** جزاءَ سقيك لَنَا؛ **﴿فَلَمَّا جاءه وقصَّ عليه القَصَصَ، قَالَ: لاَ تَخف نَجَوتَ مِنَ القوم الظالِمِينَ(٢٥) قالت إحداهما: يا أبتِ استأجِره﴾** لِرعي الغنم **﴿إنَّ خيرَ مَن استأجرتَ القويُّ الأمِينُ(٢٦)﴾** أي: خير من استعملت، مَن قَوِيَ عَلَى العمل، وأدَّى [٤٣٨] الأمانة. وروِيَ أنَّ شعيبا قَالَ لها: وَمَا عِلمك بقوَّته وأمانته؟ فذكرت إقلال الحجر، وأنَّه صوَّب رأسه حتَّى بلغته رسالته، وأمرها بالمشي خلفه.

**﴿قَالَ إِنـِّي أُريد أن أُنكِحَك إحدى ابنتيَّ هاتين عَلَى أن تَأجُرَني﴾** تؤجر نفسك منِّي **﴿ثماني حِجَج، فإن أَتْممت عشرا فمن عندك، وَمَا أريد أن أشقَّ عليك﴾** قيل: بإلزام إتمام العشر، أو المناقشة فِي مراعاة الأوقات، واستيفاء الأعمال، **﴿ستجدني إن شاءَ الله مِنَ الصالِحِينَ(٢٧)﴾** فِي حسن المعاملة، ولين الجانب، والوفاء بالعهد.

**﴿قَالَ: ذَلِكَ بَينِي وبينَك﴾** أي: ذَلِكَ الذِي عاهدتني فِيهِ قائم بيننا، لاَ نَخرج عَنْهُ، **﴿أيـَّمَا الأجلين قضيتُ﴾** وفَّيتُ **﴿فلا عُدوَان عليَّ﴾** تَتَعدَّى

عليَّ بطلب الزيادة، ﴿والله عَلَى مَا نقولُ﴾ مِنَ المعاقدة ﴿وكيلٌ(٢٨)﴾ شاهد حفيظ.

﴿فَلَمَّا قَضَى موسى الأجل وسار بأهله، آنس مِن جانبِ الطورِ نارا﴾ أبصر مِنَ الجهة التِي تَلي الطور؛ ﴿قَالَ لأهله: امكثوا إنِّي آنست نارا لعلِّي آتيكم منها بخبر، أو جذوة مِنَ النار لَعَلَّكُم تصطلُونَ(٢٩)﴾.

﴿فَلَمَّا أتاها نودي مِن شاطئِ الوادي الأيمن﴾ عَن يمين موسى، ﴿فِي البقعة المباركة﴾ نُبَارِك الخير (لَعَلَّهُ) بها لموسى بنزول الوحي إِلَيْهِ فِيهَا، وصار مِنَ النبيئين المرسلين، ﴿مِنَ الشجرةِ: أنْ يا موسى إنِّي أنَا ا لله رَبُّ الْعَالَمِينَ(٣٠) وأنْ ألقِ عصاك، فَلَمَّا رآها تهتزُّ كأنَّها جانٌّ﴾ فِي الهيئة أو فِي السرعة، ﴿ولَّى مدبرا ولم يُعقِّب﴾ ولم يرجع ﴿يا موسى أقبل وَلاَ تخف إنَّكَ مِنَ الآمنِينَ(٣١) اسلك يدك فِي جيبك تَخرجْ بيضاء مِن غير سوء، واضمم إليك جناحَك﴾ قيل: يَدَكَ ﴿من الرَّهَبِ فذانِك برهانان مِن رَبِّكَ إِلَى فرعون ومَلَئِه إنَّهُمْ كَانُوا قوما فاسقِينَ(٣٢)﴾.

﴿قَالَ: رَبِّ إِنِّي قتلت مِنْهُم نفسا فأخاف أن يَقتلوني(٣٣) وأخي هارون هُوَ أفصحُ منِّي لسانا﴾ أحسن مِنِّي بيانا، ﴿فأرسله معي رِدْءًا﴾ مُعينا ﴿يُصدِّقني، إنِّي أخافُ أن يكذِّبون(٣٤)﴾ ولساني لاَ يطاوعني عند المجادلة؛ وقيل: المراد تصديق القوم لتقريره وتوضيحه، ولكنَّه أسند إِلَيْهِ إسناد الفعل إِلَى السبب.

﴿قَالَ: سنشُدُّ عَضُدَكَ بأخيك﴾ سَنُقوِّيك، وإنَّ قوَّة الشخص بشدَّة اليد عَلَى مزاولة الأمور، ﴿ونجعل لكما سلطانا﴾ غلبةً وحجَّة، ﴿فلا يصلون

إليكما﴾ باستيلاء أو حِجاج ﴿بِآيَاتِنا، أنتما ومن اتّبعكما الغالبُونَ(٣٥)﴾.

﴿فَلَمَّا جاءهم موسى بِآيَاتِنا بَيِّنَات، قَالُوا: مَا هَذَا إِلاَّ سِحرٌ مُفتَرًى وَمَا سمعنا بهذا فِي آبائنا الأَوَّلِينَ(٣٦) وقال موسى: رَبِّي أعلم بمن جاء بالهُدَى مِن عندِهِ﴾ يعلم أَنِّي مُحقٌّ، وأنتم مُبطلون، ﴿ومَن تكون لَهُ عاقبةُ الدارِ﴾ العاقبة المحمودة، فإنَّ [٤٣٩] المراد بالدار الدُّنيَا وعاقبتَها الأصليَّة، وهي الجنَّة، لأَنَّها خُلقت مجازا إِلىَ الآخِرَة؛ والمقصود منها بالذَّات هُوَ الثواب للموحِّدين، والعقاب للمشركين العابدين غير ا لله، ﴿إِنَّهُ لاَ يُفلح الظَّالِمُونَ(٣٧)﴾ لاَ يفوزون بالهدى فِي الدُّنْيَا، وحسن العاقبة فِي العقبى.

﴿وقال فرعون: يَا أَيُّهَا الملأُ مَا عَلِمتُ لكم مِن إلهٍ غيري، فأوقد لي ياهامان عَلَى الطينِ، فاجعل لي صرحا لَعَلِّي أطَّلعُ إِلىَ إِلَهِ موسى وَإِنِّي لأظنُّه مِنَ الكاذبِينَ(٣٨) واستكبر هُوَ وجنودُه فِي الأَرْض بغير الحَقِّ﴾ بغير استحقاق، ﴿وظنُّوا أَنَّهُمْ إلينا لاَ يرجعُونَ(٣٩)﴾ بالنشور.

﴿فأخذناه وجنودَه فنبذناهم فِي اليمِّ، فانظر﴾ يا محمَّد ﴿كيف كَانَ عاقبةُ الظالِمِينَ(٤٠) وجعلناهم أَئِمَّةً﴾ قُدوة للضُّلاَّل بالحمل عَلَى الإضلال. ﴿يدعون إِلىَ النار﴾ إِلىَ مُوجباتها مِنَ الكفر والمعاصي، ﴿ويوم القيامة لاَ يُنصرُونَ(٤١)﴾ بدفع العذاب. ﴿وأتبعناهم فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لعنةً﴾ طردا عَن الرحمة، ﴿ويوم القيامة هم مِنَ المقبوحِينَ(٤٢)﴾ مِنَ المطرودين، أو مِمَّن قُبِّح وجوههم.

﴿وَلَقَد آتينا موسى الكتابَ مِن بعد مَا أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس﴾ أنوارا لقلوبهم يستبصرون بها الحقائق، ويميِّزون بينها وبين الظواهر، ﴿وهدًى﴾ للشرائع التِي هِيَ سبيل الجنَّة، ﴿ورحمة﴾ لأنَّهُم لو عَمِلُوا بها نالوا رحمةَ ا لله ﴿لعلَّهم يتذكَّرُونَ(٤٣)﴾ ليكونوا عَلَى حالٍ يُرجى مِنْهُم التذكُّر.

﴿وَمَا كنتَ بجانبِ الغربيِّ﴾ قيل: الوادي، أو الطور؛ والخطاب لرسول ا لله ﷺ، أي: مَا كنت حاضرا ﴿إذ قضينا إلَى موسىَ الأمرَ﴾ إذ أوحينا إِلَيْهِ الأمر، ﴿وَمَا كنتَ مِنَ الشاهدِينَ(٤٤)﴾ والمراد: الدلالة عَلَى أنَّ إخباره عَن ذَلِكَ مِن قبيل الإخبار عَن المغيبات التِي لاَ تُعرف إلاَّ بالوحي؛ ولذلك استدرك عَنْهُ بقوله:

﴿ولكنَّا أنشأنا قُرونا فتطاول عَلَيْهِمُ العُمُرُ﴾ أي: ولكنَّا أوحينا إليك لأنَّا أنشأنا قرونا مختلفة بعد موسى، فتطاول عَلَيْهِمُ المدَد، فحُرِّفت الأخبار، وتغيَّرت الشرائع، واندرست العلوم، ﴿وَمَا كنت ثاويا﴾ مُقِيما ﴿فِي أهل مدينَ تتلو عليهم﴾ تقرأ عَلَيْهِم تعلُّما مِنْهُم ﴿آياتنا﴾ التِي فِيهَا قصَّتهم، ﴿ولكنَّا كُنَّا مُرسِلِينَ(٤٥)﴾ إيَّاك، ومُخبرين لك بها.

﴿وَمَا كنت﴾ فِي القصَّة ﴿بجانب الطور إذ نادينا[1] ولكن رَّحمة مِن رَبِّكَ﴾ ولكن علَّمناك رحمةً ﴿لتنذر قوما مَا أتاهم مِن نذيرٍ مِن قَبْلِكَ﴾ لوقوعهم فِي فترة بينك وبين عيسى وبين إسماعيل، عَلَى أنَّ دعوة موسى وعيسى مُختصَّة بِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمَا حواليهم ﴿لعلَّهم يتذكَّرُونَ(٤٦)﴾ يتَّعظون.

١ - فِي الأصل: - «بِجانب الطور إذ نادينا»، وهو سهو.

﴿ولولا أنْ تُصيبَهم مُصيبةٌ﴾ (لَعَلَّهُ) عقوبة ونقمة، ﴿بِمَا قدَّمت أيديهم﴾ مِنَ الكفر والمعاصي، ﴿فيقولوا: رَبَّنَا لولا﴾ هلاَّ ﴿أرسلتَ إلينا رسولا﴾ لعلَّ المعنى: لولا قولهم إذَا مَا أصابتهم عقوبة ومصيبة بسبب كفرهم ومعاصيهم: «رَبَّنَا لولا أرسلت» [٤٤٠] هلاَّ أرسلت إلينا رسولاً يُبلِّغنا آياتك فنتَّبعها، ونكون مِنَ المصدِّقين، ﴿فَنتَّبع آياتك﴾ يعني: الرَّسول المصدَّق بنوع مِنَ المعجزات، ﴿ونكون مِنَ المؤمنِينَ(٤٧)﴾.

﴿فَلَمَّا جاءهم الحَقُّ مِن عندنا، قَالُوا: لولا أُوتِي مثل مَا أوتي موسى، أولم يكفروا بِمَا أُوتي موسى مِن قبلُ﴾ يعني: أبناء جنسهم في الرأي والمذهب، وَهُم كفرة زمانِ موسى، ﴿قَالُوا: سِحرَانِ﴾ يعني: موسى وهارون؛ أو موسى ومحمَّد ﴿تَظَاهَرا﴾ تعاونا بإظهار تلك الخوارق؛ أو بتوافق الكتابين، ﴿وَقَالُوا: إنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ(٤٨)﴾ أي: بِكُلٍّ منهما.

﴿قل فأتوا بكتابٍ مِن عندِ ا لله هُوَ أهدى منهما﴾ مِمَّا نزل عَلَى موسى وعلى محمَّد، وإظهارهما لدلالة المعنى، ﴿أتَّبعْه إن كُنتُم صادقِينَ(٤٩)﴾ أنَّا ساحران مُختلفان، لأَنَّهُ واجب عَلَى كُلِّ مُؤْمِن اتِّبَاع مَا هُوَ أهدى سبيلا.

﴿فإن لم يستجيبوا لك، فاعلم أنَّمَا يتَّبعون أهواءهم﴾ إذ المقصود مِنْهُم أن يعبدوها، ﴿ومَن أضلُّ مِمَّن اتَّبع هواه بغير هدى مِنَ ا لله﴾ فِي موضع الحال للتقييد، فإنَّ هوى النفس قد يُوافق الحقَّ في حال، ﴿إنَّ ا لله لاَ يهدي القوم الظالِمِينَ(٥٠)﴾ الذينَ ظلموا أنفسهم بالانهماك فِي اتِّباع الهوى.

﴿وَلَقَد وصَّلنا لَهُمُ القول﴾ أتبعنا بعضه بعضا فِي الإنزال، ليتّصل التذكير؛ وقيل: وصَّلنا لَهُم خبر الدُّنْيَا بخبر الآخِرَة، حتَّى كأنَّهم عاينوا الآخِرَة فِي الدُّنْيَا؛ أو فِي النظم، لتتقرَّر الدعوة بالحجَّة، والمواعظ بالمواعيد، والنصائح بالعبر؛ ﴿لعلَّهم يتذكَّرُونَ(٥١)﴾ فيؤمنون ويطيعون.

﴿الذِينَ آتيناهم الكتاب مِن قبله هم بِهِ يُؤْمِنُونَ(٥٢)﴾ قيل: نزلت فِي مؤمني أهل الكتاب. ﴿وإذا يُتلى عَلَيْهِم، قَالُوا: آمنَّا بِهِ إِنَّهُ الحَقُّ من رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قبله مُسْلِمِينَ(٥٣)﴾ دلالة عَلَى أنَّ إيمانهم بِهِ ليس مِمَّا أحدثوه حينئذ، وإنَّما هُوَ أمر تَقَادَم عهدُه، لـمَّا رأو ذكره فِي الكتب المتقدِّمة، وكونهم عَلَى دين الإسلام قبل نزول القرآن، أو تلاوته عَلَيْهِم، باعتقادهم صحَّته فِي الجملة.

﴿أُولَـئِكَ يُؤتَوْنَ أجرَهم مَرَّتين﴾ مرَّة عَلَى إيمانهم بكتابهم، ومرَّة عَلَى إيمانهم بالقرآن، ﴿بِمَا صبروا﴾ بصبرهم وثباتهم عَلَى الإيمانين، ﴿ويَدرَءون بالحسنةِ السيِّئةَ﴾ ويدفعون بالطَّاعة المعصيةَ؛ أو يدفعون بالتِي هِيَ أحسن مَن أساء إِلَيْهِم، ﴿ومِمَّا رزقناهم ينفِقُونَ(٥٤)﴾ فِي سبيل الخير. ﴿وإذا سمعوا اللغوَ أعرضوا عَنْهُ﴾ تكرُّما، ﴿وَقَالُوا﴾ للاَّغين: ﴿لَنَا أعمالنا ولكم أعمالكم، سلامٌ عليكم﴾ متاركة لَهُم وتوديعا، معناه: أسلمتم مِنَّا لاَ نعارضكم بالشتم، ﴿لاَ نبتغي الجاهلِينَ(٥٥)﴾ لاَ نريد صحبتهم عَلَى دينهم، أو لاَ نريد أذاهم ومقاومتهم بالباطل.

﴿إنَّك لاَ تهدي مَن أحببتَ﴾ أي: مَن أحببت هِدايته؛ وقيل: أحببتَه لقرابته، فإنَّك لاَ تقدر أن تهديه، ﴿ولكنَّ الله يهدي مَن يَشَاء [٤٤١] وَهُوَ أعلم بالمهتدِينَ(٥٦)﴾ بالمستعدِّين لذلك، وَهُم من قدَّر لَهُم (لَعَلَّهُ) الهدى.

﴿وَقَالُوا إن نتَّبِعِ الهدى معك نُتَخطَّفْ مِن أرضنا﴾ نُخرج منهـا، تعلُّلا مِنْهُم لاغترارهم بالباطل، بِمَا خَيَّل لَهُـمُ الشيطان أنـَّه لاَ يقـوم لَهُـم عزُّهـم دونه، وَهُوَ كقوله: ﴿فترى الذيـنَ فِي قلوبهـم مـرض يسـارعون فِيهِـم...﴾[1] [إِلىَ] تمام الآية، وكقوله: ﴿يقولون: إنَّ بيوتنا عـورة وَمَـا هِـيَ بعـورةٍ...﴾[2] الآيَـة. ﴿أولَم نُمكّن لَهُم حَرَمًا آمنـا﴾ أولَـم نجعـل مكـانهم حَرَمـا ذا أمـنٍ، ﴿يُجبى إِلَـيْـهِ﴾ يُحمل إِلَيْـهِ ﴿ثَمرات كُـلِّ شـيء رزقـا مِـن لدنـَّا ولكـنَّ أكثرهم لاَ يَعْلَمُونَ(٥٧)﴾ جهلة لاَ يتفطَّنون وَلاَ يتفكَّـرون ليعلمـوا؛ وقيـل: إنـَّه متعلّق بقوله: ﴿مِن لدنـَّا﴾ أي: قليـل منهـم ليتدبَّـروا فيعلمـون أنَّ ذَلِـكَ رزق مِنَ ا لله، إذ لو علموا لَمَا خافوا غَيْره؛ ثُمَّ بيَّن أنَّ الأمر بالعكس، بأنـَّهم أحقـَّاء بأن يخافوا من بأس ا لله، عَلَى مَا هم عليه بقوله:

﴿وكم أهلكنا مِـن قريـة بَطِـرَت مَعيشـتها﴾ أي: وكـم مـن أهـل قريـة كَـانَت حـالهم كحـالهم فِي الأمـن وخفـض العيـش، حتّـى أشِـرُوا فدمَّــر ا لله عَـلَيْـهِـم، فخـرَّب ديـارهم، ﴿فتلـك مسـاكنهم﴾ خاويـة، ﴿لَم تُسـكن مِـن بعدهم إلاَّ قليلا، وَكُنَّا نَحْنُ الوارِثِينَ(٥٨)﴾ مِنْهُم.

﴿وَمَا كَانَ رَبـُّكَ مُهلِك القرى حَتَّى يَبعث فِي أمـِّها﴾ فِي أصلهـا التِـي عليهـا مـدار أمرهـم، لأَنَّ أهلهـا أفطـنُ وأنبـل؛ ولأنَّ القـرى تابعـة لأمـِّـها فِي

١ - سورة المائدة: ٥٢؛ وتمامها: ﴿يقولون: نَخشى أن تصيبنا دائرة، فعسـى ا لله أن يـأتي بالفتح أو أمر من عنده، فيصبحوا على ما أسرُّوا في أنفسهم نادمين﴾.

٢ - سورة الأحزاب: ١٣؛ وتمامها: ﴿ويستأذن فريق منهم النبيَّ يقولـون: إنَّ بيوتنـا عـورة وما هي بعورة إن يُريدون إلاَّ فرارا﴾.

الأعمال عَلَى الأغلب مِنَ الأمور، فيستحقُّون مَـا يستحقُّون، ﴿**رسـولا يتلـو عَـلَـيْـهِـم آياتنا**﴾ لإلزام[1] الحجَّة، وقطع المعذرة؛ ﴿**وَمَا كُنَّا مُهلكي القـرى إلاَّ وأهلها ظَالِمُونَ(٥٩)**﴾ بتكذيب الرسل، والعتوِّ فِي الكفر.

﴿**وَمَا أوتيتم من شيء**﴾ مـن أسباب الدُّنْـيَا، ﴿**فمتـاعُ الحيـاة الدُّنْـيَا وزينَتُـها**﴾ تتمتَّعون وتتزيَّنون بِهِ مـدَّة حَيـاتكم المنقضيـة، ﴿**وَمَـا عنـد الله**﴾ وَهُوَ ثوابه ﴿**خير**﴾ خير فِي نفسه مِن ذَلِكَ، لأَنَّهُ لذَّة خالصة، وبهجة كاملـة، ﴿**وأبقى**﴾ لأَنَّهُ أبديٌّ، ﴿**أفـلا تعقلُـونَ(٦٠)**﴾ فتسـتبدلون الـذِي هُـوَ أدنـى بالذي هُوَ خير؟.

﴿**أفمـن وعدنـاه وعـدا حسـنا**﴾ وعـدا بالجـنَّة، فـإنَّ حُسـن الموعـد بِحُسـن الموعـود، ﴿**فهـو لاَقِيـه**﴾ مُـدرك لاَ مَحالـة، لامتنـاع الـخُلف فِي وعـده، ﴿**كمـن متَّعناه متاعَ الحياةِ الدُّنْـيَا**﴾ الذِي هُوَ مَشُوب بالآلام، مكدَّر بالمتـاعب، مستعقب للتحسُّر عَلَى الانقطاع، ﴿**ثمَّ هُوَ يوم القيامة مِنَ المحضرِينَ(٦١)**﴾ للعذاب.

﴿**ويوم يناديهم فيقول: أيـن شـركائي**﴾ أي: مَـا عبـدتم فِي الدُّنْـيَا مـن دوني ﴿**الذِينَ كُنتُـم تزعمُونَ(٦٢)**﴾؟ تدَّعـون، ﴿**قَـالَ الذِيـنَ حـقَّ عَلَيْهِـمُ القـول**﴾ بثبوت مُقتضاه، وحصول مؤدَّاه، وَهُـوَ قولـه: ﴿لأمـلأنَّ جهنَّـم مِـنَ الجـنَّة والناس أجمعين﴾[2]. ﴿**رَبَّنَا هؤلاء الذِينَ أغوينا أغويناهم كما غوينا**﴾ دلالة عَلَى أنَّـهم غَوَوا [٤٤٢] باختيارهم، وَأَنَّـهُمْ لم يفعلوا بهـم إلاَّ وسوسـة

---

١ - فِي الأَصْلِ: «لا رام»، وَهُوَ خطأ.

٢ - سورة هود: ١١٩؛ وسورة السجدة: ١٣.

وتسويلا، ﴿**تبرَّأنا إليك**﴾ مِنْهُم، وممَّا اختاروه مِنَ الكفر، ﴿**مَا كَانُوا إيَّانا يعبدُونَ(٦٣)**﴾ أي: مَا كَانُوا يعبدوننا، وإنَّما كَانُوا يعبدون أهواءهم؛ وقيل: "مَا" مصدريَّة؛ أي: تبرَّأنا من عبادتهم.

﴿**وقيل: ادعوا شركاءَكم فدعوهم**﴾ من فرط الحيرة، ﴿**فلم يستجيبوا لَهُم**﴾ لعجزهم عَن الإجابة والنصرة، ﴿**ورأوا العذاب**﴾ لازما بهم، ﴿**لو أنَّهُمْ كَانُوا يهتدُونَ(٦٤)**﴾ لوجهٍ مِنَ الحيل يدفعون بِهِ العذاب، وإلى الحقِّ لمَّا رأو العذاب؛ وقيل: "لَوْ" للتمنِّي، أي: تمنَّوا أنَّهم كَانُوا مهتدين.

﴿**ويوم يناديهم، فيقول: ماذا أجبتم المرسلِينَ(٦٥)**﴾ عطف عَلَى الأوَّل، فإنَّه تعالى يسأل أوَّلا عَن إشراكهم بِهِ، ثُمَّ عَن تكذيبهم الأنبياء. ﴿**فَعَمِيَت عَلَيْهِمُ الأنباءُ يومئذ**﴾ فصارت الأنباء كالعمى عَلَيْهِم، ﴿**فَهُم لاَ يتساءلُونَ(٦٦)**﴾ لاَ يسأل بعضهم بعضا. ﴿**فأمَّا مَن تاب**﴾ مِن معاصيه ﴿**وآمن وعمل صالحا**﴾ جَمع بين الإيمان والعمل الصالح، ﴿**فَعَسى أن يكون مِنَ المفلحِينَ(٦٧)**﴾ عند ا لله؛ و"عَسَى" مِنَ ا لله واجب.

﴿**ورَبُّكَ يَخلق مَا يَشَاء ويَختار**﴾ لاَ موجب عليه، وَلاَ مانع لَهُ، ﴿**مَا كَانَ لَهُمُ الخيرة**﴾ أي: التخيُّر؛ وظاهره نفيُ الاختيار عَنْهُم رأسا؛ والأمر كذلك عند أهل التحقيق؛ فإنَّ اختيار العباد مخلوق باختيار ا لله، منوط بدواعٍ لاَ اختيار لَهُم فيها؛ وقيل: المَعنَى ويَختار الذِي كَانَ لَهُم فِيهِ الخيرة؛ أي: الخير والصلاح لِمَن اختاره مِنْهُم، ﴿**سبحان ا لله**﴾ تنزيها لَهُ أن يُنَازعه أحد، ويُزاحِمَ اختيارَه اختيارٌ، ﴿**وتعالى عمَّا يُشركُونَ(٦٨)**﴾ عَن إشراكهم، أو مشاركة مَا يُشركون بِهِ.

﴿وربُّكَ يعلم مَا تُكِنُّ صدورهم﴾ مِنَ العقائد الفاسدة، ليس بغافل عنها، بَل مُجازٍ عليها أشدَّ الجزاء، ﴿وَمَا يُعلنونَ(٦٩)﴾ يُظهرون. ﴿وَهُوَ ا للهُ﴾ المستحقُّ للعبادة، ﴿لاَ إله إلاَّ هُوَ﴾ لاَ أحدَ يستحقُّها إلاَّ هُوَ، ﴿لَهُ الحمد فِي الأولى والآخِرَة﴾ لأنَّهُ المولي للنعم كلِّها، عاجلها وآجلها؛ يحمده المؤمنون فِي الآخِرَة، كما حمدوه فِي الدنيا بقولهم: ﴿الحمد لله الذِي أذهَبَ عنَّا الحَزَنَ﴾[1] ﴿الحمد لله الذِي صَدَقَنا وعدَهُ﴾[2] ابتهاجا بفضله، والتذاذا بحمده، ﴿وَلَهُ الحكم﴾ القضاءُ النافذُ فِي كُلِّ شيء، ﴿وَإِلَيْهِ تُرجَعُونَ(٧٠)﴾ بالنشور.

﴿قل أرأيتم إنْ جَعَلَ ا لله عَلَيْكُم اللَّيْلَ سَرمدا﴾ دائما؛ مِنَ السرمد، ﴿إلَى يوم القيامة﴾ بإسكَانَ الشمس تحت الأَرْض؛ أو حيث علم ا لله، ﴿مَن إلهٌ غير ا لله يأتيكم بضياء، أفلا تسمعُونَ(٧١)﴾؟! سماعَ تدبُّر واستبصار. ﴿قل أرأيتم إن جعل ا لله عَلَيْكُم النَّهَارَ سرمدا إلَى يوم القيامة مَن إلهٌ [٤٤٣] غيرُ ا لله يأتيكم بليل تَسكنون فِيهِ﴾؟ استراحة عَن متاعب الأشغال، وذلك مِمَّا يُذكِّرنا ا لله مِن نِعَمه، ﴿أفلا تُبصِرُونَ(٧٢)﴾ استبصارَ انتفاعٍ. ﴿ومن رحمته جعل لكم اللَّيْل وَالنَّهَار لتسكنوا فِيهِ، ولتبتغوا من فضله ولَعَلَّكُمْ تشكرُونَ(٧٣)﴾ ولكي تعرفوا نعمة ا لله فِي ذَلِكَ فتشكروه عليها.

﴿ويوم يُناديهم فيقول: أين شركائي الذِينَ كُنتُم تزعمُونَ(٧٤)﴾؟ تقريع بعد تقريع، إشعار بأنَّه لاَ شيء أجلب لغضب ا لله مِنَ الإشراك بِهِ؛ أو

---

١ - سورة فاطر: ٣٤.

٢ - سورة الزمر: ٧٤.

الأوَّل لتقرير فسادِ رأيهم؛ والثاني لبيان أنَّه لم يكن عَن سند، وإنَّما كَانَ مَحض تشهٍّ وهوى.

﴿ونزعنا﴾ وأخرجنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شهيدا﴾ وَهُوَ كلٌّ من نَبيٍّ، أو عالم يشهد عَلَيْهِم بِمَا كَانُوا عليه فِي الدُّنْيَا؛ ﴿فقلنا﴾ للأمم الضالَّة: ﴿هاتوا برهانكم﴾ عَلَى صِحَّة مَا كُنتُم تَدينون بِهِ، أو عَلَى بُطلان شهادة الشاهد عَلَيْكُم؛ ﴿فعلموا﴾ حينئذ ﴿أنَّ الحَقَّ للهِ﴾ فِي الأُلُوهِيَّة، لاَ يشاركه فِيهَا أحد، ﴿وضلَّ عَنْهُم﴾ وغاب عَنْهُم غيبة الضائع، ﴿مَا كَانُوا يفترُونَ(٧٥)﴾ مِنَ الباطل.

﴿إنَّ قارون كَانَ مِن قوم موسى فبغى عَلَيْهِم، وآتيناه مِنَ الكنوز مَا إنَّ مفاتِحه لَتَنُوءُ بالعُصْبَة أولِي القُوَّةِ﴾ قيل: نَاءَ بِهِ الحمل: إِذَا أثقله[1] حتَّى أماله؛ والعصبة: الجماعة الكبيرة؛ ﴿إذ قَالَ لَهُ قومُه لاَ تفرح﴾ لاَ تبطر؛ والفرح بالدُّنْيَا مذموم مُطلقا، لأَنَّهُ نتيجة حُبِّها والرضا بها، والذهول عَن ذهابها، فإنَّ للعلم بأنَّ مَا فِيهَا مِنَ اللذَّة مفارقه لاَ مَحالة، توجب التَّرَح كما قَالَ:

أشدُّ الغمِّ عندي فِي سرور ... تيقَّن عَنْهُ صاحبه انتقالا

ولذلك قَالَ تعالى: ﴿وَلاَ تفرحوا بِمَا أتاكم﴾[2] وعلَّل النهي هاهنا بكونِه مانعا مِن مَحَبَّة الله تعالى، ﴿إنَّ الله لاَ يُحِبُّ الفرِحِينَ(٧٦)﴾ (لَعَلَّهُ) الملتهين بزخرف الدُّنْيَا.

---

١ - فِي الأَصْلِ: «ثقله». انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج٦/ ص٧٣٥، مَادَّة «نوأ».

٢ - سورة الحديد: ٢٣.

﴿وابتغ فيما آتاك الله﴾ مِنَ الأموال والأولاد والأزواج، وقوَّة الأجسام وصحَّتها، والعلم وغير ذَلِكَ، ﴿الدارَ الآخِرَةَ﴾ بصرفِه فيما يُوجبها لك؛ فإنَّ المقصودَ مِنْهُ أن يكونَ وصلةً إِلَيْها، ﴿وَلاَ تنسَ﴾ وَلاَ تترك ترك المنسيِّ ﴿نَصيبَك مِنَ الدُّنْيَا﴾ مِمَّا خوَّلك الله منها، وَهُوَ أن تُحصِّل بها آخرتك؛ لأَنَّ حقيقةَ نصيبِ الإنسان مِنَ الدُّنْيَا (لَعَلَّهُ) لِعمل الآخرة؛ وقيل: لاَ تنس صحَّتك وقوَّتك (لَعَلَّهُ) وشبابك وغِنَاك أن تطلب بها الآخِرَة، ﴿وأَحسِنْ﴾ مَا يَجب عليك أن تُحسنَه مَا بينك وبينَ الحقِّ والخلق، ﴿كما أحسن الله إليكَ﴾ أنعم عليك؛ وقيل: أَحسِن بالشكر والطَّاعة كما أَحسَنَ إليك بالإنعام، ﴿وَلاَ تَبغِ الفسادَ فِي الأَرْضِ﴾ وَهُوَ العبادة لغير الله، واستعمال مَا خوَّلك إيَّاه لغيره؛ وهذه معنى تعزية أهل العلم للجاهلين إِذَا أوتو شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا، [٤٤٤] ﴿إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ المفسدِينَ(٧٧)﴾ بَل يُبغضهم ويُعَادِيهم.

﴿قَالَ: إنَّمَا أُوتيته عَلَى علمٍ عِندي﴾ وذلك من نَتائج العُجْبِ، وَهُوَ طبع النفوس، وَلاَ يزول عنها إلاَّ بالدفع والتزكية لها مِنْهُ؛ وَهُوَ من شِبَاكِ الشيطان يَصيد بِهِ الجهَلَة، ﴿أولم يعلم أنَّ الله قد أهلك مِن قبله مِنَ القرون مَن هُوَ أشدُّ مِنْهُ قوَّة وأكثرُ جمعا﴾ تعجُّبٌ وتوبيخٌ عَلَى اغترارِه بقوَّته، وكثرة ماله مَعَ علمه بذلك، ولَعَلَّهُ قرأه فِي التَّوْرَاة، أو سَمعه من حفَّاظها، ﴿وَلاَ يُسألُ عَن ذُنُوبهم المجرمُونَ(٧٨)﴾ (لَعَلَّهُ) سُؤال استعلام؛ فإنَّه تعالى مطَّلع عليها؛ أو معاتبة، فإنَّهم يُعذَّبون بها بغتة؛ كأنَّه لَـمَّا هَدَّد قارونَ بذكر إهلاك مَن قَبله مِمَّن كَانُوا أقوى مِنْهُ وأغنى، أكَّد ذَلِكَ بأن بيَّن أنَّه لم يكن مَا يَخصُّهم، بَل الله مُطَّلِع عَلَى ذنوب المجرمين كلِّهم، ومعاقبهم عليها لاَ مَحالة.

**﴿فَخَرج عَلَى قومه فِي زِينته﴾** كما قيل إنَّه خرج عَلَى بغلَة شَهبَاء، عليه الأرجوان، وعليها سَرج مِن ذهب، ومعه أربعة آلاف عَلَى زَيِّه، أو أقلَّ مِنْهُ، ليتمَّ لَهُ التفضُّل عَلَيْهِم، **﴿قَالَ الذِينَ يُريدون الحياةَ الدُّنْيَا﴾** عَلَى مَا هُوَ عادة النَّاس مِنَ الرغبة: **﴿يا ليتَ لَنَا مِثلَ مَا أُوتي قارونُ إِنَّهُ لَذو حظٍّ عظيمٍ(٧٩)﴾** مِنَ الدُّنْيَا.

**﴿وقال الذِينَ أُوتوا العلمَ﴾** بأحوال مآل الدُّنْيَا، وإقبال عاقبتها؛ قيل: أُوتوا العلمَ بِمَا وعدَ ا لله فِي الآخِرَة، **﴿وَيلَكم﴾** دُعاءٌ بالهلاك، استُعْمِل للزَّجر عمَّا لاَ يُرتضى، **﴿ثوابُ ا لله خيرٌ لِمَن آمَنَ وعملَ صالحا﴾** مِمَّا أوتي قارون، بَل مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، **﴿وَلاَ يُلقَّاها﴾** قيل: الضمير فِيهِ للكلمة التِي تكلَّم بها العلماء؛ أو للثواب، فإنَّه بمعنى المثوبة؛ أو للجنَّة؛ أو للإيمان والعمل الصالح، فإنَّهما فِي معنى السيرة والطريقة، **﴿إلاَّ الصابرُونَ(٨٠)﴾** عَلَى الطَّاعَات، وعن المعاصي.

**﴿فخسفنا بِهِ وبداره الأَرْض﴾** قيل: انطبقت عَلَيْهِمُ الأَرْض هُوَ وأصحابه وداره وأمواله، وأنَّه يُخسف بِهِ كلَّ يوم قامةً، وأنَّه يتجلجل فِيهَا وَلاَ يبلغ قعرها إِلَى يوم القيامة، **﴿فما كَانَ لَهُ مِن فئة يَنصرونه مِن دُون ا لله وَمَا كَانَ مِنَ المنتصرِينَ(٨١)﴾**.

**﴿وأصبحَ الذِينَ تَمنَّوا مَكانه بالأمس﴾** لـمَّا أن صار عبرة لَهُم لاَ لنفسه، بعدما انكشف الغطاءُ عَن المتعامين للتَّبصُّر بالبصائر (لَعَلَّهُ) فيما كَانَ منكشفا قبل وقوعه لأهل البصائر، **﴿يقولون: وَيكَأنَّ ا لله يبسط الرزق لمن**

**يَشَاء مِن عِباده ويَقدِر﴾** يَبسط ويقدر بمقتضى مشيئته، لاَ كرامة تقتضي البسط، وَلاَ لهوان يقتضي القبض؛ **﴿لولاَ أن مَنَّ الله علينا لَخَسَف بنا ويكأنَّه لاَ يُفلح الْكَافِرُونَ(٨٢)﴾** لِنعمة الله، أو المكذِّبون برسله، وبما وُعدوا من ثوابِ الآخِرَة.

**﴿تلك الدارُ الآخِرَة﴾** إشارة تعظيم، كأنَّه قَالَ: تلك التِي سَمعتَ خبرها، وبلغَكَ وصفها، (لَعَلَّهُ) لأَنَّهَا ليست فِي الحقيقة [٤٤٥] بدار غيرها، **﴿نَجعلها للذين لاَ يُريدون علوًّا فِي الأَرْض﴾** غَلَبَة وقهرا ورئاسة بغير الحقِّ، **﴿وَلاَ فسادا﴾** ظُلما عَلَى النَّاس، كما أراده فرعون وقارون، **﴿والعاقبةُ﴾** المحمودة **﴿للمتَّقِينَ(٨٣)﴾** مِمَّا لاَ يرضاه الله[1].

**﴿مَن جاءَ بالحسنةِ فله خيرٌ منها﴾** ذاتا وقَدرًا، أو وصفا ودواما، **﴿ومن جاء بالسيِّئةِ فلا يُجزى الذِينَ عملوا السَّيِّئَاتِ إلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٨٤)﴾** إلاَّ مِثل عملهم.

**﴿إنَّ الذِي فَرَض عليك القرآنَ﴾** أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بِمَا فِيهِ **﴿لرادُّك إِلَىٰ مَعَادٍ﴾** وَهُوَ المقام المحمود، وَعَدَك أن يَبعثك فِيهِ. **﴿قل: رَبِّي أَعلمُ مَن جاءَ بالهدى﴾** وَمَا يستحقُّه مِنَ الجزاء، **﴿ومن هُوَ فِي ضلالٍ مُبِين(٨٥)﴾** وَمَا يستحقُّه مِنَ العذابِ والإذلال.

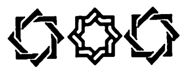
---

١ - «للمتَّقين: أي الذِينَ يتَّقون ما لا يرضاه الله تَعَالَىٰ من الأفعال والأقوال». أبو السعود: تفسير، مج٤/ ج٧/ ص٢٧.

﴿**وَمَا كنتَ تَرجو أن يلقى إليك الكتابُ**﴾ وَمَا كنتَ ترجوهُ ﴿**إلاَّ رحمةً مِن رَبِّكَ**﴾ ولكن ألقاه رحمًا[1] مِنْهُ؛ ويجوز أن يكون استثناء مَحمولا عَلَى المعنى، كأنَّه قَالَ: وَمَا أُلقي إليك إلاَّ رحمة، أي: لأجل التَّرحُّم، ﴿**فلا تكونَنَّ ظهيرا للكَافِرِينَ(٨٦)**﴾ مُظاهرا لَهُم علينا بمداراتهم، والتحمُّل عَنْهُم، والإجابة إِلَى طلبهم.

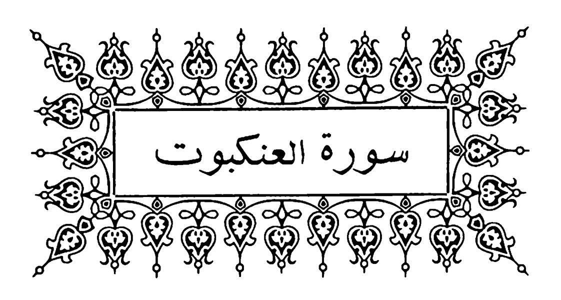
﴿**وَلاَ يصدُّنَّك عَن آيات ا للهِ**﴾ عَن قراءتها والعمل بها وتبليغها، ﴿**بعد إذ أُنزِلت إليك، وادعُ إِلَىَ رَبِّكَ**﴾ إِلَىَ عبادته وتوحيده، ﴿**وَلاَ تكونَنَّ مِنَ المشركِينَ(٨٧)**﴾ بِهِ سِواه.

﴿**وَلاَ تدعُ مَعَ ا للهِ إلها آخر**﴾ مِن نفسٍ أو هواها، أو أحدٍ مِنَ الخلق؛ قيل: الخطابُ فِي الظاهر للنَّبيِّ؛ وَالمـُرَاد بِهِ: أهل دينه، ﴿**لاَ إله إلاَّ هُوَ**﴾ لاَ يَستحقُّ العبادةَ سواهُ، ﴿**كلُّ شيءٍ هالكٌ إلاَّ وجهَه**﴾ إلاَّ ذاتَه، ﴿**لَهُ الحُكم**﴾ القضاءُ النافذُ فِي الخلائق، ﴿**وَإِلَيْهِ ترجعُونَ(٨٨)**﴾ للجزاءِ بِالْحَقِّ.



---

١ - لَعَلَّ الصواب: «رحمةً»، ر: المصدر السابق: ص٢٨.



# سورة العنكبوت

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم(١) أَحَسِبَ النَاسُ أن يُتركوا أن يقولوا: آمنـًا وَهُم لاَ يُفتَنُونَ(٢)﴾ فإنَّ معناه: أحسبوا أن نتركهم غير مفتونين لقولهم: «آمنًا»، بَل يَمتحنهم الله بمشاقِّ التكاليف، كالمهاجرة والمجاهدة، ورفض الشهوات، ووظائف الطَّاعَات، وأنواع المصايب فِي الأنفس والأموال، ليتميـَّز المخلص مِنَ المنافق، والثابت فِي الدين من الذِي يعبد الله عَلَى حرف؛ ولينالوا بالصبر عليها عَوالي الدرجات؛ ولأنَّ القول مصداقه العمل؛ والإيمان: قول وعمل ونيـَّة.

﴿وَلَقَد فَتَنـَّا الذِينَ مِن قبلهم﴾ المَعنَى: أنَّ ذَلِكَ سُنَّة قديمة، جارية فِي الأمم كلِّها، فلا ينبغي أن يتوقَّع خلافه، فإنَّ ذَلِكَ مِمَّا تقتضيه الحكمة؛ ﴿فَلَيَعلَمَنَّ الله الذِينَ صَدَقوا﴾ فِي قولهم: آمنـَّا، ﴿ولَيَعلَمَنَّ الكاذبِينَ(٣)﴾.

﴿أم حَسِبَ الذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَات﴾ الكفر والمعاصي، فإنَّ العمل يعمُّ أفعال القلوب والجوارح، ﴿أن يَسبِقونا﴾ أن يَفُوتونا، ﴿ساء مَا يحكُمُونَ(٤)﴾ بِئْسَ مَا يَحكمون لأنفسهم بهذا الظنِّ.

﴿**مَن كَانَ يَرجو لقاء ا لله**﴾ أي: تلقّي جزائه ﴿**فإنَّ أجلَ ا لله لآتٍ**﴾ كائن لاَ محالة؛ فليبادر مَا يُحقّق أمله، ويصدِّق رجاءه، [٤٤٦] أو مَا يستوجب القربة والرضا. (لَعَلَّهُ) وَمَعنَى الآيَة: أنَّ مَن يخشى ا لله وتأمّله فليستعدَّ لَهُ وليعمل، ﴿**وَهُوَ السميع العليم(٥) ومن جَاهَد**﴾ نَفسه الجسمانيَّة، بالصبر عَلَى مضض الطَّاعَة، والكفّ عَن الشهوات، ﴿**فَإِنَّمَا يُجاهد لنفسه**﴾ الروحانيَّة، لأَنَّ منفعته لها، ولأنَّها خُلقت خادمة لها، ﴿**إنَّ ا لله لَغنيٌّ عَن الْعَالَمِينَ(٦)**﴾ فلا حاجة بِهِ إِلَىَ طاعتهم، وإنَّما كلَّف عباده رحمة عَلَيْهِم، ليعود النفع لَهُم. ﴿**وَالذِينَ آمنوا وعملوا الصالحات لنُكفِّرنَّ عَنْهُم سَيِّئَاتهم**﴾ صغائر ذنوبهم لنبطلنَّها؛ والتكفير: إذهاب السيِّئة بالحسنة، ﴿**ولنجزينَّهم أحسن الذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ(٧)**﴾ أي: أحسن جزاء أعمالهم.

﴿**ووصَّينا الإنسانَ بوالديه حُسنا**﴾ بإتيانه فعلا ذا حُسن، ﴿**وإن جاهداك لِتُشرك بي مَا ليس لك بِهِ علم**﴾ إشعارا بأنَّ مَا لم يُعلم صحَّته لاَ يجوز اتِّبَاعه، وإن لم يعلم بطلانه فضلا عمَّا علم بطلانه؛ والشرك بِهِ يقتضي جميع المعاصي؛ ﴿**فلا تُطعهما إليَّ مرجعُكم**﴾ مرجع من آمن، ومن أشرك، ومن برَّ بوالديه، ومن عقَّ، ﴿**فأنبِّئكم بِمَا كُنتُم تَعْمَلُونَ(٨)**﴾ بالجزاء عليه.

﴿**وَالذِينَ آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنَّهم فِي الصالحِينَ(٩)**﴾ بالتوفيق فِي جملتهم؛ والكمالُ فِي الصلاح منتهى درجات المؤمنين، ومنتهى أنبياء ا لله المرسلين؛ أو فِي مُدخلهم وهي الجنَّة.

**﴿ومن الناسِ مَن يقول: آمنَّا با لله؛ فإذا أُوذي فِي ا لله جعل فتنةَ النـاسِ كعذابِ ا لله﴾**[1] عدل بها عذاب ا لله، **﴿ولئن جاء نصـر مِـن رَبـِّكَ﴾** فتـح وغنيمة، **﴿ليقولنَّ: إِنَّـا كُنـَّا معكـم﴾** فِي الديـن، فأَشـرِكُونا فِيـهِ؛ والمـراد بـِهِ المنافقون، **﴿أوليس ا لله بأعلم بِمَا فِي صدور الْعَالَمِينَ(١٠)﴾**؟ مِنَ الإخلاص والنفاق. **﴿ولَيَعْلَمَنَّ ا لله الذِينَ آمنوا ولَيَعْلَمَنَّ المنافقِينَ(١١)﴾**.

**﴿وقال الذِينَ كَفَرُوا للذيـن آمنـوا: اتـَّبعوا سبيلنا﴾** الـذِي نسـلكه فِي ديننا، **﴿ولْنَحمِل خطاياكم﴾** إن كَانَ ذَلِكَ خطيئة، **﴿وَمَا هـم بحـاملين مـن خطاياهم من شيء، إِنـَّهُمْ لكاذبُونَ(١٢) ولَيَحمِلُنَّ أثقالهم﴾** أثقال مَا اقترفته أنفسهم، **﴿وأثقالا مَعَ أثقالهم﴾** وأثقالا أُخَر معها لِمَا تسبـَّبُوا لَـهُ بـالإضلال، والحمل عَلَى المعاصي مِن غير أن ينقص من أثقال من تبعهم شيء، **﴿ولَيُسأَلُنَّ يوم القيامة عَمـَّا كَانُوا يفترُونَ(١٣)﴾** كَانَ الإفتراء قولا أو عملا أو اعتقادا، خلاف الصدق.

**﴿وَلَقَد أرسلنا نوحا إِلَىَ قومه، فلبث فِيهِم ألفَ سنةٍ إِلاَّ خمسـين عامـا﴾** والمقصود مِنَ القصَّة تسليةٌ لرسـول ا لله ﷺ، وتـثـبـيـتـه عَلَـى مَـا يُكـابد مِـنَ الكفرة، **﴿فأخذهم الطوفانُ﴾** طوفان الماء، وَهُوَ مَا طاف بكثرة، من سيل أو ظـلام أو نحوهمـا، **﴿وَهُـم ظَـالِمُونَ(١٤)﴾** بـالكفر. **﴿فأنجينـاه وأصحــابَ السفينة وجعلناها آيةً للعالمِينَ(١٥)﴾** يَتّعظون ويَستدلُّون بها.

---

١ - في الأصل: - «جعل فتنةَ الناس كعذاب ا لله»، وهو سهو.

﴿وإبراهيم إذ قَالَ لقومه: اعبدوا ا لله واتَّقُوه ذلكم خيرٌ لكم﴾ مِمَّا أَنتُم عليه، ﴿إن كُنتُم تعْلَمُونَ(١٦)﴾ تُميِّزون مَا هُوَ خير مِمَّا هُوَ شرٌّ؛ أو كُنتُم تنظرون فِي الأمور بنظر العلم دون عمَى الجهل. ﴿إنَّما تَعبدون من دون ا لله أوثانا [٤٤٧] وتَخلقون إفكا﴾ وتكذبون كذبا فِي تسمِيَتِها آلهة، وَهُوَ استدلال عَلَى شرارة مَا هم عليه من حيث أنَّه زور وباطل، ﴿إنَّ الذِينَ تَعبُدون من دون ا لله لاَ يَملكون لكم رزقا﴾ دليل بان[1] عَلَى شرارة ذَلِكَ، من حيث أنَّه لاَ يُجدي بطائل، ﴿فابتغوا عند ا لله الرزقَ﴾ كلَّه، فإنَّه المالك لَهُ، ﴿واعبدوه واشكروا لَهُ﴾ مُتوسِّلين إِلَى مطالبكم بعبادته، مُقيِّدين لما خصَّكم مِنَ النعم بشكره؛ أو مُستعدِّين لِلقائه بهما، فإنَّه ﴿إِلَيْهِ تُرجعُونَ(١٧) وإن تكذِّبُوا فقد كَذَّبَ أُمَمٌ من قَبلكم﴾ من قَبلِي مِنَ الرُّسل، فلم يَضرُّهم تكذيبهم، وإنَّما ضرُّوا أنفسهم حيث تسبَّب لِمَا حلَّ بهم مِنَ العذاب، فكذا تكذيبكم، ﴿وَمَا عَلَى الرسول إلاَّ البلاغ الْمُبِين(١٨)﴾ الذِي يزول معه الشكُّ؛ وَمَا عليه [إلاَّ] أن يَصدُق وَلاَ يَكذِب.

﴿أولم يروا كيف يُبدئ ا لله الخلقَ ثُمَّ يعيده﴾ إخبار بالإعادة بعد الموت، ﴿إنَّ ذَلِكَ عَلَى ا لله يسير(١٩)﴾ إذ لاَ يفتقر فِي فعله إِلَى شيء. ﴿قل: سيروا فِي الأَرْض فانظروا كيف بدأ الخلقَ﴾ عَلَى اختلاف الأجناس والأحوال، ﴿ثمَّ ا لله يُنشئُ النشأةَ الآخِرَة﴾ لأَنَّ مَن عُرف بالقدرة عَلَى الإبداء ينبغي أن يُحكم لَهُ بالقدرة عَلَى الإعادة، ﴿إنَّ ا لله عَلَى كُلِّ شيء

---

١ - لعلَّ الصواب: «بائن»، أي بيِّن وواضح.

**قدير(٢٠)﴾** لأنَّ قدرته لذاته، ونسبة ذاته إِلَى كُلِّ الممكنات عَلَى سواء. **﴿يعذِّب مَن يَشَاء﴾** فِي الدُّنْيَا، **﴿ويرحم من يَشَاء﴾** فِي الدُّنْيَا، **﴿وَإِلَيْهِ تُقلَبُونَ(٢١)﴾** تُردُّون. **﴿وَمَا أَنتُم بِمعجزين﴾** رَبَّكُم عَن إدراككم **﴿فِي الأَرْض وَلاَ فِي السَّمَاء﴾** إن فررتم مِن فضائه بالتواري فِي الأَرْض، والهبوط فِي مهاويها، والتحصُّن فِي السَّمَاء، أو القلاع الذاهبة فِيهَا، **﴿وَمَا لكم من دون ا لله من وَلِيٍّ وَلاَ نصير(٢٢)﴾** يَحرسكم عَن بلاء يظهر مِنَ الأَرْض، أو ينزل مِنَ السَّمَاء، ويدفعه عنكم.

**﴿وَالذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ ا لله﴾** بدلائل وحدانيَّته، أو بكتبه **﴿ولقائه﴾** بالبعث والجزاء، **﴿أُولَـئِكَ يَئِسوا مِن رحمتي﴾** يوم القيامة، أو فِي الدُّنْيَا لإنكار البعث والجزاء، **﴿وأولئك لَهُم عذابٌ أليم(٢٣)﴾** فِي الدارين.

**﴿فما كَانَ جوابَ قومه﴾** قوم إبراهيم، **﴿إلاَّ أن قَالُوا: اقتلوه أو حرِّقوه، فأنجاه ا لله مِنَ النار إنَّ فِي ذَلِكَ لآيات لقوم يُؤْمِنُونَ(٢٤)﴾** لأَنَّهُم المنتفعون بالتأمُّل فِيهَا. **﴿وقال: إِنَّمَا اتَّخَذتم مِن دون ا لله أوثانا مودَّةَ بَينِكُم فِي الحياة الدُّنْيَا﴾** (لَعَلَّهُ) معناه: إنَّ الذِينَ اتَّخَذتم من دون [ا لله] من أوثان، وهي مودَّةُ بَينِكُم فِي الحياة الدُّنْيَا ثُمَّ تنقطع فِي الآخِرَة، وَلاَ تنفعكم بَل تضرُّكم كما قَالَ: **﴿ثُمَّ يوم القيامة يكفُرُ بعضُكم ببعض، ويلعنُ بعضُكم بعضا، ومأواكم النار وَمَا لكم من ناصرِينَ(٢٥)﴾**.

**﴿فآمن لَهُ لُوط﴾** أي: صدَّقه، **﴿وقال، إِنِّي مُهاجر﴾** من حضوضي[1]

---

١ - لَعَلَّ الصواب: «من قومي»، كما ورد عند أبي السعود: تفسير، مج٤/ ج٧/ ص٣٧. والألوسي: روح المعاني، ج٢٠/ ص١٥٢. و لم أجد فيما بين يديَّ من مصادر اللغة مَعْنًى

﴿إلَى رَبِّي﴾ إلَى عبادته، ﴿إِنَّهُ هُوَ العزيز الحكيم(٢٦)﴾ الذِي لاَ يَأْمُرُ إلاَّ بِمَا فِيهِ صلاحي. ﴿ووهبنا لَهُ إسحاق ويعقوبَ وجعلنا فِي ذرِّيَّته النبوَّة والكتاب [٤٤٨] وآتيناه أجرَه فِي الدُّنْيَا﴾ التوفيق عَلَى الطَّاعة، والتنعُّم بِهِ، والبشارة بالنعمة الأبديَّة؛ أو صحب معه سعادته فِي الآخِرَة، ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَة لَمِن الصالِحِينَ(٢٧)﴾ لَفي عدد الكاملين فِي الصلاح.

﴿ولوطا إذ قَالَ لقومه: إِنَّكُم لتأتون الفاحشة مَا سبقكم بها مِن أحدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ(٢٨)﴾ استئناف مقرِّر لفاحشتها، من حيث إنَّها مِمَّا اشمأزَّت مِنْهُ الطباع، وتحاشت عَنْهُ النفوس، حتَّى أقدموا عليها لِخبث طينتهم. ﴿أئنَّكم لَتأتون الرجال، وتقطعون السبيلَ﴾ وتعترضون للسابلة بالقتل، وأخذ المال؛ أو بالفاحشة حتَّى انقطعت الطرق؛ أو تقطعون سبيل النسل بالاعتراض عَن الحرث، وإتيان مَا ليس بحرث، ﴿وتأتون فِي ناديكم﴾ فِي مجالسكم الغاصَّة؛ وَلاَ يقال: النادي، إلاَّ لِمَا فِيهِ أهله، ﴿المنكر﴾ الجماع والضراط، وحلُّ الإزار، وغير ذلك من القبائح عدمَ مبالاةٍ بها؛ وقيل: الحذف[1] بالحصا، والرمي بالبنادق[2]؛ والمنكر: اسم جامع لجميع المعاصي،

---

=

لكلمة «حضوض». أو لَعلَّهُ يقصد «حُضُضِي» جمع كلمة «حضيض»، وَهُوَ قرار الأرض عند سفح الجبل. ( ابن منظور: لسان العرب، ج١/ ص٦٦٠، مَادَّة «حضض»)، أي أَنَّ لوطا عليه السلام مهاجر للدنايا ليسمو بروحه إِلَى المعالي الروحانية، وَلِذَلِكَ فسَّر قوله تَعَالَى: ﴿إلى رَبِّي﴾ بـ«إِلَى عبادته»، ليتناسب مع السياق. وَا لله أعلم.

١ - «والحذف: الرمي عن جانب، والضرب عن جانب... قال [الأزهريُّ]: وَأَمَّا الخذف بالخاء: فَإِنَّهُ الرمي بالحصى الصغار بأطراف الأصابع»، ابن منظور: لسان العرب، ج١/ ص٥٩١، مَادَّة «حذف».

﴿فما كَانَ جواب قومه إِلاَّ أن قَالُوا ائتنا بعذاب ا الله إن كنت مِنَ الصادقِينَ(٢٩)﴾ فِي استقباح ذَلِكَ؛ أو فِي دعوى النبوَّة المفهومة مِنَ التوبيخ. ﴿قَالَ: رَبِّ انصرني﴾ بإنزال العذاب ﴿عَلَى القوم المفسدِينَ(٣٠)﴾ بابتداع الفاحشة، وسنِّها فيمن بعدهم.

﴿وَلَمَّا جاءت رُسلُنا إبراهيمَ بالبشرى، قَالُوا: إِنـَّا مُهلكو أهلِ هَذِهِ القرية إنَّ أهلها كَانُوا ظالِمِينَ(٣١)﴾ تعليل لإهلاكهم، بإصرارهم وتماديهم فِي ظلمهم، الذِي هُوَ الكفر، وأنواع المعاصي. ﴿قَالَ: إنَّ فِيهَا لوطا﴾ وذلك فِي اقتضاء الحكمة أن لاَ يؤخذ المطيع بالعاصين، ﴿قَالُوا: نَحْنُ أعلم بمن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّه وأهلَه﴾ تسليم لقوله، مَعَ ادِّعاء مزيد العلم بِهِ؛ وَأَنـَّهُم مَا كَانُوا غافلين عَنْهُ، ﴿إلاَّ امرأته كَانَت مِنَ الغابرِينَ(٣٢)﴾ الباقين فِي العذاب.

﴿وَلَمَّا أن جاءت رُسُلنا لوطا سِيء بهم وضاق بهم ذَرْعًا﴾ وضاق بشأنهم وتدمير أمرهم ذَرعه، أي: طاقته، كقولهم: "ضاقت يده" وبإزائه "رَحُب ذَرعه بكذا"، إذَا كَانَ مطيقا لَهُ، وذلك لأَنَّ طويل الذراع، ينال ما لا ينال قصير الذراع، ﴿وَقَالُوا: لاَ تَخف وَلاَ تَحزن[1] إنَّا مُنجُّوك وأهلك إِلاَّ امرأتَك كَانَت مِنَ الغابرينَ(٣٣) إنَّا مُنزلون عَلَى أهلِ هَذِهِ القريةِ رِجزا مِنَ السَّمَاء بِمَا كَانُوا يفسقُونَ(٣٤) وَلَقَد تركنا منها آيةً بيِّنةً﴾ هِيَ حكايتها الشائعة، أو آثار

---

٢ - «والبُنْدُق: الذي يرمى به، والواحدة بـُندُقة والجمع: البنادق». ابن منظور: لسان العرب، ج١/ ص٢٦٧، مَادَّة «بندق».

١ - في الأصل: - «ولا تحزن»، وهو سهو.

الديار الخربة؛ وقيل: الحجارة المطورة، فإنَّها كَانَت باقية بعد ﴿**لقوم يعقلُونَ(٣٥)**﴾ يستعملون عقولهم فِي الاستبصار، ويتدبَّرون الآيات، تدبُّر ذوي العقول؛ قيل: الآيَة البيِّنة: آثار منازلهم الخربة.

﴿**وإلى مدين أخاهم شعيبا، فقال: يا قوم اعبدوا ا لله، وارجوا اليومَ الآخر**﴾ وافعلوا مَا ترجون بِهِ ثوابه، ﴿**وَلاَ تعثوا فِي الأَرْض مفسدِينَ(٣٦) فكذّبوه فأخذتهم** [٤٤٩] **الرجفةُ**﴾ الزلزلة الشديدة؛ وقيل: صيحة جبريل، لأَنَّ القلوب ترجف لها، ﴿**فأصبحوا فِي دارهم جاثِمِينَ(٣٧)**﴾ مَيِّتين.

﴿**وعادا وثمود وقد تَبَيَّنَ لكم مِّن مَّسَاكِنِهِم**﴾ أي: تبيَّن لكم بعض مساكنهم، أو إهلاكهم من جهة مساكنهم إِذَا نظرتم إِلَيْها، عند مروركم بها، ﴿**وزيَّن لَهُمُ الشيطانُ أعمالهم**﴾ فزيَّن قبحها بالحسن، ﴿**فصدَّهم عَن السبيل**﴾ السبيل الموصل[1] إِلىَ الجنَّة، ﴿**وكَانُوا مستبصرِينَ(٣٨)**﴾ أي: مُمكَّنين مِنَ الاستبصار والبصيرة وكشف القناع، ولكنَّهم غطَّت بصائرَهم أهويتُهم التِي عبدوها.

﴿**وقارون وفرعون وهامان**﴾ (لَعَلَّهُ) أي: أهلكنا هؤلاء، ﴿**وَلَقَد جاءهم موسى بِالبَيِّنَاتِ، فاستكبروا فِي الأَرْض، وَمَا كَانُوا سابقِينَ(٣٩)**﴾ فائتين، بَل أدركهم أمر ا لله، مِن "سبق طالِبَه" إذا فاته.

﴿**فكلاًّ أخذنا بذنبه، فمنهم مَن أرسلنا عليه حاصبا**﴾ كقوم لوط، ﴿**ومنهم مَن أخذته الصيحة، ومنهم مَن خسفنا بِهِ الأَرْض**[2] **ومنهم مَن**

---

١ - السبيل: «يذكَّر ويؤنَّث». ر: ابن منظور: لسان العرب، ج٣/ ص٩١، مَادَّة «سبل».

٢ - في الأصل: - ﴿ومنهم مَن أخذته الصيحة، ومنهم مَن خسفنا بِهِ الأَرْض﴾، وهو سهو.

**أغرقنا﴾** كقوم نوح وفرعون وقومه، **﴿وَمَا كَانَ ا لله ليظلمهم﴾** ليعاملهم معاملة الظالم، فيعاقبهم بغير جُرم، **﴿ولكن كَانُوا أنفسهم يظلمُونَ(٤٠)﴾** بتركهم لها عَن التزكية.

**﴿مثل الذِينَ اتَّخَذوا من دون ا لله أولياءَ﴾** مِمَّا اتَّخَذوه مُعتَمَدا، ومُتَّكلا، **﴿كمثل العنكبوتِ اتَّخَذَت بيتا﴾** فيما نسجته فِي الوهن والخور، بَل ذَلِكَ أوهن، فإنَّ لهذا حقيقة وانتفاعا، (لَعَلَّهُ) وليس لآلهتهم حقيقة، وَلاَ جلب نفع وَلاَ دفع ضرٍّ، بَل يتضرَّرون بذلك، **﴿وإنَّ أوهنَ البيوتِ لَبَيتُ العنكبوتِ﴾** لاَ بيت أوهى وأقلَّ وقاية للحرِّ والبرد مِنْهُ؛ وكذلك آلهتهم لاَ تَجلب نفعا وَلاَ تدفع ضرًّا، **﴿لَو كَانُوا يَعْلَمُونَ(٤١)﴾** لو يرجعوا إِلَى عِلم، لعلموا أنَّ هَذَا مثلهم، وأنَّ دينهم أوهى مِن ذَلِكَ؛ ويجوز أن يكون المراد بيت العنكبوتِ دينهم، سمَّاهم بِهِ تحقيقا للتمثيل، فيكون المَعنَى: وإنَّ أوهن مَا يعتمد بِهِ فِي الدين دينهم.

**﴿إنَّ ا للهَ يَعلم مَا يَدعون مِن دونه من شيء﴾** أي: ليس بشيء، لأنَّهَا أهوية سيَّارة طيَّارة، مَا كَانَ منها كأنَّه لم يكن، كما قَالَ: **﴿كأن لم تَغنَ بالأمسِ﴾**[1]، **﴿وَهُوَ العزيز الحكيم(٤٢)﴾** تعليل عَلَى المعنيين، فإنَّ مِن فرط الغباوة إشراك مَا لاَ يُعدُّ شَيْئًا بمن هَذَا شأنه، وإنَّ الجماد بالإضافة إِلَى القادر القاهر عَلَى كُلِّ شيء، البالغ فِي العلم وإتقان الفعل الغاية كالمعدوم، وأنَّ مَن هَذَا صفته قَدر[2] عَلَى مُجازاتهم.

---

١ - سورة يونس: ٢٤.

٢ - لَعَلَّ الصواب: «وأنَّ مَن هَذِهِ صفته قادر عَلَى مجازاتهم». كما فِي أبو السعود: تفسير، مج٤/ ج٧/ ص٤١.

﴿وتلك الأمثالُ﴾ يعني: هَذَا المثل أو نظائره، ﴿نضربُها للنَّاس﴾ تقريبا لِمَا بَعُدَ مِن أفهامهم، ﴿وَمَا يَعقلها﴾ ولاَ يَعقل حُسنها وفائدتها، ﴿إلاَّ العالِمُونَ(٤٣)﴾ الذِينَ يتدبَّرون الأشياء عَلَى مَا ينبغي، وعنه ﷺ: أنَّه تلا هَذِهِ[1] الآيَة فقال: *«العالم: مَن عقل عَن الله، فعمل [٤٥٠] بطاعته، واجتنب سخطه»*[2].

﴿خلقَ الله السَّمَاوَات والأَرْض بالْحَقِّ﴾ مُحقًّا غير رائد بِهِ عبثا وَلاَ لعبا؛ فإنَّ المقصود بالذَّات مَن خلقهما إضافة الخير، والدلالة عَلَى ذاته وصفاته، كما أشار إِلَيْهِ بقوله: ﴿إنَّ فِي ذَلِكَ لآية للمؤمِنِينَ(٤٤)﴾ لأنَّهُم المنتفعون بها.

﴿اتل مَا أُوحي إليكَ مِنَ الكتاب﴾ تقرُّبا إِلىَ الله بقراءته، وتَحفُّظا لألفاظه، واستكشافا لمعانيه، وتبليغا لأحكامه؛ فإنَّ القارئ المتأمِّل قد ينكشف لَهُ بالتكرار مَا لم ينكشف لَهُ أوَّل مَا قَرَع سَمعه، ﴿وأقِمِ الصلاة إنَّ الصلاةَ﴾ إن أقيمت عَلَى الوجه، فإنَّها ﴿تنهى عَن الفحشاء والمنكر﴾ بأن تكون سببا للانتهاء عَن المعاصي، من حيث أنَّها تُذكِّر الله، وتُورث للنفس خَشية، وَمَا

---

٢- في الأصل: «هذا»، وهو خطأ.

٢ - لم نجده فِي الربيع ولا فِي الكتب التسعة ولا فِي الجامع الصغير وزياداته. وَفِي معناه ما أورده الدارميُّ فِي سننه: كتاب المقدمة، حديث رقم ٣٨٤: عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: «يَا حَمَلَةَ الْعِلْمِ اعْمَلُوا بِهِ فَإِنَّمَا الْعَالِمُ مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَوَافَقَ عِلْمُهُ عَمَلَهُ، وَسَيَكُونُ أَقْوَامٌ يَحْمِلُونَ الْعِلْمَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يُخَالِفُ عَمَلُهُمْ عِلْمَهُمْ، وَتُخَالِفُ سَرِيرَتُهُمْ عَلاَنِيَتَهُمْ...» الحديث.

لم تنهه صلاته عَن الفحشاء فليست بمقبولـة؛ **﴿وَلَذِكْرُ الله أكبرُ﴾** مِـن أمـر دنياكم؛ أو الصلاة أكبر من سائر الطّاعات، لأَنَّهَا عمـادُ الديـن؛ أو مشـاهدة المذكور فِي الصلاة، فهو أكبر مِنَ الصلاة؛ أو ولذكر الله إيَّاكم برحمتـه أكـبر من ذكركم إيَّاه بطاعته؛ أو مشاهدة المذكـور فِي الصـلاة أكـبر مِـنَ الصـلاة، **﴿والله يعلم مَا تَصنعُـونَ(٤٥)﴾** منهـا، ومـن سـائر الطاعـة فيجـازيكم بهـا أحسن المجازاة.

**﴿وَلاَ تُجادلوا أهلَ الكتابِ إلاَّ بالتي هِيَ أحسن﴾** إلاَّ بالخصلة التِي هِيَ أحسن، كمعارضة الخشونة بـاللين، والغضـب بـالكظم؛ وقيـل: هُـوَ منسـوخ بـآيَةِ السيف، إذ لاَ مُجادلة أشدَّ مِنْهُ؛ وقيـل: المُـرَاد بـهِ ذَوُوا العهـد مِنـْهُم، **﴿إلاَّ الذينَ ظَلَموا مِنْهُم﴾** بإفراطٍ فِي الاعتداء والعناد؛ أو بنبذ العهـد، ومنـع الحرِّيَّة، **﴿وقولوا: آمنَّا بالذي أُنزل إلينـا وأُنـزل إليكـم﴾** هُـوَ مِـنَ المجادلـة بالتِـي هي أحسن، وعن النبيِّ ﷺ: «*لاَ تُصدِّقوا أهل الكتـاب وَلاَ تكذِّبوهـم، وقولوا آمنَّـا بالله وبكتبه ورسله، فإن قَـالُوا: بـاطلا لم تصدِّقوهـم، وإن قَـالُوا [حَقًّا] لم تكذِّبوهم*»[1]، **﴿وإلهنا وإلهكم وَاحِد ونَحن لَـهُ مُسْـلِمُونَ(٤٦)﴾**

---

١ - رواه أبو داود فِي كتاب العلم، حديث رقم: ٣١٥٩ عن ابْنِ أَبِي نَمْلَةَ الأَنْصَارِيِّ عَـنْ أَبِيهِ أَنَّهُ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ عِنْدَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ وَعِنْـدَهُ رَجُـلٌ مِـنَ الْيَهُـودِ مُـرَّ بِجَنَـازَةٍ، فَقَـالَ: يَـا مُحَمَّـدُ، هَـلْ تَتَكَلَّـمُ هَـذِهِ الْجَنَـازَةُ؟ فَقَـالَ النَّبِـيُّ ﷺ: «اللهُ أَعْلَـمُ» فَقَـالَ الْيَهُـودِيُّ: إِنَّـهَا تَتَـكَلَّمُ، فَقَالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «مَـا حَدَّثَـكُمْ أَهْـلُ الْكِتَـابِ فَـلاَ تُصَدِّقُوهُمْ وَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا آمَنَّـا بِاللهِ وَرُسُلِهِ فَإِنْ كَـانَ بَـاطِلاً لَـمْ تُصَدِّقُـوهُ وَإِنْ كَانَ حَقًّا لَمْ تُكَذِّبُوهُ». ورواه البخاري، فِي كتاب تفسير القرآن. ٤١٢٥، وَفِي كتـاب

مطيعون لَهُ خاصـَّة.

﴿**وكذلك**﴾ ومثل ذَلِكَ الإنزال، ﴿**أنزلنا إليك الكتاب**﴾ وحيـا وصدقـا كسائر الكتب الإلهيَّة، وَهُوَ تحقيق لقوله: ﴿**فالذين آتينـاهم الكتـاب يُؤْمِنُـونَ بِهِ**﴾ قيل: هم عَبد ا لله بن سلاَّم وأضرابه؛ أو من تقدَّم عهد الرَّسول من أهـل الكتابين، ﴿**ومن هؤلاء**﴾ من أهل العرب، ﴿**مَن يُؤْمِنُ بـهِ**﴾ بـالقرآن، ﴿**وَمَـا يَجحد بـآيَـاتِنا**﴾ مَعَ ظهورها، وقيام الحجَّة بهـا، ﴿**إلاَّ الْكَـافِرُونَ(٤٧)**﴾ إلاَّ المتوغّلون فِي الكفر؛ فإنَّ أهويتهم وتقليدهـم يمنعهـم عَـن التَّأَمـُّل بتصديقهـا، لكونها معجزة.

﴿**وَمَا كنتَ تتلو من قبله مِن كِتَـاب وَلاَ تَخطـُّه بيمينـك**﴾ فـإنَّ ظهـور هَذَا الكتاب الجـامع لأنـواع العلـوم الشـريفة، عَلَـى أُمـِّيٍّ لم يُعـرَف بـالقراءة والتعلُّم خارق للعادة؛ لأَنَّ تلاوتـه لا تتأتـَّى إلاَّ بـالتعلُّم والتكـرار لأحـد مِـنَ الخيلقـة، والرسـول ﷺ كغـيره مِـنَ النـاس فِي هَـذَا المعنـى، ﴿**إِذًا لاَرْتَـابَ المبطِلُونَ(٤٨)**﴾ أي: لوكنت مِمَّن يَخطُّ [٤٥١] ويقرأ لقالوا: لَعَلَّهُ يعلَمه أو

---

الاعتصام بالكتاب وَالسُّنَّة رقم ٦٨١٤: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ بلفظ: «لاَ تُصَدِّقُـوا أَهْـلَ الْكِتَابِ وَلاَ تُكَذِّبُوهُـمْ وَقُولُـوا: ﴿آمَنَّـا بـا للهِ وَمَـا أُنـزِلَ إِلَيْنَـا...﴾ الآيَـةَ». العالميـَّة: موسوعة الحديث، مَادَّة البحث: «لا تكذِّبوهم».

وعزاه السيوطيُّ إِلَىَ أبي داود فِي سننه، وأحمد فِي مسنده، وابن حـبَّان فِي صحيحـه، والبيهقي فِي سننه، عن أبي نملـة الأنصـاريِّ. برنـامج سلسـلة كنـوز السـنَّة، السلسـلة الأولى، الجامع الصغير وزياداته، الإصدار الأوَّل، ١٤١٠هـ.

التقطه مِن كتب الأقدمين. وإنَّما سَمَّاهم مُبطلين لكفرهم، أو لارتيابهم بانتفاء وجه وَاحِد من وجوه الإعجاز المتكاثرة؛ وَقِيلَ: لارتاب أهل الكتاب لوجدانهم نعتك عَلَى خلاف مَا فِي كتبهم.

﴿**بَل هُوَ آيات بَيِّنَات فِي صدور الذِينَ أُوتوا العلمَ**﴾ يَحفظونه، ويحفظون تأويله لاَ يقدر أحد عَلَى جحدانه وتحريفه، ﴿**وَمَا يَجحَد بِآيَاتِنا إلاَّ الظَّالِمُونَ(٤٩)**﴾ إلاَّ المتوغِّلون فِي الظلم بالمكابرة بعد وضوح دلائل إعجازها.

﴿**وَقَالُوا: لولا أُنزل عليه آياتٌ من رَبِّه**﴾ مقترحة، ﴿**قل: إِنَّمَا الآيات عند ا لله**﴾ ينزلها كما يَشَاء، لستُ أملكها فآتيكم بما تقترحونه، ﴿**وإنَّما أنا نذير مُبِينٌ(٥٠) أولم يَكفِهِم**﴾ آية مُعيَّنة عمَّا اقترحوه، ﴿**أنَّا أنزلنا عليك الكتابَ يُتلى عليهم**﴾ تدوم تلاوته عَلَيْهِم متَحَدَّيْنَ بِهِ، فلا تزال معهم آية ثابتة لاَ تضمحلُّ، بخلاف سائر الآيات؛ أو تُتلى عَلَيْهِم، يعنِي: اليهود، بتحقيق مَا فِي أيديهم من نعتك ونعت دينك، ﴿**إنَّ فِي ذَلِكَ**﴾ الكتاب الذِي هُوَ آية مستمرَّة، وحجَّة بيِّنة، ﴿**لَرَحمة**﴾ لَنعمة عظيمة، ﴿**وذكرى لقوم يُؤْمِنُونَ(٥١)**﴾ وتذكرة لِمَن همُّه الإيمان دون التعنُّت.

﴿**قل: كفى با لله بيني وبينكم شهيدا**﴾ يصدِّقني، وقد صدَّقني بالمعجزات، ﴿**يعلم مَا فِي السَّمَاوَات والأَرْض، وَالذِينَ آمنوا بالباطل**﴾ وَهُوَ مَا يُعبد من دون ا لله، ﴿**وكفروا با لله أُولَئِكَ هُمُ الخاسرُونَ(٥٢)**﴾ (لَعَلَّهُ) للدارين.

﴿**ويستعجلونك بالعذاب، ولولا أجلٌ مُسَمًّى لَجاءهم العذاب**﴾ أي: أنَّهم فِي حالهم ذَلِكَ مستحِقُّوا العذاب لولا الأجل المسمَّى، كمثل مَن وجب

عليه دَين...[1] وَأَنَّهُ حالٌّ بهم، لقوله: ﴿وليأتينَّهم بغتة﴾ عند نزول الموت، ﴿وَهُم لاَ يَشعرُونَ(٥٣)﴾ بإتيانه، ولو شعروا بِهِ لتابوا قبل مَجيئه.

﴿يستعجلونك بالعذاب وإنَّ جَهَنَّم لَمحيطة بالْكَافِرِينَ(٥٤)﴾ ستحيط بهم يوم يأتيهم العذاب؛ أو هِيَ كالمحيطة بهم الآن، لإحاطة الكفر والمعاصي التِي توجبها بهم، كمن أحاط بِهِ عدوُّه، فلا يجد مخلصا مِنْهُ، وَلاَ يجدون مُخَلِّصًا جميعَ العصاةِ من جهنَّم إِلاَّ من تاب. ﴿يوم يغشاهم العذابُ مِن فوقهم ومن تحتِ أرجلهم﴾ إِذَا غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنَّم من جميع جوانبها، ﴿ويقول﴾ الله، أو بعض الملائكة بأمره: ﴿ذوقوا مَا كُنتُم تَعْمَلُونَ(٥٥)﴾ أي: جزاءه.

﴿يا عبادي الذِينَ آمنوا إنَّ أرضي واسعة فإِيَّاي فاعبدون(٥٦)﴾ أي: إِذَا لم تتسهَّل لكم العبادة فِي بلدة، ولم يتيسَّر لكم إظهار دينكم، فهاجروا إِلَى حيث يتمشَّى لكم ذَلِكَ. وعنه الطَّيْلا: «*مَن فرَّ بدينه من أرض إِلَى أرض ولو كَانَ شبرا استوجب الجنَّة*»[2]. ﴿كلُّ نفس ذائقةُ الموت، ثُمَّ إلينا تُرجعُونَ(٥٧)﴾ للجزاء، ومن هَذَا عاقبته [فليس له بدٌّ من التزوُّد والاستعداد لها. وقرئ: «يرجعون». ﴿وَالذِينَ آمنوا وعملوا الصالحات لنبوِّئنَّهم﴾ لننزلنَّهم، ﴿مِنَ الجَنَّة غُرفا﴾ أي:][3] علالي ﴿تَجري من تحتها الأنهار

---

١ - هنا وضع الناسخ إحالة إِلَى الحاشية ولم يكتب فيها شَيْئًا، ويبدو أَنَّ العبارة ناقصة.

٢ - لم أعثر عَلَيْهِ فِي الربيع ولا فِي الكتب التسعة ولا فِي الجامع الصغير وزياداته.

٣ - ما بين معقوفين إضافة من تفسير أبي السعود (مج٤/ ج٧/ ص٤٥) ليتمَّ المَعْنَى، فقد وقع للناسخ فِي هَذِهِ الفقرة انتقال نظر من قوله: «ومن هَذَا عاقبته»، إِلَى قوله: «علالي».

**خالدين فِيهَا نِعْمَ أجرُ العامِلِينَ(٥٨) الذِينَ صبروا وعلى ربِّهم يتوكَّلُونَ(٥٩)﴾** يعتمدون.

**﴿وكأيِّن** [٤٥٢] **مِّن دَابَّة لاَ تَحمل رزقها﴾** لاَ تطيق من ضعفها، أو لاَ تدَّخره، وإنَّما تصبح وَلاَ غذاء معها، وتُمسي وَلاَ معيشة معها؛ وذلك من دلائل وحدانيَّته وتكفُّله بإرزاق خلقه، وأنَّ الادِّخار لاَ يزيد شَيْئًا مِنَ الرزق وَلاَ ينقصه، لأَنَّهَا تغدوا خِماصا وتروح بطانا، **﴿ا لله يرزقها وَإِيَّاكُم﴾** ثُمَّ إنَّها مَعَ ضعفها، وإيَّاكم مَعَ قوتكم واجتهادكم، وادِّخاركم وتهافتكم عَلَى جمع المال سواء فِي أنَّه لاَ يرزقها وإيَّاكم إلاَّ ا لله؛ لأَنَّ رزق الكلِّ بأسباب هُوَ المُسَبِّب لها وحده، فلا تخافوا عَلَى معاشكم إِذَا انقطعتم فِي الطاعة، **﴿وَهُوَ السميع العليم(٦٠)﴾**.

**﴿ولئن سألتهم مَن خلقَ السَّمَاوَات والأَرْض وسخَّر الشمسَ والقمر ليقولُنَّ ا لله، فأنَّى يؤفكُونَ(٦١)﴾**؟! يصرفون عَن توحيده بعد إِقْرَارهم بذلك. **﴿ا لله يبسط الرزق لِمَن يَشَاء مِن عباده ويقدِر لَهُ﴾** يحتمل أن يكون الموسَّع لَهُ والمضيَّق عليه واحدا، عَلَى أن البسط والقبض عَلَى التعاقب، **﴿إنَّ ا لله بِكُلِّ شيء عليم(٦٢)﴾** يعلم مَا تصلحون بِهِ وَمَا تفسدون.

**﴿ولئن سألتهم مَّن نَزَّلَ مِنَ السَّمَاء ماءً فأحيا بِهِ الأَرْض مِن بعدِ موتها ليقولُنَّ: ا لله﴾** معترفين بأنَّه الموجد للممكنات بأسرها: أصولها وفروعها؛ ثُمَّ إنَّهم يشركون بِهِ بعض مَخلوقاته، الذِي لاَ يقدر عَلَى شيء من ذَلِكَ، **﴿قل: الحمد لله﴾** عَلَى مَا عصمك مِن مثل هَذِهِ الضلالة، أو عَلَى

تصديقك وإظهار حجّتك، ﴿بَل أكثرهم لاَ يعقلُونَ(٦٣)﴾ فيناقضون، حيث يقرُّون بأنَّه المبدأ لِكُلِّ مَا عداه، ثُمَّ إنَّهم يشركون بِهِ الصنم.

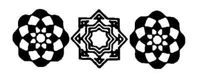
﴿وَمَا هَذِهِ الحياة الدُّنْيَا﴾ إشارة تحقير؛ وكيف لاَ وهي لاَ تزن عند ا لله جناحَ بعوضة، ﴿إلاَّ لهوٌ ولعبٌ﴾ إلاَّ كما يلهى ويلعب بِهِ الصبيان، يجتمعون عليه ويتهجون به ساعة، ثُمَّ يتفرَّقون مُتعبين بلا نفع، إلاَّ الذين آمنوا؛ واللهو: هو استمتاع بلذَّات الدنيا، واللعب: هو العبث، سمِّيت بها لأَنَّهَا فانية، ﴿وإنَّ الدارَ الآخِرَة لَهِيَ الحيوانُ﴾ دار الحياة الحقيقيَّة لامتناع زوالها، ﴿لو كَانُوا يَعْلَمُونَ(٦٤)﴾ فناء الدُّنْيَا ودوام الأخرى، لم يؤثروا عليها الدُّنْيَا التِي أصلها عدم الحياة فِيهَا، عارضة سريعة الزوال.

﴿فإذا رَكِبوا فِي الفلك﴾ وخافوا الغرق، ﴿دَعَوُا ا لله مُخلِصين لَهُ الدِّين﴾ كائنين فِي صورة مَن أخلص دينه مِنَ المؤمنين، حيث لاَ يذكرون إلاَّ ا لله، وَلاَ يدعون سواه، لعلمهم بأنَّه لاَ يكشف الشدائد إلاَّ هُوَ، ﴿فَلَمَّا نَجَّاهم إِلَى البرِّ إذَا هم يُشركُونَ(٦٥) ليكفروا بِمَا آتيناهم وليتمتَّعوا﴾ بالإشراك، ﴿فسوف يَعْلَمُونَ(٦٦)﴾ عاقبة ذَلِكَ.

﴿أوَلَمْ يَرَوا أنَّا جَعلنا حَرَما آمِنًا﴾ أي: جعلنا بلدهم مصونا عَن النهب [٤٥٣] والتعدِّي؛ آمنا أهله عَن القتل والسبي، (لَعَلَّهُ) وذلك مِمَّا يُنبِّههم ويذكِّرهم عَلَى جزيل نعمه، ﴿ويُتخطَّف الناسُ مِن حولهم﴾ يُختلسون قتلا ونهبا وسبيا. ﴿أفبالباطل﴾ أبَعد هَذِهِ النعمة المكشوفة وغيرها مِمَّا لاَ يقدر عليه إِلاَّ ا لله؛ بالأوثان أو الشيطان ﴿يُؤْمِنُونَ، وبنعمة ا لله يكفرُونَ(٦٧)﴾! حيث أشركوا بِهِ غيره.

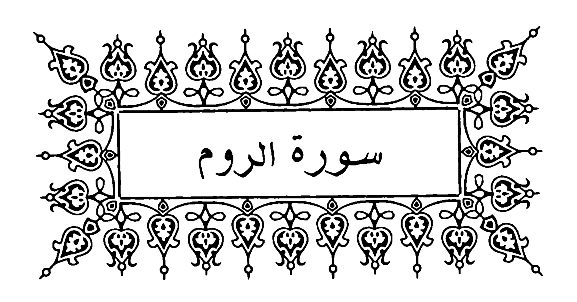
**﴿ومن أظلم مِمَّن افترى عَلَى ا لله كَذِبا﴾** بأن زعم لَهُ شريكا، بلسان مقاله، أو لسان حاله، **﴿أو كَذَّب بالْحَقِّ لَمَّا جاءه﴾** ردَّ حجَّة ا لله حين بلغته، من أيِّ حال كَانَت، **﴿أليس فِي جَهَنَّم مثوى للكَافِرِينَ(٦٨)﴾** تقرير لثوائهم؛ أي: ألم يعلموا أنَّ فِي جهنَّم مثوى للكَافِرِينَ حتَّى اجترأوا هَذِهِ الجرأة!.

**﴿وَالذِينَ جاهدوا فينا﴾** فِي حقِّنا، بأنفسهم وأموالهم ومُهجهم فِي إطلاق المجاهدة، ليعمَّ جهاد الأعادي الظاهرة والباطنة بأنواعه، **﴿لَنهدينَّهم سُبُلنا﴾** سبل السير إلينا؛ أو لنزيدنَّهم هداية إِلَى سبيل الخير، وتوفيقا لسلوكها، كقوله: ﴿وَالذِينَ اهتدوا زادهم هُدًى﴾[1]، وفي الحديث: «*من عمل بِمَا علم ورَّثه ا لله علم مَا لم يعلم*»[2]؛ وقيل: «إنَّ الذِي يرى من جهلنا بِمَا لاَ نعلم إِنَّمَا هُوَ من تقصيرنا فيما نعلم». **﴿وإنَّ ا لله لَمع المحسنِينَ(٦٩).﴾** بالنصرة والإعانة.



١ - سورة مُحَمَّد: ١٧.

٢ - لم نعثر عَلَيْهِ فيما بين أيدينا من المصادر، وقد تَقَدَّمَ نحوه فِي تفسير الآيَة ١٤ من سورة القصص.




بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم(١)، غُلِبتِ الروم(٢) فِي أدنى الأَرْض، وَهُم مِن بعدِ غَلَبهم سَيغلِبُونَ(٣) فِي بِضع سنين، لله الأمر مِن قبلُ ومِن بعدُ، ويَومئذ يَفرح المؤمنُونَ(٤) بنصر الله﴾ بإظهار دينه عَلَى سائر الأديان، ﴿ينصرُ مَن يَشَاء وَهُوَ العزيز الرحيم(٥) وَعْدَ الله لاَ يُخلف الله وعدَه﴾ أي: من وعده، بنصر أوليائه، وبخذل أعدائه، ﴿ولكنَّ أكثر الناس لاَ يَعْلَمُونَ(٦)﴾ وعده، لجهلهم، وعدم تفكيرهم. ﴿يَعْلَمُونَ ظاهرا مِنَ الحياة الدُّنْيَا﴾ يعني: أمر معايشهم، كيف يتَّجرون ويكتسبون، ومتى يَعرِشون ويحصدون، وكيف يبنون، وكيف سبقوا علماء الآخِرَة بهذه الأحوال، ولم يفهموا ما يُخلِّصهم من عذاب الله، لأَنَّهُ لم يهمَّهم؛ وكذلك لاَ يَعْلَمُونَ حقائق الدُّنْيَا، وَلاَ لِمَا خُلقت لَهُ، ﴿وَهُم عَن الآخِرَة﴾ التِي هِيَ غايتها، والمقصود منها، ﴿هم غافلُونَ(٧)﴾ تقريرًا لجهالتهم، وتشبيهًا لَهُم بالحيوانات المقصور إدراكها مِنَ الدُّنْيَا ببعض ظاهرها؛ فإنَّ مِنَ العلم بظاهرها معرفةُ حقائقها، وصفاتها، وخصائصها، وأفعالها، وأسبابها، وكيفيَّة صدورها منها، وكيفيَّة التصرُّف فِيهَا، ولذلك نَكَّرَ «ظَاهِرًا»؛ وأمَّا باطنها، فإنَّها مجاز إلى الآخِرَة، ووصلة

إِلَىَ نَيلِها، وأنموذج لأحوالها؛ وإشعارًا[1] بأنَّه لاَ فرق بين العدم والعلم الذِي يختصُّ بظاهر الدُّنْيَا؛ وكان فِي المعنى: بقدر إقبالهم عَلَى علم ظاهر الحياة الدُّنْيَا، إدبار مِنْهُم عَن علم الآخِرَة.

﴿أولم يَتفكَّرُوا فِي أنفسهم﴾ أو لم يُحدِثُوا التفكُّر فِيهَا؛ أو لم يتفكَّروا فِي أمر أنفسهم، فإنَّها أقرب إِلَيْهِم [٤٥٤] من غيرها، ومرآة يتجلَّى فِيهَا للمستبصر، مَا يتجلَّى لَهُ مِنَ الممكنات بأسرها، ليتحقَّق لَهُم قدرة مُبدِعها عَلَى إعادتها، لقُدرته عَلَى إبدائها، ﴿مَا خلق ا لله السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ وَمَا بينهما إلاَّ بِالْحَقِّ وأجلٍ مُسمًّى، وإنَّ كثيرًا مِنَ الناس بلقاء ربِّهم لَكَافِرُونَ(٨)﴾.

﴿أولم يسيروا فِي الأَرْض فينظروا كيف كَانَ عاقبة الذِينَ من قبلهم﴾ تقرير لسيرهم بأجسادهم؛ أو بالتفكير بقلوبهم فِي أقطار الأَرْض، ونظرهم إِلَىَ آثار المدمَّرين؛ أو إِلَىَ أخبارهم قبلهم، ﴿كَانُوا أشدَّ مِنْهُم قُوَّة، وأثاروا الأَرْضَ﴾ (لَعَلَّهُ) حرثوها، وقلبوا[2] وجهها لاستنباط المياه، واستخراج المعادن، وزرع البذور وغيرها، ﴿وعَمَرُوها أكثر مِمَّا عَمَرُوها﴾ وفيه تهكُّم بهم، من حيث إنَّهم مُغترُّون بالدُّنْيَا، مُفتخِرون بها؛ وَهُم أضعف حالا، وأقلُّ مالا وحيلة مِنَ الذِينَ سبقوا؛ ومدارُ أمرهم عَلَى التبسُّط فِي البلاد والتسلُّط عَلَى العباد، والتصرُّف فِي أقطار الأَرْض بأنواع العمارة؛ وهؤلاء ضعفاء مُلجؤون إِلَىَ واد لاَ نفع لها، ﴿وجاءتهم رُسُلهم بِالبَيِّنَاتِ فما كَانَ

---

١ - منصوب عَلَى أَنَّهُ معطوف عَلَى قوله من قبلُ: «تقريرًا لجهالتهم، وتشبيهًا...».

٢ - فِي الأصل: «وقبلوا»، وهو خطأ.

ا لله **لِيظلِمَهم﴾** لِيعاملهم معاملة مَن يريـد ظلمهـم، **﴿ولكـن كَـانُوا أنفسَـهم يَظلِمُونَ(٩)﴾** حيث عملوا مَا أدَّى إلىَ تدميرهم.

**﴿ثُمَّ كَانَ عاقبة الذِينَ أساءوا السُّوأى أن كَذَّبـوا بِـآيـَاتِ ا لله وكَـانُوا بها يستهزءُونَ(١٠)﴾** معناه: ثُمَّ كَانَ عاقبة الذِينَ اقترفوا الخطيئة أن طبع ا لله عَلَى قلوبهم، حتَّى كَذَّبوا الآيات واستهزؤوا بها.

**﴿ا لله يَبدَأُ الخلق ثُمَّ يُعيده ثُمَّ إِلَيْـهِ تُرجعُونَ(١١) ويـوم تقـوم السـاعةُ يُبلِس المجرمُونَ(١٢)﴾** يسكتون متحيـِّرين آيسين؛ يقال: ناظرته، فـأبلس: إِذَا سكت، وأيس من أن يَحتجَّ؛ وقيل: ييأس المجرم من كُلِّ خير. **﴿ولم يكن لَهُم من شركائهم﴾** مِمـَّن أشركوه با لله، **﴿شفعاء﴾** يُجيرونهم من عـذاب ا لله، **﴿وكَانُوا بشركائهم كَافِرِينَ(١٣)﴾** يكفرون بآلهتهم.

**﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتـفرَّقُونَ(١٤) فأمَّا الذِينَ آمنـوا وعملـوا الصالحات فَهُـم فِي روضـةٍ﴾** أرض ذات أزهـار وأنهـار، **﴿يُحبَرُونَ(١٥)﴾** يُسرُّون سرورا تهلَّلت لَهُ وجوههم. **﴿وَأَمَّا الذِينَ كَفَرُوا وكذَّبوا بِـآيـَاتِنا﴾** بِحُجَجنا **﴿ولقاء الآخِرَة فأولئك فِي العذاب مُحضَرُونَ(١٦)﴾**.

**﴿فسـبحانَ ا لله﴾** (لَعَلَّـهُ) فصلُّـوا لله **﴿حـين تُمسـون وحـين تُصبحُـونَ(١٧) وَلَـهُ الحمـد فِي السَّـمَاوَات والأَرْض، وعَشِيـًّا وحـين تُظهِرُونَ(١٨) يُخرِج الحيَّ مِنَ المَـيـِّت ويُخرِج المَـيـِّت مِنَ الحيِّ ويُحيـي الأَرْضَ بعدَ موتها وكذلك تُخرجُونَ(١٩) ومن آياته أن خَلَقَكم من تـرابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بشرٌ تـنـتـشِرُونَ(٢٠) ومن آياتـه أن خلـق لكـم مـن أنفسـكم**

**أزواجا لتسكنوا إِلَيْها﴾** لتميلوا إِلَيها، وتألفوا بها؛ فإنَّ الجنسيَّة علَّة للضمّ[1]، **﴿وجعل بينكم مودَّة ورحمة﴾** بواسطة الزواج، حال الشبق وغيرها، بخلاف سائر الحيوانات، نظما لأمر المعاش [٤٥٥] **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيات لقوم يتفكَّرُونَ(٢١)﴾** فيعلمون مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الحكم.

**﴿ومن آياته خَلقُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، واختلافُ ألسنتكم وألوانِكم﴾** وأنتم بنو رجل وَاحِد، وامرأة وَاحِدَة، **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيات للعالَمِينَ(٢٢)﴾** لاَ تكاد تَخفى عَلَى عاقل.

**﴿ومن آياته منامُكم بالليلِ وَالنَّهار وابتغاؤكم مِن فضله﴾** منامكم فِي الزمانين، لاستراحة القوى النفسانيَّة، وقوَّة القوى الطبيعيَّة، وطلب معاشكم فيهما؛ أو منامكُم بالليل وابتغاءكم بالنهار؛ وضمَّ بين الزمانين والفعلين بعاطفين، إشعارا بأنَّ كلاًّ مِنَ الزمانين وإن اختُصَّ بأحدهما، فهو صالح للآخر عند الحاجة؛ وتؤيِّده سائر الآيات الواردة فِيهِ، **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيات لقومٍ يسمعُونَ(٢٣)﴾** سماعَ تفهُّم واستبصار.

**﴿ومن آياته يُريكم البرقَ خوفا وطمعا، ويُنزِّل مِنَ السَّمَاء ماءً فيُحيِي بِهِ الأَرْضَ بعد موتها، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيات لقوم يعقلُونَ(٢٤)﴾** يستعملون

---

١ - توضيح العبارة عند أبي السعود: «...من جنسكم لا من جنس آخر... فَإِنَّ المجانسة من دواعي التضامِّ والتعارف، كما أنَّ المخالفة من أسباب التفرُّق والتنافر». أبو السعود: تفسير، مج٤/ ج٧/ ص٥٦.

عقولهم فِي استنباط أسبابها، وكيفيَّة تكوينها، ليظهر لَهُم كمال[1] قدرة الصانع وحكمته.

﴿ومن آياته أن تقوم السَّمَاء والأَرْض بأمره﴾ قيامهما بإقامته لهما، وإرادته لقيامهما، ﴿ثُمَّ إِذَا دعاكم دعوةً مِنَ الأَرْض إِذَا أَنتُم تَخرجُونَ(٢٥)﴾ والمراد: تشبيه سرعة ترتُّب حصول ذَلِكَ عَلَى تعلُّق إرادته بلا توقُّف واحتياج إِلَى تجشُّم عمل، بسرعة ترتُّب إجابة الداعي المطاع عَلَى دعائه.

﴿وَلَهُ من فِي السَّمَاوَات والأَرْض كُلٌّ لَهُ قانتُونَ(٢٦)﴾ منقادون لأمره ومشيئته، فَهُم لاَ يمتنعون عليه. ﴿وَهُوَ الذِي يَبدأ الخلقَ ثُمَّ يعيده وَهُوَ أَهونُ عليه﴾ بمعنى: هيِّنٌ عليه، وَمَا من شيء عليه بعزيز، ﴿وَلَهُ المثلُ﴾ الوصف العجيب الشأن، كالقدرة العامَّة، والحكومة التامَّة؛ ومَن فسَّره بقول «لاَ إله إِلاَّ الله» أَرَادَ بِهِ الوصف بالوحدانيَّة، دلالة ونطقا، ﴿الأعلَى﴾ الذِي ليس لغيره أن يساويه أو يُدانيه ﴿فِي السَّمَاوَات والأَرْض﴾ يصفه بِهِ مَا فيهما، ﴿وَهُوَ العزيز﴾ القادر الذِي لاَ يَعجز عَن إبداء ممكن وإعادته، ﴿الحكيم(٢٧)﴾ الذِي يُجري الأفعال عَلَى مُقتضى حكمته.

﴿ضربَ لكم مَّثَلا من أنفسكم﴾ مستخرجا من أحوالها التِي [هي] أقرب الأمور إليكم؛ معناه: بيَّن لكم شبها بحالكم ذَلِكَ المثل من أنفسكم، ثُمَّ بيَّن المثل فقال: ﴿هل لكم من مَا مَلَكَت أيمانكم﴾ من مَماليككم، ﴿من شركاءَ فِي مَا رزقناكم﴾؟ مِنَ الأموال وغيرها، ﴿فأنتم فِيهِ سواءٌ﴾ فتكونون

---

١ - في الأصل: «كما»، وهو خطأ.

أَنتُم وَهُم فِيهِ شرعٌ[1] سواء، تتصرَّفون فِيهِ كتصرُّفكم مَعَ أنَّهم بشر مثلكم، وأنَّها معارة لكم، ﴿تخافونهم﴾ أن يستبدُّوا بتصرُّف فِيهِ، ﴿كخيفتكم أنفسَكم﴾ كما يَخاف (لَعَلَّهُ) الحُرُّ شريكه الحُرَّ فِي المال يكون بينهما أن ينفرد بأمر دونه، وإذا لم ترضوا ذَلِكَ لأنفسكم، فكيف رضيتم أن تكون آلهتكم شُركائي فِي عبادتكم، وَهُم عبيدي؟!. ﴿كذلك﴾ مثل ذَلِكَ التفصيل ﴿نُفصِّل الآيات﴾ نبيِّنُها، فإنَّ التمثيل مِمَّا يكشف المعاني ويوضِّحها، ﴿لقوم [٤٥٦] يعقلُونَ(٢٨)﴾ يستعملون عقولهم فِي تدبُّر الأمثال.

﴿بَل اتَّبع الذِينَ ظلموا﴾ بالإشراك ﴿أهواءهم بغير عِلْم﴾ جاهلين لاَ يكفُّهم شيء، فإنَّ العالم إِذَا طمحت نفسه إِلَى هواها، رُبَّما ردعه عِلمُه، ﴿فمن يَهدي مَن أضلَّ الله﴾؟ فمن يقدر عَلَى هدايته؟، ﴿وَمَا لَهُم من نَّاصِرِينَ(٢٩)﴾ يُخلِّصونهم مِنَ الضلالة، ويحفظونهم من آفاتها.

﴿فَأَقِم وجهَك للدين حَنِيفا﴾ فقوِّمه لَهُ غير ملتفت؛ أو متلفِّت يمينا وشمالا؛ وَهُوَ تَمثيل الإقبال والاستقامة والاهتمام بِهِ، ﴿فطرةَ الله﴾ خلقته ﴿التِي فَطَرَ الناس عليها﴾ خلقهم عليها، وهي قبولهم للحقِّ، وتمكُّنهم من إدراكه؛ أو ملَّة الإسلام، كأنَّهم لو خلُّوا و مَا خلقوا عليه أدَّى بهم إِلَيْها؛ وقيل: العهد المأخوذ من آدم وذرِّيَّته؛ وقيل: فطرهم عَلَى معرفته، ﴿لاَ تبديلَ لخَلقِ الله﴾ لاَ ينبغي أن يُبدَّل. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إِلَى الدين المأمور بإقامة الوجه لَهُ، ﴿الدين القيِّم﴾ المستوي الذِي لاَ عِوَج فِيهِ، ﴿ولكنَّ أكثر الناس

---

١ - لَعَلَّ الصواب: - «شرع»، إذ يستقيم المَعْنَى بحذفه.

**لاَ يَعْلَمُونَ(٣٠)﴾** استقامته لعدم تدبُّرهم. **﴿مُنيبين إِلَيْهِ﴾** راجعين إِلَيْهِ؛ مِن أناب: إِذَا رجع مرَّة بعد أُخْرَى؛ وقيل: منقطعين إِلَيْهِ مِنَ النَّار، **﴿واتَّقُوه وأقيموا الصلاة وَلاَ تكونوا مِنَ المشركِينَ(٣١) مِنَ الذِينَ فرَّقوا دينَهم﴾** بدل مِنَ المشركين، وتفريقهم: اختلافهم فيما يعبدونه عَلَى اختلاف أهوائهم؛ وقرئ: «فارقوا»، بمعنى: تركوا دينهم الذِي أُمروا بِهِ **﴿وكَانُوا شِيَعا﴾** فرقا يُشايع كلٌّ إمامه، **﴿كلُّ حزب بِمَا لديهم فرِحُونَ(٣٢)﴾** مسرورين[1]، ظنًّا بأنَّه الحقُّ.

**﴿وإذا مسَّ الناس ضرٌّ دَعَوا ربَّهم مُنيبين إِلَيْهِ، ثُمَّ إِذَا أذاقهم مِّنْهُ رحمةً﴾** خلاصا من تلك الشدَّة، **﴿إِذَا فريق مِنْهُم برَبِّهِم يُشرِكُونَ(٣٣)﴾** فاجأ فريق مِنْهُم بالإشراك برَبِّهِم الذِي عافاهم. **﴿لِيَكفُروا بِمَا آتيناهم فتمتَّعوا فسوف تَعْلَمُونَ(٣٤)﴾** عاقبة تَمتُّعكم. **﴿أم أنزلنا عَلَيْهِم سُلطانا﴾** حجَّة **﴿فهو يتكلَّم﴾** دلالة، كقوله: **﴿هَذَا كتابنا ينطق عَلَيْكُم بالْحَقِّ﴾**[2]، **﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يشركُونَ(٣٥)﴾** بإشراكهم، وهذا قطع لعذر كُلٍّ من دخل فيما لاَ يعلم.

**﴿وإذا أذقنا الناس رحمةً﴾** نعمة **﴿فرحوا بها﴾** بَطِروا بسببها، واغترُّوا بها، **﴿وإن تُصبهم سيِّئةٌ﴾** شدَّةٌ، **﴿بِمَا قدَّمت أيديهم﴾** بشؤم معاصيهم، **﴿إِذَا هم يَقنطُونَ(٣٦)﴾** والقنوط من أمَّهات المعاصي، وَهُوَ ضدُّ الرجاء.

---

١ - لَعَلَّ الأصوب: «مسرورون».

٢ - سورة الجاثية: ٢٩.

﴿**أولم يَروا أنَّ ا لله يَبسطُ الرزق لِمَن يَشَاء ويَقدِر**﴾ فما لَهُم لم يشكروا، و لم يحسنوا فِي السرَّاء والضرَّاء كالمؤمنين؟! ﴿**إنَّ فِي ذَلِكَ لآيات لقوم يُؤْمِنُونَ(٣٧)**﴾ فيستدلُّون بها عَلَى كمال القدرة والحكمة؛ أو يتفكَّرون فِي حال مَن سبق وصفه.

﴿**فآتِ ذا القربى حقَّه والمسكينَ وابنَ السبيلِ، ذَلِكَ خيرٌ للذين يريدون وجهَ ا لله**﴾ أي: يقصدون بمعرفتهم [٤٥٧] إيَّاه خالصا، ﴿**وأولئك هُمُ المفلحُونَ(٣٨)**﴾ حيث حصلوا بِمَا بسط إِلَيْهِم النعيم المقيم.

﴿**وَمَا آتيتم من رِبًا**﴾ زيادة مُحرَّمة فِي المعاملة؛ أو عطيَّة يُتوقَّع بها مزيد مكافأة، ﴿**لِيَربُوَا فِي أموالِ الناس**﴾ ليزيد ويزكُوَ فِي أموال لَهُم، ﴿**فلا يَربُوا عند ا لله**﴾ فلا يزكُوا عنده، وَلاَ يُبارك فِيهِ، ﴿**وَمَا آتيتم من زكاة تريدون وجهَ ا لله**﴾ تبتغون بِهِ وجهه خالصا، ﴿**فأولئك هُمُ المُضعِفُونَ(٣٩)**﴾ ذوو الأضعاف مِنَ الثواب؛ أو الذِينَ ضعّفوا ثوابهم وأموالهم؛ والالتفات فِيهِ للتعظيم، كأنَّه خاطب بِهِ المَلاَئِكَة وخواصَّ الخلق، تعريفا لحالهم.

﴿**ا لله الذِي خلقكم ثُمَّ رزقكم، ثُمَّ يُميتكم، ثُمَّ يُحييكم**﴾ تَماما لحكمة خلقهم، ﴿**هل من شُركائكم مَن يفعل مِن ذَلكم مِن شَيْء**﴾؟ أثبت لَهُ لوازم الألوهيَّة ونفاها رأسا عمَّا اتَّخَذوه شركاء لَهُ مِنَ الأصنام وغيرها، مؤكّدا بالإنكار عَلَى مَا دلَّ عليه البرهان والعيان، ووقع عليه الوفاق؛ ثُمَّ استنتج من ذَلِكَ تقدُّسه أن يكونوا لَهُ شركاء، فقال: ﴿**سبحانه وتعالى عمَّا يُشركُونَ(٤٠)**﴾.

﴿ظَهَر الفسادُ فِي البرِّ والبحر﴾ كالجذب والنقص فِي الأموال، وكثرة الغرق، ومحق البركات، وكثرة المضارِّ؛ أو الضلالة والظلم، ﴿بِمَا كسبت أيدي الناس﴾ بشؤم معاصيهم، ﴿لِيُذِيقهم بعضَ الذِي عملوا﴾ بعض أجزائه، كما قَالَ: ﴿ويعفو عَن كثير﴾[1]. ﴿لعلّهم يرجعُونَ(٤١)﴾ عمَّا هم عليه.

﴿قل: سيروا فِي الأَرْض فانظروا كيف كَانَ عاقبة الذِينَ من قبلُ﴾ ليشاهدوا مِصداق ذَلِكَ، ويتحقّقوا صدقه، ﴿كَانَ أكثرهم مشركِينَ(٤٢)﴾ أيَّ شرك كَانَ. ﴿فأقم وجهك للدين القيِّم﴾ البليغ الاستقامة الذِي ليس بِهِ عوج، ﴿من قبلِ أن يأتي يوم لاَ مَرَدَّ لَهُ مِنَ الله يومئذ يصَّدَّعُونَ(٤٣)﴾ أي: يتفرَّقون، فريق فِي الجنّة، وفريق فِي السعير، كما قَالَ:

﴿مَن كفر فعليه كُفرُهُ﴾ جزاء كُفره، ﴿ومن عمل صالحا فلأنفسهم يَمهَدُونَ(٤٤)﴾ ينون منزلا فِي الجنّة، يمهَد أيَّ فراش أَرَادَ لنفسه قبل الوصول إِلَى التنعُّم بِهِ. ﴿ليجزيَ الذِينَ آمنوا وعملوا الصالحات من فضله﴾ الاقتصار عَلَى جزاء المؤمنين، للإشعار بأنَّه المقصود بالذّات، والاكتفاء، عَلَى فحوى قوله: ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ(٤٥)﴾ فإنَّ فِيهِ آيات البغض لَهُم، والمحبَّة للمؤمنين.

﴿ومن آياته أن يُرسِل الرياح مبشِّرات﴾ بالمطر، ﴿ولِيُذِيقَكم من رحمته﴾ بمعنى: المنافع التابعة للمطر وغيره، ﴿ولِتجريَ الفلكُ بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلَّكم تشكرُونَ(٤٦)﴾ ولتشكروا نعمة الله فِيهَا.

---

١ - سورة المائدة: ١٥. سورة الشورى: ٣٠، ٣٤.

**﴿وَلَقَد أرسلنا من قبلك رسلا إِلَىٰ قومهم فجاءوهم بِالبَيِّنَاتِ فانتقمنا مِنَ الذِينَ أجرموا﴾** بالهلاك، **﴿وكَانَ حقًّا علينا نصرُ المؤمنِينَ(٤٧)﴾** إشعارا بأنَّ الانتقام لَهُم، وإظهارا لكرامتهم، حيث جعلهم مُستحقِّين عَلَى ا لله أن ينصرهم، وعنه ﷺ: «*مَا من امرئ مسلم يردُّ عَن عِرض أخيه، إلاَّ كَانَ حقًّا عَلَى ا لله أن يردَّ عَنْهُ نار جهنَّم*»[1] ثُمَّ تلا ذَلِكَ. [٤٥٨]

**﴿ا لله الذِي يُرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فِي السَّمَاء كيف يَشَاء﴾** سائرا وواقفا، **﴿ويَجعله كِسَفا﴾** قطعا تارة أُخْرَى، **﴿فترى الودق﴾** المطر **﴿يَخرج من خلاله، فإذا أصاب بِهِ من يَشَاء من عباده﴾** يعني: بلادهم وأراضيهم، **﴿إِذَا هم يستبشرُونَ(٤٨)﴾** بِمجيء الخصب. **﴿وإن كَانُوا من قبل أن ينزَّل عليهم﴾** المطر، **﴿من قبله لَمُبلِسِينَ(٤٩)﴾** لآيِسين.

---

١ - رواه الترمذيُّ فِي كتاب البرِّ والصلة، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ بلفظ: ١٨٥٤ «مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ رَدَّ ا للهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». قَالَ: وَفِي الْبَاب عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ. قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. ورواه الإمام أحمد فِي مسند القبائل: رقم: ٢٦٢٦٠ و٢٦٢٦٤ بلفظ: «مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ كَانَ حَقًّا عَلَى ا للهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرُدَّ عَنْهُ نَارَ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». العالميَّة: موسوعة الحديث، مَادَّة البحث: «عرض أخيه».

وأورده السيوطي فِي الجامع الصغير بلفظ: «مَنْ ذَبَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ بِالغَيْبَةِ كَانَ حَقًّا عَلَى ا للهِ أَنْ يعْتِقَهُ مِنَ النَّارِ». وعزاه إِلَى أحمد والطبرانيِّ فِي الكبير، عن أسماء بنت يزيد. وقال الألبانيُّ: صحيح. انظر: حديث رقم ٦٢٤٠ فِي صحيح الجامع. وورد نحوه عند البيهقيِّ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ. برنامج سلسلة كنوز السنَّة.

﴿فانظر إِلَىٰ آثار رحمة ا لله﴾ أثر الغيث مِنَ النبات والأشجار، وأنواع الثمار والمنافع؛ ولذلك جُمع، ﴿كيف يُحيي الأَرْض بعد موتها إنَّ ذَلِكَ﴾ يعني: الذِي قدر عَلَى إحياء الأَرْض بعد موتها، ﴿لَمُحيي الموتى﴾ لقادر عَلَى إحياء أحيائهم، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شيء قدير(٥٠)﴾ لأَنَّ نسبة قدرته إِلَىٰ الممكنات عَلَى سواء.

﴿ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مُصفرًّا﴾ فرأوا الأثر والزرع؛ فإنَّه مَدلول عليه بِمَا تقدَّم؛ وقيل: السحاب، لأَنَّهُ إِذَا كَانَ مُصفرًّا لم يُمطر، ﴿لظلُّوا من بعده يكفرُونَ(٥١)﴾ جواب سدَّ مسدَّ الجزاء، ولذلك فسر بالاستقبال. وهذه الآيات ناعية عَلَى الكفَّار بِقِلَّة تثبُّتهم وعدم تدبُّرهم، وسرعة تزلزلهم لعدم تفكُّرهم وسوء رأيهم؛ فإنَّ النظر السويَّ يقتضي أن يَتَوَكَّلُوا عَلَى ا لله ويلتجئوا إِلَيْهِ بالاستغفار إِذَا احتبس القطر عَنْهُم، وَلاَ ييأسوا من رحمته، وَلاَ يفرطوا فِي الاستبشار؛ وأن يصبروا عَلَى بلائه إِذَا ضرب زروعهم بالاصفرار، وَلاَ يكفروا نعمه.

﴿فإنَّك لاَ تُسمع الموتى﴾ وَهُم مثلهم لمَّا سدُّوا عَن الحقِّ مشاعرَهم، ﴿وَلاَ تُسمع الصمَّ الدعاء إِذَا ولَّوا مدبرِينَ(٥٢)﴾ قيَّد الحكم بِهِ ليكون أشدَّ استحالة؛ فإنَّ الأصمَّ المقبل، وإن لم يسمع الكلام، يتفطَّن مِنْهُ بواسطة الحركات شيئًا. ﴿وَمَا أنتَ بهادي العمي عَن ضلالتهم﴾ سمَّاهم عميا لفقدهم المقصود الحقيقيَّ من الإبصار، أو لِعمى قلوبهم، ﴿إن تُسمع إلاَّ من يُؤْمِنُ بِآيَاتِنا﴾ فإنَّ إيمانهم يدعوهم إِلَىٰ تلقِّي اللفظ، وتدبُّر المعنى، ﴿فَهُم مُسْلِمُونَ(٥٣)﴾ منقادون لِمَا تأمرهم بِهِ.

﴿ا لله الذِي خلقكم مِن ضَعف﴾ أي: ابتدأكم ضعفاء، وجعل الضعف سائر أمركم، لقوله: ﴿وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفا﴾[1]. ﴿ثُمَّ جعل من بعدِ ضَعف قُوَّة﴾ وذلك إِذَا بلغتم الحلم، ﴿ثُمَّ جعل من بعد قوَّة ضَعفًا وشَيْبَةً، يخلُقُ مَا يَشَاء﴾ من ضعف وقوَّة وشيبة، ﴿وَهُوَ العليم القدير(٥٤)﴾ فإنَّ الترديد فِي الأحوال المختلفة مَعَ إمكَان غيره دَلِيل العلم.

﴿ويوم تقومُ الساعةُ﴾ القيامة، سُمِّيت بها لأَنَّهَا تقوم فِي آخر ساعة من ساعات الدُّنْيَا، ولأنَّها تقع بَغتة، وصارت عَلَما لها بالغلبة، كالكوكب للزَّهرة، ﴿يُقسم المجرمون مَا لَبثوا﴾ فِي الدُّنْيَا، أو فِي القبور، ﴿غيرَ ساعة﴾ استقلُّوا مدَّة لبثهم إضافة إِلَىَ مدَّة عذابهم فِي الآخِرَة؛ أو كما قَالَ: ﴿كأنَّ لم تَغنَ بالأمس﴾[2]، لأَنَّ الماضي لاَ شيء، ﴿كذلك﴾ مِثل ذَلِكَ الصرف عَن الصدق والتحقيق، ﴿كَانُوا يُؤفكُونَ(٥٥)﴾ يُصرفون فِي الدُّنْيَا والآخِرَة.

﴿وقال الذِينَ [٤٥٩] أُوتوا العلم والإيمانَ﴾ مِنَ المَلاَئِكَة والإنس: ﴿لَقَد لبثتم فِي كِتَاب ا لله﴾ فِي علمه واقتضائه؛ أو مَا كتبه لكم؛ أي: أوجبه، أو فِي اللَّوح أو القرآن، وَهُوَ قوله: ﴿ومِن ورائهم برزخ﴾[3] ﴿إِلَى يومِ البعث﴾ ردُّوا بذلك مَا قالوه وحلفوا عليه، ﴿فهذا يومُ البعثِ﴾ الذِي أنكرتموه ﴿ولكنَّكم كُنتُم لاَ تَعْلَمُونَ(٥٦)﴾ أنَّه حقٌّ لتفريطكم فِي النظر.

---

١ - سورة النساء: ٢٨.

٢ - سورة يونس: ٢٤.

٣ - سورة المؤمنون: ١٠٠.

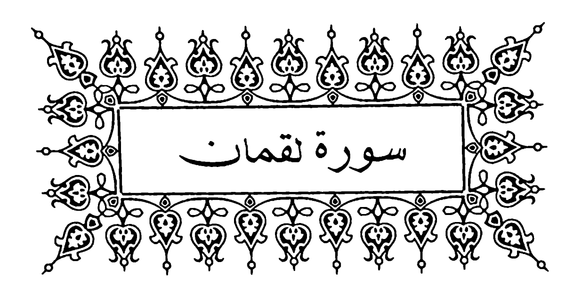
﴿فيومئذ لاَ ينفع الذِينَ ظلموا معذرتُهم وَلاَ هـم يُستَعتَـبُونَ(٥٧)﴾ لاَ يدعون إِلَىَ مَا يقتضي إعتابهم[1]، أي: إزالة عتبهم مِنَ التوبة والطَّاعة، كما دعوا إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا؛ مِن قولهم: استعتبني فلان فأعتبته، أي: استرضاني فأرضيته، وَمَا دام يُمكن الإيمان بالغيب، يمكن الاستعتاب ويقبل، لأَنَّهُ بمعنى التوبة؛ والتوبة لاَ تنفع إِذَا أتى اليقين.

﴿وَلَقَد ضرَبنَا للناس فِي هَذَا القرآنِ من كُلِّ مَثَل﴾ وَلَقَد وصفناهم فِيهِ بأنواع الصفات التِي هِيَ فِي الغرابة كالأمثال؛ مثل: صفة المنعوتين فيما يقولون وَمَا يُقال لَهُم، وَمَا لاَ يكون لَهُم مِنَ الانتفاع بالمعذرة والاستعتاب؛ فَمن آمن بِهِ آمن بالغيب؛ أو بَيَّنَّا لَهُم من كُلِّ مثل يُنبِّئهم عَلَى التوحيد والبعث وصدق الرَّسول، ﴿ولئن جئتَهم بِآيَةٍ﴾ من آيات القرآن ﴿لَيقولَنَّ الذِينَ كَفَرُوا﴾ من فرط عنادهم، وقساوة قلوبهم: ﴿إِن أَنتم﴾ يعني: الرسول والمؤمنين، ﴿إِلاَّ مُبطِلُونَ(٥٨)﴾ مزوِّرون.

﴿كذلك﴾ مثل ذَلِكَ الطبع، ﴿يطبعُ ا لله عَلَى قلوب الذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ(٥٩)﴾ لاَ يطلبون العلم، ويصرُّون عَلَى خرافات اعتقدوها؛ فإِنَّ الجهل المركَّب يمنع إدراك الحقِّ، ويوجب تكذيب المحقِّ. ﴿فاصبر﴾ عَلَى أذاهم، ﴿إِنَّ وعدَ ا لله﴾ بنصرتهم، وإظهار دينك عَلَى الدين كُلِّه ﴿حقٌّ﴾ لاَ بُدَّ من إنجازه ﴿وَلاَ يستخفنَّك﴾ ولا يحملنَّك عَلَى الخفَّة والقلق، فإنَّه لاَ يستخفُّ إلاَّ الخفيف الذِي ليس لَهُ فِي الدين إثبات. ﴿الذِينَ لاَ يوقنُونَ(٦٠)﴾ بتكذيبهم وإيذائهم، شاكُّون ضالُّون لاَ يستبدع مِنْهُم ذَلِكَ.

---

١ - فِي الأَصْلِ: «عتابهم»، ولا مَعْنَى له.




بسم الله الرحمن الرحيم

**﴿الم(١) تلك آياتُ الكتاب الحكيم(٢) هدى ورحمةً للمحسنِينَ(٣)﴾** لأَنـَّهُمْ هم المنتفعون به لا غير، **﴿الذِينَ يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وَهُم بالآخِرَة هم يوقنونَ(٤) أُولَئِكَ عَلَى هدى من ربـِّهم وأولئك هُمُ المفلحُونَ(٥)، ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾** مَا يُلهي عمـَّا يَعني، كالأحاديث التِي لاَ أصل لها، والأساطير التِي لا اعتبار فِيهَا، والمضاحيك، وفضول الكلام، وكلِّ مَا خرج إِلىَ مَعنَى التلهِّي (لَعَلَّهُ) معناه: استبدال الخوض والباطل بالقرآن وتأويله، **﴿لِيُضلَّ عَن سبيل الله﴾** دينه **﴿بغير عِلم﴾** بحال مَا يشتريه؛ أو بالتجارة، حيث استبدل اللهو بقراءة القرآن، **﴿ويتـَّخذها هُزُوًا﴾** يتـَّخذ السبيل سُخريـَّة، **﴿أُولَئِكَ لَهُم عذاب مُهِينٌ(٦)﴾** فِي الدارين، لإهانتهم الحَقَّ، باستئثار الباطل عليه.

**﴿وإذا تُتلى عليه آياتنا ولىَّ مُستكبرا﴾** متكبـِّرا عَن قبولها، لاَ يعبأ بها، **﴿كأن لم يَسمعها﴾** [٤٦٠] مشابها حاله حال من لم يسمعها، **﴿كأنَّ فِي أذنيه وقرًا﴾** مشابها من فِي أذنه ثقل لاَ يقدر أن يسمع؛ والوقر: ذهاب السمع كلِّه، **﴿فبشِّره بعذاب أليم(٧)﴾** أعلمه أنَّ العذاب يحتفه لاَ محالة.

﴿إِنَّ الذِينَ آمنوا وعملوا الصالحات لَهُم جَنَّات النعيم(٨)﴾ أي: لَهُم نعيم جنَّات، فعُكس للمبالغة. ﴿خالدين فِيهَا وعدَ ا لله حقًّا﴾ كائن فعله لاَ محالة، ﴿وَهُوَ العزيز﴾ الذِي لاَ يغلبه شيء يمنعه عَن إنجاز وعده ووعيده، ﴿الحكيم(٩)﴾ الذِي لاَ يفعل إِلاَّ مَا تستدعيه حكمته.

﴿خلق السَّمَاوَات بغير عَمَد تَرونها، وألقى فِي الأَرْض رواسي أن تَميد بكم، وبثَّ فِيهَا من كُلِّ دَابَّة، وأنزلنا مِنَ السَّمَاء ماء فأنبتنا فِيهَا من كُلِّ زوج كريم(١٠)﴾ من كُلِّ صنف كثير المنفعة؛ وكأنَّه استدلَّ بذلك عَلَى عزَّته التِي هِيَ كمال القدرة، وحكمته التِي هِيَ كمال العلم، ومهَّد بِهِ قاعدَة التوحيد، [و]قرَّرها بقوله:

﴿هَذَا خَلْق ا لله فَأَروني ماذا خَلَقَ الذِينَ مِن دونه﴾؟ هَذَا الذِي ذكر مخلوقه، فماذا خلق آلهتكم، حتَّى استحقُّوا مشاركته، ﴿بَل الظَّالِمُونَ فِي ضلال مُبِين(١١)﴾ إضراب عَن تبكيتهم، إِلىَ التسجيل عَلَيْهِم بالضلال الذِي لاَ يخفى عَلَى ناظر.

﴿وَلَقَد آتينا لقمانَ الحكمةَ﴾ الحكمة فِي عُرْف العلماء: استكمال النفس الإِنسَانِيَّة باقتباس العلوم النظريَّة، واستكمال الملكة التامَّة عَلَى الأفعال الفاضلة، عَلَى قدر طاقتها؛ وكلُّ من استكمل طاعة ا لله تعالى، واجتنب كبائر مَا نهي عَنْهُ، فقد أوتي الحكمة؛ وضدُّه [مَن] لم يبلغها و لم يؤتها، وتعبَّر الحكمة بالعقل والعلم (لَعَلَّهُ) والعمل والإصابة فِي الأمور. ومن حكمته أنَّه صحب داوود شهورا وكَانَ يسرد الدرع فلم يسأله عنها، فَلَمَّا أتمَّها

لبسها، وقال نِعم لَبوس الحرب أنت، فقال: «الصمت حكم، وقليلٌ فاعله»، وأنَّ داوود قَالَ لَهُ يوما: كيف أصبحت؟ فقال: «أصبحت فِي يد غيري»، فتفكَّر داوود فِي نفسه فصعق. وأنَّه أُمر أن يذبح شاة، ويأتي بأطيب مُضغتين منهَا؛ فأتى باللسان والقلب؛ ثُمَّ بعد أيَّام أمر [بأن] يأتي بأخبث مضغتين منها، فأتى بهما أَيْضًا؛ فسأله عَن ذَلِكَ فقال: «هما أطيب شيء إِذَا طابا، وأخبث شيء إِذَا خبثا». ﴿أن اشكر لله﴾ فإنَّ إيتاء الحكمة فِي مَعنَى القول، ﴿ومن يشكر فَإِنَّمَا يشكرُ لنفسه﴾ لأَنَّ نفعه عائد إِلَيْها وَهُوَ دوام النِّعمة، واستحقاق مزيدها، ﴿ومن كَفَر فإنَّ الله غنيٌّ﴾ لاَ يحتاج إِلَى الشكر، ﴿حميد(١٢)﴾ حقيق بالحمد وإن لم يُحمد، ومحمود نطق بحمده جميع مخلوقاته بلسان الحال.

﴿وإذ قَالَ لقمان لابنه وَهُوَ يعظه: يا بُنَيَّ لاَ تشرك بالله إنَّ الشرك لَظُلمٌ عظيم(١٣)﴾ لأَنَّ تسويته بين من لاَ نعمة إِلاَّ مِنْهُ، ومن لاَ [٤٦١] نعمة منه ظلمٌ بيِّن منافٍ للحكمة.

﴿ووصَّينا الإنسانَ بوالديه حملته أمُّه وهنا﴾ ذات وهن، ﴿عَلَى وهن﴾ أي: تضعف ضعفا فوق ضعف، فإنَّها لاَ يزال يتضاعف ضعفها، ﴿وفصاله﴾ وفطامه ﴿فِي عامين﴾ فِي انقضائهما، ﴿أن اشكر لي ولوالديك﴾ كأنَّه أمره بالشكر لَهُ عَلَى إيجاده، وبالشكر لوالديه عَلَى سبب إيجاده، وَإِنَّهُ من أخصّ النعم وأمَّهاتِها، إِذ لم يتوصَّل إِلَى النعم الدينيَّة والدُّنْيوية إِلاَّ به إِذَا شكر نعمة الإيجاد، وإن كفرها استحالت النِّعمةُ نقمةً، ﴿إِلَيَّ المصير(١٤)﴾ فأجازيك عَلَى شكرك أو كفرك.

﴿وإن جاهداك عَلَى أن تُشركَ بي﴾ أيَّ شرك كَانَ، شرك جحود، أو نفاق؛ وذلك يقتضي جميع مخالفة ا لله، فالتجاهد: بذل الوسع؛ ﴿مَا ليس لك بِهِ علم﴾ باستحقاقه الإشراك، تقليدا لهما؛ وقيل: أَرَادَ بنفي العلم بِهِ نفيه، ﴿فلا تُطعهما﴾ فِي ذَلِكَ، ﴿وصاحبهما فِي الدُّنْيَا معروفا﴾ صحابا معروفا يرتضيه الشرع، ويقتضيه الكرم، ﴿واتَّبع﴾ فِي الدين، ﴿سبيل مَن أنابَ إِلَيَّ﴾ بالتوحيد والإخلاص؛ ومعناه: دين من أقبل عَلَى طاعتي، ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مرجعكم، فأنبِّئكم بِمَا كُنتُم تَعْمَلُونَ(١٥)﴾ بأن أجازيك عَلَى إيمانك وتوحيدك، ومخالفتك لهما، وصحبتك إيَّاهما؛ وأجازيهما عَلَى شركهما ودعوتهما لك بالمعصية.

﴿يا بُنَيَّ إنَّهَا إن تكُ مثقالَ حَبَّة من خردل﴾ أي: أنَّ الخصلة مِنَ الإساءة أو الإحسان إن تكن مثلا فِي الصغر كحبَّة الخردل، ﴿فتكن فِي صخرة أو فِي السَّمَاوَات أو فِي الأَرْض﴾ فِي أخفى مكان وأحرزه، كجوف صخرة أو أعلاه، كمُحَدَّب السَّمَاوَات، أو أسفله كمُقَعَّر الأَرْض، ﴿يأت بها ا لله﴾ يُحضرها، فيحاسب ويجازى عليها، ﴿إنَّ ا لله لطيف﴾ يصل علمه إِلَى كُلِّ خفيٍّ؛ ﴿خبير(١٦)﴾ عالم بكنهه.

﴿يا بُنَيَّ أقم الصلاة﴾ تكميلا لنفسك، ﴿وأمر بالمعروف وانه عَن المنكر﴾ تكميلا لغيرك، ﴿واصبر عَلَى مَا أصابك﴾ مِنَ الشدائد، سيما فِي ذَلِكَ، ﴿إنَّ ذَلِكَ﴾ إشارة إِلَى الضمير، أو إِلَى كُلِّ مَا أمره، ﴿مِن عَزم الأمور(١٧)﴾ يجوز أن يكون بمعنى: الفاعل، من قوله: ﴿فإذا عَزَم الأمر﴾[1] أي: جدَّ، (لَعَلَّهُ) وفي موضع: أي الأمور الواجبة التِي أمر ا لله بها.

---

١ - سورة مُحَمَّد: ٢١.

﴿وَلاَ تُصعِّر خدَّك للنَّاس﴾ قيل: لاَ تُمِله وَلاَ تولِّهم صفحة وجهك كما يفعله المتكبِّرون؛ من الصَّعَر... [1] فيلوي عنقه؛ وهذا من حيث الصِّفة، وَأَمـَّا مـن حيث المـَعنـَى: فـالتوليِّ عَـن أداء حقوقهـم، والقطـع عَـن إيصـالهم، والاستخفاف بهم، ﴿وَلاَ تمش فِي الأَرْض مَرَحا﴾ أي: فرحـا، مصـدر وقـع موقع الحال؛ أو تمرح مرحا؛ أو لأجل المرح: وَهُوَ البطـر، ﴿إِنَّ ا لله لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُختال فخور(١٨)﴾ المختال للماشي مرحا.

﴿واقصد فِي مَشيك﴾ توسَّط فِيهِ بين الدبيـب والإسـراع. [٤٦٢] وعنـه ﷺ: «*سـرعة المشـي تذهـب بهـاء المؤمـن*»[2]، ﴿واغضـض مـن صوتـك﴾ وأنقـص مِنـْهُ وأقصـره، ﴿إِنَّ أنكـرَ الأصـوات﴾ أوحشـها، ﴿لَصَـوت الحمير(١٩)﴾ والحمار فِي الذمِّ سيما نهاقه، وكذلك يُكنَّى عَنـْهُ...[3]

﴿ألَـم تروا أنَّ ا لله سـخَّر لكـم مَّا فِي السَّمَاوَات﴾ بـأن جعلـه أسبابا محصِّلة لمنافعكم ﴿وَمَا فِي الأَرْض﴾ بأن مكَّنكم مِنَ الانتفاع بِـهِ بوسـط وغـير

---

١ - فِي العبارة نقص واضح، وتمامها عند أبي السعود: «من الصعر وَهُـوَ الصيـد، وَهُـوَ داء يصيب البعير فيلوي به عنقه». أبو السعود: تفسير، مج٤/ ج٧/ ص٧٣.

٢ - رواه أبو نعيم فِي الحلية عن أبي هريرة، والخطيـب البغـدادي فِي الجـامع والديلمـي فِي مسـند الفردوس عن ابن عمر، وابن النجـَّار عن ابن عَبـَّاس. برنامج سلسلة كنوز السـنَّة.

٣ - هنا وضع الناسخ إحالة إِلىَ الحاشية و لم يكتب فيهـا شَيْئـًا، والعبـارة غـير واضحـة، ونجـد توضيحها عند الزمخشريِّ حيث يقول: «والحمـار مَثَل فِي الـذمِّ البليـغ والشـتيمة، وَكَذَلِـكَ نهاقه، ومن استفحاشهم لذكره مُجَرَّدا وتفاديهم من اسمه: أَنـَّهُم يكنُّون به، ويرغبـون عـن التصريح به فيقولون: الطويل الأذنين...». الزمخشري: الكشَّاف، ٣٩٣/٣.

وسط، ﴿**وأسبغ عَلَيْكُم نِعَمَه**﴾ الإسباغ: بمعنى العموم، كما قَالَ: ﴿وما بكم مِّن نِّعمةٍ فَمِنَ ا للهِ﴾[1] وذلك يَعُمُّ الإيجاد والإمداد وجلبَ المنافع، ﴿**ظاهرةً وباطنةً**﴾ محسوسة ومعقولة، مَا تعرفونه وَمَا لاَ تعرفونه، ﴿**ومن الناس من يُجادل فِي ا للهِ**﴾ فِي صفاته وتوحيده ﴿**بغير علم**﴾ مستفاد من دليلٍ، ﴿**وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ منيرٍ(٢٠)**﴾ أنزله ا لله، بَل بالتقليد كما قَالَ:

﴿**وإذا قيل لَهُم: اتَّبعوا مَا أنزل ا لله، قَالُوا: بَل نتَّبع مَا وجدنا عليه آباءنا**﴾ وَهُوَ منع صريح مِنَ التقليد فِي الأصول، واتِّباع الآباء محبوب فِي القلوب بالطباع، مهما توافقت الطباع، إلاَّ مَا نهت عَنْهُ خشية ا لله، ﴿**أَوَلو كَانَ الشيطانُ يدعوهم إِلَى عذابِ السعير(٢١)**﴾ إِلَى مَا يؤول إِلَيْهِ الإشراك.

﴿**ومن يُسلم وجهه إِلَى ا للهِ**﴾ وذلك يتضمَّن مَعنَى الإذعان والانقياد والإخلاص لله، دون التعالي عليه، والمخالفة لأمره؛ ومعناه: يخلصْ دينه لله، (لَعَلَّهُ) ويفوِّض أمره لَهُ[2]، ﴿**وَهُوَ مُحسن**﴾ فِي عمله، ﴿**فقد استمسك بالعروة الوُثقَى**﴾ تعلَّق بأوثق مَا يُتعلَّق بِهِ، وَهُوَ تَمثيل للمتوكِّل المشتغل بالطاعة بمن أَرَادَ أن يترقَّى شاهق جبل، فتمسَّك بأوثق عُرى الحبل المتدلِّي مِنْهُ، ويُحتمل لَهُ فِيهِ مَثل آخر، وَهُوَ قد تَحصَّن بعروة التوحيد عَن الإشراك با لله، ﴿**وإلى ا لله عَاقبةُ الأمور(٢٢)**﴾ أمور الفريقين إذ الكلُّ صائر إِلَيْهِ.

---

١ - سورة النحل: ٥٣.

٢ - فِي الأصْلِ: «أمره إِلَيْهِ له».

﴿**وَمَن كَفَر فلا يَحزُنك كُفرُه**﴾ إذ ليس موكول إليك كُفره، وَلاَ يضرُّك فِي الدارين، ﴿**إلينا مرجعهم فننبِّئهم بِمَا عملوا**﴾ بالإهلاك والتعذيب، ﴿**إنَّ ا لله عليم بذات الصدور(٢٣)**﴾ بعقائدها.

﴿**نُمتِّعهم قليلا**﴾ تَمتيعا أو زمانا قليلا، فإنَّ مَا يزول بالنسبة إِلىَ مَا يدوم قليل؛ أي: نُمهِّلهم ليتمتَّعوا بنَعِيم العاجلة، ﴿**ثُمَّ نضطرُّهم إِلىَ عذاب غليظ(٢٤)**﴾ بِثقل الأجرام الغلاظ؛ أو يضمُّ إِلىَ الإحراق الضغط.

﴿**ولئن سألتهم مَن خَلَق السَّمَاوَات والأَرْض ليقولنَّ ا لله**﴾ لوضوح الدليل المانع من إسناد الخلق إِلىَ غيره، بحيث اضطرُّوا إِلىَ إذعانه، ﴿**قل: الحمد لله**﴾ عَلَى إلزامهم، وإلجائهم إِلىَ الاعتراف بِمَا يوجب بطلان معتقدهم، ﴿**بَل أكثرهم لاَ يَعْلَمُونَ(٢٥)**﴾

﴿**لله مَا فِي السَّمَاوَات والأَرْض**﴾ لا يستحقُّ العبادة فيهما غيره، ﴿**إنَّ ا لله هُوَ الغنيُّ**﴾ عَن حمد الحامدين، ﴿**الحميد(٢٦)**﴾ المستحقُّ للحمد، وإن لم يُحمد.

﴿**ولو أنَّمَا فِي الأَرْض من شجرةٍ أقلامٌ**﴾ ولو ثبت كون الأشجار أقلاما، ﴿**والبحرُ يَمُدُّه من بعده سبعةُ أبحُرٍ مَا نَفِدت كلماتُ ا لله**﴾ [٤٦٣] تكتبها تلك الأقلام وبذلك المداد؛ وإيثار جمع القِلَّة، للإشعار بأنَّ ذَلِكَ لاَ يَفِي بالقليل فكيف بالكثير؟، ﴿**إنَّ ا لله عزيز**﴾ لاَ يُعجزه شيء، ﴿**حكيم(٢٧)**﴾ لا يخرج عَن علمه وحكمه أمر. والآية ـــ قيل ـــ جواب

لليهود، سألوا رسول ا لله عَن قوله: ﴿وَمَا أوتيتم مِّنَ العلم إِلاَّ قليلا﴾[1]، وَلَقَد أنزل التَّوْرَاة وفيها علم كلّ شيء.

﴿مَا خَلْقُكم وَلاَ بَعْثُكم إِلاَّ كنفسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلاَّ كخلقها وبعثها، إذ لا يشغله شأن عَن شأن، لأَنَّهُ يكفي لوجود الكلّ تَعلُّق إرادته الواجبة مَعَ قدرته الذاتيَّة، كما قَالَ: ﴿إِنَّمَا قولُنا لشيءٍ إِذَا أردناه أن نَّقول لَهُ كُن فيكون﴾[2]، ﴿إِنَّ ا لله سَميع﴾ يسمع كلَّ مسموع، ﴿بصير(٢٨)﴾ يبصر كلَّ مبصَر، لا يشغله إدراك بعضها عَن بعض، فكذلك الخلق والبعث.

﴿أَلَم تَرَ أَنَّ ا لله يولِجُ اللَّيْل فِي النَّهَار، ويولج النَّهَار فِي اللَّيْل وسخَّر الشمس والقمرَ كُلٌّ﴾ مِنَ النيِّرين ﴿يَجري﴾ فِي فَلَكه ﴿إِلَى أجل مُسَمًّى﴾ إِلَى منتهى معلوم، الشمس إِلَى آخر السنَّة، والقمر إِلَى آخر الشهر؛ وقيل: إِلَى يوم القيامة، ﴿وأنَّ ا لله بِمَا تَعْمَلُونَ خبير(٢٩)﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إِلَى الذى ذكر من سعة العلم، وشمول القدرة، وعجائب الصنع، واختصاص الباري بها، ﴿بِأنَّ ا لله هُوَ الحقُّ﴾ بسبب هُوَ الثابت فِي ذاته[3]، الثابتة إلهيَّته؛ معناه أي: ذَلِكَ الذِي ذكرت، ليعلموا أنَّ ا لله هُوَ الحقُّ،

١ - سورة الإسراء: ٨٥.

٢ - سورة النحل: ٤٠.

٣ - توضيح العبارة عند الزمخشريّ: «بسبب أنَّهُ هو الحقُّ الثابت إلهيَّته»، وعند أبي السعود: «أي بسبب بيان أنَّهُ تَعَالَى هو الحقُّ إلهيَّته». الزمخشري: الكشَّاف، ٢٩٦/٣. أبو السعود: تفسير، مج٤/ ج٧/ ص٧٦.

﴿**وأنَّ مَا تدعون من دونه**﴾ هُوَ ﴿**الباطل**﴾ المعدوم فِي حدِّ ذاته، لا يوجَد وَلاَ يتَّصف إِلاَّ بجعله[1]؛ أو الباطل إلهيَّته، ﴿**وأنَّ ا لله هُوَ العليُّ الكبير(٣٠)**﴾ متعالٍ عَن كلِّ شيء، وقادرٌ عَلَى كُلِّ شيء.

﴿**الم تر أنَّ الفلكَ تَجري فِي البحر**[2] **بنعمة ا لله**﴾ بفضله وتفضُّله عَلَى خلقه، فِي تهيئة أسبابه؛ وَهُوَ استشهادٌ آخر عَلَى باهر قدرته، وكمال حكمته، وشمول إنعامه، ﴿**ليريَكم مِن آياته**﴾ ودلائله، ﴿**إنَّ فِي ذَلِكَ لآيات لِكُلِّ صبَّار**﴾ عَلَى المشاقِّ؛ فينصب نفسه بالتفكُّر فِي الآفاق والأنفس، ﴿**شكور(٣١)**﴾ يعرف النعم، ويتعرَّف مانِحها؛ أو الْمُؤْمِنِينَ، فإنَّ الإيمان نصفان، نصف صبر، ونصف شكر.

﴿**وإذا غشيَهم**﴾ علاهم وغطَّاهم ﴿**موجٌ كالظُّلل**﴾ كما يظلُّ من جبل، أو من سحاب، أو غيرها، ﴿**دَعَوُا ا لله مُخلصين لَهُ الدين**﴾ لزوال الهوى والتقليد عَن الفطرة بمَا دهاهم، إِلَى الخوف الظاهر الشديد، ﴿**فَلَمَّا نجَّاهم إِلَى البَرِّ فمنهم مُّقتصد**﴾ مقيم عَلَى طريق القصد الذِي هُوَ التوحيد، ﴿**وَمَا يَجحد بآيَاتِنا إِلاَّ كُلُّ ختَّار**﴾ غدَّار؛ فإنَّه نقضٌ للعهد الفطريِّ؛ وقيل: الختر: أشدُّ الغدر، ﴿**كفور(٣٢)**﴾ للنعم.

﴿**يَا أَيُّهَا الناس اتَّقُوا رَبَّكُم واخشَوْا يوما لاَ يَجزي والِدٌ عَن وَلَدِه**﴾ لاَ يقضي عَنْهُ، أو لا يغني عَنْهُ؛ ومعناه: كلُّ امرئ تهمُّه نفسه، ﴿**وَلاَ مولود هُوَ جازٍ عَن والده شَيْئًا، إنَّ وعدَ ا لله**﴾ بالثواب والعقاب، ﴿**حقٌّ**﴾ لاَ يُمكن

---

١ - أي أنَّ ما سوى ا لله تَعَالَى ليس موجودا بذاته وَإِنَّمَا بخلق ا لله وإيجاده، وجعله كيفما شاء.

٢ - فِي الأصل: - «فِي البحر»، وهو سهو.

خلفه، ﴿فلا تَغُرَّنَّكم الحياةُ الدُّنيَا، وَلاَ يَغرَّنَّكم با لله الغَرورُ(٣٣)﴾ الشيطان، بأن يرجيكم الرحمة والمغفرة والجنّة مَعَ الإصرار [٤٦٤] فيجرّكم عَلَى المعاصي، والغرور با لله [هو] الذِي أهلك عامَّة الهالكين.

﴿إِنَّ ا لله عنده علم الساعة﴾ عِلْم وقت قيامها، ﴿وينزِّل الغيثَ﴾ فِي إبَّانه المقدَّر لَهُ، والمحلِّ المعيَّن، ﴿ويعلم مَا فِي الأرحام، وَمَا تدري نفْسٌ ماذا تكسِبُ غدًا﴾ من خير أو شرٍّ، وربَّما يعزم عَلَى الشيء ويفعل خلافه، ﴿وَمَا تدري نفس بأيِّ أرض تَموتُ﴾ كما لا تدري فِي أيِّ أرض تموت. روي أنَّ ملك الموت مرَّ عَلَى سليمان، فجعل ينظر إِلَى رجل من جلسائه؛ فقال الرجل: مَن هَذَا؟ قَالَ : مَلَك الموت، فقال: كأنَّه يُريدني، فمُر الريح أن تَحملني وتلقيني بالهند، ففعل؛ فقال المَلَك: كَانَ دوام نظري إِلَيْهِ تعجُّبا، إذ أُمرت أن أقبض روحه بالهند وَهُوَ عندك.

وإنَّما جَعل العلمَ لله والدرايةَ للعبد، لأَنَّ فِيهَا معنى الحيلة، فيشعر بالفرق[1] بين العِلْمين؛ ويدلُّ عَلَى أنَّه إِذَا عمل حيلة، وأنفد فِيهَا وسعه، لم يعرف ما هو الحَقُّ بِهِ من كسبه وعاقبته، فكيف بغيره مِمَّا لم ينصب لَهُ دليلا عليه؛ وَأَمَّا مَا نصب عليه الدليل، وقصَّر هُوَ فِي الحيلة[2] فِي استخراجه مِن مظانِّه، فذاك الذِي عليه اللّوم واقع.

﴿إِنَّ ا لله عليم﴾ بالأشياء كلِّها بلا واسطة، ﴿خبير(٣٤)﴾ يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها.

❁❁❁

١ - فِي الأَصْلِ: «يشعر فِي العرق»، ولا مَعْنَى له.

٢ - فِي الأَصْلِ: «في الحلية... من مضانه»؛ وفيها خطآن.

تَمَّ بحمد اللّه وحُسن عونه الجُزء الثاني من " التفسير المُيسر للقُرآن الكريم " ، ويليه الجُزء الثالث بحول اللّه ، ويبدأ بتفسير سُورَة السَّجْدَة .

# فهرس الجُزء الثاني

رقم الإيداع: ٣١/١٩٩٨م